

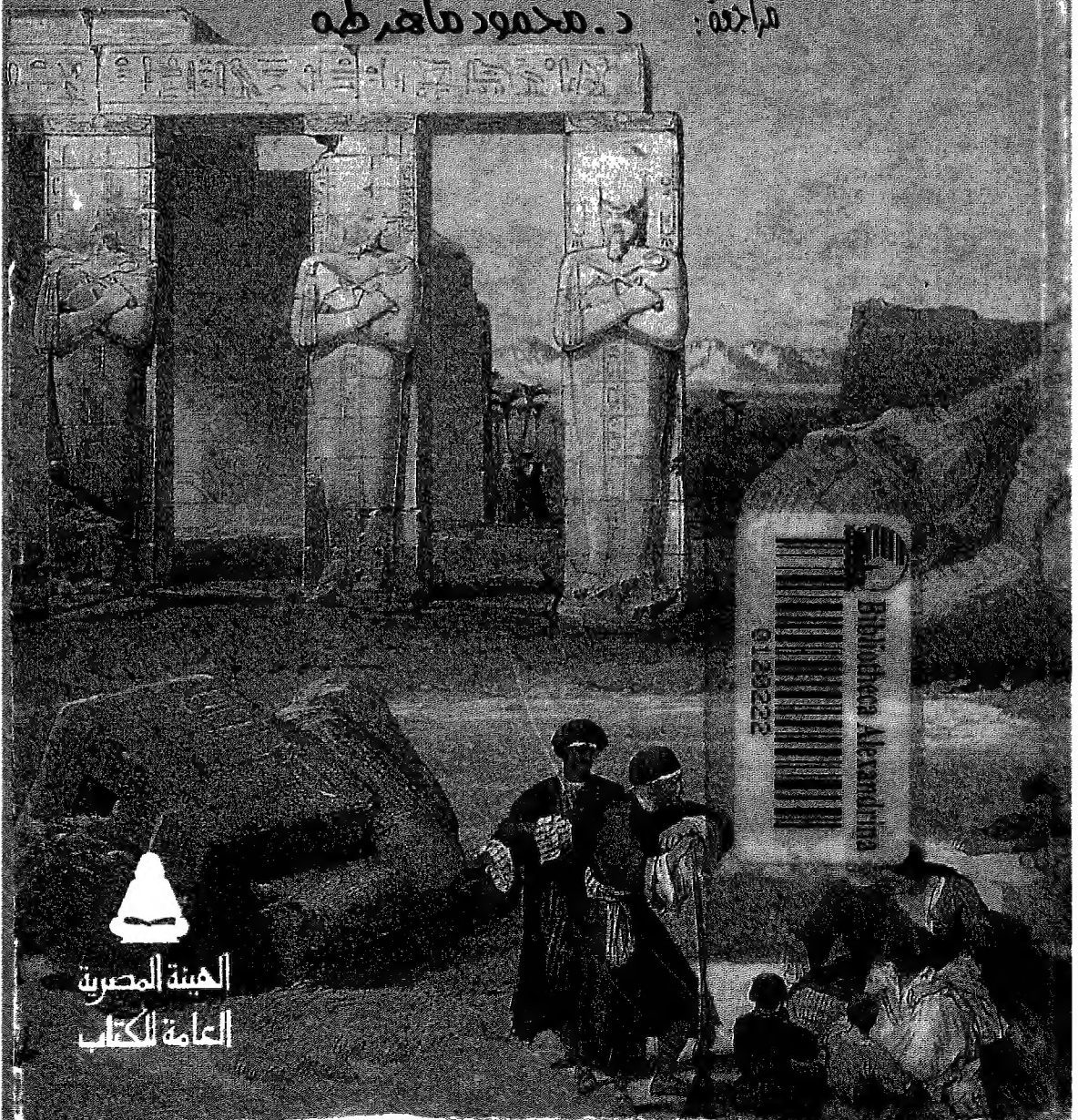
الألف
كتاب
الشاف
٢٨٠

إميليا إدواردز

رحلة الألف ميل

ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم

مراجعة: د. محمود ماهر طه



الهيئة المصرية
العامّة للكتاب

رَحْلَةُ الْآلِفِ مِيلٍ

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الإشراف العام
الدكتور/ سمير سرخان
رئيسة جامعة الإداة

رئيسة التحرير
أحمد صليحة

مكتبة التحرير
عزت محمد العنيز

الإشراف الفني والغلاف
محمدة عطية

رَحْلَةُ الْأَلْفِ مِيلَ

تأليف
إميليا إدواردز

ترجمة
إبراهيم سلامة إبراهيم

مراجعة
د. محمود ماهر طه



المكتبة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

A THOUSAND MILES UP THE NILE

By : Amelia B. Edwards

Pub : Oxford, Clarendon Press, London.

First ed : 1877. Second ed : 1888.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تسدير	٧
مقدمة الطبعة الثانية	٩
مقدمة الطبعة الاولى	١٠
المقدمة	١٩
الفصل الاول	
القاهرة والهرم الاكبر	٢٣
الفصل الثاني	
القاهرة والحج الى مكة	٤١
الفصل الثالث	
من القاهرة الى البدرشين	٥٩
الفصل الرابع	
سقارة ومنف	٧١
الفصل الخامس	
من البدرشين الى المنيا	٩٤
الفصل السادس	
من المنيا الى اسيوط	١١٤
الفصل السابع	
من اسيوط الى دندرة	١٣٣
الفصل الثامن	
طيبة والكركك	١٥٩
الفصل التاسع	
من طيبة الى اسوان	١٨١

الصفحة	الموضوع
	الفصل العاشر
٢٠٠	اسوان والفنتين
	الفصل الحادى عشر
٢٢١	الشلال والصحراء
	الفصل الثانى عشر
٢٣٣	فيلة
	الفصل الثالث عشر
٢٥٩	من فيله الى كوروسكو
	الفصل الرابع عشر
٢٧٠	من كوروسكو الى أبى سنبل
	الفصل الخامس عشر
٢٨٨	رمسيس الاكبر
	الفصل السادس عشر
٣١١	أبو سنبل
	الفصل السابع عشر
٣٤٠	الشلال الثانى
	الفصل الثامن عشر
٣٥٤	الاكتشافات فى (أبو سنبل)
	الفصل التاسع عشر
٣٨٤	العودة من خلال أراضى النوبة
	الفصل العشرون
٤٢٣	السلسلة وانقر
	الفصل الحادى والعشرون
٤٤٢	طيبة
	الفصل الثانى والعشرون
٥٠٠	أييدوس والقاهرة
٥٢٨	الملاحق

تصديير

كم أدهشتني هذه السيدة الانجليزية المتوسطة العمر اميليا ب . ادواردز ، تلك التي جاءت الى مصر بهدف السياحة ، ولكن ما شاهدته اغراها منذ البداية بتحويل الرحلة من مجرد السياحة العابرة الى الدراسة المتعمقة .

ان هذه السيدة نموذج مضى عليه مائة وعشرون عاما ، ولكننا نرى فيه حداثة ماثلة تجعلنا نقدمه للمرأة المصرية التي تعيش السنوات الاخيرة من القرن العشرين وتبحث لنفسها عن دور أكبر تقوم به فى خدمة بلدها مصر . لقد خاطرت هذه السيدة بالقيام بالرحلة عبر النيل ذهابا وعودة فى مركب ، وعرضت نفسها للكثير من مخاطر الملاحة النهرية والتعامل مع العديد من النماذج الانسانية الغريبة عنها أصلا ولغة ، ولكنها فى جميع الأحوال اجتازت الرحلة بسلام ، وقد حرصت على الاستفادة من كل لحظة زمن بتدوين كل صغيرة وكبيرة عن النيل والأرض والانسان المصرى الذى عاش فى أيام الخديو اسماعيل ذلك الحاكم الطموح الذى حاول أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

ان صورة مصر عند هذه السيدة عينة عظيمة لدراسة عميقة قلمتها المؤلفة بالانجليزية للأوربيين وها نحن ننقلها بالعربية لأصحاب البلد من المصريين ولكل قارئ بالعربية ليتعرف أكثر الى تاريخ هذا الجزء من الوطن العربى الذى يقود الأمة العربية .

ان الحضارة التى أقامها أجدادنا منذ خمسة آلاف عام تشهد بتقدمهم العجيب فى علوم الطب والهندسة والعمارة وكيمياء الألوان ، ووسائل قطع الصخور ونقلها دون توفر وسائل النقل القادرة على تحمل ثقل عشرات الأطنان . ثم استخدام هذه الصخور فى اقامة المعابد والصور الضخمة دون توفر الروافع أو الأوناش ، ثم نقش عمائرهم بنقوش بارزة أو غائرة زاهية الألوان تعيش لامعة حتى اليوم فوق الجوانب والسقوف

الصلبة التي قاومت عواذى الأيام ٠٠٠ ليست هذه هي بواكير التاريخ
المصرى وبداياته الزاهية التي نفاخر بها الآن وسنظل نفاخر بها على مدى
الأيام ؟ ان التكنولوجيا الحديثة تقف عاجزة أمام التقسم العلمى المذهل
الذى حققه أجدادنا العظام ، فلا هي بقادرة على مجاراته ، ولا تستطيع
حتى فهم أسرارهِ ، رغم المحاولات المستمرة لاكتشاف النظريات الخفية
أو الامكانات السرية التى حقق بها أجدادنا هذه المعجزات .

وليس هذا هو كل ما يتضمنه الكتاب لأنه يقدم للقارىء صورة
صادقة وأمينه لمصر التى شاهدها المؤلفة على الطبيعة وعاشت أهلها
وتعاملت معهم ببساطة وحب وإعجاب ، متضمنة التفاصيل الدقيقة عن
الحياة اليومية خاصة فى قلب القاهرة القديمة (الموسكى) وما حوله من
أحياء ٠٠٠ وجعلتنا نتذكر احتفالات سفر المحمل الى مكة ٠٠٠ وما كانت
تجرى به الاحتفالات فى الأعياد والمناسبات والأفراح .

وفى النهاية لا يسعنا الا احترام هذه السيدة النبيلة وامتداح جهدها
المشكور . ولا يفوتنا أن ننوه هنا بالجهد الكبير الذى بذله الأستاذ الدكتور
محمود ماهر فى مراجعة هذه الترجمة وضبط عباراتها وإضافة العديد من
الملحوظات التى جعلتها تظهر بهذه الصورة المشرفة .

ابراهيم سلامة ابراهيم
القاهرة فى ١٥ يناير ١٩٩٦

مقدمة الطبعة الانجليزية الثانية

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٧٧ ونفذت
طبعته منذ سنوات عديدة . ولذلك راجعته وأعدت طبعه
من جديد بضمن أرخص . وأثناء مراجعته قمت بتصحيح
بعض التعليقات التاريخية في ضوء الاكتشافات الأخيرة ،
ولكنني تركت الأسلوب الروائي دون المساس به . ولم
أدون أية ملحوظة عن التغييرات السياسية التي جرت
على أرض مصر (*) منذ كتابة هذا الكتاب . ونظرا لأنني
لا أقدم نفسي كمرشدة للآخرين فأنني لا أورد شيئا عن
الأحوال المتغيرة التي يخضع لها غالبية الرحالة الذين
يقومون بهذه الرحلة الآن عبر نهر النيل . وستكون
هذه الأشياء أكثر امتاعا وأكثر عملية عند دراستها من
خلال الصفحات التي دونها بيدىكر وموراى .

أميليا ب . ادواردز
وستبرى - أون - تريم
أكتوبر ١٨٨٨

(*) تقصد بذلك الاجتلال البريطانى لمصر - (المترجم)

مقدمة الطبعة الانجليزية الأولى

يتم جزء من الرحلة في مصر على ظهر حمار ، ثم يقوم المسافر بنزلة بحرية في مركب بين خرائب الآثار .

• (أمبير)

عندما أوجز أمبير الحديث عن مصر في عبارة ساخرة « ركوب حمار ورحلة في قارب خلال الخرائب » ، فإنه في الحقيقة قد أوجز في سطر واحد التجربة الكاملة للرحلة عبر نور النيل . أما بخصوص هذه الأشياء الثلاثة - الحمار ، والقارب ، والخرائب - فيمكن القول بأن الحصول على سرج انجليزى جيد الصنع ، وباخرة نيلية مريحة (ذهبية) يضيفان الكثير الى بهجة الرحلة ، وأنه كلما عرف المرء الكثير عن التاريخ الماضى لهذا البلد نانه يستمتع أكثر بهذه الخرائب .

ولا أتعرض للحديث عن المميزات النسبية للمراكب الخشبية ، والمراكب الحديدية ، والسفن البخارية ، ولكننا على أية حال شاهدنا ذهبية مصنوعة من الحديد راسية على ضفة رمالية ، حيث علمنا فيما بعد أنها بقيت هناك لمدة ثلاثة أسابيع . وراينا أيضا حطام ثلاث سفن بخارية ما بين القاهرة والسلال الأول . ومن المؤكد أنه بدا لنا أن الذهبية الخشبية عتيقة الطراز ، عريضة القاع ، تسحب القليل من الماء ، وهى خفيفة الوزن بحيث يسهل جذبها عند جنوحها ، وهى أفضل ما صنع من المراكب للملاحة في النيل . وبالطبع فإن هناك اعتبارات أخرى تدخل في هذه المسألة مثل الزمن والتكلفة . ويعتبر الاختيار بين الذهبية والسفينة البخارية ، شبيهاً بالاختيار بين السفر على خيول البريد ، والسفر بالسكة الحديد ، لأن أحدهما مرتفع التكلفة ، ويمضى على مهل ، ويشير البهجة ، بينما الآخر رخيص وسريع وغير مريح نسبياً . وبلعون شك فإن هؤلاء الذين يرتضون المقاء نظرة خاطفة على النيل سيفضلون السفينة البخارية . ويجدر بى أن أضيف أنه التكلفة الكلية للرحلة من فيلة إلى فيندق كبركات

بما فيها الطعام وأجرة الترجمان وإيجار المركب متضمنة كل شيء فيما عدا الخمر - تبلغ حوالى عشرة جنيهات استرلينية فى اليوم .

أما بخصوص حرارة الجو فقد وجدناه باردا - وشديد البرودة أحيانا - خلال شهرى يناير وديسمبر ، ومعتدلا فى فبراير ، ودافئا جدا فى شهرى مارس وأبريل . أما مناخ النوبة فهو ببساطة لا تشوبه شائبة ، حيث لا تمطر السماء أبدا . وعندما تعبر حدود المدار ، لا يحمل الهواء قشعريرة الصباح أو المساء . إلا أنه حتى فى بلاد النوبة وخاصة طوال الأربعين ميلا التى تفصل (أبو سمبل) عن وادى حلفا ، فإن الجو يكون باردا عندما تهب الريح من الشمال بشدة (١) .

وإذا عدنا الى عنوان هذا الكتاب فقد يعترض البعض عليه لأن المسافة من ميناء الاسكندرية الى الشلال الثانى تقل قليلا عن ألف ميل ، وهى تقدر فى الحقيقة بحوالى ٩٦٤ ميل . ولكن المسافر عند صخرة (أبو صير) التى تبعد عن وادى حلفا بمسافة خمسة أميال ، يرى أن الأرض التى تمتد مسافات ومسافات تتجاوز الثلاثين أو الخمسة والثلاثين ميلا ضرورية لاستكمال رحلة الألف ميل . وقد رأينا من هذه النقطة بوضوح قمم الجبال التى تقع على بعد حوالى ١٤٥ ميلا جنوب وادى حلفا والتى تشرف على الشلال الثالث .

وربما وجب على أن أقول شيئا ردا على التساؤلات المتكررة من هؤلاء الذين انتظروا طبع هذا الكتاب منذ عام مضى . أستطيع أن أجيب فقط بأن عملية الطبع قد استغرقت عامين وليس عاما واحدا ، فمن المستحيل أن تكتب عن مصر بسرعة ، فالموضوع يتسع مع الكتابة ، ومع المعرفة التى يتحصل عليها المسافر خلال الطريق .

والأهم من ذلك هو أن الموضوع محاط بعوائق لابد وأن تعرقل أسرع الأقلام ، ولن ادعى أن فى حوزتى أسرع الأقلام . وعلاوة على ذلك فإن الكاتب الذى يطمح لأن يكون دقيقا عليه أن يتجول كثيرا للبحث عن الحقائق ، إذا لم يذهب أصلا الى المصادر الأصلية (التى قد تكون هى

(١) لفائدة من يريد معلومات أكثر دقة ، أضيف أن هناك قائمة بمقوسط درجات الحرارة مسجلة يوما بيوم ، وأسبوعا بأسبوع ، وهى موجودة فى نهاية كتاب مستر هـ. ويليرز ستوارت Mr. H. Williers Stewart وعنوان الكتاب : قطرات من النيل : Nile Gleanings

النصوص ذاتها) ، وفي معظم الأحوال يلجأ الى الترجمات والتعليقات المخزونة في الصفحات الغالية الثمن ، أو المتفرقة بين صفحات الدوريات العلمية ومحاضر جلسات الجمعيات المتخصصة . وهنا سيكتشف أن كل تاريخ أو اسم أو مرجع عابر ، قد يحتاج الى ساعات من البحث ، وأن مراجعة هذا العدد الضخم من الرسوم الخطية والتوضيحية التي يجب نقلها عن ملحوظات الصفحات التي تتناثر هنا وهناك في كراسات الرسم التي في حجم الجيب وهي الرفيق الدائم للرسم ، تستغرق زمنا ليس بقليل . وقد خطر في بالي أن أورد ذلك على سبيل الاعتذار .

ويسعدني أكثر أن أتذكر خفة العمل دون اعتبار للوقت الذي انقضى . ويجب أن أشكر الأصدقاء الذين لم يألوا جهدا في بذل العون لأصدار هذا الكتاب . ونخص بالذكر المحترم س . بيرش (دكتور في القانون) والذي يدعى بحق « الأب في هذا القطر للمدرسة كبيرة في فقه اللغة المصرية » . والذي قام أيضا بترجمة النصوص الهيراطيقية والهيروغليفية المتضمنة في الفصل الثامن عشر ، والذي اطلع بعطف غير محدود على ذلك الفصل برمته في المطبعة ، وإلى المحترم ريجنالد ستيوارت بول والبروفسير ر . أوين وس . ب . وغيرهم . وإلى السير ج . و . كوكس . إلى هؤلاء جميعا أود أن أقدم امتناني القلبي مع الاقرار بأفضالهم . ومن المؤكد أن يحسب من بين أمجاد العلم أن هؤلاء الذين يجمونه ويعملون في ذلك باجتهد ، هم أكثر الناس استعدادا للمشاركة في مخزون المعرفة التي لديهم .

وكم أشتاق كذلك للتعبير عن امتناني القلبي للمستتر ج . بيرسون الذي تم حفر كافة الرسومات تحت اشرافه ، فالقول بأن صبره ولطفه كانا غير محدودين ، وأنه لم يبال بالوقت أو التكلفة في توضيب كليشيهات الطباعة ، ليس الا مجرد ذكر للحقائق ، ولا ينقل أية فكرة عن ماهية العمل الذي تم انجازه . وخاصة أن أعمال الحفر التي نفذت على الخشب مباشرة تنتمي الى هذا النوع ، كما نفذت أيضا عن الرسومات المرسومة بالألوان المائية التي كان مطلوبا ليس فقط تصغير حجمها بل أيضا تنفيذها كما هي بالأسود والأبيض مما زاد من صعوبة تنفيذ العمل . ولواجهة هذه الصعوبات وتأكيدا للدقة فإن مستر بيرسون لم يطلب فقط معاونة الرسامين المنفذين ولكنه قام في أحيان كثيرة بتصوير الموضوعات على الخشب مباشرة . أما فيما يخص عمل الزنكوغراف الذي يتحدث عن نفسه — فسأقول فقط انني لا أعرف طريقة أخرى للتفوق عليه . ويبدو

لى أن بعض هذه الكليشيهات تعتبر نموذجاً لما وصل اليه فن الجفر على الخشب من دقة فى التنفيذ .

أما الرسوم الرئيسية فقد رسمت جميعاً على الخشب بمعرفة مبتتر بيرسيفال سكيلتون ولا يستطيع أحد سواى أن يمتدح مدى براعة هذه الرسوم لرقه قلمه الرصاص والأحاسيس الفنية التى نفذ بها الرسومات الأصلية .

أما عن سحر الرحلة المصرية ، وروعة النيل ، وجمال الصحراء غير المتوقع والفاثق ، والخرائب التى تعتبر من عجائب الدنيا ، فقد أوفيت ذلك حقه فى مكان آخر . ولابد أن أضيف أننى حملت معى الى وطنى احساساً بأن الأشياء والناس فى مصر ، لم تتغير كثيراً عما تعودنا أن نفترضه فى وقتنا الحالى . واعتقد أن بنية وحياة الفلاح الحديث تتطابق كثيراً مع بنية وحياة ذلك العامل المصرى القديم الذى نعرفه جيداً من خلال الرسوم الجدارية فى المقابر : أكتافه مربعة ، وأطرافه دقيقة ولكنها قوية ، وممتلئ الشفتين ، وبشرته بنية اللون ، ونراه مرتدياً نفس المئزر على الخصر ، ويجذب نفس الشادوف ، ويحترث بنفس المحراث ، ويغد نفس الطعام بنفس الطريقة ، ويتناول طعامه بأصابعه من نفس السلطانية ، تماماً كما كان يفعل أجداده منذ ستة آلاف عام مضت .

أما الحياة العائلية والأساليب الاجتماعية حتى تلك الخاصة بالنساء فى عواصم الأقاليم فلم تتغير كثيراً . ويصب الماء على يدي الفرد من إبريق قبل تناول الطعام ثم ينزل الى حوض مثلما نراه مرسوماً فى مناظر الاحتفالات فى طيبة . وبالرغم من أن زهرة اللوتس قد اختفت الا أن باقة الزهور ما زالت تقدم الى كل ضيف عندما يأخذ مكانه على المائدة . وما زالت رأس الخروف المذبوح تعطى للفقراء كوكيلة . أما هؤلاء الذين يدعون الى تناول اللحم أو الشراب فإنهم يلمسون الرأس والصدر عرفاناً بالجميل كما كان الأمر قديماً . وما زال الموسيقيون يجلسون عند الطرف المنخفض من القاعة ، كما أن المطربين ما زالوا يصفقون بأيديهم تجاوباً مع أصواتهم . وما زالت الفتيات الراقصات ترقصن ، كما أن المهرج ما زال يقدم هزلياته الشاذة وهو يرتدى قبعته المرتفعة الحواف لتسلية الضيوف . ويتم احضار الماء الى المائدة فى دوارق من نفس الطراز الذى يصنع فى المدينة كما كان فى أيام خوفو وخفرع . وكذلك فإن فوهات القوارير تسد تماماً بأوراق النباتات الطازجة والأزهار بنفس الطريقة . وكانت الكوسة المحشوة باللحم المفروم هى الطبق المفضل فى عصر القدماء ، وأستطيع أن

أشهد بوجودتها سنة ١٨٧٤ ، وما زال الأولاد الصغار في النوبة يلبسون الطاقية المقلدة الجانب التي كانت تزين رأس رمسيس في شبابه . ويمكن مشاهدة الفتيات الصغيرات في ثياب تشبه تماما الحزام الذي كانت ترتديه الأميرات الصغيرات في عصر تحتمس الأول . وما زال الشيخ يمشی حاملا عكازا طويلا ، كما أن المرأة النوبية ما زالت تجدل خصلات شعرها في شكل جدائل تتدلى كالذيول الصغيرة . أما مركب الترفيه الخاصة بالحاكم حاليا ، أي المدير ، فما زالت مثل الذهبية التي يستأجرها السائح الأوربي ، تمثلان هما كلتاها في جميع الملامح الضرورية صورة طبق الأصل من المركب ذات المجاديف والملونة بالطلاء المرسومة في مقابر الملوك .

في هذه وفي مئات من اللحظات الأخرى التي وقعت كلها تحت ملاحظاتي الشخصية ، واتخذت لها مكانا في الصفحات التالية ، بدا لي أن أي غموض يتأرجح حول مشكلة الحياة والفكر في مصر القديمة يصدر تقريبا من داخلنا . أن عاداتنا في الحياة والفكر شديدة التعقيد لدرجة أنها تجعلنا بمنأى عن بساطة ذلك العالم القديم . وكان ذلك يرتبط بمشكلة الكتابة الهيروغليفية : كان واضحا أن أحدا لا يستطيع حلها ، وطالما أصر العالم على الاعتقاد بأن كل حرف هيروغليفى يمثل رمزا مبهما ، وأن كل نقش يمثل لغزا فلسفيا عميق المعنى ، فقد ظل سر الأدب المصرى عويص الحل . وأخيرا جاء شامبليون الشهير إلى داسيه موضحا أن العلامات الهيروغليفية كانت تمثل حروفا أبجدية ومقاطع لفظية وأن اللغة التي استخدمت حروفها كانت هي القبطية فقط .

ولو لم يوجد الآلاف من الذين ما زالوا يظنون أن الشمس والقمر مخلوقان يدوران ليس لغرض آخر سوى تبديد ظلام كوكبنا الصغير ، ولولا أن أحد النبلاء المحترمين قد هب فيجا مضى لكتابة مقالة جادة متكاملة لبيان أن الأرض مسطحة ، لما صدق أحد أن هناك أناسا ما زالوا يشكون الآن في إمكانية قراءة وترجمة ما خلفه قدماء المصريين بنفس طلاقة اليونانية القديمة . لقد قابلت في مصر رجلا انجليزيا أقام في القاهرة لفترة طويلة وكان على معرفة تامة بعلماء الدراسات المصرية القديمة الذين كانوا في خدمة الخديو - أكد لي عدم اعتقاده الراسخ فيما اكتشفه شامبليون ، وقال : « في رأيي أنه لا أحد من هؤلاء السادة يستطيع أن يقرأ سطرا واحدا من الهيروغليفية » .

ولما كنت حينذاك لا أعرف شيئا عن اللغة المصرية ، فأننى لم أجادل في هذا الحديث . وعلى كل حال فأننى منذ ذلك الحين وأثناء كتابتى لهذا

الكتاب تقدمت خطوة خطوة في دراسة الكتابة الهيروغليفية وأنا الآن أعرف إمكانية قراءة اللغة المصرية لسبب بسيط هو أنني استطعت قراءة جملة بها . وقد لا تكون شهادتي ذات قيمة كبيرة ولكنني أقدمها بسبب القليل الذي تساويه .

إن دراسة الأدب المصري قد تقدمت بخطى سريعة خلال السنوات الأخيرة . وبالرغم من أن العثور على أوراق البردي أصبح الآن أكثر ندرة مما كان عليه منذ ثلاثين أو أربعين عاما مضت إلا أن ترجمة الموجود منها في المتاحف الأوروبية تسير الآن باجتهاد أكثر مما كان يحدث في الماضي . لقد جرى لقاء الأضواء على الكتب الدينية ، وأشكال الطقوس ، والمواظ الأخلاقية ، والأقوال المأثورة ، والرسائل الشخصية ، والترانيم ، والملاحم الشعرية ، والمذونات التاريخية ، والحكايات ، وصكوك البيع ، والبحوث الطبية والسحرية والفلكية ، والسجلات الجغرافية ، وأخبار الأسفار والمغامرات والروايات ، كما تم تصويرها ونسخها باستخدام قوالب الحفر الملونة ، وطبعها حسب النمط الهيروغليفى وترجمتها بأساليب تناسب كلا من الدارس والقارئ العادى .

ولم يكن كل هذا الانتاج بالضرورة مدونا على البرديات ، لأن القسم الأكبر منه كان محفوظا في الحجر . والبعض منه مرسوم على الخشب أو مكتوب على قماش الكتان أو الجلد أو الشقاقات الخزفية وغير ذلك من المواد . وبذلك نجد أن السر القديم الخاص بمصر ونعني به الانتاج المكتوب قد انكشف . وأصبح مفتاح الهيروغليفية هو المفتاح الرئيسى الذى يفتح جميع الأبواب . ونرى الآن حلا لبعض المشاكل التى تقابلنا فى كل عام يمر علينا . وكل يوم يلقي الضوء على بعض الحقائق التى طال زمن دفنها .

ومنذ حوالى ثلاثة عشر عاما (١) رسم فنان أمريكى مشهور صورة جميلة أسماها « سر أبى الهول » وأنا أفترض أن سر أبى الهول يعنى فى مفهومه الواسع كل ماضى مصر الذى كان يستعصى تأويله واستكشافه . أما فى مفهومه الضيق فإنه كان يعنى منذ وقت قليل ، المعنى المخفى للأسد الذى يحمل رأس انسان والذى يمثل أحد الموضوعات النموذجية للفن المصرى . وعندما نرجع بالنظر الى فترة الثلاثة عشر عاما نجد بها فترة

(١) يمكن تذكر هذه التواريخ بالعودة الى عام ١٨٧٧ عندما ظهرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب .

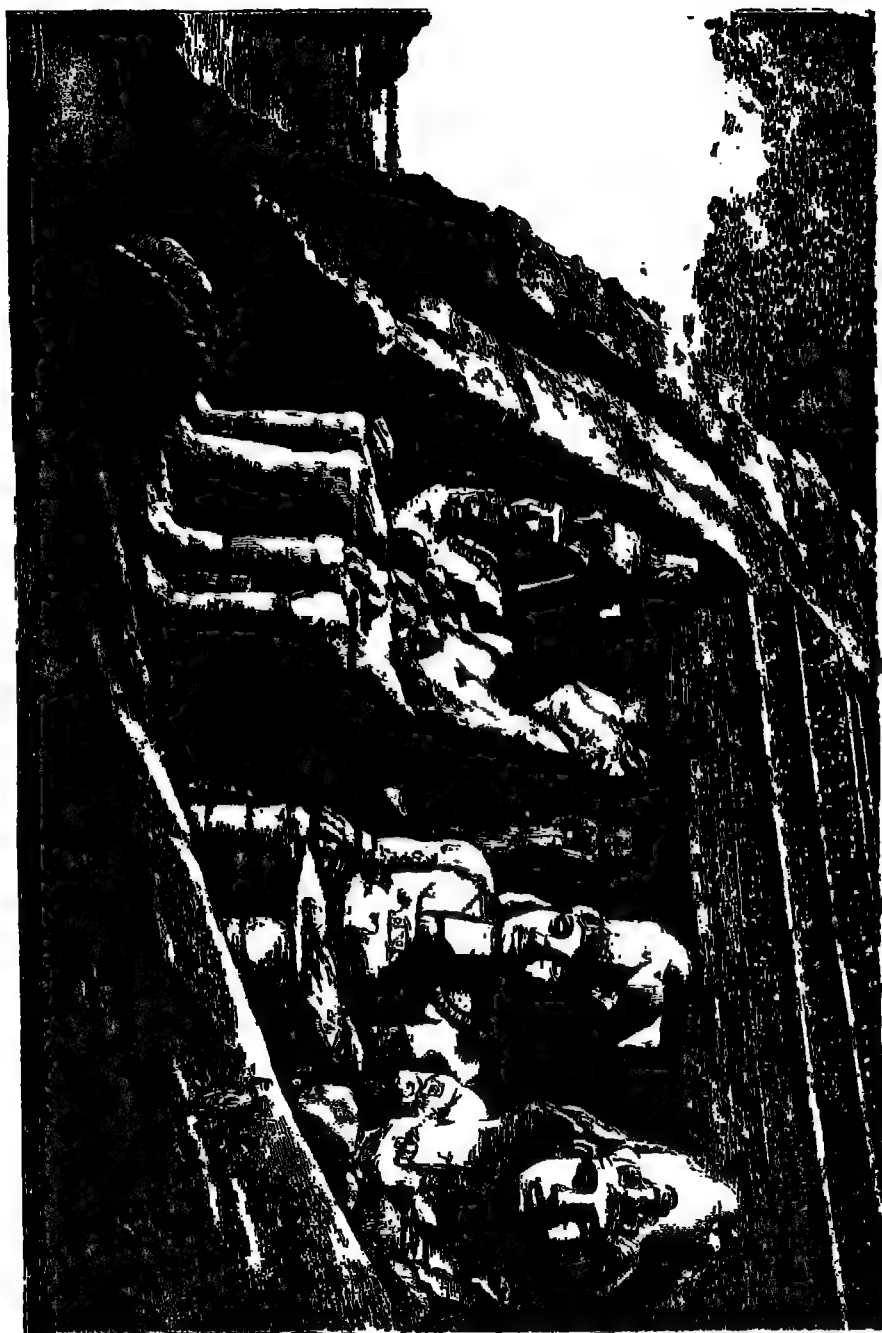
قصيرة ، ولكن أنجزت خلالها أعمال عظيمة في مصر وفي علم المصريات . لقد انكشفت ادفو يثروتها غير العادية من النقوش ، كما استعيدت كافة محتويات متحف بولاق من بين غياهب القبور . وتم كذلك كشف سر أبي الهول . وحتى خلال الثمانية عشر شهرا الأخيرة أعلن مستر شاپاس أنه اكتشف تاريخ هرم منكاورع ، وهكذا تم لأول مرة معرفة التسلسل الزمني لتاريخ مصر القديمة على أساس ثابت . وعلى ذلك فالعمل مستمر : المدارس في مكتباتهم ، والقائمون بالحفائر تحت سماوات مصر ، يكدحون خلال مسالك مختلفة في اتجاه هدف واحد . وتعنى هذه الصورة الكثير اليوم بالنسبة لما كانت تعنيه منذ ثلاثة عشر عاما مضت . بل انها تعني أكثر مما كان يقصده الفنان . ولا يوجد الآن غموض في أبي الهول الا للجاهل فقط .

ونرى في الصورة فلاحا بني اللون ، نصف عار ، يبدو عليه الانهاك ، واضحا أذنه ملاصقة للشفاه الجبرية لأبي الهول الضخم ، والمدفون في الرمال حتى عنقه . وتقول له غريزة الدماء المصرية القديمة ان الانسان يشبه الاله . وهو متنبه للأسرار العظيمة التي تكمن في الماضي . وربما كانت لديه فكرة عامة غامضة تعنى أن الرأس الضخم للتمثال تعرفها كلها مهما كانت ماهيتها . انه لم يسمع عن أغنية الصباح لدى ممثون ، ولكنه على أية حال يتخيل أن تلك الشفاه المغلقة لابد أن تتكلم اذا سئلت . ان الفلاح وأبا الهول يقفان بمفردهما في الصحراء . الوقت ليلا ، والنجوم تلمع . فهل اختار اللحظة المناسبة فعلا ؟ ما الذي يريد أن يعرفه ؟ وما الذي يأمل أن يسمعه ؟

لقد سمح لي مستر فيندر بأن أقرأ هذا الكتاب بهذه الصورة الزنكوغرافية من عنده . انها تحكى قصتها ، أو انها تحكى الكثير من قصتها حسبما اختار الفنان .

اميليا ب . ادواردز
وستبري - أون - تريم
جلو شستر شاير
ديسمبر ١٨٧٧

مدفن أبو سليل العقيم مدفون في العسقل





على كل شخص أن يفسر لنفسه
سر أبي الهول

المقدمة

منذ أن غامر هيرودوت بالابحار جنوبا في النيل في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، ألقى هذا النهر ، الذي هو أكثر أنهار الدنيا جاذبية ، بسحره على الأوربيين .

ولم يتم حل سر منبعه حتى عاد ستانلي سنة ١٨٧٧ من رحلته جنوبا الى لوابا والكونغو ، وفي القرن التاسع عشر تأثرت الحركة الرومانتيكية كثيرا بآثار مصر التي انصب اهتمامها على الموت . وقد عرف نابليون مصر بوصفها حلقة اتصال حيوية للتجارة مع الشرق ، ولذلك قام بغزوها سنة ١٧٨٩ . أما أميليا بـ ادواردز فأنها بالرغم من أنها باتت من أشد الكتاب ارتباطا بالنيل ، إلا أنها كانت قد جاءت الى مصر ووصلت الى القاهرة في نوفمبر سنة ١٨٧٣ بالصدفة فقد جاءت هربا من المطر في أوروبا مع صديقة لها ، وبقيت بمصر لتصبح عالمة رائدة في علم المصريات .

وكانت أميليا واحدة من سيدات العصر الفيكتوري الجريئات والتي على الرغم من أن القارئ قد يسعد بالقراءة عنها إلا أنه قد يجد صعوبة في معرفتها مباشرة . ذلك على الأقل هو الانطباع الأول الذي يخلقه هذا الكتاب ، ولكنه حينما يقرأ لها ويعيد القراءة ، تصبح في الوقت المناسب صديقا حقيقيا بلا مبالغة . أما اهتمامها العظيم بالناس ، وتفهمها للثقافات الغريبة ، وعدم تحيزها لبنى وطنها ، كل ذلك يجعلها بالتدريج أكثر وأكثر تعاطفا .

وكان واضحا منذ صغرها أن لديها موهبة نادرة . كان أبوها ضابطا بالجيش ، حارب مع ولنجتون في حرب شبه الجزيرة . وكانت أمها تنحدر من أسرة والبول . ويبدو أن هذا التزاوج أعطاهما شجاعة واستعدادا فطريا للأداء الفني . وفي سن السابعة نظمت أميليا قصيدة نشرت في جريدة أسبوعية . وعندما بلغت سن السادسة عشرة كان من الممكن

اختيارها لتكون مغنية أوبرا أو فنانة أو كاتبة • وأخيرا استقر اختيارها على الصحافة والكتابة •

وفيما بين عامي ١٨٥٥ و ١٨٨٠ كتبت ثمانى روايات ، وان كانت لا تتميز بشئ جديد • وساهمت فى مجموعة واسعة من الجرائد والمجلات • وألفت أيضا كتباً ذات شعبية فى التاريخ والفن •

ولكنها حتى بلوغها سن الثانية والأربعين لم تكن قد قامت بعد بالمغامرة التى جعلت لها رسالة فى الحياة وأعطتنا نحن تذكارا عزيزا لها فى شكل رحلة الألف ميل فى صعيد مصر • أما بالنسبة لنا فان ما يدهشنا هو قدرة السيدتين على القيام سنة ١٨٧٣ بالرحلة عبر نهر النيل فى مركب خشبية عريضة القاع • لقد مات لفنجستون فى شهر مايو من ذلك العام ، كما أن جوردون كان متبقيا له ثلاثة أشهر لاستكمال رحلته الأولى الى الخرطوم • أما قناة السويس فكانت قد افتتحت منذ أربعة أعوام • وكذلك لم تكن مسلة كليوباترا قد أقيمت بعد بمعرفة البريطانيين •

ويصح القول بأن توماس كوك كان قد بدأ لتوه بنسيير رحلاته بالمركب البخارية عبر النيل (ذكرت أميليا أن مركبيهما قد انغرزا فى بعض الضفاف الرملية) وما زالت هذه الرحلة تمثل مغامرة كبرى • أما وصف أميليا ادواردز لهذه الرحلة فهو رائع لأنها تعرضه فى عبارات واضحة تملأ القارئ بالسعادة وسعة الأفق التى تشهد الانتباه ، وبالرغبة فى الاستزادة من التفاصيل مما يجعلها وثيقة تاريخية لا تقدر بثمن •

ولا يستطيع سوى الكاتب المتمرس أن يصوغ عبارة مثل « الاغريق الذين يرتدون ثيابا بيضاء مشدودة كما لو كانوا مباحى تمشى على الأرض(*) » • ولا يستطيع أحد سوى أميليا أن يهتم أو يسعى الى معرفة خاصية التبغ الرخيص الذى كان ملاحو مركبها يتقبلونه شاكرين عندما تقدم لهم بعضا منه فى شكل اكرامية : « هذا الخليط الفظيخ الذى يباع الرطل منه فى السوق بستة بنسات • ان النبات الذى جمع منه قد استنبت من بذرة ذات رتبة أدنى ، فى تربة غير صالحة كيميائيا لأنها خالية تماما من البوتاسيوم » • ولم يحدثنى كاتب آخر عن بقل له « أرجل وأفخاذ حليقة

(*) كانت المعاة (الاستيكة) فى السابق تصنع من عود البوص أو الخشب ويلف، على الجزء السفلى منها قماش أبيض ، والكتابة هنا تشبه تماثيل المصريين الاغريق الاولى بهيئتها المشدودة المتصلبة بتلك المماضى - (المترجم) •

الشعر ٠٠٠ ملون بخطوط زرقاء وبيضاء في شكل متعرج ، ومزين بأسرطة ذات لون أصفر فاتح ، ٠

ومن الطبيعي أن يخصص الجزء الأكبر من الكتاب للحديث عن خرائب وآثار مصر القديمة ٠ وقد قامت أميليا بقياس ورسم ووصف كل التفصيلات التي يمكن تصورها ٠ انها تمر بعروسين شابين يقضيان شهر العسل ويزوران معا بعض المعابد ، بينما تركب أميليا حمارا لمدة ثلاث ساعات في درجة حرارة تتجاوز ١٠٠ فهرنهايت لكي تزور معبدا للمرة الثانية ٠

وتتمتع أميليا بالمشاعر الانسانية بما يكفي للقلق خشية أن تكون الحياة قد تغيرت كثيرا مما يجعلها تتوقع أن تكون قد فاتها أفضلها ٠ والحق انها خصصت صفتين من مقدمتها لشرح كيف أن مصر لم تتغير كثيرا منذ عصر الفراعنة ، وكذلك فانها نجحت في تدوين ملاحظات قليلة عن السائح الحديث الذي يركب مركب توماس كوك البخارية ، وهي نفس المراكب التي استولى عليها كتشنر بعد ذلك بحوالى خمسة وعشرين عاما للابحار الى الخرطوم انتقاما لمقتل غوردون ٠ أما بالنسبة لنا اليوم فلا بد من وجود نفس هذا القلق ٠ كيف يحسد الانسان أميليا لأنها تتجول حول خرائب الكرنك بنفسها بينما نفوس نحن بين السياح الذين يتكدسون في المركبات المزركشة ؟

كم يكون غريبا ومدهشا أن يكتشف أحد أفراد جماعة أميليا في أبى سمبل مقبرة غير معروفة ، ونقول بطريقة أخرى انه كان غريبا انها جعلت طاقم مركبها فى أبى سمبل ينظفون أحد تماثيل رمسيس الثانى الضخمة ٠ وكانت التماثيل قد « تشوهت بسبب الجص الذى ترك عليها عندما أزال مستر هاى الطبقة الخارجية منذ أكثر من نصف قرن مضى » ٠ لقد أزالوا الجص بفرح عظيم وصبغوا البقع الباهتة المتبقية بلون القهوة ٠

وخلاف ذلك كله رأينا كثيرا مما لم تره أميليا ٠ مركب الشمس الرائعة المحفورة من كتلة خشبية مجوفة قريبا من الهرم الأكبر – وتعتبر أجمل قارب فى العالم ٠ ولم يكن قد اكتشف بعد معبد كوم أمبو الذى أثار اهتمام اميليا حتى سنة ١٨٩٣ لتتحقق آمالها الى حد كبير. وكان « معبد اسنا مكشوفاً بالرغم من أنه لم يكن ذا ميزة كبيرة ٠

ومما يزيد الغرابة من منطلق ذوق أميليا التى كانت شديدة الاهتمام بالدراسة ، أننا تمتعنا بهذه الاكتشافات بينما تبدو الخرائب الواسعة

أكثر اتارة لدى غير المتخصصين (*) . اما من جهتي أنا فأننى بينما أسعر بالامتنان نحو أميليا من أجل معلوماتها الأثرية الغزيرة ، فأننى أكثر امتنانا بسبب تلك الومضات الخفيفة للطبيعة الانسانية التى تملأ صفحات كتابها بالحياة . لقد أحببت سخريتها من الذات ، وأتعجب من التمثال الحزين الذى نحتته هى ورفيقتها « مستخدمتين القبعتين الغريبتين المصنوعتين من سعف النخيل ، والبرقعين الخضراوين والشمسيتين المصنوعتين من القماش الأبيض » .

واننى أعجب لاهتمامها بمعيشة بحاوتها العشرين الذين عرفت أسمائهم خلال أيام ، والذين كان اسعادهم شغلها الشاغل دائما . اننى أحب فهمها للعادات المصرية ، وحكاويها التى دونتها عن الولايم التى ملأت الأفواه ، والقداس القبطى الذى لاحظته بكافة تفاصيله . وأستمتع كثيرا بحكايتها عن المرة الأولى التى ركبت فيها الجمل والتى لم يتفوق عليها أحد آخر فى وصفها ، ورباطة جأشها عندما أطلق أحد مرافقيها الرصاص على طفل . . . ولكنك ستقرأ هذه الحكاية .

واستمرت اميليا فى العمل والتنقيب بعد رحلتها حتى تشبعت بعلم المصريات . وأنشأت صندوق استكشاف مصر Egypt Exploration Fund ، وقامت بحملات للحفاظ على الآثار . وتوفيت سنة ١٨٩٢ ، وتركت مكتبتها لكلية الجامعة فى لندن ، مع مبلغ من المال لتأسيس كرسى لعلم المصريات فى انجلترا . وتركت لنا كتابا يعد من أعظم المؤلفات فى الدراسات القديمة الخاصة بنهر النيل .

كوينتين كروى

١٩٨٢

(*) اننى أعجب لكاتب هذه المقدمة الذى اشار الى تمتعه بما لم تشاهده اميليا من اكتشافات ، ونسى ان يشير الى اثار توت عنخ آمون رغم انه كتب مقدمته هذه سنة ١٩٨٢ - (المترجم) .

الفصل الأول

القاهرة والهرم الأكبر

ان قدر السائح هو أن يتناول وجباته فى أماكن كثيرة أثناء جولاته العديدة ، ولكنه نادرا ما يشارك فى تجمع متعدد الأفراد كمثل هذا الذى يملأ قاعة الطعام الضخمة بفندق شبرد فى القاهرة خلال بداية وقمة انشغال الموسم السياحى المصرى المعتاد . فهنا يجتمع يوميا حوالى مائتى أو ثلاثمائة شخص من كافة المقامات والجنسيات والمهن ، نصفهم من البريطانيين الذين ولدوا أو عاشوا فى الهند وهم فى طريق عودتهم للوطن أو قادمين منه ، والأوربيين المقيمين أو الزائرين الذين يقضون الشتاء بالقاهرة . أما النصف الآخر فقد يكون مدعوا للذهاب فى رحلة عبر النيل . وبالرغم من أن هذا التجمع من المسافرين فى النيل متنوع ومتنافر ، فهو يتضمن صغار السن والكهول ، والذين يرتدون الملابس الراقية وغير الراقية ، والمتعلمين وغير المتعلمين ، ذلك لأن الدافع الأول للقدام الجديد هو الاستفسار عن السبب الذى يجعل أشخاصا عديدين ذوى أذواق وخبرات متباينة ، يتجهون للبحار فى رحلة استكشافية أقل ما يقال عنها انها مثيرة للملل وغالية التكلفة وتولد اهتماما خارقا للعادة .

وسرعان ما يتم اشباح فضوله . قبل مضى يومين يعرف اسم كل شخص وعمله ، ويميز من أول نظرة ما بين السائح التابع لتوماس كوك والسائح المستقل . ويكتشف أن تسعة أعشار هؤلاء الذين يتوجهون للنيل هم من البريطانيين أو الأمريكيين . أما الباقون فانهم فى الغالب من الألمان مع قلة من البلجيكيين والفرنسيين . وبالرغم من وجودهم مجتمعين الا أن التفاصيل ما زالت غير متجانسة الى حد بعيد . هنا مرضى يبحثون عن الصحة ، وفنانون يبحثون عن موضوعات ، ورياضيون مشتاقون لملاقات التماسيح ، وسياسيون يقضون الاجازات ، ومراسلون صحفيون متأهبون للدردشة ، وجامعو تحف يبحثون عن البرديات والموميאות ، وعلماء لهم

أهداف علمية من وجهة نظرهم ، والفائض المعتاد من الكسالى الذين يسافرون لمجرد حب السفر ، أو أرضاء لحب الاستطلاع الذى يعنى بلا هدف .

والآن فانه فى مكان مثل قاعة فندق شبرد حيث ينال كل قادم جديد شرف المشاركة فى التسلية العامة ولو لعدة دقائق ، فان الظهور الأول للكاتبة وصديقتها ، وهما منعبتان ويغطيها التراب ، وقد ظهرت عليهما آثار لفحة الشمس ، قد يثير بعض التعليقات داخل حلقات هذه الموائد المزدحة . كان الناس يسألون بعضهم بعضا : من أين آتت هاتان السيدتان الانجليزيتان الجوالتان ، ولماذا لم ترتديا الملابس المناسبة لتناول الغداء ، وما الذى أتى بهما الى مصر ، وهل ستبحران أيضا عبر النيل ؟ وهى أسئلة تسهل الإجابة عليها .

لقد جئنا من الاسكندرية ، وكنا قد واجهنا رحلة صعبة من برنديزى تبعتها ثمان وأربعون ساعة فى الحجر الصحى . ولم نرتد الملابس المناسبة للغداء لأننا وصلنا لتونا من المحطة قبل وصول الترجمان والعفش ، واستطعنا أن نلحق بمقاعدا للغداء مع غيرنا فى الوقت المناسب . وبالطبع فاننا ننوى الإبحار عبر النيل . وعندما يجازف أى شخص بالاستفسار فى كلمات عديدة عما جاء بنا الى مصر فاننا نجيب « ضغوط الطقس » .

والحقيقة أننا قد جئنا الى هنا بالصدفة ، ليس بسبب الصحة أو العمل أو أى شيء جاد ، واتخذنا من مصر ملجأ مثلما ينتحى الانسان جانبا فى ممر بيرلنجتون أركاد المسقوف بالبواكى أو ممر باساج دى بانوراما ، للهرب من المطر .

ولسبب معقول ، رحلنا عن موطننا مبكرا فى سبتمبر لقضاء أسابيع قليلة لممارسة الرسم الكروكى فى وسط فرنسا حيث تبعدنا أكثر مواسم الشتاء ازدحاما بالمطر .

أما وقد اغتسلنا من آثار المطر فى الريف الغنى بالتلال ، فان الأمر لم يكن أفضل حالا فى السهول ، ففي نيمز ظلت الدنيا تمطر بلا توقف لمدة شهر . وفى النهاية ناقشنا أفضلية حمل شمسيتانا المبللة عائدتين حالا الى انجلترا ، أو المضى قدما بحثا عن سطوع الشمس . ودار الحديث عن الجزائر ومالطة والقاهرة فوقع الاختيار على القاهرة .

ولم يحدث أبدا أن جاءت حملة استكشافية دون التفكير مليا قبل
الاقلام على السفر . ولم نكد نستقر على هذا الأمر حتى سارعنا
بالرحيل . وانتقلنا عبر نيس وجنوة وبولونيا وأنكونا فيما يشبه
الحلم . وعندما استيقظ بدر الدين حسن عند بوابات دمشق لم يكن أكثر
اندهاشا من كاتبة هذه الصفحات عندما وجدت نفسها على ظهر السفينة
سيملا خارجة من ميناء برنديزي .

وهنا وبدون تخطيط مسبق أو أية تجربة في زيارة الشرق ، وصلنا
الى القاهرة في التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٧٣ للبحث عن طقس
أفضل هكذا حسب الألفاظ المستخدمة وبدون تزويق .

ولكن ماذا تستطيع الذاكرة أن تفعل حيال الأمطار على الأرض ،
أو العواصف في البحر ، أو الساعات المتعجلة في الحجر الصحي ، أو أى
شيء موحش أو غير مقبول ، عندما يستيقظ الانسان عند شروق الشمس
ليرى تلك النخلات ذات اللون الأخضر المائل للرمادي خارج النافذة وهي
تحنى هاماتها المثمرة في رزانة بعضها نحو البعض الآخر ، فى مواجهة
الفجر الملون بلون الورد ؟

كانت الليلة الماضية مظلمة ولم تكن لدى أية فكرة عن أن حجرتى
تطل على حديقة غناء ، بعيدة ومنعزلة ، يسكن تحتها عمالقة ذوو أبهة
وجلال ، وقد علقت فى تيجانهم المزودة بالشراريب سباطات غنية بالبلج
ذى اللونين القرمزى المائل للسمرة والعنبرى . وكان صباها هادئا
ودافئا ، وطار الغربان ذات اللونين الرمادى والأسمر من شجرة الى
أخرى بشدة ، أو جثمت فى تأمل عميق ، فوق الأفرع العليا تنعق على
مهل .

وهناك بين الدعائم النى تحيط بالأعمدة ، ارتفعت مثذنة مسجد
بعيد ، وهنا حيث أحيطت الحديقة بحائط مرتفع ومنزل بلا نوافذ ، رأيت
سيدة محجبة تتمشى على سطح الشرفة وسط سحابة من الحمام ولا يوجد
شيء أبسط من هذا المنظر وملحقاته ، وفى نفس الوقت ، أكثر تعبيرا عن
الروح الشرقية والغربة والخيال .

ولكن الانسان وهو يتوق للاستمتاع بأول انطباع ساحق لا يمحى
عن الحياة الشرقية الخلوية لابد له أن يبدأ بالقاهرة فى يوم يزور فيه
الأسواق المحلية ، ليس للشراء أو الرسم الكروكى ، ولا للبحث عن

المعلومات ، ولكن فقط للاستمتاع بالمناظر واجدا تلو الآخر مع ما فيها من مجموعات متشعبة من تفاصيل الضوء والظل واللون والملابس والعمارة .
ان كل واجهة محل وكل زاوية شارع وكل فريق من الناس الذين يرتدون العمامة ، يمثل صورة حية . ان التركي العجوز الذى يقيم كشك الفطائر الخاص به فى تجويف مدخل منحوت ، والولد الذى يقود حماره ذا السرج المزركش فى انتظار الزبائن ، والشحاذ النائم على سلاله المسجد ، والمرأة المحجبة التى تملأ جرتها من السبيل العمومى - انهم يبدون جميعا كما لو كانوا قد استعدوا لكى يقوم رسام برسم صور لهم .

ولم تكن خلفية الصورة أقل روعة عن الأشخاص . أما المنازل فانه عالية وضيقة ، وتبرز الأدوار العليا الى الخارج ، كما تبرز منها مرة أخرى النوافذ النائنة مع أشغال المشربيات الرقيقة المصنوعة من الخشب العتيق البنى اللون ، مثل أقفاص الطيور الضخمة . أما الشارع فانه مسقوف فى أعلاه بعوارض خشبية طويلة ، وقطع من الحصى ، يطل من بينها شعاع الشمس مثلكتنا هنا وهناك ، مع مساحات صغيرة من الضوء تسقط على الجمع السائر .



الحصار المستخيم فى القاهرة

أما الشارع العام غير المهد - وهو حارة ضيقة مليئة بالأخاديد ،
والذى يرش بالماء الغزير مرتين أو ثلاث مرات يوميا - فانه يشمل
صفوفا من واجهات المحلات الخشبية الصغيرة التى تشبه الكباثن المفتوحة
المزدحمة بالأرفف حيث يجلس التجار واضعين ساقا على ساق بين بضائعهم
وهم ينظرون خارج المحلات نحو المارة ويدخنون فى صمت وفى نفس الوقت
فان الزحام لا يتوقف عن حركة المد والجزر فى شكل موج صاخب ومتغير
ومضطرب ومتعدد الألوان ، نصفه من الأوروبيين والنصف الآخر من
الشرقيين مشاة على الأقدام أو ممتطين ظهور الخيل أو فى الحناطير .
وتجد هنا التراجمة السوريين فى سراويلهم الفضفاضة ، وصديرياتهم
المزينة بالقصب ، والفلاحين المصريين حفاة الأقدام مرتدين جلابيب رثة
زرقاء وطواقى من اللباد ، واليونانيين الذين يرتدون نقبا بيضاء مشدودة
كما لو كانوا مماحى تمشى على الأرض ، والايروانيين فى طواقبهم العالية
مثل تاج الأسقف والمنسوجة من القماش الداكن ، والببدو ذوى البشرة
السمراء فى عباءاتهم الفضفاضة ونعالهم ذات الشرائط البنية اللون
والشيلان التى من نفس القماش تلتف حول الجبهة مع شريط من وبر
الجمال المجدول ، والانجليز فى قبعات من الخوص وبنطلوناتهم القصيرة
التي تصل الى الركبتين ، وهم يدلون سيقانهم الطويلة فوق الحمير التى
تكاد نختفى عن الأنظار ، ونساء وطنيات من أفقر الطبقات يرتدين البراقع
السوداء ، التى لا تظهر سوى العينين ، والعباءات الطويلة ذات اللون
الأزرق الداكن ، والتى ننسدل أذيالها وتجرح خلفهن مع الشرائط القطنية
انسوداء ، والدراویش فى ملابسهم ذات الرقع ، وشعرهم الأشعث الذى
ينسدل من تحت أغطية الرأس الغريبة الشكل ، والأحباش ذوى اللون
الأسود الداكن بسيقانهم الرفيعة المقوسة مثل الدرايزين المصنوع من خشب
الابنوس الرفيع . والقساوسة الأرمن الذين يشبهون الأطباء فى عباءاتهم
السوداء الطويلة وقبعاتهم المربعة المرتفعة ، والشخصيات المهيبة للعرب
الجزائريين وهم يرتدون ملابسهم البيضاء ، وعساكر الانكشارية الذين
يركبون الخيول ، بسيوفهم ذات الصليل ، وبذلاتهم المزركشة بالذهب ،
والتجار ، والشسحاذين ، والجنود ، والبحارة ، والعمال الزراعيين ،
والشغالين ، فى جميع تشكيلات الأزياء ، ومن كل الألوان من الفاتح الى
الداكن ، ومن اللون الأصفر المائل للسمر الى النحاسى ، ومن البرونزى
الغامق الى الأسود الداكن .

ويمر الآن السقا ، منحنيا تحت حمل قريبته المصنوعة من جلد الماعز ،
والتي ملأها مجددا ، وقد ربطت أقدامها ، أما العنق فقد ركبت فيه حنفية

نحاسية ، وقد ترك شعر الماعز دون ازالة ، مما جعل شكلها المرعب مترهلا
 فبدت كما لو كانت عنزا حية . والآن يأتي بائع الحلوى وهو يحمل صينية
 من الخليط اللزج الذى يعرفه الأطفال الانجليز باسم (مكعيات البهجة -
 Lumps of delight) . وتمر الآن سيدة مصرية تركب بغلا رمادى اللون
 يقوده خادم يحمل على جانبه سيفاً مقوساً لامعاً ، وترتدى السيدة ثوباً
 حريريا بلون الورد ، وبرقعا أبيض اللون ، بالإضافة الى عباءة خارجية
 من الحرير الأسود ، بحيث تبدو العباءة والقلنسوة والبرقع جميعا شيئا
 واحدا على شكل بالون قد امتلأ بالهواء بينما تركب هى البغل . انها
 تجلس منفردة الساقين وترىح قدميها العاريتين اللتين يزينهما شبشب
 من القטיפىة البنفسجية اللون على الركاب المربوط فى السرج ، وتحصر
 على وضع ذراعها البنية المثلثة والمحملة بالأساور الذهبية الكبيرة ظاهرة
 للعرض ، وتنظر الى الطريق من خلال عينين سوداوين صافيتين دون أن
 تشعر بالأسف للكشف عن وجهها . ولم يكن البغل أقل من سيدته زينة
 فان أرجله الحليقة الشعر وأقفاذه الملونة باللونين الأزرق والأبيض فى
 خطوط متعرجة ، تميزها شرائط ذات لون أصفر فاتح . أما سرجه الذى
 ترتفع حافته الأمامية فانه يزدان بالقטיפىة وأشغال الابرة ، أما غطاء
 رأسه فمصنوع من الدلايات المعدنية والشراريب والأهداب المتدلّية .

ولابد أن بغلا بهذا الشكل يساوى ما بين ستين الى مائة حيه
 استرلينى . ويمر بعد ذلك حنطور مرفوع الغطاء وقد امتلأ بنساء
 انجليزيات ضاحكات ، أو يمر شيخ ريفى وقور فى ملابس سوداء راكبا
 حصانا عربيا وسيما . ويمر وجيه مصرى متفرنج يرتدى الملابس الأوربية
 والطربوش التركى فى مركبة يجرها حصانان ويقودها سائس انجليزى ،
 ويجرى أمامه سائس مصرى حاملا عصا فى يده وحافى القدمين وعيناه
 متلفتان ، مرتديا برنيطة يونانية وصديريا بديعا مطرزا بخيوط الذهب
 وقميصا أبيض يتطاير فى الهواء ، ولا يوجد شخص من ذوى المراكز يركب
 مركبته فى القاهرة دون أن يسبقه واحد أو اثنان من هؤلاء الخدم .
 أما هذا السائس (القوى ، والخفيف ، والوسيم ، مثل الزئبق الذى يصنعه
 جون البولونى) فيقال انه يموت صغير السن ، لأن سرعة الجرى
 تقتله .

ويمر بعد ذلك بائع الليمونادة حاملا جرتة المعدنية بإحدى يديه ،
 ودورقه وآكوابه النحاسية باليد الأخرى . ويمر بائع الشباشب المتجول
 حاملا حزمة من النعال المغربية الحمراء والصفراء وهى تتأرجح على طرف

عمود طويل ، وتمر عربة مصنوعة في لندن يجرها حصان تحمل سيدتين ترتديان برقعين تركيين شفافين ، ويسبق العربة فارس نوبى فى زى نصف عسكري ، أو يمر طابور من الابل خشنة الطباع ، وشديدة الاستخفاف وهي تمد أعناقها الطويلة فوق الزحام ، بينما تحمل بالات الأقمشة التي نقشت عليها العناوين باللغة العربية .

ويمثل التجار المصريون والعرب والأتراك - سواء أكانوا مختلطين في التيار العام ، أم جالسين على منصات البيع - أهم أبرز الشخصيات روعة في هذا المنظر المزدحم . انهم يرتدون عمائم ضخمة ، بيضاء في معظمها ، وقفاطين طويلة تصل الى القدمين ، مصنوعة من الحرير السورى المخطط ، وأردية خارجية من القماش المزين بالقصب أو الكشمير . والقفطان محاط عند الوسط بوشاح ثمين ، أما الرداء الخارجى أو الجبة فألوانه متدرجة بوجه عام ما بين لون الدرة ، والزيتون الأسود ، والحوخ ، والسلمون الوردى ، والبني ، وما شابه ذلك . ومما يتناقض مع التناسب الدائم للأشياء أن هؤلاء الرجال ذوى الأبهة يشترون ويبيعون بشكل مبتذل ، بدلا من اضاءة كل حياتهم جالسين على أرائك فخمة حيث تنتظرهم النساء الجركسيات الجميلات . وهنا نشاهد لأول وهلة وزيراً كبيراً يرتدى قفطاناً بديعاً من الساتان الأبيض والعنبرى ، يتنازل لكى يشتري ويبيع بالجملة دوايات للغليون مختلفة الأحجام والأسعار مصنوعة من الصلصال الأحمر القاتم . وهو لا يبيع شيئاً آخر ، وليست عنده فقط كومة من هذه الدوايات بل أيضاً ملء صندوق فى ظهر الدكان ، وهي مصنوعة فى أسبوط بمصر العليا . ويمكن شراؤها من المحلات الجزائرية فى لندن بسعر رخيص يماثل سعرها فى القاهرة .



سوق تونس بالقاهرة

وهناك باشا مهيب آخر يتعامل فى الأوانى النحاسية الصفراء والحمراء ، وآكواب الشرب ، والأحواض والأباريق والصواني والمباخر والمواقد ، وما شابه ذلك من الأشياء التى حفر على البعض منها أبيات من نظم الشعراء العرب فى شكل زخارف من أوراق الشجر المتشابكة . وهناك ثالث يبيع الأقمشة الحريرية المنسوجة بخيوط الذهب والفضة الواردة من دمشق . وآخرون يبيعون مرة أخرى النوعيات القديمة من الأسلحة والخزف وأشغال الابرة وسجاجيد الصلاة المستعملة والكراسى الغربية التى بدون مسند للظهر ، والدواليب المصنوعة من خشب الأبنوس والمطعمة بعزق اللؤلؤ . وهنا أيضا يجلس بائع الدخان خلف كومة ضخمة من الدخان الوارد من اللاذقية تماثل جسمه فى الحجم . ويدخن تاجر الاسفنج غليونه الطويل فى عريش من الاسفنج .

ويظهر أكثر هؤلاء امتاعا فى دكاكين العاديات حيث يحتل كل صنف من البضائع ركنه المنفصل ، وتمر بعد ذلك من خلال بوابة حجرية قديمة ، أو تهبط خلال منعطف ضيق ، فتجد نفسك داخل مستعمرة من السروجية يخطون ويدقون ويثقبون ويبرشمون . وتسير فى حارة وتهبط فى أخرى محاطا بواجهات الدكاكين المعلق حولها (الطرايش) والسروج مقوسة الظهر من كافة الأنواع والألوان . هنا سروج نسائية ، وسروج عسكرية ، وسروج للحمير ، وسروج لكبار رجال الدولة ، وسروج منطاة بالجلد الأحمر ، وبالقطيفة ذات الألوان القرمزية والبنفسجية ، ومن القماش المائل للسمر ، والرمادى والأرجوانى ، والسروج المطرزة بخيوط الذهب والفضة المرصعة بالمسامير ذات الرؤوس النحاسية أو المزركشة بالقصب .

وبعد دورة أو اثنتين تجد نفسك فى سوق النعال تمر عبر حارات تمتلئ بالنعال المغربية الحمراء والصفراء ، أولها مصنوع محليا ، وآخرها من تونس . هنا نعال ذات أطراف مدببة ، وأطراف مرتفعة الى أعلى ، وأطراف مستديرة ومسطحة مثل حدوة الفرس ، ونعال للسير باطنها مجوف ، ونعال صفراء ناعمة تستخدم مثل الجوارب الداخلية وليس لها باطن نهائيا . أما تلك الصنادل الصغيرة ذات اللون القرمزى والتى فى أطرافها شراريف فهي للأولاد الصغار . أما الأحذية المغربية ذات اللون البنى فهي مخصصة لسائى الخيول . أما نعال القطيفة المشغولة بخيوط الذهب والحرز وحبات اللؤلؤ فهي لأثرياء الحريم ، وبيع الزوج الواحد منها بأسعار تتراوح ما بين خمسة شلنات الى خمسة جنيهات .

أما سوق السجاد فهي كبيرة المساحة وتتكون من شبكة من الحارات الفرعية تفتتح على يمين شارع الموسكى الذى يماثل فى القاهرة شارع ريجنت فى لندن (١) .

وتجد المنازل فى معظم هذه الحارات غنية بالنوافذ القديمة ذات المشربيات والأبواب الإسلامية . هنا تجد ميدانا صغيرا محاطا بالسجاد الفارسى والسورى وحقائب السروج الدمشقية وسجاجيد الصلاة التركية . ويجلس التجار فى وسط بضائعهم وهم يدخنون ، بينما يقوم قهوجى عجوز فى أحد الأركان بممارسة تجارته المتواضعة حيث أقام موقده الصغير ، والرّف المعلق بجانب مدخل الخان المتداعى ، الذى تواجه حوائطه الواحاً



سوق السجاد بالقاهرة

(١) ربما كان شارع ريجنت المتقاطع مع شارع اكسفورد فى قلب مدينة لندن يتشابه منذ ١٢٠ عاما مع شارع الموسكى قلب القاهرة حينذاك من حيث الأهمية التجارية . أما شارع ريجنت الآن فهو شارع فخم لا يقل عرضه عن ٥٠ مترا يلاخر به الاتجليز غيرهم من الأمم - (المترجم) .

خشبية من الأرابيسك مشغولة فى حجر قديم منحوت • وهو منظر من أشد المناظر ابداعا فى القاهرة •

أما السجاجيد المخططة الواردة من تونس ذات اللونين الرمادى الغامق والأزرق الغامق ، أو الجزائرية ذات اللون الرمادى أو الأحمر ، والسجاجيد الكثيفة الوبر الواردة من لاودكيا وأزمير ، والسجاجيد الزرقاء والخضراء الفخمة ، والحمراء الناعمة الواردة من تركيا ، والنوعيات الفارسية المنسجمة – رغم اختلافها العجيب – فتمتاز بأنها تباع فى دكاكين محلية داخل الحارات المجاورة •

ولا يشعر الانسان بالتعب أثناء تجواله فى هذه الحارات نصف المضاعة ، والتي تتوهج كلها باللون الخلاب ، وتزدحم بالناس السائرين فى كلا الاتجاهين مثل الممثلين فى احدى مسرحيات عيد الميلاد المجيد التي تمتاز بمظاهر الأبهة والعظمة الشرقية •

أما فى خان الخليلي وهو سوق تصنيع الذهب والفضة ، فانك على العكس ، نادرا ما تجد أية بضائع معروضة للبيع • والحارات فى هذا الجانب ضيقة جدا بحيث يلقي الاثنان من الناس صعوبة فى السير متجاورين • أما المحلات ، فهي ضيقة جدا لأنها مجرد نوافذ لها واجهات لا يتجاوز عرض الواحدة منها ثلاثة أقدام • وقد ثبت فى ظهر كل نافذة منها درجة سلم من الحجر المصقول تسمى المصطبة تستخدم للجلوس • وتقوم مقام المنصة التي تستخدم للبيع ، حيث يجلس المشتري على طرف المصطبة • بينما يجلس البائع القرفصاء متقاطع الساقين فى الداخل • ومن هذا الموقع يستطيع سحب الأدراج واحدا بعد الآخر دون الحاجة للوقوف •

وعلى ذلك فان الفراغ الموجود بين الاثنين يزدهم بأكوام الحلوى الذهبية والفضية ، وهي تختلف عند كل تاجر من حيث المعدن والنماذج المتماثلة • وتباع بالوزن مع اضافة هامش مناسب للربح • وأثناء التعامل مع الغرباء الذين لا يعرفون نظام الموازين المصرى توزن المصوغات الفضية فى العادة مقابل قطع الروبيات أو خمسة الفرنكات • أما المصوغات الذهبية فتوزن مقابل فرنكات نابليون أو الجنيه الذهب الانجليزى • أما الحلوى المصنوعة فى القاهرة فانها تتكون أساسا من السلاسل والحلقات والجلخيل والأساور والعقود المعلق فيها قطع العملات أو القلائد التي على شكل ناب الفيل ، وعلب الأحجية المزركشة بالثقوب أو النحاس المضغوط ، والأساور اليدائية التنفيذ ولكنها من طرازات ثمينة وقديمة • أما بخصوص التجار فان أدبهم وصبرهم ليس لهما حدود ، فقد يقبل المشتري كل مخزونهم

ويجرب جميع أساورهم ، ويذهب مرة أخرى دون أن يشتري ، ولكنه يلقي الترحيب دائما ويشيع بالابتسامات ولقد أمضت الكتابة ورفيقتها: عدة ساعات تتحدثان العربية في خان الخليلي دون أن تكون هناك أية درجة من القائدة المائلة للتجار .

وهناك أسواق خاصة أخرى كثيرة في القاهرة مثل سوق الحلويات ، وسوق الأدوات المعدنية ، وسوق الدخان ، وقلائد السيوف ، وأسواق النحاس ، وسوق المصنوعات الأندلسية حيث تباع الطرايش والبرانس ومصنوعات البربر . وهناك بعض الأسواق المزدهمة لبيع الموسلين الانجليزى والفرنسي والبضائع المصنوعة من القطن في هانسنستر ، ولكن هذه البضاعة الأخيرة ذات أهمية ثانوية في معظمها . ورأينا بين المصنوعات الانجليزية التي صنعت بالذات للسوق الشرقية نوعا من الموسلين المطبوع القنيح الشكل يمثل جنيت صغيرة سوداء تتقافز فوق أرضية صفراء ، وعلمنا أنه يجد اقبالا لصنع فساتين الأطفال .

وبالرغم مما تمثله الأسواق من مناظر جميلة الا أنها ليست المعالم الوحيدة الجديرة بالمشاهدة في القاهرة ، بل توجد المساجد الكثيرة والبوابات الشرقية القديمة الفخمة ، والكنايس القبطية القديمة ، ومتحف الآثار المصرية ، وعلى مسيرة قليلة توجد مقابر الخلفاء ، وهليوبوليس ، والأهرام ، وأبو الهول . ويصعب على السائح الآن أن يتذكروا الترتيب الذي يشاهدون به هذه الأماكن لأنهم كانوا يعيشون في حلم ، وكانوا في البداية يرتبون كثيرا لدى محاولة ترتيب مشاعرهم بشكل منظم فكانوا يضطرون الى أن يملأوا على بعض الأماكن بنظرة خاطفة ، بينما كان عليهم تأجيل زيارة أماكن أخرى حتى عودتهم للقاهرة .

وفي نفس الوقت كان شياغلنا الأول هو النظر الى العائمات (الذهبيات) . وقد أجبرنا ذلك على تحويل خطواتنا وأفكارنا في اتجاه بولاق بصفة مستمرة . وهي موقع غير مأهول على ضفة النيل ترسو فيه حوالى مائتين أو ثلاثمائة قارب نيلي معدة للايجار . وآلآن فلعل غالبية الناس تعرف شيئا عن مشقات تاجر منزل ، ولكن أصحاب التجارب فقط هم الذين يعرفون كم هي حادة مشقات تاجر ذهبية . انها أكثر أرباكا وأكثر اجهادا ، كما أنها مخوفة بمتاعبها الخاصة وغير المألوفة . أما القوارب في المقام الأول فانها متشابهة البناء بخلاف المنازل ، كما أن منها الأكبر أو الأصغر ، والأنظف أو الأقذر ، ومع ذلك تتشابه مثل المحارات التوأم . ونفس الكلام يقال عن قباطنتها مع نفس الاختلافات لأن الشخص الذي وصل الى مصر منذ أيام قليلة لا يفرق بين رجل أسود أو نحاسي اللون ، وبين رجل آخر أسود أو نحاسي اللون . وعلى ذلك

فان كل ريس أو كابتن يحمل الشهادات التى أعطيت له من السباح السابقين ، وهذه الشهادات موضوعة ومتداولة بشكل ظاهر بحيث تنتقل بطريقة سرية على أسطح المراكب المختلفة وبين أيدي الأدياء المختلفين . والأكثر من ذلك فان الذهبيات تغير مواقعها وهو أمر لا يحدث بالنسبة للمنازل ، وعلى ذلك فان المركب الذى كان راسيا بالأمس بجوار الضفة الشرقية قد يكون راسيا اليوم بجوار الضفة الغربية ، أو مختفيا بين دسنة من المراكب الأخرى على بعد نصف ميل جنوب النهر . وكل ذلك يعقد الموضوع بشدة ، ولكنه لا يساوى شيئا اذا قورن بحالة الارتباك التى يدخل فيها الانسان عندما يحاول تقييم مميزات ومساوىء المراكب ذات القمرات الست بالنسبة للمراكب ذات الثمانى ، أو المراكب التى بها بوفيه والمراكب التى لم تزود به ، أو المراكب التى تستطيع عبور الشلال والأخرى التى لا تستطيع ، أو المراكب التى تتضاعف أجرتها مرتين والمراكب التى تعاني من هذا العيب خمسة أو ستة أضعاف . وأسمائها هي : الغزالة ، والثروة ، والفسطاط ، ودنقلة ، وهى أسماء تختلف عن أسماء قباطنتها لأنهم جميعا يحملون أسماء محمد أو حسن . أما أجورها فليست كذلك لأنها تختلف من يوم لآخر حسب حالة السوق كما هو واضح من عودة المسافرين بالفنادق الرئيسية .

أضف الى كل ذلك حقيقة أنك لا تجد قبطانا يتحدث أية لغة سوى العربية وأن أية كلمة للاستفسار أو التفاوض تتعرض للتحريف عن معناها لأنها تصل عن طريق الترجمان . وربما يستطيع هؤلاء الذين لم يجربوا بعد هذه التشكيلة من مسرات المطاردة ، أن يكونوا فكرة عامة عن العملية المرهقة واليائسة والمربكة التى تكتنف استئجار ذهبية فى القاهرة .

وتصادف أنه خلال عشرة الأيام الأولى تقريبا كان لابد من تخصيص ثلاث أو أربع ساعات كل صباح للمأمورية المراكب ، وفى نهايتها لم تكن نصل الى نتيجة تختلف عما بدأناه . أما المراكب الصغيرة فكانت صغيرة بحيث لا توفر عنصرى الراحة أو السلامة خاصة خلال ما يطلق عليه المسافرون فى النيل اسم « الريح الكبيرة » ، أما المراكب المتوسطة الحجم (التى ترسو تحت حجة استخدامها فى الصيف لغرض «نقل البضائع») فاننا نشك فى نظافتها . أما المراكب الأكبر التى لا غبار عليها والتى كانت تتضمن ما بين ثمانى الى عشر قمرات بالإضافة الى صالونين ، فقد كانت كبيرة جدا بالنسبة للكاتبه ورفيقتها واحدى الخدمات . وكانت هذه

المرابك جميعها باهظة الأجرة . أما وقد حوصرنا بهذه المصاعب المتنوعة ، مع الاصغاء حيناً الى رأى هذا الشخص وحيناً آخر الى رأى غيره . ومع التروى والمساومة والمقارنة والتراجع ، كنا نتردد يومياً بين بولاق والقاهرة مما جعلنا نعيش فى تعاسة . وفى نفس الوقت تقابلنا مع بعض المعارف القدامى ، كما تعرفنا بأصدقاء جدد . وعند عدم الشعور بالتعب الشديد أو الإحباط ، كنا نشاهد ما نستطيع مشاهدته من مناظر القاهرة . وقد ساعد ذلك فى التخفيف من معاناتنا كثيراً . وبالطبع كانت ضمن جولاتنا الأولى مشاهدة الأهرام التى تقع على مدى ساعة ونصف من باب الفندق باستخدام الحنطور . وقد بدأناها مبكرين بعد تناول غداء مبكر . واستغرقنا المسافة كلها فى طريق ممتاز ، وعدنا لتناول العشاء فى وقته المناسب وهو الساعة السادسة والنصف . وليكن معلوماً أننا لم نذهب لزيارة الأهرام ولكن لمجرد النظر إليها فقط . وفيما بعد (بعد أن قمنا برحلتنا عبر النيل وعدنا منها ومع قضاء عدة شهور فى التدريب) عدنا مرة أخرى ومعنا - ليس فقط - فراغ كبير بل وأيضاً بعض الفهم العملى للمراحل العديدة التى مرت بها الفنون والعمارة المصرية منذ الأيام البعيدة التى يمثلها عصر خوفو وخفرع . وعلى ذلك يمكن القول بأننا رأينا الأهرام . وعندما وصلنا الى هذه المرحلة من رحلتنا المقدسة يصبح من الأفضل تأجيل كل شيء مثل تفاصيل قصة الأهرام أو البيئة المحيطة بها . أما عن هذه الرحلة المختصرة فيكفى هذا التقرير الموجز .

يلقى معظم السياح أثناء قدومهم من الاسكندرية أول نظرة على الأهرام من شباك عربة قطار السكة الحديد ، وهى نظرة ذات تأثير لأنها لا تذهب بأنفاس المشاهد ، ولكنها لأول وهلة تشبه رؤية جبال الألب لأول مرة من المستوى المرتفع لخط نيوفشاتيل ، أو المعالم الخارجية لقلعة الأكروبوليس فى أثينا عندما يتعرف إليها الشخص لأول مرة من ناحية البحر . ان الأشكال المثلثة المعروفة جيداً ، تبدو صغيرة وغارقة فى الظلال ، بينما من المعتاد رؤيتها وهى تلمع بصرف النظر عن طريقة الرؤية ، وأظن أن ذلك صحيح بصرف النظر عن المسافة ، فهى بعيدة من أية جهة مما يصعب وسيلة قياس حجمها بالنسبة لغيرها من الأشياء . ولا يستطيع الانسان أن يبدأ فى الإحساس بغرابتها الا عندما يقترب منها ويلاحظ كيفية تزايد حجمها مع كل قدم يقطعه من الطريق .

وأخيراً عندما تصل الى حافة الصحراء وتصعد المنحدر الرملي وتقف فوق الساحة الصخرية ، ويرتفع الهرم الأكبر بكل ضخامته وعظمته غير

المتوقعة فوق رأس المشاهد ، يكون التأثير مفاجئاً مثلما هو رائج . انه يحول دون رؤية الأفق ، كما يحول دون رؤية كافة الأهرام الأخرى . انه يحول دون كل شيء فيما عدا الاحساس بالروعة والغرابة .

والآن يكتشف الانسان أيضا أنه من خلال شكل الأهرام فقط يتعرف الى كافة هذه السنوات التي مضت . أما عن سطحها ولونها وموقعها النسبي وعددها (ولا تتحدث عن حجمها) فلا يستطيع الانسان أن يستمتع بأي نوع من الأفكار المحددة . أما أكثر الدراسات دقة للمساقط والمقاييس ، وأكثر الصور وضوحا ، وأكثر الأوصاف اسهابا ، فانها لم تقدم إلا القليل ، ان لم تكن تقدم شيئا بالبرة ، لتمكن المرء من أن يعرف المكان سلفا . ان هذه الهضبة من الرمال المتوجة ، والصخور التي تمتلئ بالقبور المفتوحة مثل الثقوب ، وتركبها روابي البنايات الحجرية التي ليس لها شكل محدد ، لا تشبه الصحارى التي نشاهدها في احلامنا . ان هرمى خوفو وخفرع أكبر مما كنا نتوقع . أما هرم منكوارع فهو أصغر حجما . وهنا أيضا توجد تسعة أهرام بدلا من ثلاثة ، وجميعها موجودة على الخرائط ومذكورة في كتب الدليل السياحي ، ولكن الانسان غير مستعد لاكتشاف أنها ثلاثة ، ولا يستطيع أن يستمر في النظر إليها . كاهرام دخيلة . ان هذه الأهرام الستة الزائفة صغيرة ومتداعية . والحقيقة . أن أحدها صغير بما لا يتجاوز حجم رجمة كبيرة من الحجارة .

وحتى الهرم الأكبر فانه يربكنا بما يضيفه من احساس غير متوقع . بالتناقض . اننا جميعا نعرف وقد عرفنا منذ الصغر أنه قد نزعته منه طبقة الأخجار الخارجية منذ حوالى خمسمائة عام لبناء المساجد والقصور العربية (*) ، ولكن على الرغم من ذلك فان الجسم الصلب الذى يتميز بالمظهر الضخمرى لهذا الهرم العملاق يصيبنا بالدهشة . ولا يبدو عليه ما حدث من تخريب جزئى . انه يبدو كما لو كان قد ترك دون استكمال ، وأن العمال سيعودون فى صباح اليوم التالى .

ومرة أخرى نجد اللون مدهشا . هناك القليل من الناس الذين يعرفون مسبقا اللون الأصفر المائل للسمرة الذى يتحول اليه الحجر الجيرى المصرى بعد قرون من التعرض لأشعة سماء مصر الملتهبة . وإذا

(*) لم يثبت هذا الافتراء علميا والثابت أن سقوط الكسوة كان من عوامل الزمن .

عبر التاريخ - (المراجع) .

نظرت الى الأهرام في ضوء أشعة معينة فانها ستبدو كصروح ذهبية ضخمة .

ولما لم نقض سوى ساعة وأربعين دقيقة في هذه البقعة ، فقد رفضنا في هذه المرة الأولى بحزم أن نرى أو نسمع شيئاً أو نتنقل الى أى مكان - فيما عدا عدة دقائق قضيناها عند حافة التجويف الرملي الذى يرقد فيه أبو الهول جاثماً مرفوع الرأس . لقد وددنا أن نكرس كل انتباهنا وكل وقتنا القصير للهرم الأكبر فقط ، دون أن نحظى ببعض الانطباعات عن مظهر هذا البناء الضخم الخارجى وحجمه ، ودون أن نركز عقولنا فى شيء مثل فهم عصره ، لأن ذلك كان كافياً وأكثر من كاف فى مثل هذه الزيارة القصيرة .

وذلك أنه ليس من السهل أن تستوعب حتى ولو بشكل سطحي فترة ستة أو سبعة آلاف عام ، فالهرم الأكبر الذى كان عمره أربعة آلاف ومائتى عام وبعض الأعوام عند ميلاد السيد المسيح (*) ، وهو يعيش الآن الألف السابعة، ولذلك فإن الوقوف هناك بجوار قاعدته وملاستها وقياس ارتفاعها بالنسبة لبعض أحجارها السفلية والتأمل فى كافة أطوار التدهور الضخم لهذا الحائط غير المستوى الذى يقود الى أعلى مثل دعامة شاهقة تبدو كما لو كانت تلامس السماء ، يجعل الكتابة تدرك فجأة أن هذه التواريخ البعيدة لم ترد على فكرها حتى هذه اللحظة الا فى شكل أرقام مجردة . والآن وللمرة الأولى أظهرت نفسها فى شكل شيء مادي محسوس ومحدد وحقيقى . انها لم تعد مجرد أرقام ، بل سنوات بفصولها المتغيرة ، وفيضان نيلها العالى أو المنخفض ، ومواعيد بذرها وحصادها . أما الاحساس بهذه اللحظة فلن يضمحل . انها تبدو كما لو أن أحدا قد اختطف لحظة الى ارتفاع كبير أطل منه على سهول الزمن ورأى القرون ترسم خريبتها تحت أقدامه .

ان الإعجاب بضخامة الهرم الأكبر أقل صعوبة من ادراك عمره . ولا يستطيع أحد سار بطول أحد جوانب الهرم ، وتسلق قمته ، ودرس أبعاده عن العالم مودى ، أن يخطئ فى تكوين فكرة واضحة وسهلة عن ضخامته وحدها . ان المقاييس التى أعطاها لنا سير جاردنر ويلكسون هى كما يلى : طول كل جانب ٧٣٢ قدما ، الارتفاع الرأسي ٤٨٠ قدما

(*) بنى الهرم الأكبر فى الفترة من ٢٥٢٨ - ٢٥١٦ قبل الميلاد - (المراجع) .

و ٩ بوصات ، ومساحته ٥٣٥٨٤٢ قدمًا مربعًا (١) . وعلى ذلك نقول ان الارتفاع يزيد ١١٥ قدمًا و ٩ بوصات عن ارتفاع الصليب الموجود فى قمة كنيسة القديس بطرس (فى روما) وحوالى ٢٠ قدمًا أقل من تل بوكس فى سوڤاى . وإذا انتقلنا الى لندن فانه سيكون أكبر قليلا من أن يغطى المساحة الكلية لحقول فندق لنكولن . وهذه البيانات الحقيقية كافية وسهلة الفهم ولكنها مثل سائر الحسابات التى من هذا النوع تعجز عن بيان حقيقة عظمة الهرم الأكبر .

أما ما يتجاوز تأثيره وصف الأرقام ذات الأهمية أو المقارنات المدهشة ، فهو الظل الذى يلقيه الهرم الأكبر عند غروب الشمس ، حيث يمتد هذا الظل العجيب والحاد والواضح ، عبر هضبة الصحراء الحجرية مغطيا ثلاثة أرباع الميل من السهل الأخضر الذى تحته . انه يقسم ضوء الشمس حيث يقع ، مثلما تقسم بدايته العظيمة ضوء الشمس فى الهواء

(١) منذ نشر الطبعة الاولى لهذا الكتاب فان طبع العمل النموذجى الذى قام به سير . م . فلندرز بترى - وعنوانه اهرام ومعابد الجيزة The Pyramids and Temples of Gizeh ، وضعت للمرة الاولى - تحت تصرف الدارسين - وصفا شاملا وبقيا وعليا للمهرم الأكبر حيث حسب من الجايف المحفورة فى الصخر الى الأركان الأربعة ومن المستوى الحقيقى للسطح الرصوف ، ما جعله يكشف أن مربع القاعدة الأصلية للبناء مقدرا بالبوصات يعطى هذه الأبعاد :

الاتجاه	الطول	الاختلاف عن المتوسط	زاوية السمث	الاختلاف عن المتوسط
شمال	٩٠٦٩ر٤	+ ٠٦	- ٢٠ ثانية ٣ دقائق	+ ٢٣ ثانية
شرق	٩٠٦٧ر٧	- ١١	- ٥٧ ثانية ٣ دقائق	- ١٤ ثانية
جنوب	٩٠٦٩ر٥	+ ٠٧	- ٤١ ثانية ٣ دقائق	+ ٢ ثانية
غرب	٩٠٦٨ر٦	- ٠٢	- ٥٤ ثانية ٣ دقائق	- ١١ ثانية
المتوسط	٩٠٦٨ر٨	٠٦٥	- ٤٢ ثانية ٣ دقائق	١٢ ثانية

أما عن الارتفاع فانه بعد دراسة كل البيانات مثل سمك الأحجار الثلاثة التى تمثل الغلاف ، والسمك المفترض للأحجار التى واجهت من قبل الأدوار العليا من البناء ، أعطى حسب ملاحظاته الزاوية المتوسطة للمهرم ، كما أعطى الارتفاع من القاعدة الى القمة حيث بلغ ٧ - أو + ٥٧٧٦ بوصة . انظر كتاب بترى المذكور - الفصل السادس - ص ٣٧ - ٤٢ .

العلوى فتغطي الفضاء الذى تشغله بظلام يشبه كسوف الشمس . ومن أكثر الأشياء إثارة للمشاعر الرائعة أن يتذكر الانسان كيف يضمحل نفس هذا الظل عند تسجيله ، ليس فقط ارتفاع أضخم ساعة شمسية اقامتها ايدى البشر ، بل أيضا المسار البطيء يوما بعد يوم على مدى أكثر من ستين قرنا من تاريخ الدنيا . وكان الظل ما يزال ممتدا فوق المنظر الطبيعى كلما هبطنا المنحدر الرمل الطويل حتى وصولنا الى الحنطور . وقد أسرع حوالى ستة أو ثمانية أعراب فى عباياتهم المرفرفة لكى يودعونا الوداع الأخير ، وكان ركوبنا من القاهرة – لكى نجلس فى هدوء وننظر الى الهرم الأكبر – قد ملأهم بالدهشة الخالصة .

ومع مثل هذه الطاقة والانجاز اللذين يستخدمهما السائح الحديث لابد أن نكون قد وصلنا الى القمة ، ورأينا معبد أبى الهول ، وشاهدنا فى نفس الوقت مقبرتين أو ثلاثة من المقابر الرئيسية .

وقال لنا الأعراب : « عودوا مرة ثانية .. ان الأعراب الطيبين سيجعلونكم ترون كل شيء .. انكم لم تروا شيئا فى هذه المرة » .

ومضى بنا الحنطور مع وعودنا بالعودة عما قريب وعلى الرغم من ذلك كنا نشعر بالرضا عن الطريقة التى قضينا بها الوقت .

ان بدو الهرم قد لقوا الكثير من الاساءة من السياح وكتب الأدلة السياحية ، ولكننا لم نجد سببا يدعونا للشكوى منهم الآن أو فيما بعد . انهم لم يتزاحموا حولنا أو يسيروا خلفنا ، ولم يلاحقونا بالطلب على أية حال . انهم يتدققون حيوية وثرثارون بطبعهم ، ولكن أصدقائنا الظرفاء كانوا يتحولون الى حالة الصمت مثل المصابين بالخرس ، عندما يجدوننا نريد الصمت . وكانوا يرضون بالبشيش المتوسط عند الانصراف .

وتمثلت النتيجة المناسبة لهذه الجولة القصيرة التى قضيناها فى أننا فكرنا فى اليوم التالى أن نشاهد مسجد السلطان حسن أحد معالم المصور الوسطى ، فقد قيل انه بنى بأحجار الطبقة الخارجية للهرم الأكبر (*) .

(*) ادعاء كاذب علميا – (المراجع) .

الفصل الثانى

القاهرة والحج الى مكة

الحقيقة أن مسجد السلطان حسن يعتبر أجمل مساجد القاهرة ، وربما أيضا أجمل مسجد فى العالم الاسلامى ، لقد بنى أثناء تلك اللحظة السعيدة التى بدأ فيها الفن الاسلامى فى مصر يتوقف عن الاحتواء أو التقليد ، ويستنبط لنفسه طرازا معاريا أصيلا من بين العناصر غير المتجانسة للصروح الرومانية والقبطية المبكرة . لقد كانت مساجد القرون القليلة السابقة (التى شهدت على سبيل المثال جامع ابن طولون الذى يمثل أول انطلاق من النموذج البيزنطى القديم) (*) تتكون مما يزيد قليلا عن فناء به أبواب تقود الى قاعة تدعمها غابة من الأعمدة . وبعد أقل من قرن كان الطراز الوطنى قد عبر بدايات ذلك الانقطاع الطويل عن استخدام الطراز البيزنطى الى نهضة جديدة طورت هذا الطراز ، متمثلة فى مسجد محمد على ، ولكن مسجد السلطان حسن الذى بنى قبل سقوط القسطنطينية بسبع وتسعين سنة ، يعتبر ممثلا لأعلى نقطة ميل وصل اليها الفن العربى فى مصر بعد استخدامه للمواد اليونانية والرومانية التى كانت فى منف ، وقد تم تعديله قبل تحقيق أصالته الوليدة بادخال تأثيرات قادمة من وراء البسفور ، ولا يرجع سبب تفوقه الى ضخامة أبعاده ولا الى فخامة المواد المستخدمة فى البناء . انه لا يماثل المسجد الكبير فى دمشق من حيث الضخامة ، ولا جامع أيا صوفيا فى القسطنطينية من حيث غناه بالرخام الثمين ، ولكنه يتفوق فى التصميم ، والتناسب ، وفى جاذبيته الشامخة التى لا يمكن وصفها . انه يتفوق على هذين المسجدين وعلى غيرهما من المساجد سواء منها الأصيلية أو المعدلة التى تعرفت عليها الكاتبة ، لأن البناء كله وطنى خالص ، كل خط أو حنية منه ، وكل بوصصة من

(*) خطأ علمى ، والصواب أنه على طراز المساجد التى أنشئت فى عهد المعتصم بالله الخليفة العباسى والذى أنشئت فى عهده مدينة سامراء - (المراجع)

التفاصيل تمثل أفضل طراز لأفضل فترة في تاريخ المدرسة العربية . وهو قبل كل شيء خير معبر عن الغرض الذي صمم من أجله . وعلى العكس فإن المسجدين الشهيرين في دمشق وفي القسطنطينية كانا في الأصل كنيسيتين مسيحيتين ، وهو ما تكشف عنه البراهين الدالة على التعديل . ففي جامع أيا صوفيا يمكن تتبع الفراغ الذي كان يحتله من قبل تمثال القادى ، في أعمال الموزاييك التي في محراب المسجد والتي غطيت بأشغال الفسيفساء في تاريخ لاحق . وكذلك فإن البوابات العظيمة بالمسجد الكبير في دمشق قد زينت ضمن رموز مسيحية أخرى برموز العشاء الرياني . أما مسجد السلطان حسن الذي بناه الناصر حسن في الأيام العظيمة المزدهرة من حكم المماليك ، فلم تعكر صفوه أية تناقضات . لقد صمم ليكون مسجدا ، وظل هكذا مسجدا ، وسرعان ما تحول الى أثر جميل .

وقد هدم عدد من الشوارع الصغيرة في هذا الحي مؤخرًا بحيث أصبح طريق الوصول واقعا عبر فضاء واسع مهجور بعثرت في أرجائه بعض الانقاض ولكنه سيصبح ميدانا عاما . ولتحقيق هذا الهدف المقبول نظريا شاهدنا حوالى ستة عمال يعملون متكاسلين في تحميل عدد من الابل بالانقاض . وهذه هي الطريقة العربية لنقل النفايات . وإذا استمر هؤلاء العمال في عملهم ، واستمر وزير الأشغال العامة في دفع أجورهم في مواعيدها المضبوطة ، فربما يتم إخلاء الأرض خلال فترة ثمانى أو عشر سنوات ! .

وعندما أوصلنا الحنطور بصعوبة الى أسفل درجات السلم العظيمة والتي كانت مزدحمة بالمعوزين الذين يدخنون وينامون ، رأينا شقا طويلا ظاهر الاتساع يصل تقريبا من قمة الى أسفل الحائط الرئيسى للبناء ، بجوار المئذنة . وبدا كما لو كان شقا ناتجا عن وقوع زلزال . ونظرا لأنه مازال جديدا في الشرق ، فقد تعجبنا لأن الحكومة لم تبدأ العمل فى إصلاحه ، وكأنه قد كتب على القاهرة ألا يتم أبدا إصلاح شيء فيها !! . اننا نجد هنا كما في القسطنطينية مباني جديدة ترتفع بسرعة ، ولكن المباني القديمة بصرف النظر عن مدى جلالها ، قد جرى التناقص عن تأكلها بوصة بعد بوصة حتى لا يتبقى منها سوى كومة من الانقاض .

وبعد صعود السلالم ، ومن خلال بهو شاهق الارتفاع ثم صعود بعض الدرجات الإضافية ، ثم المرور عبر ممر مظلم ، وصلنا الى القاعة

الكبرى، والتي كان علينا أن نخلع أحذيتنا قبل دخولها ، وارتداء شباشب مخصصة لهذا الغرض . وتمثل رؤية هذه القاعة لأول مرة قمة الانارة . انها لا تشبه شيئا سبق لنا رؤيته من قبل ، ويتساوى جمالها مع حدائتها . تخيل شكلا هندسيا ذا أربعة أضلاع ، يغلفه الرخام الثمين ، مفتوحا نحو السماء ومحاطا بحوائط مرتفعة ، وفي كل جانب من جوانبه حنية واسعة يحيط بها عقد مرتفع . أما مساحة الشكل الرباعي فهي تزيد على مائة قدم مربع ، كما يزيد ارتفاع الحوائط عن مائة قدم أيضا . وتشكل كل حنية قاعة فسيحة للراحة والصلاة . وجميع الحنيات مفروشة بالحصر ، ولكنها في طرفها الشرقي أرحب وأعمق بخلاف الأطراف الثلاثة الأخرى . أما العقد الفخم الذي يحيط بها فهو يشبه الجزء الأمامي من خشبة مسرح كبير ، وتبلغ المسافة بين ضلعيه ٦٩ قدما و ٥ بوصات خشب ما ذكره فرجسون ، وان كانت تبدو أكبر من ذلك كثيرا . وهذه القاعة الرئيسية التي ترتفع أرضيتها بمقدار درجة سلم واحدة عند نهايتها العلوية يبلغ عرضها ٩٠ قدما ، وارتفاعها ٩٠ قدما . والمنصة مغطاة بسجاد الصلابة الصغيرة ، وهي تتضمن المحراب ومنبر الخطيب . وقد لاحظنا أن هؤلاء الذين حضروا هنا قد جاءوا للصلاة فقط . وبعد الانتهاء من الصلاة اما أن يمضوا الى الخارج ، أو ينتحوا جانبا داخل إحدى الحنيات للراحة . وتوجد في الساحة فسقية رائعة لها سقف تعلوه قبة فتبدو مثل فقاعة كبيرة من حيث الشفافية والقابلية للكسر ، ويتوضأ فيها كل عابد عند دخوله المسجد . وبعد الوضوء يترك شبشبه على الحصر ، ويدوس على سجاد المنصة بقدميه العاريتين .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي نشاهد فيها المسلمين أثناء الصلاة وتأثروا كثيرا لاستغراقهم العميق وغير المتكلف . كان بعضهم ساجدا بحيث تلمس جبهته الأرض ، والبعض الآخر راكعا ، والبعض الآخر منحنيا في الوضع المحدد للصلاة . وكانوا هم جميعهم شديدي الاستغراق حتى بدا أن وجودنا الغريب قد ضايقهم . ولم تكن نصرف حينذاك أن المسلم الصالح يتصف بالتقوى خارج المسجد مثلما هو داخله . أو أن تلك هي عادته في أداء الصلاة في أوقاتها المحددة بصرف النظر عن مكان أو كيفية انشغاله . وسرعان ما تعودنا على هذه الخاصية الواضحة في الحياة الإسلامية بحيث صارت أمرا لا جدال فيه ، حتى ان راكب الجمل يتحتم عليه أن ينزل عنه ويسجد واضمعا جبهته على الأرض بجانب الطريق ، كما أن التاجر ينشر سجادة الصلاة الخاصة به على الأرض متوجها بوجهه نحو الشرق عند غروب الشمس خلف تلال الصحراء الغربية .

وبينما كنا معجبين بارتفاع السقف وزخارف المنبر المصنوعة من زخارف أوراق الشجر (أشغال الأرابيسك) المعقدة ، جاء الحارس ومعه مفتاح كبير ودعانا لزيارة قبر مؤسس المسجد ، فتبعناه الى قاعة ضخمة تعلوها قبة مساحتها ١٠٠ قدم مربع ، أقيم في وسطها قبر منبسط يحوطه سور وقد وضع في أسفله صندوق مربوط بالحديد . وعرفنا فيما بعد أن ذلك الوضع مضى عليه خمسمائة عام منذ وفاة ودفن السلطان حسن . وهذا الصندوق كانت به نسخة فاخرة من المصحف قيل ان السلطان حسن قد كتبها بخط يده ، ولكن الخديو الذي يجمع المخطوطات العربية المختارة والاثرية أرسل في اليوم السابق فقط أمرا برفعها .

ولم أر شيئا أشد أو أفخم من تناسق أبعاد قاعة الضريح هذه ، التي غطيت حوائطها بالزخرفة الدقيقة ، المحفورة على الخشب مع ملء الفجوات بقطع الخبز وأشغال الفسيفساء ذات اللون الفيروزي . أما الارتفاع فالغرض منه حمل عقود السقف . وتحقق استدارة الأركان بواسطة عناقيد مجوفة من أشغال الأرابيسك الرائعة مثل الدلايات ، ولكن أشغال الفسيفساء تسقط بسرعة ، ولذلك فإن معظم فجواتها فارغة . وقد علقنا أشغال الخشب الجميلة على شكل شظيات مهلهلة ومحاطة بنسيج العنكبوت مثل الرايات القديمة التي تمرقها أول لمسة من الفرشاة ،

ومع عودتنا من الضريح الى الفناء لاحظنا آثار الانهيار في كل مكان . ذلك أن الفسقية التي كانت يوما ما معجزة من معجزات الزخرفة العربية ، توشك على الانهيار ، وقد تشقق الرخام الموجود في قاعدتها وبهتت ألوانه . أما قبتها المزخرفة بالجص فقد تساقطت قشرتها في أجزاء متفرقة ، كما تساقطت طبقة الميناء ، وتمزقت زخرفتها الخشبية التي تشبه الأربطة في كل بوصة .

ونرى الآن طائرا صغيرا بلون بني وذهبي يجثم في ثقة على حافة الحوض . وبعد أن نثر الماء وشرب منه ورتب ريشه مثل العابد الصالح أثناء الوضوء ، طار الى قمة القبة وغنى فرحا ، بينما خيم الصمت على ما عداه . وقد شقت الشكل الهندسي ذا الأضلاع الأربعة مساحات كبيرة من الأنوار والظلال . وظهرت السماء فوقنا مثل فتحة مربعة من الزرقة الشديدة ، بينما الناس هنا وهناك ما بين منحن ، ومصبل ، أو مستغرق في الهدوء ، وقد تنثر عدد من لابسى العمام في شكل بديع فوق أرض القاعات المكشوفة المغطاة بالحصى . وهناك جلس ترضى متقاطع الساقين يصنع صديرية ، وبالقرب منه استلقى صانع سلال مع

سلسلته نصف الجدولة الممتدة بطولها على وجهه، وبجانبه حزمة من السمار،
وهنا رقد بالقرب منه أعمى ومعه كلبه ، فكان السيد نائماً وكتبه
يخرسه . ولما كان ذلك كما سبق أن قلت هو أول مسجد تقوم بزيارته ،
فاننى أتذكر جيداً المفاجأة التى أدهشتنا لدى رؤية ذلك الترسى وهو
يخطط أزواره بينما يرقد النائمون حوله فى الظل . ولم نعرف حينذاك
أن مسجد المسلمين مكان للراحة والحماية مثلما هو للصلاة ، أو أن العربى
الذى لا مأوى له قد يجد المأوى هناك سواء فى الليل أو أثناء النهار بنفس
الحرية التى تبنى بها الطيور أعشاشها فى افريزه العلوى ، أو مثلما
يشارك كلب الرجل الأعمى سيده النائم فى الظل البارد .

وبعد عدة دقائق من الصعود بالخطور من عند هذا المسجد الذى
ينتمى لحكم المماليك ، نصل الى مسجد محمد على الذى بناه على أوامره
نفذت مذبحه قتل فيها آخر سلالة هذا الجنس السلطانى منذ ٦٤ عاماً
حضت (*) وقد بنى هذا المسجد داخل حرم القلعة على حافة بارزة من تلال
المنظم ، تطل على مدينة القاهرة ، وهى من أكثر مناطق القاهرة زوغة .
وتظهر مآذنه الرقيقة وقبابه المتجمعة من كل جهة وعلى مدى عدة أميال .
وتظل ظاهرة للنظر مدة طويلة أثناء رحيله أو عودته للقاهرة أكثر من
كافة المعالم الأخرى . وهو مبنى عام فسيح وثمانين ومزدحم ، ولا يحيط به
شيء جميل فيما غدا الفناء الرخامى العظيم والفسقية . أما داخل المسجد
الذى بنى بكامله من المرمر الشرقى ، فقد كان مفروشا بالسجاد التركى
الغنى ، وعلقت فى سقفه ثريات عديدة مصنوعة من الزجاج البلورى
المصقول .

وتظهر فخامة المنظر من الهضبة الخارجية . وقد رأينا خلال يوم
مليد بالضباب، ولذلك لم نستطع التعرف على ملتقى الدلتا الذى كان من
المفروض أن يظهر فى اتجاه الشمال . ولكننا استطعنا أن نرى المنظر
جنوباً حتى هرم سقارة فى سهولة ويسر . وظهرت أهرام الجيزة على
منصة الصخرة الصخرية على بعد حوالى اثنى عشر ميلاً ، صغيرة وغير
ذات تأثير ، كما تظهر دائماً على البعد . ولكن الوادى الخصب العظيم
كان يتميز بالقرى الطينية التى تظهر كالبقع وقد تقاطعت فيه القنوات
ومسارات غابة النخيل . وقد ازداد النهر العظيم بإشعة القوارب
النيلية . أما مدينة القاهرة المدهشة فقد ازدانت كلها بالأسقف المسطحة

(*) مضى عليها حينذاك سبعة وسبعون عاماً بالإضافة الى أن الطبعة الأولى لهذا
الكتاب قد مضى عليها ٢٢٠ عاماً - (المترجم)

للمنازل ، والقباب الصغيرة والمآذن ، التي تنتشر مثل نموذج معقد التفصيل لدى قدمي المشاهد ، مليء بالزوايا الرائعة والتي سيطرت على كل انتباهنا . وعندما ننظر إليها من هذا الارتفاع يسهل علينا تصديق أن القاهرة تتضمن أربعائة مسجد ، وهي تقف على حافة التل على مثال مدينة روما الحديثة التي تتضمن ثلاثائة وخمسا وستين كنيسة (*) .

وعند نزولنا شاهدنا المكان الذي قتل فيه كبار المماليك وعددهم ٤٧٠ مملوكا (١) ، وقد حدثت هذه المذبحة في شهر مارس سنة ١٨١١ للميلاد . ورأينا البوابة العلوية التي أغلقت أمام المماليك لمنع خروجهم ، ويقال ان حوائط الممر الضيق الذي ارتكبت فيه المذبحة تظهر فيه الثقوب التي أحدثها الرصاص ولكننا لم نبحث عنها .

وقد ذكرت منذ قليل أنني لم أتذكر بالضبط الترتيب الذي تمت به جولتنا في القاهرة لسبب أننا رأينا بعض الأماكن قبل رحلتنا في النهر ، وبعضها الآخر بعد عودتنا ، والبعض الآخر (مثل متحف بولاق) مرتين قبل وبعد الرحلة ، على قدر استطاعتنا . ولكنني على الأقل متأكدة أننا شاهدنا عرضا للدرائش وهم يتصايحون ، ورحيل قافلة الحج الى مكة قبل بداية السفر .

ومن بين الأشياء التي يؤديها الناس وهم يشعرون بالسعادة ، متابعة موكب القافلة ، فهي بالتأكيد تعتبر من أكثر المتابعات ارهاقا ، فهم يسبقون مسافة طويلة لمشاهدتها ، كما ينتظرونها فترة طويلة مرهقة ، لأنها تصل دائما متاخرة . وبمجرد وصولها تنتهي بعد عدة دقائق . لقد تناولنا الافطار مبكرا وعلنا الخروج سريعا بعد الساعة السابعة والنصف وأخذنا مواقفنا خارج باب النصر في الطريق الى الصحراء في تمام النباعة الثامنة والنصف . وهنا جلسنا حوالي ثلاث ساعات معرضين

(*) يوجد بالقاهرة الآن ألف مسجد من المساجد الكبيرة وليس أربعائة ، هذا بخلاف آلاف الزوايا والمساجد الصغيرة التي لا يكاد يخلو منها شارع واحد . - (المترجم) .

(١) قيل ان مملوكا واحدا فقط هو الذي هرب وبسمه امين بك الذي قفز بحصانه من فتحة في الحائط ووصل سالما الى الميدان ثم هرب الى الصحراء . ولستمر موضع تفزته المشهورة يعرض على الزوار لعدة سنوات ولكن لا توجد الآن أية فتحات في الحائط . وتعتبر القلعة هي الأثر الوحيد في القاهرة الذي تجرى فيه الإصلاحات الكاملة

لنسحب التراب ولهيب الشمس دون أن نعمل شيئا سوى مراقبة الزحام والانتظار في صبر . وكان هناك كل نزل فتنق شبرد وكل غريب في القاهرة ، وقد ركبنا جميعا في حناطير رشيقة مفتوحة يجرها رجال بؤساء يسوقهم عرب حفاة الأقدام . وبالمناسبة فان هؤلاء العرب يحملون سياطا جيدة والرجال يجرون ببراعة ، وقد يبدو غريبا ومزريا في البداية أن نركب خلف حوذى لا يملك من الملابس الا خسرقة يلفها كمامة بيضاء قدرة ، وقميص متواضع يصل بالكاد الى ركبتيه وحذاء طويل الرقبة منحتة ايام الطبيعة (تقصد الساقين العاريتين) .

اما هنا خارج الحواظ فقد أخذ الزحام يتزايد في كل لحظة ، وظهر المكان مثل معرض به أكشاك لبيع الأطعمة ، ومراجيح ، ورواة للقصص ، وحواة يداعبون الثعابين ، وبائعو الفطائر ، وبائعو الحلوى والشربات ، والماء ، والليمونادة ، والمكسرات المسكرة ، والبلع الطازج والبيض المسلوق ، والبرتقال ، وشرائح البطيخ . وهناك النساء المحجبات يحملن أطفالا لونهن يرونزى ، يشبهون تماثيل كيوييد ، وهم منفرجو السيقان على أكتافهن اليمنى . ومن بين الحاضرين مصريون ذوو بشرة سمراء ، وأباش بلون الفحم الأسود ، وعرب ، ونوبيون من كافة درجات اللون من البنى الذهبى الى لون الشيكولاته ، وفلاحون ، ودرائش ، وأولاد يقودون الحمير ، ومتسولون ، وشحاذون بهم شتى أنواع العاهات التي يمكن تصورها ، رائجون وغادون وهم يحشرون أنفسهم بين الحناطير ذهابا وإيابا ، أو يفتشون جانبي طريق البوابة التي يملوها برج عظيم في كلا الاتجاهين . وآخرون يمثلون قمة كل حائط ، ويملاون البحر بالضحكات . وتشكيلة من اللهجات المحلية ، مع تلك العطور العربية التي لا تنفصل عن الجموع الشرقية . إنه حشد غير مؤذ ، ولكنه ليس له طعم ، ورحب الصدر ، وغير عدواني . وتكفى نظرة واحدة اليه حتى تهرب كافة التصورات السابقة عن تزمّت السلوك الشرقي ، فالحقيقة هي أن هذا التزمّت ليس خاصة شرقيّة . إنظر الى المسلم أثناء صلاته ، فستجده نموذجا للتجرد الديني ، ثم ساومه على شراء سجادة فستجده مثل القاضي لا يمكن كشف أسرارهِ ولكن انظر اليه في ساعات الاسترخاء ، أو في مناسبة يوم عطلة فستجده مثل طفل كبير في مرحلة ضحكته . وهو مثل الطفل أيضا يحب الضجيج والحركة لمجرد اثارة الضجيج والحركة ، وهو ينظر الى المراجيح والألعاب النارية بوصفها قمة السعادة الانسانية . والآن نجد أن المراجيح والألعاب النارية تمثل وسائل رزق عربية وتحل محل السيرك . ، وتشبهه رغبة الشخص العامي لمشاهدتها ، حيث لا يندمج فيها فقط في مناسبات الاحتفالات العامة ، ولكنه يلجأ اليها أيضا لأحياءه .

أقدس الأعياد الدينية . وقد حدث فيما بعد أن صادفنا أعياداً إسلامية عديدة سواء في مصر أو سوريا فوجدنا المراجيح تعمل طوال النهار والألعاب النارية كل مساء . واليوم فإن المراجيح لم تكن وحدها خارج باب النصر ، فقد كان معها مراجيح روسية تصدر أصواتاً وهي معلقة في مركبات ملونة لركوب الأطفال ، ومراجيح مربوطة بحبال يصل ارتفاع بعضها إلى مثل ارتفاع مشانق هامان (*) ويركبها الرجال . أما عن نفسي فأنني لا أعرف منظراً أكثر إثارة من منظر الاستمتاع الهادئ الذي يشعر به الرجل المصري المتوسط العمر ، الملتحي ، والمعمم ، وهو يجلس القرفصاء على كعبه فوق المقعد الخشبي الصغير في واحدة من هذه المراجيح الهائلة ويمسك بالحبال الجانبية للمحافظة على حياته ، ويصل ارتفاعه في الهواء إلى ٤٠ قدماً في كل مرة .

وقبل منتصف النهار يقلل عندما تصل الحرارة و سطوع الشمس إلى درجة لا تحتمل ، تتوقف المراجيح عن الحركة ، ويندفع الزحام في اتجاه البوابة ، وتعلن دقائق الطبول من بعيد عن اقتراب المؤكب . في البداية وصلت سلسلة من الجمال تحمل الأثاث الخاص بالخيام ، ثم حوالى مائتى حاج سائرين على الأقدام وهم يرتلون بعض الآيات القرآنية ، ثم تصل كتيبة من المشاة المصريين يلبس رجالها زياً عسكرياً مصنوعاً من النيل الأبيض الخشن مكوناً من معطف ، وسروال فضفاض ، وطزلق فوق الحذاء ، مع أحزمة متقاطعة بها صناديق الخرطوش المصنوعة من الجلد الأسود السادة ، وعلى رأس كل منهم طربوش أحمر . ويتبع هؤلاء عدد آخر من الحجاج وراهم مجموعة من الدراويش يحملون بيارق خضراء مطرزة عليها عبارات عربية باللونين الأبيض والأصفر ، وتلى ذلك فرقة من الفرسان الوطنيين يرأسها لواء وأربعة ضباط برتبة البكباشي في حللهم الفخمة المطرزة بالذهب ، تسبقهم فرقة للموسيقى العسكرية ، ثم فرقة أخرى ، تليها كتيبة أخرى من المشاة ، ويلى ذلك عدد آخر من الضباط في رتبة البكباشي تتبعهم كتيبة من الفرسان حامل الرماح يمتطون جياداً رمادية ويحملون الرماح التي في قممها رايات صغيرة حمراء وخضراء . وبعد مرور هؤلاء حدثت وقفة طويلة . وبعد عدد من الوقفات والمقاطعات وصل جمع غير منتظم من الحجاج ، غالبيتهم من طبقة الفلاحين وهم يدقون

(*) الخشبة التي ارتفاعها خمسون ذراعاً، أعدها هامان وزير الملك الفارسي شاهنشاه (ارتخشستا) لكي يصلب عليها مردخاي ، ولكن الصلب عليها صار من نصيبه هو بدلاً من مردخاي . (الكتاب المقدس - سفر أستير - الاصحاحات من ٩ - ٧) .
(. المترجم)

الطبول الصغيرة ، ويقدر عددهم بحوالى ألفين ، والآن يصل إلينا صوت المنشدين قبل وصولهم بوقت طويل حيث نرى الدراويش وهم جماعة متساكسة يلبسون الملابس القديمة ذات المظهر البالى ، وكانوا يديرون رؤوسهم من جانب الى جانب ويصدرون جلبة متواصلة وهم يصيحون قائلين « الله ! الله ! الله ! » ويصل عددهم الى مائتين . وجاء بعضهم مشايخ الطرق التى يتبعونها وهم يرتدون عباءات زاهية الألوان مطرزة بخيوط الذهب ويركبون خيولا عربية . أما أكثر المناظر طرافة فهو منظر شيخ الحسينيين يركب حصانه وعلى رأسه عمامة خضراء ، ويلبس عباءة فرمزية اللون وهو من أحفاد النبى . أما أهم شخصيات الموكب فهو الشيخ البكرى الذى يشبه عند المصريين رئيس أساقفة كانتربرى (*) ، وهو يرأس جميع الدراويش ، وقد وصل أخيرا راكبا حصانا عربيا أبيض اللون تكسوه كسوة مشغولة بخيوط الذهب . وكان رجلا مسنا ذا طلعة ودیعة ، وقد ارتدى عباءة بنفسجية اللون ، وعمامة ضخمة باللونين الأحمر والأخضر . وقد نبع هذا الشخص المكرم رئيس رابطة صناع الكسوة ، وهو رجل وسيم يجلس مستعرضا على جمل . وحدثت وقفة أخرى فى الموكب ، وقفة مشوقة . ووصل جمع يتمتم ، ثم ظهر شخص نصف عار منهمل الجسم ، وشعره فى شكل خصلات سوداء طويلة ، وله ذقن ثلاثية ، ولا يلبس شيئا سوى سروال أبيض قصير ، وشبشب أحمر ، راكبا على جمل نحيف يجرى بسرعة جعلت جنبى الراكب السمين يترجرجان ، ورأسه يدور مع كل خطوة ، كما لو كان فى حالة سكر . وقد سرت رعشة من السرور بين الجماهير لدى رؤيتها لهذا الرجل المبروك المشهور باسم (شيخ الجمل) معروف الجماهير ، وقد علمنا فيما بعد أن تلك كانت حجته الشمرين ، وكان المقروض أن يسرع ، محركا رأسه ولا يرتدى شيئا سوى هذا السروال الواسع طوال الطريق ذهابا الى مكة وإيابا منها .

وبعد ذلك تحدث قمة الاثارة ، حتى ان الفرحة التى استقبلت بها الجماهير شيخ الجمل لا تعتبر شيئا اذا قورنت بنشوتها عندما ظهر المحمل محمولا على جمل ضخم ، داخلا من البوابة تسبقه مجموعة أخرى من الضباط الفرسان . ورفعت النساء أطفالهن ، ورفع الرجال سقالات المراجيح وخلفها الحناطير . وصاحوا ، ولوحوا بالمناديل والعمائم . وكانوا جميعا فى حالة من السعادة بجوار بعضهم البعض . وفى نفس الوقت وجدنا أن الجمل الذى أحس برفعة مكانته ، وعظمة الكسوة التى

(*) كانتربرى من مدن إنجلترا التى يقصدها الحجيج المسيحيون لوجود ضريح القديس توماس ببيكيت بها - (المترجم) .

ينجلي بها ، يتقدم ببطء وتناقل وأنفه شامخ في الهواء ، وقد مر قريبا من رؤوس خيولنا . ولم تكن قد شاهدنا مشهدا أجمل من مشهد المحمل ، وهو نوع من الصناديق المزينة بزخارف مطلية بالذهب . وفي أيام الممالك كان المحمل يمثل المحفة التي يركبها السلطان ويمضي فارغا مثل السيارة الملكية التي تسير في جنازة عامة (١) .

وقبل لنا انه الآن يحمل الكسوة الشريفة التي ترسل سنويا بمعرفة صناع السجاد بالقاهرة الى قبر الرسول . وكانت هذه هي خاتمة الموكب . وبعد مرور الجمل تفرق الزحام وانتهى كل شئ . واندفعت كل الحناطير نحو البوابة لمواجهة المد الكاسح من الجماهير المتدفقة ، مما ترتب عليه حدوث ربكة لا يمكن تخيلها . وقد انقرزت بعض الحناطير في الرمال عند منتصف الطريق ، وكان من بينها الحنطور الذي نعتليه . ودخلت جميعها في مأزق لا فكاك منه في داخل الجزء الضيق بمداخل البوابة . وهنا سب السائقون بعضهم بعضا وفرغ صبر الجماهير ، وجرى بعض الأوروبيين مسرعين .

وأثناء عودتنا قابلنا كتيبتين أو ثلاثة ، وكان الجنود من المشاة والخيالة يبدون كأشخاص عاديين ومنضبطين الى حد كبير . أما ركوبهم الخيل فكان أفضل من سيرهم على الأقدام ، وهذا هو المتوقع . أما الزى فهو موحد بالنسبة للفرسان والمشاة أثناء الخدمة ، ويتمثل الاختلاف الوحيد في أن الفرسان يرتدون أحذية سوداء قصيرة مخصصة للركوب ، وأن المشاة يرتدون فوق الحذاء طرلوق من التيل الأبيض مثل أبناء قبيلة

(١) ورد أن ملك مصر السلطان الظاهر بيبرس كان هو أول من أرسل المحمل مع قافلة الحجاج الى مكة في سنة ٦٧٠ أو ٦٧٥ هجرية (١٢٧٢ للميلاد) ولكن كما قيل فإن هذه العادة لها أصلها الذي يعود الى عدة سنوات قبل جلوسه على العرش ، عندما نصبت شجرة الدر ملكة وهي جارية تركية جميلة كانت قد أصبحت الزوجة المفضلة للسلطان الصالح نجم الدين ، وعند وفاة ابنه (الذي انتهت اليه الأسرة الايوبية) نادى بنفسها ملكة على مصر . هذه السيدة أدت الحج في (هودج) أو صندوق مغطى محمول على جمل ، وظل هودجها الفارغ لعدة سنوات تالية يرسل مع القافلة رمزا لسلطة الدولة . ومنذئذ صارت عادة عند أمراء مصر المتعاقبين أن يرسلوا مع قافلة الحج في كل عام فرعا من الهودج (الذي أصبح يسمى المحمل) كرمز للولاء . انظر في ذلك كتاب إدوارد وإليم لين عن المصريين الحديثين The Modern Egyptians, by E. W. Lane المنشور في لندن سنة ١٨٦٠ الفصل الرابع والعشرين . (إضافة من المترجم) :

هذا الكتاب مترجم الى العربية منذ سنوات طويلة تحت عنوان « عادات وتقاليد المصريين الحديثين » .

زواوة المغربية الذين كانوا يشكلون فرقة مشاة فرنسية . لقد وصل
المصريون فى الترقى الى بعض رتب الضباط ، ولكن كبار الضباط وهيئة
القيادة (وبينهم عدد كبير من رتب البكباشى واللواء الذين يشكلون
كتيبة عادية) هم من الأوربيين والأمريكيين .

وقد ظهر لى أثناء الموكب أن النسبة العديدة للحجاج صغيرة
إذا ما قورنت بالمشركين فى العرض العسكرى ، ولكن هذا العرض الذى
يسمى : رحيل القافلة - هو فى الحقيقة الموكب الوحيد للكسوة
الثمينة من القاهرة الى المعسكر خارج الأسوار ، وأن الكتائب العسكرية
قد حضرت فقط كجزء من الموكب التاريخى . أما الرحيل الحقيقى فانه
يتم بعد ذلك بيومين ، حينذاك ينضم الحجاج فى أعداد كبيرة ، بينما
تخفض أعداد العسكرين حتى تصل الى مجرد حامية صغيرة . وقد قيل
أن عدد الذين رحلوا للحج هذا العام قد بلغ سبعة آلاف من القاهرة
والمدن المجاورة .

وقد جرى عرض الموكب فى يوم الخميس الموافق الحادى والعشرين
من شهر شوال الهجرى الموافق الحادى عشر من ديسمبر . وفى اليوم
التالى أى الجمعة وهو يوم العطلة لدى المسلمين ذهبنا الى مقر الدراويش
الذى يقع خلف الأسوار فى ركن هادئ يقع ما بين ضفة النهر والجزء
المسمى بمصر القديمة .

وقد وصلنا بعد الساعة الثانية بقليل ، وتوجهنا الى ميدان كبير ،
وعبرنا خلال فناء تظله جميذة ضخمة ، ودخلنا قاعة مطلية بالجير فوقها
قبة ، ولها أرضية مفروشة بالحصى النظيف . أما ترتيب المكان فانه
يختلف عن كافة المساجد التى شاهدناها حتى تلك الزيارة ، فالحقيقة
أنه لم يكن هناك شئ للترتيب ، فلا يوجد منبر ، ولا محراب ،
ولا مصابيح ، ولا سجاجيد للصلاة ، ولا شئ سوى صف من الكراسى
ذات القاع المصنوع من الخيزران مصفوفة فى أحد الأطراف . وكان يجلس
على بعضها عدد من زملائنا من نزلاء فندق شبرد . وإذا بفريق من
الدراويش يتراوح عددهم ما بين أربعين الى خمسين يجلسون الفرفصاء
على شكل دائرة فى الجانب المقابل من القاعة وقد تكومت قفناطينهم
وأغطية رؤوسهم ذات الشكل الهرمى غير المألوف فى كومة قريبة منهم

وبعد أن جلسنا على الكراسى بين المشاهدين الآخرين انتظرنا
ما سيحدث . وصارت تتدفق أعداد أخرى من الدراويش ومن المشاهدين

الانجليز من وقت لآخر . وكان الدراويش القادمون يخلعون اغطية رؤوسهم ويجلسون بين الباقيين يضحكون ويتحدثون معا بدون حرج . أما المشاهدون الانجليز فقد جلسوا في صف واحد خجولين وغير مرتاحين وصامتين ، يتعجبون مما اذا كان مطلوبا منهم أن يسلكوا كما لو كانوا في كنيسة أم لا ، وقد أحسوا بالخجل حتى الموت من أقدامهم ، حيث أجبروا جميعا على خلع أحذيتنا قبل الدخول : أما هؤلاء الذين نسوا أن يحضروا معهم مناشيب فقد اضطروا الى ربط أقدامهم بالمناديل التي يحملونها . في جيوبهم .

وبعد مضي وقت طويل أصبح عدد الدراويش حوالي السبعين ، كما أحس الجميع بالتعب لطول الانتظار ، ثم حضر ثمانية موسيقيين ، اثنان منهم يحملان طبلتين كبيرتين ، واثنان يحملان عودين ، وعازف كمنجة ، وناقر الرق ، ثم اثنان يحملان طبلتين صغيرتين . ثم وزع الدراويش أنفسهم وكان من بينهم من هو عجوز أشيب الشعر ، وبعض الأولاد . في شكل دائرة كبيرة وكثف كل منهم الى كتف جاره . وأطلقت الفرقة الموسيقية أصوات بعض النغمات الحزينة غير المتوافقة . ثم دخل رجل وقور متوسط العمر وتوسط الحلقة ، وأدار رأسه مع كل تكرار ، وانطلق يردد اسم الله .

في البداية كان صوته رقيقا ، وبالتدريج أخذ الدراويش يرددون الكلمة « الله ! الله ! الله ! » ثم أخذت رؤوسهم وأصواتهم ترتفع وتهبط في توافق تام . أما القبة فكانت تردد الصدى . وكان هناك احساس بشيء غريب ورصين في هذا الاحتفال .

وسرعان ما أخذت الطبلتان الكبيرتان تدقان بصوت أعلى ، كما تحولت أصوات الدراويش الى هدير ، وزادت انحناءة الرؤوس . وصار اسم الله يرن أسرع وأسرع وأشد حماسا . أما القائد نفسه فقد بدأ في هدوء يزيد من سرعة المنشدتين ، وأصبح واضحا أن الفنانين قد انتابهم احتياج شديد . وسرعان ما أخذت الحلقة كلها تتأرجح الى الأمام والى الخلف في اندفاع رهيب . وتحولت الأصوات الى صرخات خشنة . وأصبحت الطبلتان الكبيرتان فقط هما اللتان يرتفع صوتهما على صوت الضجيج . وبين كل حين وآخر يقفز أحد الدراويش في عصبية لمسافة ثلاثة أو أربعة أقدام أعلى من رؤوس الآخرين . ولكنهم في الغالب وقفوا متشبثين بدوابهم في بقعة واحدة ، وهم يحنون رؤوسهم حتى تكاد تقترب من أقدامهم ، ثم يطرحون أنفسهم الى الخلف بعنف لدرجة أننا نحن الذين

نقف خلفهم ، كنا نرى وجوههم شبه مقلوبة . ومع هذه السرعة الرهيبة لم يكن هناك وقت تستغرقه شعورهم في الارتفاع أو الهبوط فظلت معللة في وسط الهواء . واستمر الأهتمام ومعدل السرعة في التزايد ، صرخ بعضهم ، وتأوه البعض الآخر ، ولم يستطع البعض الآخر أن يسند نفسه أكثر من ذلك ، فأمسك بهم المتفرجون حتى يظلوا في أماكنهم . وكانوا جميعا قد أصبحوا حينذاك شبه مجانين . وأخيرا أحسبنا بأن رؤوسنا تدور ، ونظرت أكثر من سيدة نحو الباب تحدوهم الرغبة في الخروج . لقد كان المنظر مريعا ، ولم يكن يحتاج إلا الى الظلام وضوء المشاعل حتى يصبح مسرحية كاملة . ولما وصلت الغضبية الى ذروتها وبدأ أن المبنى يتمايل للأمام والخلف فوق رؤوسنا ، ترنح أحد البائسين خارجا من الحدة وسقط وهو يتلوى ويصرخ بالقرب من أقدامنا . وفي نفس اللحظة صفق القائد بيديه فتهاوى الفنانون متخذين وضغ الجلوس لاهئين ومنهوكي القوى . وانتهى فجأة أول ذكر كما يطلقون عليه . ولم يستطع القبل منهم التوقف فورا ، فاستمروا يتطوحوون ويتحدثون مع بعضهم بصوت خفيض ، بينما توقف الرجل الذي انتابته النوبة العصبية عن الصراخ ، وظل ممددا بطوله في الخارج وهو متصلب ، ويبدو أنه دخل في حالة غيبوبة .

وفي نفس الوقت حدثت بين المشاهدين همهمة تعبر عن الرضا . وقد أعلن أن ذكرا آخر سوف يبدأ حالا مدعما بدراويش جدد ، ولكن الأوربيين نالوا كفايتهم من المشاهدة بينما بقى القليل منهم لمشاهدة العرض التالي .

وعند خروجنا توقفنا عند المسكين الملقى على الأرض ، وسألنا عما اذا كان من الممكن عمل شيء له ، فقال أحد الموظفين المصريين الذي كان واقفا : « لقد مسه الرسول » .

وفي هذه اللحظة خرج القائد وركع بجانبه ولمس رأسه وصدره في رقة وهمس بشيء في أذنه ، ومن ثم تصلب جسم الرجل وصار أبيض اللون كالليت . وانتظرنا حتى رأيناه بعد دقائق قليلة يصارع ليعود في حالة من الذهول وعدم الانتباه ، وحينئذ ساعده أصدقائه على الوقوف واقتادوه خارجا .

وعند خروجنا كان الفناء مزدحما بالدراويش الجالسين في الظل يشربون القهوة على ذلك من الخيزران . وقد خفقت الأوراق الخضراء فوق

الرؤوس ، وبينها لمحات عميقة من زرقة السماء ومساحات لامعة من ضوء الشمس ، تتساقط على مجموعات من الأشخاص ذوي المظاهر الخشنة ، في عباءات ملونة بلونين . ان هذا المنظر يمثل موضوعا جاهزا للرسم يمر بجانبه الرسام وهو يتنهد ولكنه يعيش في ذاكرته الى الأبد .

ومن تلك اللحظة وقد أصبحنا على بعد دقائق قليلة من مصر القديمة مضينا الى جامع عمرو ، وهو مجموعة من الخرائب عديمة الأهمية تقف وحيدة بين التلال الخارجة من أول عاصمة اسلامية لمصر . وهو مقام على مربع منزل مساحته ٢٢٥ قدما مربعا ويحوطه رواق مغطى مكون من صف واحد من الأعمدة في الناحية الغربية (التي تمثل جانب المدخل) ، وأربعة أعمدة في الشمال وثلاثة أعمدة في الجنوب ، وستة أعمدة في الشرق الذي فيه مكان الصلاة . والمسجد يتضمن ثلاثة محاريب مقدسة والمنبر . أما الأعمدة وعددها ٢٤٥ عمودا فقد انتزعت من المباني الرومانية والبيزنطية القديمة . وجميعها من نوعيات مختلفة من الرخام ، ولها تيجان متنوعة الأشكال . وبعضها قصيرة جدا ، ولذلك وضعت على قواعد مرتفعة وغير متناسبة . أما الارتفاع المطلوب فقد تم التوصل اليه باضافة عمود ثان فوق قمة العمود الأول . وقد رأينا عمودا نادرا من هذا النوع مصنوعا من الرخام الأسود والأبيض النادر والذي نجده مثيلا له في مبر كنيسة القديس مرقس في البندقية ، ويتضمن أحد المحاريب بعض القطع الصغيرة من الموزايك البيزنطي . ويبدو أن المبنى بكامله قد تم تجميعه بطريقة عشوائية ، كما يبدو أنه يدين بحالته المتداعية الحالية الى رداة تنفيذ البناء وليس عنصر الزمن . ان العديد من الأعمدة خاصة في الناحية الغربية متساقطة ومحطمة . أما الفسقية الثمانية الأضلاع التي في الوسط فانها خربة وبدون سقف . وكذلك فان المئذنة التي في الجنوب الشرقي لم تسلم من التخريب .

وبالرغم من افتقار جامع عمرو الى وحدة التصميم وكثرة التفاصيل فإن أهميته تعود الى أنه نقطة انطلاق في تاريخ العمارة الاسلامية . وقد بناه عمرو بن العاص الفاتح العربي لمصر في السنة الحادية والعشرين للهجرة (٦٤٢ للميلاد) بعد عشر سنوات من وفاة الرسول ، وهو أقدم عمارة اسلامية في مصر ، ولهذا السبب سعدنا بمشاهدته بصرف النظر عن الأسباب الأخرى . والمكان مكشوف وموحش ، وكان الوهج المنعكس

من كل جوانب المربع شديد الكثافة حتى اننا تنفسنا الصعداء عندما عدنا
ثانية الى الشوارع الضيقة بجوار النهر (*) .

وهنا صادفنا موكب عرس مكونا من حشد من الرجال ، وفرقة
موسيقية وثلاثة أو أربعة من الحناطير المؤجرة التي تمتلئ بالنساء
المحجبات ، وقد أمكن تمييز العروس من بينهن . أما العريس فكان يسير
بين الرجال الذين كانوا يداعبونه وهو محاط بالطبول الضخمة التي تعوق
تقدمه ، بينما ترتفع جلجلة الدفوف ونقرات الطبول الصغيرة على أصوات
الضحك والصياح . وقد سمعنا حلبة مرتفعة تصدر عن آلة تعطي
أصواتا تشبه موسيقى القرب .

وكان بعد ظهر ذلك اليوم مشرقا ، وأتذكر أننا أنهينا مهمتنا بركوب
الحنطور في شارع شبرا حيث ألقينا نظيرة على حدائق القصر الصيفي
للخديو . ويعتبر شارع شبرا بمثابة شانزليزيه القاهرة ، ويزدحم
بالناس يوميا ما بين الساعة الرابعة الى السادسة والنصف . وهنا تجد
على جانب الشارع سقائف لتقديم المشروبات أقيمت بالتبادل مع الفيلات
الحديثة الأنيقة . ويركب الفلاحون ذوو الملابس المتواضعة حميرهم
المنهوكة القوى جنبا الى جنب الملحق الدبلوماسي الأنيق الذي يركب
جوادا عربيا مطهما ، بينما يركب السائحون الحناطير المؤجرة ، ويركب
رجال المال اليهود عربات ممتازة يجركلا منها حصانان ، وتركب الحريم
المحجبات عربات بريطانية الصنع يجركلا منها حصان واحد ، ويرتدي
أصحاب المحلات الايطاليون ملابس متبرجة خارجة عن الأدب . ويركب
الشيوخ الموقرون الحمير الفخمة التي تشتهر بها القاهرة ، ويمر الضباط
مرتدين حلل الردنجات ذات الجدائل والعراوى المطرزة . وتمر البنات
الانجليزيات وهن يرتدين القبعات العالية والبنطلونات الضيقة المخصصة
لركوب الخيل ، ويتبعهن السائس الانجليزى الصغير ذو الهيئة الرزينة .
ويسير الناس يسبق بعضهم الآخر أو يتبعه في تيار غير متجانس لا يهدأ ،
ودائم التغيير ، ولا يمكن رؤية مثل له في أية عاصمة أخرى من عواصم
العالم . ويركب أبناء الخديو مركباتهم هنا يوميا ، انهم دائما في
مركبات منفصلة يسبقها أربعة من السائسين وأربعة من الحراس ، وهم
من كافة الأعمار والأحجام ، ابتداء من ولى العهد وهو شاب شاحب اللون

(*) اهتمت هيئة الآثار منذ عدة سنوات بترميم هذا الاثر الذى رغم تراضع قيمته
البنية الا انه يتمتع بقيمة تاريخية لا تقدر بثمن وقد أعيد تخطيط الميدان امامه ووصله
وتزويده بالمقاعد والأشجار - (المترجم) .

يتمتع بمظهر السادة يبلغ من العمر الرابعة أو الخامسة والعشرين ، جنبه
الطفل المتصلف الصغير الحجم الذي يبلغ حوالى السادسة من العمر . وفـ
اربدى ملابس رجل صغير ، وهو يطل باستمرار من نافذة مركبته الى
الخارج ويسـى معاملـة حوذى المركبة بصوت مرتفع (١) .

وبصرف النظر عن هؤلاء المترددين على شارع شبرا كثيرا ، فانه
سارـع يصلـح حقا لسير المركبات ، عريض ، ومنبسط ، ويرتفع حوالى
سـتة أو ثمانية أقدام فوق السهل المزروع ، وعلى جانبي الشارع زرعت
أشجار السنط والتين التي تمتد لمسافة أربعة أميال خارج القاهرة اعتبارا
من المحطة النهائية للسكك الحديدية حتى القصر الصيفى . ويصل
عرض طريق سير المركبات الى عرض الطريق الذى يعبر حديقة
الهايـدبارك والذى يربط حى بايزووتر بحى كنسنجتون فى لندن . ويجرى
الطريق بالقرب من النيل حتى نهاية حى شبرا . والكثير من أشجار الجميز
ضخمة الحجم ومستديرة الجذع ، تلتقى فروعها فى أعلاها تقريبا ،
ناسجة ظلا رقيقا وصناعة نفقا أخضر رطبا من المنظور الطويل .

ولم نبق فى حدائق الخديو فترة طويلة لأن الوقت كان قد بدأ
ينـأخـر عندما وصلنا الى البوابات . ولكننا توغلنا بما يكفى لمعرفة أنها
كانت تلقى الرعاية المتكاملة بشكل مقبول ، وليس فوق العادة ، وقد أعدت
بـحيـث تبرز منظر تجمعات الخضرة ، والممرات الظليلة ، وفراغات الأرض
المزروعة بالحشائش والمزخرفة بأحواض الأزهار على مثال حدائق سارنتيم
وموسر فى بوتزين بأقليم التيرول (*) . وتوجد هنا أشجار السنط فى
حجـم غير عادى ، وقد تناثرت على سطحها حزم متفرقة من الأزهار
انـصـفـراء . وتوفرت أشجار البرتقال والليمون ، وأكوام من أشجار المواد
الصمغية الخضراء ، وشجيرات الموز التى تحمّل سباطات ثقيلة منحنية
بالتماز الناضجة ، والآجام الملتفة من أشجار الرمان وأشجار الدفلى
المزهرة ، وأشجار السالفيا التى تزرع للزينة وأحواض ضخمة ، وضفاف
وممرات وتكسيبات من الأزهار لم ألاحظ بينها أية تشكيلات نادرة . أما عن
أشجار البونسيتة (نبات مكسيكى) فهى تنمو فى مصر ويصل ارتفاعها
الى عشرين قدما ، وتحمل أزهارا تصل فى حجمها ولونها الى مدى

(١) دلى العهد المذكور ، أصبح الآن الخديو توفيق باشا . (أضيفت هذه الحاشية
الى الطبعة الثانية) .

(*) إقليم يقع فى شمال إيطاليا وقرب النمسا كان محل نزاع بين الدولتين فى معظم
فترات التاريخ الحديث - (المترجم) .

لأنستطيع أن نتخيله في إنجلترا • ورأينا أشجارا ضخمة سواء هنا في القاهرة أو في الاسكندرية تبدو كما لو كانت تنحني تحت عباءة من النجوم القرمزية ، وكان محيط بعضها لا يقل عن اثنتين وعشرين بوصة عند القياس •

ويتمثل أعظم مناظر القصر في النافورة الإيطالية الضخمة التي من طراز الروكوكو المعماري المزخرف • وقد لمحناها من خلال الأشجار • وأدهشنا أن البستاني الذي كان يصحبنا كان يتفحصها عن قرب • ولم يفهم لماذا فضلنا أن نصرف وقتنا بين الشجيرات وأحواض الأزهار •

وعندما كنا نركب الحنطور عائدين في اتجاه القاهرة ومع كل منا باقة كبيرة من الورد ، رأينا الشمس وهي تغرب داخل هالة وردية ناعمة والسحب الذهبية ، والنيل يتدفق مثل غدير من النور السائل ، وأسطولا من القوارب الشراعية متجها إلى بولاق ، تسوقه نسمة من ربح الشمال ، وقد أصبحت هذه الأشرعة الانسيابية ذات أهمية بالغة بالنسبة لنا حيث أثارت مشاعرنا بالفعل ، إذ أنني أخرت هذا الاكتشاف الخطير حتى آخر لحظة — لأننا كنا سنبدأ في اليوم التالي رحلتنا التالية •

وهذا هو السبب في أنني استطعت في وسط زحام هذه المناظر الجديدة والمذهلة أن أتذكر تماما التواريخ وكافة الأحداث المرتبطة بهذين اليومين الأخيرين ، وقد كانا آخر يومين نقضيهما بالقاهرة • وكان علينا أن نرحل صباح اليوم التالي وهو السبت الموافق ١٣ من ديسمبر على ظهر ذهبية ترسو الآن عند البوابة الحديدية في بولاق • وسنبدأ هذه الحياة المائتة الغريبة التي كنا ننتظرها متشبعين بالكثير من الآمال والمخاوف ، والتي كنا نتطلع إليها من خلال العديد من المتاعب التمهيدية •

ولكن المتاعب انتهت الآن واستقرت كل الأمور ، بالرغم من أن ذلك لم يتم بالطريقة التي أردناها في البداية ، لأنه بدلا من قارب صغير ، استأجرنا واحدة من أكبر المراكب العاملة على صفحة النهر • وبدلا من الذهاب بمفردنا قررنا أن نلقى في مركبنا بثلاثة سائحين آخرين ، كان أحدهم قد تعرف بالكاتبة حديثا • والأخيران صديقان للؤل ، وكانوا جميعا في طريقهم خارج أوروبا ولم يتوقعوا أن يقضوا في القاهرة أسبوعا آخر • ولم نعرف عنهم شيئا سوى أسمائهم •

وفي نفس الوقت كانت الكاتبة وصديقتها ترغبان في تأجير الذهبية
بفردهما . وكائنا على وشك الإبحار منذ عشرة أيام سابقة . ولم تقصدا
الإبحار الى أبعد من الروضة (وهي المحطة النهائية التي تصل إليها سكة
حديد النيل) وهناك تنتظران وصول بقية الفريق . والآن فان الروضة
تقع جنوب القاهرة بمسافة مائة وثمانية عشر ميلا . وقد حسبنا هذه
الحسبة لتقدير المسافة اللازمة لمشاهدة أهرام سقارة ومحاجر طرة ومقابر
بنى حسن وكهف التمثال الصلاق . وذلك قبل وصول السياح المرافقين .

وقال الترجمان : « تعرفان أن ذلك يتوقف على الريح » . قال ذلك
وهو يتسم ابتسامة رزينة . لقد عرفنا أن الأمر يتوقف على الريح .
ولكن ماذا بعد ذلك ؟ انهم يفترضون في مصر أن الريح تهب دائما من
الشمال في هذا الوقت من السنة وبذلك يصبح أمامنا عشرة أيام كاملة
نتصرف فيها كما نشاء . وكان من الواضح أن الملحوظة خارجة عن
الموضوع .

الفصل الثالث

من القاهرة الى البدرشين

بادرنا بالرحيل بأسرع ما يستطيع الجوادان الأشهبان الهزيلان أن يحملانا - بعد زيارة سريعة قمنا بها الى بعض المحلات القريبة ، لشراء الأشياء التي تذكرناها في آخر لحظة - وجمعنا ونحن مقطوعو الأنفاس طرودا عديدة . وبعد أن أدينا بعض تحيات الوداع المتعجلة على سلاسل الفندق - ذلك أن كل لحظة لها قيمة في ذلك الصباح - كنا متأخرين حيث اننا ننتظر حضور بعض الزوار وقت الظهيرة للغداء على ظهر الذهبية .

وكان يجب علينا الاسراع بالذهبية في الساعة الثانية بعد الظهر حتى يتحقق أهلنا في الوصول الى بولاق قبل فتح الكوبرى الذى نعبّر خلاله الى الضفة الغربية حيث ترسو ذهبيتنا قبالة البدرشين التى نقصدها ، وحتى لا نشعر بالخيبة اذا وصلنا فى تمام الوقت المحدد لفتح الكوبرى ومشاهدة أول صار طويل يعبر خلاله .

وعلى كل حال فانه عندما لاحظ أولئك الذين يراقبوننا علامات طلب المساعدة التى أطلقناها ، أسرع إلينا صندل رشيق أو فلوكة زاهية اللون كما يسمونها ، كان محملا بالبطاطين والوسائد ، يقوده خمسة من العرب الباسمين رافعين علما بريطانيا صغيرا لامعا . وكان الصندل يشق طريقه بين الصنادل المتزاحمة فى مدخل الكوبرى . وبعد عدة دقائق سارت ذهبيتنا لأن هذا الصندل كان ملحقا بنا وهؤلاء الخمسة من بحارتنا . ومن بين الذهبيات الثلاث التى تربض هناك فى ظل أشجار النخيل، كانت ذهبيتنا العزيزة التى لا تنسى واسمها « فيلة Philae » هى الأكبر والأجسن استعدادا .

وكانت ترسو خلف فيلة ذهبية أخرى تسمى باجستونز وهى ذهبية صغيرة نظيفة لسيدتين انجليزيتين تصادف أن كانتا تعبران معنا فى المركب « سيملا » من برنديزى وقد رأيناها مرات عديدة مما جعلنا

نعنبرهما حينذاك بمثابة صديقتين قديمتين في أرض غريبة . وسأطلق
عنيهما اسم م ، ب . أما الذهبية الأخرى التي ترسو أمامنا على بعد عدة
ياردات فهي تحمل العلم الفرنسي ومؤجرة لعدد من الوجهاء الفرنسيين .
وكان من المقرر أن تبهر الذهبيات الثلاث اليوم . نحن الآن على سطح
السفينة وقد سلمنا على القبطان وانفسغلنا مثل النحل، فقد كانت الكبائن
في حاجة الى الترتيب ، والأزهار في حاجة الى التنسيق . كما كانت
هناك مئات الأشياء الصغيرة التي يجب النظر فيها قبل وصول الضيوف .
ومن المدهش تصور مدى ما يمكن أن تفعله بعض الكتب والورد والبيان
المفوح مع لوحة أو اثنتين من اللوحات المرسومة باليد ، وخلال دقائق
قليلة زالت النظرة المكدودة المرهقة وبدأت الذهبية فيلة ذات الطلعة البنية
دافئة مثل البيت . كما لو كانت مشغولة بسكانها منذ شهر وذلك قبل
الإعلان عن وصول أول القادمين .

أما عن الغذاء فمن المؤكد أنه قد أدهش مقدمي التسلية مثلما أدهش
ضيوفهم حيث كان يتمثل في عرض سباق الترتيب ، يثير الإعجاب
بانتزاج الطباخ ، كان يشبه كثيرا غذاء عيد الميلاد (الكريسماس)
باهظ التكلفة أكثر منه وجبة متوسطة وسط النهار . وجلسنا حوله
بلا تردد لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة عندما صفقت أسمعنا طلقات
نارية جعلتنا نجرى على سطح الذهبية ، وأشاعت تحولاً شاملاً لصالحنا .
كانت الذهبية الفرنسية تعلن عن إبحارها وقد بسطت شراعها الكبير
وخرجت في شكل يعبر عن الانتماء .

وأخشى أن نكون نحن ركاب الباجستونز وفيلة - وقد كنا مجرد
سيدات انجليزيات - قد عجزنا عن مواجهة الاحساس بالقليل من الحقد
عندما وجدنا أن الذهبية الفرنسية قد رحلت في البداية ، ولكننا شعرنا
بالارتياح عندما عرفنا أن الفرنسيين كانوا في طريقهم الى أسوان فقط .
وهذه هي روح النيل . ان ركاب الذهبيات يحترقون سياح توماس كوك
هؤلاء الذين يقصدون الشلال الثاني، بينما ينظرون بعطف عميق نحو هؤلاء
الذين لايمتد طموحهم الا الى الشلال الاول فقط ، أما السياح الذين
استأجروا مركبهم لمدة شهر فانهم يثطلون بأعناقهم أعلى من هؤلاء الذين
تعاقبوا على الرحلة فقط . أما نحن الذين تعاقدنا على الخي الى المسافة
التي نريدها والمدة التي نرغبها ، فقد كنا في موضع الافتخار ، ولذلك
سامحنا الفرنسيين ، ونزلنا مرة أخرى الى الصالون وتناولنا القهوة على
انغام الموسيقى .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة تقريبا عندما ودعنا أصدقائنا الذين أتوا من القاهرة ، ثم عادت السيدتان م ، ب وابن أختهما ، وكانوا ضمن الزائرين ، الى مركبهما واستعد كل من القبطانين للإبحار عند صدور الإشارة لأن السيدتين م ، ب قد اتفقتا معنا على الإبحار معا ، والرسو معا ، والبقاء معا على مدى الرحلة عبر النهر بقدر الاستطاعة . ونحن الآن نشعر بالسعادة عندما نتذكر هذا الاتفاق الودى ، الذى تم تنفيذه حرقيا حتى وصولنا الى أبى سمبل ، ولم نخرج عليه مثلما يحدث دائما فى مثل هذه الاتفاقات ، أى أنه قد استمر معمولا به لفترة سبعة أسابيع شاقة ، ولمسافة تتجاوز ثمانمائة ميل .

وأخيرا تم اعداد كل شئ ، وأنزلت المظلة التى ظلت تغطي السطح العلوى طوال النهار ، ووقف القبطان على رأس الدرج ، كما وقف موجه الدفة أمام دفته ، وحمل الترجمان بندقيته المحشوة ، ولوحنا بمنديل لمعرفة ما اذا كانت المركب باجستونز قد استعدت من عدمه . وجاء الرد بالإيجاب . فقد تم حل حبال المرساة ، كما دفع البجارة المركب بعيدا عن الضفة ، وأطلقت البنادق طلقاتها ، ست طلقات من فيلة ، وستا أخرى من باجستونز ثم مضينا وقد امتلأ شراعنا الضخم بالهواء .

ما أسعد المسافرين فى النيل الذين يبدوون رحلتهم مع النسيم العليل بعد ظهر يوم وضاء ! وشقت المركب السعيدة طريقها فى سرعة وثبات . وأخذت القصور والحدائق التى على جانبى النيل تتلأأ ثم تتوارى خلفنا ، كما أخذت قباب ومآذن القاهرة تتباهد بسرعة عن الأنظار ، وأخذ جامع القلعة وخرائب الحصن التى يطل عليها من فوق الحافة الجبلية تضمحل كلما ابتعدنا ، بينما ظلت الأهرام تقف حادة وظاهرة .

أما نحن فقد جلسنا على السطح العلوى الموثب بالكراسى المريحة والمناضد والبطاين الأجنبية مثل مقصورة فى الهواء الطلق ، وأخذنا نستمتع بالمنظر الطبيعى ونحن فى حالة الاسترخاء . ومن هنا يبدو الوادى متسعا والضفتان مسطحتين تكشفان عن حافة شديدة الانحدار من الطمي المنهار بجوار مجرى النهر . وظهر حزام طويل من أشجار النخيل ، وزراعات واسعة من القمح الحديث الانبات ، ترتفع سيقانه عن سطح الأرض بوصة أو بوصتين ، ومجموعات من البيوت المبنية بالطوب اللبن يفصل بينها أحيانا قبة صغيرة مطلية بالجير أو مثذنة عالية تتبع أحدهما الأخرى على جانبى النهر ، بينما تحد الأفق من اليمين والشمال صفوف

طويلة من تلال الحجر الجيري التي يرقد بين طياتها ظلال رقيقة يندمج فيها اللونان البنفسجي الشاحب والأزرق بشكل لا يمكن التعبير عنه .

وهكذا تمضى الأيام ونقترب شيئا فشيئا من طرة . وهي قرية طينية كبيرة ذات شكل جديد ، كما أنها أول ما نراه على هذا البعد . ان بعض المنازل مطلية بالجير ، والقليل منها له نوافذ زجاجية . ويبدو أن الكثير من هذه المنازل لم يتم بناؤه بعد . وهناك فضاء واسع من الحجر الأبيض يفصل القرية عن الجبال التي تزخر بالمحاجر خلفها ، والجوانب التي تكشف عن كافة الأطراف والشقوق . وهناك صخرة عظيمة يبدو أنها قد سقطت طويلا لمسافة تصل الى نصف ميل . وعندما تصادف شقوقا حديثة نرى الحجر الجيري يبرز منها لامع البياض . وقد تكومت المنحدرات الطويلة من الانقراض أسفل الصخور اللامعة مثل أكوام الثلج التي تلمع تحت أشعة الشمس . ولكن السطح الخارجى للجبال يميل الى اللون الأصفر المشرب بالسمره مثل الأهرام . أما أكوام الكتل الحجرية المقطوعة التي ترقد مكدسة بطول الضفة والمجهزة للنقل فانها تبدو كما لو كانت من الملح وليست من الحجر . وهنا يرسو أسطول كامل من قوارب نقل البضائع ، محملة أو جار تحميلها . ونرى سلسلة طويلة من العربات التي تجرها البغال وهي تمضى ذهابا وإيابا بطول الطريق الممتد من جانب النهر الى المحاجر .

ان المادة المستخدمة فى بناء كافة المباني الجديدة بالقاهرة وهي قصور الخديو ، والمباني الحكومية ، والفيلات الحديثة الجميلة ، والشوارع الجديدة اللامعة ، والمسارح والأرضيات المبلطة للمشاة ، والمقاهي ، كلها تأتي من هذه الجبال - تماما كما حدث بالنسبة للأهرام منذ أكثر من ستة آلاف عام مضت . وكان من الممكن أن نشاهد مناظر فرعونية ومفارات منحوتة فى أقدم أجزاء المحاجر ، اذا توقفنا هناك خلال هذه المرحلة المبكرة من الرحلة . ويتحدث شامبليون عن خطين خارجيين عظيمين مرسومين بالحبر الأحمر على الصخرة الكبرى بيد أحد المسئولين عن البناء أيام الفراعنة ، وهي صخرة لم يكن قد بدأ تقطيعها بعد . ونصل الى نهاية القرية حيث توجد ثكنة عسكرية جديدة ضخمة المساحة وميدان فسبح محاط بأشجار الجميز والتين .

والآن ، ومع انقضاء فترة بعد الظهر نصل الى غابة متسعة من أشجار النخيل العظيمة على الضفة الغربية ونعلم أن خلفها وادى منف وكافة عجائب سقارة ، بالرغم من أنها لا تبدو ظاهرة للعين . ثم تقرب الشمس.

خلف تلال الصحراء الغربية ، وتقف أشجار النخيل بلونها الأسمر والبرونزي مقابل السماء الذهبية . أما الأهرام فتظهر رمادية على البعد خلفنا . والآن وقد حل الغسق وظهرت النجوم ، فقد رسونا لقضاء الليل عند البدرشين وهي أقرب نقطة لزيارة سقارة . وتوجد هنا محطة للسكك الحديدية ، وقرية كبيرة ، تقعان هما كلتاهما خلف النهر بمسافة تقرب من نصف الميل . أما المسافة الى القاهرة والتي تقاس بخمسة عشر ميلا على الأرض فمن المحتمل أن تصل الى ثمانية عشر ميلا في النهر . وكان ذلك هو أول أيامنا على صفحة النيل . وربما وجب علينا قبل أن نمضي في رحلتنا الى أبعد من ذلك أن نصف الذهبية فيلة ونتعرف على الريس حسن وطاقمه .

انها ذهبية تبدو للوهلة الأولى مثل لنش مدني أو خاص بجامعة أكسفورد أكثر منها شبها بالمراكب التي تعودنا عليها في إنجلترا . انها ضحلة العمق عريضة القاع ، وقد جهزت اما للابحار بالشرع أو بالتجديف ، وبها صاريان ، الأكبر منهما بالقرب من المقدمة ، والأصغر عند المؤخرة . أما القمرات فهي على السطح وتحتل القسم الخلفي من السفينة . ويشكل سطح القمرات السطح العلوي للسفينة أو المقصورة التي في الهواء الطلق والتي أشرنا اليها من قبل . ونصل الى هذا السطح العلوي من السطح السفلي بواسطة سلم من درجتين ، وهذه هي المنطقة المخصصة للمسافرين . أما السطح السفلي فهو المنطقة المخصصة لطاقم السفينة . وهي في الحقيقة لا تشبه سفينة نوح التي نتذكرها منذ الطفولة نظرا لوجود فارق ، هو أن الجزء المأهول يقع كله في طرف السفينة وليس في وسطها ، وهو مرتفع ومزود أيضا بالنوافذ ، بينما السطح الأمامي لا يتجاوز ارتفاعه ستة أقدام فوق سطح الماء . أما غرفة القيادة فتقع تحت السطح السفلي وبذلك يحدث التوازن في الطرف الآخر . وليست هناك ضرورة للذكر مقارنات أخرى ، ولكنني أقول ان الذهبية الكبيرة تذكرني بالصورة القديمة لسفينة القراصنة خاصة عندما يجلس الرجال الى مجاديفهم .

أما المطبخ الذي هو مجرد سقيفة فانه يشبه القرن الألماني من حيث الشكل ويشتمل على فرن يعمل بالفحم النباتي وصف من أوعية المطبخ ذات الأغشية ويقع بين الصاري الكبير ومقدمة السفينة بعيدا عن قمرات الركاب بقدر الاستطاعة . وفي هذا الموقع يحتمى الطباخ من الرياح المواتية داخل سقيفته . أما في حالة الرياح العكسية فان هناك مظلة تحجبه عنها . أما كيف يستطيع هؤلاء الرجال حتى في أحسن الظروف

المواتية أن يقدموا الوجبات الفاخرة التي تعتبر مفخرة المطبخ الذي في
 تلب النيل ، فان هذا مثير للعجب بما فيه الكفاية . ولكن كيف يحققون
 نفس النتائج عند هبوب العواصف العادية او الرملية عندما تكون كل
 نسمة محملة بجبات الرمل الدقيقة فهذه فعلا هي المعجزة . وتشابه
 جميع الذهبيات ، في حين يختلف ترتيب القمرات حسب حجم المركب .
 وعلى القارىء أن يتذكر أنني وأنا أصف فيلة انما أصف ذهبية من الحجم
 الكبير حيث يصل طولها من المقدمة الى المؤخرة الى حوالى مائة قدم ، كما
 يصل عرض سطحها العلوى في أعرض أجزائه الى حوالى العشرين قدما .
 أما قمرتنا التي تنخفض قليلا عن سطح الرجال ، فانها تجعلنا نهبط
 ثلاث درجات الى باب الدخول الذي كان يتضمن دولابا خارجيا على كل
 من جانبيه . يستخدم أحد الدولابين كمخزن بينما يستخدم الآخر لحفظ
 أدوات المائدة . ويقود هذا الباب الى ممر تنفتح عليه أربع قمرات للنوم
 بمعدل اثنتين على كل جانب ، تبلغ مساحة كل من هذه القمرات ثمانية
 أقدام طولا وأربعة أقدام ونصف عرضا . وتحتوى على سرير وكرسى
 وحوض ثابت للاغتسال ، ومراة معلقة على الحائط ، ورف ، وصف من
 الخطاطيف . ويوجد تحت كل سرير درجان كبيران لحفظ الملابس . وعند
 نهاية هذا الممر يفتح باب آخر يقود الى قاعة الطعام التي تتكون من
 حجرة بهيجة واسعة يبلغ طولها حوالى ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين
 قدما ، وتقع في أعرض جزء من جسم المركب . ويدخل اليها الضوء من
 أربع نوافذ في كل جانب وطاقة علوية . أما الحوائط المغطاة بالألواح
 الخشبية والسقف فقد كانت جميعها مطلية باللون الأبيض المحاط
 باللون الذهبى . ووضعت بطول كل جانب منها أريكة منجدة مغطاة
 بقماش من الصوف المتين على كل من الجانبين . أما الأرضية فتغطيها
 سجادة جميلة من بروكسل . أما مائدة الطعام فقد وضعت في وسط
 الغرفة . وكان هناك أيضا فراغ فسيح للبيانو وخزانتان صغيرتان
 للكتب مع العديد من الكراسى . أما ستائر النوافذ والأبواب فقد كانت
 من نفس النسج المغطاة به الأريكة . أما الألوان الغالبة فهي القرمزى
 والبرتقالى . هذا بالإضافة الى اثنتين من المرايا داخل اطارين مطلين
 بباء الذهب . وعلى المائدة زهرية تحمل الأزهار (لأنه نادرا ما افتقدنا
 الأزهار من أى نوع حتى في النوبة حيث كانت الباقة اليومية تقدم اليها
 مع بعض أزهار الفول الأخضر وجبات الخروج) وقد وضعت في أحد
 الأركان كمية كبيرة من الكتب والبنادق والعصى . وقد علقت قبعات
 المجموعة كلها في الفراغات التي بين النوافذ فكان من السهل أن تتعرف
 الى المظهر المنزلى الذي تميزت به حجرة المعيشة .

وهناك باب وممر آخران مفتوحان من مؤخرة الصالون يقودان الى ثلاث قمرات اضافية للنوم منهما اثنتان بسرير واحد فى كل منهما والثالثة بها سريران . وهناك حمام ودرج صغير يقود الى السطح العلوى وصالون القمرة التى فى مؤخرة السفينة . وهذه الأخيرة تشبه المؤخرة من حيث الشكل نصف الدائرى ، ويدخل اليها الضوء من ثمانى نوافذ وتكتنفها أريكة . ويوجد تحت هذه الأريكة والأرائك الأخرى التى فى الصالون صف من الأدراج العميقة التى قسمت بالتساوى لوضع ملابسنا ونميدنا وكتبنا . ولما كان طول الذهبية يبلغ مائة قدم بالتمام فان الجزء المشغول بالقمرات يصل طوله الى حوالى ستة وخمسين أو سبعة وخمسين قدما (أى أنه يزيد عن النصف بحوالى ستة أو سبعة أقدام) أما السطح السفلى فان طوله يصل الى الثلاثة والأربعين قدما الباقية ، ولكن هذه الأبعاد تقريبية لأنها مقدرة من الذاكرة .

وكان الطاقم يتكون من الرئيس أو القبطان ومدير الدفة والاثنى عشر بحارا والترجمان ورئيس الطباخين ومساعداه واثني من الجرسونات ، والولد الذى كان يطبخ طعام البحارة . وكان الرئيس حسن قصير القامة وصارم النظرات ومتسلط الهيئة وهو من العرب الذى يعيشون فى القاهرة .

أما الترجمان الياس تلحمى فكان سوريا من بيروت . أما الجرسونان ميشيل وحبيب ورئيس الطباخين (كان عجوزا مجعد الوجه ويلبس وشاحا أزرق واسمه حسن بدوى) فهم أيضا سوريون . أما موجه الدفة ومعه خمسة من البحارة فقد كانوا من الأقصر ، أربعة منهم ينتمون الى مكان قريب من فيلة والآخر من قرية مواجهة لمدينة كوم أمبو ، وبحار من القاهرة ، واثنتان نوبيان من أسوان . وكانوا ذوى أجسام مختلفة الألوان ، تتراوح ما بين البرونزى الأزرق ، الى لون يقترب من الأسود ، ولا أجد لأول وهلة ما أقوله عن كل منهم سوى أنه بحار يلبس صديريا وعمامة ، ولكن هؤلاء الرجال وهم يرتدون عباءاتهم الزرقاء المفتوحة ، حفاة الأقدام ، وعمائمهم المصنوعة من قماش المسلمين الأبيض لم يكن منظرهم جذيرا بالتصوير فقط ، ولكنهم كانوا يرتدون الملابس التى يجب أن يرتدوها . وكانوا فى الغالب شبانا ذوى أشكال وسيمة ، أجسامهم نحيفة ، ولكنها

تويه ، واكتافهم مربعة مثل تماثيل قدماء المصريين ، ولهم نفس السيقان الرفيعة والأقدام الطويلة المفلطحة . وكانوا ذوى طباع لينه ، نشيطين ، وسلوكهم حسن ، يشعرونك بأنهم اصدقاء . لم يجذب احد منهم مجدافا . وكانوا جديرين بالثقة مثل الاطفال ، وقنوعين مثل النساك ، وكانوا يعملون بفرح من شروق الشمس الى مغربها . انهم يجذبون الذهبية أحيانا بحبل طوال النهار مثل خيول الجر . وأحيانا أخرى يدفعون المركب بعضا طويلة عدة ساعات . وهذا أصعب الأعمال ، ولكنهم فى جميع الأحوال يفتنون أثناء العمل ، وهم دائمو الابتسام كلما تحدثت اليهم ، ويظهرون بمظهر الأمير السعيد عندما يتلون حفنة من الدخان المصرى الخشن ، أو حزمة من أعواد القصب التى تباع بقروش قليلة على جانب النهر . وسرعان ما عرفت أسماءهم جميعا وهم محمد على ، وسلامة ، وخليفة ، ورزق على ، وحسن ، وموسى . وهكذا . لم ينزل أحد منا الى الشاطئ دون أن يصحبه واحد أو اثنان منهم للحراسة وتلبية الطلبات ، وكانوا مثل سائر الفقراء أيديهم وأرجلهم زرقاء بسبب كثرة الاستعمال ، ويحضرون إلينا فى السطح العلوى لعلاجها . ومرعان ما نشأ احساس بالصدقة بيننا وبينهم .

والأجر المعتاد للبحار الذى يعمل فى النيل هو جنيهان شهريا مع بدل اضافى يبلغ ثلاثة جنيهات وستة بنسات لشراء الدقيق . والخبز هو غذاؤهم الرئيسى ، وهم يصنعونه بأنفسهم فى أماكن معينة بطول النهر حيث توجد لهذا الغرض أفران عامة ضخمة . وهذا الخبز الذى يقطع الى شرائح ويجفف فى الشمس لونه بنى مثل كعكة الزنجبيل وصلابته مثل صلابة البسكويت . وهم يأكلونه منقوعا فى الماء الساخن مضافا اليه شوربة العدس الكثيفة . وفيما عدا المناسبات الكبرى مثل عيد الميلاد (الكريسماس) أو هجرة الرسول ، وهى المناسبات التى يقدم لهم فيها المسافرين لحم الخراف ، فانهم يتناولون هذه الخلطة المكونة من الخبز والعدس ويشربون معها القليل من القهوة مرتين يوميا . ويتناولون بين حين وآخر حفنة من البلح . وهذه هى مكونات طعامهم طوال الرحلة . ان موسم فيضان النيل هو فصل الحصاد بالنسبة للبحارة الذين يعملون فى النيل حيث يبدأ المناخ الحار ويرحل السياح مع عصفور السنونو المهاجر ، حينئذ يتشتت هؤلاء البسطاء فى كافة الاتجاهات ، بعضهم يبحث عن رزقه فى القاهرة كعمال ، والآخرون ينزحون الى مواطنهم فى مصر الوسطى والعليا حيث يتم استئجارهم كعمال بحوالى أربعة بنسات يوميا . أو يعملون فى تشغيل الشادوف للرى حتى يعود النيل فيغرق الأرض مرة أخرى . أما تشغيل الشادوف فهو عمل شاق وعلى العامل أن يستمر

فيه على مدى تسع ساعات كل ٢٤ ساعة ، ولكنه يفضلهُ عن العمل في مصانع السكر الحكومية حيث يصل متوسط الأجر الى نفس النسبة ولكن العامل يقبضه في شكل خبز متواضع يقدمونه له كصدقة دون مراعاة لصوت ضيائهم ، لأنه خفيف الوزن رديء الصنف . أما البحارة الذين يجدون عملا في مراكب نقل البضائع مدة الصيف فهم أوفرهم حظا .

وكان القبطان وبحارة الذهبية جميعا مسلمين . أما الطباخ ومساعداه فكانا مسلمين من سوريا ، أما الترجمان والجرسونان فكانوا مسيحيين تابعين للكنيسة اللاتينية السورية . وكان هناك واحد فقط من هؤلاء المواطنين الخمسة عشر هو الذي يستطيع القراءة والكتابة وهو يحار اسمه الجندى كان يعمل مساعدا للقبطان . وقد تعود أن يكتب أحيانا خطابات زملائه الآخرين فيمسك قصاصة من الورق يلقيها حول إبهام يده اليسرى ويشخبط حروفا عربية بدائية بقلم من البوص صنعه بنفسه . وبالرغم من أن هذا الشخص المسمى الجندى هو أقل البحارة أهمية الا أنه كان رجل انجازات ، فهو ممثل كوميدى جيد ، وله دراية باصلاح الأحذية وحلاق من الدرجة الأولى . وقد حدث أكثر من مرة عندما نرسو بعيدا عن اية قرية أنه كان يحلق رؤوس زملائه فتصبح ناعمة مثل كرات البلياردو .

ويوجد بالطبع مسلمون طيبون ومسلمون خبيثاء ، مثلما يوجد مسيحيون طيبون ومسيحيون خبيثاء في كل طبقة . وكان لدينا كلا النوعين على ظهر المركب ، فقد كان بعض الرجال شديدي التقوى لا ينسون القيام بالوضوء وأداء الصلوات عند الشروق والغروب . أما الآخرون فلم يحلموا بانجاز ذلك مطلقا . وكان البعض منهم لا يلمسون الحمر أو يتذوقونها طوال حياتهم وكانوا مستعدين لمواجهة كافة الشدائد والحرص على عدم مخالفة شريعة نبيهم . وكان آخرون يستطعمون مذاق التبب الخفيف ، ويمتدحون مزايا كأس من الروم أو الويسكى . ولكن من العدل أن نضيف أننا لم نقدم لهم هذه الأشياء فيما عدا بعض المناسبات الخاصة مثل الكريسماس أو عندما كانوا يخوضون في النهر ، أو عندما ينالهم التعب في خدمتنا . ولا أعتقد أن رجلا واحدا ممن يعملون على المركب كان مستعدا لصرف مليم واحد من ايراده الضئيل على أى مشروب بخلاف القهوة . ان القهوة والدخان هما في الحقيقة المتعة الوحيدة التي يتلذذ بها الفلاح المصري . ولم يكن أصدقاؤنا البسطاء هؤلاء أكثر امتنانا مما هم عليه حينما نوزع عليهم أرطالا قليلة من الدخان المحلى الرخيص . هذا الخليط الفظيع الذي يباع الرطل منه في السوق بستة بنسات . ان النبات الذي جمع

منه قد استنبتت من بذرة ذات رتبة أدنى ، في تربة غير صالحة كيميائيا لأنها خالية تماما من البوتاسيوم .

وكذلك فإن هذا الدخان قد لما طبقا لأساليب زراعية غير سليمة ، وبدلا من قطعه وهو أخضر ثم تجفيفه في الظل ، تركت الأوراق لكي تذوى على الساق قبل جمعها . والنتيجة هي ظهور نوع من القش المتعفن بدون قوة أو نكهة . ولا يدخنه سوى أفقر الطبقات ، بينما يتجنبه كل من يستطيع شراء الدخان التركي أو السوري .

وكان بحارتنا يجلسون على شكل دائرة مرتين يوميا بعد الغداء والعشاء ويدخنون في وقار شيشة من النوع المعروف باسم النرجيلة . وهذه النرجيلة (التي كانت بدائية الصنع ومكونة من ثمرة جوز الهند المجوفة وعودين من البوص) كانت تعتبر ملكية عامة . وبعد أن يقوم القبطان بملئها تدور من يد الى يد ومن ثم الى فم طوال فترة استخدامها .

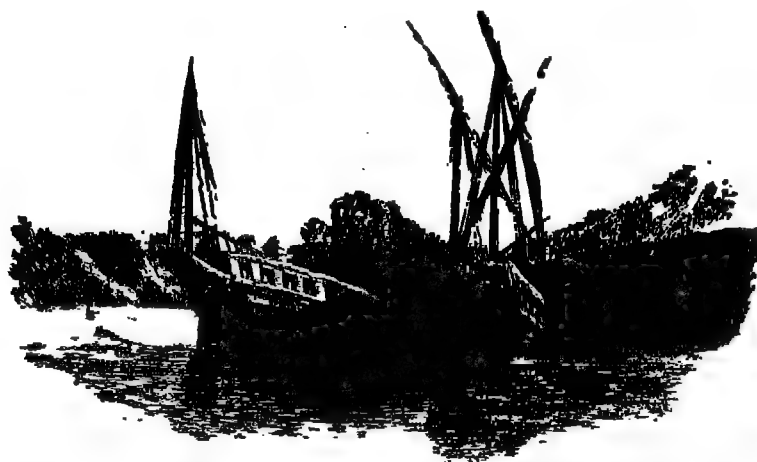
وكانوا في أحيان أخرى يدخنون السجاير ونادرا ما نزلوا الى الشاطئ بدون جراب الدخان ودفتر صغير من ورق البفرة . هل تتصور أن هذا العربي البسيط يصنع السجاير ! ولا أظن أن أي رجل فرنسي يستطيع أن يلف السيجارة بمهارة أكثر أو يدخنها بهذا الأسلوب الأنيق .

وتنتهي خدمة البحار الذي يعمل في النيل مع انتهاء الفصل . وبذلك فهو يعمل بالملاحة لفترة تبلغ نصف السنة ، أما وظيفة القبطان فهي دائمة ، ولذلك فمن المتوقع أن يعيش في القاهرة ويتحمل مسئولية الذهبية خلال شهور الصيف عندما تكون راسية في بولاق . وكان للرئيس حسن زوجة وبيت صغير مريح في أطراف مصر القديمة فكان ينظر اليه بوصفه شخصية موسرة بين رفاقه . كان يتقاضى أربعة جنيهات كل شهر طوال العام من صاحب فيلة وهو رجل عربي عريض المنكبين طوله حوالي ستة أقدام وتسع بوصات ، له ابتسامة منشرحة ، وكان يتصرف تصرفات النبلاء ، بينما في داخله جشع شيلوك .

وفي هذه الليلة الأولى دعانا رجالنا الى حفلة موسيقية عندما كنا راسين على الضفة بالقرب من البدرشين ، ولما عرفنا أنه من المعتاد احضار الآلات الموسيقية ، سمحنا لهم بالانصراف لاحضار الطار والدربكة قبل بدء الحفلة ، ولما كان الطار أو الرق فائرا جدا مصنوعا من خشب الورد ومطعما بعرق اللؤلؤ ، فأننى لا أظن أن هناك شيئا تم صنعه بطريقة أكثر

بربرية من الدربة . فهذه الطبله البدائية يبلغ طولها قدما ونصف القدم ، وهي تتخذ شكل القمع ، وقد صنعت من الفخار المجفف في الشمس مثل القلة ، وغطيت فوهتها الواسعة بجلد الرق المقوى . وتوضع تحت الذراع اليسرى بينما يجرى النقر عليها بأصابع اليد اليمنى . ويبلغ وزنها حوالى أربعة أرتال . وكنا نرغب فى اضافة مزمار مزدوج أو كمنجة لتقوية عزف الفرقة ، ولكننا لم نجد بين رجالنا من يعزف على أى منهما . وعلى كل حال فان الطار والدربة قد أوفيا بالغرض تماما . وربما كانا أكثر ملائمة لغنائهم الغريب دون الآلات الأخرى المتألفة النغمات .

وعندما بدأت الحفلة كنا قد انتهينا لتونا من تناول الغداء . فى البداية جاءت نغمة طويلة نائحة ارتفعت وهبطت ثم ارتفعت مرة أخرى ، واضمحلت فى النهاية . وكان ذلك هو صوت المغنى الرئيسى الذى يقود الفرقة متوافقا مع النغمة الافتتاحية . أما النغمة الثانية فكانت متناسبة مع المفتاح الثالث . وأخيرا توحد الجميع فى صيحة طويلة حادة تشبه التثاؤب أو النواح أو مزيجا من الاثنين . وتكررت هذه الصيحة مرتين كمقدمة للعرض قادتهم بوضوح الى التحول الضرورى للحماس الموسيقى .



مراكب محلية الصنع

ثم انطلق المغنى الأول صاحب الصوت التينور ليقود التتابع الصوتى المرتعش الذى انزلق بعده الى الغناء الحزين ، بينما تحول الآخرون الى كورس . وعند خاتمة كل فقرة كانوا يتثامبون وينوحون مرة أخرى . وكلما انطلق المغنى مع أحاسيسه ، توقف بين حين وآخر مرددا نفس

التأوه الصوتي الذي لا يمكن وصفه والذي بدأ به الغناء . وعندما كان يفعل ذلك ، كان الآخرون يمسكون أنفاسهم بإعجاب مشوب بالاحترام . ويتمتمون بكلمة الاستحسان قائلين « آه ! » وهي التعبير المعتاد عن الاستحسان .

واتذكر أننا في هذه الليلة الأولى حسبنا موسيقاهم فظيعة رغم أننا عند انتهائها أحسنا مثل كل المسافرين بأننا قد أحببناها . وقد شكرناهم على كل حال لحضورهم الى سطح السفينة واتاحة الفرصة لنا للاستماع الى العرض الذي قدموه . أما من جهة جمال المنظر ليلا ، فلا شك في أنه لا يوجد منظر يستحق التصوير أفضل من منظر هذه الفرقة من العرب المعتمين الذين يجلسون القرفصاء على شكل دائرة ، واضعين مصباحا في وسطهم . بينما المغني يرتعش صوته ، والموسيقيون ينقرون بأصابعهم ، والباقيون يصفقون من حين لآخر منتظرين دورهم للدخول مع الكورس . وفي نفس الوقت أضاء المصباح وجوههم السمراء ، وأسنانهم المتألقة . وكان الصاري الكبير يرتفع في الظلام كالبرج . ولمح النهر من أسفل . وبرقت النجوم من أعلى . لقد أحسنا بالفعل أننا غرباء في أرض غريبة .

الفصل الرابع

سقارة ومنف

عند وصولنا الى البدرشين بعد حلول الظلام والرسو هناك .لقضاء الليل ، استيقظنا صباح اليوم التالى مبكرين على صوت شجار وثرثرة غريبة صادرة من حوالى خمسين أو ستين رجلا ولدا ، كانوا متجمهرين على الضفة المرتفعة مع عشرين أو أربعين حمارا فى أردية خشنة وأشكال كتيبة • لقد رأيناهم وئسابهم البالية تتطاير مع الريح بينما تتحرك أذرعهم وسيقانهم البنية اللون فى حركة مهتاجة كما لو كانوا فصيلة من الحمير الثائرة وقد انطلقت من عقالها • وكان زئيرهم يرتفع مع كل حركة بينما يتزايد فى كل لحظة عدد الرجال ، والأولاد ، والحمير حتى بدا لنا أن بعض محطات الارسال الجديدة تبث الأولاد والحمير الذين برزوا مرة واحدة لخدمتنا •

ثم ظهر أن تلحمى الذى كان يعرف أن قواتنا المسلحة تحتاج لثمانية حمير ، أرسل الى القرية طالبا خمسة وعشرين حمارا وفى نيته أن يختار أفضلها ويصرف الباقي من منطلق الحكمة وليس العدل ، فكانت النتيجة عاصفة • لقد خرج كل رجل وولد وحمار فى البدرشين والقرية المجاورة الى النهر وقد ضللتهم جسامه الأمر فاستنتجوا أن جماعة السياح التابعة لتوماس كوك قد وصلت • وعلى ذلك فانه عند الانتهاء من الافطار كان لدينا حمير كافية وعلى استعداد لنقل جميع الانجليز الموجودين بالقاهرة • وسأبجاهل الضوضاء التى نشبت عندما ركبت مجموعتنا فى النهاية أحسن ثمانية حمير ومضت تاركة الزحام الخائف لكى ينفذ على مهل •

والآن ، فان طريقنا يقع على مسطح مترب عبر خط السكة الحديدية خلال القرية غير المنتظمة الشكل طوليا ، وخلال المزارع المشهورة المعروفة باسم نخيل منف • وكان هناك على المحطة الصغيرة المطلية بالجير الأبيض

حسب من الفلاحين المكشوفين بسبب طول انتظارهم للقطار ، ومن الباعة القوغاء المعتادين الذين يبيعون الماء والخبز ، وباعة الفاكهة • وتبدو البدرشين وديعة مستكنة في وسط أشجار النخيل المهيبة بالرغم من أنها مجرد مجموعة من الأكواخ المبنية بالطين • وتنتشر على مسافات بين الأكواخ أبراج الحمام المربعة التي تحيط بقماتها طبقات من القصور ذات الفوهات الواسعة وقد استندت إليها صفوف من أغصان أشجار الأثل غير المورقة مثل صواري الأعلام الممزقة ، بينما الحمام يدخل ويخرج من القصور أو يربض على الأغصان ويسوى ريشه بمناقيره • وعند مرورنا كانت الكلاب تندفع نحونا وهي تنبح بجنون ، بينما يسير خلفنا الأطفال الصغار ذوو الوجوه البنية اللون وهم يصيحون « يقشيش ! » • وكانت الأوعية الفخارية والقلل (١) المصنوعة حديثا من الصلصال الرمادي الناعم والمصفوفة في صفوف تنتظر أن يتم حرقها في الشمس وقد وقف صائغها فاغر الفم يحمل فينا كما لو كان لم يشاهد أوربيا حتى هذه اللحظة وكانت زوجته تمسك بطفلها وتجذب حجابها على وجهها خوفا من العين الشريرة •

وبعد أن تركنا القرية خلفنا جسرنا خلال غابة بعد أخرى من أشجار النخيل • والآن نحن نسير محاذين لحدود مساحة كبيرة من بركة هادئة بمحاذاة النهر • أما وقد رأينا لمحة خاطفة من أهرام الجيزة البعيدة بينما نحن نمر بين الروابي غير المنتظمة من الطين المتداعي الذي يحدد منطقة منف ، فقد وصلنا بعد كل ذلك إلى طريق مرتفع بما يقرب من عشرين قدما فوق السهل ، يحصر الماء في شكل جسر وينتشر مثل بحيرة واسعة ويصرف آخر موجة من الطمي ذي اللون البني الغامق مقابل الصخور الصفراء التي تحدد طرف الصحراء • وتقف مجموعة من الأهرام مرتفعة فوق الهضبة الجرداء ، وتظهر للمرة الأولى في شكل خط علوي متصل • أنها أهرام سقارة التي تقع أمامنا مباشرة • أما أهرام دهشور فهي إلى يسارنا وأهرام أبي صير إلى اليمين • أما أهرام الجيزة العظيمة فهي تظهر دائما على أقصى البعد •

(١) القلة هي دوق للماء مصنوع من طين النيل المجفف في الشمس ، وهي تصنع من كافة الأحجام في مجموعة رائعة من الأشكال المختلفة ويتراوح ثمن الواحدة منها ما بين ربع بنس إلى اثنين من البنسات •

وقد يظن القارئ أنه بينما يحتوى المنظر على الكثير من الرتبة فانه يوجد به القليل فقط من الجمال ، ولكن على العكس فهناك جمال من نوع رفيع المعنى والروعة - انه جمال فائق يظهر فى الألوان والجو والوجدان ، وليست هناك أية رتبة سواء فى المنظر الطبيعى أو فى أشكال الأهرام . ونقترب الآن من أحد هذه الأهرام الذى بنى على شكل مصاطب تقل مساحة كل مصطبة منها عن المصطبة التى تحتها بمعنى أن مساحة كل مصطبة تقل كلما اتجهنا نحو القمة (*) وهناك هرم آخر عند منحنيات دهبور يقع خارج الزوايا على شكل قبة نصف دائرية ونصف هرمية مثل سقف قصر العدالة فى باريس . ولا يوجد هرمان متساويان فى الحجم ، أو مبنيان على نفس الزاوية ، وكل مجموعة تختلف فى تجميعها الى حد ما .

ونعود مرة أخرى الى الألوان . لا يمكن منافسة هذه الألوان بأية مادة ملونة اخترعت حتى الآن . ان صخور الصحراء الغربية التى تشبه الذهب الضارب الى الحمرة ، والألوان الشاحبة للمنحدرات الرملية ، والصفرة الدافئة للأهرام القريبة التى نراها من هذا البعد تتخذ خيمة رقيقة فى لون الورد مثل زهرة المشمش الحمراء ، أما الجو العام الرقيق لهذه الأهرام مقابل السماء ، مع الامتداد اللانهائى لهذه السماء فى نعمة لؤلؤية نحو الأفق ، وهى تتجه بلونها الأزرق المشتعل نحو الذروة ، والظلال البراقة ذات اللونين الأزرق الشاحب والبنفسجى ، واللون الرمادى الذى يميل الى الخضرة ، تلك الظلال التى تستكين فى أحضان تجاويف الصخور ومنحنيات التلال الرملية . كل ذلك جميل بصورة لا يمكن وصفها . ولكن وأسفاه ! انه من المستحيل نقل صورة منها . كما أن السهل الذى يشبه البحيرة ، مع غابات النخيل ، وحقول القمح ، لا يشكل خلفية عادية . وكان ذلك هو المطلوب تماما للتخفيف من وحشة هذه المسافة المتوهجة .

والآن ونحن نتبع الخط المتعرج للطريق ومع الاقتراب التدريجى تزداد الأهرام الجديدة ضخامة ، ويزداد سطوع الشمس ، ويزداد ارتفاع درجة الحرارة . ونلتقى بطابور من الابل والجاموس والخراف البنية اللون الغزيرة الصوف ، مع النساء والرجال والأطفال من كافة الأعمار . كانت الجمال محملة بمفروشات الأسرة مع المخدات وأقفاص الطيور الداجنة ، وتحمل بالاضافة الى ذلك سيدتين مع أطفالهما وكهلا عجوزا جدا . أما الرجال الأصغر سنا فهم يقودون الابل المجهدة ويسير الباقون خلفهم ، ويرتفع التراب خلفهم فى شكل سحابة ، ومن الواضح أن هذه

(*) تشير الكاتبة هنا الى هرم زوسر المدرج - (المترجم)

هجرة عائلة بأجيالها الثلاثة ان لم يكن الاربعة • ولا يستطيع المشاهد أن يقاوم تأثره بهذه البساطة العائلية التي يمثلها المشهد ، فهكذا خرج ابراهيم مع الأسراب والقطعان وجميع أفراد عشيرته الى أرض كنعان منذ أربعة آلاف عام مضت • وهناك واحد على الأقل من أهرام سقارة هذه الذي يعتبر أقدم مبنى في العالم •

انه موكب مؤثر ويستحق التصوير أكثر من موكبنا نحن • وأكثر عددا من قواتنا المتحدة بما فيها الأولاد الذين يقودون الحمير ، والجمالون ومختلف المتطولين • وهذا العدد من الأشخاص يقترب من الثلاثين ويتجاوز العشرين، وكانت هناك السيدتان م ، ب وابن أختهما ، والكاتبة وصديقتها، وخادمة صديقتها ، وتلحمي ، وهم جميعا يركبون الحمير ، ثم أصحاب الحمير يركبون أيضا حميرا أخرى ، بالإضافة الى ولد يسوق كل حمار مع وجود ولد آخر احتياطي لكل ولد منهم • وبالرغم من أن طرازات ملابسنا كانت مناسبة الا أنها لم تكن متناسقة مع المنظر المحيط بنا • ولا يستطيع الانسان الا أن يشعر بنفس شعور هؤلاء الحجاج الملتحفين بالملابس الفضفاضة والمتربة الذين يمرون بنا في الطريق • وكنا نجسد تمثالا حزينا بقبعاتنا الشنيعة المصنوعة من خوص النخيل ، وأحجبتنا الخضراء ، ومظلاتنا البيضاء •

وكان جورج هو بلا منازع أكثر الشخصيات المسلية والغريبة في موكبنا • وجورج سائس انجليزى من الريف الشمالى أحضرته السيدتان م ، ب معهما من غابات لانكشير – أولا لأنه رام ماهر وسيكون مفيدا للسيد (ألفريد) فى متابعة الطيور والتماسيح • وثانيا عن اعتقاد راسخ فى مهاراته العامة • وكان جورج شخصا يثير الضحك بلا انقطاع ، وواسع الحيلة بلا حدود ، يفوص فى الحياة الشرقية كما يفوص فرخ البط فى الماء • ويلتقط العربية كما لو كانت لغته الأم • ويسلخ الطيور كما لو كان محنطا مدربا ، ويستطيع أيضا أن يغسل الملابس ويكويها عند اللزوم • انه باختصار سائس وخدام ومديرة منزل وغسالة ، ومراكبى أصيل ، وحارس للحيوانات التى نصيدها ، وخدام يؤدى جميع الأعمال المنزلية ، كل ذلك فى آن واحد • وعلاوة على كل ذلك فان لديه طلعة مثيرة للضحك لا تستطيع أية مفاجأة أو نكبات أن تؤثر فيها ولو للحظة واحدة • وتستطيع أن تلاحظ هذه المفارقة الجديرة بالاهتمام فى بدلة السائس التى يرتديها ، والطزلق ، والأزرار ، والقماش الذى يلفه حول رقبته ، والقبعة الطويلة وكل ما يتعلق بها ، وساقيه الطويلتين اللتين تتأرجحان فى حدود بوصة

واحدة من الأرض على كلا جانبي أصغر الحمير حجما • ويبتطبع الانسان بالنظر الى بندقية الصيد ذات الماسورتين التي يحملها تحت ذراعه ، وهيئة وجهه التي تدل على هدوء الأعصاب ، أن يقسم بأنه هو مصرى كانا صديقين منذ القديم ، وأنه نشأ بجانب الأهرام منذ طفولته •

وكانت المسيرة من مزارع النخيل الى الصحراء طويلة ومكشوفة ولكننا أخيرا وصلنا الى نهايتها • وارتقينا ذلك المنحدر الرمل الآخر وهو يشبه ذلك الذى يقودك من شارع الجيزة الى ساحة الهرم الأكبر • وترتفع حافة الهضبة هنا عن السهل بشدة فى شكل صف طويل من الصخور العمودية المنخفضة التى تخترقها فوهات المقابر المنحوتة فى الصخر بينما ينزل المنحدر الجبل الذى نتسلقه خلال ثغرة فى الصخرة مثلما تنهمر آكوام الثلج التى فوق جبال الألب خلال ثغرة جبلية نازلة من المستويات الثلجية العلوية •

والآن وقد نزلنا من باب الشفقة عن حيرنا الصغيرة التعيسة الحظ فان أول شيء لاحظناه هو الخليط الغريب من الأطلال التى تحت أقدامنا • ان الزائر فى الجيزة يدوس على الرمل والزلط فقط ، أما هنا فى سقارة خان الهضبة كلها مكدسة بقطع صغيرة من كسر الفخار ، والحجر الجبرى والرخام والمرمر • وشظايا الزجاج الأخضر والأزرق ، والعظام البيضاء ، وخرق الكتان الأصفر ومكعبات غير منتظمة الشكل من مادة غريبة الشكل ذات لون بنى غامق تشبه الاسفنج المجفف • وسرعان ما يلتقط أحدا رأس تمثال جنائزى صغير بدون أنف ذا لون أزرق • ونحن جميعا فى سرعة ننبش الأرض بحثا عن الكنز مبلدين الوقت الثمين لأنه رغم أن الرمل مليء بالانقاض الا أن الأعراب قد غربلوه كثيرا ويحرص شديد بحيث أصبح لا يحتوى على شيء يستحق البحث • وفى نفس الوقت يجد أحدا شظية من زجاج بالوان قوس قزح ، ويجد آخر كسرة من زهرية مهشمة ، بينما يجد ثالث قطعة معتمة مصنوعة من بعض أنواع العجائن الصفراء اللون • ثم اكتشفنا فجأة وفى هزة لن تنساها الكتانية بأية حال أن هذه العظام المتناثرة هى عظام آدمية ، وأن هذه الخرق الكتانية هى أجزاء من آكفان وأن هذه المكعبات البنية الغريبة غير المنتظمة الشكل هى قطع صغيرة مما كان يوما ما لحما حيا ! والآن عرفنا للمرة الأولى أن كل بوصة من هذه الأرض التى نقف عليها وأن كافة هذه الروابي والتجاويف والمداخل الرملية هى قبور انتهكت حرمتها •

« هذه بداية لا تستحق التعب » ولكننا سرعان ما تجلدنا لدى مشاهدة مثل هذه المناظر وتعلمنا أن نقب بين المقابر المترية دون الاحساس بتأنيب الضمير أكثر من احساس عصابة مدربة من مخترفي سرقة الجثث . وعندما كنا نتذكر هذه التجارب التي مررنا بها فيما بعد ، كنا نشعر بالدهشة وبشيء من الندم . وكم كانت القسوة شاملة والرغبة في اقتناص الرفات جامحة لدرجة أنني لا أشك في أننا لن نتراجع عن عمل نفس ما عملناه لو عادت نفس الظروف . ان غالبية المسافرين سيدلون بنفس هذا الاعتراف لو طلبنا اليهم . انهم يشعرون بصدمة في البداية ، ثم يستنكرون في فزع الأسلوب الذي تجرى به الحفائر ، فهو على الرغم من التصريح به الا أنه أسلوب وحش . ان الذوق الذي يرحب بالعمارين والتماثيل الجنائزية الصغيرة ، سرعان ما يتطور الى شراء أسلاب الموتى ، وفي النهاية ينسون تأنيب الضمير السابق ، ولا يتمنون حظاً أفضل من أن يكتشفوا مقبرة ويصادروها لأنفسهم .

وعلى الرغم من أنني رأيت أولاً أهرام الجيزة ، الا أن حجم مجموعة أهرام سقارة - خاصة الهرم الذي على المنصة - قد أصابني بالدهشة . انهم جميعاً أصغر من هرمي خوفو وخفرع ، ولا أشك في أنهم سيبدون أيضاً بلا أهمية اذا ما قورنوا بهرمي خوفو وخفرع . ولكن بالنظر اليهم وحدهم فان ضخامتهم كافية لبيان مدى روعتهم . أما الهرم الذي على المنصة (وهو أكبر أهرام سقارة ويلى هرم خفرع من حيث الضخامة) فان موقعه فريد . وطرأه المعماري نادر . وعمره قديم جداً بحيث ينسى الانسان الأسئلة المتعلقة بالضخامة النسبية . واذا كان علماء المصريات صادقين في نسبة اللقب الملكي المدون بالهيروغليفية على الباب الداخلى لهذا الهرم الى وثيفيس (*) الملك الرابع من الأسرة الأولى فانه بذلك يكون أقدم بناء في العالم . لقد كان موجوداً لمدة تتراوح ما بين خمسمائة الى سبعمائة سنة عندما بدأ الملك خوفو في بناء هرمه الأكبر بالجيزة . وكان عمره يتجاوز الألفى عام عندما ولد ابراهيم . وعمره الآن حوالى ستة آلاف وثمانمائة عام حسب ما أورده مانيتون ومارييت . أو حوالى أربعة آلاف وثمانمائة عام طبقاً للحسبة التي أجراها بونسيين . وبالطبع فان خيال الانسان يتراجع عند حافة مثل هذه الحقبة الزمنية .

(*) خطأ والصواب ان الملك زوسر ثانى ملوك الأسرة الثالثة هو صاحب هذا

الهرم - (المراجع) .

لقد انتزع باب هذا الهرم مع الأسلاب الثمينة الأخرى بمعرفة
لبسيوس والآن هو بمتحف برلين . أما الدليل الذى يفسر النقش ، وطبقا
لما أورده مانيتون وهو مؤرخ مصرى كتب باليونانية وعاش فى عصر
بطلميوس فيلادلفوس ، فهو أن الملك ونيفيس بنى لنفسه هرما فى مكان
يدعى كوخوم . وقد اكتشف مارييت مؤخرا لوحا يعطى لمقبرة سقارة
اسم كاكيم . ولم يكن الهرم المدرج هو أكبر الآثار الموجودة على هذه
المنصة ، ولكنه الأثر الوحيد الذى وجد خرطوش ملكى منقوشا عليه .
ويبدو هذا الاستنتاج معقولا .

وعندما يظل بناء قائما لمدة خمسية أو ستة آلاف عام فى مناخ يساعدة
على نمو الطحالب الصخرية والنباتات الطفيلية وكافة العلامات الطبيعية
الدالة على البعد الزمنى والتي تعودنا عليها فى أوروبا ولكنها غير موجودة ،
فليس المفروض أن يكون لعدة مئات من السنين ، أكثر أو أقل ، تأثير على
مظهره الخارجى . ولكننى من وجهة نظرى الشخصية أرى أن هرم ونيفيس
يبدو أقدم من أهرام الجيزة . وإذا أمكننا أن نتخيل ذلك فانه سيعطينا
فى جميع الأحوال الاحساس بالانتماء المعمارى الى حقبة معمارية أكثر
بدائية . ان فكرة إقامة أثر يتكون من مصاطب متدرجة الحجم هى بطبيعتها
أكثر بدائية بالنسبة للهرم الأملس ذى الجوانب الأربعة . وقد لاحظنا
أن البناء الحجرى فى جانب واحد - أظن أنه الجانب المقابل لاتجاه الشرق -
كان مستكملا تماما بالنسبة للجوانب الثلاثة الأخرى .

ويصف ويلكنسون داخل الهرم بأنه « قبة مجوفة حملت هنا وهناك
على عوارض خشبية » . ويذكر أن غرفة الدفن قد تحددت أبعادها
ببلاطات من الخزف الأزرق (١) وكنا نحسب أن نذهب للداخل ولكن هذا لم
يعد ممكنا ، لأن المدخل قد سد بسبب انهيار حجرى حديث .

والآن ونحن نعمل على تعويض الوقت الذى ضاع فقد ركبنا حتى
المنزل الذى كان قد بنى سنة ١٨٥٠ م لاقامة مارييت أثناء حفائر
السرايوم - وهو عمل استغرق أكثر من أربع سنوات .

(١) تشاهد بعض هذه البلاطات فى القسم المصرى من المتحف البريطانى . وهى
ليست ذات لون أزرق ولكنه أخضر يعيل للزرق . أما عن شكل غرفة الدفن فانتظر كتاب
ماسبيرو : Archeologie Egyptienne شكل ٢٣٠ ص ٢٥٦ . (هذه الملاحظة مضافة
الى الطبعة الثانية)

ومن الصعوبة القول بأن السرايوم هو أشهر معبد جنازى للعجول المقدسة . وكانت هذه العجول (التى قدسها المصريون بوصفها تجسدا متناجما للاله أوزوريس) تسكن أثناء حياتها فى معبد أيبس فى منف (ميت رهينة) . وبعد موتها يجرى تحنيطها ودفنها فى سرايب جهزت لها فى الصحراء . وفى سنة ١٨٥٠ عندما كان مارييت مسافرا فى مأمورية تخص الحكومة الفرنسية ، اكتشف المعبد والسرداب ، ويعود مفتاح هذا الاكتشاف حسب روايته الى فقرة معينة أوردها استرابون فى وصف معبد سرايبس بأنه يقع فى منطقة تنجرف فيها الرمال بواسطة الرياح بحيث يتهدد كل من يدنو منها بالغوص فيها . وبينما كانت الكباش على كلا جانبي الطريق قد دفنت كليا أو جزئيا فان رؤوس بعضها كانت بارزة على السطح . ويقول مارييت : « لو لم يكتب استرابون هذه الفقرة » فانه « كان من المحتمل أن يظل السرايوم ضائعا تحت رمال مقابر سقارة » . وفى أحد أيام سنة ١٨٥٠ اتجهت نحو سقارة مدفوعا بنتائج دراساتي فى علم المصريات ، فشاهدت رأس كبش بارزة فوق السطح . ومن الواضح أنها كانت تحتل مكانها الأصلي . وقد وضعت بالقرب منها مائدة قرايين حفر عليها نقش هيروغليفى عن أيبس وأوزوريس . وحينئذ تذكرت هذه الفقرة التى كتبها استرابون وعرفت أن الطريق الذى يقود الى السرايوم الذى فكرت فيه طويلا بلا طائل ، يقع تحت قدمي . وبدون أن أقول كلمة واحدة لأى شخص أحضرت بعض العمال وبدأنا فى الحفر . كانت البداية صعبة ولكن سرعان ما برزت من بين الرمال تماثيل الأسود والطواويس والتماثيل الاغريقية للجمال على جانبي الطريق ولوحات معبد نختانبو الغنية بالنقوش (١) وهكذا جرى اكتشاف السرايوم .

أما المنزل - وهو مبنى بسيط من دور واحد على منصة حجرية - فهو يشرف على منخفض رملي يحتفظ الآن بنفس المظهر الذى ظهر به عندما تذكر مارييت لأول مرة الفقرة السعيدة التى أوردها استرابون ، وتبرز رأس أو اثنتان للكباش فوق الرمال هنا وهناك بشكل مربع ، محددة مسار الطريق العظيم ، ويظهر كذلك النصف العلوى من تمثال ردىء التنفيذ لولد راكب على ظهر طاووس . أما الباقي فهو مطمور بكامله فى الرمل كما لو كان لم يتكشف من قبل . ويصعب على الانسان الاعتقاد بأن المكان كله قد كشف عنه تماما بتكلفة ضخمة فى الوقت والعمل ،

(١) كان نختانبو الاول ونختانبو الثانى آخر ملكين من الاصل المصرى . ازدهر عصرهما ما بين عامى ٣٧٨ - ٣٤٠ ق م ولابد أنه كان هناك معبد بناء نختانبو الاول قبل بناء معبد السرايوم .

منذ عشرين عاما مضت • لقد استغرق استكمال العمل كما ذكرت منذ قليل أربع سنوات • ويبلغ طول هذا الطريق وحده ستمائة قدم ويتسع عرضه لجيش من الكباش حيث وجدنا واحدا وأربعين كبشا لم تنقل من مكانها الأصلي • وعندما اقتربت الحفائر من نهاية هذا الطريق اتضح أن الجسر الذى يليها مع الهبوط التدريجى بين الحواطط الضخمة ، يقع تحت السطح بمسافة سبعين قدما • لقد كان العمل ضخما والعقبات تفوق الحصر • وكان من الضرورى فحص الأرض بوصة بوصة ، ويقول مارييت انه « فى أماكن معينة كان الرمل متموجا وأتعبنا كالماء الذى ينزاح دائما الى الخلف فى محاولة لاستعادة مستوى ارتفاعه » (١) •

وعلى كل حال فانه بقدر ضخامة الجهد المبذول ، تكون ضخامة الجزء المأمول • وكان الجزء هو اكتشاف الطريق الرئيسى الذى ينتهى الى منصة دائرية أحاطت بها تماثيل لمشاهير الفلاسفة والشعراء الاغريق • واكتشفت أيضا فى طريق ثان يتقاطع مع الأول بزاوية قائمة بقايا معبد السرايوم العظيم وثلاثة معابد صغيرة وثلاث مجموعات متميزة لسراديب دفن العجل أيبس • وكانت هناك فتحة ممر هابط من غرفة فى المعبد العظيم تقود الى السراديب • وقد شقت متاهات ضخمة من العقود والممرات فى الصخر الصلب الذى بنيت عليه المعابد • وتبين هذه المجموعات الثلاث من الحفائر ثلاث حقب من التاريخ المصرى • وتتكون السلسلة الأولى ، وهى الأكثر قدما ، من عقود يرجع تاريخها للفترة من الأسرة الثامنة عشرة الى الأسرة الثانية والعشرين أى ابتداء من حوالى سنة ١٧٠٣ ق.م • الى سنة ٩٨٠ ق.م • أما المجموعة الثانية فانها تنسب الى حكم شيشنق الأول (الأسرة الثانية والعشرين أى سنة ٩٨٠ ق.م) وحتى حكم طهرقا آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين وقد جرى التخطيط لها بأسلوب منهجى ، وهى تتكون من نفق واحد طويل يحده على كلا الجانبين صف من حجرات الدفن • أما المجموعة الثالثة فانها تنتمى الى العصر الاغريقى مبتدئة بحكم بسماتيك الأول (الأسرة السادسة والعشرين) أى سنة ٦٦٥ ق.م • وتنتهى مع أواخر عصر البطالمة ، ومن بين هذه العصور الثلاثة نجد أن الأولى هى التى تخنقها الرمال • أما الثانية فتعتبر غير آمنة ، أما الثالثة فهى المتاحة للسياح •

(١) لتابعة القصة الجيدة والدقيقة للسرايوم والآثار التى اكتشفت هناك ، انظر كتاب مسيو آرثر رونييه L'Égypte en petites Journées الذى تعد منه الآن طبعة جديدة فى المطبعة - (ملحوظة مضافة على الطبعة الثانية) •

وبعد مسيرة مسافة قصيرة وان كانت منهكة ، ومع بعض التأخير أمام باب يشبه أبواب السجون يقع عند قاع المنحدر ، سمح الحارس لنا بالدخول ، وهو كهل اعرابي في يده مصباح . ولم يكن المنظر في الداخل جذابا . كان الضوء القادم من الخارج يسقط على درجة أو درجتين من درجات السلم الحشنة . وبعدهما يخيم الظلام التام . ودخلنا فتلقنا على العتبة مناخ ثقيل حار ، وقد سقط الباب بصليل مزعج ترددت أصداؤه كما لو كنا في تجاويف الأرض المركزية . وانطلق الأعرابي يتحدث مستخدما الحركات والاشارات . كان يقول اننا الآن في البهو العظيم الذي يمتد لمسافة طويلة في هذا الاتجاه وفي الاتجاه الآخر . ولكننا لم نستطع أن نرى شيئا - لا السقف المقبب ، ولا الحوائط على أى جانب ، ولا حتى الأرض التي تحت أقدامنا . كان الظلام شبيها بالظلام الذي يغطي الفراغ اللانهائي .

وأعطيت لكل منا شمعة مشتعلة وسار الأعرابي في المقدمة بسرعة مخيفة ، وبدأ لنا في كل خطوة أننا على شفا هاوية سحيقة . وبالتدريج تعودت عيوننا على الظلمة فوجدنا أننا قد عبرنا البهو الى الممر الأول الكبير . كان كل شيء غامضا ومفعما بالأسرار ومغطى بالظلال . ولاح أمامنا في الظلام منظور داكن . كانت الأضواء تتراقص وتتمايل مثل ومضات النجوم السيارة . وقرب الأعرابي مصباحه من الحوائط هنا وهناك وأرانا بعض أقراص القربان التي سجلت في سجلات الزيارات المقدسة التي قام بها المصريون الأتقياء الى المقابر المقدسة . وقد وجد من هذه القرايين عند فتح السرايب لأول مرة خمسمائة قرص ، ولكن مارييت أرسلها كلها تقريبا الى متحف اللوفر .

وبعد خطوات قليلة وصلنا الى المقابر - وهي سلسلة من الحجرات المقببة الضخمة منحوتة على مسافات غير متساوية على كلا جانبي الممر الأوسط ، وتفصوص تحت السطح لمسافة تقرب من ستة أو ثمانية أقدام . وقد أقيم في وسط كل حجرة تابوت ضخم من الجرانيت اللامع وهنا انسحب الأعرابي للأمام مثل شبح أسود ، وكان يتوقف لحظة أمام كل فتحة عميقة ، ويسلط ضوء مصباحه على التابوت ثم يسرع مرة أخرى تاركا إيانا لكي نتبعه بقدر استطاعتنا .

ومضينا خلفه ونحن نتقدم كل لحظة في عمق الصخر الصلب مبتعدين عن الهواء الطلق وضوء الشمس . ولما ظننا أن الجو قد يكون باردا تحت الأرض فقد أحضرنا كمية كبيرة من اللفائف الدافئة ، ولكن على العكس

كانت الحرارة شديدة والجو خائفا • ولم نضع في الحسبان جفاف المكان ، وكذلك لم نتذكر أن المناخ العادية والأنفاق باردة لأنها رطبة • أما هنا وعلى مدى عصور لا تحصى وربما آلاف السنين قبل أن يشق النيل مجراه خلال صخور السلسلة ، كانت شمس أفريقيا التي لا تعوقها السحب ، تصب فيضها اليومي من الضوء والحرارة على الصحراء غير الرطبة • ولا بد أن جو المكان كان لا يحتمل • فقد كان مثل فرن ضخيم يخترن الحرارة المتراكمة ببطء خلال الدورات المتكررة والكثيرة بحيث يظن الانسان أن العصور المبكرة للتاريخ المصرى بالمقارنة اليها ، تنتمى الى الأمس فقط •

وعلى ذلك فاننا بعد أن اجتزنا مسافة تقترب من مائتى ياردة وصلنا الى حجرة تحتوى على أول تابوت عليه نقوش لأن بقية التوابيت كانت ملساء بدون نقوش • وهنا توقف الأعرابي حيث وجدنا ممرا فاستطعنا من خلاله بمساعدة بعض درجات سلم خشبي أن نهبط الى الحجرة • وسرنا حول التابوت واختلسنا النظر الى داخله بمساعدة سلم وفحصنا النقوش الهيروغليفيه التي تغطيه وهى ضخمة كما تبدو من أعلى ، ولا يستطيع الانسان تكوين فكرة عن مدى ضخامة هذه الكتل الصخرية الا من المستوى الذى أقيمت فوقه • وهذا التابوت الذى يعود تاريخه الى عصر الملك أمازيس من الأسرة السادسة والعشرين ، كان طوله أربعة عشر قدما وارتفاعه أحد عشر قدما وهو مكون من كتلة واحدة من الجرانيت الأسود دقيق ومتقن الصنعة ، ويمكن أن يجلس بداخله أربعة أفراد حول مائدة صغيرة للعب الورق فيلعبون عشرة كوتشينية وهم مرتاحون • وينقسم الممر من هذه النقطة الى فرعين لمسافة مائتى ياردة أخرى متجها نحو حجرات أكثر وتوابيت أكثر حتى يبلغ عددها أربعة وعشرين ، منها ثلاثة فقط عليها نقوش ، ولا يقل طول أى منها عن ثلاثة عشر الى أربعة عشر قدما ، وجميعها فارغة • وقد أزيحت الأغطية الى الخلف قليلا وبعضها مكسور ولكن المغيرين لم ينجحوا فى ازاحتها تماما • وحسب ما أورده مارييت فان المكان قد سلب بمعرفة المسيحيين الأوائل الذين يبدو أنهم بجانب ما استطاعوا حمله من الذهب والمجوهرات التى وجدوها فى طريقهم ، قد دمروا مومياوات العجول ودمروا المعبد العظيم وسووه بالأرض تقريبا • وعلى أية حال ، فانهم لحسن الحظ قد تجاهلوا أو تركوا عدة مئات من السبائك البرونزية الرائعة ربما لأنهم اعتبروها غير ذات قيمة وأقراص القربان الخمسمائة التى ذكرناها من قبل لأنها تسجل ليس فقط اسم ووظيفة الزائر ، بل أيضا - مع بعض الاستثناءات - الاسم والسنة الدالين على الفرعون المعاصر ، وهى بذلك تعطينا بيانات تاريخية لا تقدر بثمن ،

وتعمل أكثر من أية وثيقة سبق اكتشافها على توضيح النقاط التي تثير الجدل في التسلسل الزمني للتاريخ المصري .

ومن أغرب الحقائق أن أحد التوابيت الحجرية يحمل علامة قميز حيث ورد عن قميز أنه وقد طلب إلى كهنة منف أن يحضروا أمامه إلا أنه أيبس ، استل خنجره في ثورة غضبه وسخريته وطعن العجل في الفخذ . وحسب ما ذكره بلوتارخ فإنه ذبح العجل وألقى لحمه للكلاب . أما هيروdot فقد ذكر أن « أيبس رقد في المعبد لبعض الوقت وقد نحل جسمه ، ولكنه في النهاية مات متأثرا بجرحه ، وقام الكهنة بدفنه سرا » . ولكن حسب ما ورد على إحدى هذه الموائد الثمينة فإن العجل الجريح لم يموت حتى العام الرابع من حكم الملك دارا . وهكذا نجد أن هذا الكشف الحديث قد صحح وصور التقليد الموروث بطريقة عجيبة .

ونصل الآن إلى نتيجة هذه القصة القديمة في شكل حكاية ذكرها مسيو أبوت الذي يحكي كيف أن مارييت وقد استدعى فجأة إلى باريس بعد عدة شهور من افتتاح السرايوم ، وجد نفسه يفتقد وسائل نقل الآثار التي اكتشفها حديثا ، ولذلك دفن أربع عشرة حالة في الصحراء انتظارا لعودته . ومن ضمن هذه الحالات تابوت حجري احتوى على مومياء أحد عجول أيبس وقد نجا من اكتشاف المسيحيين الأوائل له . واتضح أن هذه المومياء تنطبق عليها أوصاف العجل الذي طعنه قميز . ويعنى ذلك أن العجل قد عاش وعولج جرحه ، كما هو ظاهر على عظمة الفخذ التي تظهر عليها علامات الإصابة والالتئام وهي علامات لا يمكن تجاهلها .

والقصة لا تنتهي عند هذا الحد ، فإن مارييت وقد رحل حاملا معه كل ما يمكن حمله من الكنوز ، جاء إلى منف شخص وصفه مسيو أبوت بأنه « شاب غريب ومبجل » وهو أرشيدوق جاء إلى مصر للاستمتاع ، وتحت إغراء البقشيش كشف له الأعراب سر الحالات المخفية فاكتمسح الأرشيدوق مخايب الحالات الأربع عشرة وحملها إلى الاسكندرية . وهناك نقلها بحرا إلى تريستا (١) .

(١) عرفت هذه المجموعة باسم « مجموعة ميرامار » وقد ضمنها البروفيسور راينيش إلى الكتالوج الذي نشره ، وقد نقلت حاليا إلى فيينا - (ملحوظة مضافة على الطبعة الثانية) .

ويقول مستر أبوت الذى يذكر أنه قد عرف القصة من مارييت مباشرة : « أما بخصوص المجرم فإنه قد انتهى بصورة مؤلمة فى نصف الكرة الآخر بعد أن تنازل عن جميع الثروة نظير عدم نشر اسمه » . ولكن ليس من الصعب التعرف على بطل هذه الحكاية الغريبة رغم هذا التكرار الواضح .

أما التابوت الذى وجد فيه العجل أبيس فقد بقى فى قبو السراييوم ولكننا لم نره . ولما كنا قد تقدمنا حاليا الى أكثر من مائتى ياردة ، وأصبحنا حتى ذلك الحين على وشك الاختناق ، فلم نهتم بأن نجعل مائتى ياردة تحول بيننا وبين الخروج الى ضوء النهار ، ولذلك عدنا من منتصف المسافة وقد أحرقنا أول وعاء من بودرة الماغنسيوم التى توهجت بشدة لعدة ثوان فأضاءت الشرفة الضخمة وكافة قبائها المنخفضة ووجوه الأعراب المندهشة ، ثم خرجنا فى اندفاع تاركين الظلام أشد كثافة مما كان .

ومن هنا مضينا عبر فضاء رملى بعيد فى وهج الظهيرة الشديد الى مقبرة « تى » وهو كاهن من عامة الناس من الأسرة الخامسة كان متزوجا من سيدة تسمى نفرحتب وهى الابنة الكبرى لأحد الفراعنة ، وقد بنى لنفسه مقبرة عظيمة هنا فى الصحراء .

أما عن واجهة هذه المقبرة التى كانت فى الأصل تشبه معبدا صغيرا ، فلم يتبق منها سوى عمودين كبيرين ويلى ذلك فناء مربع الشكل يحيط به سور بدون سقف . ويبرز من أحد الأركان ممر مغطى يقود الى حجرتين ، كما تبرز فى وسط الفناء فوهة حفرة يبلغ عمقها حوالى خمسة وعشرين قدما ، بها تابوت محطم ظاهر فى ظلمة القبّة السفلية . وكل شيء هنا مصنوع من الحجر الجيرى - الحوائط ، والأعمدة ، ورصف الأرضية ، وحتى الأطلال المنحوتة التى امتلأت بها الحفرة عندما أغلقت القبّة السفلية الى الأبد . أما عن خصائص هذا الحجر الجيرى فتتجلى فى قرب المكان الذى جلب منه ، علاوة على صفاته مثل الرخام ، وشدة بياض لونه لدرجة أنه على الرغم من تغطية حوائط وأعمدة الفناء بالنقوش التى تم تنفيذها بمهارة فائقة واهتمام بالغ ، فإن الضوء المنعكس عليها شديد التوهج مما صعب علينا فحصها بالاهتمام الذى تستحقه . أما فى الحجرة الكبرى الشديدة الظلام والتى لم نستطع رؤية شيء فيها الا على ضوء الشموع ، فقد وجدنا سلسلة من النقوش البارزة الكثيرة والمتقاربة والتى تحتاج رؤيتها المفصلة الى نصف يوم . وهى مرتبة فى خطوط أفقية متوازية

ويبلغ عمقها حوالى قدم ونصف القدم ، بحيث ان هذه المناظر غير العادية والمرتبة رأسيا صفا فوق صف ، تغطي كل بوصة فى فراغ الحائط من الأرضية الى السقف ، وبروزها منخفض العمق مما يجعلنى أشك فى أنه يتجاوز ربع البوصة فى أى من المساحات المنقوشة . أما السطح المغطى بطبقة رقيقة من الاسمنت فانه يمتاز بخاصية اللعان مثل العاج . ويبلغ متوسط ارتفاع الأشكال حوالى اثنتى عشرة بوصة وجميعها ملونة .

وهنا نجد قصة « تى » كما لو كانت ملونة فى كتاب مفتوح . كل حياته ، ومسراته ، وعمله ، وعلاقاته العائلية ، تظهر جميعها أمامنا ببساطة شديدة الجاذبية ، حتى ان الطفل يستطيع قراءة سجل الأحداث المصورة التى أضاعت الحائط ، ويجد فيها متعة مثل أكثر علماء الآثار خبرة .

كان « تى » رجلا غنيا وكانت ثروته من النوع الاقطاعى ، فقد كان يملك أسرابا وقطعانا وأراضى كثيرة . وكان يحتفظ بأنواع كثيرة من الطيور والحيوانات - أوز وبط وحمام وكراكى وثيران وماعز وحمر وطلباء وغزلان . وكان مغرما بصيد السمك وطيور الزينة ، واعتاد أن يمضى أحيانا فى أثر التماسيح وأفراس النهر التى كانت تصل فى هذا الوقت الى منف . وكان زوجا رحيما وأبا حانيا ، وكان يحب أن يتقاسم مسراته مع أسرته . ونراه هنا جالسا فى هدوء مع زوجته وأطفاله ، بينما يقوم مفنون وراقصون محترفون بتقديم عرض أمامهم . وفى ناحية أخرى يتنزهون معا، ويراقبون خدم المزرعة أثناء عملهم، ويلاحظون دخول القوارب التى تأتى بانتاج أراضى « تى » البعيدة . وفى موضع آخر نرى الاوز أثناء سوقها الى المنزل ، والأبقار وهى تعبر مخاضة ، والثيران وهى تحرث ، والزراع يبذر البذور ، والحاصد وهو يعمل بمنجله ، والثيران تدوس الحبوب بأقدامها ، ويخزن القمح فى الشونة . ومن الواضح أنه لم يكن هناك تجار مستقلون فى هذه الحقبة المبكرة من تاريخ البشرية . وكان لدى « تى » عماله الذين يعملون فى ضيعته ، كما أن كافة بضائعه وأمتعته المنقولة صناعة منزلية . وهنا نرى التجارين يصنعون أثاثا جديدا للمنزل ، وصانعى المراكب منشغلين بصنع قوارب جديدة ، والفخاريين يصبون فى القوالب الصلصال الذى تصنع منه القدور . أما عمال المعادن فانهم يصهرون سبائك الذهب الأحمر . ومن الواضح أن « تى » يعيش مثل ملك داخل حدود ضيعته . وهو يتمتع بوضعه المميز المحترم فى كافة هذه المناظر . وكان مرسوما فى حجم يماثل ثمانية أضعاف حجم خدامه فيجلس أو يقف عملاقا بين الأقزام ، أما زوجته (ولا ننسى أنها كانت

تنتمى الى الأسرة المالكة) فقد رسمت بنفس حجمه • أما الأطفال فكانوا فى نصف حجم والديهم • ومما يثير العجب أن الفن المصرى لم يتجاوز هذه السداجة المبكرة • فالرجل العظيم يظل يرسم ضخم الحجم حتى الأيام الأخيرة من حكم البطالمة ، بينما ظل الفلاح يرسم دائما فى شكل القزم (١) •

الحيوانات : ان معظم الحركات الصعبة والانتقالية قد جرى التعبير عنها باقناع ينم عن مهارة فائقة ، فالحمار يرفس برجليه الخلفيتين وينهق - والتمساح يغطس فى الماء - وترتفع البطة البرية ناشرة جناحيها ، ذلك مع مراعاة أبعاد الحركة العابرة فى كل لحظة بصدق لا يستطيع أن يتخيله أى رسام • أما الأشكال التى تخلو من الصرامة التقليدية التى اشتهرت بها الأعمال المصرية التالية ، فقد رسمت بوضوح وبروز ، ولكنها استكملت بدقة ونعومة • أما الألوان فهى صافية وقد وضعت فى شكل طبقات خفيفة منفصلة بدون أية محاولة لتكثيفها فى درجات لونية أو ظلال فتخفى جمال النقوش وتزيد من قيمتها •

وهذه فى حقيقتها هى أفضل ما يمكن مشاهدته حيث تم كحت اللون نهائيا • ولكن الألوان الخفيفة مازالت لامعة فى بعض أجزاء الحجرة الكبيرة • أما فى الممر والفناء اللذين تم التنقيب عنهما منذ عدة سنوات فقط ، وتجرى المحافظة عليهما بصعوبة يوما بعد يوم ، أما هنا فانا لا نجد أثرا باقيا للألوان - وهذا هو تأثير الرمال - التى تتعب العامل الذى لا يقتصر عمله على الحراسة فقط بل أيضا ازالة الرمال • ان الرمال تخبئ وتحفظ عمل النحات ولكنها تمحو عمل المصور • أما فى الأماكن المحمية حيث تتراكم الرمال بلا فائدة مثل الانهيار الثلجى ، فانها لا تبلى فقط التفاصيل اللونية السطحية ، بل انها أيضا تترك الألوان السفلية ممسوحة ومعتمة •

(١) هناك دراسة أكثر شمولاً عن هذه النصوص الجنائزية تمثل ثورة قديمة وهى تؤيد تفسيرنا لهذه النقوش ومثيلاتها من المشاهد الجنائزية • ان المناظر التى تتضمنها ليست كما افترضنا عند كتابة هذا الكتاب ، مجرد حكايات عن الحياة اليومية للمتوفى ، ولكنها حلقات فى القصة المفصلة الخاصة بدفنه وبقائه الروحى بعد الموت ، فنجد أن بذر ونمو وحصد القمح يقصد به طحنه وتحويل نقيقه الى قطائر جنازية • أما الثيران والماعز والغزلان والاوز وغيرها من المخزون الحى فالمقصود بها الاضحية التى تقدم كقرايين • أما الاوانى والاثاث وكافة البضائع المنزلية ، فانها تدفن مع جثة المتوفى فى مقبرته • أما التى تظهر فى كافة المناظر فهى قرينه (الكا) وليس الرجل ذاته • (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

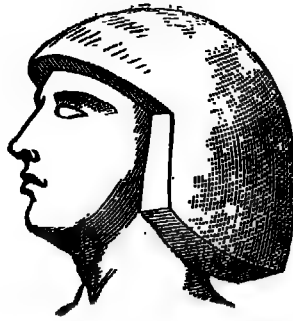
وكما ذكرت دائما خلال مسار الرحلة ، فانه لا شئ يمحو الألوان
بفاعلية مثل الرمال التي تعود الى فعل الرياح . وتتكون هذه المقبرة كما
رأينا من رواق وفناء وحجرتين وسرداب للدفن ، وتتضمن أيضا ممرا سريا
من النوع المعروف باسم « السرداب » وتبدو هذه السراديب التي تبني
بنفس سمك الحوائط ، دون أن يكون لها مداخل مختلفة عن مقابر
الامبراطورية القديمة (أى عصر ملوك الأهرام) وهى تحتوى على تماثيل
الراجلين من جميع الأحجام مصنوعة من الخشب والحجر الجبرى
والجرانيت . وقد وجد هنا عشرون تمثالا للوجيه « تى » حبيسة فى سرداب
مقبرته ، وكلها محطمة فيما عدا تمثالا واحدا وهو تمثال مصنوع من الحجر
الجبرى فى وضع الوقوف وارتفاعه حوالى سبعة أقدام وهو موجود بمتحف
بولاق (*) .

ويمثل هذا التمثال شابا يرتدى زيا أبيض ، ومن الواضح أنه تمثال
شخصى لبيان تفاصيل الوجه ، فنجد أن الملامح عادية ، والتعبير طبيعى .
أما الشكل العام للرأس فهو يكاد أن يكون اغريقيا أكثر منه مصرى . وتم
تلوين البشرة بلون أصفر فاقع . ويقف التمثال فى الموقف التقليدى
المعتاد، فالساق اليسرى متقدمة وقبضة كل يد مقفلة، والذراعان مستقيمتان
وملتصقتان بالجانبين . ويستطيع الانسان أن يتعرف جيدا على « تى »
بعد رؤية النقوش العجيبة التى فى مقبرته ، مما يجعل هذا التمثال الجميل
يثير الاهتمام كما لو كان يمثل صديقا معروفا (١) .

وما أجمل أن نعود الى منزل مارييت المهجور بعد الاختناق فى
السرايوم وحرارة مقبرة « تى » ، لكى نتناول غداءنا على أرضية الممر
الحجرية الباردة . وهو الممر الذى يظهر فى اتجاه الشمال فى الصحراء ،
لقد تركت هنا بعض المناضد والدكك الخشبية للاحتفاء بالضيوف وإقامة
السياح ، وقد زودت بالماء العذب عن طريق القلل التى جلبها الأعرابي
الكهل الذى يقوم بالحراسة . أما الأحواش والمرافق التى فى الخلف
فانها تمتلئ بالتماثيل المهشمة وشظايا الجرانيت الملونة بالأحمر والأسود .
وهناك تماثلان للكباش من الطريق المشهور يزينا الممر ، ويطلان على
زملائهما المدفونين حتى المنتصف فى الحفرة الرملية السفلية . وعلى مسافة

(*) حاليا فى المتحف المصرى بميدان التحرير - (المراجع) .

(١) ليست هذه التماثيل مجرد تماثيل شخصية ولكنها صممت بحيث تكون مسكنا
للقرين « الكا » وهو المفروض أنه عندما يعود يحتاج الى جسد وطعام وشراب وأنه
سيهلك تدريجيا اذا لم يزود بهذه الضروريات . وكان هذا هو النظام الكلى الخاص بدفن
القرايين والاثاث والمواد الاخرى المحفوظة فى مقابر قدماء المصريين - (ملحوظة
مضافة الى الطبعة الثانية) .



« نى » واس

بعيدة تظهر الصحراء مصفرة قاحلة متموجة ، مع خط من القمم الأرجوانية على مدى الأفق . وعلى اليمين وتحت حافة بارزة من الهضبة الصخرية التى لا يتجاوز بعدها عن المنزل مائتى ياردة ، تنفتح فوهة كهف أسود اللون تحوطه أشعة كثيفة ، ويقترب منه منحدر من الأطلال . وهذا هو المدخل الاضطرابى للقباب القديمة للسرايوم والتى اكتشفت فى واحدة منها المومياء التى وصفها مارييت كمقبرة للاله أيبس ولكن العالم بروجش يذكر أنها مومياء الأمير « خع ام واس » حاكم منف والابن المفضل للملك رمسيس الأكبر .

وهذه المومياء المهمة التى بدت كانسان وثور فى آن واحد ، وجدت مغطاة بالجواهر والسلاسل الذهبية والتمائم الثمينة المحفور عليها اسم « خع ام واس » وقد وضع على وجهها قناع ذهبى ، ويمكن مشاهدة جميع كنوز هذه المومياء فى متحف اللوفر . ولو كانت المومياء تخص ثورا فلا بد وأن تكون المجوهرات التى تزينها مهداة من الأمير الذى كان يحكم منف فى ذلك الوقت بوصفها قرابين .

وعلى العكس فلو كانت المومياء تخص رجلا وتم دفنها فى مثل هذا المكان ذى القدسية العجيبة ، فمن المحتمل أن يكون قد اغتصب أحد الأقبيّة المعدة للاله . وهو سؤال غريب ظل بدون اجابة حتى اليوم ، ولكن لا شك فى امكانية تسويته فى لحظة بمعرفة البروفيسور أوين (١) .

وما أثار العجب أكثر من اكتشاف أيبس أو المجوهرات كان هو المنظر الذى شاهده مارييت عند دخول هذه الحجرة الطويلة المخصصة للدفن .

(١) تم اكتشاف المقبرة الرسمية للأمير « خع ام واس » فى منف بمعرفة ماسبيرو خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية)
(٢) هذا التاريخ حسب تقدير مارييت .

لقد تم القفز فوق المنجم وأزيلت الفتحة ثم دخل بمفرده ، وهناك وجد على طبقة الرمل الرقيقة التى غطت الأرضية آثار أقدام العمال الذين وضعوا - منذ ٣٧٠٠ سنة مضت (٢) - تلك المومياة التى ليس لها شكل ، فى قبرها وأغلقت الأبواب عليها الى الأبد كما اعتقدوا حينذاك .

والآن والنصف الثانى من النهار يمضى سريعا - أحضرت الحمير وقيل لنا ان هذا هو وقت الرحيل . وكان علينا أن نشاهد موقع منف والتمثال الضخم المنطرح على الأرض ، والطريق الطويل الذى يقع أمامنا بكامل طوله ، ولذلك عدنا راكبين الحمير عبر الرمال المقفرة . ونزلنا من مملكة الأموات الى أرض الأحياء بعد اللقاء نظرة متلهفة طويلة وأخيرة على الهرم الذى فى المنصة .

وهناك سحر عجيب يحيط بهذا الهرم بحيث ان الانسان لا يكل من النظر اليه وهو يردد بينه وبين نفسه أنه فعلا أقدم بناء على وجهه المسكونة كلها .

أما الملك الذى أقامه فقد جاء الى العرش بعد موت الملك مينا مؤسس الملكية المصرية بحوالى ثمانين عاما حسب ما ذكره مانيتون . ولم يترك انا سوى هرمه هذا ، كما أننا لا نعرف عنه سوى اسمه . وهذه الفترة كلها تنتمى كما هى الى طفولة الجنس البشرى . وعلى الانسان فى تعامله مع التواريخ المصرية أن يفكر بهدوء فى الحقب التى تعد بالقرون ، ولكن عادة العقل هى التى تقود الى الخطأ . لقد وجدت الكاتبة أنه من المفيد أن تقارن بين الفترات الزمنية باستمرار ، وعلى سبيل المثال فان معرفة الزمن السحيق الذى انقضى على بناء هرم سقارة ستساعدنا على أن نتذكر ذلك ابتداء من عصر بنائه على يد الملك وينيفيس Ouenphes الى العصر الذى أقام فيه الملك خوفو الهرم الأكبر فى الجيزة ، ولا بد أن بينهما فترة زمنية تساوى تلك الفترة فى تاريخ انجلترا التى تمتد من عصر الغزو الى عصر الملك جورج الثانى (١) ولكن خوفو نفسه المعروف لدى مؤرخى الاغريق باسم كيوبس Cheops - ليس الاطلا يرفرف على عتبة التاريخ المصرى .

(١) لم تكن عبادة أبيس قائمة فى أيام الملك وينيفيس ولا حتى فى عصر كايشوس Kaiechos الذى جاء بعده يكثر من مائة وعشرين عاما ، ولكنها ظهرت فى فترة تالية أيام الامبراطورية المصرية . وقد قام كهنة منف بتخصيص هرمه لمومياوات العجل المقدس . وقد حدث ذلك بالطبع قبل حفر أى من السرايب المعروفة للعجل أبيس . ولا شك فى أن هناك العديد من هذه السرايب التى لم تكشف بعد . وكذلك لم يجد العلماء أى من هذه السرايب يعود الى ما قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة .

والآن تركنا الصحراء خلفنا ونقترب من النخيل الذى يقود الى منف - ولا شك أننا كنا بالطبع نميل نحو هيرودوت - كان كل واحد منا يحذو حذو هيرودوت فى رحلته عبر النيل ، كما كانت رؤوسنا تمتلئ بالأمجاد القديمة لهذه المدينة الشهيرة . اننا نعلم أن الملك مينا قد حول مجرى النهر لكي يبنى منف فى هذه البقعة بالذات ، وأن غالبية الفراعنة العظماء قد زينوها بالمعابد والقصور والأبراج والتمائيل الثمينة . لقد قرأنا عن معبد بتاح العظيم الذى رصعه رمسيس الأكبر بتمائيله الشخصية . وعن المكان المقدس الذى عاش فيه أبيس بهدوء ، وهو يتمشى فى بهو الأعمدة حيث كان كل عمود منها تمثالا ، وعن البحيرة الصناعية والطرق المقدسة والمسلات وكافة عجائب هذه المدينة التى كانت حتى آخر أيامها من أكثر المدن المصرية ازدهاما بالسكان .

ومع التفكير العارض فى هذه الأشياء اتفقنا على أنه كان من الأفضل أن نترك منف لنعود إليها فى نهاية الرحلة ، وحينذاك نستطيع أن نقدر المدينة حق قدرها بعد أن نكون قد شاهدنا أولا تلك المدينة الأخرى التى على حافة الصحراء ، والتى دأب سكان منف على الهجرة إليها جيلا بعد جيل على مدى ستة آلاف عام تقريبا . ونحن نعرف الآن كيف كان يعمل فقراء الناس ، وكيف كان العظماء يسلون أنفسهم فى تلك الأيام البعيدة ونعنى بهم وجهاء الريف من أمثال « تى » الذين يعيشون فى منازل حضرية بمدينة منف وفيلات على ضفة النيل . أما بخصوص السرايوم ، ما دفن منه وما جرى تخريبه ، فإن الانسان لا يستطيع الا أن يهضم ولديه انطباع عميق عن عظمة وقوة تلك الديانة التى تسخر لخدمة أساطيرها الخرافية مثل تلك العقيدة وذلك الولاء وتلك الأشغال العامة .

والآن ها نحن نعود مرة أخرى لنصبح وسط غابات النخيل ، نشق طريقنا وسط نفس الروابي التى عبرناها فى الصباح . وسرعان ما اجتازت مقدمة الركب الطريق المطروق عبر سهل مغطى بالحشائش الى اليمين ، وفى اللحظة التالية تجمعنا على شفا بركة طينية تقع فى وسطها كتلة غير منتظمة الشكل من الحجر الجيرى المعتم والمتآكل . ويبدو أنها هى التمثال المنبسط المشهور لرمسيس الأكبر الذى يخص الأمة البريطانية ، ولكن الحكومة الانجليزية شديدة الاقتصاد بحيث لا تعمل على تحريكه (١) ولذلك فهو يرقد هنا مقلوبا على وجهه ويغرقه الفيضان مرة كل عام ، ولا يظهر فقط الا عندما تتبخر البرك المتخلفة عن الفيضان ، وتجف

(١) هذا التمثال مقام الآن على قاعدة من القرميد - (ملحوظة مضافة الى الطبعة

الثانية) .

كافة التجاويف الطينية • وهو أحد تمثالين كانا يقعان على مدخل معبد
بتاح العظيم ، وقد أخطرنا هؤلاء الذين جاءوا الى التجويف وشاهدوه من
أسفل أثناء فصل الجفاف بأنه نموذج نبيل ورائع لفترة من أفضل فترات
الفن المصرى •

ولكن أين التمثال الآخر ؟ بل أين المعبد نفسه ؟ وأين البوابات
والمسلات وطرق الكباش ؟ وباختصار - أين منف ؟ ان الترجمان يهز
كتفيه ويشير الى الروابي الخاوية بين أشجار النخيل • انها تبدو مثل
أكوام ترابية ضخمة ، وترتفع فوق سطح السهل من ثلاثين الى أربعين
قدما • ولا يرتفع شيء عن مستواها اللهم الا بعض مجموعات النخيل الناقص
النمو المتناثرة هنا وهناك • ويبدو أن مادتها تتكون أساسا من القرميد
المتناثر ، والخزف المكسور ، وشظايا من الحجر الجيري • ويمكن رؤية
بعض آثار قليلة لقواعد من القرميد ، وكتلة أو اثنتين من الحجر فى أماكن
منخفضة مقابل قاعدة رابية أو اثنتين • ونبحث دون جدوى عن أية علامة تبين
حدود حائط فاصل أو مكان مبنى عام ضخم •

هل هذا هو كل شيء ؟ لا • ليس تماما • هناك بعض الأكواخ الطينية
بين الأشجار ، ونجد أمام كوخ منها عددا من الشظايا المنحوتة ، والكباش
المهشمة ، والتمائيل التى بدون سيقان ، والتمائيل الجالسة بدون
رؤوس • وكلها مصنوعة من الجرانيت الأخضر والأسود والأحمر • وقد
رتبت على هيئة نصف دائرة غير منتظمة على الأرض العشبية ، وتبدو
كما لو كانت جالسة فى اجتماع فى بيت مهجور ، نصف رزينة ، ونصف
سخيفة ، مع الماعز التى ترعى حولها ، وأطفال الأعراب الذين يختبئون
خلفها •

ويرقد تمثال من الجرانيت الأحمر بالقرب من هذه البقعة فى بركة
أخرى - وليس هو النسخة الثانية من تمثال رمسيس الذى رأيناه من
قبل ، ولكنه تمثال أصغر حجما ومنكفىء على وجهه أيضا •

وهذا هو كل ما تبقى من منف أقدم المدن ، عدد قليل من أكوام
القمامة الضخمة ، دسنة من التماثيل المهشمة ، والاسم ! وينظر الانسان
حوله ، ويحاول بلا جدوى أن يعرف الأمجاد الضائعة لهذا المكان • أين
منف التى جاء الملك مينا من تانيس لى ينشئها - منف يونيفيس ،
وخوفو ، وخفرع ، وكافة الملوك الأوائل الذين بنوا مقابرهم الهرمية
الشكل فى الصحراء المجاورة ؟ أين منف هيرودوت واسترابون

وعبد اللطيف ؟ أين تلك الخرائب المعروفة حتى في العصور الوسطى
والتي تمتد على مساحة مقدارها « رحلة طولها نصف يوم في كل
اتجاه » ؟

يصعب على الانسان أن يتذكر أنه كانت هنا مدينة عظيمة ازدهرت
في هذه البقعة ، أو أن يفهم كيف طمست معالمها تماما . ولكنها تقف
هنا - حيث يزدهر العشب الأخضر ، وتنمو أشجار النخيل ، ويمنى
الأعراب أكواخهم على حافة الغمر . ان التمثال العظيم يحدد موقع المدخل
الرئيسي الى معبد بتاح . انه يرقد حيث وقع ولم يحركه أحد . وهذه
الصفحة الهادئة للبركة التي بمحاذاة النهر ، والتي تنمو أشجار النخيل
في أطرافها ، نرى وراءها قرية ميت رهينة ، ونلمح ومضة من أهرام
الجيزة التي تحتل حوض بحيرة صناعية ضخمة حفرها الملك مينا . ومازال
اسم منف يعيش في لهجة الفلاح الذي يطلق على الروابي اسم :
تل منف (١) مثلما أن سقارة تخلد اسم سوكر أحد الأسماء الخاصة بالاله
أوزيريس .

وليس هناك عاصمة في العالم يعود تاريخها الى هذه الفترة
السحيقة . أو تحتفظ بمكانها في التاريخ مثل هذه المدة الطويلة ، فقد
أنشئت قبل عصرنا هذا بسنة آلاف عام . لقد شاهدت قيام وسقوط
أحدى وثلاثين أسرة ، وعاشت عصور حكم الفرس والاغريق والرومان ،
وكانت حتى بعد انحلالها هي المدينة الثانية بعد الاسكندرية من حيث عدد
السكان والانتساع . وظلت عامرة بالناس حتى الفتح العربي . وحينذاك
أصبحت هي الحجر الذي بنيت بأحجاره الفسطاط (مصر القديمة) .
ومع قيام المدينة الجديدة على الضفة الشرقية سارع أهالي منف الى اخلاء
عاصمتهم القديمة وتركوها لتتصير نهبا للخراب والدمار .

ومازال باقيا منها حقل واسع من الخرائب . ويكتب المؤرخ
عبد اللطيف عند بداية القرن الثالث عشر فيتحدث بحماس عن التماثيل
العملاقة والأسود والقواعد الضخمة للأعمدة والتماثيل وبوابات الصروح
المكونة من ثلاثة أحجار فقط، والنقوش البارزة والعجائب الأخرى التي كانت

(١) كلمة تل العربية تعني رابية وتحفظ العديد من هذه الروابي الأسماء القديمة

للمدن التي بها مقابر مثل تل بسطة (بوباستس) ، وكوم أمير (أمبوس) الخ ..
وذلك لأن كلمتي تل وكوم مترادفتان .

موجودة حينئذ في هذه البقعة، ولو كانت رحلات ماركو بولو قادتته الى نهر النيل ، لكان قد وجد بعض الأماكن والمعابد التي تخص مدينة منف قائمة • أما سانديس Sandys الذي ذهب في سنة ١٦١٠ للميلاد حتى كفر الآيات جنوب القاهرة فيقول انه « لا يوجد على بعد ٢٠ ميلا جنوب القاهرة سوى الخرائب » وقد زالت نفس هذه الخرائب بعد هذا التاريخ ، ووجدت أشجار النخيل زمنا يسمح لها بالنمو ، وامتنعت القاهرة الحديثة كل مادة البناء التي تخلقت عن العصور الوسطى •

ان منف مكان يسعدك أن تقرأ عنه وتفكر فيه وتذكر • ولكنه يشعرك بالاحباط عندما تراه • أما اذا افتقدته فانك تفتقد أول حلقة في سلسلة التاريخ الأثرى الذي يربط مصر القديمة بعالم اليوم • ان هذه الروابي المقبضة وتلك البحيرة التي يسكنها مالك الحزين (طائر البلشون) لابد من رؤيتها اذا كان لابد لها أن تتخذ موضعها في معرض الصور المحفوظة في ذاكرة الانسان •

لقد كانت هذه الزيارة نتاج يوم عمل طويل ، ولكنها وصلت أخيرا الى نهايتها • وسقنا حميرنا عائدين نحو النهر • وكان منظر الغروب العظيم يصبغ أشجار النخيل وأبراج الحمام في البدرشين باللون القرمزي ، ويبدو كل شيء الآن في حالة استرخاء • فهذه جاموسة تجتر طعامها متأنية بينما ترقد في جانب بجوار الممر وتنظر إلينا دون أن تتحرك • أما الأطفال والحمام فقد ذهبوا جميعا للنوم • أما القدور فقد جفت في الشمس بعد أن استغرقت وقتنا طويلا • وقد ارتفع عمود رفيع من الدخان هنا وهناك منبعثا من الأكواخ المتلاصقة • ولكن من النادر أن ترى مخلوقا يتحرك • وسرعان ما صادفنا امرأة فلاحه جميلة وطويلة تقف في أبهة بجانب الطريق ، وقد أزاحت حجابها الى الخلف فانسدل على قدميها في طيات مستطيلة • وابتمست ومدت يدها وهي تهمس « بقشيش ! » كانت أصابعها مغطاة بالحواتم وذراعيها بالأساور الفضية • وكانت تستجدي ، فليس في ذلك عيب لأنه أصبح مألوقا ، ومجرد عادة متأصلة ، وكان من الواضح أنها لم تتوقع أو تحتاج البقشيش الذي تنازلت وطلبتة •

وغربت الشمس بعد لحظات قليلة ، وتركنا القرية خلفنا ، وقطعنا
آخر نصف ميل من السهل • والآن ونحن نعاني من الجوع والعطش ،
والتراب يغطينا ، بالإضافة الى الاجهاد ، وقد تشبعنا بالمعلومات الجديدة ،
والانفعالات الجديدة ، والأفكار الجديدة ، فقد عدنا مرة أخرى الى المنزل
حيث نجد الراحة •



قرية ميت رهينة

الفصل الخامس

من البدرشين الى المنيا

من المعتاد فى الرحلات عبر النيل أن يسرع السائح أثناء إبحاره جنوبا بقدر الامكان ، تاركا الأطلال ليراها فى رحلة العودة مع التيار . ولكن هذه القاعدة مثلها مثل قواعد كثيرة غيرها لا يتم تطبيقها فى جميع الأحوال . ان السائح الذى يبدأ رحلته فى أواخر الموسم ليس أمامه خيار آخر ، وعليه أن يسرع فى الوصول الى نهاية رحلته اذا أراد العودة مع انخفاض النيل دون أن تنغرز سفينته فى ضفة رملية يصعب الخروج منها حتى يتولى الفيضان التالى تعويمها مرة ثانية . أما بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون ليس فقط مشاهدة الآثار ، بل أيضا متابعة مسار التاريخ المصرى كما يكشف عنه الفن المصرى بصرف النظر عن سطحية هذه المتابعة ، فمن الضرورى أن يبدؤوا رحلتهم فى بداية الموسم حتى يمكنهم مشاهدة العديد من الآثار أثناء الإبحار .

ونظرا لأن تاريخ مصر القديمة يسير عكس التيار فاننا نجد الآثار الأقدم زمنا تقع بين القاهرة وأسيوط ، بينما تقع معابد الآلهة القديمة الأحدث زمنا فى النوبة . ولذلك فان هؤلاء السياح الذين يسرعون فى الإبحار جنوبا مع الريح أو بدونها ، بحيث يبحرون حيناً ، ويتوقفون حيناً ، ويدفعون المركب بمصا طويلة تمس قاع النهر حيناً ، عابرين هذا المكان ليلاً ، وذلك المكان نهارة ، ولا يستريحون حتى يصلوا الى أبعد نقطة فى رحلتهم ، انما يبدؤون من الاتجاه الخاطئ ، ويشاهدون جميع المناظر بترتيب مقلوب تماما . ولا شك فى أن زيارة منف وسقارة ومقابر بنى حسن لابد أن تتم أثناء الإبحار جنوبا . وكذلك الكاب وتل العمارنة وأقدم أجزاء الكرنك والأقصر . وليس من الضرورى التوقف طويلا عند بعض هذه الأماكن ، فمن الممكن مشاهدتها أثناء الذهاب ثم دراستها بعناية أثناء العودة . ولكن لابد من مشاهدتها عند المرور بها ، بصرف النظر عما يكلفه

التأخير من تكلفة طفيفة ، مع ضرورة تجاهل أى نوع من المعارضة • لأنه بهذه الطريقة وحدها يمكن تتبع تقدم وتدهور الفنون من عصر بناء الأهرام حتى عصر القياصرة ، أو فهم ترتيب هذه المسيرة الضخمة والموقرة للأسرات التى توالى على مسرح التاريخ فى الوقت المناسب والمكان المناسب •

• أما عن رحلتنا ، كما سنرى سريعا ، فإننا قد استطعنا أن ننفذ جزءا من البرنامج ، ولكن ذلك الجزء كان لحسن الحظ هو أهم الأجزاء • ولم نتوقف عن تهنئة أنفسنا لأننا استطعنا التعرف على أهرام الجيزة وسقارة قبل أن نشاهد مقابر الملوك فى طيبة • واننى أحس بعدم إمكانية تقدير ميزة دراسة نقوش مقبرة « تى » قبل أن نتأثر بالانطباع الذى يداخلنا لدى مشاهدة طراز معبدى دندرة واسنا الأقل روعة • لقد بدأنا قراءة الكتاب الكبير باختصار كما يجب أن تكون البداية دائما • وتعرفنا فى صفحته الأولى الى هذه الرؤية الضرورية التى بدونها تفقد الفصول التالية أكثر من نصف أهميتها •

وقد صممت على التركيز على هذه النقطة لأن الأشياء تحتاج قدرا معيانا من الاصرار على غير العادة • وأنا متأكدة من أنها ستواجه بالمعارضة • وعلى سبيل المثال فانه لا يوجد ترجمان واحد متفهم لأهمية التدرج التاريخى فى مثل هذا الموضوع خاصة فى حالة الرحلات المؤجرة بعقد • فان خوفو والرعامسة والبطالمة هم شيء واحد بالنسبة له • أما عن الآثار فانه يعتبرها كلها آثارا مصرية ، وكلا منها يماثل الآخر من حيث الغرابة وصعوبة الإدراك • انه لا يفهم تماما لماذا يبحر السياح هذه المسافات البعيدة ، ويصرفون مثل هذا القدر من المال لمشاهدة الآثار ، ولكنه ينسبها الى عادة حب الاستطلاع التى لا تؤدى الى أية أضرار مادام يحقق أرباحه عن طريقها •

والحقيقة هى أن مجرد مشاهدة النيل تتطلب بعض القراءة والتنظيم اذا كان الغرض منها هو المتعة • ولا يمكن أن نكون جميعا مثقفين متعمقين ، ولكننا نستطيع على الأقل أن نبذل أقصى جهدنا لفهم ما نراه ، ونتخلص من العقبات ، وأن نضع الشيء الصحيح فى مكانه الصحيح ، لأن أرض مصر هى كما سبق أن قلت كتاب عظيم مفتوح ربما كان من الصعب قراءته تحت أية ظروف ، ولكنه فى جميع الأحوال شديد الصعوبة ، ناهيك عن الارتباك الناتج عن قراءته من الخلف الى الأمام •

والآن ، فان النقطة التالية فى رحلتنا عبر النهر وهى نفسها الحلقة التالية فى سلسلة الآثار الأكثر قدما - هى قرية بنى حسن بمقابرها الشهيرة المحفورة فى الصخر ، والتي تعود الى الأسرة الثانية عشرة • وما زالت قرية بنى حسن تقع على بعد يزيد عن خمسة وأربعين ومائة ميل • وكان علينا أن نتجه اليها مباشرة ، ولذلك قمنا بتقييم عملية رسو المراكب وما سنحتاجه من أميال قليلة للعودة اليها بالقوارب فى هذا المساء ، ولكننا عزمنا على قضاء يوم آخر فى نفس المكان بالرغم من استمرار هبوب الرياح المواتية ، على عكس كافة القواعد والسوابق • وهز القبطان رأسه بالموافقة ، بينما استنكر الترجمان ذلك ، ولكنه وافق على مضض • قال الأخير فى نفمة تشوبها روح الاذعان الحزين التى تعود أن يبديها دائما عندما لا يسمح له بالسير كما يريد : « سنعرف قيمة الريح عندما نقضى وقنا طويلا على صفحة النيل » • لقد كان رجلا كسولا ، حسن الطباع ، يتحدث الانجليزية جيدا ، كما كان سهل الانقياد ، ولكن روح الاذعان هذه أصبحت مزعجة فى حينها •

وكان للسيدتين م • وب • نفس الطباع • وعلى كل حال فاننا دخلنا يومنا الثانى الذى قضيناه فى منف • وكان لابد لنا من العبور الى طرة • وشاهدنا المناجم الضخمة التى جاءت منها الأحجار التى أقيمت بها الطبقة التى كست الأهرام ، وكافة أنواع الحجر الجبرى الفاخر التى بنيت بها قصور ومعابد منف • ولكن هذه الناحية الجبلية بدت كما لو كانت فى أوجها على الجانب المقابل من النهر • وقررنا أن نترك طرة حتى عودتنا ، ولذلك مضينا فى طريقنا • وأخذ ألفريد يصيد الحمام ، بينما كانت الكاتبة ترسم منطقة ميت رهينة والنخيل وبحيرة مينا المقدسة • وأخذ الآخرون ينبشون الأرض بين الروابى بحثا عن الكنز ، فوجدوا شظايا عديدة من الزجاج والفخار ، وجزءا من تمثال منحوت من البرونز للعجل أبيس • وقضينا يوما هادئا سعيدا خاليا من الوقائع ، ولكنه جدير بأن نتذكره فى سعادة •

واستمرت الرياح المواتية فى الهبوب طوال تلك الليلة ، ولكنها انتهت مع شروق الشمس عندما كنا على وشك الاقلاع • وقال الرئيس حسن : « النهر الآن يمتد أمامنا ناعما كالزجاج ، ولا نملك أن نفعل له شيئا اللهم الا السحب » • لقد سمعنا عن كلمة السحب هذه كثيرا منذ حضورنا الى مصر ، ولكن دون أن تكون لدينا فكرة محددة عن هذه العملية • ولما صعدنا على سطح المركب ، وقبل الإفطار • وجدنا تسعة من

أصداقائنا المساكن مربوطين في حبل مثل خيول الجر ، وهم يجرون المركب الضخمة ضد التيار . وكذلك قام سبعة من بحارة السيدتين م . وب . بجر المركب الأخرى وهم يتبعوننا على بعد عدة ياردات . وتقابل الجبلان ، وتقاطعا ، وغطسا في الماء معا . وسرعان ما غاب المكان الذي رسونا فيه الليلة الماضية . وانتصب هرم ونيفيس على حافة الصحراء وسط اخوته الأصغر حجما كما لو كان يحينا تحية الوداع . ولكن منظر عمال السحب تنافر مع جمال الصورة الهادي . وتعودنا عليه مثلما يتعود المرء على كل شيء في حينه . ولكن هذه المهمة بدت لنا عملا من أعمال السخرة وأصابت مفاهيمنا الانجليزية بصدمة شديدة .

ومع استمرار السحب في هذا الصباح تجاوزنا أهرام دهشور . وشاهدنا هرما متداعيا مشيدا من القرميد قائما في وسطها مثل صخرة سوداء تبرز بنفسها خلال منطقة الحجر الجيري وسط الصحراء . وكانت أشجار النخيل تحدد خط الضفة وتتخلل المنظر . ولكننا ألقينا بعض النظرات هنا وهناك باحثين بأعيننا عن ذلك الهرم الذي يتخذ شكل القبة ، وكنا قد لاحظناه من سقارة بالأمس . وبالنظر إليه في ضوء الشمس ظهر لنا أكبر حجما وأنصح بياضا وأكثر شبها بسقف قصر العدالة القديم الذي يقع في باريس على هذا البعد السحيق .

ومع مرور فترة الصباح ، جلسنا على سطح المركب نكتب الخطابات ، أو نقرا ، أو نشاهد مناظر الشاطئ التي يقع عليها ضوء الشمس وتدر في ببطء بحيث تظل على مدى النظر فترة طويلة . وكانت تتتابع أمامنا غابات النخيل والضفاف الرملية وزراعات الذرة ذات الرؤوس المجمدة ، والحقول التي تنمو بها بعض الأعشاب ذات الرؤوس التي تكللها أزهار صفراء اللون . وهناك صبي يمشي متثاقلا بطول الضفة ساحبا جملا . وكلاهما يمضي ببطء ، لكنهما سرعان ما تجاوزنا ، والتقينا بقارب محلي يسبح مع التيار . وجاءت فتاة الى حافة الماء بيدها جرة فارغة ، وانتظرت حتى تملأها بعد مرور عمال السحب . وكانت أبراج الحمام الخاصة بأحدى القرى الطينية تلوح وراء مجموعة من الأشجار الضخمة على مدى ربع ميل نحو الداخل . وهنا شاهدنا رجلا وحيدا بنى اللون يضع على رأسه طاقية ويرتدى ازارا قصيرا ويقوم بتشغيل الشادوف (١) فينحنى

(١) قام ف . ب . ذلك بوصف الشادوف وصفا دقيقا لا يسعى الا ان نقله حرفيا كما هو : « من الجانب الميكانيكي نجد أن الشادوف تطبيق لنظرية الزواضع » هي الآلات التي اخترعها الانسان بمساعدة تراكم العلم نجد أن الشادوف يعود استخدامه =

ثم ينتصب ، وينحني ثم ينتصب مثل بندول الساعة • انها نفس الآلة التي سنشاهدها مرارا وتكرارا مرسومة في مقابر طيبة • ومن الواضح أن الرجل الذي يقوم بتشغيلها ينتمي الى قدماء المصريين، بحيث نشعر بالفراة لأنه استطاع أن يهرب بعد تحنيطه في شكل مومياء ودفنه منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة مضت •



الشادوف

= الى درجة القوة المستخدمة • ان جسم الشادوف يتكون من عمود متين طويل يرتكز على دعامة وقد وضع العمود بزاوية عمودية على النهر • اما طرفه الذي ناحية الارض فقد وضعت عليه كتلة ضخمة من الصلصال • وقد علق جردل من جلد الماعز على الطرف الذي بناحية النهر • هذا هو وصف الجهاز • اما الرجل الذي يقوم بالتشغيل فانه يقف على حافة النهر وامامه حفرة مملوءة بالماء القادم من مجرى النيل • وعندما يقوم بتشغيل الشادوف فانه يمسك بالحبل المعلق فيه الجردل الفارغ ثم ينحني ويغمر الجردل في الماء مستخدما كل قوة كتليه • اما الجهد الذي يبذله في الاعتدال مرة اخرى فانه يعطى للنيل المملوء بالماء دفعة الى أعلى • بحيث ان كتلة الصلصال التي تحقق التوازن بين القوتين تعمل على رفع الدلو الى الحوض الذي تفرغ فيه ماء الجردل ، بينما تميل على جانب واحد • اما ما فعله فيتلخص في انه رفع الماء سقطة أو سبعة اقدام أعلى من مستوى سطح النهر • اما اذا كان مستوى سطح النهر منخفضا بمقدار اثني عشر أو أربعة عشر

ورويدا رويدا بدأ النسيم العليل يهب فأطلق الرجال الجبل وقفزوا الى سطح المركب ، وارتفع الصارى الكبير ونشط النسيم. وعدنا للابحار مرة أخرى بنفس بهجة اليوم الذى بارحنا فيه القاهرة . وعند غروب الشمس شاهدنا شيئا غريبا يشبه مسلة عملاقة تم نحت نصفها ، وهي نقف على الضفة الغربية مقابل السماء ذات اللون البرتقالى الذهبى . انه هرم ميدوم الذى يطلق عليه فى العادة اسم : الهرم الكذاب . انه يبدو قريبا تماما من الضفة ، ولكن ذلك من تأثير الضوء الشديد والظل لأنه فى الحقيقة يقع الى الداخل بمسافة تبعد عن النهر بأربعة أميال على الأقل . وفى هذا المساء وبعد أن واصلنا الابحار فى النهر حتى الساعة التاسعة ، رسونا على بعد حوالى ميل من بنى سويف ، واندھشنا عندما علمنا أنه لابد من ارسال رجل الى المحافظ لطلب الحراس . ويقول تلحمى ان شيئا لا يحدث لأحد فى بنى سويف، ولكن المكان لا يتمتع بسمعة من الدرجة الأولى . واذا كان لدينا الحراس فاننا فى جميع الأحوال نجعل المحافظ مسئولاً عن سلامتنا وسلامة ممتلكاتنا . ولذلك أرسلنا فى طلب الحراس . ومع رسونا على الضفة ظللنا طوال الليل نصدر شخيراً مسموحاً خارج نوافذنا .

وفى نفس الوقت اخذ اتجاه الرياح فى التحول الى الجنوب ، ولكنها فى الصباح التالى صارت تهب فى وجوهنا. وعلى أية حال، فقد ظل الرجال يسحبون السفينة نحو بنى سويف الى نقطة تصل فيها حدود المباني الى حد النهر وينتهى الفراغ الذى يمثل مسار سحب السفينة . وهناك توقفنا لحظة بين أسطول من المراكب المحلية القذرة الملاصقة لموقع النزول من السفينة . أما مدخل بنى سويف فهو بديع ، ويمتلك الخديو هنا فيلا من الطراز الايطالى بيضاء اللون تلمع فى وسط حديقة كثيفة الأشجار . وتقع المدينة خلف مجرى النهر قليلا . ويواجه النازل من السفينة عدد قليل من المقاهى ونوع من المتنزهات التى تقع على ضفة النهر ، ومسجد بديع الشكل مبنى على طرف الضفة مقابل انحناءة النهر .

ونريد الآن أن ندور مع هذا الركن لنصل الى موقع أفضل للابحار عند هبوب الرياح ، أما عن التيار هنا فإنه يجرى بصق وشدة ولكن الرياح

قدما فإنه سيحتاج الى شادوف آخر يعمل بحيث يصل الى حوض جديد ينقل اليه الماء من الحوض الأول . واذا كان مستوى سطح النهر اقل من ذلك فإن الامر يحتاج الى شادوف ثالث لرفع الماء حتى قمة الضفة بحيث يمكنه من الطفو حتى الخول التى تحتاج للرى . انظر كتاب *Egypt of the Pharaohs and the khedive* ص ٤٤٥ وما بعدها .

والله أمامنا في حالة سكون • لقد التفت عدد من رجالنا حول الركن مثل انقطط وهم يحملون الحبل معهم ، بينما عمل الآخرون على ابقاء الذهبية بعيدا عن الضفة باستخدام زانات تتركز على قاع النهر • ومع انقطاع الحبل وانكسار إحدى الزانات ناضلنا لكي نتقدم عدة أقدام ، ولكنه تقدم ضعيف • وبعد أن استراح الرجال قليلا ، كرروا المحاولة ولكنهم فشلوا مرة أخرى • واستمرت المعركة ، وسرعان ما ازدحم المتنزه ونوافذ المسجد تدريجيا بالمشاهدين • وتم احضار عدد من الكراسي لجلوس ثلاثة أو أربعة من الرجال الملتحين الذين يرتدون العباءات ، فجلسوا في وقار وهم يدخنون النرجيلة على الضفة ويستمتعون بالمشاهدة • وفي نفس الوقت ظل السقامون في غدو ورواح في منطقة النزول ، وهم يملأون القرب المصنوعة من جلد الماعز • كما أتى البعض بالحخير والجمال لكي تشرب • بينما أتت الفتيات اللاتي يرتدين فساتين زرقاء داكنة وأحجية سوداء خشنة ويحملن جرارا ضخمة تميل على رؤوسهن • وبعد ملئها ووضعها معتدلة يمشين في خطوات مهيبه كما لو كانت الجرار الثقيلة آكالييل فوق رؤوسهن •

وهكذا انقضى اليوم في تكرار محاولات اذاحة المركب ولكنها ظلت ثابتة • وأخيرا استطاع بحارتنا باصرار عنيد أن يدوروا بنا حول الركن الصعب • وبعد ذلك بقليل تبعتنا الذهبية باجستونز، ورسست كلتا الذهبيتين على بعد حوالى ربع ميل أعلى المدينة • وتلت ذلك ليلة مليئة بالمغامرات • لقد نام حراسنا بعمق مرة أخرى بينما كان أشرار بنى سوييف مستيقظين تماما •

وقد حاول أحد الوجهاء الذى أثارته دوافع الود العميق القيام بزيارة ليلية للذهبية باجستونز ؛ ولكنه هرب بالقفز من الذهبية بعد أن تم اكتشافه وملاحقته واطلاق النار تجاهه • وبعد ذلك بساعتين حل دورنا عندما تصادف أن كانت الكاتبة مستيقظة فسمعت صوت رجل يسبح بهدوء حول فيلة • وجاء التصرف السريع فى شكل اشعال نور مفاجئ وتحذير كل فرد بحركة فجائية • وسرعان ما أثارت الذهبية كلها ضجيجا يصم الأذان • وأضيئت المشاعل فوق السطح ، واستعدت فصيلة البحارة ، وشحن تلحمى بندقيته ، فانفلت اللص فى الظلام هاربا كالسمكة •

وبالطبع كان الحراس نائمين خلال كل تلك الأحداث • يا لهم من أمناء ! لقد دفعنا لكل منهم شلنا فى الليلة نظير الحراسسة ولكنهم لم يهتموا بشيء •

وفي صباح اليوم التالى أودعنا شكوى ضد أهل المدينة فحضر لزيارتنا شخص شاحب اللون ، مرتديا زداء أسود طويلا ، وقميصا أبيض كبير الحجم . كان هو كبير الحراس . فقام بتدخين الغليون مرات عديدة ، وشرب أكوابا عديدة من القهوة ، وأنصت الى كل ما قلناه ، وهو يبدو شديد التعقل . وأخيرا اقترح ضرورة مضاعفة عدد الحراس .

وغامرت بالقول انه اذا كان النوم طبيعتهم، فان أربعين حارسا منهم لن يكونوا على مستوى المسئولية ، وعند ذلك هب الرجل واقفا وشده نفسه ، ولمس لحيته ، وقال بصوت مسرحى جهورى : « اذا ناموا فاتهم سوف يعلقون فى الفلقة ، ويضربون حتى الموت ! » .

ويبدو أن حظنا السعيد قد فارقنا ، لأن الريح المضادة استمرت على مدى ثلاثة أيام لباليها ، وهى تهب بقوة حتى عجز الرجال عن السحب ضدها . ومع رسونا عند تلك الضفة الموحشة وجدنا أن بداية رحلتنا منذ عشرة أيام قد طارت فائدتها فى الهواء ، وأننا نمر باتعس الظروف . ولكن أسعدنا اكتشاف أن الجزيرة الطويلة المجاورة والضفتين اللتين على جانبي النهر ، كانت جميعها مزدحمة بالكثبان الرملية . ولذلك كان الفريد يخرج يوميا بصحبة المخلص جورج ومعه بندقيته التى لا تخطئ ، ويعودان بصيد وفير . وبينما نحن نمضى فى نزعات طويلة كنا نرسم القوارب والابل ، ونساقم النساء الوطنيات فى شراء العقود والأساور الفضية . وهذه العقود (يسمى الواحد منها بالعربية طوقا) أسطوانية الشكل ولكنها ثقيلة الوزن . وهى فى سمك الاصبع الخنصر وتنتهى بخطاف فى أحد طرفيها . وحلقة مستديرة فى الطرف الآخر . وقد تخلع البنات أحبيتهن جانبا ويظهرن العقد الذى يلبسنه كجزء من المساومة . ولكنهن فى الغالب وبعد أن يقفن لحظة وهن ينظرن إلينا بعيونهن السوداء فى خجل ، كن يشعرن بالخوف مثل قطيع من الغزلان المذهولة ، ثم يذهبن مع صرخات حادة نصف ضاحكة ونصف خائفة .

وفي بنى سويف واجهتنا أولى العواصف الرملية التى وصلت النهر قرب الظهيرة ، وقد بدت فى الأفق مثل سحابة صفراء تدور حول نفسها بسرعة أمام الريح ، وعند وصولها مزقت النهر الى موجات غاضبة ولطخت المنظر الطبيعى . وفى البداية اختفت التلال البعيدة ، ثم أشجار النخيل التى خلف الجزيرة ، ثم القوارب المجاورة لنا ، ثم امتلأ الجو بالرمال ، وظهر سطح السهل متحركا ، وتموجت الضفتان بخيرير الماء المتفرق ،

وتستلئ التراب الأصفر عن خلال كل شق وكل صدع في شكل مثاث من
الكتلالات الصغيرة ، وكان منظرا لا يمكن تجاهله . وسرعان ما امتلا
الشعر والعينان والفم والأذنان بالتراب الدقيق ، وتقهقرنا للاحتماء في
الصالون . أما هنا غانه على الرغم من أن جميع النوافذ والأبواب كانت
قد أغلقت قبل وصول العاصفة الا أن الرمل شق طريقه كالسحاب ،
فغطى جميع الكتب والأوراق والسجاجيد . ثم هدأت العاصفة بمثل سرعة
هبوبها . واستغرق ذلك كله ساعة واحدة ثم تلاه تدفق المطر الغزير .
وبعد ذلك صفت السماء وكانت فترة بعد الظهر صافية جدا . وبعد هذه
المرّة لم تصادف أمطارا في مصر مرة أخرى .

وفي صباح اليوم كان أول ظهور لنا في بني سويف ، وهو اليوم
السابع منذ بارحنا القاهرة ، تحولت الرياح الى الشمال مرة أخرى ،
وللمرة الثانية أصبحنا في طريقها . وكانت رؤية الشراع الكبير وهو يرتفع
مرة ثانية فوق رؤوسنا وسماع صفير الماء تحت نوافذ القمرة مبعث سرور
عظيم لنا . ولكننا كنا لم نزل على بعد تسعة أميال ومائة ميل من الروضة .
وكنا نعلم أنه لا شيء يستطيع أن ينقلنا الى هنا عند حلول اليوم الثالث
والعشرين من الشهر سوى خبطة حظ غير عادية ، مع توفر الوقت اللازم
لمشاهدة بني حسن خلال الطريق . وفي نفس الوقت كنا نتقدم بمعدل
معقول ، وفي المساء رسونا على بعد حوالي ثلاثة أميال شمال مدينة ببا عند
هدوء الرياح . وفي اليوم التالي استطعنا بمعاونة النسيم الخفيف الذي
تحرك مرة أخرى بعد الفجر أن نمضي مسافة معقولة بين الضفتين المنبسطين
واللتين تنشغل أطرافهما بأشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك ، وترصعهما
القرى التي تجعل المنظر صالحا للتصوير . ولكن لا يوجد هنا الكثير
الذي ينبغي أن نراه ، كما أنسى لم أكن راغبة في التسلية . والآن نحن
نمر على جزيرة ذات ضفة رملية مغطاة بطيور بيضاء مثل الثلج سرعان
ما طارت في صخب عند اقترابنا . وبعد ذلك ظهرت مدينة ببا قابضة على حافة
الضفة الشديدة الانحدار . وظهر الدير القبطي الغريب الشكل الذي
يتكون سقفه كله من قباب طينية صغيرة مثل عنقود من الفقاعات الأرضية .
ثم مررنا بمصنع السكر الملهجور بنوافذه المهشمة ومدخنه السوداء الضخمة
التي تصلح لمدينة برمنجهام أو شفيلد ، ونلمح الآن خط السكة الحديد ،
ونستمتع الى آخر صفارة لقطار يغادر المحطة . وفي المساء رسونا ونحن نرى
عمداخن المصنع والقنوات المائية لمدينة مغاغة . وفي اليوم التالي وصلنا الى
قلوصنا وهي آخر محطة قبل المنيا .

واتضح لنا الآن ضرورة التخلص من فكرة الذهاب الى بنى حسن قبل وصول بقية المرافقين على المراكب الأخرى . وقد وصلنا الآن الى مساء يومنا التاسع . ومازلنا على بعد ثمانية وأربعين ميلا من الروضة ، ولابد وأن هبوب رياح مضادة أخرى سيعطلنا أثناء الطريق . لقد حسبنا جميع المخاطر ، ورغبنا في أن نفرض اجتماعنا حتى اليوم الرابع والعشرين من الشهر ، وأن نغير الموعد المتفق عليه للوصول الى المنيا ، وسيتيح لنا ذلك وقتا كافيا لسحب المركب عند الحاجة . وعلى ذلك تمت صياغة برقية باللغة العربية ، وبدأ عداؤنا السريع في العدو للوصول الى قلوصلنا قبل أن يغلق مكتب التلغراف أبوابه طوال الليل .

وعموما ، فإن النسيم لم يخفق بل عاد في صباح اليوم التالي عند الفجر . وبعد عبور قلوصلنا وصلنا الى جزء منبسط في النهر حيث تشرفتنا عنده بزيارة شيخ مسلم ، له قدسية غريبة يدعى «الشيخ قطن المبروك» . والآن ، فإن الشيخ قطن وهو شاب في حوالى الثلاثين من العمر ، يتمتع بالصحة ، ويبدو عليه أنه يتغذى جيدا ، يظهر لأول مرة وقد جمع ملبسته على رأسه في شكل عمامة ضخمة وكان يسبح في الماء بحيث لم يظهر منه الا ذقنه . وقدم لنا نفسه على سطح السفينة ولقى ترحيبا حماسيا ، فاحتضنه الرئيس حسن وقبله المرشد ، وحضر البحارة واحدا واحدا وهم يقدمون كميات من التبغ وبعض القروش التي كان يتقبلها كما يتقبل بابا الفاتيكان التبرعات الخاصة بالقدس بطرس .



الشيخ قطن المبروك

وكان الجميع يقدمون اليه عطاياهم وهو يبتسم مثل عروس البحر
المستأنسة . وبعد ذلك أخذ يلمس دفة المركب والجبال وأطراف العوارض
الأفقية التي تثبت الشراع . ويقول تلحمي عن ذلك انه « يباركها » وأخيرا
يبدى نوعا من الدعوات الوداعية ويتمم بالتعاون ، ثم يرتمي فى النهر
مرة أخرى ويسبح الى السفينة باجستونز ليؤدى نفس العرض على
سطحها .

ومن تلك اللحظة تأكد ازدهار رحلتنا ، وأخذ القبطان يتجول وقد
رسم ابتسامة على وجهه الصارم ، وظهر البحارة سعداء كما لو كنا قد
أعطيناهم جنينا ذهبيا . ذلك أنه لا يمكن أن يحدث مكروه للذهبية التي
يباركها الشيخ قطن المبروك . وأصبحنا متأكدين الآن من أننا سنقابل
رياحا مواتية ، وأن نعبث الشلال بدون حوادث وأن نعود فى صحة وسلامة ،
كما بدأنا رحلتنا . وكيف نسأل عما فعله الشيخ قطن المبروك حتى يجعل
بركته شديدة الفعالية ؟ انه يحصل على كميات وافرة من المال ، ولا يصوم
أكثر من سائر المسلمين ، وله زوجتان ، ولا يؤدي أى عمل ، ويجسد
صورة الرخاء الناعم . ولكنه شيخ الماء ، وعندما يموت ستحدث معجزات
عند قبره ، وسيخلفه ابنه الأكبر فى هذا العمل .

وقد نلنا السعادة بالتعرف الى العديد من المشايخ (*) على مدار
رحلاتنا فى الشرق ، ولكننى لا أعلم أنهم فعلوا شيئا يستحقون عليه
التكريم . لقد شاهدنا شيخا عجوزا رهيبا اسمه الشيخ سليم كان يجلس
على كومة من التراب قرب فرشوط لا يرتدى ملابس ، ولا يستحم ،
ولا يحلق ذقنه . وقد مضى عليه نصف القرن الأخير دون أن يفعل شيئا
ولا حتى يرفع يده الى فمه ليتناول الطعام . ولكن الشيخ قطن لم يصل بعد
الى هذا المدى من التقوى كما أنه كان نظيف البدن .

وحتى ذلك الوقت كنا نتجه نحو سلسلة من الصخور الصفراء ،
كانت واضحة فى الأفق منذ فترة طويلة ، وهي التي تظهر على الخرائط
تحت اسم : جبل الطير . وكانت الصحراء العربية (الشرقية) تقترب
من الضفة الشرقية حتى فترة قصيرة مضت وهي الآن تمضى فى انحرافات
متموجة الى حافة الماء . وتظهر الصخور الصفراء بفتة هنا وهناك فوق
الرمال العالية التي تبدو كما لو كانت تغطى العديد من المعابد المجهولة .

(*) الكلمة فى النص تشير الى القديس أو الولي - (المترجم)

وسرعان ما انقضت الضفة الطينية وحل محلها حاجز منخفض من الحجر الجيري في شكل صخرة سوداء لامعة خلف خط الماء . والآن وعلى المدى البعيد أمامنا حيث ينحني النهر وتظهر الصخور المرتفعة من مسافة بعيدة ، تبرز بقعة صغيرة هي دير البكرة . ويظهر الدير في حجم عشب النمل جاثماً على حافة جرف مرتفع . وكنا قد سمعنا كثيراً عن المنظر الجميل الذي يظهر من الربوة التي بنى عليها الدير وهو داخل ضمن برنامج رحلتنا بوصفه أحد الأماكن المطلوب زيارتها أثناء الطريق . وكان لابد لنا الآن من زيارة المتيا مهما كلفنا الأمر ، ولذلك كان لابد من تجاهل هذا الموضوع مع الأسف .

والآن يرتفع الحاجز الصخري الى أعلى ، وبه العديد من المناجم هنا وهناك في شكل ثغرات لامعة من الأنفاق التي تبدو بيضاء كالثلج . ويظهر الدير أكثر وضوحاً ، وتصبح الصخور أكثر ارتفاعاً . ونصل الى انحناء النهر ، حيث يمتد صف طويل من الصخور المسطحة القمة ممتدة لمسافة طويلة .

انه يوم القديسين والسباحين ، لأنه عندما كانت الذهبية تقترب ، ظهر رأس بنى اللون وهو يرتفع ويهبط في الماء على بعد حوالي مائة ياردة أمامنا . ثم اندفع شخص واحد ، وصار اثنان فثلاثة من صخرة شديدة الانحدار أسفل حوائط الدير وغطسوا في النهر . وارتفعت الأصوات الحادة التي ترنم في شكل جوقة سمعنا صوتها بالرغم من الرياح . وفي دقائق معدودة أحاط بالقارب سرب من الرهبان الذين يطلبون العطاء وهم يصيحون بكل قوتهم « أنا كريستيان يا خواجه ! أنا كريستيان يا خواجه » ! أي (أنا مسيحي أيها الرحالة) . ولما كان هؤلاء رهبانا من الأقباط فقط وليسوا مشايخ من المسلمين فقد سارع البحارة وهم نصف غاضبين ونصف جادين في إبعادهم عنا بالعصى الطويلة التي يغرزونها في النهر لتثبيت السفينة . وسمح لواحد منهم فقط كان يرتجف وهو ملفوف في بطانية بأن يصعد الى سطح الذهبية ، كان رجلاً مليح الشكل يبلغ من العمر حوالي الأربعين عاماً ، له عينان بديعتان ورأس مستدير ، وجسمه في لون خشب الزان النحاسي ، ووجهه يعبر عن الجهل والتجمل والانتباه الشديد بحيث يجعل قلب الانسان يشعر بالآلم .

اذن فهذا رجل قبطنى سليل الشجرة المصرية الحقيقية . انه واحد من هؤلاء الذين بدل أجدادهم عبادة الآلهة القديمة وحولوها الى المسيحية تحت

حكم الامبراطور ثيودوسيوس منذ حوالي ألف وخمسمائة عام مضت ،
والفروض أن يكون دمهم مصرياً خالصاً لم يختلط بأى دماء أخرى بخلاف
المسلمين الذين اختلطت دماؤهم أكثر من غيرهم من المصريين . وعندما تذكرت
هذه الأمور كان من المستحيل أن أنظر إليه دون أن أحس بالاهتمام العميق .
قد يكون ذلك محض خيال ، إلا أنني أرى فيه طرازاً مختلفاً عن ذلك الذى
ينتمى إليه العرب ، فهناك شىء بسيط يوقظ المناظر المحصورة فى
مقبرة تى .

وبينما كنا نتفكر فى نسبة العظيم ، كانت أسنان القبطى المسكين
تصطك بشكل يثير الشفقة . ولذلك أعطيناه شلناً أو اثنين لأجل خاطر
كل ما يمثله فى تاريخ العالم . وبعد أن أخذ الشللين مع زجاجة فارغة
وهبناهما له ، سبج مبتعداً فى رضا وهو يصيح مرات عديدة قائلاً :
« كتر خيركم يا سنات ! كتر خيركم كثير ! » أى (أشكركن يا سيدات ،
أشكركن كثيراً) .

والآن مضى الدير بقبابه العنقودية وتركناه خلفنا . والصخرة هنا
تنتمى لنفس اللون الأصفر المائل للسمرة مثل صخور طرة . ومن الواضح
أن الطبقة الأفقية التى تتكون منها قد رسبت بفعل الماء فمن الواضح أن
النيل قد فاض هنا ووصل الى مستوى شديد الارتفاع منذ زمن بعيد ،
لأن وجه الطبقة كلها مخرم على شكل خلايا النحل ، وقد غمره الماء بالتتابع
على مدى عدة أميال . وعندما رأيت كيفية تكوين هذه الصخور الغريبة
التي تتخذ شكل العنقود ومتشابكة مثله ، وتنحني كنموذج لزخرفة المباني
الاسلامية البارزة ، لم أتمالك نفسى عن التعجب حول ما إذا كان بعض
المعماريين العرب القدامى قد استعار يوماً ما لمحة خفية من مثل هذه
الصخور .

وبدا النهار يميل ، بينما استمر سطح الصخور يصعبنا طوال
الطريق . والآن ونحن نقترح بعض الوديان الصغيرة المستعرضة ، ونفتح
الحديقة التى تعشش فيها مجموعات من الأكواخ الصغيرة والبقع الخضراء
من زراعات الترمس التى تنغمر فى النهر حيناً ، ثم تتراجع الى الأرض
تاركة فراغاً يشغل حزاماً من التربة المزروعة وحافة تعج بأشجار النخيل .
ويقترّب غروب الشمس رويداً رويداً عندما يتحول كل ظل ساقط فى
حنيات الصخور الى اللون البنفسجى ، وتلمع صفحة الصخرة كالذهب
المتوهج ، وتقف النخلات التى على الضفة الغربية بلونها البرونزى الغامق
فى مواجهة الأفق القرمزى . ثم تنحدر الشمس ، وسرعان ما يتحول

البهلاق كله الى لون السكون الأخضر الرمادي ، بينما تتضرج السماء فوقها
ويخلفها باللون الوردى فى شكل فجائى . وقد استغرق هذا التجول حوالى
ثمانى دقائق ، وأخذ قوس ضخمة من الظل الأزرق الغامق يصل قطره الى
قطر قوس قزح يزحف ببطء على الأفق الشرقى ، ويظل ظاهرا ، بينما
تتمدد مساحة الاحمراد الوردى المواجه له ، ولكنه يتباطأ ويبقى قليلا فى
السماء . وأخيرا يضمحل الاحمراد الوردى وتصبح الزرقاة شاملة ، وتبدأ
النجوم فى الظهور ، ولا يتبقى الا وميض عريض فى الغرب محدد الاتجاه
الذى غربت منه الشمس . وبعد ذلك بحوالى ربع الساعة يحل ما بعد
الوميض عندما تمتلئ السماء لعدة دقائق بضوء ناعم سحرى ، ويهبط
ظلام الغسق دافئا على سطح الأرض . وعندما ينتهى ذلك يبدأ الليل ،
ولكن مازال هناك شعاع طويل من النور يجرى فى مسار الشمس ويظل
ظاهرا لمدة تتجاوز الساعتين بعد حلول الظلام .

كان هذا الذى شاهدناه فى هذا المساء ونحن نقترّب من المنيا هو
الغروب . وقد تصادف أن شاهدناه مع فاروق طفيف فى نفس التوقيت
وتحت نفس الظروف لعدة شهور قادمة . انه شديد الجمال وشديد
الهدوء ، ومشبع بالنور العجيب ، ومعظم درجات اللون الدقيقة ، ومصحوبا
بظاهرة معينة سرعان ما سأحدث عنها كثيرا ، ولكنه يفتقد تنوع وبهاء
سمائنا الشمالية ، ولا يحمل سوى جو مصر الجاف . وهؤلاء الذين يبحرون
جنوبا مع النيل يتوقعون مثلما توقعت أنا ، رؤية مواكب التحول الى اللون
القرمزي مع لون اللهب والذهب ، ولكنهم سيصابون بالاحباط كما حدث لى ،
لأن مواكب التحول هذه لا يمكن تحقيقها بدون اضافات السحاب والبحار
وهي غير معروفة فى النوبة ، ونادرة الحدوث فى مصر . ولكننا صادفنا
حظا سعيدا مرة واحدة أثناء اقامتنا الطويلة غير المعتادة على سطح النهر
فشاهدنا عرضا ضخما من هذا النوع ، وكنا حينذاك قد قضينا حوالى ثلاثة
شهور فى الذهبية .

وفى نفس الوقت لم نكل من رؤية هذه السموات التى لا تشوبها
شائبة واكتشفنا فيها ليلة بعد ليلة أعماقا جديدة للجمال والراحة .
أما عن هذا التغيير الغريب للألوان من الجبال الى السماء فقد شاهدناه
مرارا أثناء سفرنا خلال العام الماضى فى الجزء الشرقى من جبال الألب فى
شمال شرق ايطاليا . ووجدناه يحدث دائما كما هو الآن فى لحظة أول
اختفاء للشمس ، ولكن ماذا عن هذا الظل الضخم الذى يصعد الى منتصف
السماء ويأتى معه بالليل ؟ هل يمكن أن يكون هو ظل العالم الصاعد خلال

الافق بينما تغرب الشمس في الاتجاه الآخر ؟ وأترك هذه المشكلة للرحالة الأكثر حكمة لعلهم يجدون لها تحلا فليس بيننا من لديه العلم الكافي حتى يتحدث عنها .

وفي نفس هذا المساء وبمجرد ظهور الفسق رأينا معجزة أخرى القمر الجديد في الليلة الأولى لربعه الأول . دائرة كاملة ، قائم اللون وواضح ، ومحدد المحيط ، ولكن ضوءه عبارة عن خط رفيع لا يزيد سمكه عن سمك الشعرة . ولا يمكن أن يكون هناك شيء ألمع من هذه الهالة الدقيقة من الفضة اللامعة ، وكانت جميع تفاصيل الكرة تلمع برقة وهي ظاهرة بوضوح داخل دائرته . وبدت مثل بركان بفوهته الواسعة على خريطة بارزة . وعند حافة السطح حيث يتقابل النور والظل كلاهما ، ظهرت للعين المجردة ومضات حادة لقمم جبلية في دائرة الضوء ، وخفت من حدتها عند الفسق ، وبعد ليلتين أو ثلاثة عندما تحولت الحلقة الذهبية الى هلال واسع ، صار الجزء غير المضيء كما لو كان قد أطفئ ولم يعد من الممكن تمييزه حتى بمساعدة النظارة المكبرة .

أما الريح وقد سكنت كماداتها عند غروب الشمس ، فقد بدأ البحارة العمل بحماس واستخدموا العصي الطويلة التي تدفع في قاع النهر لدفع المركب للأمام طوال الجزء المتبقي من الطريق حتى وصلنا المنيا في هذا المساء حوالي الساعة التاسعة . وفي صباح اليوم التالي وجدنا أنفسنا وقد رسونا بالقرب من القصر الصيفي للخديو، وكانت المسافة قريبة جدا حتى ان الانسان كان يستطيع أن يلقى حصاة صغيرة في الشبايبك ذات المشربية لغرفة الحريم . وقد جلس حارس البوابة الضخم في الشمس خارج القصر ، وهو يدخل نرجيلة الصباح ويثرثر مع المارة . وقد امتدت حديقة ضيقة زرعت فيها بعض أشجار الجميز بين القصر والنهر . وقد رست على الضفة باخرة أو اثنتان مع زحام من القوارب المحلية . وهناك في الطرف البعيد من الحديقة ظهرت منارة ومجموعة من المنازل المطلية بالجير كدليل يبين لنا الطريق الواجب الدوران خلاله في الذهاب الى المدينة .

وتصادف أن كان اليوم هو يوم انعقاد السوق ولذلك شاهدنا المنيا في أبهى صورة لها ، فلم يكن هناك شيء يمكن أن يتفوق عليها في القذارة والكثافة والإنقباض . لقد كانت مثل مدينة سقطت بدون توقع في وسط حقول محروث . الشوارع عبارة عن حواف من الطين والتراب ، أما المنازل فهي سلسلة من السجون المبنية من الطين بدون نوافذ وظهورها تتجه نحو

الشوارع العام • أما الحانوت الذى يتكون من حارتين أو ثلاثة أوسع قليلا من باقى الحواري ، فقد كان مسقوفا هنا وهناك بسعف النخيل المتعفن وقطع من الحصير المهلهل ، بينما انعقدت السوق فى قطعة من الفضاء الحربي خارج المدينة • وكان الحانوت يتكون من دكاكين تشبه الدواليب يجلس فيها التجار القرفصاء مثل تماثيل قديمة متداعية فى مقابر قديمة متداعية ، والرغوف رديئة الأثاث ، بها بضائع مانشستر المعتادة ، والخامات المحلية ذات الألوان الصارخة ، والسروج الحمراء القديمة ، والبساطين باهتة الألوان معلقة للبيع ، وهناك المحلات اليونانية الأنيقة حيث يمكن أن تشتري فى آن واحد الأسماك والبيرة والنبيد الخفيف ، ومنتجات جزر الأنثيل وقبرص ، والنبيد الأبيض والجبن والمخللات والسرددين وصلصة ورشستر ، وورنيش الأحذية والبسكويت واللحوم المحفوظة والشموع والسيجار والكبريت والسكر والملح والأدوات المكتبية وصواريخ الألعاب النارية والمربات والأدوية المركبة •

أما المطعم المحلى فتتصاعد منه الروائح الشهية المنبعثة من الكباب وشوربة العنيس ، وتتصدره سيدة حبشية أشد سوادا من كافة اللوحات المرسومة لأشخاص سود البشرة • وهناك الجماهير المندفعة كالسيل ، والمتدافعة بمناكبها لتتشق طريقها ، وما تثيره من صخب • وأيضا الحميم والابل ، وصرخات فى الطريق ، والثروة والتراب والذباب والبراغيث والكلاب ، كل ذلك جعلنا نتذكر أفقر أحياء القاهرة • وكانت أسوأ هذه المناظر تلك الموجودة فى السوق حيث مئات من القرويين جالسين على الأرض خلف سلال الفاكهة والخضروات • وكان بعضهم يبيع البيض والزبد والقشدة ، بينما يبيع آخرون قصب السكر والصمغ والكرنب والتبغ والشعير والعدس المجفف والفول المشوش والذرة والقمح والذرة الصفراء ، بينما تتنقل النساء ذهابا وإيابا وهن يحملن مجموعات من اللجاج الحي ، بينما تصيح الكتاكيت ، والباعة يمتدحون سلعهم ، والمشترون يساومون بأصوات مرتفعة ، ويتطاير التراب كالسحاب ، وتصب الشمس طوفانا من الضوء والحرارة ، حتى أنك لا تستطيع أن تسمع صوتك أثناء الكلام • وكان الزحام فى مثل كثافة ذلك الزحام الذى كان يجرى فى ليلة عيد ميلاد السيد المسيح داخل حواري سوق ليدنهول فى لندن •

وكانت الأشياء رخيصة جدا فالمائة بيضة تساوى أربعة عشر بنسا بالعملة الانجليزية • ويباع الدجاج بسعر خمسة بنسات للدجاجة الواحدة • أما سعر الحمام فيتراوح بين بنسين وبنسين ونصف • أما الاوزة الحية

المتأزفة فتباع باثنين من الشلنات • أما الديك الرومى مهما كان ضخماً وممتازاً فإن ثمنه جنيهان وستة بنسات وهو ما يعادل نصف ثمن الحمل فى مصر الوسطى والعليا • أما الخروف الممتاز فيقدر ثمنه بستة عشر شلناً أو جنيه واحد • لقد كانت السيدتان م • وب • اللتان ليس لدهما ترجمان مشغولتين جداً هنا ، حيث تقومان بتخزين المؤن الطازجة وهما تساوهم باللغة العربية تحت حراسة اثنين من البحارة •

وقد وجدنا مجموعة منفصلة من نخيل الدوم من النوع الذى ينمو فى أقصى الشمال وهى العينة الأولى التى نلقاها على نهر النيل ، وجدناها تنمو فى حديقة مجاورة لموضع هذه السوق • ولكننا رأيناها بصعوبة من خلال التراب الذى يعمى العينين • أما شجرة نخيل الدوم فهى نوع من الأشجار التى كان يجب أن يرسمها دى ونت فهى غريبة الشكل ، ونحيلة ، ولها سيقان متشعبة تنتهى كل منها بتاج أشعث مكون من أوراق ضلابة تشبه الأصابع وهى تظل لها عناقيد ثقيلة من الثمار اللامعة الكبيرة التى فى حجم خرشوف القدس • وأظن أنها هى الشجرة الوحيدة فى العالم التى يلقى الانسان قلب ثمرتها بعيداً ويأكل الغلاف القشرى علماً بأن القلب فى مثل صلابة الرخام بينما الغلاف ليفى الشكل ومذاقه مثل كبة الزنجبيل غير الطازجة • ولا بد لشجرة نخيل الدوم أن تنقسم الى شعبتين لأن الانقسام هو قانون بقائها ، ولكننى لم أستطع أن أكتشف ما اذا كان هناك حد ثابت لعدد السيقان التى تنفرع اليها • وفى نفس الوقت لا أتذكر أننى رأيت نخلة منها لها أقل من رأسين أو أكثر من ستة رؤوس •

وعند عودتنا من خلال المدينة اعترضتنا عجوز شمطاء ذابلة بعين واحدة مثل المومياء التى بعثت من قبرها وقد عرضت علينا أن نقرأ طالعنا • ووضعت أمامها خرقة قدرة من منديل ، مليئة بالقواقع والحصباء وشظايا من الزجاج المكسور والفخار • وقد جلست القرفصاء مثل الضفدع تحت بقعة مشمسة من الحائط • وكان الجزء السفلى من وجهها مغطى بالحجاب ، بينما غطت الغوايش الزجاجية الزرقاء والخضراء ذراعيها النحيلتين • كما غطت أصابعها الخواتم الفضية المشوهة • وألقت بهذه الكنوز فى الهواء وهزتها وخلطتها ببعضها البعض ، وسألتها بكل حماس الرجم بالغيب ، وذكرت لنا سلسلة من التنبؤات المعدة مسبقاً لمثل هذه الظروف •

« لك صديق بعيد ، وصديقك يفكر فيك • هناك حظ سعيد محفوظ لك ، وستأتيك نقود ، كما أن هناك أخباراً سارة آتية فى الطريق » .

وستصلك خطابات بها شيء بغضبك ، ولكن معظمها يبعث فيك السرور .
وفي خلال ثلاثين يوما سيلقاك بالصدفة انسان محبوب لديك ، ..
الخ .. الخ .. الخ .

انها نفس القصة القديمة المعتادة ، ولكنها تتكرر هنا باللغة العربية
حتى بدون الاختلافات المتوقعة من فم فلاحه عجوز ولدت ونشأت في مدينة
بأحد أقاليم مصر الوسطى .

وربما كانت أمراض العيون تخيم على هذا الجزء من الريف ، أو أنها
انتشرت دون توقع وسط جمهور ضخم . وقد لاحظنا أن الناس هنا
مزدحمون ، ولكنني بالتأكيد لم أشاهد الكثيرين من العور مثل الذين
شاهدتهم هذا الصباح في المنيا . ولا بد أنه كان موجودا بالشوارع ومكان
السوق عدد يتراوح ما بين عشرة الى اثني عشر ألف مواطن من جميع
الأعمار ، والست أبا نغ عندما أقول ان واحدا من بين كل عشرين شخصا
بما فيهم الأطفال من سن ثلاث أو أربع سنوات ، كان أعور .

واذا علمنا أن هؤلاء الناس ينتمون الى نوعية من ذوى المظهر الحسن،
فان هذا النقص يمثل اللامسة الأخيرة في مظهر وجوههم التي تبعت على
الاشمئزاز ، والتي هي في الأصل متجهمة ، وجاهلة ، وعدوانية . ولم أرغب
في رؤية المزيد من هؤلاء السكان ذوى المظهر المنفر . فالرجال نصف
هادئين ونصف سفهاء . أما النساء فحريئات ومتوحشات . أما الأطفال
فانهم قدرون وسقماء ، وناقصو النمو ، ومتبدلو الشعور . ولا يوجد شيء
في الأقاليم المصرية يثير الألم مثل حالة الإهمال التي يلقاها الأطفال الصغار
حتى ان هؤلاء الذين ينتمون الى الطبقة الأرقى ، يرتدى معظمهم ملابس
رثة . ونظافتهم مشكوك فيها ، بينما تترسب على أجسام أطفال الفقراء
القذارة والالتهابات ، وتغطيها الطفيليات . ومن الصعب أن تصدق
للهولة الأولى ، أن والدي هؤلاء الأطفال التعساء قد تجاوزوا الحدود ليس
من ناحية القسوة ، بل أيضا من ناحية الجهل الشديد والاستسلام
للخرافات . وما زال الزمن الذي يحتاجه هؤلاء الناس حتى يتعلموا
المبادئ الأساسية للوقاية الصحية بعيد المنال جدا . ان استحمام الأطفال
الصغار يضر بصحتهم ولذلك فان الأمهات يتركنهم ليعانوا من حالة
القذارة الذاتية وهي وحدها كفيلة باستجلاب المرض . أما طرد الذباب
الذي يحيط بعيونهم فهو أمر شنيع . ومن هنا تأتي التهابات العيون
وسائر الأنواع المختلفة من العمى . لقد رأيت أطفالا يرقدون على أذرع
أمهاتهم وقد التصقت بكل عين من عيونهم ستة أو ثمانية من حشرة الذباب .

وقد رأيت الأيدى الصغيرة الضعيفة وهي تنخفض في مواجهة التأنيب إذا اقتربت من مركز الازعاج . وقد رأيت أطفالا في سن الرابعة أو الخامسة وقد انطمست إحدى عيونهم أو كلتا العينين . وكانت لدى بعضهم كتلة لحمية كبيرة برزت مكان انسان العين الذي أصيب بالدمار . ومع أخذ هذه الأمور في الحسبان فإن الانسان يتعجب إذا علم أن ثلاثة من بين كل خمسة أطفال مولودين في مصر يموتون . بالإضافة الى أن واحدا من بين كل عشرين فردا في بعض المحافظات يصاب بالعمى كليا أو جزئيا . وكذلك فإن أربعين في المائة من المواليد يعيشون حتى يكبروا ، وأن خمسة وتسعين في المائة منهم يتمتعون بنعمة الإبصار . أما من جهتي أنا فلم أستغرق أسابيع كثيرة على صفحة النيل قبل أن أبدأ تلقائيا في تحاشي التجول في مدن الأقاليم عندما يكون ذلك متاحا . وهكذا فقدت فرصة رؤية الكثير من حياة الشارع التي يحيها الناس في هذه المدن . ولكن مثل هذه اللمحات الخارجية كانت ذات قيمة حقيقية ، وبذلك تجاوزت عن رؤية مظاهر الفقر الشديد والمرض والقدارة . وربما لم تكن حالة السكان في القرية المصرية أسوأ من حياة أمثالهم في القرية الأيرلندية . ولكن حالة الأطفال أكثر خطورة لدرجة أن الانسان قد يرغب في الابتعاد عدة أميال عن الطريق حتى لا يشاهد معاناتهم مع عدم القدرة على تخفيف هذه المعاناة (١) .

وإذا لم تكن هناك جاذبية في التعرف الى أحوال السكان في مدينة المنيا وحولها ، فإن مظهرهم الذي يشبه مظهر جيرانهم يزيد كثيرا عما سمعناه عنهم من كافة الوجوه . أما عن أساليب وعادات بنى سويف فقد كانت لنا بعض التجارب . وعرفنا أن الرأي العام يتهم المنيا والروضة ومعظم المدن والقرى الواقعة شمال أسيوط بأنها تتشابه من حيث الميل الفطري للسرقة . أما عن القرى التي تقع جنوب بنى حسن فإن بها أوكارا للصوص منذ عدة أجيال . وبالرغم من تسويتها بالأرض منذ عدة سنوات كمقابر

(١) تذكر ميس هويتلى التي نعتبر كتابها في هذا الموضوع مفيد جدا ، أن غالبية أطفال الأقاليم يموتون في حوالى سن الثانية من العمر (انظر كتابها المسمى : بين الكراخ Among the huts ص ٢٩) ، بينما يقول مستر ابوت الذي انتهر العديد من الفرص لدراسة الحقائق المتعلقة بالسكان والموارد الريفية - أن هذه الأمة تفقد ثلاثة أطفال من بين كل خمسة . » أن عوامل الجهل والشامل ونسيان القواعد الصحية وسوء التغذية والغياب شبه الكامل للعناية الطبية جعلت الأمة تصل الى هذه الحالة . » أن الشخص الذي يضيع منه بانتظام ثلاثة أطفال من بين كل خمسة لا يستطيع أن يحيا إلا بحدوث معجزة » .

(انظر كتابه المسمى : الفلاح Le Fellah ص ١٦٥)

لسكانها ، الا أنه قد أعيد بناؤها حاليا وعادت الى سيرتها الأولى كما كانت دائما . ولذلك فمن الضروري ليس فقط استئجار حراس لمراقبتنا ليلا في كل هذا الجزء من النهر ، بل أيضا أثناء رسو الذهبية مع الحذر الشديد من اقتراب اللصوص أثناء النهار . أما في مصر العليا فالأمر يختلف ، حيث نجد المواطنين ذوى مظاهر حسنة ، وطبائع طيبة ، ولطفاء ، ورحماء .

وبالرغم من أنهم أذكاء ومهرة في أعمال صناعة وبيع التحف الحديثة الا أنهم شرفاء في المعاملة .

ونفس هذا المساء (كان عشية عيد ميلاد السيد المسيح) وصلت الى المنيا بقية أفراد مجموعتنا مبكرة عن موعد وصولها بحوالى ساعتين .



قارب للتسويق البضائع في المنيا

الفصل السادس

من المنيا الى أسيوط

اليوم هو عيد ميلاد السيد المسيح ، وستحضر السيدتان م • و ب • لتناول الغداء • لقد انهمك الطباخون في اعداد الطبق الرئيسى ، وقام البجارة بذبح خروف احتفاء بالمناسبة • وبينما كان الضيوف يخرجون الأمتعة من الحقائق ، أخذنا نستقر تدريجيا فى أماكن الجلوس • أما الضيوف فهم أربعة أشخاص : رسام ، وزوجان سعيدان ، وشابة عذراء • وكان الرسام قد قام بالرحلة عبر النيل ثلاث مرات ، وهو يضيف رصيда من الخبرة الى الحاضرين • انه يعرف كل شئ عن الضفاف الرمائية والرياح وأماكن رسو المراكب ، وقد تعرف الى معظم الحكام المحليين والقناصل على طول نهر النيل • وهو خبير فى موضوع ما يصلح وما لا يصلح كطعام وشراب • لقد أعطيناه القمرة التى فى مؤخرة السفينة ليستخدمها كاستوديو ويضع فيها البراويز وقماش اللوحات وأوراق الرسم والحوامل الخشبية بما يكفى لانشاء مدرسة اقليمية للفنون • انه فى طريقه لرسم صورة ضخمة لأبى سنبل • أما الزوجان السعيدان فلا داعى للقول بأنهما يقضيان رحلة شهر العسل • والحقيقة هى أنه لم يمض شهر على زواجهما • أما العريس فهو الشخص الذى ينتخبه العالم للفوز بلقب العاقل • انه حاصل على منحة دراسية ، وصحة مكتملة ، ووقت فراغ • أما العروس فستطلق عليها لقب السيدة الصغيرة تسهيلا للحديث • ان الناس الذين يتصارعون فى خضم هذه المرحلة المرهقة من الحياة الانسانية يطلقون عليها اسم شهر العسل • وليس من الانصاف فى شئ أن نقول على اللذين يخوضان مثل هذه المرحلة أكثر من أنيما صغيران بما يكفى لأن يجعل الموقف مشوقا •

وفى نفس الوقت يجب اخلاء سطح السفينة من الأثاث الجديد الذى وصل الى ظهر المركب • ومضى اليوم فى ارتباكة اخراج الأمتعة وترتيبها

ونقلها . ان مثل هذا الجرى من جانب الى جانب أسفل المركب ، ومثل هذا التفريغ للصناديق وتركيب الرفوف المؤقتة ، ومثل هذا الحديد والضحك والطرق بالمطرقة ، لا يدانيه الا النشاط الذى يجرى بالطابق السفلى .

وكذلك كان تلحمى والجرسونات مشغولين بالطابق العلوى فى نزيين السطح العلوى بسعف النخيل . واحاطة المركب من جميع الجهات بصنوف من المصابيح الملونة . ويصعب على الانسان الاعتقاد بأن هذا هو يوم ميلاد السيد المسيح فاذا كانت النار فى الوطن (انجلترا) تلمع فى كل حجرة ، وحوش الكنيسة أبيض بفعل الثلج ، والأجراس المعتادة تندق بابتهاج عبر الهواء البارد ، فان الوضع هنا مختلف حيث اننا فى وسط النهار ، والحرارة شديدة على سطح المركب بدون المظلة . وعندما رسونا مع غروب الشمس بالقرب من قرية على جانب النهر فى وسط زراعات النخيل ، احسنا بالانتعاش الذى نتج عن هواء المساء الشديد البرودة .

وهناك طرفة حتى فى مثل هذا المكان العادى مثل تناول الغداء على النيل فى الهواء الطلق . وأنت تذهب وتعود فى القلوة كما لو كانت مركبة ، والممثلون الهزليون الذين سيرفنون عنك يستدعونك بإطلاق الرصاص بدلا من دق الجونج . أما أصحاب الدار الذين يحترمون مشاعر طبائخهم فانهم يتجاوبون معهم بإطلاق الطلقات النارية ، لأن المناظر ستتبدل حالا بدون انذار نظرا لافتقارهم لساعة الكنيسة التى تضبط جلوسهم ، ومن الممكن دائما أن يظل المضيف والمضيف جالسين بدون اندماج لمدة ساعة أو ساعتين . ولذلك أطلقت الطلقات المعتادة ، والتأم الشمل ، وجلسنا الى احدى الولايم البدوية المدهشة . ولم ينبج أى منا فى تصديق أن ذلك اليوم كان عيد ميلاد السيد المسيح حقيقة ، حتى ظهر فى المشهد طبق البودنج المصنوع من البرقوق وهو يلمع فى اغراء شديد .

ولا يمكن أن يكون هناك شئ أكثر رقة أو اشراقا من العرض الذى كان فى انتظارنا عندما نهضنا عن المائدة . لقد أحاطه بالقارب خمسون ومائة مصباح ملون ، علقت ما بين طرفه وفوق الصاريين ، وألقت بانعكاساتها المنكسرة على التيار المترقق . وظهر السطح العلوى المزين بالرايات والمظلل بالمظلات مثل غريش من أشجار النخيل . وظهرت النجوم والهلل فوقنا . وكانت خطوط الأشجار المعتمة ، والامتداد الأرضى داخل

النهر ، والمنظور الغامض للنهر اللامع واضحة على البعد . وفى نفس الوقت كان هناك ضوء يلعب بين الحين والآخر فى اتجاه القرية أو شريط هاتم اللون يهف بطول الضفة .

وفى نفس الوقت كان هناك صوت حفل صاحب أثناء الليل لأن بحلولنا دعوا بحارة الباجستونز لتناول القهوة وتدخين التبغ ، واقاموا حفلا كبيرا على السطح السفلى . كانوا يدقون الطبول ويغنون ويرقصون ويرتدون ملابس أنيقة ويرتجلون مشهدا كوميديا جعل مشاهديهم يزارون بصوت عال . وكان الرئيس حسن يقوم بالتشريف ، بينما جالس جورج وتلحمي والبنات منفصلين على المنضدة الثانية وهم يحتسون قهوتهم على مثال أبناء الطبقة الراقية . ونظرنا اليهم وصفقنا بأيدينا . وانتهت حفلتنا الموسيقية باضائة الانوار مثلما يجرى فى العروض الخاصة بأعياد ميلاد السيد المسيح .

وبالمناسبة ، فان الحفلات التى تقام فى مصر على أنغام الموسيقى والرقص والالعاب النارية تسمى فانتازيا .

وأخذنا يوما بعد يوم نسرع بقدر ما نستطيع ، أحيانا بالابحار . وأحيانا بسحب الذهبية ، وأحيانا بدفعها بالعصى الطويلة التى تصل الى قاع النهر . ولكن الأمور لا تمضى دائما كما يريد لها الانسان ، فغالبا ما كانت الريح تتوقف عندما نكون فى حاجة الى هبوبها، وتزيد شدتها عندما نريد أن ننساهد شيئا على الضفة ، وعلى ذلك فانا بعد يوم كامل من السحب وصلنا الى بنى حسن فى اللحظة التى هبت فيها ريح طيبة وملأت أشرعتنا لأول مرة منذ يومين . وهكذا اضطررنا للمضى فى طريقنا مع النظرات المشتاقة التى اتجهنا بها نحو مداخل الممرات التى تخترق الصخور وذلك بعد أن استسلمنا للنصائح التى أسفنا عليها فيما بعد . وعند الروضة التى تقع على نفس الطريق ، توقفنا لعدة دقائق لارسال البريد . والسؤال عن الخطابات الواردة ، وأرجأنا حين العودة زيارة دير النخل حيث يمكن مشاهدة النقش الشهير للتمثال الضخم الذى على مركبة الجليد . ولكن يبدو أنه قد كتب علينا ألا نشاهد المناظر المؤجلة وهو الأمر الذى سرعان ما اكتشفناه فزاد من احساسنا بالخسارة والندم .

وفى نفس الوقت ظلت السماء صافية ، وساعات النهار دافئة ، والأمسيات رائعة . وقضينا أوقاتا طويلة فى الهواء الطلق . وعندما

تتوقف الريح فاننا ننزل الى الارض ونقوم بنزهات طويلة على ضفة النهر .
 أما أثناء وجودنا على سطح الذهبية فاننا نرسم صوراً تخطيطية ، ونكتب
 الخطابات ، ونقرأ للشامبليون وبانسين وسير جاردنر وبلكتسون ، ونعمل
 بجد في دراسة الأسرار المصرية . وبينما كانت العسافير الدورية
 وأبو فصادة تجثم على المظلات وتقفز حول سطح السفينة ، كانت الديوك
 والدجاجات تشقشق ، والأوز يوقوق ، والديوك الرومية تصيح في أقفاصها
 القريبة . أما الخروف الذي سنضحى به والذي يعيش وحيداً في الفلوكه ،
 فقد كان يثغو في المؤخرة . وفي بعض الأحيان كان لدينا حوالى
 مائة دجاجة على سطح المركب (ولن نتحدث عن الحمام والأرانب) مع
 الاحتفاظ بخروفين أو ثلاثة في الفلوكه . وكان هناك سور حول حوش
 الطيور الداجنة عند الطرف البعيد في مؤخرة السفينة ، وبذلك تكون هذه
 المخلوقات بعيدة عن غرفة الاستقبال . وعندما كنا نرسو في مكان مناسب ،
 كانت تنطلق هذه الطيور عدة ساعات وتنقر حول الضفاف وتمتص
 بحريتها ، أما صديقتي (ل) والسيدة الصغيرة فكانتا تطعمان هذه الطيور
 السمينة بقطع صغيرة من الإفطار كل صباح . وكان عامل الدفة الذي
 اتخذ منها تسلية حقيقية لا يستطيع أن يتخيل أى سبب آخر يدفعنا الى
 اطعام هذه الطيور فيما عدا أننا نسمنها لكي نذبحها ونتناولها على مائدة
 العشاء .

ان هذه الحياة التي نحيهاها على مثال حياة نوح في الفلك تتميز
 بأنها سعيدة وأمنة وعائلية . وحتى الأيام التي لانشاهد فيها سوى
 القليل ولا نعمل شيئاً بالمرّة ، لم تكن أياماً مقبضة . أما الوقائع التافهة
 التي تحمل لنا اثارة الجديد فقد كانت دائمة الحدوث . أما الذهبيات
 الأخرى بأعلامها وسكانها فكانت مصدراً ثابتاً للاهتمام . أما اللقاء في
 أماكن الرسو خلال الليل فقد أتاح لنا تبادل الزيارات . وأثناء مرور
 بعضنا على البعض الآخر خلال النهار ، كنا نخفض الأعلام ، ونطلق الرصاص
 للتحية ، ونراعى آداب السلوك في البحر بدقة . وكانت بعض بواخر
 توماس كوك السياحية تسرع بجانبنا وهي مزودة بالسياح . أو تمر
 بجوارنا إحدى سفن السحب الحكومية وهي تجر ثلاثة أو أربعة صنادل
 ضخمة محملة بالفلاحين نصف العراة ذوى السحنات البائسة ، وقد جرى
 تجميعهم لأعمال السخرة في انشاء خط جديد للسكة الحديد أو حفر
 قناة . وقد يتصادف مرورنا بأحدى الذهبيات التي انفرزت في ضفة
 رميلة . وأحياناً كان يحدث ذلك لذهبيتنا نحن أيضاً فكان الرجال
 يهرعون الى عصيهم الطويلة أو يقفزون في النهر وهم يتأوهون في نبرات
 منقبضة ، لكي يدفعوا المركب بمناكبهم حتى تعوم مرة أخرى .

وكانت هناك طيور جديدة نراها لأول مرة وكنا نبحث عنها دائما . وربما رأينا بجعة ثقيلة الرأس تحاول موازنة متقارها الضخم على حافة مجرى النهر وتصيد السمك من أجل غذائها . أو نشاهد أوزة بريه وهى تنير عبر السماء فى اتجاه مغرب الشمس ، أو سريا من النسور تجثم جميعها فى صف واحد على حافة إحدى الصخور فى شبه وقار الأساقعة الجالسين على المنصة . وهناك أيضا طيور مالك الحزين التى تقف على ساق واحدة وتحملق فى الشمس ، وطيور الهدهد المختالة بتييجان رؤوسها التى حيكّت حولها الأساطير الخرافية . وكانت آكلات النحل الزرقاء والخضراء تحوم فوق خلايا العسل الخام . كما كانت طيور الرفراف التى تصيد الأسماك من المياه العذبة بألوانها السوداء والبيضاء مثل الغربان تجلس بلا خوف على الضفة ولا تحرك ساكنا بالرغم من مرور المراجيح المربوطة بالحبلين فوق رؤوسها ، ومرور الذهبية على بعد أقدام قليلة من الضفة . أما الطيور التى تحفل بها حقول الأرز فقد كانت المئات منها ، بألوانها البيضاء ، تملأ الضفاف الرملية ثم ترتفع طائرة كالسحابة الضخمة عند اقترابنا منها . أما الصقر المقدس فكان يحوم فوق الرؤوس ويصيح نفس الصيحة الحلوة ويلقى بنظرته الناقبة وصرخته الحزينة التى أنصت إليها الفراعنة منذ القدم .

وتمتد هذه المناظر مع الجزء الأكبر من مجرى النيل . وكنا نرى نفس الأشياء مرات عديدة على مدى أميال عديدة . وكان مستوى الضفة ينحدر بشدة نحو النهر ، وشريط الأرض المزروعة يتخذ لون عيدان الذرة الخضراء أو الذرة الصفراء . وتتوالى القرى الطينية وزراعات النخيل ، ومصنع السكر المهجور بمدخنته غير الرشيقة ونوافذه المهشمة . والساقية التى تدور بطيئة وهى تحمل عقد الجرار التى تنقل الماء ، والشادوف الذى يقوم على تشغيله اثنان من العمال الأقوياء ذوى اللون البنى . وطابور الإبل المحملة بالأحمال ، والصحراء ، وكل التلال والسهول الرملية مع الجبال التى تشكل الخلفية ، والسهل المنبسط المستطيل والشرع التى تلمع امامنا .

وفى بعض الأحيان كنا نسير بحذاء تلال القراميد القديمة لمدينة غير معروفة مع بعض أطلال مبان كانت عليها عقود ، وأيضا حوائط ومداخل تصل الى حافة الماء . أو نبحر بجوار سلاسل صخور عمودية ضخمة مثل تلك التى عند جبل أبو فايدة . وكانت طيور الماء تجفل تاركة مرائبها . ونحملق فى الحنيات المظلمة للمقابر العديدة المحفورة فى الصخر فوق المستوى الذى يصل اليه الفيضان .



جبل أبو فايدة

ويتمتع جبل (أبو فايدة) هذا بسمعة سيئة فيما يتعلق بالرياح الفجائية خاصة عند بداية السلسلة ونهايتها حيث ينحني النيل بحدة ، وينفتح الوادى على النهر بزوايا قائمة . ومن المناظر التى تستحق المشاهدة أن ننظر الى الريس حسن ونحن نقترّب من احدى هذه الزوايا الرديئة وهى نقطة ينقسم عندها اثنان من الوديان بسبب امتداد رأس بحرى من الأرض يتحكم فى الممر المائى فيقسمه كما لو كان زوجا من المدافع القديمة الرهيبة ، ويشقه مع صغير الرياح القادمة من شمال الصحراء الشرقية . والتيار الذى يفيض هنا بعق وشدة يتقابل مع الرياح ويرتفع فى شكل أمواج عالية . مما جعل القبطان يطلع حذاه ويقفز لينشر الشراع ثم يقف يراقبها صامتا . ويستعد البحارة لزحزة شراعنا الرئيسى عند صدور الأمر ، وقد تشبث بعضهم بالجبل الذى يربط الشراع بينما وقف البعض الآخر فى نهاية العارضة الأفقية . أما الباقون فقد اندفعوا أمام الرياح وظهر المنحدر العظيم أكثر ظلما وأشدّ قربا . ثم حانت لحظة كتم الأنفاس عندما صدر أمر فجائى حاد من الرجل الضئيل الحجم الذى يمسك بالجبل الرئيسى ، فصاح البحارة وأمسكوا بالأطواق وأمالوا الشراع المرفرف وأداروا السفينة حول الركن بسلام .

ان الصخور هنا جيدة النوع ، وأكثر ارتفاعا ، وأقل اتساقا من تلك التى فى جبل الطير ، وتتخذ أشكالا غريبة مثل أشكال الكباش وأقراص

الجبن والأبراج والاكتاف الناتئة من الحصون ، وأقراص التسميع التي في خلايا النحل مع سلاسل طويلة من القبور المنحوتة في الصخر ، والمناجم التي تعلوها الكهوف المنحوتة بفعل التيارات المائية والتي يربض فيها بعض التماسيح الساكنة ، على عكس الصخور الموجودة في جبل الطير التي تتفتت الى شبه قطع أشغال الأرايسك ، وتظهر هنا كما لو كانت قد نقشت كلها بكتابات سرية تعود الى عصور ما قبل التاريخ ، وسجلات عن انجازات نهر النيل حفرها اله النيل العظيم بنفسه - منذ العصور القديمة - ولكن اللغة التي كتبت بها لم يتحدث بها انسان .

أما عن المقابر المحفورة في الصخر عند جبل (أبو فايدة) فانها نعد بالآلاف . وهناك على بعد اثني عشر ميلا تقع هذه السلسلة موازية للنهر . ويبرز سطح الصخور طوال هذه المسافة مرصفا بالمداخل التي لا تحصى . بعضها صغير ومربع . وكل عشرين أو ثلاثين منها متجمعة مع بعضها البعض مثل بعض نوافذ السفن ، بينما يقع البعض الآخر منعزلا . وبعضها منحوت بطريقة تجعل الاقتراب منها يحدث من أعلى . والبعض الآخر يمضي قريبا من مستوى النهر . وبعض المداخل متقابلة مما يجعلها تمثل إحدى العارضتين الرأسيتين لأحد الأبواب أو الاطار الخشبي المحيط بالباب أو النافذة . وبعضها يتخذ وضعاً عرضياً يجعلها تظهر كما لو كانت تتكون من سلسلة من الحجرات التي تضيئها بعض النوافذ الصغيرة المحفورة في الصخر . ويمكن للانسان أن يصل اليها عن طريق سلم مكون من الدرجات الخشنة القادمة من عند حافة الماء . والبعض الآخر منحوت في أعلى مقدمة الصخرة أمام مدخل كهف صغير على شكل واجهة بسيطة ولكنها مهيبه ، ومحمولة على أربعة أعمدة منفصلة . ويبدو أن أحدا من الرحالة المحدثين لم يتم بزيارة هذه المقابر ، بينما الرحالة الذين ينتمون لندرسة القديمة من أمثال ويلكنسون وشامبليون . الخ تجاهلوا الا من بعض الاشارات القليلة . واعتقد أنه فيما عدا الجبال التي تقع خلف طيبة ، لا توجد أية بقعة في مصر تحتوى على مثل هذا الحليط من حفائر المقابر . ويظهر العديد منها كما لو كان ينتمى الى نفس الحقبة المبكرة والمثيرة التي تنتمى اليها مقابر بنى حسن .

ولقد لاحظت على مسافة تقترب من منتصف الطريق أو أقل من ذلك بطول السلسلة عمودين كبيرين عليهما نقوش هيروغليفية ، يقفان على قمة كتلة بارزة من صخرة مستديرة ربما على ارتفاع يعادل خمسين ومائة قدم فوق مستوى سطح النهر . ويبدو أن هذين العمودين ليسا الا شاهدي مفاير ملكية تم نقشهما جنبا الى جنب كما جرت العادة . ويتراوح ارتفاعهما

ما بين اثني عشر الى خمسة عشر قدما . ولكن بالنظر الى عدم وجود أشياء قريبة يمكن مقارنتها بها ، فأننى أخمن أبعادهما الحقيقية بشكل تقريبي . وهنا أخذت المركب تسرع بحيث أصبح من المستحيل عمل أية رسوم تخطيطية أو تدوين أية ملحوظات عن النقوش الهيروغليفية . وكنا قد تجاوزناهما قبل أن أضبط منظاري ، تم اختفيا تماما عندما ناديت بقية المرافقين .

وعند عودتنا بعد عدة شهور بحثت عنهما مرة أخرى بدون جدوى لأن شمس منتصف النهار الشديدة كانت تصب لهيبها على الصخور حتى طمسست تماما كل شيء حتى التفاصيل الضحلة . وعندما كنت أبحث عن العمودين بلا أمل ، نلت العوض عن ذلك برؤية نقوش بارزة ضخمة على الوجه الشمالى من صخرة تقف طوليا عند ركن احدى الحنيات التى تقطع انتظام السلسلة هنا وهناك . وكان بروز هذه النقوش منخفضا ، ولكن بالنظر الى الزاوية التى تستقبل بها الضوء كان الشكل الواحد الذى لا يقل ارتفاعه عن ثمانية عشر أو عشرين قدما واضحا تماما . وسرعان ما وجهت انتباه السيدة (ل) الى الموقع ، ولكنها لم تميز الشكل دون أن تستعين بالمنظار فقط ، بل انها اعتقدت مثل أنها تستطيع رؤية آثار أخرى .

وحيث ان العمودين أو النقش البارز لم يلحظها غيرنا من الرحالة السابقين ، فأننى أضيف الى معرفة الآخرين أن الصخرة المستديرة التى تشبه البرج والتى نقشت عليها النقوش ، تقع على مسافة تقرب من الميل نى الاتجاه الجنوبي من قبر الشيخ واحدى النخلات . (وهى قطعة رائعة المنظر لايمكن لأحد أن يتجاهل رؤيتها) وهى تقع خلف بعض الحفائر قريبا من حافة الماء ، بينما توجد النقوش على مسافة قصيرة أسفل الدير القبطى والجبانة . وبعد أن سرنا بمحاذاة طرف قاعدة جبل (أبر فايدة) بحوالى اثني عشر ميلا تقريبا شاهدنا أروع امتداد لمنظر الصخرة على هذا الجانب من الشلال الثانى حيث يتخذ النيل انحناء حادة فى اتجاه الشرق ومن ثم يفيض بين عدة أميال من الرقعة الزراعية . ومع الوصول الى هذه الحنية المفجائية فان الرياح التى كانت تحملنا بطول شريط منخفض قليلا بالنسبة لما تحتاجه المركب ، هذه الرياح الآن تخبطنا على كمره السفينة وتسوقها نحو الشاطئ بقوة بحيث انحصر كل الجهد الذى بذله عامل الدفة فى توجيهه مقدمة فيلة نحو الضفة وتحاشى حوالى عشر أو اثنتى عشرة مركبا محليا كانت قد اندفعت قبلنا ، واندفعت الذهبية باجستونز بعدنا مباشرة . وسرعان ما رأينا ذهبية مصنوعة من الحديد

قادمة بقوة تحت الصخور وشراعها منتشر بكامله ، رأيناها وهي تصارع
فى الركن الخطر ثم تنغرز مقدمتها فى الضفة مثل سفينة الملك أجيوب
على جبل المغناطيس .

ولما وجدنا أنفسنا مسجونين هنا طوال فترة بعد الظهر ، تبادلنا
زيارات المواساة مع جيراننا الذين صادفهم سوء الحظ ، وقد تعبت آذاننا
من الرمال السافية ، وفشلنا فى مسعانا للقيام بالتنزه على الضفة . ومع
استمرار غضب العاصفة أخذت الرياح تعوى ، بينما تسابقت أمواج النيل
فى الاندفاع ، وانتشرت الرمال كالسحاب ، وأظلم وجه السماء كما لو كنا
داخلين فى ضباب لندن . وفى نفس الوقت أخذت المراكب واحدا بعد
الآخر ترتى بشدة على الضفة ، وقبل هبوط الظلام وصل عددنا الى
أسطول مكون من حوالى عشرين سفينة محلية وأجنبية .

وفى اليوم التالى استدعى الأمر توحيد جهود جميع البحارة لسحب
فيلة وباجستونز عبر النهر بالحبل والهلل ، وهى وسيلة تستحق
التنويه ، لا لحدائتها أو براعتها ولكن لأن رجالنا قالوا انها غير قابلة
للتنفيذ ، وقالوا ان آباءهم لم يستخدموها ، وكذلك أجدادهم أيضا
ولذلك اعتبروها مستحيلة . واذا كانت مستحيلة فلماذا يتعبون أنفسهم
بمحاولة تنفيذها ؟

ولكنهم حاولوا تنفيذها ونجحوا فى ذلك مما أصابهم بالدهشة .

وعند اقتراب ظهر ذلك اليوم الثانى وأثناء السير على ضفة النهر
تعرفنا لأول مرة بهذه الحشرة المشهورة ألا وهى حشرة الجعل المصرية .
كانت عينة رائعة من هذه النوعية . سوداء اللون ويبلغ طولها حوالى
نصف البوصة . ويضرب لونها الى السواد واللمعان مثل الجعل المصنوع
من حجر الفحم الذى تصنع منه المجوهرات الصناعية . وكانت هذه الحشرة
مشغولة فى اعداد قرص ضخ من الطين سرعان ما بدأت فى تحريكه فوق
الضفة بمشقة شديدة . ووقفنا نشاهدها بعض الوقت ، نصف معجبين ،
ونصف مشفقين . لقد كان حجم القرص الذى صنعته يبلغ أربعة أضعاف
حجمها ، كما أن تحريكه للصعود به مع هذا الميل الشديد الى نقطة أعلى من
فيضان الصبب القادم ، كان عملا يتطلب مجهود هرقل الجبار وليس
مجهود هذه الحشرة الضئيلة . وقد أردت القيام بدور الونش فأحمله
عنيا الى أعلى الضفة ، ولكن ذلك كان حلا فوق مستوى فهمها .

ونعرف جميعا القصة القديمة التى تدور حول كيفية وضع هذه
الحشرة للبيض على حافة النهر وتغليفه داخل كرة من الصلصال الرطب ،

ثم دحرجة الكرة الى مكان آمن على حافة الصحراء ، ثم دفنها فى الرمل .
وعندما يحين أجلها تموت راضيه لأنها أمنت سلامة سلالتها . ومن هنا
جاءت شهرتها الأسطورية ، وكل الرمزية التى ارتبطت بهذا المخلوق
الضئيل وانتهت بإحاطته بقدسية خاصة تطورت الى عبادة فعلية . أما وقد
وقفنا هنا نشاهد تحركات هذا المخلوق ، وطاقته التى لا تكل ، وقوته
العضلية غير العادية ، وعمله الذى يصل الى درجة تكريس الذات
للموضوع الذى بين يديه ، فاننا نستطيع أن نرى كيف أعطى هذا المخلوق
درساً دقيقاً يستحق تأمل المتخصصين فى تعليم الأخلاقيات للمصرى
القديم . وكيف كان الجمع بين الحكمة والتسرع سبباً فى اعتبارهم لهذا
الجعل الأسود الصغير ليس فقط رمزا للقوة الخلاقة والحفاظة بل ربما
أيضا لخلود الروح ، وبذلك فإن هذا النوع من الحشرات قد نال تعظيما
لم ينله غيره من الأنواع . لقد أصبح رمزا مبهما ، وصار كلمة معبرة عن
الكيونة والتحول . لقد رسمت صور هذه الحشرة ملايين المرات ونقشت
على أبواب المعابد مثبتة على أكتاف الاله . وحفرت على المجوهرات ، ووضعت
كختم على الفخار ، ورسمت على النواويس وحوائط المعابد . ولبسها
الأحياء ضمن عقودهم ، ودفنت مع الأموات . وقد اعتاد كل رحالة على
النيل أن يحضر معه حفنة من حشرات الجعل الحجرية الصغيرة حقيقية
أو غير حقيقية . والبعض لايهتم بامتلاكها ، ولكن لا أحد يتمالك نفسه
عن شرائها ، اما لمجرد تقليد غيره ، أو للتخلص من تاجر مشاكس لوح ،
أو لاهدائها الى الأصدقاء فى الوطن . ومع ذلك فاني أشك فيما اذا كان
أشد هواة الجعل تحمسا يؤمن بالقوة الرمزية التى تشده الى تلك الجواهر
الصغيرة أو يقدر التلقائية الشديدة فى مهارتها حتى يشاهد الجعل الحي
أثناء انهماكها فى عمله .

وفى النوبة حيث تتكون الرقعة الزراعية من مجرد شريط عرضيه
عده أقدام — فإن عمل الجعل خفيف نسبيا وتتضاعف سلالته فى حرية .
أما فى مصر فهناك سهل واسع يضطر لعبوره مثقلا بجعله ، ولذلك فإن
حصته نادرة بسبب الصعوبة التى يواجه بها معركة البقاء . ويبدو أن
عدد حشرات الجعل فى مصر يتضاءل بقدر ملحوظ منذ أيام الفراعنة
ولن يكون وقت انقراض حشرة الجعل الحقيقية بعيدا وحينذاك يجرى البحث
عن عينات منها على هذا الجانب من الشلال الأول دون جدوى . وحسب
خبرتى أستطيع القول اننى رأيت عشرات من هذه الحشرة خلال الجزء من
الرحلة الذى قضيته فى النوبة . أما أفضل ما فى تذكاراتى هذه فهو
المصادفة التى رأيت فيها جعلاً حقيقياً فى مصر .

وبعضى النيل خلال أربع أو خمس انحناءات كبيرة أخرى بين جبل

(أبو فايدة) وأسويط ، مرورا بمنفلوط وهى مدينة تقع على مسافة قليلة خلف الضفة . وقد تحسبنا لكافة الاحتمالات - الريح المواتية التى كانت تأتى وتذهب باستمرار ، الانحناء المتعرج للنهر ، الهدوء القاتل الذى حدث ونحن على بعد ثمانية أميال فقط من أسويط ، واليوم الطويل التالى له الذى قضيناه فى سحب المركب حتى حسبنا أنفسنا محظوظين لوصولنا مساء اليوم الثالث بعد العاصفة . أما تلك الأميال الثمانية الأخيرة فقد كانت أحلى ما صادفناه فى طريقنا شمال طيبة ، بسبب جمالها الهادى المتحرر . والوادى هنا شديد الاتساع وخصيب ، وتظهر المدينة بمآذنها العديدة لأول وهلة على جانب واحد ، ثم نجد امتدادا لها على الجانب الآخر حسب انحناءات النهر . أما الجبال الوردية البعيدة فتبدو شفاقة مثل الهواء أو سطوع الشمس ، بينما تنفرج الضفتان عن سلسلة لانهائية من الموضوعات الصغيرة البهيجة التى يبدو كل منها وكأنه يسألنا أن نتوقف لكى نرسمه أثناء عبورنا . هناك شادوف ومزرعة للنخيل ، وثلاث جاموسات سوداء ذات شعر أشعث . وعند اكتاف النهر ترتفع أشجار الجميز وهى تكاد تنام وهى واقفة ويغط فى النوم تحت ظلها رجل وجمل



المقابر التى على ضفة النهر بالقرب من أسويط

وتأتى نخلة ساقطة اقتلعها الفيضان الأخير ولكنها مازالت ملتصقة بالضفة عن طريق جذورها المتشعب وهامتها التى فى الماء . وامتدت مجموعة من قبور المشايخ بقبابها البيضاء المتألقة بخلفية من الأشجار الداكنة الخضرة . وهناك أيضا ساقية قديمة بطل استعمالها ، ترقد على جانب

الضفة مثل خذروف (*) ضخم ذى أربعة وجوه . وقد تكلمت بفروع
يقطينة (**) برية متسلقة . وهناك القليل من الأشياء التى صادفناها فى
الطريق ولكن ليس فيها جديد . وعلى كل حال فقد وجدنا الأشياء القديمة
قد اتخذت معالم جديدة . أما ارتباط مثل هذا الضوء الأثيرى والظل مع
مثل هذه الرقة البراقة ، فقد جعلها تبدو مثل السراب الذى يظهر فى
الهواء أكثر منها قطعة من العالم الذى نعيش فيه .

وتبدو مثل السراب أيضا هذه المدينة الخرافية التى تدعى أسيوط
فهى تظهر دائما كما لو كانت تحلق على نفس المسافة البعيدة التى لا يمكن
الوصول إليها . وبعد ساعات من سحب السفينة بالحبال لم تظهر المدينة
أقرب مما كانت من قبل .

والحقيقة أننا كنا أحيانا ونحن نتبع الأطراف الطويلة للنهر ، نظن
أننا قد تركناها خلفنا ، ورغم أننا كما سبق أن قلت ، كنا نتوقع ثمانية
أميال من العمل الشاق حتى نصل الى أسيوط ، إلا أننا أشك فى أنها
كانت تتجاوز ثلاثة أميال وهى مسافة قدرنا بعدها حسب طيران الطيور .
وفى نهاية فترة بعد الظهر درنا حول الركن الأخير . وكانت الشمس تتجه
نحو المغرب عندما وصلت المركب الى قرية الحمراء ، وهى مكان رسو السفن
عند أسيوط . أما أسيوط نفسها بقيابها المتعاقبة ومآذنها الرفيعة فانها
تقع فى السهل الى الراء عند قاعدة جبل عظيم تتغلغل المقابر فى سفحه .

وكنا قد قررنا السماح لبحارتنا بتجهيز خبز فى أسيوط واسنا
وأسوان خلال أربعة وعشرين ساعة . فما أن أرسينا الذهبية حتى أسرع
الرئيس حسن وعامل الدفة الى ركوب حمارين لشراء الدقيق بينما اندفع
محمد على وهو من أنشط وأذكى البحارة لاستئجار الفرن . لأنه يوجد هنا
كما فى اسنا وأسوان مخازن ضخمة للدقيق ، ومخابز عامة لاستخدام
البحارة العاملين على النهر ، وذلك لعجن الدقيق وخبزه بكميات كبيرة ،
وتقطيعه الى شرائح وتجفيفه فى الشمس ، ثم حفظه محمضا لعدة شهور .
ولذلك فهو بعد اعداده يحل محل البسكويت الذى يستخدم على السفن
ويتفوق على البسكويت من حيث انه لا يتفتت ولا يصيبه العفن ، ولكنه
يظل جيدا وصحيا حتى آخر كسرة .

وأسيوط هى عاصمة مصر الوسطى ، وبها أحسن المتاجر التى يمكن
أن تتوفر فى أية مدينة على النيل ، ويشتهر فخارها الأحمر والأسود فى

(*) الخذروف : الميوان اذا استدارت قوائمه - (المترجم) .

(**) الليقطين : ما لا ساق له من النبات ، كالقثاء والبطيخ ، ويلقب اطلاقه على

القرع - (المترجم) .

البحر والسماء



كل أرجاء القطر المصرى . أما رؤوس الغليون التى تصنع فيها (المفروض أنها من أفضل النوعيات التى تصنع فى الشرق) والتى يتم تصديرها إلى القاهرة بكميات كبيرة ، فإنها نأخذ طريقها ليس فقط إلى كافة مناطق البحر المتوسط ونحن إلى كل محل جزائرى وبابانى فى لندن وباريس . ولا يستطيع أى عاشق للسُخار الفلاحى أن ينسى الكشك المصرى الذى أنعم بقائه عرض السيراميك فى المعرض الدولى سنة ١٨٧١ . إن كل هذه الزهرىات الحمراء الجذابة والقذور السوداء اللامعة ، وكل هذه الفناجين الصغيرة الرائعة ، وثقالات الورق التى تشبه التمساح ، وهذه القوارير التى على شكل البرميل أو الطير ، جاءت جميعها من أسيوط . ويوجد بالمدينة هنا شارع بكامله لمنتجات الفخار . ونادرا ما تكتسب الذهبية سرعتها قبل أن يصعد أحد التجار إلى سطحها ويصف آنية سهلة الكسر بطول الطابق العلوى . وهناك تجار آخرون يعرضون بضاعتهم على الضفة . ولكن أفضل المنتجات توجد فى المتاجر . وحتى فى القاهرة لا تستطيع أن تجد المنتج الأسيوطى الذى يتيح لك الاختيار من جهة اللون والتكوين والتصميم مثل تلك التى يخرجها التجار ويلفونها فى الورق الناعم عندما يظهر العميل الأوروبى فى السوق .

وهناك شوارع أخرى بجانب شارع الفخار منها شارع للأحذية الحمراء وآخر للخامات المحلية والأجنبية ، والمحلات المعتادة لبيع السروج ، واكشاك الكباب ، والمحلات اليونانية لبيع كافة البضائع الموجودة على الأرض ابتداء من كونيكاك الدرجة الثالثة حتى الكبريت المصنوع من الشمع . والمنازل مبنية من الطين المغطى بالجبس أو الطوب الأحمر كما هو الحال فى المنيا . أما الشوارع فإنها متربة وضيقة وغير مرصوفة ومزدحمة كما هو الحال فى المنيا . كذلك فإن عيون الأطفال محاطة بالذهاب ، ورؤوسهم مغطاة بالالتهابات كما هو الحال فى المنيا . وباختصار فإن المنيا تتكرر هنا ولكن على نطاق واسع مع الاختلاف فى نوعية السكان الذين ليس بينهم لصوص أو عدوانيون ، ولكنهم ودودون وطيّبون . وتجد بينهم المتسولين الذين يتفوقون على نظرائهم من الأيرلنديين فى خاصية الالاحاح . وهكذا تحول السراب الذى توقعناه إلى حقيقة . أما أسيوط التى تظهر على البعد مثل عاصمة مدينة الأحلام فقد أظهرت نفسها فى شكل مدينة كبيرة مجنونة قبيحة الشكل وعادية جدا . سكانها . وحتى المآذن التى كانت تبدو رشيقة من على البعد خدعتنا فى معظمها فإذا هى عند النظر إليها من قريب ليست إلا بنايات من الأحجار الخشنة ذات الزخرفة المقبضة . وهناك طريق مرتفع محصور بين صفيين من أشجار الجميز يصل من الحمراء إلى أسيوط ، وطريق آخر يصل

من أسيوط الى الجبل الذى به المقابر • أما عن المدينة الفرعونية القديمة فلم يتبقى منها أية آثار ، أما المدينة الحديثة فقد أنشئت على التلال التى استقر عليها الناس من قبل • أما مدينة الموتى التى حفرت فى الصخر الصلد فما زال معظمها موجودا لتخليد عظمة هذا المكان التى ولت مع الزمان •

وفى اليوم الثانى ركبنا الحمير الى حافة الصحراء ومضينا على أقدامنا الى المقابر فاذا بالجبل الذى يبدو رقيقا وردى اللون مثل السلمون من على البعد ، يظهر الآن باهتا وقاحلا وملونا باللون الأصفر المائل للسواد • وهو مكون من طبقات فوق بعضها فى أحواض شديدة الوضوح • ويرتفع فى شكل برج مدرج طبقة فوق طبقة • أما المقابر فكانت مفتحة الأبواب بطول حافة الجرف • والتقطت شظية من الصخر فوجدتها خفيفة ومسامية ومليئة بالثقوب الصغيرة مثل الأسد الأمريكى • وكانت الأحجار مبعثرة على المنحدرات ومعها شظيات من المومياءات ، وقطع من الأكفان وعظام بشرية ، وجميعها بيضاء وباهتة اللون بفعل الشمس •

وكانت أول مقبرة وصلنا اليها تسمى اسطبل عنتر (*) ، وهو من الحفائر العظيمة ولكنه مشوه جدا ، وهو يتكون من مدخل كبير وممر مسقوف ، وقاعة ضخمة على كل جانب من جانبيها غرفة وهيكل • أما سقف الممر الذى تحول الى اللون الأسود بسبب الدخان ، مع التشويه الشديد ، فقد كان مزخرفا بأشكال معقدة باللون الأخضر الفاتح ، والأبيض ، والأصفر الداكن ، على أرضية من أشغال الجص باللون الأخضر الغامق ، والحائط على يمين الداخل مغطى بنقش هيروغليفى طويل • أما فى الهيكل فتوجد آثار باهتة لأشخاص جالسين من ذكور وإناث وفى أيديهم زهور اللوتس • وهناك تمثالان كبيران لائنين من المحاربين محفورين على الهامش فوق الصخرة المسطحة • أحدهما كامل الصنع ، أما الآخر فمن الصعب التعرف عليه • والتمثالان يقفان على جانبي البوابة الضخمة • وهناك ثقب دائري فى الطرف الذى يحدد البقعة التى كان الباب يدور فيها على محوره يوما ما وحفرة عميقة امتلأت حاليا بالمخلفات ، تمتد من وسط القاعة الى عقد مستطيل داخل فى عمق قلب الجبل ، وهناك دمار شديد واقم على كلا الجانبين • أما النقوش الحائطية فهى مهشمة ومشوهة • أما الأعمدة الضخمة التى حملت الصخرة الرئيسية يوما ما فقد اقتلعت

(*) معبد اسطبل عنتر («سيديس أرتيدوس») الذى أقامته الملكة حتشبسوت -

(المراجع) •

من مكانها . أما المدخل فمسدود بأكوام الأنقاض ، وقد بقي من هذه
الانقاض ما يكفي للشهادة على فخامة المقبرة الأثرية . وبقي النقش
الهيروغليفي سليما لكي يحكى لنا عمر المقبرة وتاريخها .

وهذا النقش (ادخل في دليل موراى خطأ بوصفه غير مدون ، ولكن
سرحه العالم بروجش الذى نشر مقتطفات منه تعود الى سنة ١٨٦٢) يبين
أن هذه المقبرة قد أقيمت من أجل من دعى باسم هيبيوكيفا أو هابتيفا
حاكم اقليم ليكوبوليس وهو كبير كهنة الاله أنوبيس (ابن أوى) معبود
مدينة أسيوط (١) . وهى مشهورة أيضا بين طلاب الدراسات العلمية
بسبب ممرات معينة تتضمن معلومات مهمة تختص بحساب الأيام التى
تضاف الى التقويم المصرى (٢) . وقد لاحظنا أن كل العلامات التى على
العارضة الرأسية للمدخل تبدو مشوهة وقد سلت بالجص ثم جرى
تلوينها . وقد سقط الجص فى معظم أجزائها بالرغم من أنه قد بقي منه
ما يكفي لبيان طراز هذا العمل (٣) .

وقد زحفنا من هذه المقبرة الى المقبرة التالية عن طريق ممر مخفور
فى الجبل ، ويبرز فى مغارة فسيحة ذات أربعة أضلاع أكثر تداعيا من
الأولى . وقد حملت المقبرة على أعمدة مربعة مقامة فى جسم الصخرة ، ولكنها
مثل الأعمدة النازلة فى التكوينات الجيولوجية ، أما الباقي وهو حفرتان
نصف مملوءتين ، وناووس مكسور ، وبعض الرموز الهيروغليفيه المرسومة
على حائط الجص فهى جميعها باقية .

وكنتم أحب أن أرى المقصورة التى فك منها أمير تلميذ شامبليون
الألمى والمتحمس رموز الاسم القديم لمدينة أسيوط ، ولكن نظرا لأنه
لم يحدد الخرطوش الذى استطاع الفك عن طريقه ، أصبح من اللازم التجول
فى الجبل لمدة أسبوع دون أن نتمكن من العثور عليه .

(١) ان النقوش المعروفة فى مقبرة هابتيفا قد نسخت مؤخرا كما نسخ نص آخر طويل لم
يسبق نسخه وتمت ترجمته بمعرفة مستر ف. لويلبن جريفث F. Llewellyn Griffith
ممثل صندوق استكشاف مصر E. E. F. . وقد حدد مستر جريفث للمرة الأولى
لتاريخ هذه المقبرة المشهورة التى أقيمت فى عصر أوسر تيسين الأول من الأسرة الثانية
عشرة .

(٢) انظر Recueil de Monuments Egyptiens للعالم Brugsch الجزء الأول
الفصل الحادى عشر - مطبوع سنة ١٨٦٢ .
(٣) يمكن مشاهدة بعض المقابر القديمة الشهيرة مزخرفة بنفس هذا النوع من
التطعيم، فى ميدوم عند قاعدة هرم ميدوم .

وقد قال عندها وصف اسطبل عنتر لأول مرة : « وفي الكهف وجدت
الخرطوش منقوشا مرتين حول اسم المدينة المدون بالحروف الهيروغليفية
(أسبوت) ويشكل هذا الاسم جزءا من نقش يحتوى على خرطوش ملهى
قديم وبذلك عرف أن الاسم الحالى للمدينة يعود الى أيام الفراعنة (كتاب
العالم J. J. Ampère عنوانه Voyage en Egypt et en Nubie
ويذكر فيه أن الخرطوش ربما كان باسم راكاميرى الذى ذكره بروتش
فى الفصل الخامس من الطبعة الأولى لكتابه : (Histoire d'Egypte)
وهنا أيضا نتتبع عملية حفظ مزدوجة ، فهذه المدينة التى كانت تكتب
بالمصرية القديمة sout أصبحت تسمى ليكوبوليس Lycopolis
خلال فترة الحكم الرومانى لمصر . وقد أعيد هذا الاسم الى أصله التاريخى
القديم بمعرفة أقباط العصور الوسطى الذين كتبوه سيوط Siout
وبقى موجودا فى اسم أسبوت كما ينطقه الفلاحون العرب . وليست هذه
حالة وحيدة ، فقد صار اسم كاميس يعرف بالاسم بانوبوليس وينسب
هذه الطريقة تحول الى الاسم القبطى خميم وما زال حتى اليوم موجودا
بالشكل اخيم الذى يخلد أسطورة تأسيسها الأول . وكما حدث فى هذه
المتغيرات من اللغة القديمة حدث كذلك فى التنوع الجنى الذى خضع
له المصريون مع توالى الجيوش الغازية حيث اختلعت دماؤهم بدماء
الفيثقيين والفرس واليونانيين والرومان والعرب ، واستطاعوا أن يصهروا
هذه العناصر المختلفة فى قالب واحد ينتسب الى النوع القديم ويستمر
مصرىا الى الأبد . يا لغرابة طغيان القوى الطبيعية ! ان شمس مصر وتربتها
تطالبان بجنى واحد من البشر ولا تجيز غيره . ولا يستطيع المستوطنون
الغريب أن يعقبوا نسلا فى هذا البلد . لقد حاولت مجموعة أجنبية مكونة
من عشرين ألف شخص أن تعيش فى منطقة السويس التى تعتبر أكثر
مناطق مصر ملائمة للصحة ، ولكنها فشلت على مدى عشر سنوات فى تربية
طفل صغير واحد ممن ولدوا على التربة المصرية . وان الأطفال الذين
ينجبهم أب أجنبى من أم مصرية يموتون بنفس الطريقة التى يموت بها
الصغار فى المهد ، الا اذا تربوا بنفس الأسلوب المصرى البسيط . وقد
تأكد بالنسبة للمولودين نتيجة للزواج المختلط أنه بعد الجيل الثالث
يستقل الدم الأجنبى ويستعيد النسل الخصائص الجنسية فى ثوبها
الأصلى النقى .

هذه بعض وليست كل حالات النقاء المصرى المذهل . انه نقاء لفت
انتباهى خاصة وسأعود اليه كثيرا بين الحين والآخر . ان كل محافظة
من محافظات مصر القديمة لها حيوانها المقدس . وقد أطلق الاغريق على

أسيوط اسم ليكوبوليس (١) لأن الذئب (انقرض الآن من هذا البلد) كانت له هناك نفس نوعية التقديس التي للقطعة في بوباستس (تل بسطة) والتمساح في امبوس (كوم امبو) والأسد في ليونتوبوليس (الفيوم) (*) . ان مومياوات الذئب وجدت في المقابر الصغيرة حول الجبل ، وكذلك مومياوات ابن آوى . ان الاله أنوبيس الذى يحمل رأس ابن آوى كان . هو الاله المبجل في هذه المقاطعة . أما مومياوات ابن آوى التى تنتمى لهذه المنطقة والتى كانت تلف فى شرائط ملونة فمن الممكن مشاهدتها فى الغرفة المصرية الأولى بالمتحف البريطانى . أما المنظر من الجبل فوق أسيوط فهو أروع من مقابرها وأقدم من مومياواتها . وبالنظر من المدخل العظيم للمقبرة الثانية تبدو الصورة وكأنها موضوعة داخل اطار . لأننا بالنظر الى المنظر الأمامى شاهدا منحدرًا متألقا من الأطلال التى كانت صروحاً مبنية من الحجر الجيرى . أما فى المساحة المتوسطة فقد شاهدنا سهلاً واسعاً مكتسباً باللون الأخضر الرقيق المنبعث من القمح الحديث الانبات . وفى المساحة الأبعد ترتفع قباب ومآذن أسيوط فى وسط نطاق من زراعات النخيل ، وبعد ذلك يلمح الذهب المنصهر فى نهر النيل العظيم ، أما على البعد العميق فى الصحراء البعيدة طبقة بعد طبقة بامتداد الأفق ، فتظهر حافة الصحراء اللانهائية . وتظهر هنا وهناك برك واسعة من الماء الهادى المتخلف عن الفيضان الأخير مثل بحيرات وسط الزراعات الخضراء . وهناك فريق من الرجال ذوى اللون البنى يخوضون فى المياه بشباكهم . وتتقدم إحدى الجنازات فى الطريق المحصور ، وترى النعش محمولاً على أكتاف الرجال وهو مغطى بشال أحمر . أما النساء فكن يملأن أيديهن بحفلات من التراب ويذرنها على رؤوسهن أثناء سير الجنازة . وكنا نرى التراب يتطاير بينما يحمل الهواء صوت نواحين الحاد . وتقع المدافن التى يقصدونها على اليسار عند سفح الجبل . وهى مكونة من عدد من القباب البيضاء فى وسط البيداء فيما عدا شجرة هنا أو هناك ، بينما تنتشر مساحات عريضة من الظل تحت أشجار الجوز التى تنتشر على جانبي الطريق ، ويحوم صقر على رؤوس السائرين . أما مدينة أسيوط التى تستبحم فى اشراقه شمس الصباح فتبدو كما هى دائماً مثل الحورية .

(١) قام الاغريق بترجمة الاسماء المقدسة للأماكن المصرية القديمة ، بينما عدل الاقباط الاسماء المنقبة .

(*) ليونتوبوليس هى تل المقدام حالياً فى شرق الدلتا - (المراجع) .

وقد ورد ان لبسيوس قال ان المنظر من جانب هذا التل يعتبر من
أروع المناظر في مصر . ولكن مصر بلد مستطيل وتعتبر مسائل الأسبقية
أمورا محرجة اذا حاولنا التعامل على أساسها . انه منظر جميل بالرغم
من أن معظم الرحالة الذين يعرفون المنظر حول طيبة والمداخل الى أسوان
قد يترددون في الاعتراف بذلك ، ولابد أن أتخيل أن أعطى الأسبقية
للمنظر الطبيعي الذي تستثنى منه الجبال القريبة بسبب موقع المشاهد .

وقد قيل ان المقابر هنا مثلها مثل غيرها من المقابر في بقية أنحاء
مصر قد سكنها المتوحدون المسيحيون الأوائل خلال حكم أواخر الأباطرة
الرومان . وينسب الى هؤلاء النساك الأسطورة التي تجعل ليكوبوليس
(أسيوط) مقرا لاقامة القديس يوسف النجار والعذراء مريم خلال سنوات
الاقامة في مصر . انها مجرد أسطورة بعيدة الاحتمال هذا اذا كانت العائلة
المقدسة قد جاءت الى مصر مطلقا . وهذه قضية تشكك فيها الآن بعض
الدراسات التي تهاجم الكتاب المقدس (*) . ولكن ربما كانت العائلة المقدسة
قد استراحت من تجوالها في احدى المدن التي لا تبعد كثيرا عن الحدود
الشرقية مثل تانيس أو بيثوم أو تل بسطة . وعلى كل حال فان أسيوط
نقع على بعد ٢٥٠ ميلا على الأقل جنوب أية نقطة يفترض منطقيا أن العائلة
المقدسة قد تولغت اليها .

ويظل الانسان ميالا للاعتقاد في صحة القصة التي وضعت منظر
طفولة السيد المسيح في وسط هذه المنطقة الريفية المصرية الجميلة
والمثالية . وباله من اهتمام عميق ومؤثر ذلك الذي تضيفه على المكان !
ولابد أن ننظر نظرة مختلفة الى المنظر الطبيعي الذي كان بكافة تفاصيله
عزيزا عليه ومألوفاً لديه ، والذي لابد أنه بقي دون أن يتغير منذ يومه
وحتى يومنا هذا بسبب طبيعة الأرض - الجبل بمقابره ، ومساحات القمح
الخضراء ، والنيل ، والصحراء - كانت جميعها تبدو حينذاك مثلما تبدو
الآن . والجديد فقط هو مآذن المساجد الاسلامية ، والهياكل الفرعونية
الخاصة بالعبادة القديمة التي بادت .

(*) هذه ليست أسطورة ولكنها حقيقة أشار اليها أنبياء العهد القديم بالوحى قبل
حدوثها (اشعيا ١٩ : ١ - وايضا : هوشع ١١ : ١) .

كما أشار اليها وسجلها العهد الجديد بعد حدوثها (متى ٢ : ١٣ - ٢٣) ولا ادري
لماذا تجاهلت المؤلفة جبل قسقام والدير المحرق فوقه حافظا للمكان الذي عاشت
فيه العائلة المقدسة لمدة ستة شهور مع كافة الاثار والمخطوطات التي تؤكد هذه الحقيقة .
انظر : كتاب : الدير المحرق - تاريخه ووصفه وكل مشتملاته . من تأليف نيافة الدكتور
الابنا غريغوريوس وكتبا صغير الحجم عنوانه : التاريخ لأحداث الميلاد - من تأليف
مترجم هذا الكتاب الذى بين يدي القارئ وغيرهما - (المترجم) .

الفصل السابع

من أسبيوط الى دندرة

استمرت رحلتنا من أسبيوط ، ومعنا على سطح المركب ما وزنه طنانه من الخبز البنى الطازج الذى تم تقطيعه الى شرائح ثم تجفيفه فى الشمس . وسرعان ما تحول الى بقسماط ووضع فى مخزنين ضخمين على السطح العلوى . وقد استمتعت العصفير الدورية وأبو فصادة بوقتها أثناء تجفيف الخبز ، ولكن أحدا لم يحقد على تلك الضريبة التى حصلتها الطيور .

وتهب علينا الآن رياح شديدة رغم أنها نادرا ما تهب قبل الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحا وتضمحل عامة عند الغروب . وعندما يتصادف استمرارها مع عدم وجود مناطق ضحلة فى مجرى النهر فإننا نمضى فى الإبحار خلال الليل ، ولكن ذلك نادرا ما يحدث . وعند حدوثه يجعل النوم مستحيلا ، ولذلك فإنه لا شئ يستطيع أغراءنا بالإبحار سوى تأكيد السفر لأميال عديدة ما بين وقت النوم ووقت الافطار .

لقد مضى وقت طويل ونحن على متن المركب قبل أن نكتشف وجود شخص مريض ، ولذلك لم يكن هناك مفر من استمرار سير المركب ، فلم يكن هناك من شبيهه لبجارتنا فى بذل ما فى طاقتهم من جهد مما جعلهم دائما يصيبون أقدامهم بالكدمات ، ويجرحون أيديهم ، ويتلقون ضربات الشمس ، والتهابات الأصابع ، والتواءات المفاصل ، فيسببون العجز لأنفسهم بطريقة ما . وكانت السيدة (ل) ومعها صندوق أدويتها الصغير ولغائتها من الضمادات والأربطة ، تقوم بمزاولة العلاج المحدود الذى كان ناجحا . وكنا نراها فى السطح السفلى معظم أوقات الصباح بعد الافطار وهى تعالج المصابين . ولقد كان من حسن حظهم وجود « جراح متمرس » معنا لأنهم كانوا يحسون بالضعف واليأس عندما يتعرضون للأذى مع جهلهم بالاسعافات الأولية . كما أن هذا العجز كان يقتصر على المواطنين من طبقة البحارة والفلاحين . ان أصحاب الأعمال والموظفين فى الأقاليم

يجهلون تماما ليس فقط استخدام الاشياء البسيطة مثل اللبخة أو المنديل المبلل بالماء ، بل أيضا يجهلون القواعد الأولية للصحة . ولا يوجد أطباء فى اتجاه الجنوب من القاهرة ، مع عدم الثقة فى العلاج الحكومى لأنه فى حالة انتشار وباء ، ترسل الحكومة مفتش الصحة بأمر منها ، ويقال ان نصف الناس يخفون اصابتهم ، بينما يرفض النصف الآخر تطبيق العلاج الموصوف لهم . ومن الجبهه الأخرى فان ثقتهم فى مهارة الأوربيين العابرين ليس لها حدود . فكانوا يأتون إلينا دائما سواء منهم الأغنياء أو الفقراء طالبين النصيحة والدواء . وهناك ما يثير العواطف فى الاعتقاد الساذج الذى يتقبلون به أية مساعدة مهما كانت قليلة . وفى نفس الوقت تأكدت سمعة السيدة (ل) الطبية بين البحارة عن طريق بعض العلاجات البسيطة التى قدمتها . ولذلك أطلقوا عليها لقب : الست الحكيمة ، وأطاعوا توجيهاتها ، وابتلعوا أدويتها بثقة كما لو كانت خريجة كلية الجراحين . وعبروا عن شكرهم بكافة الأساليب الرقيقة التى تشبه أساليب الأطفال . وكانوا يغنون لها أحب الأغاني العربية وهم يجرون بجوار حمارها ، ويبحثون لها عن شظيات التماثيل عند زيارة الأطلال . وكانوا يقدمون لها باستمرار هدايا صغيرة من الحصباء والأزهار البرية .

وبعد أسبوط ينكشف منظر النهر عن أعظم أجزائه فى الضفة الشرقية . لقد كانت سلسلة الجبال التى على جانب الصحراء العربية قريبة جدا . بينما كانت تبدو هناك سلسلة أكثر بعدا فى الأفق الغربى ، ويأنى جبل شيخ الريانة بعد جبل (أبو فايدة) ويليه بعد ذلك فى تتابع متقارب صخور قاو ، وجبل الشيخ هريدى ، وجبل العسيرات ، وجبل طوخ - وجميعها تتشابه فى الصلابة القائمة على قواعد شديدة الوضوح من طبقات الحجر الجيرى المستوية ، وقمم مسطحة تشبه خطوطا من الحواجز الضخمة ، يخترقها الكثير أو القليل من الفتحات التى نعرف أنها قبور ولكنها من على البعد تشبه المنافذ التى تستخدم فى الهروب .

ومع ابحارنا فى مواجهة الريح وقد نشرنا الشراعين ، رأينا المنظر العام السريع يكشف عن ذاته يوما بعد يوم ، وميلا بعد ميل ، وساعة بعد ساعة . وتركنا خلفنا القرى ، ومزارع النخيل ، والقبور المنحوتة فى الصخر ، وندخل اليوم منطقة نخيل الدوم . وغدا سنعبّر الحد المرسوم على الخريطة لمناطق التماسيح . وتتقدم الصخور ، وينحسر المد ، وينفتح المنظر على الوديان المهجورة ، وتظهر آثار باهتة للممرات التى تقود الى المقابر المنحوتة على ارتفاعات بعيدة . ووصلنا الى الرأس البحرى الذى ظهر على البعد مغلفا بالظلال منذ ساعتين ثم تجاوزناه . أما مركب البضائع

التي عملنا على اللحاق بها طوال فترة الصباح، فقد تخطيناها وأخذ منظرها يتضاءل خلفنا . والآن نحن نعبر منحدرًا بارزا يظل على قبر أحد المشايخ ، وشجرة منعزلة من نخيل الدوم . ونمر بمنجم قديم كان القدماء يقطعون منه الأحجار في شكل كتل ملساء تاركين ثقبًا ضخمة وممرات ودرجات سلالم في جانب الجبل . وعند قاو (١) التي تمثل معقل الفتنة التي ترأسها درويش معتوه منذ حوالي عشر سنوات ، وجدنا أن هذه القرية الضخمة المكتظة بالسكان لم يتبق منها الا منطقة فسيحة من حقول القمح الخصبة ، وبعض الأكواخ الخربة ، ومجموعة من النخلات المفصولة الرؤوس . ونحن الآن نسير محاذين لحافة جبل الشيخ هريدى والذي يحده هنا حد غنى بالأرض الزراعية، تاركا هناك فراغا يتمثل في شريط من طريق بين حافة الجرف والنهر . ثم تأتي الريانة وهي قرية ضخمة مكونة من أبراج طينية مربعة ، عالية ومحاطة بالأسوار ، وخطوط تشبه السلاسل مكونة من الجرار المخصصة لمعيشة الحمام . وفيما بعد وصلنا الى جرجا التي كانت في يوم ما عاصمة لمصر الوسطى . ورسونا هناك لمدة تصف ساعة لارسال البريد والسؤال عن الخطابات الواردة . والنهر هنا سريع الجريان حتى انه كان يطغى على الضفتين ويهاجم المدينة كالعاصفة . ويقع فوق مكان الرسوة مسجد مخرب ، له عقود مدببة وأروقة غير مسقوفة وعمود منحني لابد أنه كان قد وقع على الأرض في تلك الفترة . ومنذ مائة عام مضت كانت تقع على بعد ربع ميل من النهر . كما كانت سليمة منذ عشر سنوات ، ولا بد أنها ستمحي بعد مرور عدة قبضانات قادمة . وحتى يأتي ذلك الوقت ستظل جرجا واحدة من أجمل المدن المصرية .

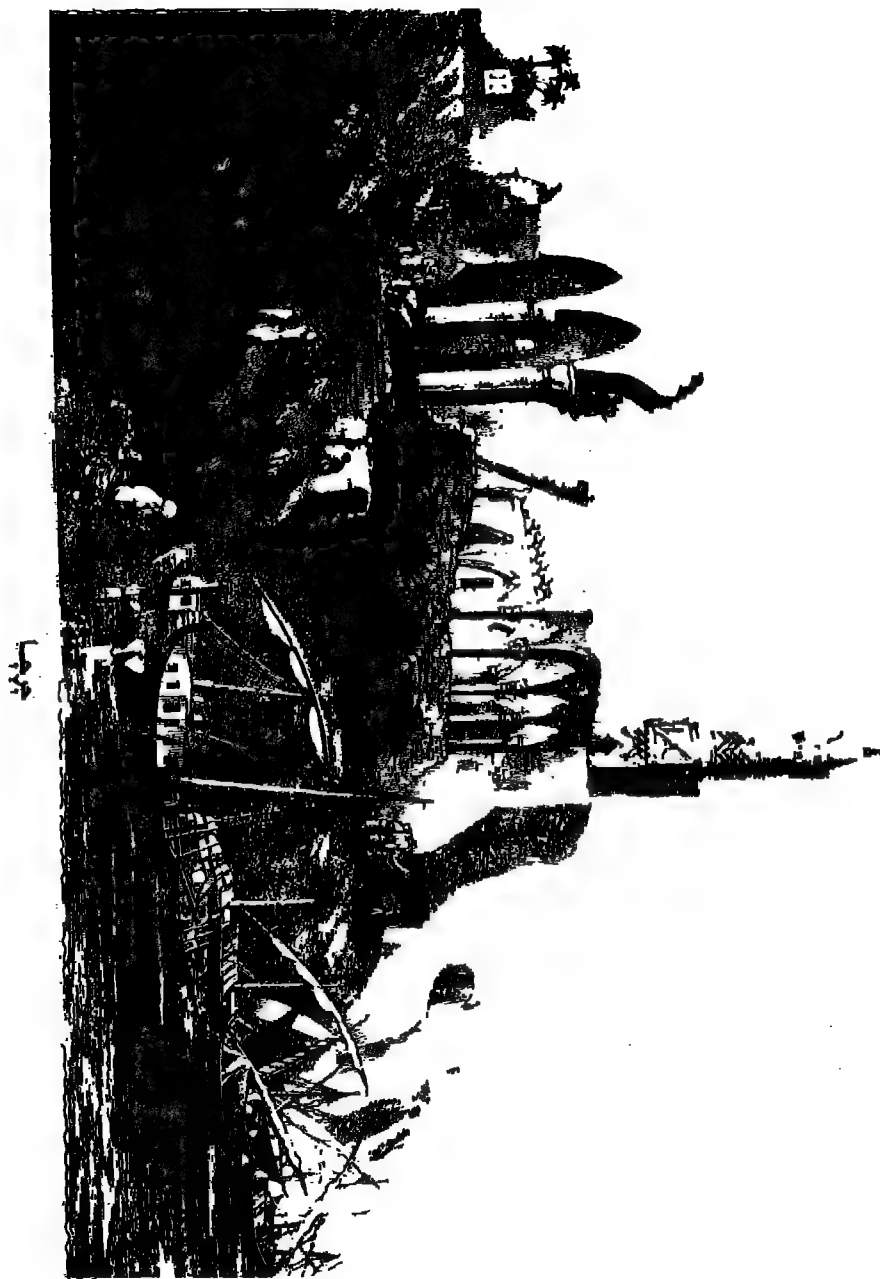
وفي فرشوط ، نرى مصانع السكر أثناء العمل ، والدخان يتدفق من المداخل الطويلة ، والبخار يخرج من فتحات شبكية في الطابق الذي

(١) ان هذا الشيخ حسب القصة التي أوردتها السيدة داف جوردون في رسائلها ، قد اكتسب سمعة رفيعة من حيث القداسة غير العادية لأنه كان يردد اسم الله ٣٠٠٠ مرة كل ليلة لمدة ثلاث سنوات ايمانًا منه بأنه بهذه الوسيلة قد جعل نفسه محصنًا . وعلى ذلك أعلن نفسه بأنه المهدي الذي سيقتل المسيح الدجال . وقد نشر العصيان بين أهالي القرى المجاورة لجبل الشيخ هريدى ، وحرص على مهاجمة ذهبية انجليزية ، وجلب على نفسه وعلى أهالي كل تلك الناحية الانتقام السريع من جهة الحكومة . وقد أرسلت المراكب الحربية بقيادة فضل باشا في النيل جنوبا ، وتم اطلاق الرصاص على الثائرين ، ونهبت القرى ، وصودرت المحاصيل والماشية . وتم توزيع نساء وأطفال المنطقة بين الكفور المجاورة . أما قاو التي كانت قرية ضخمة في حجم مدينة الأقصر فقد دمرت . أما حصير الدرويش فمازال غير معروف . وقد قال البعض أنه قتل رميا بالرصاص ، كما قال البعض الآخر انه هرب في الصحراء ودخل في حماية قبيلة من البدو .

أسفل الأرض (البديوم) ، وقوارب النقل تفرغ عيذان قصب السكر أمام الضفة بينما ينقله أعراب أقوياء الأجسام الى المصنع ، وتحمل العربات التي تجرها الثيران بقايا القصب لاستخدامها كوقود ، وهناك فى ساحل بهجورة المرتفع قليلا على الجانب المقابل للنهر ، نجد الضفة وقد تناثرت عليها آكوام من أعواد قصب السكر تصل الى مسافة ربع ميل . وهناك المئات من الجمال التي تأتى محملة به أو تعود لتجلبب المزيد منه . وتأتى العشرات من مراكب الشحن لاستقبالها . وتقوم حشود من الفلاحين بنقله الى سطحها لاعادة تفريقه فى فرشوط . وكانت الجمال ترعى وتزبد ، والرجال يتصايحون ، ورؤساء العمال بملابسهم ذات انحراف الزرقاء وعمائمهم البيضاء يتمشون فى غطرسه ذهابا وإيابا ، ويشرفون على العمل . وتراجع الجبال هنا بعيدا حتى تختفى عن الأنظار ، بينما يتسع السهل الغنى بزراعات القصب وأشجار النخيل فيما بين الجبال وبين مجرى النيل .

ويظهر جمال الضفتين الغنيتين بثروة غير عادية من الخضرة . وينتشر القمح للحديث الانبات على صفحة السهل مثل السجادة ، بينما تنتشر نباتات الست المستحية (الخجول) ذات الشرايب الصفراء ، وأشجار الطرفاء أو العبل التي تنتشر أوراقها مثل الريش ، ونخيل النوم والبلح وأشجار الجميز على حافة ممر سحب العربات مثل أشجار الحديقة المنزرعة على جوانب ممراتها .

وما زلنا نرى مع شدة الدهشة ما يبدو أنه فرد رمادى ضخم يجثم على قمة كوم ترابى على الضفة الغربية وذلك بعد أن تركنا خلفنا كل هذه الخضرة ، وبعد أن عادت الضفتان الى الاتساع والخلو من المزروعات ، وظهر هذا المخلوق هادئا ومستأنسا تماما وهو يجلس القرفصاء ، متخذا ذلك الوضع الذى يعبر عن الحزن والاحساس بالبرد ، والذى يتخذه الشبانزى فى قفصه بحدائق الحيوان . وهناك ستة أو ثمانية من الأعراب، كان أحدهم قد نزل عن جملة ، وتجمعوا حوله وأخذوا يحملقون فيه مثلما يتوقف الجمهور البريطانى ويحملق فى النموذج الموجود فى حديقة ريجنت بارك . وفى نفس الوقت تنفجر دهشة غريبة بين بحارتنا . انهم يتزاحمون على هذا الجانب ، ويتصايحون ، يستخدمون الحركات والاشارات باليدين للتعبير عن دهشتهم . ويرسل القبطان تحياته ، ويلوح عامل الدفة بيده ، وقد اتجهت عيون الجميع نحو الشاطئ .



ويصيح تلحمى وهو يندفع من اسفل مقطوع النفس : « هل ترين الشيخ سليم ؟ انه هناك ! انظري اليه ! هذا هو الشيخ سليم ! » .

واكتشفنا أنه لم يكن قردا ولكنه رجل ، ليس فقط رجلا بل شيخا مبروكا . يفيض بالقداسة ، وايضا القذارة ، أبيض الرأس ، وأبيض اللحية ، وذابل الجسم ، ومنحنيا ، ومتكورا . انه الشيخ سليم الذائع الصيت . وكان ذلك العريان الذى لا يعرف الاستحمام يجلس فى نفس الموقع يوميا تحت حر الصيف وبرد الشتاء على مدى السنوات الخمسين الأخيرة ، ولا يزود نفسه بالغذاء أو الماء ، ولا حتى يرفع يده الى فمه ، معتمدا على الاحسان ليس فقط لغذائه ، بل أيضا لمناولته الغذاء . وليس من المستحسن أن ننظر اليه حتى مع هذا الضمير الخافت ومن هذه المسافة ، ولكن البحارة يظنونه رائع الجمال ويطلبون بركاته بصوت مرتفع أثناء مرورنا بالقرب منه .

وكانوا يتصايحون : « معذرة يا أبانا ، اننا لم نتعدك بخاطرننا » . ثم يضيفون : « كم نود أن نقبل يدك ، ولكن الريح تهب والمركب تسير وليس فى مقدورنا البقاء ! » ولكن الشيخ سليم لا يرفع يده ، ولا يبدى اية علامة تدل على أنه سمع أصواتهم . وبعد دقائق قليلة ومع حلول الغسق ، تركنا خلفنا الكوم الترابى الذى يجلس عليه .

وعند المدينة الجديدة التى بنيت جزئيا على التلال القديمة التى أطلق عليها باللاتينية « ديوسبوليس بارفا Diospolis Parva ، رأينا المواطنين فى اليوم التالى ينقلون أحمال قوارب صغيرة من قوالب الزبالة القديمة الى الجانب الآخر من النهر بغرض تسميد تلك الحقول التى جمع منها محصول الذرة المبكرة . وبالإضافة الى ما أثاره ذلك من استغراب ، فإن الطين المتخلف عن الفيضان منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مضت ، يأتى فى النهاية لكى يستخدم فى الغرض الذى تحول من أجله لأنه أكثر خصوبة من الرواسب الجديدة . وعند قصر الصياد الأبعد قليلا ، وصلنا الى أحد المواقع الرديئة المشهورة وهو موضع من مجرى النهر مكتظ بالصخور الغارقة مما يجعل الملاحة عنده مستحيلة . وهنا قضى الرجال نصف يومهم فى دفع الذهبية فوق الجزء الخطير ، بينما مضينا بين التلال التى كانت فيما مضى تمثل المدينة القديمة التى أطلق عليها باللاتينية اسم « شينوبوسكيون Chenoboscion » . وهذه البقايا التى تغطى سطح منطقة واسعة وتتكون كلها من أساسات من الطوب الأحمر الخام ، ذات أهمية شديدة ومحفوظة فى حالة جيدة . وقد تتبعنا الرسوم

التخطيطية للعديد من المنازل والممرات التي تفصل بينها ، ولاحظنا العديد من العقود الصغيرة التي يبدو أن أبوابها ونوافذها قد أقيمت حسب مقياس رسم صغير جدا ، ولكن كان من الصعب التصرف بأي أسلوب آخر . وكانت أشجار العوسج والأعشاب الضارة تنمو في هذه الأراضي المهجورة ، بينما شقت تلال القمامة ، ومخلفات الحفر ، وأكوام الفخار المكسور ، وسط الخرائب وصعبت من مهمة الاستكشاف . ونظرنا في يأس الى رصيف الشحن المتداعى ، والكتل المنحوتة التي ذكرها ويلكنسون في كتابه المسمى : منظر عام لمصر General View of Egypt . ولكن لو استطاعت أحجار أساسات مصنع السكر الجديد المجاورة لموقع المرمى أن تتكلم ، فأنها كانت ستكشف السر بدون شك . ولم نر شيئا في الحقيقة لأن هذه المدينة القديمة لم تحتو على أية معالم خجرية ، ناهيك عن العريش المكسور لأحد الأعمدة الجرانيتية الصغيرة .



قصر الصياد

وكانت قرية قصر الصياد تتكون من مجموعة من الأكواخ الطينية ومصنع للسكر ، ولكن المصنع كان مغلقا في ذلك اليوم ، وبدت القرية نصف مهجورة . والمنظر هنا جميل على وجه الخصوص . وعلى بعد حوالي ميلين في اتجاه الجنوب ، تهبط الجبال نحو مجرى النهر بزوايا قائمة في تسلسل عظيم . ومن هناك تصل في تدريجات طويلة الى الرؤوس البحرية المنحدرة . أما السهل الذي ينتهى بحدة مقابل قاعدة هذا الحائل الضخم ، فانه ينفتح الى الخلف في اتجاه الشرق حتى يصل الى الأفق البعيد ، في شكل بحر فياض من الرمال المتوهجة محاطا في فوضى بأكوام من الاطلال على مسافة متوسطة ، أقربها جميعا مقدمة ضيقة من

التربة المزروعة ، ذات اللون الأخضر بسبب المحاصيل الحديثة الانبات
التي تروى بالشادوف ، والتي تمتد بطول ضفة النهر حتى قواعد الجبال .
ويظهر على الضفة قبر لأحد المشايخ تظله شجرة دوم منعزلة ، بينما نرى
وسط الرمال على البعد دير، قبليا له قباب عديدة ، ومقبرة مليئة بالقبور
المسيحية ، وواحة صغيرة من أشجار النخيل التي تعلن عن حلول فصل
الربيع .

ويتركز الاهتمام الرئيسى فى هذا المنظر وسط هذه الأطلال ، التي
تبدو من أعلى على مسافة قصيرة ، سوداء ومهجورة ونصف مدفونة ومعتمة
بين حين وآخر عندما تهب عليها الرياح مثيرة سحباً دائرية من الرمال ،
مما يجعلنا نتذكر القرى التي شاهدناها منذ أقل من عامين نصف مكتسحة ،
ومدخنة فى وسط سيل الحمم المتدفق من بركان فيزوف .

والآن يظهر القمر الكامل مرة أخرى فيجعل الليل أكثر اشراقاً من
النهار . واعتدنا ونحن جلوس على سطح المركب لعدة ساعات بعد مغيب
الشمس ، ومع انزلاق المركب فى رفق بشراع نصف ممتلئ بالهواء ،
وانصراف قوة الريح ، أن نتعجب مما اذا كان يوجد فى العالم كله مثل
هذا المناخ الذى يجعل ضوء القمر فى مثل هذا السحر ! ونقول ان كل
شئ سواء أكان بعيداً أم قريباً ، واضح كما لو كنا فى وقت النهار ،
ولكنه أكثر رقة بحيث لا نجد ما يمكن أن يقال . ولم يكن شكل القمر هو
الواضح فقط ، ولا الضوء والظل هما الظاهرين فقط ، بل أيضاً اللون
الذى كان حاضراً . لم يكن ضوءاً خافتاً ولا متغيراً ولكنه رقيق ولامع
وروحاني . أما البريق العنبري للجزيرة الرملية فى وسط النهر ،
والخضرة الهادئة لزراعات النخيل ، والقلنسوة ذات اللون الفيروزي التي
ترتديها السيدة الصغيرة ، هذه كلها كانت ظاهرة للعيان ، وحقيقية فى
الايقاع بشكل نسبي . وظهر البرتقال من خلال قضبان صندوق الشحن
مثل كرات من الذهب الخالص . ولمح شال السيدة (ل) القرمزي بصبغة
أدفاً مما يبدو عليه أثناء النهار . وكانت الجبال محمرة كما فى ضوء
الغروب . ولا أتذكر من كافة الظواهر الطبيعية التي صادفناها على مدار

الرحلة شيئا أكثر إثارة من ذلك • ولم نستطع أن نصدق في البداية أن ذلك لم يكن بعض تأثير نور الغسق ، أو بعض ألوان الشفق المبهرة التي تظهر في الشرق ، ولكن الشمس لم يكن لها تأثير على ذلك الاحمرار الذي فوق الجبال • لقد كان اللعان في الحجر ، بينما اقتصر دور ضوء القمر على كشف اللون المحلي فقط •

وكنّا نبحث بشوق عن تلال طيبة قبل ظهورها بعدة أيام • والآن وبعد مرور ليلة من الأبحار السريع ، استيقظنا ذات صباح لنجد الشمس تشرق على الجانب الآخر للمركب • وسكنت الريح المواجهة لنا بينما ظهرت سلسلة من مناظر القمم المتكسرة على يسارنا • ومن هذه العلامات عرفنا أننا وصلنا إلى انحناءة النهر الكبيرة التي تقع ما بين هاو وقنا ، وأن هذه الجبال الجديدة الأكثر اختلافاً في الشكل عن جبال مصر الوسطى ، لابد أن تكون هي الجبال التي تقف خلف دندرة • لقد ظهرت واقعة على الضفة الشرقية ولكن ذلك كان مجرد وهم لم تبرهن عليه الخريطة ، وإنما استمر فقط حتى أكملنا الدوران حول الركن الكبير • ولم يكن الدوران حول هذا الركن في مهب الرياح والتيارات المائية أمراً سهلاً ، ولكنه كلفنا يومين كاملين من السحب الشاق للمركب •

وعند نقطة تقع على بعد عشرة أميال جنوب دندرة رأينا عدة آلاف من الفلاحين يعملون على ضفتي ترعة جديدة وسط سحب من الرمال • وكانوا محتشدين على التلال كالنمل ، ووصلت إلينا همهمة أصواتهم عبر النهر مثل طنين جيش لا حصر له من النحل • وكان هناك آخرون يتدفقون على المسار بطول الضفة نحو موقع العمل في فيض لا ينقطع • كان لابد أن يصل عرض النهر في هذه البقعة إلى نصف ميل تقريباً • وكان من الممكن باستخدام المنظار تمييز المهندسين بملابسهم الأوربية بسهولة ، وملاحظي العمال بالعصى الطويلة التي في أيديهم • وبين النخلات التي على جانب النهر لمعت الخيام التي كان يعسكر فيها هؤلاء الموظفون أثناء مسار العمل باللون الأبيض • ولابد أن مثل هذه المناظر كانت عادية بما فيه الكفاية في الأزمنة القديمة عندما كان الفرعون المنتصر عائداً من

ليبيا أو أرض كوش وقد أجبر أسراه على اقامة صرح ، أو حفر بحيرة ، أو عمل منجم فى الجبل • ولابد أن الاسرائيليين الذين بنوا حوايط بيتوم ورعمسيس بقوالب الطوب التى كانوا يصنعونها ، قد ظهوروا حينذاك بمثل هذا المظهر تماما •

وهكذا كنا نشاهد حالة من السخرة لا يمكن الشك فيها • ولابد أن هؤلاء الذين يعدون بالآلاف قد سيقوا الى هناك فى جماعات تبلغ المئات من القرى البعيدة • ولم تكن حالتهم أفضل كثيرا من حالة الأسرى الذين ساقتهم جيوش الامبراطورية القديمة • ويبدو أن العامل فى جميع أحوال السخرة التى تجرى فى العهد الحالى ، ينال عن عمله الاجبارى الشاق أجرا ولكنه غير كاف ، وأن مدة تسخيره تستمر على مدى الفترة التى يستغرقها انجاز العمل الذى أجبر على أدائه • وفى بعض الحالات كانت فترة السخرة تقتصر على ثلاثة أو أربعة شهور يفترض أن يعود العمال فى نهايتها فوق صنادل تجرها سفينة سحب حكومية • وغالبا ما يحدث أن يترك هؤلاء التعساء ليعودوا حسبما يتيسر لهم ، مما دفع بالعديد من الأزواج والآباء الى قضاء نحبهم خلال الطريق ، أو دفعهم للخدمة فى احدى القرى البعيدة عن موطن اقامتهم • وفى نفس الوقت كانت زوجاتهم وأطفالهم الذين يحصلون على اعانة هزيلة من شيخ البلد ، يقعون فى براثن نوع من القنانة (عبودية الأرض) ، بينما تترك رقعة الأرض الصغيرة التى يمتلكها كل منهم دون حرث أثناء وقت البذور والحصاد ، ويمر عليها موسم الفيضان التالى وهى فى يد شخص غريب • وهناك جانب آخر لهذه المسألة الخاصة بالسخرة يتمثل فى ضرورة حصول مصر على الماء بأى ثمن ، لأنه اذا لم ترو الأرض ريا كافيا فان المحاصيل تحترق ويجوع أفراد الشعب • والآن ، فان استمرار حفر الترع كان يحتسب ضمن أولويات واجبات الحاكم المصرى منذ أول العصور ، ولكنه واجب لا يمكن أدائه بدون تعاون آلاف العمال سواء أرغبوا ذلك أم لم يرغبوا • وهؤلاء الذين يعرفون سلوك وطباع الفلاح يتصدون للمهمة اليائسة التى تدور حول البحث عنه للقيام بالعمل التطوعى الذى من هذا النوع • ان القناعة والصبر يجعلانه راضيا بحالته الراهنة ، ولذلك لا تستطيع

الوعود برفع أجره اغراءه بترك محل اقامته فى قريته ، ففيم تهمة احتياجات اقليم يبعد ستمائة أو سبعمائة ميل ؟ ان شادوفه يكفى متطلبات أرضه الصغيرة ، وما دام قادرا على زراعة محاصيله الثلاثة الصغيرة من الغلة كل عام فان عائلته لن تموت جوعا . اذن كيف يتم تنفيذ هذه المشروعات العامة الضرورية بدون الالتجاء الى وسيلة السخرة ؟ لقد وضع مسيو آبوت ملخصا بارعا لحوار هذا « الجانب الآخر » على لسان فلاحه النموذجي . يقول أحمد الرجل الفرنسى : « ليس الامبراطور هو الذى يجعل المطر يسقط على أراضيكم ولكنها الرياح الغربية . والنتيجة هي أن الفائدة التى تعود عليكم تفوق أية مشقة تبذلها فى العمل اليدوى ، أما فى مصر حيث لا يتجاوز عدد مرات سقوط المطر فى السنة ثلاث مرات فان الأمير هو الذى يحل محلها فيمدنا بالماء عن طريق توزيع مياه النيل . ولا يمكن انجاز ذلك الا اذا عمل الرجال بأيديهم ، ولذلك فمن الضرورى للجميع أن تكون أيدي الجميع تحت تصرفه » .

لقد اعتبرنا الهدوء الذى توفر لنا فى اليوم التالى عندما صرنا على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من دندرة لمحة من حسن الحظ . وظهرت أبيدوس أولا حسب ترتيب الخريطة ، ولكن المعابد تقع على بعد سبعة أو ثمانية أميال من مجرى النيل . ولما كنا فى ذلك الوقت نمضى بسرعة تقرب من عشرة أميال فى الساعة فقد أجلنا النزهة حتى عودتنا . وتقع الأطلال هنا فى موقع قريب نسبيا بحيث نستطيع الوصول اليها من الجنوب ، ونعود الى ذهبيتنا بعد الاتجاه نحو الشمال بأميال قليلة حتى نصل الى النهر . وعلى ذلك فقد تركنا الرئيس حسن يسحب النهبية ضد التيار ونزلنا فى أول نقطة مناسبة . ولما لم نجد حميرا أو مرشدين ، تركنا حرسا مكونا من ثلاثة أو أربعة بحارة ومضيينا سيرا على الأقدام .

الجزء



• وكان الطريق طويلا ، واليوم حارا ، ولم يكن لدينا وسيلة للاهتداء الى الطريق سوى الخريطة • وبعد أن تسلقنا الضفة المنحدرة وسرنا بمحاذاة مزرعة نخيل كثيفة وجدنا أنفسنا في منطقة ريفية ليست بها ممرات أو شوارع من أى نوع • وكانت التربة تتخذ شكلا مربعا كما هي العادة فظهرت مثل رقعة شطرنج ضخمة تعبرها مئات من قنوات المياه الصغيرة التي كان علينا أن نشق طريقنا خلالها بقدر ما نستطيع • وسرعان ما عبرنا آخر حلقة من تجمعات النخيل • وكان أمامنا السهل أخضر اللون بفعل زراعات القمح الحديثة ، كما كان سطحه مستويا مثل سطح البحيرة ، ويتسع حتى يصل الى قواعد الجبال • أما المبد الذي ظهر كجزيرة وسط هذا البحر من الزمرد المتفرق ، فقد انتصب أمامنا على منصة من التلال السوداء •

وكان لا يزال على بعد ميلين ، بادى الفخامة ، ظاهرا من على هذا البعد كبناية بيضاء ضخمة ، منخفضة البروز ، شديدة الوضوح • وكانت الحوائط مائلة الى الداخل قليلا في اتجاه القمة ، كما ظهرت الواجهة محمولة على ثمانية أعمدة مربعة مع مدخل ضخم فى الوسط • ولو كانت هناك نقوش بارزة أو أفريز أو أسطورة مصورة تثرى هذه الحوائط لما سمح لنا البعد عنها بالقدرة على تمييزها ، ولذلك ظهر المبد كله عاريا ورزينا بشكل عجيب • لقد ظهر كمقبرة أكثر منه معبدا •

ولم يكن المنظر المحيط أقل سكونا في موقعه المنعزل ، فلا توجد شجرة أو كوخ أو أى شكل من أشكال الحياة يكسر حدة اخضرار السهل الرتيب ، وتبرز الجبال خلفه وان كانت منفصلة عنه بمنطقة فراغ بعيد تشغله الأطلال التي ترتفع مثل التلال ، بلونها الوردى ، ورمالها اللامعة التي تتخذ شكل الأكوام فى جوف دعائمها المكشوفة وفراغات الظل الأزرق الناعم فى وهادها المغلفة بالسحاب ، حيث تنحسر السلسلة فينفتح للمنظر عن الصحراء اللامعة التي تصل الى الأفق اللبى •

ولما اقتربنا تدريجيا ، وصلنا خطوة خطوة الى جسر مرتفع كان من الواضح أنه يربط التلال بنقطة منخفضة بجانب مجرى النهر ، وأخذت تفاصيل المبد تظهر تدريجيا • ونستطيع الآن أن نرى منحى الأفريز ومنطقة الظل المحيطة به ، بالإضافة الى شئ صغير أمام الواجهة ظهر لأول وهلة مثل هيكل صخرى ضخم ، ثم كشف عن نفسه فإذا هو قائم فى مدخل ضخم من النوع المعروف بوصفه بوابة منفصلة • ومع اقترابنا أكثر ، أتينا الى أجزاء من أعمدة منحوتة ، وتمائيل مشوهة نصف مدفونة

فى الحشائش الغزيرة بين بعض التلال التى تقع فى الأطراف ، ثم ظهرت سلسلة من خزانات النترات الراكدة والمعامل المهجورة ، ثم أعمدة التلغراف والأسلاك التى تصل الى هنا على مسافات واسعة بطول حافة الصحراء ، وتنتهى فى اتجاه الجنوب حاملة الرسائل الى النوبة والسودان .

ومصر هى الأرض التى تنتج أملاح النترات التى توجد فى التلال التى بها الخام الأحمر ، أو أنقاض البنية الحجرية القديمة ، بالإضافة الى أن طمي النيل متشبع بها . وقد تعودنا أن نجدها فى رقائق كثيفة تشبه بودرة التلك على سطح الصخور التى يتجاوز ارتفاعها المستوى الحالى للفيضان . وقد قيل لنا ان هذه الخزانات التى كانت موجودة فى دندرة ردمت عند الحفر حول المعبد أيام سعيد باشا منذ أكثر من عشرين عاما . أما النترات التى وجدوها فقد استعملت بعيدا حيث غسلت وتبلورت فى الخزانات وتحولت فى المعامل المجاورة الى ملح البارود . أما أسلاك التلغراف فهى دخيلة منذ فترة قليلة ، أقامها الخديو الذى أراد بهذا البعد أن يجعلها فى الخفاء حتى لا تجذب مخازن ملح البارود الأنظار . وحتى يملأ الخزانات بالأنقاض . ولكن ماذا تستطيع فنون الحرب الحديثة أو عجائب العلم الحديث أن تفعل مع حثبور ، ربة الجمال والظلال الغريبة ، مربية حورس ، وأفروديت المصرية ، التى صار تقديس أحجار هذا الجبل . وكافة هذه القفار من أجل تكريمها ؟

وفى هذا الوقت أصبحنا على مسافة قريبة تسمح لنا بمعرفة أن تلك الدعائم المربعة التى تحمل الواجهة لم تكن مربعة ولا كانت دعائم ، ولكنها أعمدة ضخمة تنتهى برؤوس بشرية الهيئة ، وأن الحوائط لم تكن مسطحة على شكل المقابر ولكنها مغطاة بخليط لا نهائى من الأشكال المنحوتة . وأن البوابة الغنية بالنقوش البارزة مشوهة بآلاف من أعشاش الدبابير مثل مجموعات الفقاعات الطينية . وهى ترتفع الآن فوق رؤوسنا وتقودنا الى شارع محاط بالحوائط ، محفور مباشرة خلال التلال ، ومنحدر الى المدخل الرئيسى للمعبد .

ولم نعرف النسب العظيمة للبناء ، حتى وقفنا تحت هذه الأعمدة الضخمة ، ناظرين الى الأرض الممهدة تحتنا والافريز الضخم الذى يبرز الى أعلى مثل قمة موجة قادمة . أما ما ظهر لنا شاهقا على البعد فلم يكن الا وسط المعبد الذى جرى حفره ، والذى لم يظهر منه فوق مستوى التلال سوى ثلثى ارتفاعه الحقيقى . أما سطح الشارع فقد وصل ارتفاعه فى الجزء المنخفض منه الى عشرين قدما أعلى من سطح البهو الاول الكبير .

وكان علينا أن نهبط مدرج سلالم شديد الانحدار قبل أن نصل الى الأرضية الأصلية .

ان تأثير الرواق على الانسان عندما يقف عند قمة السلم يجعله يشعر بالجلال الفياض ، كما أن العرض والارتفاع وضخامة الأجزاء ، كلها تفوق في عظمتها كافة التوقعات التي توقعناها خلال الميلين اللذين تقدمناهما عند الاقتراب من المعبد ، ذلك لأن محيط الأعمدة الضخم ، والشبكات الضخمة التي تربطها ، والافريز الثقيل البارز فوق رؤوسنا ، كل ذلك يحير الخيال . ويظهر مع مقاييس الأبعاد (١) ربما أضخم مما هو عليه . وبالنظر الى أعلى نحو الاطوار الخشبي نرى نوعا من المواكب الاحتفالية المصرية التي تضم كهنة ومحاربين ، بعضهم يحمل الرايات والبعض الآخر يحمل الآلات الموسيقية . وقد رسمت الكرة المجنحة بمقياس رسم ضخم على انحناءة الافريز بحيث تظهر وكأنها تحوم فوق المدخل الرئيسي ، أما الكتابة الهيروغليفية والشعارات والأشكال الغريبة للملوك والملكات فهي تغطي كل قدم على الحائط والافريز والعمود ، ولا تنحو هذه الثروة من النقوش نحو الاقلال من الاحساس الشامل بالضخامة ، بل انها على العكس تبدو كما لو كانت الزخرفة المعقدة في تلك اللحظة هي المكمل الطبيعي للبساطة في الشكل ، حيث تظهر ضرورة وجود كل مجموعة ، وكل نقش ، وأنه قد وضع في مكانه الصحيح كجزء ضروري في البناء الذي يزينه . ومعظم هذه التفاصيل سليم ، كما كان يوم أن تركه آخر العمال الذين كانوا يعملون فيه بعد أن صرح المهندس المعماري بأن تصميمه قد تم تنفيذه . أما مرور الزمن فلم يشوه سطح الحجر ولم يחדش عمل الازميل .

أما تلك الاصابات التي شاهدهاها فهي من عمل الانسان . ولا يوجد قطر آخر عملت به يد الانسان ما عملت ، سواء في البناء أو الهدم أكثر مما عملت بمصر . لقد ألقي الفرس بالتحف الفرعونية ، وشوه الأقباط معابد البطالمة والقيصرية . أما العرب فقد نزعوا الطبقة الخارجية للأهرام ، ونقلوا منف من موقعها على فترات غير منتظمة . وعندنا هنا في دندرة نموذج للعمل الاغريقي المصري المشترك ، والتعصب المسيحي

(١) يذكر سير ج . ويلكنسون أن الطول الاجمالي للمعبد هو ٩٣ خطوة أو ٢٢٠ قدما ، بينما يصل عرض الرواق الى ٥٠ خطوة . أما موراي فلا يذكر أية أبعاد . وكذلك مارييت بك في الدليل الصغير الممتع الذي نشره ، ولم يتعرض لذلك فرجسون أو شامبليون أو أي كاتب آخر من الذين رجعت الى كتاباتهم .

المبكر . لقد بدأ بناء هذا المعبد فى أيام بطلميوس الحادى عشر (١) بينما يحمل على خراطيشه البيضية المتسأخرة اسم وصفة نيرون . وقد كان الصرح الحالى جديدا نسبيا سنة ٣٧٩م عندما قضى مرسوم ثيودوسيوس على الديانة القديمة . وهكذا فان معبد دندرة هو أضخم وأقدم هذه المعابد الضخمة التى بنيت أثناء أكثر فترات الحكم الأجنبى ازدهارا خلال السبعمئة عام الأخيرة ، وهو محاط بأشجار النخيل والأكاسيا فى حرم منطقة واسعة ما زالت واضحة المعالم ، يبلغ طول حوائطها ١٠٠٠ قدم وارتفاعها ٣٥ قدما وسمكها ١٥ قدما . وهناك مضمار مدفون حاليا تحت عشرين قدما من الأنقاض ، ويصل من البوابة الى الرواق . وما زالت البوابة هناك وقد خربت جزئيا . ولكن المعبد بسقفه ، مع مدرجات السلالم وسرايب الكنوز السرية ما زال كاملا من كافة الوجوه كما كان فى اليوم الذى تجاوزت فيه عظمتة أفعال المخربين .

ويستطيع الانسان أن يتخيل بسهولة كيف أن هؤلاء المخربين سلبوا وخرّبوا كل ما قابلهم ، وكيف انتهكوا حرمة الأماكن التى قدسها المصريون القدماء وقلبوا تماثيل الآلهة وقسموا كنوز الهيكل . والحقيقة هى أنهم

(١) لقد وجدت أسماء الإباطرة أغسطس وكاليجولا وطيباريوس ودوميشيان وكلوديوس ، نيرون فى الخراطيش الملكية . وكانت أقدمها خراطيش بطلميوس الحادى عشر مؤسس هذا الصرح الذى أعيد بناؤه فى مكان سلسلة المباني الأقدم التى يعود تاريخ أقدمها الى عصر الملك خوفو باني الهرم الأكبر . وهذه الحقيقة التى مازالت أكثر الحقائق أهمية ، تبين ان البناء الأقدم فى الجميع ينتسب الى فترة أتباع حورس Horshesu . الفترة التى لا يمكن تصديقها . (المقصود بأتباع حورس صغار الرؤساء أو الأمراء الذين حكموا أقاليم مصر قبل تأسيس الحكومة الملكية الأولى) وهى مدونة فى النقش المعروف التالى والذى اكتشفه مارييت فى أحد السرايب التى انشئت داخل جسم حائط المعبد الحالى .

ويشير النص الأول الى بعض الأعياد التى كانت تقام للاحتفال بالبقرة حتحور ، ويذكر أن كافة الطقوس المعتمدة قد أداها الملك تحوتمس الثالث (من الأسرة الثامنة عشرة) « اخفاء لتكرى والدته حتحور ربة دندرة ووضعوا القواعد الأساسية العظيمة لمعبد دندرة بالكتابة القديمة ، مدونة على جلد الماعز فى عصر أتباع حورس . وقد وجدت هذه الكتابة فى داخل حائط مبنى من الطرب الأحمر يعود الى عصر الملك بيبى (من الأسرة السادسة) » . ووجد فى نفس السرداب نقش آخر أكثر اختصارا يقول : « القاعدة الأساسية العظيمة لمعبد دندرة ، والتجديدات التى عملها تحوتمس الثالث حسب ما وجد فى الكتابة القديمة التى تعود الى عصر الملك خوفو » . وهنا يدون مارييت ملحوظة تقول : « ان فليس معبد دندرة أحدث المباني فى مصر الا فيما يختص بأقامته على يد أحد الأمراء المتأخرين الذى ضاع أصله فى ليل الزمان » . انظر فى ذلك كتابه : Denderah description Générale الفصل الأول ، ص ٥٥ - ٥٦ .

لم يقتربوا مثل هذا التخريب الواسع النطاق الذى قام به الغزاة الفرس منذ تسعمائة عام ، ولكنهم كانوا محطمين للقيم المتوارثة بدون رحمة ، وأزالوا معالم وجه كل تمثال وقع فى متناول أيديهم سواء أكان داخل أم خارج المعبد .

ومن بين المناظر التى أفلتت من التشويه منظر كليوباترا البارز المشهور والمنقوش على ظهر المعبد . وقد تكسدت حوله النفايات التى حفظته ولكنها حرمت السياح من مشاهدته . وكان قد تم تصويره منذ عدة سنوات بمعرفة السنيور بيتى وطبعت هذه الصورة فى الملحق الخاص بالعمد .



كليوباترا

وتظهر كليوباترة هنا وهي تضع غطاء للرأس يجمع بين صفات ثلاثة من الآلهة هي نسر موت (الذى صورت رأسه بطريقة بارعة) وقرص حتحور ذى القرنين ، وعرش ايزيس . أما الكتلة المتدلية تحت غطاء الرأس فهي تبين الشعر المستعار على الطريقة المصرية ممثلا في عدد لا يحصى من الصفات الرفيعة التي تنتهي كل منها بطرف معدني للزينة . وما زالت نساء مصر واثنوبة يرسلن شعورهن بمثل هذه الطريقة حتى اليوم ولا يجدلنه . وكما أشعر بالأسف وأنا أقول اننى رأيت أكثر من مرة كل ثمانية أو عشرة أسابيع ، أن الفتيات النوبيات يربطن كل جديدة منفصلة بقطعة من طمى النيل مطلية بصلصال أصفر (*) . ولكن من المحتمل أن جدائل كليوباترة الحريرية كانت تطل أطرافها بشمع أو صمغ ذهبي اللون .

ومن الصعب معرفة أين تنتهى نقوش الزينة لكى يبدأ فن رسم الأشخاص في عمل ينتمى الى هذه الحقبة . ونحن غير متأكدين من أن المقصود كان رسم شخص بالرغم من أن مقدمة الخرطوش الملكى الذى كتبت فيه كلمة كليوباترة بكل علامات النطق كاملة ، يشير الى هذه النقطة . ولو كان الرسم يعنى شخصا لاحتاج الى مراعاة المساحة اللازمة للمعالجة التقليدية . ان ملامح الوجه المكتنز والابتسامة المغتصبة صفتان عاديتان في كل رأس انسانى ينتمى الى العصر البطلمى . والأذن أيضا عمل نمطى ورسم الشكل سخييف . وبصرف النظر عن التكلف فان الوجه لا يحتاج الى الوجود المستقل ولا الى الجمال . واذا غطيت الفم فستجد أمامك رسما جانبيا للوجه خاليا من العيوب . أما الذقن والحلق فيمتاز كل منهما بالجمال التام ، بينما يعبر الوجه كله عن الايحاء بالقسوة ، والدهاء ، والاثارة الجنسية ، مع الاحساس الغامض ليس فقط بفن رسم الأشخاص بل أيضا بالتشابه .

ولابد أن يشعر الانسان بشيء يشبه الصدمة عندما يرى لأول مرة العمل التخريبي غير الظاهر على الأعمدة المزينة برأس الالهة حتحور تلك التي تحمل واجهة معبد دندرة . فهناك الثنيات الكثيفة لغطاء الرأس ، وهناك الأذنان المنتصبتان والمدببتان مثل أذنى البقرة ، ولكن لم تتبق أية واحدة من الملامح الرحيمة لوجه الالهة . ويصف أمير هذه الأعمدة فى أحد خطاباتاته من مصر قائلا عنها انها ما زالت « تتألق بالوانها التي لم يقدر الزمن على طمسها » . ولابد أن الزمن كان مشغولا خلال الثلاثين

(*) المقصود هنا هو الحنة - (المراجع) .

عاما التى مضت منذ ذلك التاريخ لأنه رغم أننا حاليا نجد حالات عديدة من ألوان الرسوم المنحوتة فى الحجرات الداخلية الصغيرة فأننى لا أتذكر أننى لاحظت أية بقايا من الألوان (فيما عدا اثرا باهتا للصبصال الأصفر هنا وهناك) على الزخارف الخارجية .

وبدون كل هذا الضوء المشرق القادم من الشمس مع الفخامة والصمت وكل الأسرار ، قابلتنا عند العتبة رائحة ثقيله تشبه رائحة الموت منبعنة من الغازات التى طال احتباسها . واستطعنا بمساعدة الضوء الضعيف الذى ضل طريقه خلال الرواق أن نرى ملامح باهتة لغاية من الأعمدة التى ترتفع من الظلام السفلى وتضمحل فى الظلام العلوى . وظهرت خلفها مرة أخرى مشاهد بعيدة لبعض القاعات المتوالية التى تضيء فى ظلام لا يمكن اختراقه . ولم نكن نحتاج الى شجاعة عظيمة للنزول من هذه السلالم واكتشاف هذه الأعماق مع مجموعة من السياح المرافقين ، ولكن المكان كان مخيفا بالنسبة لمن يغامر بزيارته وحده .

ويكشف الرواق عند النظر من الداخل عن قاعة ضخمة يبلغ ارتفاعها خمسين قدما ، ومحمولة على أربعة وعشرين عمودا تحمل رؤوس الالهة حتحور . وقد ربطت ستة من هذه الأعمدة بالحاجز عن طريق جزء من النواحية ، وهى نفس الأعمدة التى نراها من الخارج . وبعد أن تعودت أعيننا على ضوء الغسق تدريجيا رأينا عمودا هنا وعمودا هناك ما زالت جميعها تحفظ التشابه الغامض فى نقوش وجه نسائى ضخمة ، بينما ظهرت على كل حائط أو عمود أو مدخل ، تشكيلة غريبة لأشخاص يظهر برؤوس صقور أو عجول أو أبقار ، أو رؤوس متوجة أو ريش الطيور ، وقد رفعوا عاليا شعارات غريبة وهم جلوس على العروش ، يؤدون شعارات سرية ، ويظهرون كما لو كانوا يبعثون من أماكنهم مثل الأحياء . وبالنظر الى السقف الذى صار أسود اللون ومشوها بفعل الدخان ، اكتشفنا رسوما مزخرفة لجعارين ، وكرات مجنحة ، وشعارات فلكية تفصل بينها حواجز تنتمى الى النوعيات الاغريقية المعقدة ، ملونة بألوان خضراء وبنية . وتغطى عوارض الأعمدة الضخمة من القمة الى القاعدة مجاميع من النقوش الهيرودغليفيه التى تمثل خراطيش ملكية ، ورؤوس الالهة حتحور ، وصقور متوجة ، ووحوش خرافية (*) ، وآلهة ، وملوك وكلها بالنقش البارز .

(*) هذا الوحش الخرافى يطلق عليه الاغريق اسم شيميرا chimera ، وهو عبارة عن كائن له رأس اسد وجسم عنزة وذيل افعى ويطلق النار من فمه - (المترجم) .

وحتى هنا نجد أن كل رأس بشريه أمكن الوصول اليها مهما كانت صغيرة الحجم ، قد تعرضت للتشويه الشديد .

ومع الارتباك الذي اعترانا عند النظرة الأولى لهذه النقوش العديدة والسرية ، أخذنا نتجول ونمضي من القاعة الأولى الى الثانية ومن الثانية الى الثالثة ، وكل خطوة نقودنا الى ظلام أشد عمقا . وكنا نقرأ عن هذه الآلهة والشعارات منذ عدة أسابيع مضت ، أما الآن ونحن هنا بالفعل فقد وجدنا أن المعلومات التي أخذناها من الكتب لا تساوى شيئا ، وشعرنا بجهلنا كما لو كنا قد هبطنا فجأة على عالم جديد . ولم نفتح خريطة المعبد أو نبدأ في معرفة معاني النقوش التي تحيط بنا ، الا بعد أن أحطنا بهذا الانطباع الأول الذي أربكنا ، وبعد أن استرحنا قليلا على قاعدة أحد الأعمدة .

لقد كانت طقوس العبادة المصرية القديمة تتضمن بالضرورة المواكب الاحتفالية . وهنا نجد الفكرة الأساسية لكل معبد ، ومفتاح بنائه ، فهو يتضمن حجرات مخازن تحفظ فيها الملابس والأدوات والشعارات المقدسة وما يشابه ذلك ، ومعامل لتحضير العطور والدهانات ، وخزائن لحفظ الأواني المقدسة والتقدمات الثمينة وحجرات لاستلام وتنقية القرايين بأنواعها ، وصلالات لتجميع وحشد الكهنة والموظفين وأغراض تكوين المواكب ، وممرات وسلالم وأحواش وأروقة مسقوفة وأفنية ضخمة مزروعة بالأشجار على الصفيين ، ومحاطة بحوائط تحوطها السرية التي تصون خصوصية الكهنوت .

ولا يوجد في هذا التصميم كما نراه ، مكان لأي شيء يتخذ شكل العبادة الجماعية ، ولذلك فإن المعبد المصري لم يكن مكانا للعبادة الجماعية . لقد كان مخزنا للكنوز ، والأواني ، وهيكل ملكيا خصوصيا ، ومكانا لتحضير ، والتكريس ، والأسرار الكهنوتية ، ففيه تقيم التماثيل المقدسة على عروش ثمينة حيث يلبسونها الملابس أو يخلعونها عنها ، ويعطرونها بالبخور ، ويزورها الملك للعبادة في أيام عظيمة محددة على مدار التقويم السنوي مثل مناسبة بداية العام الجديد أو تعظيم الآلهة المحلية حيث يتم اخراج هذه التماثيل وتجميعها في ممرات المعبد ، ثم تحمل في دورات حول القاعة بين تلويحات الرايات ، وانشاد التراتيل ، واحراق البخور خلال ممرات الفناء . ومن المحتمل أنه لم يكن يسمح لأحد بحضور هذه الاحتفالات سوى الذين ينتسبون الى الأصول الملكية أو الكهنوتية . أما بالنسبة لبقية الشعب فقد كان كل ذلك الذي يحدث

بين الجدران الشاهقة مغلفا بالسرية • ولا بد من السؤال عما اذا كانت للجموع الغفيرة من الشعب أية عقيدة دينية ؟ من المحتمل أنهم لم يكونوا محرومين من دخول حرم المعبد ، ولكن يبدو أنه لم يسمح لهم بالمشاركة فى عبادة الآلهة • وان كان يسمح لهم بين الحين والآخر فى أيام الأعياد الكبيرة بمشاهدة الصيحات المقدسة حول الاله المحمول فى موكب يدور حول الفناء ، أو يلقون نظرة سريعة على الأشخاص الذين يتحركون والشعارات البراقة فى الظلام المحاط بالأعمدة فى القاعة السفلية • هذا هو كل ما كانوا يشاهدونه من العبادة الوقورة التى تتم فى معبدهم •

ويتكون معبد دندرة من رواق ، وصالة المدخل ، وصالة الاجتماع ، وصالة ثالثة يمكن أن يطلق عليها اسم صالة المراكب المقدسة ، وهيكلا أرضى صغير • ويتضمن أعلى المعبد عشرين حجرة جانبية مختلفة الأحجام ومعظمها مظلم تماما • وتحمل كل واحدة من هذه الصالات والحجرات سجل استخداماتها المحفور • فهناك مئات من اللوحات البارزة ، والنقوش الهيروغليفية المعقدة التى تغطى كل قدم من الفراغ المتاح على الحوائط والأسقف الخارجية والداخلية والمدخل والأعمدة ، ومكعبات البطانة التى تبطن الممرات والسلالم • وتتضمن هذه النصوص الشئنة الكثير من القطع السحرية والملمة ، وهى ثروة غير عادية من التاريخ غير المباشر • فهنا نجد برامج الشعائر الاحتفالية ، وأساطير الآلهة التى لا تحصى ، وسير الملوك مع ألقابهم العديدة ، وسجلات الموازين والمقاييس ، وبيانات التقدمات ، ووصفات تجهيز الزيوت والروائح العطرية ، وسجلات بالاصلاحات والتجديدات التى أجريت للمعبد ، وقوائم جغرافية بالمدن والأقاليم ، وقوائم جرد الخزائن ، وما شابه ذلك • وتحتوى قاعة الأساطين على تقويم بالأعياد ، وتبين بدقة متناهية الاتاوات التى تقدم عن كل مناسبة تتكرر • ونجد على سقف الرواق خريطة البروج الفلكية ، كما نجد على حوائط معبد صغير فوق السقف ، التاريخ الكامل لبعث أوزوريس ، مع نظام الصلوات خلال ساعات الليل الاثنى عشرة ، وتقويم بأعياد أوزوريس فى كافة المدن الرئيسية بمصر العليا ومصر السفلى • ومنذ سبعين عاما مضت كانت هذه النقوش تسبب الارتباك واليأس لدى العلماء ، ولكن منذ أن توصل العلم الحديث الى فهم أسرارها أصبح المعبد

مكتشوفاً أمامنا مثل كتاب مفتوح يفيض بالأمور الغريبة والطريفة وغير المتجانسة . انه كتاب يتضمن مجموعة الشرائع والتقاليد ولكنه مدون على الأحجار المنقوشة (١) .

ومع هذه المساعدة التي يقدمها دليل مارييت يستطيع الانسان أن يستخرج معظم هذه الأشياء الغريبة ، ويحدد استخدامات كل صالة وكل غرفة في المبنى كله . والملك بدوره المزدوج كفرعون ورئيس للكهنة ، هو بطل كل منظر محفور . وهو يرتدى أحياناً التاج المشطوف الطرف لمصر السفلى ، وأحياناً أخرى التاج الذي يشسبه الخوذة الخاص بمصر العليا . وأحياناً ثالثة يرتدى التاج المزدوج الذي يجمع بين التاجين ويسمى « بشمنت Pschent » . وهو يظهر في كل لوحة ، ويرأس كل موكب . وأبتداءً من النقوش التي في الرواق نراه قادماً تتبعه الرايات الملكية الخمس ، مرتدياً رداء الطويل ، وصندلاً في قدميه ، وممسكاً بعكازه في يده . وتستقبله عند الباب الهتان تقودانه الى حضرة الاله تحوت ، والاله أبيس الذي يحمل رأس العجل ، والاله حورس الذي يحمل رأس الصقر وهو الذي يصب عليه سيلاً مزدوجاً من مياه الحياة . وبعد أن يتطهر ، تقوم الهات مصر العليا ومصر السفلى بتتويجه ثم يرسلنه الى الالهة المحلية التي تعبد في طيبة وهليوبوليس وهي التي تقوده الى حضرة الالهة حتحور . وحينئذ يقدم قرابين مختلفة ، ويتلو صلوات معينة ، وهنا تمنحه الالهة وعوداً بطول العمر ودوام السمعة الطيبة وأشياء أخرى طيبة . وبعد ذلك نراه دائماً بنفس الابتسامة ، ودائماً في نفس الموقف يقبل الولاء لأوزوريس وحورس وغيرهما من الآلهة . ويهدي اليهم الأزهار والنبيل والخبز والبخور ، بينما هم يمنحونه الوعد بالحياة والسعادة والحصاد الوفير والنصر وحب الشعب ، وتكرر هذه العبارات اللطيفة من رؤساء البعثات الدبلوماسية مع نماذج التملق الأنيقة ، مرات ومرات في مجموعات من اللوحات الهيروغليفية . وعلى كل حال فان مارييت يرى فيها شيئاً أكبر من لغة البلاط المطعمة بلغة السلطة . انه يتوصل الى لغة التدريس ، ويكتشف في التعبيرات التي تقدم الى الملك والآلهة انعكاسات

(١) انظر كتاب مارييت وعنوانه دندرة Denderah الذي يحتوى على هذه النقوش التي لا تحصى في ١٦٦ لوحة وايضاً مجموعة من النقوش التي في كتاب بروجش ودوميش وعنوانه :

Recueil de Monuments Egyptiens , Geographische Inschriften,
1862-3-5-6.

هذه العبادة القديمة التي تقدس الجمال والخير والصدق ، تلك الصفات التي تميز تعاليم المتحف الاسكندري (١) .

وبعد المرور من الرواق الى صالة الاجتماع ، ندخل الى منطقة من الغروب الساكن ، وبعدها يصبح كل شئ مظلماً . ولا نستطيع أن نرى شيئاً في الحجرات حيث الحرارة الشديدة والجو الحاقق ، الا بمساعدة الشموع المشتعلة ، ويبلغ طول هذه الحجرات حوالى عشرين قدماً وهي منعزلة مثل زنايات السجون ومظلمة تماماً . أما النقوش التي تغطي حوائطها فهي عديدة مثل تلك التي في الصالات الخارجية وتبين في كل لحظة الغرض الذي صممت الحجرة لأجله . وعلى ذلك فاننا نجد في المعامل نقوشاً بارزة لقوارير وزهريات ، وأشخاصا يحملون زجاجات العطور ذات الشكل المعتاد ، في حجرات القرايين ، مع التقدّمات التي تشمل أزهار اللوتس ، وحزم القمح ، وكيزان الذرة ، والرمان ، وفي هياكل ايزيس وآمون وسخمت ، نجد تماثيل لهذه الآلهة وهي متوجة وتتقبل من الملك فروض الطاعة والولاء ، بينما يظهر كل من الملك والملكة في الخزانة وكل منهما يحمل هدايا مكونة من صناديق المجوهرات والعقود والصدريات والصنوج وما شابه ذلك . ويبدو أن محطى النقوش لم يجدوا وقتاً يضيعونه في هذه الزنايات المظلمة ، لأن الوجوه والأشكال هنا غير مشوهة ، كما أن الألوان بقيت في بعض الأماكن محفوظة بشكل ممتاز . وعلى سبيل المثال نجد أن وجوه الالهات ملونة باللون الأصفر الخفيف ، أما جسم الملك فهو أحمر داكن وجسم آمون أزرق اللون ، بينما ترتدى ايزيس رداءً ثميناً من طراز اللون الهندي ، أما أشكال سخمت فهي ترتدى

(١) ان حتحور مسكن حورس لا تمثل فقط الهة الجمال (أفروديت) التي عبدتها مصر القديمة ، ولكنها تلميذة عين الشمس . انها الهة ذلك الكوكب الكريم الذي يبشر شروقه بارسال مياه الفيضان . وهي تمثل الشباب الدائم للطبيعة ، والتجسيد المباشر للجمال ، وهي أيضاً الهة الحقيقة .

ويقول الملك في أحد النقوش التي في الهيكل المخصص للصلاصل (الآلات التي تستخدم في الموسيقى : « اننى اقدم لك الحقيقة يا الهة دنندرة ، لان الحقيقة هي عملي ، وأنت نفسك هي الحقيقة » . وأخيراً فان شعارها هو الصلاصل وعن المقروض أن صوت الصلاصل كما ذكر بلوتارخ يزعج ويطرد تيفون (رمز الشر) كما كان رنين اجراس الكنائس في العصور الوسطى يفرح بعلزبول وجنوده . ومن وجهة النظر هذه تصبح الصلاصل رمزاً لانتصار الخير على الشر . ويشير هاربيت في تحليله لآخارف ونقوش هذا المعبد الى أن بناته قد تأثروا بفلسفة ذلك العصر وكيف أخفوا الافلاطونية الاسكندرانية تحت رمزية العبادة القديمة . والحقيقة أن حتحور دنندرة كانت تعبد بمفهوم غير معروف قبل العصر البطلمي .

ثوباً متعدد الألوان ملفوفاً حول جسمها • أما آمون فهو متشجع برداء أحمر
 وعدة حربية خضراء • أما الأجزاء السفلى من ملابس الآلهات (النقاب) فهي
 قصيرة بشكل لا يمكن إخفاؤه ، ولكنها غنية بالمجوهرات ، أما أعظية
 رؤوسها وعقودها وأساورها فهي مغطاة بالتفاصيل الدقيقة ذات الأهمية •
 ونرى في أحد الهياكل الأربعة المخصصة للالهة سخمت ، الملك مرسومًا
 وهو يقدم صدرية ثمينة وذات تصميم رشيق • ولو وجدت الكتابة الوقت
 والضوء اللازمين لكانت قد قامت برسمها •

ويقع هيكل حتحور في الحجرة الوسطى في طرف المعبد في مواجهة
 المدخل الرئيسي تماما • وهذه الحجرة المظلمة التي لم يدخلها شعاع
 الشمس مطلقاً ، تحتوي على المقصورة المقدسة ، و قدس الأقداس حيث
 كانت تحفظ الصلاصيل الذهبية الخاصة بالالهة • وكان الملك هو الشخص
 الوحيد الذي يملك امتياز اخراج ذلك الشعاع السرى • وبعد أن يقوم
 بذلك يضعه في ناووس ثمين يغطيه بستارة كثيفة ويضعه في أحد القوارب
 المقدسة التي نجد صورها منقوشة على حوائط القاعة التي تحفظ بها •
 وكان المقصود أن ترفع هذه القوارب المصنوعة من خشب الارز والذهب
 والفضة على أعمدة مطروقة ثم تحمل على أكتاف الكهنة في المواكب
 الاحتفالية • وما زال الناووس هناك ، وهو عبارة عن فراغ في الحائط يبلغ
 حجمه حوالى ثلاثة أقدام مربعة ويرتفع عن الأرض بحوالى ثمانية أقدام •
 وقمنا على ضوء الشموع بالدوران حول هذه الحجرات الخارجية • وكنا
 نجد في كل مدخل - بالإضافة الى المكان المحفور لأجل المزلاج - تقباً دائرياً
 مجوفاً من أعلى ومحفوراً من أسفل على شكل ربع محيط الدائرة حيث كان
 البسبب يدور على محوره في ماضى الزمان • أما الأرضيات الممهدة والتي
 قلبها الباحثون عن الكنوز فهي مملوءة بثقوب الخيانة التي أحدثوها وكتل
 من الأحجار المحطمة • أما السقوف فهي مرتفعة جداً • ويهيمن الظلام
 على الممرات • وكل شيء خلف هذه الأعتاب غارق في الظلام • وكان الشيء
 الوحيد الذى نستطيع أن نعمله ونحن نسرع خطانا في ضوء الشموع
 هو الاحساس بالاحباط بسبب غرابة وهول المكان • كنا نتحدث بأنفاس
 مقطوعة ، كما أن الأعراب المراقبين لنا المعروفين بكثرة الكلام قد لاذوا
 بالصمت • أما الهراء المحيط فيبدو من راحته أنه قد احتبس هنا على
 مدى عدة قرون •

وأخيراً فاننا نتسلق السلم الذى فى الجانب الشمالى للمعبد لكى
 نصل الى السقف • ولم نر شيئاً يثير الدهشة والبهجة مثل هذا السلم •

وكنّا نحاول هنا أن نتتبع بالترتيب كافة الاستعدادات التي تتخذ لإقامة احتفال ديني عظيم . لقد رأينا الملك يدخل المعبد ، ويمر بإجراءات التطهير الرمزية ، ويتسلم التاج المزدوج ، ويتلو صلواته أمام كل معبود بالترتيب . وتبعناه الى داخل المعامل والهيكل وقدم الأقداس . وحتى هذه اللحظة فإن كل ما قام به ليس إلا إجراءات أولية . ويأتى الآن دور الموكب وها هو قادم نحونا . ونرى هنا النقوش المحفورة على حوائط ذلك السلم وهى تمثل احتفال تتويج العبادة المصرية وهى تمر أمامنا بكافة تفاصيلها . وهنا نشاهد حاملي الرايات ، والكهنة حاملي القرابين ، ثم الكهنة الذين يؤدون الطقوس ، وكل الموكب الطويل العجيب والملك يسير فى مقدمته . وهم جميعا فى أحسن مظهر ودون أية خدوش كما لو كانوا قد خرجوا لتوهم من تحت يد النحات - كل فى الحالة التى تعود أن يعيشها ، وكل منهم قد وضع قدمه على السلم ، صاعدا معنا أثناء صعودنا وسائرا بجانبنا فى كل الطريق . أوضاعهم طبيعية ، وأشكالهم واضحة الملامح بحيث يتخيلهم المشاهد وكأنهم يتحركون أثناء تذبذب ضوء الشمعة فوقهم . ومن المؤكد أن هناك ليلة موحشة فى السنة يخرجون فيها من مواضعهم ويرددون البيت الثانى من ترنياتهم ، ويتقدم السقف فى ترتيب روحى مع صوت الآلات الموسيقية الطويل السكون ، وصوت الانشاد الطويل الصمت !

وقد غربت الشمس الآن ، وبهت اللون القرمزى بينما كنا نتقدم على هذا الممر الكبير . أما أحجار السقف فهى ضخمة ، ونحن نمضى بخطوات واسعة ذهابا وجيئة فوق الحجارة الأضخم منها . وقد وجد رجلنا الكسول أن العديد منها يبلغ طوله سبع خطوات وعرضه أربعة . وهناك فى الركن البعيد يقف معبد صغير مرتكزا على أعمدة ذات رؤوس تمثل البقرة ، مثل بيت حجرى صغير فى فناء شديد الاتساع ، بينما يرتفع سقف القاعة فى الطرف الشرقى مكونا منصة ثانية أكثر ارتفاعا .

وفى نفس الوقت يضمحل نور الغسق فى الوقت الذى ظلت فيه الجبال متدثرة فى جو من الضوء الخافت الرقيق ، ولكن الظلال المختلفة بالأسرار تزحف سريعا فوق السهل ، وترقد تلال المدينة القديمة عند أقدامنا مرتبكة ومتقلبة مثل أمواج بحر مظلم . وكم هى مرتفعة ومنعزلة وصامتة ! أنصت الى هذه الصيحة الناعمة الرقيقة ! انها عويل ذئب يتجول فى الليل . انظر كم هى مظلمة هناك فى اتجاه النهر ! أسرع ، أسرع . لقد تباطأنا طويلا . لابد أن نمضى سريعا لأن الليل سيدركنا . وكان علينا أن نمضى عن طريق السلالم العكسية التى تحتوى على صفوف من

النقوش لكى نندفع الى خارج المعبد حيث يبدو الحائط الجانبى الضخم للرواق وهو يرتفع فوق رؤوسنا نحو السماء مثل برج عظيم . ونلمح اثنين من التماثيل الضخمة أحدهما برأس أسد والآخر بدون رأس ، وهما يجلسان خارجا وقد أعطى كل منهما ظهره للمعبد . ونتجه نحو السهل بكل سرعتنا ، ونتسلق الكتل المتناثرة لكى نمضى بين التلال التى ليس لها شكل محدد . وسرعان ما يدركنا الليل ، وتختفى التلال ، ويبتعد المعبد ، ولا يتبقى لنا ما يقودنا الا ضوء النجوم الخافت . وعلى كل حال، فقد أخذنا نتعش ، فتقاربنا من بعضنا ، وأخذنا نطلق رصاصة بين حين وآخر على أمل أن نسمعنا هؤلاء الذين فى القوارب ، وضللنا تمامه مثل الرضيع فى الغابة .



المشيخ سليم

وأخيرا عندما بدأ بعضنا يرتعد ، وبدأنا نشعر جميعا باليأس وأخذ تلحمى يطلق آخر رصاصة باقية معه ، ردت علينا رصاصة انطلقت بالقرب منا . وظهر ضوء هائم وسرعان ما لمع بين زراعات القصب سرب كامل من المصابيح المتراقصة ، والوجوه البنية اللون لترحب بنا ، وتقودنا الى مقرنا . أن الرئيس حسن الضئيل الحجم ، والمخلص ، والمفتول العضلات ، والعزيز علينا ، وخليفة الرجل الشريف ، وسلام الضاحك ، ومحمد على الظريف ، وموسى الأسمر الوسيم ، كانوا جميعهم هناك ، ويالها من مصافحة تلك التى جرت معهم ! وكم ظهر بياض الأسنان التى كشفت عنها الابتسامات ! ويا له من سيل متبادل من التهاني التى يصعب ادراكها ! أما من جهتي أنا فأقول بكل الصدق ، اننى لم أشعر طوال حياتي بسعادة فى لقاء مثلما شعرت فى هذا اللقاء .

الفصل الثامن

طيبة والكرك

وفي اليوم الثالث لرحيلنا عن دندرة ، وأثناء صعودنا الى سطح المركب وجدناها قد زينت بسعف النخيل ، كما وجدنا بحارتنا يرتدون عمائمهم المخصصة للاجازات ، وظهر الرئيس حسن في أحسن مظهر بمعنى أنه كان يلبس الحذاء والجوارب التي يرتديها في المناسبات العظيمة ، وقال في نفس واحد :

« نهارك سعيد • صباح الخير أيتها الأقصر ! »

وكان صباحا حارا مشبعا بالضباب الخفيف الذي لمعت من خلاله أشكال غير واضحة للجبال ، مع هبوب الرياح الدافئة •

وأسرعنا الى جانب المركب ، ونظرنا الى الخارج باشتياق ، ولكننا لم نر شيئا • وكان القبطان ما زال يبتسم وينحني ، بينما أخذ البحارة في الجرى هنا وهناك ، يمسحون ويزخرفون أرض المركب • قال الجندي الذي لا يستطيع الد أعدائه أن يلصق به تهمة الحياء : « الأقصر ، الخروف ، طيب ! » وأخذ يردد ذلك في كل مرة يقترب منا •

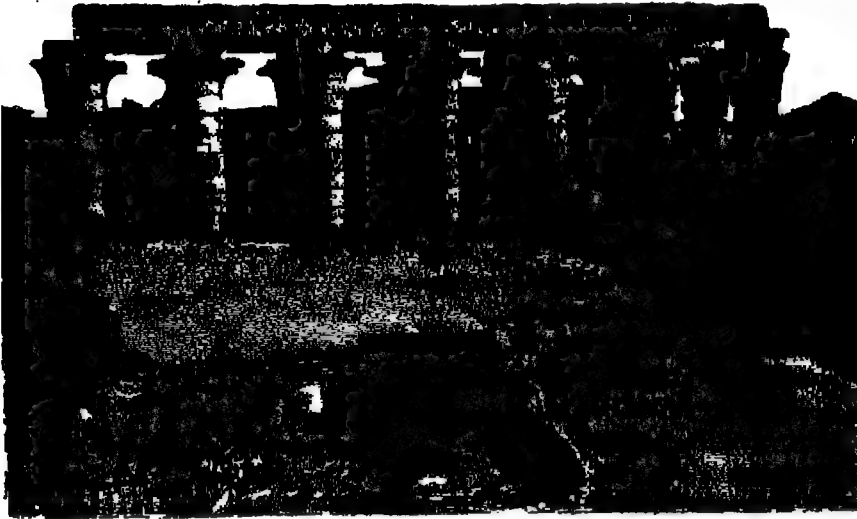
لقد قرأنا عن الأقصر الكثير ، كما راودتنا في أحلامنا ولكنها ظهرت بعيدة دائما ، لدرجة أنه كان من الصعوبة بمكان أن نصدق أننا كنا نقرب من تلك الشواطئ الشهيرة لولا هذا التنويه اللطيف عن الخروف الموعود ، وحوالي الساعة العاشرة ارتفع الضباب مثلما ترتفع الستارة ، ورأينا الى يسارنا سهلا غنيا مرصعا بزراعات النخيل • أما عن اليمين فقد شاهدنا خطا عريضا من الأراضي المنزرعة التي تحدها سلسلة من جبال الحجر الجيري ، كما ظهرت في الأفق البعيد سلسلة أخرى ، وجميعها رمادية اللون ، مختلطة بالظلال • وكان الرئيس حسن في نشوة الانتصار وهو يشير في جميع الاتجاهات على الفور قائلا :

« الكرنك - القرنة - الأقصر » • وحاول تلحمى أن يطلعنا على مدينه هابو وتمثالى ممنون • وأقسم الرسام المرافق لنا على أنه يستطيع رؤية رأسى التمثالين الجالسين ومدخل وادى مقابر الملوك • وحملقنا ونحن مشدوهون ومتشككون فلم نر أيا من هذه الأشياء • ووجدنا أنه من الصعوبة بمكان أن نصدق أن غيرنا يراها • كان النهر يتسع أمامنا ، والمسطحات خضراء على كلا الجانبين ، وقد أفسحت الجبال عن الممرات التى تؤدى الى المقابر المحفورة فى الصخر ، بينما كنا نرى هنا بوضوح مجموعة من أشجار الجميز بعيدا داخل نطاق الأرض على حافة الصحراء • وهناك ربوة مظلمة فى منتصف المسافة بين كومة مختلطة من أشياء قد تكون صورا ساقطة أو بناية من الأحجار المتهدمة ، ولكننا لم نر شيئا يشبه المعبد ، أو شيئا يبين لنا أننا أصبحنا على مسافة معروفة من أعظم الإطلال فى العالم •

وسرعان ما رأينا أثناء سير المركب بناء صخريا خاليا من النوافذ (ليت السماء تحفظنا !) يشبه قلعة جديدة أو سجن ، يعلو فوق زراعات النخيل التى على اليسار • وقد قيل لنا ان ذلك هو أحد بوابات الكرنك الأمامية • وفى نفس الوقت ظهرت بعض الألواح المطلية بالجير ، ومجموعة قليلة من الأعمدة على بعد حوالى ميل مشيرة الى موقع الأقصر • وقفز الجندى وهو يصيح بعبارته التى لا ينفك عن ترديدها : « الأقصر - الحروف - طيب ! » وصفق القبطان بيديه لأخضار الطار والدربة • وتشكلت دائرة على السطح السفلى • وابتسم الرجال جميعا وشرعوا يغنون أحلى أغانيهم ، ومن ثم دخلنا الى الأقصر دخول الفاتحين مع الموسيقى الصاخبة ، والشراعين الممثلين بالرياح ، والرايات الخافقة ، والأغصان التى تموج فوق رؤوسنا •

وعندما مضينا قدما كانت أول المناظر التى شاهدناها من هذه القرية المشهورة هى قمة بوابة فرعونية أخرى،والنهاية الرفيعة لاحدى المسلات، وصف من الأعمدة الضخمة نصف المدفونة فى التربة ، والمنازل البيضاء التى يقيم فيها قناصل بريطانيا وأمريكا وبزوسيا ، وفوق كل منزل علمه وشعاره ، ومنحدر من شاطئ رملى ، وخلفية من الحوائط الطينية وأبراج الحمام ، ومقدمة من القوارب المحلية والذهبيات المطلية بأسلوب سار وهى تقف فى مراسيها • وأثناء مرورنا وقفت لتحييتنا مجموعة من الموظفين المعتمين الذين كانوا يجلسون فى ظل مدخل فوقه عقد • أما الذهبيات المتجمعة التى كانت راقدة بأشرعتها المطوية مثل طيور البحر النائمة فقد هبت من نومها فى نوبة من النشاط المتقطع • وأنزلت الأعلام ، وأطلقت

البنادق ، واستيقظت الأقصر كلها من قيلولة الظهر . وقبل أن ينقشع
الدخان . وصلت الذهبية باجستونز فى هيئتها الأنيقة ، بينما تألقت
الذهبيات الأخرى كما حدث من قبل .



يهو الاساطين الخاص بالملك حور محب

عن صورة فى كتاب بروجش بك

والآن يندفع نحو الشاطئ زحام من الحمير والأولاد الذين
يسوقونها ، والشحاذين ، والمرشدين ، وتجار العاديات ، بينما أخذ
الأطفال يصيحون طالبين البقشيش . أما التجار فكانوا يعرضون قلائد من
الجعارين المقلدة ، وكان الأولاد الذين يسوقون الحمير يهتفون بأسماء
حميرهم ويمتدحونها ، واعتبر الجميع أننا فريستهم المباحة . وصاح
أحدهم : « أهلا يا سيدتى ! هذا حمار أمريكى لكل الأغراض . جربى هذا
الحمار الأمريكى » .

وصاح ولد آخر : « موسى السريع . انه حمار جيد ، حمار سريع ،
انه أفضل حمار فى الأقصر ! » .

وجاء ثالث وهو يجز بالحبل حمارا عجوزا ضعيف الركبتين ، أكر
عليه الدهر وشرب ، بينما هو حمار يماثل الحصان الخشبي الذى تجفف
عليه المناشف وذلك من حيث الصلاحية للركوب ، وقال صائحا :

« هذا هو حمار أمير ويلز . انه حمار من الدرجة الأولى ! حمار عظيم ! حفظ الله الملكة ! حرة ! » .

ولم تكن الحمير ولا الجعارين ذات أهمية في نظرنا الآن بالمقارنة مع الخطابات التي نأمل أن نجدها في انتظارنا على الشاطئ . وأسهرت بنا القوارب ، ثم انطلقنا منها مسرعين ، واتجه بعضنا نحو القنصلية البريطانية بينما انطلق آخرون الى شبك البريد . وعدنا منها ونحن أغنياء وسعداء .

وفي نفس الوقت عرضنا أن نقضى في الأقصر أربعاً وعشرين ساعة فقط . وكان علينا أن نذهب الى الكرنك بعد ظهر هذا اليوم الأول . وفي صباح الغد نسير النيل الى مدينة هابو ومعبد الرمسيوم (١) ، ثم نعاود الإبحار بعد منتصف النهار بقدر استطاعتنا . وعلى ذلك كنا نأمل أن نحيط بفكرة عامة عن طبوغرافية طيبة وأن نحمل معنا انطباعات سطحية عن الطراز المعماري الذي اتبعه الفراعنة . انها لا تعدو أن تكون مجرد اطلالة ولكنها ضرورية ، لأن طيبة تمثل الفترة الوسطى العظيمة من تاريخ الفن المصري . ان الطرز القديمة تقود الى هذه النقطة ، وتتفرع منها الطرز الحديثة ، ولكن كلا الطرازين القديم والحديث يصعب ادراكهما بدونها . وفي نفس الوقت فان السياح الذين يقصدون الشلال الثاني يتصرفون بحكمة عندما يتركون كل شيء مثل الدراسة المفصلة لمدينة طيبة حتى عودتهم . أما في الوقت الحالي فيكفي عمل مسح سريع للمجموعات الثلاث من الأطلال ؛ لأنها تقدم الوصلة الضرورية ، وتساعد السائح على فهم معايد إدفو وفيلة و (أبو سنبل) ، وباختصار فهي تتيح للسائح أن يضع الأشياء في موضعها الصحيح . ومع كل ذلك فان هذه عملية عقلية يجب على كل سائح أن يعرفها بنفسه .

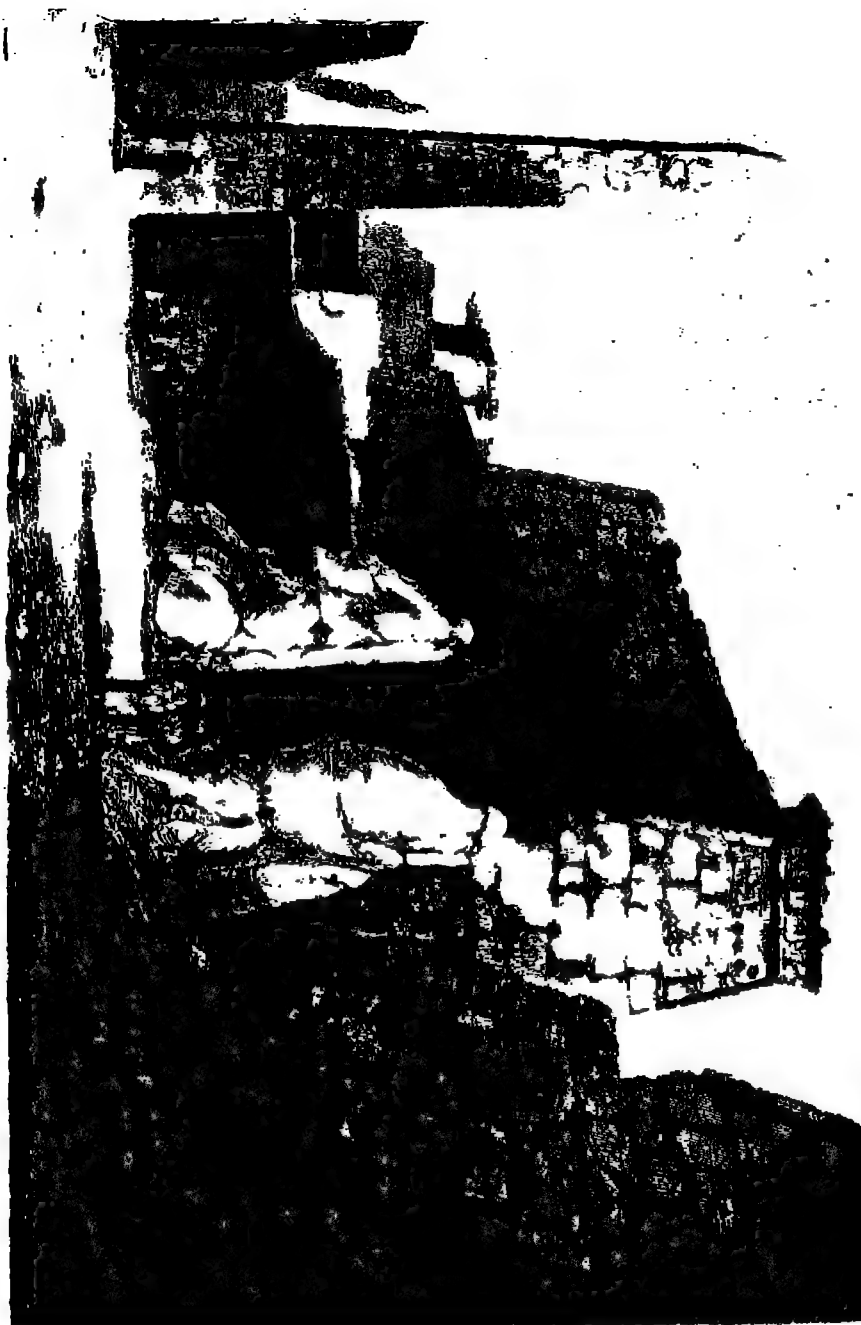
ولا بد من القول بأن طيبة قد بنيت مثل لندن على كلا جانبي النهر ولا بد أن حدودها الأصلية كانت شديدة الاتساع ، ولكن مبانيها العامة ، وأرصفتها الشحن ، والآلاف من المساكن الخاصة قد زالت ولم يبق منها سوى القليل من الآثار . أما المدينة التي عاش فيها المواطنون العاديون

(١) يفترض البعض أن هذا الصرح المشهور صورة طبق الاصل من مقبرة ممنون التي يذكرها استرابون ، ومقبرة أوميمانديس التي وصفها ديودور الصقلي . أما شامبليون فإنه حسب ما عرفه من الأساطير الهيروغليفية التي تطلق عليها اسم « منزل رمسيس » (الثاني) فقد أطلق عليه الاسم المناسب وهو « معبد الرمسيوم » .

والتي بنيت من القرميد فانها قائمة على بعض التلال ذات القيمة الضئيلة ، بينما اشتمل الجانب الذى يحتوى على الصروح الدينية على خمس مجموعات ضخمة من الأطلال التي كانت مبنية بالحجر الجيري . منها ثلاث مجموعات فى البر الغربى ، واثنان فى البر الشرقى ، مع بقايا العديد من المعابد الصغيرة ، وتشكيلة ضخمة من المقابر . وهذا هو كل ما بقي دليلا على عظمتها على الدوام . أما الأقصر فهي قرية عريقة حديثة ، تحتل موقع أقدم هذه المجموعات الخمس ، وهي تقوم على البر الشرقى ملاصقة للنهر وعلى بعد حوالى ميلين جنوب الكرنك . وعلى الضفة المقابلة تقع القرنة والرمسيوم ومدينة هابو . ونظرة خاطفة الى الخريطة تغنى عن صفحات كاملة من الشرح لبيان العلاقة النسبية بين مواقع هذه الأطلال . أما مدينة هابو فهي تقع فى الجنوب البعيد بالنسبة لآى صرح قائم على الجانب الشرقى للنهر . وتقع مقابر طيبة العظيمة خلف هذه المجموعات الثلاث حيث تمتد وتتسع بطول طرف سلسلة الجبال الليبية ، بينما نجد مقابر الملوك على البعد خلفها فى الأودية المتألقة على الجانب الآخر من الجبال . وتبلغ المسافة بين الكرنك والأقصر أقل من ميلين ، بينما تقدر المسافة بين مدينة هابو والقرنة بحوالى أربعة أميال . ولدينا هنا بيان بالانتساع رغم أنه لا يخذ من المدينة القديمة .

والأقصر قرية كبيرة يسكنها خليط من السكان الأقباط والعرب الذين يمارسون تجارتهم المزدهرة فى العاديات ، ويشكل المعبد هنا مركز نشاط القرية التي بنى الجزء القديم منها داخل وحول الأطلال . ويواجه المدخل الكبير للقرية اتجاه الشمال ويطل على الكرنك . ومازال البرجان المزدوجان للصرح العظيم عظيمين رغم أنهما متداعيان فى مكانهما ، ومجردان من الأفاريز ، ومزدحمان بالأنقاض . ويجلس مقابلهما على كل جانب من البوابة الوسطى تمثال ضخيم على رأسه تاج مهشم ، وبلا ملامح ، ومدفون حتى الذقن ، مثل اثنين من المتكبرين فى الدائرة الخامسة الحزينة . ومرة أخرى تقوم مسلة منعزلة أمامهما على بعد عدة ياردات ، وهي أيضا مدفونة الى نصفها . والتمثالان مصنوعان من الجرانيت الأسود . أما المسلة فهي من الجرانيت الأحمر ومضقولة بأسلوب رفيع ، ومغطاة على كافة جوانبها الأربعة بنقوش هيروغليفية رائعة ، مصفوفة فى ثلاثة أعمدة رأسية . وقد حفرت هذه النقوش بدقة متناهية . ويبلغ عمقها داخل الصفيين الخارجيين من النقوش حوالى بوصتين ، وخمس بوصات فى العمود الأوسط . ويزيد الارتفاع الحقيقى لهذه الكتلة الرائعة عن سبعين قدما ، يختفى منها ما بين ثلاثين وأربعين قدما تحت التربة المتراكمة منذ عدة قرون .

1000



أما المسلة الأخرى التي فقدت طبقتها السطحية والتي لاتدرکها العين بسبب تعرضها للسماء المكشوفة تحت ظروف المناخ الخارجى فانها تعاني من الكآبة بسبب الاهمال الناتج عن الثورات والثورات المضادة التافهة التي تجرى فى ميدان الكونكورڊ • وينتصب تمثال ثالث ذو رأس صغير من الحجر الجيرى على خط واحد مع التمثالين الأسودين ، ولكنه يبتعد عنهما حوالى خمسين قدما الى الغرب • ونشك فى أن يكون هناك تمثال مماثل له مختفيا بين الأكواخ التي تتجاوز منتصف المسافة عبر واجهة البرج الشرقى • أما السطح الخارجى لهذين البرجين فهو مغطى كله بنقوش منحوتة بدقة للآلهة والرجال والحيول والعربات الحربية ومواكب النصر ومعارك الحرب • فالملك فى مركبته يشد قوسه الرهيب ، أو يذبح أعداء ، مترجلا على قدميه ، أو يجلس على عرشه وهو يتقبل الولاء من رجال البلاط • وهناك فرق عسكرية كاملة مسلحة بالرماح والتروس تسير فى الاستعراض ، بينما يهرب الأعداء فى فوضى • ويعود الملك الى مكانه وحوله حاملو المراوح بينما يحرق الكهنة البخور أمامه •

وهذا الملك هو رمسيس الثانى الذى أطلق عليه الكتاب القدماء اسم سيزوستريس وأوسيماندياس والمعروف فى التاريخ باسم رمسيس الأكبر • وأسماءه وألقابه الحقيقية الموجودة على الآثار هي : رع - أوسر - ماعت ، ستب - ان - رع ، رع - ميسو ، مر - آمون (*) وهى تعنى : رع القوى فى الحق ، الذى يبرهن عليه رع ، ابن رع ، محبوب رع •

أما مناظر المعارك المنقوشة هنا فهي الحملة التي قام بها ضد الحيثيين. موضوع بردية سالييه الثالثة المشهورة (١) وقد سجلت للذكرى على حوائط كل معبد بناء هذا الملك • ويظهر الملك منعزلا عن جيشه ، محاطا بالأعداء ولا يرافقه سوى سائق عربته الحربية ، وهى تبين أنه قد أغار على أعدائه ست مرات، وقد قهرهم بسيف قوته وداسهم مثل القش تحت سنابك حصانه ، وبدد شملهم بيد واحدة كالاله • وقد كانت هناك خمسمائة ألفان من العربات الحربية فاطاح بها ، ومائة ألف محارب فشنت جمعهم • أما هؤلاء الذين لم يذبحهم بيده فقد طاردهم حتى حافة البحر • دافعا

(١) ترجمها الى الفرنسية المرحوم الفايكرنت دى روجيه تحت عنوان Le poème de Pentaour سنة ١٨٥٦ ، وترجمها الى الانجليزية مستر جودوين سنة ١٨٥٨ ، وتكررت مرة ثانية بمعرفة البروفيسور لاشنجتون سنة ١٨٧٤ • انظر : Records of the Past - المجلد الثانى •
(*) ينطق الاسم : أوسر ماعت رع - ستب ان رع - رعسمو - مرى آمون •

أيامهم لكي يلقوا حتفهم قفزا في الماء مثلما يقفز التمساح . وكان هذا هو الانتصار الذي أحرزه رمسيس ، وهو التاريخ الذي كتبه المؤرخ الملكي بنتاؤور .

وإذا نحننا جانباً المبالغة الأسطورية التي تظهرها هذه القصة ، فلا شك أنها تسجل بعض الأعمال العسكرية التي أنجزها هذا الملك مع جيشه والذي يظهر أمامنا ، ولكنها ليست واضحة ، وتذكر النصوص الهيروغليفية المدونة على هذه اللوحات أن الأحداث المبينة قد حدثت في اليوم الخامس من شهر أبيب في السنة الخامسة من حكمه . ومن هذا نعرف أنها السنة الخامسة من حكمه المنفرد بمعنى أنها السنة الخامسة بعد موت أبيه سيتي الأول الذي اشترك معه في الحكم عندما كان صغير السن . كان شاباً قويا عندما جرت هذه المعركة الشهيرة التي خاضها تحت حواطئ قادش على نهر الأورنت ، وتبين النقوش البارزة أنه كان يصحب معه العديد من أبنائه الذين رغم أنهم كانوا صغار السن إلا أنهم ظهروا في عجلاتهم الحربية مسلحين بأسلحتهم الكاملة ومشاركين في المعركة (١) .

أما التماثيل المشوهة فهي تماثيل شخصية للملك الطافر . أما المسلة كطراز فاخر للتكريسات في مصر فهي تعلن على الملأ أن « سيد العالم ، الشمس الحارسة للحقيقة ، المؤيد من رع ، قد بنى هذا الصرح تكريماً لأبيه آمون رع ، وقد نصب له هاتين المسلتين العظيمتين المنحوتتين من الحجر في مواجهة بيت رمسيس في مدينة آمون » .

وكانت هذه هي الفاتحة التي افتتح بها رمسيس الأكبر المعبد الذي أقيم قبله بحوالى خمسين ومائة عام بمعرفة الملك أمنحوتب الثالث . وقد بنى أيضا الفناء الذي افتتح فيه هذه البوابة الضخمة ، وقد ربطها بالجزء الأقسام من المبنى بطريقة حكيمة جعلت البهو الأصلي الأول يتحول الآن إلى البهو الثاني ، ويليه في الترتيب بهو الأعمدة ، وصالة الاجتماع ، ثم قدس الأقداس . وبعد أن انتهت الفترة الطويلة التي حكمها الملك رمسيس ، وضع الملوك الآخرون الذين حكموا بعده ، بصماتهم على المعبد،

(١) حسب النقش الكبير الموجود في أبيدوس ، الذي ترجمه ماسبيرو ، يبدو أن رمسيس الثاني كان ملكاً حنذاً ولادته كما لو أن عرش مصر قد آل إليه عن أمه ، وأن أبناء سيتي الأول قد حكم نيابة عنه أثناء طفولته بوصفه وصياً على العرش . وتبين بعض النقوش أنه قد تسلم البيعة قبل ولادته .

حيث تظهر فى النقوش المتأخرة أسماء شيباكا Shabaca ، وبطلميوس فيلوباتور ، والاسكندر الصغير ، بينما توجد فى الأجزاء الأقدم من المبنى أسماء أمنحوتب الرابع (خو - ان - آتون) ، وحمور محب ، وسيتي والد رمسيس الأكبر . وبهذه الطريقة تطور المعبد المصرى من عصر الى عصر فأقام هذا الملك صفا من الأعمدة ، وأقام الآخر صرحا ، حتى أصبح المعبد فى الوقت المناسب معرضا لطرز البناء التى تنتمى الى عدة عصور . ومنذ ذلك التاريخ فإن هذه القوضى فى التخطيط التى يمكن أن ننسبها الى نزوات البناء المتعاقبين تمثل أحد الملامح العديدة فى العمارة المصرية . وفى الوقت الحالى فإن صرح المعبد والفناء اللذين أقامهما رمسيس الثانى قد أقيما بزواية قدرها خمس درجات من الفناء والهيكل اللذين أقامهما أمنحوتب الثالث . وقد حدث ذلك لكى يصير معبد الأقصر على خط واحد مع معبد الكرنك حتى يمكن الربط بينهما بواسطة طريق الكباش العظيم الذى تتناثر بقاياه فوق مسار الطريق القديم .

وكما قلت منذ قليل فإن بوابة الصرح نصف المدفونة ، وهذه المسلة المنعزلة ، وهذه الرؤوس العملاقة التى تبرز أمام صرح المعبد ، تبدو مربعة كما لو كانت لمبعوثين من الموت ، مازالت كلها تحمل دلائل العظمة . ولكنها عظمة تشبه عظمة فاتحة باهرة لقصيدة لم يتبق منها الا بقايا مشوهة . وتقع خلف هذا المدخل متاهة من الحواري والممرات المدخنة والقذرة والمعقدة ، وأكواخ طينية ، وأبراج حمام طينية ، وأحواش طينية ، ومسجد بنى من الطين ، وجميعها متشابكة مثل أعشاش الدبابير فى داخل وحول الأطلال . وكانت تحمل سقوف الأكواخ الحقبية عوارض منقوش عليها الألقاب الملكية . وبرزت الأعمدة الفخمة من وسط الحظائر التى يظهر داخلها الجاموس والجمال والحمر والكلاب والكائنات البشرية ، ترعى مع بعضها فى رفقة رديئة . وكانت الديوك تصيح ، والدجاجات توقوق ، والحمام تهدل ، والديوك الرومية تصيح ، والأطفال تتجهم ، والنساء يخبزن الأربعة ويشترن . وكانت كافة النوعيات المفقوتة من روتين الحياة العربية تجرى بين الحواري المتعرجة التى تغطي الأروقة وتشوه شكل نقوش الفراعنة ، ولذلك كان من الصعب دائما أن نتتبع تصميم هذا الجره من المبنى . ولما كانت كافة أنواع الاتصالات مقطوعة بين القاعات وبهو الأعمدة ، فقد كان علينا أن ندور من الخارج وخلال باب فى الطرف البعيد للمعبد ، للوصول الى قدس الأقداس والحجرات الملاصقة له . وقد احتفظ الأعراب بالفتاح بالإضافة الى بعض الشموع . وكان الظلام منتشرا هناك بينما ظل السقف سليما ، وقد بنى على قمته منزل حديث ضخم متعدد الحجرات .

ولذلك فان هذا الجزء من المعبد لو كان مضاء جزئيا مثل معبد دندرة وغيره عن طريق فتحات فى السقف مثلثة الشكل ، فانه حتى تلك الومضات الباهتة من الضوء تكون قد استبعدت بسبب هذا المنزل .

وتمثل كل ما بقى تحت غطاء احجار السقف الاصلية فى المقصورة التى أعيد بناؤها أثناء حكم الاسكندر أيجوس ، وبعض الحجرات الجانبية الصغيرة ، وهو ضخيم ربما كان هو صالة الاجتماع . وقد أظهرت بعض الأساطين نصف المدفونة والمحطمة على الجانب التالى للنهر أن هذا الطرف كان محاطا بصف من الأساطين فى سالف الزمان . أما قدس الأقداس وهو حجرة مستطيلة من الجرانيت ذات سقف منفصل ، فقد كان قائما تحيط به قاعة أكبر مثل صندوق داخل صندوق ، وتغطيه نقوش بارزة فى الداخل والخارج . وهذه النقوش (التى لاحظت بينها شكل الملك راكما وهو يقدم لآمون رع تمثال شخص راكم) قد جرى تنفيذها حسب الطراز المتوسط الذى انتشر فى عصر البطالمة ، بمعنى أن الأشكال أكثر طبيعية ولكنها أقل جودة بالنسبة لأمثالها من نقوش العصر الفرعونى ، كانت الأطراف ممتلئة ، والمفاصل ضخمة ، واللامع غير معبرة . ولا يستطيع الانسان أن يجد أثرا لفن رسم الأشخاص فى شكلها الطبيعى ، لأن كل وجه يتخذ نفس الابتسامة الكريهة التى تشوه النقش النصفى البارز للملكة كليوباترة فى معبد دندرة .

وفى البهو الكبير الذى أطلق عليه اسم قاعة الاجتماعات يعود الانسان الى زمن مؤسسه . يوجد ما بين أمنتب الثالث والاسكندر أيجوس فترة زمنية قدرها ١٢٠٠ سنة ، وبالطبع فان طراز المباني عند كل منهما بعيد عن الآخر تماما مثل ابتعاد عصر كل منهما عن عصر الآخر . ولا يمكن حتى للمبتدئ أن يخطئ فينسب أيهما الى الآخر . ولا يوجد شئ عادى أكثر من تواجد الأعمال التى تنتمى الى مصر الفرعونية جنبا الى جنب مع الأعمال التى تنتمى الى مصر اليونانية فى نفس المعبد الواحد . ولكنك لا تجد فى أى مكان آخر خصائص كل منهما واضحة فى تناقض صارخ مثلما تجد فى هذه الحجرات المظلمة بمعبد الأقصر ، ففي النقوش التى تحتل بهو أمنتب نجد الخطوط الفاصلة والأشكال الحادة والرفيعة والرؤوس المحددة للشخصيات خلال فترة كان فيها الفن لم يكتسب أو يضيع بعد تحت ضغوط التأثيرات الأجنبية بل كان مصريا خالصا . وبينما تنتمى الموضوعات أساسا الى طفولة الملك الا أنه من الصعب أن نرى شيئا بوضوح فى ضوء الشمعة المربوطة فى نهاية عصا نعلها .

وهنا حيث النقش ضئيل البروز ، ومع ارتفاع الحوائط فانه من المحال أن نميز تفاصيل اللوحات المرتفعة .

وقد اكتشفت أن الاله آمون والالهة موت وابنتهما خنسو ، أى ثلاث الشخصيات التى يتكون منها ثالوث طيبة هم الآلهة التى تصدر هذه المناظر ، وأنهم لحسن الحظ مميزون بطريقة ما عن تحتمس الرابع والملكة زوجته وابنتهما أمنحوتب الثالث . والواضح أن أمنحوتب قد ولد تحت حماية الالهة موت الأم المقدسة ، وتربى مع الاله الشاب خنسو ، واستقبله آمون بوصفه الأخ المساوى لابنه المقدس . وأظن أنني لاحظت فى هذه القاعة مجموعة منفصلة من النقوش تمثل آمون وموت فى موقف رمزى ربما يمثل الخطوبة أو الزواج لأنهما يجلسان وجها لوجه وتمسك الالهة بيدها اليمنى يد الاله اليسرى بينما تسند كوعه الأيمن بيدها اليسرى . وفى نفس الوقت ظهر فوق رأسيهما عرشان . واستندت أقدامهما على يدي اثنتين من الالهات الحارسات . ومن الأمور ذات الدلالة أن نجد رمسيس الثالث مع إحدى زوجاته قد ظهرا فى نفس الوضع فى أحد الموضوعات المحلية الشهيرة المنقوشة على الطوابق العليا للمبنى المقام فى مدينة هابو .

لقد ألقينا نظرة عابرة على هذا المعبد المثير للاهتمام ، الا أننا قضينا به وقتا أطول مما يحظى به معظم هؤلاء الذين ترسو مراكبهم لعدة أيام ، عاما بعد عام بانقرب من أعمدته الملكية . ولو أمكن نقل المبنى بكامله إلى نقطة ما بين منف وأسبوط ، وهى المنطقة التى لا يوجد بها أطلال تطل على النهر ، فلا بد أن السائحون سيزورونه بحماس شديد ، إذ أنه فى موقعه هنا ضائع الذكر بين عجائب الكرنك والبر الغربى . ولا ينال الا الاهمال الذى لا يستحقه . وتلك الأجزاء من المبنى الأصلية التى ظلت باقية ، هى فى الحقيقة ثمينة بشكل غريب لأن أمنحوتب الثالث كان واحدا من ملوك مصر الذين اشتهروا بالبناء ، وما نراه هنا هو عينة من العينات القليلة التى لا تزال باقية من أعماله المعمارية (١) .

(١) ان خراشيب معبد الاقصر العظيم قد عانت من التحول الكامل منذ كتابة هذا الوصف المذكور عالياه ، وقد قام البروفيسور ماسبيرو خلال العامين الاخيرين من خدمته الوظيفية كخلف للمرحوم مارييت باشا ، بعمل الكثير لهذا الاثر الفرعونى العظيم مثلما عمل سلفه لمعيد ادقوا الاكثر حداثة . وكانت الصعوبات التى اكننت تنفيذ هذا العمل العظيم تبدو شديدة لأول وهلة . لقد رفض الفلاحون فى ائبدابة أن يبيعوا منازلهم ، وطلب مصطفى أغا مبلغ ثلاثة آلاف جنيه استرلينى لمقره القنصلى الذى كان مبنيا بين اساطين حورمحب فى مواجهة النهر . وكان من الصعب مناقشة شراء حق هدم المسجد المقام -

ويقع الحى القبطى من الأقصر فى شمال البهو الكبير محاذيا للنهر .
 انه انظف وأوسع وطلق الهواء بالنسبة للحى الذى يقيم به بقية سكان
 الأقصر . وكان القنصل البروسى قبطيا ، وكذلك مدير مكتب البريد
 المهذب . ويميش الأسقف القبطى فى بيت مفروش نصفه مجاور للكنيسة
 والنصف الآخر فوقها ، أما مدير مكتب البريد (شاب غير رشيق يلبس
 بذلة أوربية ضيقة أظهرت ذراعيه وساقيه من أطرافها القصيرة) فقد كان
 يعرض خدماته سريعا . وقد تعهد بأن يرسل إلينا خطابات أثناء وجودنا
 فى أسوان وكوروسكو ووادى حلفا حيث أنشئت مكاتب البريد متأخرة ،
 وقد وفى بوعده والتزم بهذا بكل دقة . وكان يضيف دائما ملحوظة مجاملة
 غربية على الظروف الخارجى يقول فيها « مع أطيب تمنياتى » أو « أتمنى
 لكم أخبارا طيبة ورحلة سعيدة » وقد نقلت عينة من أسلوبه الأدبى متضمنة
 فى الملحوظة التالية التى يبدو أنه كان فخورا بها :

= فى الغناء الأول للمعبد ، وبعد عام كامل من المفاوضات رضى الفلاحون بالبيع مقابل شروط
 عادلة حيث تسلم كل مالك ثمنا لمنزله مع قطعة أرض فى مكان آخر لكى يبنى عليها منزلا
 جديدا . وبذلك أمكن التخلص من حوالى ثلاثين عائلة بينما رفضت ثمانى أو عشر
 عائلات البيع لقاء أى ثمن . وقد بدأت أعمال الهدم فى سنة ١٨٨٥ . وفى سنة ١٨٨٦
 تبعت العائلات القليلة الراضية للبيع مسار العائلات الأخرى وتم إخلاء المعبد بكامله من
 الاشغالات خلال ذلك الموسم . ولم يبق سوى المسجد الذى ترك قائما داخل حرم
 المعبد ، وكذلك منزل مصطفى أغا على الجانب التالى للموقع الذى ترسو فيه المراكب .
 وتلا ذلك استقالة البروفيسور مامبيريور سنة ١٨٨٧ ، ومن ذلك الحين قام خلفه مسيو
 جريبو M. Grebaut باستكمال العمل الذى نتج عنه ظهور معبد يلى معبد الكرنك من
 حيث فخامة التصميم وجمال التنسيق فى المكان الذى كان مزدهرا وغير ظاهر
 بسبب الاكواخ الطينية والأحواش والاسطبلات والأزقة وأكوام السماد العضوى . والآن فإنه
 قد جرى تنظيم المسارات التى بين أعمدة المعبد ، وارتفعت العوارض المنحوتة بطول قبة
 سلسلة الجبال التى ترتفع هنا عالية فوق البر الشرقى للنيل . والآن تم اظهار بعض
 هذه الاساطين حتى مستوى الأرضية الأصلية . ويبلغ ارتفاع هذه الاساطين ٥٧ قدما فى
 المدخل . وفى البهو الكبير الذى بناه رمسيس الثانى بلغت مساحة المنطقة التى جرى
 اظهارها ٩٠ قدما طولا ، ١٧٠ قدما عرضا واكتشفت مجموعة من التماثيل الضخمة
 الجميلة المصنوعة من الجرانيت الأحمر للفرعون رمسيس الثانى ، دون أن تنقل من
 مكانها الاصلى لأنها كانت مبنية بين حوائط من الطين ومتصلة هلى مدى القرون (من
 يقدر أن يحدد هذا العدد غير المعروف من القرون ؟) داخل قبر من الصلصال الوضيع .
 وفى النهاية فإن مصطفى أغا القنصل البريطانى العجوز الذى سيظل السائحون الانجليز
 يتذكرون كرمه لفترة طويلة ، قد مات بعد حوالى عام من ذلك التاريخ ، كما أن المنزل
 الذى أمتع فيه الكثيرين من الزوار الانجليز والذى أعطاه قيمة رفيعة ، تجرى الآن
 أعمال ازالته .

(ملحوظة : بالامر • امرنا كاتب البريد في مصر السفلى من أسيوط الى الخرطوم ، تلك التي تتبع البوستة الخديوية المصرية المنتظمة ، أن تدفع الآن للمرسائل المرسلة في مصر السفلى ضعف ما يدفع عنها في مصر العليا ، ويعنى ذلك أن الخطابات التي ترسل من هنا الى أبعد من أسيوط يدفع عنها قرشان عن كل عشرة جرامات من وزنها ، وكذلك تلك الرسائل المرسلة الى ما وراء الخرطوم • أما الخطابات المرسلة ما بين أسيوط والخرطوم فيدفع عنها قرش واحد مقابل كل عشرة جرامات من الوزن ويعنى ذلك شراء طوابع من البوستة ثم لصقها على الخطابات • وأيضا اذا أراد شخص ما أن يرسل خطابات مسجلة فيجب أن يدفع قرشين زيادة عن كل خطاب • وهناك تعليقات في مكاتب البريد باستلام الخطابات المرسلة الى بلدان أوروبا وأمريكا وآسيا مثل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسوريا والقسطنطينية • الخ • وكذلك ارسال الجرائد وغيرها من الأشياء • الأقصر في أول يناير ١٨٧٤ المفتش م • عدى) •

كان هذا الشاب عند الوداع يطلب بعض الأدوات الكتابية وبراية • وكنا بالطبع نجد سرورا في اهدائه مثل هذه الهدايا التقديرية المتواضعة • وقد عرفنا فيما بعد أنه كان يفرض نفس هذه الضريبة على كل ذهبية تسافر في النيل • وقد استنتجت أنه حتى ذلك الوقت قد امتلك مجموعة مثيرة من أدوات المائدة الصغيرة •

وعند نقطة انتهاء خط السكة الحديد كانت الرسائل المصرية والنوبية تحول بمعرفة عدائين متمركزين على مسافات تبلغ كل منها اربعة أميال بطول الطريق • وكان كل عداء يجرى الأميال الأربعة المطلوبة وفي نهايتها يجد العداء التالى مستعدا لاختطاف حقيبته ثم الانصراف حالا بكامل سرعته • ويقوم العداء التالى بتسليمها الى الذى يليه بنفس الطريقة • ويمضى هذا الأسلوب ليلا ونهارا بدون توقف حتى تصل الحقيبة الى أول محطة للسكة الحديد • والفروض أن ينهى كل عداء مسافة الأميال الأربعة الخاصة به في مدة نصف ساعة وبذلك فإن البريد الذى يخرج كل صباح من الأقصر يصل الى القاهرة في ستة أيام باعتبار أن القاهرة تبعد ٥٤٠ ميلا وأن ٢٦٨ ميلا من هذه المسافة يتم قطعها علوا على الأقدام ، وبما أن القطارات تسير مرة واحدة كل يوم سنعتقد أن هذه السرعة مشكوة •

وبعد الظهر ركبنا الحميز ومضينا الى الكرنك • وكان طريقنا يمر خلال السوق السياحية التي كانت من أفقر الأسواق التي رأيناها حتى

ذلك الحين . كانت تتكون من حظائر قليلة مفتوحة ، وفى واحدة منها شاهدنا بين يدي حلاق الأقصر خمسة من بحارتنا وهم يجلسون القرفصاء على مصطبة مبنية من الطين ، وقد خلعوا عماثهم مثل صف من اليوسفى المتساقط من الشجر . وكان الحلاق قد انتهى لتوه من دهن رؤوسهم الحمسة برغاوى الصابون ، ووقف ينظر الى تأثير ما عمله فى اعجاب مثلما يفحص الطباخ الفنان طبقا مخصوصا من البودنج بالكريمة . وقد ظهر البودنج كما لو كان يشعر بالخجل عندما ضحكنا أثناء عبورنا .

وبعد ذلك وصلنا الى الضاحية غير المنتظمة الشكل التى تجتمع فيها الفتيات الراقصات . وكانت تلك الفتيات اللاتي يرتدين الثياب المزركشة باللون الأخضر الزمردى ، والوردى الفاتح ، والأصفر الملتهب ، يجلسن القرفصاء خارج محال اقامتهن وهن حاسرات الوجوه على أعصاب اثنتين أو ثلاث من الحجرات الموحشة التى تستخدم لتقديم القهوة فى السوق . لقد كشفن عن أسنانهن وهن يضحكن فى وجوهنا فى ألفة شديدة . وكانت حواجبهن مرسومة بحيث تلتقى فوق قصبية الأنف ، كما أن عيونهن قد تخضبت بالكحل . وتلونت خدودهن بالروج الأحمر بشكل مبالغ فيه . أما شعرهن فكان مثبتا وملمعا بزيت الشعر ومعقوصا فوق جباههن ، ومجدولا فى شكل دلايات عديدة . ولم نر من قبل فتيات بمثل هذه الغرابة . وكانت احدى هؤلاء الحوريات سوداء اللون وظهرت فائقة الجمال فى لونها الأسود بالمقارنة الى الدهانات والمساحيق التى تشوه وجوه زميلاتهن .

والآن تركنا القرية خلفنا وركبنا الحمير عبر سهل واسع ، بعض أجزائه قاحلة وجبلية ، بينما تنمو حشائش الحلفاء الجافة فى بعض أجزائه الأخرى . وقد تناثرت مجموعات النخيل . هنا وهناك . وكان نهر النيل يجرى منخفضا وبعيدا عن الأنظار مما جعل الوادى يبدو ممتدا فى خط متصل بالجبال على كلا الجانبين . والآن نتجه يسارا نحو ضريح أحد المشايخ الذى تعلوه قبة صغيرة وتظلله مجموعة من أشجار الطرفاء . وبعد ذلك نمضى مع حوض ترعة جافة ، ثم نسير بمحاذاة تلال غير واضحة المعالم تحدد موقع أطلال لم تكتشف بعد . وندخل الى طريق غير مستو ولكنه مستقيم ويتجه مباشرة الى الكرنك . وعند كل ارتفاع فى مستوى الأرض كنا نرى البوابات الضخمة ترتفع فوق مستوى أشجار النخيل . ومرة واحدة لمدة لحظات قليلة ، ظهرت فى المنظر كتلة مختلطة ومتناثرة من الأطلال الكثيفة التى بدت كأطلال مدينة كبيرة . ثم انحدر طريقنا الى

اخذود رملي محاط بحوائط من الطين وزراعات من النخيل القزمي ،
وسرعان ما اتسع ذلك الأخدود حتى أصبح شارعاً كبيراً يحرسه على
الجانبين صفان من تماثيل الكباش المحطمة ويقودنا الى بوابة صرح مرتفع
الى السماء .

وارتفعت غابة صغيرة من أشجار الجميز والنخيل بجانب هذا الصرح
كما لو كانت قد زرعت هنا عمداً ، وقد ظهر خلفها صرح المعبد ذو البرجين ،
وكانت الكباش ضخمة ويبلغ طول الواحد منها عشرة أقدام ، وكان
بعضها يحمل رأس كبش . أما الباقي ويبلغ عدده حوالي أربعين أو خمسين
فقد كان بعضه بدون رأس ، وقد انشق بعضه الآخر الى أجزاء متناثرة ،
بينما انقلب البعض ، وتشوه البعض فظهر مثل الصخرة التي قذف بها
السييل . لقد كان هذا الطريق يصل ما بين معبدى الأقصر والكرنك
فى يوم ما ، ومع مراعاة المسافة (تبلغ حوالي ميلين بدءاً من أحد المعبدتين
الى المعبد الآخر) وأيضاً مع حساب المسافات القصيرة بين مواقع تماثيل
الكباش نجد أن عدد هذه التماثيل يصل الى حوالي خمسمائة ، أى أن
عددها كان يبلغ خمسين ومائتين على كل جانب من جانبي الطريق .
وبعد أن ترحلنا عن الحمير لعدة دقائق دخلنا الى المعبد . ونظرنا مشدوهين
الى الفناء الواسع وصف الأساطين ، واختلسنا النظرات الى بعض الحجرات
الجانبية الخربة ، ثم ركبنا الحمير . وذكرت الكتب التي فى أيدينا أننا
قد شاهدنا المعبد الصغير الذى أقامه رمسيس الثالث ، وإذا كان موقعه
فى أى مكان آخر بخلاف الكرنك فلا بد وأنه كان سيظهر ضخماً جداً .

وأ تذكر الباقي كما لو كنت فى حلم . وبعد أن تركنا المعبد الصغير
نحولنا نحو النهر وسرنا محاذين طرف الحوائط الطينية للقرية ، واقتربنا
من المعبد الكبير فى طريق يقود الى مدخله الرئيسى . وهنا دخلنا فوق
ما كان فى يوم ما طريقاً آخر عظيماً للتماثيل التي تحمل رؤوس الكباش
وهي تجثم مرفوعة الرؤوس على قواعد مربعة تغطيها نقوش الأساطير
الهيروغليفية ، ويبدأ هذا الطريق من مرسى بجانب نهر النيل .

والآن فإن البرجين اللذين رأيناها أولاً عند قدومنا بحراً فى الصباح ،
يرتفعان أمامنا ، كإطلال مهيبة تلمع فى ضوء الشمس ، وقد سطع عليها
الضوء المتلألئ خلال أعماق السماء الزرقاء ، وكان أحدهما سليماً تقريباً
بينما كان الآخر مشقوقاً كما لو كانت قد أصابته هزة زلزال . ولكنهما
كانا مرتفعين بحيث انه لو تسلق أعرابى وتعلق فى منتصف المسافة ما بين

قمة أحدهما الى قمة الآخر ، فانه وهو على هذا الارتفاع كان سيظهر في حجم لا يزيد على حجم السنجاب .

وترجلنا ثانية على عتبة بوابة الصرح الضخمة ، وكانت التلال غير المنتظمة الشكل التي تكونت من الطوب الأحمر ، تبين حدود الحائط القديم للدائرة ، والذي كان يمتد على كلا الجانبين ، وانفتح أمامنا منظور ضخم من الأساطين والصروح يقود الى مسلة بعيدة ، ودخلناه فاذا بالحوائط العالية ترتفع فوق رؤوسنا كالصخور ، ودخلنا الى البهو الأول ، وهنا في وسط مربع مفتوح الى السماء ينتصب أسطون منعزل ، هو الأخير في دزب مكون من اثني عشر أسطونا تفكك بعضها بفعل الهزة ، فتمددت على الأرض حيث وقعت مثل الهياكل العظمية للوحوش من الفقریات قذف بها الفيضان على الشاطئ.

وبعد أن عبرنا هذا البهو في ضوء الشمس اللامع ، أتينا الى مدخل ضخم بين بوابتين أخريين ، وكان المدخل فخما ومغطى بنقوش بارزة ، أما البوابتان فقد كانتا مجرد شلالين من الكتل المتساقطة التي تكومت الى اليمين واليسار في فوضى كبيرة ، وقد زال افریز المدخل ، ولم يبق الا شظية بارزة من الحجر الذي تكونت منه العارضة الأفقية فوق المدخل . وكان يبلغ طول هذا الحجر عندما كان كاملا أربعين قدما وعشر بوصات ولا بد أن ارتفاع المدخل كان يبلغ مائة قدم .

وتقدمنا بعد أن تركنا الى اليمين تماثيل عملاقة مشوهة ، نقش على ذراع وصدر كل منها خرطوش الملك رمسيس الثاني ، وعبرنا الظل الذي على العتبة ووصلنا الى القاعة السفلية الشهيرة التي بناها الملك سيتي الأول .

لقد كتب الكثير عن هذه القاعة كما نشرت عنها صور كثيرة ، ولكن لا تستطيع أية كتابات أو فنون أن تنقل اليها أكثر من انطباع قزى شديد الشحوب . ومن الصعب وصفها بالكلمات لمجرد تقديم صورة واضحة عنها ، ان مساحتها كبيرة ، وتأثيرها عظيم ، وتثير في الانسان احساسا بالدهشة التي تعجزه عن النطق ، وصغر السن ، والقصور بشكل كامل وساحق .

انه مكان يدفعك الى الصمت ويعجزك ليس فقط عن الكلام بل أيضا عن التفكير . وليس هذا فقط هو الانطباع الأول ، فانه فيما بعد وخلال

نفس العام عدنا فى النهر فى رحلة العودة ، ورسونا بجوار المكان وقضينا
أياما طويلة بين الأطلال ، وجدت أننى لم أقل كلمة واحدة فى القاعة
الكبرى ، كان أفراد آخرون يقيسون محيط هذه الأساطين الضخمة ،
وكان آخرون يتسلقون هنا وهناك ، ويكتشفون وجهات النظر ، ويختبرون
دقة قياسات ويلكنسون ومارييت ، أما أنا فقد استطعت أن أنظر فقط
وأطل صامتة ، والنظر المجرد يمثل شيئا اذا نجح الانسان فى التذكر ،
وقد صوّرت القاعة الكبرى بالكرنك فى ركن مظلم من عقلى طالما أننى
أمتلك الذاكرة ، لقد أغلقت عيني ونظرت اليها كما لو كنت هناك ،
ليس مرة واحدة كما يحدث أثناء النظر الى الصورة ، ولكن بالتدريج مثلما
تلاحظ العينان الأشياء العظيمة وتنتقل خلال نطاق بصرى متسع . وقف
مرة أخرى بين هذه الأساطين الضخمة التى تظهر خلال الدروب من أى
زاوية تنظر اليها .



دهو الأساطين بالكرنك

اننى أرى هذه الأساطين ملفوفة فى ظلال غامرة وحزم عريضة من الضوء ، اننى أراها منقوشة وملونة بأشكال الآلهة والملوك مع شعارات الاسماء الملكية ، ومذابج تقديم القرابين ، وأشكال الحيوانات المقدسة ، ورموز الحكمة والحقيقة . ان محيط هذه الأساطين ضخمة ، وعندما أقف عند قاعدة واحد منها – أو ما يبدو أنه القاعدة – لأن رصف الأرضية الأصلية مدفون تحت الأرض بمقدار سبعة أقدام، أجد ان الاحاطة بالأسطون الواحد تحتاج الى ستة رجال يقفون حوله بأذرعهم ممتدة وقد تلاصقت أطراف أصابع ذراعى كل منهم بأطراف أصابع ذراعى الآخر ، ان الأسطون الواحد يلقي بظل عرضه اننى عشر قدما ، ومثل هذا الظل لا يلقى الا برج كبير . أما قمة الأسطون التى ترتفع فوق رؤوسنا فتظهر كما لو كانت قد وضعت هناك لتحمل السماء ، وقد نحتت على شكل زهرة اللوتس المتفتحة ، وهى تلمع باللون ابدية – ألوان مازالت زاهية بالرغم من أنها تقع تحت ملامسة أيد ملوثة بالتراب على مدى أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ان الأسطون لا يحتاج الى ستة رجال بل اثنى عشر رجلا للدوران حول هذه القمة الدائرية لهذه الزهرة الهائلة .

وتتشابه الاثنا عشر أسطونا الوسطى فى هذا الحجم الضخم ، أما بقية الأساطين (وعددها اثنان وعشرون ومائة) فهى ضخمة كذلك ولكنها أصغر ، ولم يتبق من السقف الذى كانت تحمله الا العوارض التى هى عبارة عن أحجار منحوتة من كتل صخرية كبيرة (١) ، ومنقوشة وملونة تقوم مقام القنطرة فى الفراغ الواقع ما بين كل أسطون والأسطون الذى يليه ، وتفرش التربة السفلية بخطوط من الظلال .

وبالنظر الى أعلى وأسفل الدرب الأوسط نرى فى أحد الطرفين مسلة تشبه اللهب ، ونرى فى الطرف الآخر نخلة منعزلة فى مواجهة

(١) لم يذكر حجم هذه الأحجار فى أى كتاب من كتبنا . وقد قمت بقياس طول أحد الظلال مع الأخذ فى الاعتبار اضافة ٣٠ قدما عند كل طرف تمثل المسافة الضرورية للوصول الى مركز كل من الأسطونين اللذين يحملان الحجر ، وقد وجد ان الكتلة العلوية لابلد وان يبلغ طولها ٢٥ قدما ١٠ أما أبعاد البهو الكبير فهى ١٧٠ قدما للطول ، ٣٢٧ قدما للمعرض . وهو يتضمن ١٢٤ أسطونا ، ترتفع الاساطين الاثنا عشر الوسطى منها بمقدار ٦٢ قدما (حوالى ٧٠ قدما بعد اضافة القاعدة المربعة والطبقة الحجرية المسطحة التى تعلو قمة الأسطون) بينما يبلغ محيطه ٣٤ قدما ٦ بوصات ١٠ أما الاساطين الأصغر فان طول الواحد منها يبلغ ٤٢ قدما ، ٥ بوصات ومحيطه ٢٨ قدما . وجميع الاساطين قد دفنت فى الأرض الى عمق يصل الى ستة أو سبعة أقدام فى الرواسب الطينية التى تخلفت عن الفيضانات التى حدثت خلال فترة تتراوح ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف عام .

خلفية عبارة عن جبل أحمر اللون . أما عن اليمين واليسار فتظهر من خلال صفوف طويلة من الأساطين ، لمحة من نقوش بارزة ضخمة تتخذ شكل صفوف على الحوائط غير المسقوفة التي تتوزع في كل اتجاه ، وكما هي العادة فقد كان الملك ظاهرا في كل مجموعة وهو يقدم فروض العبادة المعتادة بينما تستقبله الآلهة وتباركه . وكانت هذه الأشكال الفنية الرفيعة التي يظهر نصفها في الضوء والنصف الآخر في الظل ، تبرز بشكل واضح وبدون لون ، ويبلغ ارتفاع كل شكل منها حوالى ثمانية عشر أو عشرين قدما ، وبالكاد تظهر أكثر غرابة عندما كان السقف الضخم في مكانه مع وجود ضوء الغسق الدائم .

ولكن من الصعب أن نتخيل وجود سقف فوقها لأنه يغلق الاتساع الذى ينفث نحو السماء ، انها تقوم جميعا في موضعها المناسب ، ويشعر الانسان الى حد ما بأنه لم يكن من الضروري وجود شيء يفصل بين مثل هذه الأساطين والأعماق الزرقاء اللانهائية للسماء .

وكان الطريق العظيم مضاء بما فيه الكفاية بفعل صف مزدوج من النوافذ التي في الجزء العلوى من الحائط الذى يبرز من السقف وما زال بعضها باقيا حتى الآن ، وقد افترض بعض الدارسين أنها ربما كانت زجاجية ، ولكن هذا غير محتمل لسببين : الأول هو أن واحدا أو اثنين من براويز هذه النوافذ الضخمة مازال يتضمن المشربية الحجرية الصلبة التي تغطيها والتي يبدو في الوقت الحالى أنها قامت مقام المادة نصف الشفافة . والثانى هو عدم وجود دليل يبين أن المصريين القدماء قد صنعوا ألواح الزجاج أو أنهم استخدموه في مبانيهم بهذه الطريقة رغم أنهم عرفوا استخدام أنابيب النفخ لصناعة الزجاج منذ أيام خوفو .

فكيف كتبت العبارة القائلة بأن البهو الكبير في الكرنك هو أعظم الأعمال المعمارية التي صممت ونفذت بأيدي الانسان ؟ وكيف أمكن تكرار هذه العبارة ؟ يقول لنا أحد المؤلفين ان مساحته تبلغ أربعة أضعاف المنطقة التي تقوم فيها كاتدرائية نوتردام في باريس ، بينما يقارنها مؤلف آخر بكاتدرائية القديس بطرس في روما . وبينما يتحدث الجميع عن عدم قدرتهم على وصفه الا أنهم يحاولون تقديم هذا الوصف ، وذلك لكي ينقلوا صورة ملموسة لمن لم يشاهده ، ولكن ذلك مستحيل كما سبق أن قلت ، ولو كان يشبه هذا المكان أو ذاك لما صعبت علينا مهمة وصفه ، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد مبنى في هذا العالم الواسع نستطيع أن نقارنه به ،

فالأهرام أكثر عظمة ، أما مسرح الكولوزيوم (فى روما) فيغطى مساحة أكبر ، أما معبد البارثينون (فى أثينا) فأكثر جمالا ، ولكن بهو الأعمدة يتفوق عليها جميعا من حيث عظمة الفكرة ، وضخامة التماثيل ، وجلال التنظيم الرفيع . ان هذا المدخل وهذه الأعمدة هى كلها من عجائب الدنيا . كيف تم رفع هذه العارضة الحجرية الأفقية ؟ وكيف تم نصب هذه الأعمدة ؟ يقول مشاهد حديث العهد بعد أن دخل بين هذه الأعمدة الجبارة : « ستشعر بأنك قد انكشيت حتى أصبحت فى مثل حجم وعجز الذبابة » ولكننى أظن أنك ستشعر بأكثر من ذلك ، انك ستذهل عندما تفكر فى الرجال الأقوياء الذين صنعوها وستقول لنفسك : « لقد كان هناك عمالقة حقيقيون فى تلك الأيام » .

وربما أحس السائح الذى يجد نفسه لأول مرة كما لو كان فى وسط غابة من أشجار المطاط الضخمة الحجم والارتفاع *Willingtonia Gigantica* نفس الاحساس الساحق بالرهبة والغرابة ، ولكن الأشجار الضخمة بالرغم من أنها احتاجت الى ثلاثة آلاف عام لكى تنمو وتصل الى هذا الحجم ، الا أنها تفتقد الاثارة والغموض اللذين يحققهما العمل الانسانى ، انها لا تضرب بجذورها فى أعماق ستة آلاف عام من التاريخ ، وكذلك لم تترك بدما ودموع الملايين (١) الذين لم تعرف حياتهم أصواتا تقل فى جرسها الموسيقى عن غناء الطيور ، أو عويل الرياح الليلية وهى تكنس مرتفعات كلجيرا (*) ولكن يبدو أن كل نفس ينطلق خلال أجنحة الكرنك الملونة ، يرجع صداه حاملا تنهدات هؤلاء الذين قضوا نحبهم فى المحجر ، وفوق المجاديف ، وتحت عجلات مركبة الغازى .

وبالرغم من أن البهو السفلى بناه سبتى الأول والد رمسيس الثانى الا أن بعض علماء المصريات يفترضون أنه قد صمم - ان لم يكن قد بدأ تنفيذه - فى عهد أمنحوتب الثالث الذى أسس معبد الأقصر وأقام التماثيل الضخمة التى فى السهل . ويحتمل أن تكون هذه الخراطيش المنحوتة بوفرة على الأسطون والاطار الخشبى الذى يحيط بالباب ، لا تتضمن سوى أسماء سبتى ، الذى لا نشك فى أنه قام بتنفيذ العمل كله ، وأسماء رمسيس الذى أكمله .

(١) لقد حسب العلماء أن كل حجر فى هذه المعابد الفرعونية الضخمة يساوى على الأقل حياة انسان .

(*) تقع جنوب استراليا الشمالية - (المترجم) .

والآن ، أليس غريبا أن نعرف اسم وتاريخ المهندس الذى أشرف على بناء هذا البهو العجيب ، وصمم المدخل الضخم الذى يستخدم للدخول اليه ، والبوابتين العظيمتين اللتين تقعان على كلا الجانبين ؟ أليس من المثير أن ننظر الى صورته ونعرف أى صنف من الرجال كان ينتمى اليه ؟ حسنا • ان القاعة المصرية فى متحف ميونيخ تتضمن تمثالا

وجد فى طيبة منذ حوالى سبعين عاما يمثل ذلك الرجل وقد نقش اسمه عليه ، كان اسمه : باك - ان - خونسو (خادم خونسو) انه يجلس على الأرض فى حالة تأمل وقد أطلق لحيته وارتنى رداءه ، وقد ظهر من النقوش على ظهر التمثال أنه رجل يتميز بقدرة غير عادية ، وتسجل هذه النقوش خطوة خطوة ، ترقيته الى أعلى درجات السلطة ، لقد حصل على منصب رئيس الكهنة والنبي الأول للاله آمون خلال حكم سيتى الأول ، وأصبح كبير المهندسين لمدينة طيبة خلال حكم رمسيس الثانى ، ونال تفويضا ملكيا بالاشراف على زخرفة المعابد ، وعندما أقام رمسيس الثانى أثرا لأبيه المقدس آمون رع تم تنفيذ بناء هذا الأثر تحت اشراف باك - ان - خونسو • ويمضى النقش هنا كما ترجمه مسيو ديفيريا فيقول انه « أقام الصرح المقدس فى البوابة العليا فى دار آمون (١) وأقام مسلات من الجرانيت وعمل صواري ذهبية للأعلام ، وأضاف صفوفًا من الأساطين البالغة الضخامة » •

ويظن مسيو ديفيريا أن معبد القرنة قد يكون هو المقصود هنا • ولكن يجوز الاعتراض على ذلك بأن معبد القرنة يقع فى الجزء السفلى وليس العلوى من طيبة ، وأنه لا توجد فى معبد القرنة صفوف من الأساطين الضخمة أو مسلات ، والأكثر من ذلك هو أنه لسبب غير معروف لدينا حاليا يبدو أن إقامة المسلات قد انحصرت كلية فى البر الشرقى لنهر النيل • ومن الممكن ألا تكون الأعمال التى سردت هنا قد نفذت لنفس المعبد وحده • ان « الصرح المقدس فى البوابة الشمالية لمسكن آمون » لابد وأن يكون هو معبد الأقصر الذى زينه رمسيس بالمسلتين الوحيدتين اللتين تنسبان اليه فى طيبة ، والصرح الذى أقامه لأبيه المقدس آمون (من الواضح أنه بناء جديد) من المحال أن يكون شيئا آخر غير

(١) بر آمون أو با آمون هو أحد الاسماء القديمة لمدينة طيبة التى كانت هى المدينة المقدسة المخصصة للاله آمون • وقد نسب البعض كذلك كلمة آبت أو أبوت أو أبيتو الى أصل هندى المانى بمعنى دار أو مسكن وهو اسم آخر لمدينة طيبة ولكن من المحتمل أن يكون أكثر اسماء المدينة استخداما هو يواز Uas •

الرمسيوم ، بينما « صفوف الأساطين البالغة الضخامة » التي ذكرت بوصفها اضافات ، يبدو كما لو أنها تخص فقط البهو السفلى في الكرنك ، وهذا السؤال في جميع الحالات ملئ بالاثارة . ويسعدنا الاعتقاد بأننا لا نجد في تمثال متحف ميونخ مجرد صورة لشخص لعب دور مايكل أنجلو في الكرنك خلال فترة مضت ودخلت في طي النسيان ، ولكنه كان أيضا مصمم Ictinus الرمسيوم ، لأن الرمسيوم هو بارثينون طيبة .

عندما انتهينا من الجولة في الأطلال الرئيسية ، كانت الشمس تميل الى الغروب والظلال تتمدد ، فركبنا حميرنا واتجهنا نحو الأقصر . أما وصف ما رأيناه بعد مغادرة البهو الكبير فلا بد وأنه سيستغرق فصلا كاملا من الكتاب . ان المسلات الضخمة المصنوعة من الجرانيت اللامع ، التي أقيم بعضها ، بينما تهشم بعضها الآخر ، والخطوط الضخمة على الحوائط المنقوشة التي غطتها موضوعات المعركة العجيبة ، والمواكب المقدسة ، والتسجيل التفصيلي لأعمال الملوك ، والأفنية المحطمة المحاطة بصفوف من التماثيل التي بدون رؤوس ، والهيكل المبنى بكامله بالجرانيت اللامع ، والنقوش المحفورة مثل الجوهرة ، وبهو الأساطين الثاني الذي يعود تاريخه الى الأيام الأولى للملك تحوتمس الثالث ، والمتاهات المكونة من الحجرات التي بدون سقف ، والتماثيل المشوهة ، والبوابات المهشمة ، والأساطين الساقطة ، والقواعد الصلبة ، والنقوش الهيروغليفية التي ليس لها نهاية ، التي حملتنا فيها ، وهرنا بها ، قد تلتها عجائب حديثة ، ولا أجسر على تلخيص العدد الكبير من المعابد الصغيرة التي شاهدناها خلال مسار هذا المسح السريع . وفي أحد الأماكن رأينا منطقة متموجة من حشائش الحلفاء الجافة ، التي جثمت في وسطها مجموعة محطمة ومشوهة ومهجورة من تماثيل الكباش الجرانيتية الخضراء ، وتماثيل برؤوس لبؤات . وفي مكان آخر رأينا تمثالا لصقر ضخم واقفا على قاعدته في وسط محيط من الخرائب . وقد مررنا بالمزيد من طرق الكباش ، والمزيد من البوابات ، والمزيد من التماثيل قبل أن يقودنا الطريق الذي اتخذناه في العودة للدوران حول ذلك الذي أتينا منه . وفي ذلك الوقت وصلنا الى ضريح الشيخ عند حلول الغسق ، وركبنا حميرنا عبر السهل في صمت وارتباك . ألم أقل ان ذلك كان يشبه العلم ؟

الفصل التاسع

من طيبة الى أسوان

تلا غروب شمس مصر الصافية ليل مليء بالأعاصير ، وقد بدأ هبوب الرياح حوالى الساعة العاشرة ، وعند منتصف الليل تحول النهر الى أمواج عاتية ، وأخذت ذهبيتنا تترنج في مرساها مثل سفينة في البحر ، وأخذت الرمال تهب من الصحراء الليبية في نفحات غاضبة ، وتخبط في نوافذ قمرتنا مثل الواابل . وكنا في كل لحظة نصطدم اما بالضفة أو بالقارب . وأخيرا وقبل الفجر بقليل ، انهارت قطعة ضخمة من الضفة ، وأصدرت صوتا كالرعد وهى تندفع كالانهيار الثلجى فوق سطح الذهبية ، وحينذاك انزعج الرئيس حسن من أجل سلامة المركب وجذبنا الى ركن صغير مخفى عن الرياح على ارتفاع عدة مئات من الياردات . وعلى العموم فاننا بعد اللجوء الى هذا الركن عشنا ليلة تفيض بالنشاط لم نصادف مثلها منذ رحيلنا عن بنى سويف .

وفى صباح اليوم التالى كان المنظر كثيبا ، فالنهر ترتفع أمواجه مزبدة ، وتجمعت القوارب معا أسفل الشاطئ ، واختفت الضفة الغربية داخل سحب من الرمال ، وأصبح السير مستحيلا لأن الرياح كانت منصبة علينا ولم يكن المضى الى أى مكان على الأرض موضع سؤال . وكان معبد الكرنك يظهر ضخما من خلال العاصفة الرملية ولكن الانسان يحتاج الى خوذة الغواص لحماية العينين والأذنين من الدمار .

وعند الظهر هدأ غضب الرياح بحيث استطعنا عبور النهر وركوب الحميز الى مدينة هابو والرمسيوم ، وقد حققنا لمحة عابرة نحو هذه الأطلال العجيبة ، ولكننى لن أتحدث عنها الآن ، فقد تعرفنا اليها بشكل أفضل فيما بعد فأصبح مجرد الانطباع الأول لا يستحق التسجيل .

وفى اليوم التالى ساعدنا النسيم المناسب رغم رقتة ، على المضى حتى أرمنت ، وهى مدينة هيرمونثيس Hermonthis (أرمنت) البطلمية ،

والتي كانت يوما ما مقر معبد كبير ، وهى الآن مقر مصنع كبير للسكر .
ورسونا هنا لقضاء الليل ، وبعد الغداء وصلتنا زيارة رسمية من البك
- وهو رجل طويل ونحيف حاد الملامح لامع العينين ، يرتدى الملابس
الأفريقية - ومن الواضح أنه كان وجيها وحسن التربية . وقد جاء بصحبة
سكرتيره القواس وحامل غليونه ، وعرفنا الآن أن بك أرمنت هو شخصية
مرموقة فى هذه الأنحاء ، انه حاكم المدينة وهو أيضا المشرف على مصنع
السكر ، كما أن له سلطة عسكرية ، وكان قصره وحدائقه فى موضع
قريب ، وكذلك كان يخته الخاص فى مرساه على النهر ، وهو تركى
الأصل مثل كل كبار الموظفين فى مصر . أما السكرتير الذى كان هو الأخ
الأصغر للبك فقد ارتدى رداء خارجيا بدون أكرام ذا لون بنى ، فوق
جلباب أبيض طويل ، وترك شيشبه عند باب الصالون . وجلس طول
الوقت طاويا أصابع قدميه الى أسفل ، فظهرت قدماء داخل الجورب مثل
قبضتين مضمومتين ، وقد ارتدى كل من الرجلين طربوشا وحمل عصا
الزيارة ، وبالمناسبة فان عصا الزيارة تلعب دورا بارزا فى الحياة المصرية
الحديثة ، ويبلغ طولها قدما ونصف القدم وقد وضع فى كل من طرفيها
مبسم من الذهب أو الفضة ، ومن المفروض أنها تضيف لحاملها آخر
لمسات الرشاقة .

وقد أسعدنا ضيوفنا بتقديم القهوة والليمونادة ، كما تجاذبنا معهم
أطراف الحديث بقدر استطاعتنا . وقص علينا البك الذى لم يكن يتحدث
إلا التركية والعربية ، قصة شيقة عن أشغال السكر ، وأرسل حامل
غليونه لاحضار حزمة من أعواد القصب وبعض عينات من السكر الخام ،
والمبلور ، وذكر أن لديه ملاحظ عمال انجليزى وعدد من العمال الانجليز ،
وأنه شديد الإعجاب والتقدير بالانجليز كشعب عظيم . أما عن عدم اهتمام
العرب بأسئلتنا عن الآثار فان اجاباته لم تكن شافية . لقد اختفى كل
أثر للمعبد الكبير منذ زمن طويل ، بينما بقى من المعبد الصغير عدد قليل
من الأساطين وجزء من الحوائط ، وهما يقعان خلف المدينة على مسافة
بعيدة من النهر ، ولم يكن هناك ما يستحق المشاهدة الا القليل منها ،
وهى كلها صغيرة ورديدة ولا تستحق مشقة الحديث عنها . أما عن القطع
الأثرية فمن النادر العثور عليها ، واذا عثر على شيء منها فانه ضئيل
القيمة .

وقد مرر علينا الجعل الذى كان يرتديه بوصفه فصا لأحد الخواتم
فأعجبنا به . وأخيرا جاء الدور على السيدة الصغيرة لفحصه وإعادته الى
صاحبه ، ولكنه رفض استعادته مع انحناء وإيماءة تشير الى عدم الرغبة

فى ذلك . لقد كان الحاتم مجرد لعبة لا تساوى شيئاً ، ولكن السيدة أجبرت على قبوله رغم أنها لم تكن راغبة فى ذلك . ان الامتناع يعنى التعدى ، ولكن الطريقة التى حدث بها هذا القبول هى التى أعطت البهجة لهذا الحدث الصغير ، لأن ما تضمنه من الكياسة ، والاستجابة ، والمجاملة ، وعدم المبالاة ، كانت كلها جذيرة بالاعجاب . كان ماكرىدى فى أفضل أيامه قادراً على أدائها بشكل رفيع ، ولكن حتى هو لم يكن من المحتمل أن يسهر عن التحفظ الشرقى الذى تميز به وجيه أرمنت .

ودعانا بعد ذلك لزيارة مصنع السكر (أبينا ذلك لأن الوقت كان متأخراً) فرحل فى الحال . وبعد ذلك بعشر دقائق وصلتنا مجموعة كاملة من الهدايا بينها ثلاث باقات كبيرة من الورد للسيدات ، واثنتان من الجوارين وتمثال جنازى صغير من البورسلين الأخضر النادر ، وديك رومى حى . أما من جهتنا فقد أرسلنا فى المقابل مدية أنجليزية ومعها مجموعة من الأنصال ، وعدة قوارير من المربى الانجليزية .

وفى صباح اليوم التالى هبت الرياح مع اشراقة الشمس ، وعند تناول الافطار رحلنا عن أرمنت الى ما بعدها ، وقد خدمتنا الرياح الطيبة طوال هذا اليوم ، كما أن النهر كان مزدحماً بقوارب البضائع ، ومضت فيلة بكامل سرعتها ، كما احتفظت السفينة الصغيرة باجستونز بسرعتها . أما الفسقاط وهى ذهبية انجليزية مصنوعة من الحديد ومزدحمة بالسائحين الانجليز ، فقد صاحبتنا طوال فترة بعد الظهر . وكنا جميعاً متجهين نحو اسنا وهى مدينة تجارية كبيرة تقع على مسافة ستة وعشرين ميلاً جنوب أرمنت ، وهنا فى اسنا كان من اللازم أن يقوم الرجال مرة أخرى بإعداد الحبز ، وظهر شوق الرئيس حسن الشديد للنزول أولاً وتدير الفرن وشراء الدقيق قبل حلول الغسق . وكان ريس الفسقاط وريس الباجستونز فى مثل شوقه ولنفس الأسباب . وفى نفس الوقت كان رجالنا شديدي الانفعال وهم يراقبون تحركات القوارب الأخرى ، وقد تعلقوا بحبل الشراع مثل جماعة من النحل ، مع طاعة الأوامر بنشاط غير مألوف ، وعندما اقتربنا من الهدف تزايدت حرارة السباق ، وأصبح تفوق كل سفينة هو الهدف وتناسى الجميع مسألة الحبز مع هذا السباق . وأخيراً وصلت الذهبيات الثلاث فى وقت واحد ، ورست بجانب بعضها أمام صف من المقاهى الصغيرة خارج المدينة .

وتقع اسنا (واسمها المصرى القديم سنى واللاتينى لاتوبوليس Latopolis) فوق نلال المدينة القديمة ، وهى مدينة كبيرة تشبه المنيا

من بحيث المساحة ، وهى أيضا عاصمه وحدة ادارية مثلها • وهنا أعد التراجمة امدادات الجير ، والفحم النباتى والدقيق والمعدات الحية اللازمة للرحلة الى النوبة ، وأخذ البحارة يخبزون خبزهم للمرة الأخيرة قبل عودتهم الى مصر ، ذلك لأن الطعام نادر فى النوبة ، والأسعار مرتفعة بالاضافة الى عدم وجود أفران عمومية •

وقد وصلنا الى اسنا حوالى الساعة الخامسة فى يوم انعقاد السوق ، ولم تكن السوق قد انفضت بعد ، ولما مضينا خلال متاهة الحواري الطينية وبيوتها الخالية من النوافذ ، حيث جثم كبار السن يدخنون ، تحت كل شبر من الحائط الظليل ، وبينما تجمع الأطفال مثل الذباب ، كانت صيحة البقشيش تتر متوالية فى آذاننا • ثم أتينا الى فضاء واسع فى الجزء العلوى من المدينة ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى وسط السوق، وهنا رأينا عامة الفلاحين يبيعون المنتجات الزراعية ، وأصحاب الأكشاك يعرضون الأمشاط ، والمرايا ، والمناديل المطبوعة بألوان صارخة ، والأساور الرخيصة المصنوعة من العظام والزجاج الملون • وكانت الجمال ترقد مستريحة وتزمر نحو كل عابر ، بالاضافة الى الحمير الصبورة ، والكلاب الضالة ، والنساء المحجبات ، والرجال الذين يرتدون الأردية الزرقاء والسوداء ، وكافة المناظر والأصوات المعتادة فى السوق المحلية • وهنا أيضا وجدنا الرئيس حسن يساوم على شراء الدقيق وتلحمى يلح على بائع الفحم النباتى ، والسيدتان م • وب • تشتريان لنفسيهما الديوك الرومية والأوز ، وكمية ضخمة من التبغ لبجارتهم • وكان أفضل المناظر هو منظر محل مهمل للعطارة فى مثل حجم كشك الحراسة ، وقد علقت على مدخله لافتة باللغة العربية ، بينما جلس فى داخله أعرايى محنئ الظهر ، أشيب الشعر • فاشترينا زجاجة كبيرة من ماء الورد لعمل محلول لغسيل عيون مرضى الرمى •

وفى نفس الوقت كان هناك معبد اسنا ، وكان هذا المعبد كما قيل لنا ، يقع بجوار موقع السوق ، ونظرنا حولنا بحثا عن علامة تدل على وجود بوابة أو رواق دون جدوى • وقال العطار ان المعبد قريب ، وأشار راكب أحد الجمال الى بوابة خشبية متداعية بين منزلين متجاورين • وتطوع ولد صغير بأن يقودنا الى الطريق • وقد كنا شديدي الارتباك لأننا كنا نتوقع أن نرى المعبد شامخا فوق المنازل المحيطة كما هو الحال فى الأقصر ، ولم نفهم بأية حال كيف لا يمكن رؤية مثل هذا المبنى الضخم الذى توصل اليه هذه البوابة •

وعلى كل حال ، فان الولد جرى مسرعا ودق على البوابة وصاح :
« عباس ! عباس ! » وأضاف محمد على الذى كان يقوم بالحراسة بعض
الطرق المديوية بقبضة يده ، واحتشد جمع صغير دون أن يأتى عباس .

وكما هي العادة فقد تطوع المتفرجون بنصائحهم المجانية فأشاروا
على الولد بأن يتسلق ، وعلى البحار أن يدق بصوت أعلى ، وقالوا ان
عباس الغائب يمكن أن نجده فى قهوة مجاورة ، وقد عبرت عن رأيي
بعد أن نفذ صبرى بأنه لا يوجد معبد اطلاقا ، بينما ارتفعت دستة من
الأسوات تؤكد لى أن البرية (المعبد) ليست خرافة ، وأن المعبد كبير
و « كويس » وأن جميع الانجليز يأتون لمشاهدته .

وفى وسط الضجة ، وعندما قررنا أن نعود يائسين ، انفتحت
البوابة ، وخرج رجال فصيلة الفسطاط وهم يرتدون البنطلونات
القصيرة ، وأخيرا سمح لنا بالدخول .

وهذا هو ما رأيناه أمامنا - فناء صغير محاط بحوائط طينية ، ورأينا
فى الطرف البعيد من الفناء مدخلا متداعيا ، وظهرت خلفه كتلة غريبة
الشكل وهائلة الحجم من الحجر الجيرى الأصفر . كانت مستطيلة
ومنخفضة ومستوية السطح وفائقة الضخامة ، عرفنا أنها الافريز الدائرى
لمعبد عظيم ، وعلى بعد خطوات قليلة شاهدنا معبدا غير مهتم ولا مشوه ،
ولكنه مدفون حتى ذقنه فى القمامة المتراكمة على مدى عدة قرون ، وكان
واضحا أن هذا الجزء هو الرواق ، ووقفنا بالقرب منه تحت صف من
الدعامات الضخمة التى تحملها أساطين مدفونة تحت أقدامنا ، وكان
الافريز الثقيل بارزا فوق رؤوسنا ، وتبلغ المسافة ما بين المستوى الذى
نقف عليه وحتى قمة هذا الافريز حوالى خمسة وعشرين قدما ، وهناك
حائط مرتفع من الطين يحاذى الواجهة بطول عرضها تاركا بين الاثنين
ممرًا يبلغ عرضه اثنى عشر قدما ، وكان هناك حاجز طينى منخفض وسور
يصل ما بين كل دعامة وأخرى . وكان كل ما تلا ذلك غامضا ومنخفضا
ومحاطا بالأسرار وهو عبارة عن هوة غارقة فى الظلام ظهرت فى وسطها
أنسباح باهتة للعديد من الأساطين التى نراها بصعوبة ، ومن خلال فتحة
بين اثنتين من الدعامات رأينا مجموعة من درجات سلم من القرميد تقود
الى قاعة واسعة تقع أسفل سطح العالم الخارجى ، ذات مظهر مقبض
ومربع ، وربما كانت هي بوابة الهاوية .

وبعد أن هبطنا مع هذه الدرجات وصلنا الى المستوى الأصلى
للمعبد . الآن ونحن نطأ الأرضية القديمة ، وننظر الى السقف الضخم

المجوف والمنقوش والملون مثل سقف معبد دندرة ، اعتقدنا أننا نقف حقا في بهو الأساطين بمعبد دندرة مرة أخرى ، فهنا نجد نفس العدد من الأساطين ، ونفس ترتيب الحاجز الذي بينها ، ونفس المناخ العام والملامح الأساسية للتصميم ، ولكن معبد اسنا أكثر إثارة في بعض نواحيه لأن الأساطين بالرغم من أنها أقل ضخامة عن مثيلتها التي في معبد دندرة إلا أنها أكثر رشاقة ، كما كانت أكثر ارتفاعا ، وكانت مغطاة بأشكال الآلهة والشعارات وصفوف من النقوش الهيروغليفية ، وجميعها محفورة حفرا غائرا . أما تيجانها فانها ذات أشكال طبيعية تمثل أزهار اللوتس أو البردى ، أو رؤوس نخيل البلح بخلاف أساطين دندرة الضخمة التي تلتحف بتيجان تمثل رأس البقرة حتحور . وكذلك كانت النقوش المنحوتة على الحوائط مختلفة عن تلك التي في دندرة ، وكذلك تختلف عن تلك التي في الكرنك بدرجة كبيرة . وكانت الأشكال من الطراز البطلمي ، وجميعها ذات حجم واحد . وكانت النقوش متباعدة وليست متجمعة في مجموعات مما جعلها تمثل أفضل أشكال زخارف الحائط التي أبدعها الانسان ، فقد كانت موزعة في أساطين متناسقة تعطي الاحساس بأنافة العمل الضخم المعبر عن الحرية العظيمة التي استكمل بها هذا الانتاج اليدوى المضيء وذلك بالمقارنة مع طراز نقوش الكرنك الذى يتميز بالمبالغة .

وتحتل هذه الدرجات مكان المدخل الكبير . أما العوارض الرأسية وجزء من الافريز ، والحاجز الذى بين الأساطين التي دخلنا تحت دعائمها العلوية ، فقد كانت كلها نصف ظاهرة ونصف غائرة فى الرابية الصلبة التي ورائها . وكان الضوء يدخل من أعلى خلال فراغ ضيق جدا ، بحيث تحتاج العين الى التعود على الرؤية فى الظلام قبل أن تتعرف على أى من هذه التفاصيل ، وبالتدريج أخذت أشكال الآلهة المعروفة وغير المعروفة تنبثق من خلال الظلام .

وكان المعبد مخصصا للاله خنوم روح العالم الذى نراه الآن للمرة الأولى . ان رأسه رأس كبش ويمسك بيده علامة العنخ أو رمز الحياة (١) .

(١) كان الاله خنوم منذ الازل أحد الآلهة الكوثية المصرية ، فهو الخزاف المقدس لأنه هو الذى أوجد الانسان من الصلصال ونفخ فيه نسمة الحياة . وهو يظهر أحيانا أثناء عملية تشكيل الانسان الاول أو تلك البيضة العصرية التى خرج منها ليس الانسان فقط بل العالم الكائن بواسطة عجلة الفخار المعروفة . وفي أحيان أخرى يرسم وهو فى قاربه ، يتحرك فوق صفحة المياه فى فجر الخليقة . وفى عصر الأسرة العشرين تطابق الاله =

مبنى اسلحة



كما أمكن التعرف على شكل جديد هو الآله بس (أ) وهو الآله المشوه الخلقة المختص بالمرح والبهجة . أما الشيء الثانى الذى اجتنب انتباهنا فهو أسطونان صغيران منعزلان قد بنيا بين الأساطين على يمين ويسار المدرجات ، وهما يشبهان جوسق الحراسة الحجرى . وكان كل منهما متكاملًا فى حد ذاته من حيث السقف والافريز المنحوت والمدخل ، وأيضا شبك صغير مربع فى الجانب . وتبين النقوش التى على مبنيين مشابهيْن لهما فى الرواق بمعبد ادفو ، أن الخزانة اليمنى قد تضمنت الكتب المقدسة الخاصة بالمعبد . بينما احتوت الخزانة التى على يسار المدخل الرئيسى ، مناظر للملك وهو يؤدى طقس التطهير . ولذلك فمن المحتمل أن يكون هذان الموجودان فى اسنا قد أقيما لنفس السبب .

والآن ، نحن نبحث عن القاعدة التالية ، وننظر بلا جدوى ، لأن المدخل الذى يقود اليها مسدود بحائط ، وكان الرواق قد كشف عنه فى أيام محمد على سنة ١٨٤٢ ، ليس تعبيراً عن الاهتمام بالآثار ، ولكن لعمل مستودع سفلى لحفظ ملح البارود . وحتى ذلك الوقت وكما هو ظاهر فى رسم بكتاب ويلكنسون وعنوانه : (طيبة ومنظر عام لمصر) Thebes and General view of Egypt ، فقد كان الداخل يفوص بين رؤوس الأساطين لمسافة تقدر بعدة أقدام وقد استخدم مخزنا للقطن . ولا نعرف شيئاً عن بقية البناء لعدم وضوح شيء . ومن المحتمل أنه فى مثل حجم معبد دندرة أو معبد ادفو ، وهو سليم كما يقول التقليد المحلى ، ولكنه لا يستطيع أن يشير الى مساحته التى تقع تحت أساسات المنازل الحديثة التى تحتشد فوق سطحه . ويذكر نقش كان شامبليون قد أول من لاحظته ، أن تحتمس الثالث قد بنى هيكلًا من قبل . فهل ما زال ذلك الهيكل الأثرى موجوداً هناك ؟ وهل اتسع المعبد خطوة خطوة تحت حكم الملوك المتتابعين مثلما هو الحال بمعبد الأقصر ؟ أو أنه قد أعيد بناؤه فى احتفالات النصر مثلما حدث فى دندرة ؟ وهذه أسئلة محيرة إلا اذا

= خنوم مع الآله رع ، كما تطابق كذلك مع الآله آمون . وصار يعبد فى الواحة الكبرى فى العصر الاغريقى تحت اسم آمون خنوم . وهو يعرف أيضا باسم « روح الآلهة » ويظهر فى هذه الشخصية وفى شخصيته الشمسية برأس كبش ، أو على هيئة كبش . ومن بين القايه الأخرى « صانع الآلهة والناس » . وكذلك كان خنوم أحد آلهة الشلال وكبير آلهة التالوث الذى عبد فى جزيرة الفنتين ، ويذكر نقش فى معبد فيلة أنه « صانع كل الموجودات ، وخالق كل الكائنات ، وأنه أول الوجود ، أبو الآباء وأم الأمهات » .

(١) يظهر الآله بس فى الصور أحيانا بوصفه الها مستورا من آسيا . ويظهر مسلحا بسيفه الذى يستلّه فوق رأسه ، وهو معروف فى هذا الدور بوصفه الهه المعارك . وقد ورد ذكره كثيرا بوصفه الهه الرقص والموسيقى واللاهو « - مارييت بك .

بحثنا عن أجوبتها بهدم ربع المدينة • وفى نفس الوقت كم من كنوز التاريخ المحفور ، وكم من الحجرات الغنية بالنقوش ، وكم من التحف البرونزية المدفونة والتماثيل ستكون موجودة هنا فى انتظار معول من سيقوم بالحفر !

وقضت الكاتبة طوال اليوم التالى جالسة فى ركن من الممر الخارجى وهى ترسم رواق المعبد ، بينما كان الرجال يخبزون خبزهم • وقد أشرقت الشمس من الأفق الشرقى ، وغربت فى الأفق الغربى قبل الانتهاء من هذا الرسم ، ولكنها بقيت أكثر من ساعة تضى مقدمة المعبد • وفى حوالى الساعة التاسعة والنصف صباحا بدأ ظهور الضوء على الشريط الحجرى فى الزاوية ، ثم ظهرت قمة أسطون محددة بشرط رفيع من الضوء الذهبى ، ومع اتساع هذا الشريط ظهر الافريز فى لون نارى ، ثم برز المعبد كله فى النور وهو يناطح السماء ، وبعد ذلك أخذت الشمس تختفى بالتدريج ولكن فى وضوح تام عبر الفضاء الضيق الذى يعلو الأفق ، وصارت الظلال رأسية ، وأخذ الضوء يبدل فى شكل الجوانب ، وفى الساعة العاشرة خيم الظل حتى نهاية اليوم ، وعند الظهر صارت الشمس فى قمة ارتفاعها ، وأخذت تيجان الأساطين الداخلية التى خيم عليها الظلام تضى بفعل الضوء العجيب المنعكس ، وأضاءت من الخارج بضوء جعلها تبدو مثل أعمدة من نار •

وهناك ضمن قواعد الحياة على النيل قاعدة تمنعك من النزول الى الشاطئ بدون حراسة • وحتى ذلك الوقت كان سلام قد أصبح كله تحت أمرى ، انه مواطن من أسوان صغير السن ونشيط وذكى ومفعم بالحركة مع الطبع الحار ، فكان بذلك وجيها كاملا ، وكنت سعيدة بمعرفته • أما الدليل على حسن تربيته فهو ذلك اليوم الذى قضيناه فى اسنا ، وهو يوم كان من المفروض أن يقضيه فى التسكع فى أسواق العاديات والمقاهى ، ولابد أنه أحس بالملل مع الانشغال بقضاء اليوم محبوبا بين الحائط الطينى والمعبد الغريب الشكل الذى بناه الجن الذين حكموا قبل عصر آدم • ولكن سلام لم يظهر عليه عدم الرضا ، وقد انطوى على نفسه فى أحد الأركان يراقب ما عمله ، وهو مستعد بالشمسية عندما تشتد حرارة الشمس ، وأخذ يعيد ملء زجاجة الماء أو يمسك بصندوق الألوان بمهارة ، كما لو كان قد تدرب على ذلك منذ ولادته • وقد وصل غدائى فى الساعة الواحدة محفوطا فى حامل للأطباق • ولما كنت مشغولة بحيث لا أستطيع الانصراف عن العمل ، فقد نحيت الحامل جانبا وأرسلت سلام الى السوق لكى يشتري لنفسه غداء ، وهو عمل أبدي رغبته فى أدائه

بطريقة مهذبة • وقد أهديته مبلغ قرشين من الفضة وهو ما يساوى خمسة بنسات بالعملة الانجليزية ، ويستطيع بهذا المبلغ أن يشتري ثلاث أو أربع فطائر من الخبز المتلى الطازج وكفتة من اللحم المشوى وغشورات ونصف رطل من التمر •

ولما كنت أعلم أن هذا الغداء أفضل مما يتناوله هذا الصديق كل يوم ، كما أعلم أيضا أن بحارتنا قد تعودوا على تناول الطعام وقت الظهر ، فقد تعجبت وأنا أراه يترك هذه المأكولات اللذيذة دون أن يتذوقها ، فقلت فى صوت خفيض « بسم الله » محاولة إجباره على تناول الطعام فى كلمات لفظية ، بالإضافة الى الحركات التعبيرية ، فضحك وهز رأسه وطلب الاذن بتدخين سيجارة متعللا بأنه لا يشعر بالجوع • وعلى ذلك فقد مرت ثلاث ساعات • ولما كنت قد تعودت على الصوم الطويل ومع الاندماج فى الرسم الذى كنت أرسمه ، فقد نسيت كل ما يتعلق بحامل الأطباق ، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عندما بدأت فى اصلاح النسيج فى ضوء النهار باستخدام أقل وقت ممكن • والآن بدأ سلام الوفى فى تناول الطعام بشهية قضت على الفطائر والكفتة والتمر كما لو كان قد استخدم السحر • أما بخصوص ما بقى من غذائى فقد تناوله فى مثل لمح البصر • ولم أر انسانا يتناول طعامه بمثل هذه الشهية الا فى عروض التمثيل بالاشارات (البانتوميم) • وفيما بعد جعلت تلحى يوبخه بسبب هذا الصوم الطويل الذى تطوع به •

فقال : « أقسم بالنبى - أننى لست خنزيرا أو كلبا حتى أتناول طعامى بينما السيدة صائمة » •

وبالمناسبة فاننا لم نكتشف الا عند اسنا هذا الأمر الغريب عندما عرض على أحد الأشخاص شراء قطعة من العملة المصرية القديمة • كان الرجل الذى يريد أن يبيعها قد وجدها عندما كان يحفر على عمق بنيد تحت التلال فى أطراف المدينة بحثا عن أملاح النترات ، وتطوع بأن يطلعنا على المكان ، وأخذ يقص روايته بمثل بساطة الأطفال ، ولسوء الحظ فانه بالرغم من حقيقة هذه العملة الأثرية الا أنها كانت تحمل الصورة المعروفة للملك جورج الرابع ونقشا يبين قيمتها المتواضعة التى تساوى ربع بنس فقط • وفى مناسبة أخرى وأثناء الفترة الطويلة التى قضيناها فى الأقصر ، أحضر أحد الفلاحين الى القنارب زرا زجاجيا مصنوعا فى برمنجهام وأقسم أنه وجده فى إحدى المومياوات فى مقابر الملكات فى قرنة مرعى • وفى أحد الأيام جاء نفس الرجل الى خيمتى عندما كنت منشغلة فى الرسم ، وقد أحضر معه خيطا يضم عددا لا بأس به من الجعارين ويقول انها أثرية فعلا ولا يمكن انكار أصالتها •

فقلت له بأسف : لا أريدك أن تحضر لي المزيد من القطع الأثرية .
انها كلها قديمة ومستهلكة وغالية الثمن ، ألا يوجد لديك جعارين مقلدة ،
جديدة وصالحة للاستعمال بحيث يستطيع الانسان أن يرتديها ولا يخشى
عليها من الكسر ؟ »

وجاءت الاجابة الجاهزة : « انها مقلدة يا ست ! »

فقلت : « ولكنك قلت منذ لحظة انها قطع أثرية أصيلة »

فقال في خجل : « ذلك لأنني ظننت أنك تريد شراء آثار »

فقلت : « ما دمت تريد أن تبيع لي أشياء جديدة على أنها أثرية
فكيف أتأكد أنك لن تبيع لي أشياء قديمة على أنها جديدة ؟! وهنا أجاب
قائلا انه قد صنع هذه الجعارين بنفسه . ولما خشي ألا أصدق سحبه من
صدره قطعة صغيرة من الورق الخشن واستعار أحد أتلامي الرصاص
ورسم أفعى صغيرة ، وطائر أبى منجل وبعض الأشكال الهيروغليفية
المعروفة بمهارة ملحوظة . ثم قال بنغمة الانتصار : « هل تصدقن الآن ؟ »

فقلت : « أرى أنك تستطيع عمل طيور وأفانج ولكن ذلك لا يبرهن
على أنك تستطيع أن تصنع جعارين ولا يثبت كذلك أن هذه الجعارين
جديدة »

فاعترض قائلا : « كلا يا ست . لقد صنعتها بهاتين اليدين ، لقد
صنعتها ولكن في اليوم السابق ، وأقسم بالله أنها لا يمكن أن تكون أحدث
من ذلك »

وهنا تدخل تلحمني قائلا : « ان جعارينك في هذه الحالة جديدة جدا
وستصاب بالتشققات قبل انقضاء الشهر ، ويستحسن أن تقوم الست
بشراء بعض الجعارين في الوقت المناسب » . وهنا لمس الفلاح حاجبه
وصدره ، وقال في جو من الصراحة الأمانة : « الحقيقة أيها الترجمان هي
أن هذه الجعارين قد صنعت في وقت الفيضان . انها جديدة ولكن الى
حد ما ، لقد صنعت في موعدها الدقيق . واذا تشققت فانك تستطيع
أن تشكوني الى الحاكم وسأنال علة مقابل ذلك ! »

وقد ظهر لي أن أغرب ملامح هذا المنظر الصغير تتمثل في البساطة
العجيبة التي أبداهها هذا الأعراي ، فقد دافع بكل دهائه ، وقدرته على
الاحتتيال حتى يرفع نفسه فوق مستوى الشك مثل طفل صغير . ولم

يحدث له من قبل أن كان صدق حديثه موضع الاختبار ، أو أنه نسب لنفسه صدق كل كلمة تفوه بها . والحقيقة هي أن الفلاح نصف بدائي ، وعلى الرغم من امعانه في الكذب (ولابد أنه كان أكبر كذاب تحت السماء) إلا أنه ظل انسانا فُردا يسهل فضحه ، كما يسهل الترفيه عنه ، وخداعه ، واستثارته ، وتهدة خاطره . انه يسرق قليلا ، ويحتال قليلا ، ولكنه يكذب كثيرا . أما من الناحية الأخرى فانه صبور ، ومضيف ، وبأدي الود ، ويشقى بالآخرين . انه لا يتوقع البغضاء ، ولا يحملها في صدره ، ولا يرتكب جرائم كبيرة ، ولا يضمر الانتقام، وباختصار فان محاسنه تفوق مساوئه . وكل انسان أو شعب يحتاج الى الارتقاء بسلوكه نحو الأفضل .

وقد يبدو أسلوب التعميم هذا تجاوزا من غريب عابر سبيل . إلا أنه يلتمس العذر لأنه يحترم مصر أكثر من أي قطر آخر يضاهيها في الظروف . وفي أوربا كما هو الحال في معظم أنحاء الشرق يرى الانسان القليل من الناس بحيث لا يمكن أن يشكل رأيا حولهم ، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لمن يعيشون على النيل . وبصرف النظر عن الفنادق والسكك الحديدية والمدن ذات الطابع الأوربي ، فانك تتعامل مع المواطنين . ان المرضى الذين يحضرون الينا طلبا للعلاج ، ووجهاء الريف ، وموظفي الحكومة الذين يزورونك على ظهر مركبك ، ويسلونك على الشاطئ ، والمرشدين ، والأولاد الذين يسوقون الحمير ، والتجار الذين يعيشون على الاحتيال ، كل ذلك يشكل معينا لا ينضب من الدراسات السلوكية ، ويعلمك الكثير عن الحياة المصرية أكثر من جميع الكتب التي كتبت عن السياحة النيلية . أما بحارتك وبعضهم من الأعراب والبعض الآخر من النوبيين فهم يمثلون عالما صغيرا في حد ذاتهم . هناك رجل منهم قد ولد عبدا وسيحمل علامة النخاس معه الى القبر . وآخر لديه طفلان في مدرسة ميس هوایتلى بالقاهرة وثالث تزوج حديثا وترك زوجته مريضة في البيت ، وزبما يجدها ميتة عند عودته كما أنه لا يسمع عنها أية أخبار في الوقت الحالي . وهكذا فان وراء كل منهم قصة متواضعة ، قصة تحمل علامات الطغيان المحلي ، والالزام المرعب ، والسخرة الأكثر رعبا . وهذه كلها تشكل الوقائع الأولية . وهؤلاء المساكين على استعداد يكفى للدلاء بآمالهم ، وأخطائهم ، وأعدائهم . ومن خلال التعاطف معهم ، يمكن التعرف الى الناس ، ومن خلال الناس تتعرف الى الأمة ذاتها . لأن حياة العامة تكرر نفسها فيما عدا بعض الاختلافات البسيطة في كل مكان يجري فيه النيل ويقع تحت حكم الخديو . فالخصائص هي نفس الخصائص ، والوقائع هي نفس الوقائع ، ولا يختلف الا تبديل المناظر على مسرح الأحداث .

وعلى ذلك ، فقد يحدث أن السائح الذى يقضى حوالى ستة شهور فى رحلة نيلية ، ويهتم بمصر والمصريين ، ربما يتعلم خلال هذه الفترة القصيرة الكثير عن هذا البلد وأهله أكثر مما يحدث فى قطر آخر أقل انعزالا وانحصارا فى كافة النواحي السياسية والاجتماعية والجغرافية .

ويذكرنى ذلك بأن السائح الذى يسافر فى النيل ، يشاهد القطر المصرى كله . لأن السائح الذى ينتقل من نقطة الى أخرى فى الأقطار الأخرى يتبع خطا رفيعا من الطريق أو السكة الحديد أو النهر ، تاركا مناطق واسعة لم تستكشف على كلا الجانبين . ولكن هناك أماكن قليلة فى مصر الوسطى والعليا - وليس فى النوبة - لا يستطيع الدارس أن يحيط فيها بأية ملامح أو يقوم بأى مسح لصفحة البلد منتقلا من صحراء الى صحراء . والأفضل أن يقوم بهذا المسح مرات عديدة لأنه يساعد الدارس أكثر من أى شئ آخر فى فهم الفراغ الجبلى التائه الذى شق النيل خلاله طريقه على مدى الحقب اللانهائية ، كما يساعد الدارس فى معرفة ماهية الرداء المكون من الرواسب الطينية الذى يغطى هذا البلد الذى هو «هبة النيل» .

وقد واجهنا صباح مقبض رمادى اللون ، ونسيم ضعيف ومقطع ، رويد رويدا فى طريقنا من اسنا الى ادفو . كما ظهر الخبز الجديد بوصفه حملا ثقيلا على المركب بعد وضعه على السطح ، وقد تكوم فى كومة ضخمة عند طرف السطح العلوى ، وقد احتاج تقطيعه الى جهد أربعة رجال طوال يوم كامل ، وسببت لنا ثمرتهم المتواصلة الكثير من الارتباك . وكان تلحمى يصيح بين وقت وآخر : « اسكت يا خليفة ! اسكت يا على ! انك لست على السطح الخاص بك . ان الحواجات لا يستطيعون أن يقرءوا أو يكتبوا هذا الهراء الذى تتحدثون به » .

فكانوا يصمتون لمدة دقيقة ونصف دقيقة .

ولكن من السهل عليك أن تجعل قردا يتوقف عن الثرثرة ولا تستطيع ذلك بالنسبة للأعرابى ، فكان رجالنا يتحدثون باستمرار ، وكان حديثهم يدور دائما حول النقود . وعندما نستمع اليهم نجدهم يتحدثون بكلمات من نوعية «خسة قروش» ، «نصف ريال» ، «اثنين شلن» . ولم نعرف أبدا كيف كانت النقود تلعب مثل هذا الدور الصغير فى حياتهم بينما كانت تلعب مثل هذا الدور الكبير فى أحاديثهم .

وحسوالى منتصف النهار عبرنا الكاب التى كانت تعرف باسم Eilethyias قديما . وهناك أخذ الوادى الصخرى يضيق ، كما كان

هناك أيضا ضريح لأحد المشايخ على حافة الجبل من فوق ، وعدد قليل من مجموعات النخيل ، وبعض بقايا ما يشبه حائطاً طويلاً مبنياً من الطوب اللبن بزاوية عمودية على النهر ، وكتلة منعزلة من صخرة مجوفة من الحجر الجيري ، تركت ظاهرة في وسط محجر متهاالك . وكانت تلك هي كل ما شاهدناه من الكاب عند مرور الذهبية بها .

والآن ومع مرور فترة بعد الظهر المتراخية ، لاحت صروح معبد ادفو المخلفة بالضباب من على مسافة بعيدة ، وكنا نشاهدها لفترة طويلة قبل ظهورها ونحن نحسب كل ميل على الطريق ، وكل دقيقة من ضوء النهار . وكان النسيم قد توقف عن الهبوب حينذاك ، بينما امتد النهر أمامنا ناعماً ومتألماً مثل بركة الماء . وأخذ تسعة من الرجال في سحب المركب الى ادفو ، فهل ستصل في وقت يسمح بمشاهدة معبد ادفو قبل حلول الليل ؟

وكان الرئيس حسن يبدو متشككاً ولكنه يحتمى كعادته في عبارة «ان شاء الله» ، وكان تلحى يتحدث عن انزال بحار لكى يعدو فيسبقنا ويأمر باحضار الحجير ، بينما كانت فيلة تزحف ببطء ، وأخذت الشمس تزول مخفية خلف سحابة رقيقة ، بينما كانت هاتان البوابتان تلقيان بظلالهما أعلى وأعلى فوق الأفق كالشبح ولكنهما ظلتا على مسافة بعيدة .

وفجأة توقف السحب ، ونظروا خلفهم وصاحوا نحو الذين على سطح المركب وبدءوا في سحب القارب الى البر . وأخذ الرئيس حسن يشير بفرح نحو شريط أبيض عبر سطح النهر الناعم بمسافة تقدر بنصف الميل . وكان بحارة الفسطاط يحتشدون بأعلى السارية ، بينما عمل بحارة الباجستونز على افساح المكان لذهبيتهم . وكان رجالنا يستعدون لقذف الحبل والقفز فوق سطح المركب عندما تقترب فيلة من البر .

وكانت الرياح المتقلبة المزاج التي لا تهب الا عندما لا نريدها ، تقترب !

أما وقد وصلت الفسطاط في المؤخرة فقد نشرت شراعها الضخم واستقبلت أول نسمة . وجاء الدور على الباجستونز بعد ذلك . أما فيلة فقد تركت جناحيها يرفرفان ، وأطلقت طلقاتها لتفسيح الطريق أمامها . وفي دقائق قليلة انسابت المراكب الثلاث تسوقها ربيع عظيمة .

أما البوابتان العظيمتان اللتان ظهرتتا بعيدتين منذ نصف ساعة فقد أصبحتا الآن لحي منناول أيدينا . وكانت تحتتهما غابات من النخيل وأكواخ

متجمعة كانت البوابتان تبرزان من بينها في رفعة مقابل السماء الملبدة بالغيوم ، وسرعان ما تجاوزناها وتركناها خلفنا • وأخذ الغسق الرمادى يغلفهما ، وأصبحنا لا نراها مرة أخرى • ثم هبط الليل باردا وخاليا من ضوء النجوم ولكن هبوط الظلام لم يكن في مثل سرعة الريح والسفينة التى تحملنا •

والآن ، ومع هذا السباق المشتعل الذى لا يكبح جماحه - خاصة فوق صفحة النيل ، فقد سارعنا الى بذل ما نستطيع من جهد بالدخول فى تجربة السرعة • ولم يمض وقت طويل حتى اندمجنا فى هذا الموضوع • انها مباراة للفوز ، فقد كانت فيلة ضد الفسطاط ، والباجستونز ضد الانين معا • ونقول فى لغة بسيطة ان ذلك كان سباقا فى السرعة • وكانت الذهبيتان اللتان فى المقدمة متعادلتين • وكانت فيلة أضخم من الفسطاط ولكن الشراع الرئيسى للفسطاط كان أكبر حجما • ومن جهة أخرى كانت الفسطاط مصنوعة من الحديد بينما بنيت فيلة من الخشب ، وقد سهل ذلك من عملية سحبها من الشاطئ الرملى ، وجعلها أخف قيادة • أما الباجستونز فهى تحمل شراعا رئيسيا وتستطيع أن تسرع عند الحاجة • وفى نفس الوقت كان السباق واحدا من السباقات التى تختلف فيها ضربات الحظ • والآن فان الفسطاط تندفع للأمام ، ثم تندفع فيلة بعدها • كنا نتجاوزها مرة ، وتتجاوزنا هى مرة أخرى • كما كنا نسحب الريح من احدهما لصالح الأخرى ، ونستفيد من كل دوران ، وننشر كل شراع • وكنا قد التصقنا بقواربنا بحيث أصبحنا أشد شوقا للفوز ، كما لو كانت هناك جائزة فى انتظارنا • وفى هذه الظروف أصبح من الصعب علينا ارساء المراكب طوال الليل • وما دما قد بدأنا المباراة فاننا لا نستطيع أن نمضى الى أبعد مما تسوقنا اليه الريح • وكان بحارتنا منشوقين مثلنا للفوز • ومع قدوم الليل زادت سرعة الريح وازداد معها انفعالنا ، وظلت المراكب تطارد بعضها البعض بطول النهر المظلم ، وتثر الرذاذ من أقواسها ، وترمى بخطوط عريضة من الزبد خلفها • وكانت نوافذ قمرتها مضاءة كلها من الداخل ، وتلقى بشعلات اللهب الخافقة على أمواج البحر التى تحتها • وكانت المصابيح المعلقة فى قمة صواربها تلمع بألوانها البرتقالية ، والأرجوانية والقرمزية خلال الغسق مثل الجواهر • وسرعان ما انقشعت السحابة ، وصفت السماء ، وظهرت النجوم ، وعوت الرياح ، واهتز زجاج النوافذ وتموجت ذراع دفة القارب ، وصاح البحارة وتسابقوا ، وخبطت الجبال فوقنا ، بينما كنا جالسين فى قمراتنا الضيقة نقضى نصف الليل ونحن ننظر من نوافذنا الخاصة بنا • ومضت عدة ساعات على هذا المنوال • وفى حوالى الساعة الثالثة صباحا ، اندفعت

انراكب الثلاث وانغرزت فى شاطئ رملى بعد هزة عنيفة وارتداد شديد وصياح ، ومشاجرة ! ثم طار الرجال لكى يطووا الشراع الخفاق ، فكان بعضهم يمسك بالعصى الطويلة التى تدفع فى قاع النهر ، بينما كان الآخرون مثل العفاريت التى بلغت أشدها فى الظلام ، وهم يتقافزون من سطح المركب الى البحر ويعملون فى دفع السفينة باكتافهم . وأخذوا يبادلون فيما بينهم وبين الذين على السطح عبارات غنائية تدفع الى بذل المزيد من الجهد . وأخيرا وبعد معركة جنونية استمرت عشر دقائق ، انزلت قيلة تاركة الذهبيتين الآخرين جانحتين على الأرض فى وسط النهر .

وقبل قدوم الصباح بقليل انقضت الليلة كثيرة الضوضاء ، وأخذنا الى النوم لكى نستيقظ مرة أخرى فى الساعة السابعة على صوت تلحى وهو يعلن أن السفينتين الباجستونز والفسطاط قد اقتربتا منا ، وأنها قد تجاوزتا السلسلة وكوم امبو . وتركناهما خلفنا ، وأنا أصبحنا على مسافة ستة وأربعين ميلا من ادور وأن الرياح الطيبة ما زالت تهب .

اننا الآن على بعد خمسة عشر ميلا من أسوان ، ومجرى النيل هنا ضيق جدا ، وأن خصائص المنظر قد تغيرت ، لقد اتجهت أبصارنا نحو الصحراء الشرقية (العربية) واقتربنا من حدود الجبال الجرانيتية انسوداء ، بينما كانت هناك على جانب الصحراء الغربية (الليبية) سلسلة من التلال الرملية المرتفعة ، وقد تكلل كل منها بإكليل من الصخور الداكنة ، وقد انتشرت أشجار النخيل بكثافة على كلتا الضفتين

وفى نفس الوقت استمر السباق . لقد كان فى الليلة الماضية مجرد رياضة ، أما فى هذه الليلة فهو شديد الجدية . لقد تسابقنا فى الليلة الماضية من باب العظمة ، أما فى هذه الليلة فاننا نتسابق من أجل الفوز . وقلت : « سأمنح الرئيس حسن جنيها اذا وصلنا أسوان أولا » .

وبرقت عينا الرئيس ، بدون الحاجة الى تدخل الترجمان بيننا . كانت النظرة والنبرة واضحة بالنسبة له وضوح أحسن الكلمات العربية وصارت كلمة (جنيه) السحرية هى الحكم الآن ، لأنها كانت تعنى جنيها من العملة التى كانت تستخدم فى أيام نلسون وأبركرومبى . ولمس رأسه وصدره ، وألقى نظرة الى الوراء على الذهبيتين اللتين خلفنا ، ونظرة الى الأمام فى اتجاه أسوان . وخبط قدميه ببعضهما فى حركة انتباه ، ثم ربط منديلا حول وسطه وتمركز بنفسه عند قمة الدرجات

التي تقود الى السطح العلوى . وظهر تصميم الرئيس حسن على الفوز ممثلا
فى النور الذى اجمع من عينيه ، وهيئة الاستعداد التى أحاطت بفمه .

والآن ، فان وصولنا أولا الى أسوان يعنى أن نكون أول من كتبت
أسماءهم فى قائمة الحكمدار ، وأيضا أول من يتجه الى الشلال . ولما كان
عبور الشلال يحتاج الى يومين أو ثلاثة من العمل – فان مسألة الأسبقية
هذه أصبحت غير ذات أهمية . ولولا الجنيه الموعود لكنت الفسباط قد
سبقتنا خمس مرات ، وكنا سنضطر حينذاك لانتظار دورنا على الجانب
الخطأ من الحدود .

والآن تشرق الشمس عالية فتشتد حرارة السباق حتى اننا أصبحنا
على بعد خمسة عشر ميلا من أسوان عند حلول وقت الافطار . ثم انخفضت
الخمس عشرة الى عشرة ، وعندما نصل الى الرأس البحرى الذى هناك
فانها تكون قد انخفضت الى سبعة أميال . ومن السهل رؤية كيف أنه مع
نقصان المسافة بيننا وبين أسوان فانها تنقص أيضا بيننا وبين الفسباط .
ويعرف الرئيس حسن ذلك . اننى أراه يقيس المسافة بعينه ، كما أرى
التقطيعة التى استقرت بين حاجبيه . انه يحسب طول المسافة التى
تقطعها الفسباط كل ربع ساعة ، وكم يبلغ عدد أرباع الساعة التى تبعدنا
عن الهدف ، لأن البحارة العرب لا يقيسون المسافة بالأميال ، انه يحسبها
بالزمن وبما يقطعه من النهر ، وهى تساوى ثلاثة أميال فى المتوسط لكل
ربع ساعة (*) . ولذلك فان قبطان سفينتنا عندما يقول انه بقى لنا القيام
بدورتين اجابة للسؤال الذى يتردد مرارا وتكرارا ، فانه يعنى أننا نبعد
حوالى ستة أميال عن الجهة المقصودة .

بقيت ستة أميال مع أن الفسباط تزداد اقترابا فى كل دقيقة !
وكنا حتى الآن نتحدث بشغف . ولكن عندما يقترب الهدف فانه حتى
البحارة يلتزمون الصمت . ويقف الرئيس حسن بدون حراك عند عموده
المعتاد لكى يتعرف على الأماكن الضحلة فى النهر ، وكانت كلمتا « شمال –

(*) هذا الأسلوب الملاهى العربى الاصل المتبع فى حساب المسافة حسب الزمن ،
يدخل فى حساباته المسافة التى تستهلك فى الدورانات واللفات الاضطرابية . وقد تعم
استخدامه الآن فى الملاحة البحرية والجوية لأنه يفيد فى حساب استهلاك الوقود ، وعلى
سبيل المثال فان الطيارين والمراقبين الجويين فى الطيران المدنى يقولون ان المسافة الباقية
على وصول الطائرة الى مقصدها هى ساعتان وخمس عشرة دقيقة بغائض وقود يكفى
لدة نصف ساعة طيران . اما المسافة فيسهل حسابها حسب سرعة الطائرة فى الساعة –
(المترجم)

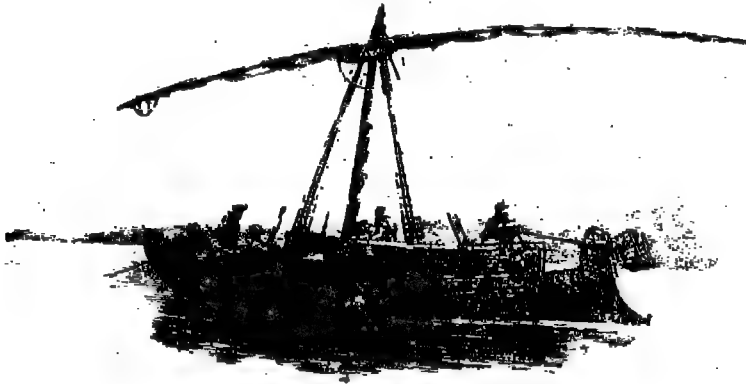
يمين « اللتان تصدران عنه فى لهجة قصيرة حادة هما الصوت الوحيد الذى يتردد ، بينما عامل الدقة يطبعه بعينه وأذنه كما لو كان هو يده اليمنى ، ويجلس البحارة القرفصاء فى أماكنهم هادئين ومتحفزين مثل القطط .

والمسافة الآن ليست ستة أميال بل خمسة ثم أربعة . أما الفسقاط التى يعود الفضل الى شراعها الكبير فقد كادت أن تلحق بنا ، كما أن الباجستونز كانت على بعد لايزيد عن مائة ياردة خلف الفسقاط . وأثناء تقدمنا كنا نمر بغابات من النخيل من أجود الأنواع التى شاهدها فى حياتنا . كما مررنا بذهبيات مهجورة تقف فى انتظار الريح المواتية للاتجاه نحو مقاصدها ، ومررنا بقوارب محلية ، وأكواخ على جانب النهر ، وغيوم من الرمل المتدفع حتى أكملنا الدوران حول الركن ، وكسبنا ربع الساعة الأخير ، وظهرت مآذن أسوان كما لو كانت فى داخل سحابة على البعد . وكان البرج القديم الذى يتوج الرأس البحرى النائي يرتفع مقابل المدينة ، وكانت هذه البقع السوداء التى فى وسط مجرى النهر ، هى أوائل صخور الشلال . وينشئ المجرى هناك بين الشعاب الصخرية والضفاف الرملية ، ومن الصعب الدوران حتى فى أشد نوعيات الطقس هدوءا . وكانت فيلة تندفع الى الأمام وهى تميل بكاملها مثل عداء قفز الموانع عند الحاجز الخشبي ، مع استمرار نشر شراعنا فى مواجهة الريح . وتتجه كل العيون الآن نحو الرئيس حسن ، الذى يقف مشدودا مثل تمثال من الحجر ، فالصخور قريبة من الأمام لدرجة أننا نستطيع أن نرى الأمواج وهى تصب فوقها ، والدوامة وهى تدور من بينها . ويقع طريقنا خلال فتحة بين الصخور ، وينحرف المجرى المائى خلف هذه الفتحة الى اليسار بوحدة . انها نقطة يعتمد كل شيء عندها على تحويل الشراع . وإذا تم ذلك سريعا فأننا سنفقد العلامة ، أما اذا تم متأخرا فأننا سنضلطم بالصخور . وفجأة رفع القبطان يده ، وصعد السلالم نى حلة ، وقفز الى مقدمة السفينة . وهب البحارة واقفين وتجمعوا ، بعضهم حول جبل الصارى ، والبعض الآخر حول نهاية السطح . لقد أصبحت الفسقاط بجانبنا ، وحانت لحظة الفوز أو الخسارة .

والآن وبعد مضي ثائيتين من حبس الأنفاس ، اندفعت الذهبيتان للأمام ، كلتاهما بجانب الأخرى ، للمرور من هذا الممر الضيق الذى لايتسع الا لواحدة منهما فقط . وحتى السفينة الحديدية بالصفة الرملية قامت بعمل مدار أوسع ، وقد حولت شراعها أولا بوحدة تاركة جبل الصارى دون رباط ، ورأينا الشراع يرفرف ، والحبل يطير ، وقد تدافعت جميع الأيدي لاستعادته .

وفى هذه اللحظة أطلق الرئيس حسن كلمته ، واتجهت فيلة للأمام
وقد اقتنصت القناة من بين مخالب القسطاط ، وحولت شراعها بدون
سحب ، وابتعدت عن الماء العميق تاركة منافستها تعاني الأمرين وهى
تسرع بين المياه الضحلة •

وكان الجزء الباقي من الطريق قصيرا ومفتوحا • وفى أقل من
خمس دقائق طوينا شراعنا ، ودفعنا للرئيس حسن الجنيه الذى كسبه
بجدارة ، ووجدنا ركنا مريحا لكى نرسو فيه • وهكذا انتهى سباقنا
المشهود الذى قطعنا فيه حوالى ثمانية وستين ميلا من ادفو الى أسوان •



قارب محلى فى اسوان

الفصل العاشر

أسوان والفنتين

تقع جزيرة الفنتين الخضراء التي يبلغ طولها حوالى ميل ، فى مواجهة أسوان ، وتقسم النيل الى فرعين . وعلى كلا الجانبين نجد أن الصحراء الغربية (الليبية) والصحراء الشرقية (العربية) التي تتكون من منحدرات ناعمة بلون الكهرمان ، ومن صخور جرانيتية غير مستوية ، تصل الى حافة النهر . وهناك ضريح لأحد المشايخ على الضفة التي فى ناحية الصحراء الغربية . أما فى ناحية الصحراء الشرقية فيوجد حطام بارز من العمارة العربية تعلوه عقود خربة مفتوحة فى أعلاها ، تتوج اثنين من المرتفعات المتقابلة ، وتطل على بوابة الشلال . وتقع أسوان تحت حطام العمارة العربية . ويفصلها عن النهر شاطئ منحدر من الرمال .

وكل ما يستطيع الانسان أن يراه من المدينة وهو يقف على المرسى النهري الذى يقع أسفلها ، بعض المنازل المتناثرة ، مع صف من الحوائط البيضاء ، وقمة مثذبة ، والمداخل المظلمة لزقاق أو اثنين من الأزقة المعتمة . وتتألق فى الشمس ، الصخور السوداء الملاصقة للضفة ، والتي يحتوى بعضها على نقوش هيروغليفية رائعة ، مثل الفجم اللامع (١) . أما الشاطئ فإنه مزدحم ببالات البضائع والجمال المحملة وغير المحملة ، والأشخاص المعتمين الغادين والرائحين ، وقوارب نقل البضائع المحطمة

(١) ان صخور شلالات الانهار العظيمة مثل اورينكو ، والنيل ، والكونغو ، مغطاة بطبقة من مادة سوداء تجعلها تظهر كما لو كانت مدهونة بالكربون . وهذه الطبقة رقيقة جدا . اكتشف برزيلوس بعد تحليلها أنها تتكون من اكسيد الماغنيسيوم واكسيد الحديد . ولا نعرف اصل هذه المادة المكونة من الاكاسيد المعدنية والتي تغلف الصخور كطبقة من الاسمنت . واعتقد أنه لا يوجد ما يبرر سبب التشابه فى كثافتها . انظر : Journal of Researches تأليف تشارلز دارون . الفصل الأول ، ص ١٢ ، طبعة

سنة ١٨٤٥ .

التي تتكوم منعزلة ونصف مائلة تحت أشعة الشمس ، بينما ترسو قوارب أخرى متقاربة وهي تحمل بالبضائع أو تفرغ منها البضائع • وعلى بعد قليل منها ، ترسو ثلاث أو أربع ذهبيات تحمل الأعلام البريطانية والأمريكية والبلجيكية • كما أن هناك مراكب أخرى ترسو في الطريق نحو الفنتين • وتمر بعض القوارب ذات المجاديف ، متخذة مسارا عرضيا في كلا الاتجاهين من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر • وأخذت الكلاب تنبح • والجمال تزمجر ، والحمير تنهق ، وبائعو الآثار يصيحون ويثرثرون ، ويحملون على أذرعهم البضائع التي يعرضونها • ويتعاركون ويتوسلون لكي يصعدوا إلى سطح المركب • ولا يمنعهم من الصعود إلى اللوح الموصل بين السفينة والشاطئ الا اثنتان من العصي الغليظة أمسك بهما اثنان من البحارة الصناديد •

وتتميز الأشياء التي تعرض للبيع في أسوان بأنها جديدة وغريبة • وهنا لا يعرضون عليك الجعارين أو التماثيل الجنازية أو الآلهة المصنوعة من البرونز أو الخزف ، ولا بقايا الحضارة الماضية ، ولكنهم على العكس يعرضون عليك الأشياء التي تتحدث فقط عن حاضر ساذج ومتخلف • انهم يعرضون عليك بيض وريش النعام والحل الفضية النوبية الصنع ، والرماح ، والأقواس ، والسهام ، والدروع التي تخفي حاملها Rhinoceros-hide ، والأساور العاجية المنحوتة من ناب الفيل ، وريش الطيور الذي يستخدم في الكتابة ، والسلال المصنوعة من البوص المصبوغ ، والمجدول ، وخزانات الأنف الذهبية ، وما شابه ذلك • وقد عرضت إحدى النساء النوبيات العجايز للبيع حقيبة لأدوات الزينة ، وشيئا خشينا يشبه التمثال مع وسادة ، وطواقي ذوات خصلات من الريش الأسود ، أما الوسادة فقد كانت تتضمن زجاجتين من الكحل ، وابرة غليظة ، ومشطا من العظم •

وكان أشد الباعة صخباً ، ولد مشاغب لونه شديد السواد ، وصوته شديد الحدة ، وهما صفتان نادرا ما تجتمعان في شخص واحد • وكانت ملابسه البسيطة تتكون من جلباب مهلهل وطاقيّة من القطن الأبيض • وكانت أدواته عبارة عن حزام من الجلد الأملس مربوط في طرف عصا • وأخذ يتنقل من نافذة إلى نافذة على جانب الصالون المواجه للشاطئ • وتسلق طرف مركب بضائع مجاورة حتى يصل إليها في المؤخرة ، وأخذ يدفع عصاه وحزامه في وجهنا بصرف النظر عن الاتجاه الذي كنا نهرب إليه ، وهو يصرخ : « يا مدام • حزام نوبى ! يا مدام • حزام نوبى ! » • واسنمر يقفز ويصرخ ويكشف عن أسنانه ، كما لو كان شيطانا يتواجد في كل مكان ويطيع بجميع منافسيه إلى الهاوية •

ولما كنت قد رأيت حزاما مشابها ضمن مجموعة أحد الأصدقاء في الوطن ، فقد تعرفت في عبارة : « يا مدام .. حزام نوبى ! » الى أحد هذه الأحزمة الغريبة التى تشكل مع العقد وبعض الأساور الزى الكامل للبنات الصغيرات فى منطقة جنوب الشلال ، وتختلف هذه الأحزمة فى حجمها حسب سن الفتاة التى ترتديها ، ويبلغ عرض أكبرها حوالى اثنتى عشرة بوصة ، كما يبلغ طوله خمسا وعشرين بوصة ، والقليل من هذه الأحزمة يزينه الخرز والأصداف الصغيرة وهذه نوعية من النوعيات النيمنة ، أما النوعيات العادية فهى رخيصة وقد دهنت أطرافها بزيت الخروع . ويمكن القول بأن الحزام الجديد ينقع جيدا فى زيت الخروع الذى يجعل الجلد أملس وغامق اللون ، الى جانب اضافة عطر ثمين تسعد به الفتاة النوبية . أما النوبى الذى يزرع مزروعاته ويعصر أعنابه بنفسه ، فإنه يسعد جدا بهذه الرائحة . انه بحسب زيت الخروع ضمن أفضل كمالياته ، ويستخدمه فى الطعام مثلما نستعمل نحن الشحوم ، وتذوق فيه زوجاته خصللات شعورها المجذولة ، كما تعطر بناته أحزمتها فيه ، ويدهن أولاده أجسادهم به . ان بيته ، ونسمة أنفاسه ، وأدوات زينته . وطعامه ، جميعها مخضبة به . ان زيت الخروع يفوح أريجيه فى المكان الذى يحيا فيه . ويا لسعادة السائح الأوروبى الذى يتوقف فى النوبة لأنه يستطيع أن يدرب أنفه المتدهور على أريج زيت الخروع !

لقد طرد التطور الحضارى هذه الأحزمة خارج نطاق الموضة على الحدود . أما فى أسوان فهى تعتبر طلبات ضرورية يطلبها الزوار الانجليز والأمريكيون . ان معظم السياح يشترون الأحزمة النوبية لتسلية أصدقائهم عند عودتهم للوطن ، وقد اشترت السيدة ل التى ترعى الموضة فى ملابسها ، حزاما قوى الرائحة لدرجة أنه عطر الذهبية فيلة طوال الفترة الباقية من الرحلة ، ومازال محتفظا بأريجيه حتى اليوم .

وقبل اتمام ربط جبل الذهبية ، هندم رسامنا نفسه بارتداء كوفيه فخمة ، وتسليح بعضا للزيارة ، ثم قفز الى الشاطئ وسارع لدعوة الحكمدار . وبعد ساعتين رد الحكمدار الزيارة (وكان قد وعد بأن يرسل حالا فى طلب شيخ الشلال ، وأن يحيط سفرنا بكل ما فى استطاعته من عناية) وقد أحضر معه مدير وقاضى أسوان وبصحبة كل منهما حامل غليونيه .

واستقبلنا ضيوفنا فى الصالون بحفاوة بالغة ، وجلس الرجال اعظماء على احدى الأرائك الجانبية ، وافتتح الرسام الحديث بتقديم

الشمبانيا والنبيد والبراندى والويسكى وغيرها من نوعيات الخمور الفاخرة ، وقام تلحمى بالترجمة ، وضحك الحكمدار وهو شاب طويل ورشيق ونشيط وبهى الطلعة وأسود مثل الغراب ، أما القاضي والمدير فقد كانا هما كلاهما من شيوخ العربان وقد اصفر لون بشرتهما ، وقطبا حواجبهما ، وبدأ عليهما الارتباك لمجرد ذكر هذه المشروبات المحرمة .
وحينئذ اقترح أحدنا تقديم اللبموناة .

واتجه الحكمدار بسرعة نحو المتحدث متسائلا : « كازوزة » .

فرد عليه تلحمى قائلا : « أيوه كازوزة » .

ثم أحضرت اللبموناة والسيجار . وراقب الحكمدار عملية نزع السدادات باهتمام شديد ، وشرب في شراهة ظاهرة مثل تلميذ صغير . وحتى القاضي والمدير ، تحررا قليلا من التحفظ في السلوك . أما بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين تعودوا على المشروبات المكونة من عصير الليمون والسنكر ، فإن اللبموناة ذات الرغوة ، المعبأة في الزجاجات تعتبر أفضل النوعيات .

وبدأت المحاولات المعتادة للحديث . ولا يعرف سوى هؤلاء الذين حاولوا الدخول في حديث قصير أمام أصحاب السلطة ، صعوبة الدخول في موضوعات للحديث تمنع التثاؤب وتضمن التعبير الحي على سيماء المستمعين أثناء ابداء الاحتشام على كلا الجانبين ، ذلك الذي كان لا يقطعه سوى حديث الترجمان .

لقد بدأنا رحلتنا في فترة اعتدال الجو لأنه في مصر حيث لا تملط الشمس السماء ، وتشرق الشمس دائما ، يحل الترمومتر محل النشرة الجوية بوصفه مقياسا مفيدا . ولما كنا نعرف أن أسوان تفوق سمعتها سمعة أية مدينة أخرى على سطح الكرة الأرضية من حيث ارتفاع درجة الحرارة ، فقد سعدنا ونحن في قمة الدهشة عندما وجدنا أن حرها لا يزيد عن حر انجلترا في شهر سبتمبر . وقد علق الحكمدار على ذلك بقوله أنه لم يمر عليه شتاء بارد في مثل برودة هذا الشتاء . ثم سألناه الأسئلة المعتادة عن المحاصيل ، وارتفاع مستوى النهر ، وما شابه ذلك . وقد أجاب عن جميع الأسئلة بهدوء وبساطة لم نجد مثلها لدى أى رجل آخر في العالم كله . فقال : ان جو النوبة صحي وكان محصول البلح وفيرا ، كما أن بواكير القمح تشير الى جودة المحصول . أما السودان فكان هادئا ومزدهرا . أما بخصوص الترتيبات الجديدة للخدمات البريدية فقد هنأنا عليها لأننا

أصبحنا قادرين على استلام وارسال الخطابات حتى الشلال الثانى .
 وذكر أيضا أن أسلاك التلغراف تعمل الآن بانتظام حتى الخرطوم .
 وحينئذ سألناه عن الزمن المتوقع لوصول السكة الحديد الى أسوان ،
 فأجاب قائلا : « فى مدى سنتين على الأقل » .

وسرعان ما انتهى رصيدنا من الموضوعات وحل موعد التسلية .
 وسألنا الترجمان : « ماذا أقول بعد ذلك ؟ » .

فأجبناه قائلين : « قل له اننا نريد أن نشاهد سوق العبيد
 بالذات » .

وغامت الابتسامة من على وجه الحكمدار ، وترك المدير كوب
 الليمونادة دون أن يتذوقها ، وأسقط القاضي السيجارة من فمه ، ولو كانت
 قد انفجرت قنبلة فى الصالون لما كان لها مثل هذا الأثر العظيم .

وكان الحكمدار هو أول من تكلم وعلى محياه سيماء الحزن ، ونقل
 الينا الترجمان كلامه قائلا :

« يقول لكم انه لا توجد فى مصر تجارة فى العبيد ، ولا توجد فى
 أسوان سوق للعبيد » .

وكان قد قيل لنا فى القاهرة من مصادر موثوق بها ان العبيد
 ما زالوا يشترون ويبيعون هنا ، ولكن ذلك يحدث الآن بنسبة أقل مما كان
 فى الماضى ، وأن منظر هذه السوق من أكثر المناظر التى يراها السائح
 فى مصر غرابة وإثارة للمشاعر ، وكررنا العبارة قائلين فى شك :
 « لا توجد سوق للعبيد ! » فهز الحكمدار والمدير والقاضى رؤوسهم ورفعوا
 أصواتهم وقالوا فى نفس واحد مثل ثلاثى الموظفين الإداريين فى الأوبرا
 الفكاهية :

« لا ، لا ، لا ، مافيش بازار - مافيش بازار » .

وسمعنا الى توضيح أننا لم نرغب بهذا الاستفسار فى أن نشبع
 حب الاستطلاع غير المجدى ، أو أن نقدم أية وجهات نظر سياسية .
 ان غرضنا الوحيد هو عمل رسم كروكى . وكنا نعرف أن هناك سوقا
 للعبيد ما زالت موجودة فى أسوان . وكان ذلك أكثر مما تحتمله حساسية
 القاضى القضائية فلم يدع تلحمى يكمل الحديث .

وقاطعه قائلا وقد زم شفثيه تعبيرا عن مثل هذا الرعب الذى يحس به الرجل النيوزيلندى المصلح عندما يتطرق الحديث معه الى موضوع اكل لحوم البشر : « انه غير قانونى • انه غير قانونى » •

وتلا ذلك صمت محرج ، وأحسنا باننا قد ارتكبنا خطأ فاحشا ترتب عليه ظهور الارتباك علينا •

ورأى الحكمدار ذلك وأشفق على ارتباكننا بابداء أحسن مشاعر الرقة فى العالم • فوقف ، وفتح البيانو وطلب الاستماع الى بعض الموسيقى ، فقامت السيدة الصغيرة بعزف أفضل الألحان التى استطاعت أن تتذكرها ، وتصادف أنها عزفت لحن رقصة الفالس للموسيقار فردى •

وفى هذه اللحظة جلس الحكمدار مبتسما ومنتهيا بجانب البيانو ، وظهر أنه بالرغم من كل أدبه الجم ، كان يبحث عن شيء حتى لا يظهر بمظهر عدم الرضا • وكانت هناك سحابة تعبر عن عدم التوفيق وهو يقول : « كتر خيرك كثير » عندما انفجر الفالس عند نهايته فى شكل سيل من التتابع السريع • فماذا كان يعنى بذلك ؟ هل كان يريد الاستماع الى أغنية أم أن الجو الشعاعى قد اعطاه الاحساس بسعادة أكبر ؟

لا شيء من ذلك ، لقد كان يبحث عما لمحت عينه السريعة الحركة • وبالتحديد بعض الموسيقى المدونة فى النوتة ، فأمسك بها منتصرا ووضعها امام العازفة • لقد كان يريد الموسيقى التى تعزف من النوتة •

ولما سئل عما اذا كان يفضل لحننا غنيا بالحركة أم لحننا ينم عن الشكوى والأنين • أجاب بأنه « لا يهتم طالما كان اللحن صعب الأداء » • لقد تصادف عثوره الآن على أسطوانة للموسيقار فاجنر ، وعلى ذلك فقد نفذت السيدة الصغيرة رغبته وقدمت له جرعة من موسيقى تانهاوزر Tanhauser ولا نستغرب أن نقول انه أحس بالسعادة ، فابتسم كاشفا عن أسنانه ، وحرك عينيه وردد (الآه) الطويلة المعروفة فى مصر كتعبير عن الاستحسان • وكان من الواضح أنه كلما كان اللحن أكثر ابهاما وغرابة، وغموضا أعجب به أكثر •

اننى لا أفكر فى أسوان البتة الا وأجد نفسى أتذكر ذلك المشهد الغريب الذى ظهرت فيه السيدة الصغيرة وهى تجلس الى البيانو وبالقرب منها الحكمدار الأسمر وقد كشف عن أسنانه فى نشوة ، والتعاضى وقد

التحف بالشال والعمامة ، والمدير وهو نصف نائم ، والهواء وقد تشبع
بدخان التبغ ، وفوق كل ذلك - أتذكر صوت الصخب والرنين والايقاعات
ونغمات تانهاوزر المتنوعة التي طغت كلها واستبدت بخلفية المشهد .

ان حلاوة الزيارة الشرقية تمتد لفترة طويلة تجعل صبر وأدب
المضيفين الأوروبيين محل اختبار عميق . فهذا الوجه المحلى يترك عمله -
لو كان لديه بالفعل عمل يؤديه - وينصرف قبل الظهر ، ولا يفعل شيئا
سوى التدخين والثرثرة حتى انتهاء اليوم ، ولا يقيم أدنى اعتبار للزمن
الذى يغتاله بين يديه . وكل هدفه فى الحياة هو استهلاك هذا الزمن ،
اذا أمكن ذلك باقل قدر ممكن من الملل . ولذلك فهو يقوم بزيارة يتعمد
خلالها اطالة البقاء بقدر الاستطاعة . وعلى أية حال فقد قضى زوارنا ساعتين
من أفضل الاوقات . أما الحكمدار الذى تحدث حديثا قصيرا عن الذهاب
الى انجلترا ، فقد طلب كافة أسمائنا وعناويننا لانه يزعم أن يحضر لزيارتنا
فى بلدنا .

وثناء انصرافه من القمرة تمهل لكى يتأمل ورودنا التى كانت
موضوعة بالقرب من الباب ، وذكرنا له أن بك أرمنت قد أعطاها لنا .
فسألنا وهو يتفحصها فى اعجاب عظيم : « هل تزرع هذه الورد فى
أرمنت ؟ يالها من جميلة ! لماذا لاتزرع فى النوبة ؟ » .

فقلنا انه ربما كان جو النوبة أشد حرارة بالنسبة لها . فأحنى ظهره
لكى يستنشق عبرها ، وظهر عليه الارتباك وهو يقول : « انها عظيمة
جدا . هل هى ورود ؟ » .

لقد سبب لنا هذا السؤال نوعا من الصدمات فلم يخطر فى بالنا
أننا وصلنا الى منطقة لاتعرف الورد . ولكن الحكمدار الذى قضى عمره
فى تدخين النرجيلة التى كانت مملوءة بماء الورد ، وشرب شربات الورد ،
وأكل مربى الورد ، لم يتعرف الى الورد الا بعد أن شم رائحته . ويبدو
أنه لم يغادر أسوان طوال حياته ، ولم يسافر الى أبعد من أرمنت ،
ولم ير طوال حياته وردة متفتحة .

وكنا قد عزمنا على المضى فى طريقنا الى منطقة الشلال فى صباح
اليوم التالى لوصولنا الى الحدود ، ولكن يبدو أنه كانت هناك ذهبية
أخرى تناضل لشق طريقها الى فيلة . وحتى مرور هذه الذهبية فانه
لا الشيوخ ولا رجاله كانوا على استعداد للقائنا . وفى الساعة الثامنة من

صباح اليوم التالى ، حيث وعدوا بأن يصحبونا كمرشدين ، وكنا ملزمين بدفع ١٢ جنيهها فى الرحلة عن الاتجاهين أى تسعة جنيهات للذهاب والثلاثة الباقية عند عودتنا الى أسوان .

وكانت هذه هى الاتفاقية المبرمة بيننا وبين شيخ الشلال فى اجتماع لجنة ترأسها الحكماء وبمساعدة القاضى والمدير .

وكان لدينا يوم فراغ وعلينا أن نقضيه فى أسوان ، وبالطبع شغلنا جزءا منه بزيارة الفنتين التى أطلق عليها فى النقوش اسم : أبو أو جزيرة العاج . ولابد أنه كان يوجد هنا مستودع أو « مدينة للخزائن » لحفظ أثمن الأشياء الموجودة فى منطقة أعلى النيل ، وأعنى بها الذهب النوبى وأنياب الفيل التى تشتهر بها كوش .

انها جزيرة رائعة الجمال ، وعرة ومرتفعة فى الناحية الجنوبية ، ومنخفضة وخصبة فى الناحية الشمالية مع ساحل ممتاز يمتلئ بجداول المياه الكثيرة الشجر ، ومناطق السباحة المحدودة المساحة التى يتوقع الانسان فى كل لحظة أن يتقابل فيها مع روبنسون كروزو حاملا شمسيتته التى صنعها من جلد الماعز ، أو خادمه فرايداي وقد انحنى تحت ثقل حمل من الحطب . ان سكان هذه الجزيرة جميعا من نوعية فرايداي لأن الفنتين بوصفها أول مركز نوبى لايسكنها الا النوبيون ، انها تضم قريتين نوبيتين ، وخرائب مدينة قديمة كانت عاصمة لمصر كلها على أيام فراعنة الأسرة السادسة منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد . وكان هناك معبدان بنى أحدهما فى أيام أمنحوتب الثالث ، كان موجودا منذ حوالي سبعين عاما مضت . وقد شاهدهما بلزوني سنة ١٨١٥ ، وقد تمت ازالتهما مؤخرا لبناء قصر ومعسكرات للجيش مكانهما ، وقد حدث ذلك قبل زيارة شامبليون للمنطقة سنة ١٨٢٨ فلم يشاهد الا أطلال بوابة من العصر الفرعونى ، وتمثالا زرى الهيئة للملك منبتاح فى وضع الجلوس ، وهو الفرعون الذى قيل عنه انه فرعون الخروج . وقد بقى وحده لتحديد المواقع التى توقفوا فيها .

لقد تحول قلب هذه الجزيرة الى اللون الأخضر نتيجة لانتشار مزارع النخيل الكثيفة ، وحقول الخروع المحروثة بعناية ، وأشجار القطن ، والعدس والذرة . أما الساحل الغربى فهو محاط بالغابات التى تطل على حافة الماء ، بحيث يستطيع الانسان أن يسير هنا فى الظل فى أشد فترات الظهر حرارة ، منصتا الى هدير الشلال وباحتنا عن الأهازج

البرية التي لا يبدو أنها تنمو في أى مكان آخر إلا المنطقة التي يطلق عليها
الاسم العربى الجميل : جزيرة الأزهار .

ومن فوق الأرض المرتفعة فى الطرف الجنوبى للجزيرة حيث تنتشر
آتوام الزباله والعظام البيضاء اللون والجامجم البشرية ، وجلود الحيات
التي انسلخت عنها ، وأكوام قطع الخزف الملون المكسورة ، استطعنا أن
نلتقط العديد من قطع الفخار الأسمر المنقوش والتي يتضح أنها قطع
من الزهريات المكسورة . وكانت الكتابة التي عليها باهتة جدا ومطموسة
الى حد ما . لقد اكتشفنا أنها مكتوبة بحروف يونانية ، ولكن حتى رجلنا
الكسلان لم يكن كفؤا لتفسير كلمة واحدة بشكل منطقي . واعتقد أنها
ليست سوى قطع صغيرة متفرقة ومن الاستحالة العثور على الأجزاء
المحللة لها . وقد سلمنا بأنها تنتمى أيضا الى تاريخ حديث نسبيا ، ولكننا
أخذنا معنا ثلاثة أو أربعة منها كتذكارات لزيارة المكان ، ولم نفكر فيها أكثر
من ذلك .

وقد استغرقتنا الحلم بأن يكون الدكتور بيرش Dr. Birch جالسا
فى هذه اللحظة فى غرفة مكتبه المقبضة بالمتحف البريطانى على بعد عدة
أميال ، مشغولا بفك طلاسم مجموعة من كسر الفخار المماثلة والتي أحضرت
جميعها تقريبا من نفس المكان (١) .

(١) نشرت أعمال الدكتور بيرش فى كتابه « Guide to the First and Second Egyptian Rooms ومعناه : الدليل الى الغرفتين المصريتين الأولى والثانية » وتم
طبعه على نفقة المتحف البريطانى فى شهر مايو سنة ١٨٧٤ . ويقول عن محتويات
الدولاب رقم ٩٩ بالغرفة الثانية ما يلى :

« لقد ازداد استخدام قطع الفخار لتسجيل الأحداث فى مصر الامبراطورية الرومانية
حيث كانت ايصالات استلام الضرائب تدون على مثل هذه القطع بمعرفة جامعى الضرائب
فى الفنتين أو سيين على حدود مصر . وقد بدأ استخدام هذه النوعية من الايصالات
على أيام الامبراطور فسباسيان حوالى عام ٧٧ ميلادية . واستمر استخدامها حتى عصر
الامبراطور ماركوس أوريليوس والامبراطور فيروس حوالى سنة ١٦٧ للميلاد . ويظهر
منها أن ضريبة الرأس وضريبة التجارة التي كانت تساوى ١٦ دراهمة سنة ٧٧ ميلادية قد
ارتفعت الى ٢٠ دراهمة سنة ١٦٥ ميلادية بمعدل زيادة ثابت . وكانت القيمة تدفع على
اقساط تسمى mersmoi ثلاث مرات فى السنة . وكانت الضرائب تجمع بمعرفة جباة
أخلق عليهم اسم mishotai وهم من الاغريق كما يبدو من هذا الاسم .

وكانت الضرائب فى الفنتين تجمع بمعرفة جامعى الضرائب المعروفين باسم
Practeres والواضح أنهم كانوا يعينون فى هذه الوظيفة منذ أيام البطالة .
وكان كتبة الحسابات الذين يخدمونهم من المصريين . وكانت لديهم دوايب وخزائن تسمى
Phylax . انظر ص ١٠٩ من الكتاب المذكور اعلاه وايضا لنفس المؤلف الدكتور =

ولا نعرف شيئا تقريبا عن الاهتمام الغريب الذى انصب على هذه الشظايا التى يصعب قراءتها ، أو الأهمية التى حازتها مؤخرا فى عيون الباحثين ، أو القيمة المحتملة من اكتشاف بعض الاضافات فى عددها شئ طريق الصدفة ، ولكننا بعد ذلك بمدة ستة أشهر رثينا جهلنا وأسفنا للفرص الضائعة .

لقد عرفنا أن المصريين قد استخدموا قطع الفخار بدلا من أوراق البردى لكتابة المذكرات الصغيرة ، وأن كل واحدة من تلك الشظايا التى التقطناها قد تضمنت تسجيلا كاملا فى حد ذاته .

وأخشى أننا كنا سنضحك لو ذكر لنا أحد فى حينه أنها ايصالات ضرائب حكومية جمعت على الحدود خلال فترة الحكم الرومانى لمصر . لقد كانت مكتوبة باليونانية: لأن الرومان فوضوا الكتبة الاغريق لأداء مهام هذه الوظيفة غير المحبوبة . ولكن الاغريقى كان فاسد الذمة ، كما كان فن الخط متخلفا ، بحيث انه لا يستطيع قراءة المكتوب عليها سوى القليل من الدارسين البارعين .

وليست جميع الشقافات التى وجدت فى الفنتين ايصالات ضرائب أو أنها كتبت كلها بخط يونانى ردى ، لأن المتحف البريطانى يحوى العديد من الشظايا مكتوبة بالديموطيقية أو الخط الشعبى ، بينما كتب القليل منها بالهيراطيقية أى الخط الذى يتعامل به المثقفون والكهنة . ولم يتم بعد ترجمة النوعية السابقة ، ولكن لابد أنها تتضمن مذكرات فى الأعمال ، وخطابات خاصة قصيرة مما كان يتداوله المصريون فى تلك الفترة .

= بيرش ، ص ٤٥ من كتابه History of Ancient Pottery . وليست هذه المذكرات الجافة هى الأعمال الادبية الغامضة الوحيدة التى عثر عليها فى الفنتين ، فانه يوجد ضمن المخطوطات المصرية المحفوظة بمتحف اللوفر بعض قطع الفخار التى تنتمى الى الأسرة الثامنة عشرة تتضمن فقرات من الاليادة كانت قد اكتشفت فى مقبرة فوق هذه الجزيرة ، ولا يعرف أحد كيف تم دفنها . وقد يظن عاشق الفخار ان بعض الضباط الاغريق أو الرومان قد مات فى هذه المحطة البعيدة أثناء تأدية مهام وظيفته ورغب فى أن تدفن معه فى قبره أشعار هوميروس الذى يحبه .
ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية :

تم العثور على قطع أخرى من الفخار مدون عليها أبيات من الاليادة فى أجزاء مختلفة من مصر والبعض منها (الموجود الآن بمتحف اللوفر) عليه شخبطة مثل ايصالات دفع الضرائب التى ذكرناها انفا . لقد وجدت اثمن العينات فى مصر أو فى أى مكان آخر . أما أقدمها فقد تم اكتشافه فى هذه السنة ١٨٨٨ بمعرفة مستر قلندرز بترى فى مقبرة إحدى السيدات بمنطقة هواره بالفيوم .

ولكن كيف تم الاحتفاظ بهذه الكسر الوثائقية عندما اختفت المدينة التي عاش فيها من كتبوها ، والمعابد التي تعبدوا فيها ولم تترك خلفها أى أثر ؟ من الذى ألقى بها بين قطع الفخار المكسورة على هذا الجانب المكشوف من التل ؟ هل نستطيع افتراض أنه كان يحتل هذا المكان مكتب لتسجيل الوثائق العمومية ، وأن الايصالات التى خزنت هنا كانت نسخا مكررة من الايصالات التى تسلمها دافعو الضرائب ؟ أليس من المحتمل أن يكون هذا المكان هو جبل النفايات Monte testaccio للمدينة القديمة ، حيث تأخذ جميع قطع الفخار المكسورة سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة طريقها اليه ان عاجلا أم آجلا ؟

ومع استثناء شظية فاخرة من الحجر الرومانى المواجه تقريبا لمدينة أسوان ، فان بوابة الاسكندر المحطمة ، وتمثال منبتاح المهشم ، هما الأثران الوحيدان اللذان لهما أهمية أثرية على سطح هذه الجزيرة . ولكن جاذبية الفنتين هى جاذبية الجمال الطبيعى الدائم ، وهى الجاذبية التى تبدو فى الصخور وفى مزارع النخيل والمياه الهادئة .

وتشبه شوارع أسوان شوارع كل مدينة طينية أخرى على شاطئ النيل . كما أن أسواق العاديات بها تشبه مثيلتها فى المنيا وأسيوط . والبيئة المحيطة صاخبة بما فيها من مقام وفتيات راقصات مثل البيئة المحيطة بمدينةتى أسنا والأقصر ، وقد اختلسنا الأنظار الى داخل المسجد الذى كانت تؤدى فيه بعض الصلوات ولم ندخله . كان يبدو رطبا ونظيفا وشديد الاتساع . وكانت الأرضية مغطاة بالسجاد الفاخر ، وقد تدمت من السقف مجموعات من بيض النعام . وقد اشترينا من سوق العاديات بعض السلال والأطباق المصنوعة فى النوبة وهى مصنوعة من نفس البوص ونفس الصبغة ونفس الألوان ونفس الطرازات المشابهة لمثيلتها التى وجدت فى مقابر طيبة .

وقد وجدنا نوعا معينا من السلال البيضية ذات الغطاء المقوس التى توجد عينات منها محفوظة بالمتحف البريطانى مما يدل على أنها مازالت مطلوبة فى أسوان . ان صانعى السلال لم يعدلوا فى الطرازات ، كما أن المشترين لم يعدلوا فى أذواقهم منذ أيام رمسيس العظيم .

وهنا عند خزانة صغيرة فى دكان قريب من سوق الأجدية ، وقعنا فى براثن الاغراء بانفاق عدة جنيهاات فى شراء ريش النعام الذى جلبه التجار القادمون من السودان الى أسوان . وكان التاجر يحضر ريشة واحدة فى

كل مرة ولم تظهر عليه الرغبة في سرعة البيع • وكذلك لم نعبأ نحن أيضا بهذا الأمر • وكانت المساومة طويلة من كلا الجانبين ، كما كان المتفرجون مهتمين كالعادة ، وتبرعوا بالتعليق على كل كلمة عابرة • وفى النهاية حملنا حمل ذراع من الريش الفاخر الذى بلغ طول الواحدة من غالبية ما بين اثنين ونصف الى ثلاثة أقدام • وكان بعض هذا الريش ناصع البياض ، بينما كان بعضه الآخر أبيض مع نقط بنية اللون • وكذلك لم يكن هذا الريش نظيفا ولا مجعدا ، ولكنه كان بنفس الشكل الذى ورد به من أيدي صائدى النعام •

وكان أكثر المناظر اثارة في أسوان هو منظر معسكر التجارب بالقرب من المرسى • هنا تشاهد الأحباش مثل قروود البابون ذات الأرجل الرفيعة ، وأفراد قبائل البشارية ذوى السحنات الوحشية ، وأعراب قبائل العبادية ذوى العيون اللامعة والشعور المسترسلة • والنوبيين المفتولى العضلات ذوى اللون البرونزى ، والمواطنين من جميع القبائل والأقاليم ، من كردفان وسنار وصحارى باهودا وضفاف النيل الأزرق والنيل الأبيض • كان بعضهم عائدا من القاهرة ، والبعض الآخر فى طريقه الى هناك • وبعضهم قد أنزل تجارته فى المحطة (قرية على الجانب الآخر من الشلال) ، والبعض الآخر جاء عبر الصحراء لكى يعيد تحميلها على السفن فى المحطة • وكانوا يعيشون بجوارها وقد وضع كل منهم نفسه فى معقله الصغير المكون من أكوام البالات والصناديق الخشبية التى تستخدم فى نقل البضائع ، مثل عنكبوت وسط عشه • وقد زود كل منهم نفسه بغلاية وكنكة للقهوة وسجادة قديمة لكى ينام ويصلى عليها • وقد أقام تركى عجوز متجههم الوجه سقفا من الحصير ، وأثث عشه بكنبة من جريد النخل ، ولكنه كان غير منقاد للملذات وهو استثناء من القاعدة •

وعند مرورنا بالمعسكر شاهدنا البعض مبتسما ، والبعض الآخر عابسا • وقد عرض علينا أحدهم تناول القهوة ، وكان البعض الآخر لحوحا أكثر من غيره فعرض علينا محتويات طروده التى كانت عبارة عن حزم ضخمة من جلود الأسود والفهود ، وبالات من القطن ، وزكائب من أوراق الحنة ، وأنياب الفيل الملفوفة فى الخيش ، والحصير المتناثرة على الضفة الرملية • وكانت هناك عدة مئآت من البالات التى تحتوى على الصمغ العربى وحده ، وقد خيطت كل بالة فى غلاف من الجلد الخام ، وربطت بسيور من جلد فرس النهر • وعند قرب حلول الغسق عندما أضيئت أنوار المعسكر ، وجرى اعداد وجبة العشاء ، صار المنظر رائعا بما يكفى للتصوير ، فقد كانت الأنوار تلمع ، والظلال تتعمق • وكان الأشخاص

الغرباء يتمشون هنا وهناك أو يجلسون القرفصاء في مجموعات وسط تجارتهم . وكان البعض يخبزون فطائر مسطحة ، والبعض الآخر يقلبون الشوربة أو يحمصون البن ، وقد أحدثوا ثقباً وسط الرمال ، ووضعوا حجرين متقابلين لحمل الغلاية ، ثم جلبوا حفنة من الحطب وذلك لعمل المطبخ وتوفير الوقود . وفي نفس الوقت أخذت جميع كلاب أسوان تحوم حول المعسكر ، وانتشرت بلبله من الألسنة البربرية المختلفة مع النسيم الذي تلا غروب الشمس .

ويجب ألا ننسى إضافة أنني رأيت وسط هذا الزحام المتنوع أخوين من مواطني الخرطوم ، كنا قد قابلناهما لأول مرة في المدينة ثم في المعسكر . كانا يرتديان عمامتين حريريتين ، لونهما أبيض ، ويعرضان أثواباً من قماش الكشمير بلون أصفر باهت . وكان رأساهما الصغيران المتعاليان وملاحهما الأرستقراطية المتناسقة تتناسب مع أنقى نوعيات أهل فلورنسا . أما عيونهما فقد كانت مستطيلة ولامعة ، كما خلت بشرتهم من أية شوائب حبشية زرقاء ، أو نوبية برونزية ، فقد كان سوادهما حالكا وبراقاً ورائعاً . وقد اتفقنا على أننا لم نقابل أيدياً مثل هذين الشابين الوسيمين ، فقد كانا مثل نموذجين محفورين في العاج . ولم يتعرضا لآلام العالم ، أو يصابا بأمراض التفكير التي تصيب الإنسان بالشحوب ، وإنما كانا يتوهجان بمباهج حياة الجنوب الدافئ .

وبعد أن استكشفنا جزيرة الفنتين ، وقلبنا أسواق العاديات ، تفرقت مجموعتنا في اتجاهات مختلفة . البعض قضى بقية اليوم في كتابة الخطابات ، وانحنى الرسام على رسوماته الكروكية ، ثم قام لبحث عن ذئب يعيش في الحرائب فوق وهدة عميقة في الجانب الغربي من النهر . أما الرجل الكسول فقد ركب الجمال بشجاعة ومضى بها في الصحراء الشرقية .

ويعتبر ركوب الجمال من المناظر العادية في أسوان ، كما أن السفر في الصحراء يقدم نفس المتعة التي يحققها قضاء نصف ساعة على شاطئ بحر الثلج في مر جبل الثلوج Mortaretsch Glacier ، أو تسلق جبل مونت روزا ، أن الطريق المختصر من أسوان إلى فيلة أو على الأقل ركوب الدواب إلى محاجر الجرانيت ، يشكل جزءاً من البرنامج الذي يضعه كل ترحمان ، ويعتبر بمثابة الانجاز المتوج لكل سائح من سياح شركة كوك . ويقوم العربان أنفسهم بهذه الرحلات الصغيرة على الحمير بأكثر سعادة وأكثر سرعة ، وهم في الحقيقة يحرسون على ألا يتجاوزوا طاقة

الجمال بقدر الاستطاعة • ولكن السائح السهل التأثير يضع جمال أسوان ضمن مصاعب الرحلة • انه يضع ضمن اهتماماته أن هذه الحيوانات ذوات الأربع المزمجرة ، تجبر على ترك مهامها المعتادة لكي تجوب منطقة المرسى ، بينما تتلخص مهمتها فى نقل البضائع التى تفرغ قبل وبعد الشلال • ولكن بعيدا عن هذه المهمة الشريفة ، نجد أنها تستخدم فى أداء تمثيلية سخيفة تهدف الى تسلية السياح ، ولذلك فأننى لا أتعجب وأنا أرى هذه النوعية من الدواب وقد أصبح سوء الطباع عادة عندها • انها تعرف أن الاجراءات كلها ذات طابع شعبى ولذلك فانها تستاء منها بموجب هذه المعرفة • وبالرغم من ذلك فهناك مميزات يتميز بها ركوب هذه الدواب ، أقلها أنها تسهل للانسان معرفة نوعية العمل المنوط بأية بعثة استكشافية منتظمة فى الصحراء ، وهى فى جميع الأحوال تتيح للانسان أن يتعرف على سفينة الصحراء ومع (الأخذ فى الاعتبار القصور المحتمل للعينة) فانه يشكل حكما مسبقا على مواهب الجمال •

ان للجمال فضائله الكثيرة التى تختص به والثى يجب التسليم به على الأقل ، ولكنها لا تظهر على السطح • ولقد ذكر لى أحدهم أن الجمال يختزن فى معدته مخزونا من الماء الطازج الذى يستحق عليه الثناء • ولكن هذا المخزون لم يهذب مشيئته ولا طباعه • لأنها مازالت فظيعة • ولا غبار عليه بوصفه واحدا من دواب الحمل ، ولكنه يلقي اعتراضات كثيرة كحيوان للركوب • وليس من المرغوب فيه فى المحل الأول أن تتركب حيوانا لا يرفض فقط أن يركبه أحد ، ولكنه أيضا يبدي نفورا قويا نحو من يركبه • ومع ذلك فهو يمتاز بحلاوة المعشر • أنت تعرف أنه يكرهك من أول مرة تدور فيها حوله باحثا عن الكيفية التى تبدأ بها الصعود على سنامه • وهو فى الحقيقة لا يتردد فى أن يبين لك ذلك بأوضح المصطلحات • انه يعاديك فى حرية عندما تأخذ مجلسك ، ويزمجر اذا تحركت فى السرج ، ويرمقك فى غضب اذا حاولت أن تدير رأسه فى أى اتجاه بخلاف ذلك الاتجاء الذى يفضل • واذا صممت على ذلك فانه يحاول أن يعض قدمك • واذا لم يؤد هذا العض الى نتيجة فانه يرقد على الأرض •

والآن ، فان رقود الجمال وقيامه يدلان على الغرض الواضح الذى يهدف الى توجيه الأذى البدنى البالغ لراكبه • وعندما يلقي براكبه مرتين للامام ومرتين للخلف ، ويضرب به الهواء ، ويحطم عموده الفقرى ، فان الراكب السيئ الحظ يتلقى أربع هزات ظاهرة ، كل منها أقسى من سابقتها وغير متوقعة ، ذلك لأن هذا السنام الفظيع يتخذ وضعا مخيفا وغريبا ، وهناك مفصل زائد فى مكان ما فى أرجله يستخدمه ليتفوق على الانسان •

وعلى كل حال فان خطواته أكثر تعقيدا من مفأصله ، وأكثر ازعاجا من طبائعه ، ذلك لأن له أربعة أساليب للسير : سير قصير يتدحرج فيه مثل تدحرج القارب الصغير فى بحر متقلب ، وسير طويل يخلع فيه كل عظمة فى جسمك ، وهرولة تهبط بك الى مستوى الجنون ، وركض يوردك موارد التهلكة . واننى أتخيل أن الجريمة التى يعاقب مرتكبها بمعاناة البقاء على ظهر الجمل لمدة ست عشرة ساعة متواصلة ، يمكن أن تكون كفارة كاملة وكافية عن الذنوب؛ لأنها عقوبة لا يود الانسان أن تكون وسيلة لادانة أى انسان حتى لو كان يعمل ناقدا أدبيا .

وكانت هذه الجمال تقضى النهار بطوله على الضفة للايجار . وكان بعضها بنى اللون ، والبعض الآخر أبيض اللون ، كما كان بعضها أشعث الشعر والبعض الآخر أملس . وقد وضعت شراريب من الصوف الزاهى اللون على رؤوسها كلها ، وطرحت بعض السجاجيد على سروجها الخشبية بطريقة تجعلها تصلح للاقامة . لقد ركب وجهاء الفسطاط الجمال منذ ساعات وجلسوا فوقها فى هدوء وأرجلهم متقاطعة . وقد شهدنا سلوكهم هذا باعجاب يخالطه الحسد . أما الآن وقد انتبهنا فى تواضع الى شجاعتنا الذاتية ، فقد أعددنا أنفسنا لنفعل مثلهم . وكانت لحظة رزينة تلك التى قمنا فيها باختيار الجمال التى سنركبها ، وتاهبنا لمجاوبة مخاطر الصحراء ، وأثار اعجابنا ما قام به الزوجان السعيدان من تبادل الوداع عند الرحيل .

وركبنا ثم مضينا فى طريقنا ، وكان هناك ولدان مثل شيطانين صغيرين يتبعان خطوات جمالنا ، بينما يقوم سلام بدور الحارس . ثم وجدنا أننا نرتفع وننخفض ، ونتأرجح ، ونتدحرج للأمام بسرعة جعلتنا نصعد فوق المنحدر خلال ضاحية مملوءة بالمقاهى والبنسات الراقصات الضاحكات . ثم انطلقنا الى الصحراء ، وكان طريقنا بالنسبة لنصف الميل الأول يمر بين المقابر . انها جبانات ضخمة يستخدمها المسلمون ، جزء منها قديم وآخر حديث . وهى تقع خلف مدينة أسوان وتغطى مساحة أكبر من مساحة المدينة ذاتها . وهناك عدة مجموعات من المساجد الصغيرة نرتفع فوقها قباب صغيرة ، وجميعها متداعية كثيرا أو قليلا ، وهى تقوم هنا وسط خرائب أحجار القبور المتناثرة ، وبعضها منعل ، بينما تجمع البعض الآخر فى مجموعات تشكل منظرا صالحا للتصوير . ومن المفروض أن كلا منها يغطى قبر فقيد مسلم ، ولكن بعضها مجسرد أضرحة لتخليد ذكرى مشايخ وشهداء مدفونين فى أماكن أخرى . وهناك المئات من شواهد القبور البسيطة ، مشوهة ومحطمة ، ومقلوبة ، ومسنودة بعضها الى البعض

الأخر فوق أكوام من الحجارة ، أو وضعت في شكل أكوام مهمة .
والطرف العلوى في معظمها مستدير مثل اللوحات الفرعونية القديمة .
عليها كتابات محفورة ، بعضها بالخط الكوفى يتجاوز عمرها ألف عام .
وعندما تمشى الشمس في اتجاه الغرب وتستطيل الظلال ، تحس بشيء
من الحزن العميق والروعة التى تحيط بمدينة الأموات ، هذه التى تمتد
في الصحراء المهجورة .

والآن ، وبعد أن تركنا المقابر فاننا نتجه نحو اليسار قاصدين المسلة
التي في المحجر،وهي تمثل المنظر الأساسي للمكان، ويمتد الأفق خلف أسوان
محاطا من جميع الاتجاهات بمرتفعات صخرية شاهقة وذات شكل بديع ،
ولكنها ليست بالارتفاع الذى يكفى لكى نطلق عليها اسم الجبال . وكان
انقاع الرمل الذى تحت أقدام جمالنا تتناثر فيه الحصباء بينما هو متماسك
بشكل مريح . وكانت مجموعات الصخور الجرانيتية التى تمتلئ بالنقوش
الهيروغليفية ، تظهر فجأة هنا وهناك وتقوم مقام المعالم الأرضية حيث تشتد
الحاجة إليها ؛ لأنه ليس هناك ما هو أسهل من أن يضل الانسان طريقه
بين هذه المنحدرات الصفراء اللون ، ويمضى تأثها مثل الاسرائيليين
التائهين في الصحراء . وأخيرا وبعد أن تعرجت بنا السبل بين الروابي
التموجة ومناطق الصخور الأسطوانية وصلنا الى مجموعة صغيرة من
الصخور حيث توقفت جمالنا عند سفحها بارادتها . وهنا ترجلنا ،
وتسلقنا منحدرًا قصيرا ، ووجدنا الكتلة الصخرية الضخمة تحت أقدامنا .

ونظرا لأنها قطعت أفقيا فقد كانت ترقد نصف مدفونة في الرمال
المنحرفة ، ولم يظهر منها ما يدل على أنها ليست منفصلة كلها وجاهزة
لننقل . وتقول الكتب التى بين أيدينا انه لم يتم قطع السطح السفلى منها
وهو القاع الجرانيتي الذى ترقد عليه . أما طرفاها فقد اختفيا .
ولا يستطيع الانسان أن يسير حوالى ستين قدما على السطح الظاهر منها ،
ويحمل هذا السطح آثار الأدوات التى كان يستخدمها العمال . وهناك
أخدود منحدر مليء بالثقوب المثلثة الشكل التى تبين مسار التناقص
التدرجى في الحجم مع الاقتراب نحو القمة . وأخدود آخر يبين التناقص
الجانبى . ولو كانت هذه المسلة قد اكتملت لصارت أضخم مسلة في
العالم . ان المسلة العظيمة للملكة حتشبسوت في الكرنك التى جاءت
أيضا من أسوان حسب ما ذكرته النقوش الموجودة عليها ، يبلغ ارتفاعها

اثنين وتسعين قدما • وتبلغ سعتها عند القاعدة ثمانية أقدام مربعة (١) • أما هذه التي ترقد نائمة في الصحراء فقد كان طولها سبيلخ خمسة وتسعين قدما وتزيد مساحة قاعدتها على أحد عشر قدما مربعة •

ولا نعرف الآن لماذا تركت هنا ، كما أننا لا نستطيع تخمين اسم الملك الذي كان سينقش عليها • وهل كان الملك قد أضمر في قلبه أن يقيم أضخم مسلة رأتها عيون البشر ؟ وهل مات قبل فصل المسلة من كتلة الحجر ؟ أم أن العمال قد طردوا من موقع العمل مثلما طرد الملك عن عرشه بفعل القبائل الجائعة القادمة من اثيوبيا أو سوريا أو جزر ما وراء البحر ؟ وربما كانت هذه الكتلة الضخمة أقدم من رمسيس الأكبر أو أنها في مثل حداثة آخر الأباطرة الرومان ، ولكنه من المستحيل أن نحدد لها زمنا أو نخصص لها تاريخا • وهنا يقف علم المصريات الذي حل لغز أبى الهول ، عاجزا ؛ لأن المسلة التي في المحجر تحتفظ بسرها آمنا ، وتمسك به الى الأبد •

ويشاهد الانسان المحاجر المصرية القديمة في أوضح معالمها بين الطبقات الكثيفة من الحجر الجيري أو الحجر الرملي كما هي في مناطق طرة والسلسلة • ولا يمكن تتبع الطريقة التي يستخلص بها الحجر بدرجة أوضح مما هي عليه الا في أسوان والمحاجر هنا رغم أنها على نطاق ضيق بالنسبة لتلك الموجودة أسفل النهر الا أنها أكبر جاذبية • وليس هناك شيء يثير الانسان في السلسلة أكثر من الأسلوب الذي كان يقطع به الحجر الرملي من قلب الجبل • أما في أسوان فان نفس المادة تنتمي الى نوعية أفضل ، ولذلك فان أسلوب الاستخراج هنا أضخم تكلفة والصخور الصفراء في السلسلة تقطع الى شرائح منتظمة مثل انتظام الجبن في شبك بائع الجبن ، وتحلد معالم المكان الذي يتم فيه العمل حوائط مرتفعة ملساء ، مع كمية صغيرة من الانقاض • أما في أسوان فانه عند استخلاص الجرانيت لأغراض النحت فإنهم يقطعون الصخر كتلة واحدة بالشكل التقريبي المطلوب ، ثم يقومون بتشكيله بالتخلص من الزوائد ، وليست المسلة العظيمة الا احدى العينات التي في المنطقة • وفي نفس المجموعة

(١) هذه هي الأبعاد التي وردت في دليل موراي • أما الترجمة الانجليزية الجديدة لكتاب مارييت وعنوانه : Itineraire de la Haute Egypte وترجمته : الدليل الى مصر العليا - فانها تذكر أن ارتفاع مسلة حتشبسوت يبلغ ١٠٨ أقدام وعشر بوصات - انظر : The Monuments of Upper Egypt ترجمه الى الانجليزية الفونس مارييت - لندن ، ١٨٧٧ •

من الصخور ، أو فى مجموعة أخرى مجاورة ، رأينا عمودا منحوتا دون استواء ، قائما وقد فصلت ثلاثة أجزاء منه وأيضا الفتحة نصف الأسطوانية التى أخذ منها زميله . وكان هناك تجويف غريب قطعت منه كتلة ربع دائرية أثارت ارتباكنا بسبب ضخامتها . وفى أماكن أخرى ظهرت الكتل الصخرية وقد اتخذت شكل صندوق . وقد بحثنا عن النابوس المهشم الذى ذكره موراي ولكن دون جدوى .

ولكننا متأكدون من أن الرمال المتراكمة قد أخفت أشياء أخرى اثمن من هذه . ومن المحتمل أن تكون النقوش كثيرة هنا كما هو الحال فى محاجر الحمامات . ولا بد من وجود مسلة زميلة للمسلة الضخمة ، ولتتنا عرف المكان الذى نبحث فيه عنها . ومن الممكن تتبع مسلة الملكة حتشبسوت ونواويس العديد من الملوك المشهورين حتى مواقع قطعها فى هذه المحاجر . وكذلك أحجار الطبقة الخارجية التى اكتسى بها هرم منكاورع ، والكتل المكعبة الضخمة التى بنى بها معبد الكباش ، وحوائط هيكل فيليب أريدهايوس بالكرنك . وقبل كل شيء التمثال الضخم بالرمسيوم وتمثال الحيوان الخرافى الغريب الشكل فى تانيس (١) الذى يعتبر أضخم تمثال منحوت فى العالم ، فلا بد وأن يكون كل منهما قد ترك الفجوة الضخمة التى نحت منها بين الصخور القريبة . ولكن هذه تشبه أغنية الجنيات البحرية (فى الأساطير اليونانية) أو اللياذة أخيل رغم أنها ليست فوق مستوى التخمين ، إلا أنها تقع ضمن الأشياء التى لم يتم اكتشافها حاليا .

أما بخصوص عملية القطع من المحاجر بأسوان ، فيبدو أن الكتل الجرانيتية المستطيلة الشكل قد قطعت هنا مثل الحجر الجيرى والحجر الرملى الناعم فى أى مكان آخر ، باستخدام أوتاد خشبية تثبت فى ثقوب صنعت لادخالها ، وبعد أن تتشبع بالماء ، تشق الصخر الصلب بقوة التمدد . ونجد أن كل كتلة مأخوذة من المحجر تحمل علامات صفوف من ثقوب الأوتاد التى ذكرناها .

ومرنا فى طريقنا بواحة صغيرة شاهدنا فيها جمالا وبثرا ، وساقية مهجورة ، ومساحة من الشعير الأخضر بلون الزمرد . وبعد ذلك ركبنا

(١) للاطلاع على قصة اكتشاف هذا التمثال الضخم ومقاييس أجزائه المختلفة ، انظر الجزء الأول من كتاب Tanis تأليف العالم م. فلندرز بترى - الفصل الثانى ، صفحة ٢٢ وما بعدها - طبعة جمعية استكشاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٥ . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .

الحمير عائدتين الى ضواحي أسوان ، حيث يمكنك أن تسرى فى منخفض صغير فى الأرض على حافة الصحراء معبدا صغيرا نصف مدفون من العصر البطلمي . وما زالت آثار الألوان ظاهرة على القرص المجنح الذى تحت الافريز ، وعلى بعض النقوش البارزة المشوهة على كلا جانبي المدخل . ولم نحاول الدخول لأننا وجدنا داخل المعبد غاصا بالمخلفات ، ولذلك ابتعدنا دون أن ننزل عن الحمير .

والآن ، مازال ضوء الشمس باقيا لمدة ساعة ، وعقدنا النية على الصعود الى قمة أقرب تل ، لكى نشاهد غروب الشمس ، وهو ابتكار لم يسمع به أحد من قبل ولذلك فقد حملق فينا الأولاد الذين يقودون الجمال ، وهزوا رؤوسهم واعترضوا قائلين : « ما فيش سكة » أى لا يوجد طريق . والواضح أنهم اعتبرونا مجانين . وزرعت الجمال بصلاية أقدامها المموجة فى الرمال ، وحاولت أن تعود . وعندما أجبرت على الاستسلام لضغط الظروف ، صارت تسبنا طوال الطريق . وعندما وصلنا الى القمة وجدنا أنفسنا ننظر الى جزيرة الفنتين بما فيها النيل ، والمدينة ، والانهبيات التى تحت أقدامنا . وقادتنا اطالة حافة سلسلة الجبال التى كنا نقف عليها الى مرتفع آخر يتوجه قبر متهدم ، وبدا المنظر كما لو كان هو منظر الشلال . وعندما رأى الأولاد الذين يقودون الجمال أننا نستعد للاستمرار فى السير ، اندفعوا فى ثورة غضبهم معترضين ، ولم يضع حدا لتمردهم الصريح سوى عصا سلام الكبيرة . واستمر تقدمنا يصاحبه عدم الرضا ، وصممنا على مجابهة قمة ثالثة . وسار الأولاد فى تناقل وهم يشعرون باليأس وقد تجهمت وجوههم . وكانت الشمس تتجه للمغرب ، بينما كان الطريق منحدرًا وصعبًا . واقترب حلول الليل . وإذا اختار الخواجات أن تكسر أعناقهم فالأمر خاص بهم ، أما اذا انكسرت أعناق الجمال فمن الذى سيدفع أثمانها ؟

وقد عبروا عن بعض هذه المعانى بكلمات عربية ، وعن بعضها الآخر بالاشارات . وكانت تلك هى أفكار هؤلاء الشبان النوبيين . ولم تكن الجمال نفسها بأقل منهم حسما ، فقد صرت على أسنانها ، ونخرت بأنوفها ، وزمجرت مكشرة عن أنيابها ، وعارضت كل قدم من الطريق . أما عن جملى (وهو حيوان ثقيل الحركة وشديد الاستخفاف ، وعينهاه تقذفان بالشر ، وأنفه روماني مائل) فأننى لم أر فى حياتى كلها جملا مثله يقذف بأشد عبارات اللغة بداءة !

وكان التل الأخير حجريا شديدا الانحدار ولكن المنظر من فوق قمته كان رائعا . لقد فزنا الآن بأعلى نقطة على الحافة التى تفصل وادى

النيل عن الصحراء العربية (الشرقية) . وقد ظهر الشلال الذى أخذ يتسع مرحلة بعد أخرى ، ويمتلئ بالجزر الصخرية الصغيرة التى لاتحصى ، كما لو كان بحيرة وليس نهرا . ولم نستطع أن نرى شيئا من الصحراء الغربية وراء المنحدرات الرملية المقابلة ، ذات الحواف الذهبية التى تواجه مفسرب الشمس . وكانت الصحراء الشرقية وهى متاهة مترامية الأطراف يقع على حافتها خط متعرج من القمم القرمزية ، تمتد شرقا نحو الأفق البعيد . وأخذنا ننظر إليها كما لو كنا ننظر الى خريطة بارزة المعالم . أما مقابر المسلمين التى تقع على بعد حوالى خمسمائة قدم الى أسفل ، فقد ظهرت فى حجم لعب الأطفال . وقد عرفنا ونحن ننظر الى اليمين من فتحة واحدة متسعة متجهة الى الجنوب ، ذلك الحوض القديم للنهر ، الذى يقوم حاليا مقام الطريق العلوى بين مصر وبلاد النوبة . وقد حددت الطريق الى فيلة ، بعض النخلات البعيدة التى تقف فى مواجهة خلفية صخرية على حافة الصحراء .

وفى نفس الوقت كانت الشمس تتجه بسرعة نحو المغرب ، وتتخذ الأنوار لونا قرمزيا ، والظلال تستطيل ، بينما لف الصمت والوحدة كل شيء . لقد أنصتنا ولكننا لم نسمع أية همسة من الشلال . وبحثنا عن معجز السلسلة دون جدوى ، فلم يكن سوى مجموعة من الصخور بين المجموعات الأخرى ومن الصعب التعرف اليه من هذه المسافة البعيدة .

وفى تلك اللحظة ظهرت مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص يركبون حميرا رمادية صغيرة ويدورون بين القبور ، ثم اتخذوا الطريق الى فيلة . كانوا بالنسبة لنا مجرد نقط صغيرة متحركة ، ولكن الأولاد ذوى الأبصار الحادة الذين يسوقون جمالنا ، عرفوهم سريعا بأنهم « شيخ الشلال » وحاشيته . لقد دخلت ذهبيات كثيرة الى الشلال ، وكان الرجل الجليل القدر الذى قضى النهار فى أسوان يقوم بالزيارات والمناقشات والمساومات ، وعائدا لقضاء الليل فى منزله بالمحطة . وراقب الركاب المتقهقرين لعدة دقائق ، حتى غطى الغسق القناة القديمة مثل الفيضان وأغرقها فى الظلال الدافئة .

وسرعان ما اختفى الضوء خلف المرتفعات عندما عبرنا آخر حافة . ونزلنا آخر جانب من التلال ، ووصلنا الى السطح المستوى الذى بدأنا منه . وهنا قابلنا مجموعة القسطنطين مرة أخرى . لقد ركبوا الى فيلة وعادوا عن طريق الصحراء . وكانت ملابسهم شديدة الاتساخ . ولما شاهدونا دفعوا جمالهم للسير بالخطوة السريعة ، وتظاهروا بأنهم يحبون هذه الطريقة فى السير . وقد انفرجت أسارير الرجل الكسلان

والكتابة عن ابتسامة واسعة ودفعا بجمليهما للسير بنفس الخطوة السريعة. ولم يفصحا عن صعوبة السير بهذه الخطوة متظاهرين بأن هذا هو التأثير السلوكي للجمل ، الذى يتصرف بشكل عصبى ، متمسكا بالفضائل الاسبرطية ، واذا لم يكن هو نفسه بطلا ، فانه على الأقل يدفع الآخرين فى طريق البطولة .

وعندما وصلنا أسوان كان الليل قد أرخى سدوله . وكانت جميع المقاهى مضاءة ومستيقظة على قدم وساق ، وكان التدخين واحتساء القهوة مستمرين خارجها ، بينما تصاعدت أصوات الموسيقى والضحك فى داخلها . وكان هناك بيت خصوصى ضخم على الجانب الآخر من الطريق مزين بالأنوار كما لو كان شاغلوه يحتفلون بمناسبة سارة . كانت الأعلام تتطاير على السطح بينما انشغل رجلان فى تركيب يافطة ملونة على المدخل . وقد سألنا كما هى العادة عما اذا كانت الاستعدادات تجري لعقد احتفال بالزواج أو احتفال موسيقى ، ولم تظهر أية علامة تدل على أن هذه كانت علامات الحداد ، وأن رب هذا المنزل قد مات خلال الفترة ما بين خروجنا وعودتنا على ظهور الحمير . وفى مصر التى كانت تعتبر عبادة الأسلاف وحفظ الأجساد محتطة فى يوم ما ، ضمن الواجبات المقدسة التى يقوم بها الأحياء ، يعمل المصريون الآن عملا مشابها لما كان يحدث فى الماضى بالنسبة للميت . كانوا يقولون انه سيدفن فى صباح الغد بعد شروق الشمس بثلاث ساعات .



الجمل فى أسوان

الفصل الحادى عشر

الشلال والصحراء

عند أسوان يودع الانسان مصر ويدخل النسوبة من خلال بوابات الشلال . وهو فى الحقيقة ليس شلالا بل سلسلة من الجنادل تمتد بطول ما يزيد على ثلثى المسافة بين جزيرتى الفنتين وفيلة ، حيث يتحول النيل عن مجراه الأصللى بسبب بعض العوائق التى لاتحصى ، والتى كانت طبيعتها سببا فى ظهور افتراضات علمية كثيرة . وينتشر النهر هنا فوق حوض صخرى تحده على أحد الجانبين منحدرات رملية ، وعلى الجانب الآخر صخور جرانيتية ، وتسده جزر صغيرة تفوق الحصر ، ويتفرع الى عدد كبير من الفروع ، ويفيض على الصخور الغائرة ، ويدور فى شكل دوامات حول الصخور التى تغطيها المياه ، فتارة تجد المياه ضحلة ، وتارة أخرى عميقة ، وتارة بطيئة ، وتارة أخرى سريعة ، وهنا يرقد فى عمق منحدر رملى صغير ، بينما يدور هناك فوق دوامة غير ظاهرة ، وتستطيع أن ترى النهر سواء من فوق سطح الذهبية ، أو المرتفعات التى بطول الشاطئ . وهو يشق طريقه خلال متاهة لم ترسم ممراتها بعد على الخرائط ولم يسمع بها أحد .

وتجد هذه الممرات صعبة وخطيرة فى كل مكان تمر به . ويملك الشلال وحده مفتاح هذه المتاهة . وفى وقت الفيضان عندما يصبح كل شئ مغطى بالماء اللهم الا الصخور الشديدة الارتفاع ، تصبح الملاحاة سهلة هنا كما هى فى أى مكان ولا تجد أثرا لمعوقات الشلال . ولكن مع انحسار الفيضان وظهور المسافرين مرة أخرى ، يعود الشلال الى ما كان عليه . وهنا تسحب الذهبيات فوق هذه الجنادل الغادرة بقوة دفع الحبال والعضلات ، وتوجه بمهارة للعودة خلال القنوات المحفوفة بالصخور والتى تغل بالزبد فتصبح شغله الشاغل لمدة خمسة أشهر كل سنة . انه عمل شاق ولكن يقابله أجر مرتفع ، وتزداد الأرباح دائما لأن هناك ما بين أربعين الى خمسين ذهبية تأتى اليه فى الفترة ما بين شهرى نوفمبر

ومارس ، حاملة سيلا أكبر من السياح • وفى نفس الوقت نجد أن الحوادث نادرة الوقوع ، بينما تتجه الأسفار نحو الارتفاع باستمرار ، ويحرق أعراب الشلال ربها لا بأس به عن طريق احتكاراتهم الفردية (١) •

أما منظر الشلال الأول فلا يضاهيه فى العالم كله الا منظر الشلال الثانى • انه جديد وغريب وجميل • ومن المتعذر أن نفهم لماذا كتب عنه السياح عامة بمثل هذا الإعجاب المحدود ، فمن الواضح أنهم تأثروا بقوة المياه ، وغرابة أشكال الصخور ، ووحشة وروعة المنظر الطبيعي بوجه عام ، ولكنهم نادرا ما تأثروا بجماله الذى يفوق الخيال •

ويتسع النيل هنا فيصبح مثل البحيرة ، ونجد صعوبة فى وصف مئات الجزر التى يغص بها ، ولكننا لا نبالغ اذا قلنا انه لا توجد منها جزيرتان متشابهتان • وتتكون بعض هذه الجزر كتلة فوق كتلة ، وعمودا فوق عمود ، وبرجا فوق برج ، كما لو كانت قد صنعت بيد الانسان مثل الصخور التى فى طرف أراضي كورنول (*) •

وتزخر بعض هذه الجزر باللون الأخضر بسبب الحشائش ، بينما يزخر بعضها الآخر باللون الذهبى بسبب منحدرات الرمال المنحرفة ، وبعضها الآخر مزروع بصقوف من نباتات الترمس المزهرة بألوانها القرمزية والبيضاء ، بينما تحول بعض منها الى مجرد تلال صغيرة من قطع الحجارة • وتنتشر قمم الصخور الخطرة هنا وهناك • وتقع فوق واحدة منها صخرة مستقيمة منعزلة بارزة كما لو كانت قد وضعت هناك كنصب تذكارى لتاريخ معين ، أو لتحديد الطريق الى فيلة • وتبرز كتلة صخرية أخرى من الماء ، مربعة ومركزة فى القاع كاحدى القلاع • وتحديث كتلة ثالثة كما لو كانت هى الظهر المبلل لأحد الوحوش البرمائية الذى يرفع ما يبدو أنه رأس متوج بالقرون فوق مستوى سطح الجنادل • وجميع هذه الكتل والصخور العجيبة من الجرانيت ، بعضها أحمر ، والبعض الآخر قرمزي ، والبعض الأخير أسود • أما أشكالها فهى مستديرة

(١) ان تزايد حركة المراكب بشكل نسبي قد غير أحوال السفر فى النيل منذ كتابة هذا الكلام ، وقال عدد الذهبيات المستخدمة ، ولكن بالنسبة لهؤلاء الذين يستطيعون دفع النفقات والذين يرغبون فى الحصول من الرحلة على أقصى درجة من الاستمتاع ، والدرس ، والاهتمام ، نهى دائما بتفضيل الذهبية • (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

(*) كورنول مقاطعة فى جنوب غرب إنجلترا تبلغ مساحتها ٣٤٠ مليوناً و ١٣٥٠

مقرا مربعا - (المترجم) •

بسبب توالى العصور • أما الصخور القرية من الحافة فتعكس صورة السماء وكأنها مرايا مصنوعة من الفولاذ المصقول • وفوق هذه الأسطح اللامعة تظهر هنا وهناك خراطيش ملكية ، ونقوش هيروغليفيه سليمة كما لو كانت قد نقشت بالأمس • وقد كلل القليل من هذه الجزر مجموعات من النخيل • وازدانت أجمل هذه الجزر بأشجار الصمغ والأثل ونخيل الدوم ونخيل البلح وأشجار الطرفاء ذات الفروع المتناثرة مثل ريش الطيور • وقد تشابكت كافة هذه الأشجار تحت مظلة معلقة من النباتات الزاحفة ذات الأزهار الصفراء • لقد دخلنا الى هذا الأرخيل الجرافى فى صباح يوم أحد مشرق مع هبوب رياح مواتية وأبحرنا ضد التيار بسرعة منتظمة حتى ابتعدنا عن أسوان وتركنا الغتتين خلفنا • وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى وسط الجزر • ومن تلك اللحظة أخذت كل دورة للدفة تكشف عن وجهة نظر جديدة • وجلسنا على سطح الذهبية للفرجة على بانوراما متحركة • وكان هذا التباين فى الموضوعات بلا نهاية لأن هذا المزيج من الشكل واللون ، ومن الضوء والظل ، ومن المنظر الأمامى والمسافة ، دائم التغيير ، ولم يتطلب الأمر لاستكمال المنظر الذى يفرى بالتصوير الا قارباً وبضعة أفراد ، ولكننا لم نر فى كافة هذه القنوات ، وبين جميع هذه الجزر أية علامة تدل على وجود كائن حي •

وفى نفس الوقت فان شيخ الشلال - وهو نوبى كهل ، مسطح الوجه ، وذو عينين كعيون الأسماك ، وقد ربط رأسه بمنديل حريرى قذر ذى لون أصفر ، جلس وحيدا فى مؤخرة السفينة وهو يدخن نرجيلة طويلة فى جلال مهيب ، وجلس القرفصاء خلفه خمسة أو ستة غرباء متجهمين الوجوه • وتولى قيادة الدفة عامل جديد أسود اللون هو المرشد الذى سيقودنا فى منطقة النوبة ، وقد أصبح مسئولاً عن سلامة الذهبية وكل من عليها من أسوان الى وادى حلفا ثم العودة الى أسوان •

وقد سرت بين البحارة عبارة عامة تحذرننا من الاقتراب الشديد من الجندل الأول • وكانت هناك سلسلة من الجزر الصغيرة تعترض طريقنا رأساً بطول القناة مثل سد صغير يتحكم فى مجرى النهر ، بينما يتفرع النهر الى ثلاثة أو أربعة مسارات طولية تندفع فوق المنحدر ثم تتحد مرة أخرى عند القاع فى سباق عاصف •

وفى البداية ظهرت لنا استحالة الوصول الى جزيرة فيلة فوق هذا الجبل من المياه المتدفقة • واستمر عامل الدفة فى عمله ملتزماً بالابحار داخل أوسع القنوات ، كما استمر الشيخ فى التدخين وهو رابط الجأش

دون أن يرفع الغليون عن فمه ، وهو يردد كلمة واحدة (روح !)
أى (تقدم !) •

ومع ايماءة من رأس الشيخ ، امتلأت الصخور سريعا بالمواطنين .
لقد كانوا مختبئين حتى الآن فى كافة أنواع الأماكن غير المنظورة ،
وقفزوا وهم يصيحون ويستخدمون الاشارات ، وقد حملوا لفائف من
الحبال ، ثم قفزوا فى مياه الجنادل حيث أثاروا فيضانا من المياه مثل
كلاب البحر ، وكانوا يتقافزون مثل قطع الفلين ، وهم يعرضون علينا
استعراضا للقوة كما لو كانوا سيجذبوننا الى أعلى شلالات نياجرا • كان
المنظر مثل دقات المسرح ، وشبهها بظهور فرقة محاربى الألب فى مسرحية
دونا ديل لاجو Donna del Lago مع طلب البقشيش فى الخلفية •

وكان المنظر الذى تلا ذلك مثيرا للغاية • لقد حملوا حبلين من
الذهبية الى أقرب جزيرة وثبتوها فى الصخور ، كما أوصلوا حبالا من
الجزيرة الى سطح الذهبية ، وكان هناك صفان من الرجال على السطح ،
وصفان آخران على البر ، وقاموا جميعا بترتيب أنفسهم وهم يقفون بطول
الحبال • وأعطى الشيخ الاشارة وبدأ سحب الذهبية عن طريق حبلين
يجذبهما هذان الصفان من الرجال ، بصاحبهم الانشاد بصوت مرتفع ،
وحركة تشبه الرقص البربرى الذى يؤديه سير روجر دى كوفلى • وهكذا
صعدت الذهبية ببطء وثبات • لقد قضينا ربع ساعة فى صعود المنحدر ،
ولكن بدت لنا هذه الفترة أطول من ذلك • وفى نفس الوقت كان الرجال
مندمجين فى عملهم ، وصار صوت انشادهم أكثر ارتفاعا ، كما أصبح
سحبهم أشد قوة ، حتى اندفعت المركب أخيرا ، وتعلقت فوق بحيرة من الماء
الهادئ نسبيا ، وبعد أن قضينا ساعة للراحة ، كررنا العرض ثانية ضد
تيار أشد قوة للصعود الى أعلى لمسافة أخرى • وفى هذه المرة انقطع أحد
الحبلين فتساقط الرجال الذين يسحبون المركب مثل صف من أوراق
اللعب التى مالت أطرافها فجأة ، وتارجحوا حول الذهبية فيلة ، مستقبلين
اندفاعة التيار على كمر السفينة • ومن حسن حظنا أن الحبل الآخر كان
مربوطا جيدا • ولو كان قد انقطع هو الآخر لتحولت الذهبية الى حطام
قبيح الشكل •

وبعد ذلك ترك مساعدونا النوبيون العمل ، وقالوا ان القدر كان
معاندا • وعادوا الى منازلهم تاركين المركب راسية طوال الليل فى البحيرة
عند قمة الجنادل الأول • ووعده الشيخ بأن يبدأ رجاله العمل عند فجر
الغد فيصلون بنا الى هناك قبل الغروب • وجاء صباح اليوم التالى

ولم يظهر أى رجل فى الأفق . وعند منتصف النهار تقريبا بدءوا يتقاطرون ويلقون بأنفسهم فى الماء ، وتعلقوا بطريقة كسولة ومتراخية فى السفينة لمدة ساعتين أو أكثر ونقلونا الى موقع أفضل لمواجهة الجندل التالى . ثم ذابوا بين الصخور فى مجموعات مكونة من فردين أو ثلاثة ، ولم يظهروا بعد ذلك . وأحسبنا الآن بأن وقتنا ونقودنا قد تبددت باستهتار ، وأننا قررنا ألا نتحمل هذا الوضع أكثر من ذلك . وتكفل الرسام المرافق لنا بإبلاغ اعتراضنا للشيخ واقناعه بخطا الأساليب التى يلجأ إليها . وأنصت إليه الشيخ ، وأخذ يدخن نرجيلته ، ويهز رأسه ، ثم أجاب بأنه توجد فى الشلال مثل أى مكان آخر أيام حظ وأيام نحس ، أيام يشعر فيها الرجال بالرغبة فى العمل ، وأيام أخرى يميلون فيها الى الكسل . وقد حدث اليوم انهم أحسوا بالكسل ، ولما ذكروه بأنه من غير المعقول أن نقضى ثلاثة أيام فى صعود خمسة أميال فقط من النهر ، وأن هناك حكمدارا فى أسوان سمنتصل به غدا اذا لم يستمر العمل بنشاط ، ابتسم ، وهز كتفيه بلا مبالاة وتمتم بشئ عن « القدر » . والآن بدأ الرسام يقوم بدور عملي لأنه كان قد جمع لنفسه مجموعة كلمات عربية مختارة عن السباب واللعن ، وقد دونها فى نوتة للعودة إليها عند الحاجة ، أما وقد اعتقد فى عدم امكانية الاستفادة منها فقد وجدنا فى الطريقة التى يجمعها بها مادة للتسلية ، فنظرنا إليها واعتبرناها فى حقيقة الأمر تسلية غير ضارة ، مثلما نظرنا الى المسدس الذى يحمله فى جيبه دون أن يحشوه بالرصاص ، أو بندقيته الجديدة الخاصة بصيد الطيور تلك التى لم يعرف مطلقا كيفية استخدامها .

ولكن شيخ الشلال مضى الى أبعد من ذلك ، لأن سخافة ابتسامته تلك تثير أكثر الرجال تواضعا ، ولم يكن رسامنا هو أكثر الرجال تواضعا ، ولذلك أخرج النوتة من جيبه ، ومشى باصبعه على الخط واستخرج تعبيراً مناسباً . وربما لم تكن لهجته صحيحة ولكن لم يخطئ فى أسلوبه أو قوة لفته . وكان تأثيرهما سريماً . لقد قفز الشيخ على قدمين كما لو كان قد أطلق عليه الرصاص ، وامتنع لونه من الغضب . وأقسم بأن تظل فيلة فى مكانها حتى يوم الحشر لأنه مهما كانت الأسباب فإنه هو أو رجاله لن يساعدوا فى تحريكها قدما واحدا . ثم انتعل صندله المتهاك وابتعد تاركا إيانا لمصيرنا .

ووقفنا مذهولين . لقد انتهى كل شئ بالنسبة لنا ولن نشاهد «أبو سنبل» ، وإن نكتب أسماءنا على صخرة (أبو صير) ، أو نرعى عطشنا فى الشلال الثانى ، فماذا نفعل ؟ هل يمكن مقاومة الشيخ أو استعطافه ؟

هل نتصل بالحكمدار ، أو نقدم الرسام قربانا • وقد وافقت الأغلبية على التضحية بالرسام •

وفى تلك الليلة ذهبنا للنوم ونحن يائسون • ولكن ، انظر ! لقد ظهر شيخ الشلال فى صباح اليوم التالى عند شروق الشمس بكل ابتسام ، وكل نشاط ، ومع حبال لاحصر لها ، وقوة مكونة من مائتى رجل • لقد أصبحنا الآن أعز أصدقائه وأصبح الرسام أخا له • لقد استدعى جماهير الشلال وما وراءها لكي يصيروا فى خدمتنا • وباختصار فإنه عمل كل ما فى استطاعته لخدمتنا •

وأقسم الترجمان أنه لم ير النوبيين يعملون كما عملوا فى هذا اليوم • لقد انهمروا مثل الصالقة وأخذوا يسحبون السفينة من الصباح حتى المساء ، ولم يتوقفوا حتى عبروا بنا الركن الأخير ، وصعدوا بنا آخر الجنادل • وعندما استقرت ذهبيتنا أخيرا فى الماء الخالى من المطبات كانت الشمس قد غربت ، وخيم الظلام ، وبدأ الغسق يغطى سطح النهر ومع صيحة الرحيل تفرق الرجال الذين يبلغ عددهم مائتين وعادوا الى قراهم العديدة •

ولم نعرف بعد ذلك أبدا قيمة العبارات السيئة • ولو كانت هذه النوتة هى كتاب بروسبيرو الذى غرق فى البحر ، أو بردية تحوت السحرية وقد جرى صيدها من قاع النيل ، لما كنا ننظر اليها باحترام يقارب ما لقيته هذه النوتة من الاحترام • وبالرغم من عدم وجود خط يحدد أين تنتهى حدود مصر وأين تبدأ النوبة ، الا أن جنسية السكان الذين يعيشون على كلا جانبي هذا الخط الوهمي غير المنظور ، واضحة كما لو كان المحيط يفصل بين الاثنين • فمن بين القرويين الذين يسكنون الشلال توصلنا فجأة الى عدم وجود شيء واضح يجمع بينهم وبين سكان مصر • انهم ينتمون الى تصنيف جنسي مختلف • ويتحدثون لغة مشتقة من أصول أفريقية خالصة • فالبدائيون الذين احتشدوا حول فيلة عند عبورها الشلال يختلفون عن بحارتنا العرب من حيث سمحتهم العابسة ، وأجسامهم نصف العارية ، وقوتهم البدنية ، ولا يستطيع الانسان الا أن يلاحظ أنهم ما زالوا حتى اليوم أناسا مميزين ومختلفين ، وقد صنف المصريون القدماء جميع الأمم الذين يعيشون جنوب الحدود بحيث يشتركون فى صفة واحدة بوصفهم « الجنس الكوشى القبيح » ولم يغير الزمن شيئا من طباعهم منذ الأيام القديمة التى هزمهم فيها المصريون ، ولكن زحفت الى مفرداتهم بعض الكلمات العربية • وتضمنت قائمة احتياجاتهم اليومية بعض مواد

الترف الحديثة مثل التبغ ، والقهوة والصابون ، وملح البارود . ولكنهم ما زالوا في غالبية نواحي الحياة يعيشون حتى اليوم مثلما كانوا يعيشون على أيام الفراعنة . يزرعون العدس والذرة ، ويصنعون الجعة من الشعير ، ويصنعون الحصر والسلال من البوص المصبوغ ، ويخطون أشكالا بدائية فوق أوعية من سطح القرع المجفف ، ويقذفون الرمح ، ويرمون القوس الخشبي الذي يرتد الى راميهِ ، ويصنعون الدروع من جلد التمساح ، والأساور من العاج ، ويمدون مصر بالحنة ، ويوازنون أنفسهم على جذع النخلة المجوف بمهارة عظيمة كما لو كانوا يجلسون في قارب المراهات، وتدهشك طريقة تجديدهم في النهر ذهابا وعودة . وربما كان هذا البديل البربري للقارب أقدم من الأهرام . وبعد أن شاهدنا مسار الجنادل القليلة الأولى سعدنا بالنزول من الذهبية وقضاء الوقت في الرسم هنا وهناك على حدود الصحراء وبين القرى والجزر المحيطة ، ولا يوجد في كل بقاع مصر والنوبة منظر غني بالصور الصالحة للرسم أفضل من منظر الشلال ، ولا بد للفنان أن يقضى هناك فصل الشتاء دون أن يستنفد الثروة التصويرية الموجودة في هذه الأميال الخمسة التي تفصل أسوان عن جزيرة فيلة ، أو يستنفد الجداول المائية الصغيرة المتعرجة المليئة بالصخور المتجمعة في شكل عجيب ، أو المنحدرات الرملية الذهبية التي على حافة الماء ، أو البحيرات الهادئة التي ترقد في وسط حقول الترمس ، ومناطق زراعة الشعير الرفيع والسواقي المختفية بين أشجار النخيل وهي تلقى بالماء أثناء دورانها ، والأكواخ الطينية التي تتجمع هنا في مناطق غائرة ، بينما تجثم هناك منعزلة على المرتفعات التي بين الصخور وتتخذ حتى هذا اليوم شكل وانحدار البوابات الفرعونية ، والقوارب البدائية التي تجهز في خلجان محمية أو التي تتكسر وتجف فوق الرمال ، وصخور الجرانيت القرمزية والسوداء والأرجوانية التي تجرفها الأمواج وتغطيها الطيور البرية في وسط النهار ، والصيد الذي ينشر شبابه لكي تجف في حرارة الشمس ، والجمال والقوافل ، والمعسكرات الشاطئية ، وقوارب نقل البضائع ، والمراكب التي في النهر ، والأشكال الضخمة للأجسام الرياضية نصف العارية ، والنساء القاتمات اللون اللائي يتزين بالزينة البربرية وهن سافرات ، وينزلن بسرعة ، ويسجن خلفهن أثوابا طويلة الذيل ذات ألوان زرقاء غامقة ، والعجائز المسنات ، والأطفال الصغار العراة مثل تماثيل برونزية حية . وليس هناك نهاية لهذه الموضوعات ومئات الموضوعات الأخرى التي يمكن تصنيفها في مجموعات لا نهائية . وهي جميعها صالحة للتصوير ، والتدوين ، والنظم في القصائد لدرجة أن الانسان يخشى أن يرق في خطأ نسيان أن هذه الأماكن تمثل ما هو أكثر من خلفيات جميلة ، وأن الناس ليسوا مجرد تماثيل متناسقة وضعت

هناك لاسعاد الرسامين ، ولكنهم من لحم ودم ، يتحسرون وهم مفعمون
بالأمل والمخاوف والأحزان مثلنا .

وتستكين المحطة فى أحضان خليج صغير وقد اخضر لونها بفعل
أشجار الجميز والنخيل ، كما اتخذ نصفها الخلفى شكل جزيرة بسبب
ذراع من الماء ينحنى ويلمع مثل سيف تركى فتبدو بذلك من أجمل القرى
التي على النيل . انها مقر الشيخ الرئيسى وهى أيضا عاصمة الشلال .
وتبعد المنازل قليلا عن الشاطئ . أما الخليج فانه مزدحم بالقوارب المحلية
من كافة الأحجام والألوان . ويزدحم الشاطئ الرملى بالرجال والجمال
والنساء والأطفال والحمر والكلاب والبضائع والأكواخ المؤقتة كل ذلك
فى نفس الموقع مع الأعمدة والحصير . وهذه هى أسوان أخرى ولكن على
نطاق أوسع . فهناك العشرات من السفن . أما معسكر التجار فهو قرية
فى حد ذاته . ويبلغ طول الشاطئ نصف ميل ، كما يبلغ عرضه المنحدر
الى النهر ربع ميل . والحقيقة هى أن المحطة تمثل الميناء القوام لاسوان .
وهى لا تقع تماما على الطرف الآخر للوادى العظيم بين أسوان وفيلة ، ولكن



التجار السودانيون فى المحطة

عند اقرب نقطة يمكن الوصول اليها فوق الشلال . ويفرغ التجار
السودانيون بضائعهم هنا لكي يعاد شحنها الى أسوان . ولم نر بطول
النهر مثل هذه القوارب النوبية المخلعة ذات المظهر البربرى ، انها تبدو
قديمة ومهجورة مثل سفينة نوح ، وعلى البعض من هذه القوارب شرفات
مقوسة خارج مدخل القمرة ، بينما تميل مؤخرة بعضها الآخر مثل السفينة

الشراعية الصينية المسطحة القاع . وقد كان معظم هؤلاء التجار يعملون .
بالتخاسة أيام الدفترداربك ، ويتنقلون بين وادى حلفا والمحلة مثلما
يتنقلون الآن حيث يفرغون بضائعهم البشرية فى هذه النقطة لكى يعاد
شحنها الى أسوان ، ونادرا ما كانوا يعبرون الشلال حتى فى وقت الفيضان .
ولو كانت ألواحهم الخشبية القديمة القذرة تستطيع الكلام لذكرت لنا
العديد من القصص السوداء الدامية .

وبعد أن مضينا من خلال القرية وحدائق النخيل ، ودربنا فى اتجاه
شمالى شرقى نحو الصحراء وصلنا الى منتصف المسافة فى هذا الوادى
الذى نوهت عنه أكثر من مرة ، ولا يستطيع أى شخص غير ماهر فى
الجغرافيا الطبيعية أن ينظر من أحد طرفى هذا الأخدود الضخم الى الطرف
الآخر دون أن يكتشف أنه كان فى يوم ما قاعا للنهر . ولا نعرف لمدة
كم من عشرات الآلاف من السنين مضى النيل فى مجراه داخل هذه الحدود
الأصلية . ولا نستطيع أن نذكر متى هجرها . ولكن من المؤكد أن النهر
كان يفيض متخذاً هذا الطريق خلال العصور التاريخية أى فى أيام
أمنمحات الثالث (جوالى سنة ٢٨٠٠ ق م) والكثير من هذا الكلام
يحتاج الى برهان يستدل عليه من بعض النقوش (١) التى تسجل أعلى

(١) ان أهم الاكتشافات التى اكتشفناها هنا والذي سأذكره فى إيجاز ، هو سلسلة
من النقوش الصخرية التى تسجل أعلى ارتفاعات للنيل خلال سلسلة من السنوات تحت
حكم أمنمحات الثالث وخلفائه ١٠٠٠ انها تبرهن على أن النهر قد ارتفع خلال الأربعة
الاف عام التى مضت أكثر من أربعة وعشرين قديماً فوق مستوى ارتفاعه الآن ولابد
أن ذلك نتج عنه أحوال مختلفة بالنسبة للفيضان وسطح الأرض كله ، شمال وجنوب
هذه البقعة . انظر : خطابات من مصر للمؤلف لبيسيوس (الخطاب السادس والعشرين)
Lepsius's Letters from Egypt.

لقد تم تسجيل أعلى ارتفاع للنيل كل عام فى سمنة بواسطة علامة تبين سنة حكم
الملك ، نقشت فى الجرانيت ، سواء فوق إحدى الكتل التى تشكل أساس القلعة أو على
صخرة خاصة على الضفة الشرقية أو الغربية فى أفضل مكان مناسب لاداء الغرض .
وقد بقيت ثمانى عشرة علامة من هذه العلامات ، قطعت ثلاث عشرة منها فى عصر
موريس (أمنمحات الثالث) وخمسة فى عصر الملكين اللذين خلفاه . لقد أوضحنا هذه
الحقائق ذات الدلالة وهى أن أعلى الدرجات المسجلة صارت معروفة الآن ، ذلك أنه فى خلال
السنة الثالثة عشرة من حكم أمنمحات وبناء على القياسات الدقيقة التى قمت بها ، كان
الارتفاع ٨١٧ متراً (٢٦ قدماً ، ٨ بوصات) أعلى من أعلى مستوى وصل اليه ارتفاع
النيل خلال سنوات الفيضان العالى . وكانت أقل علامة على البر الشرقى وفى مقابل
السنة الخامسة عشرة من حكم نفس الملك ، تبين أن الارتفاع مازال هو ٤١٤ متراً
(١٣ قدماً و ٦٦ بوصة) كما أن العلامة المنعزلة على الضفة الغربية تبين أنه فى خلال
السنة التاسعة بلغ الارتفاع ٢٧٧ متراً (٩ أقدام) فوق أعلى مستوى سبق الوصول
اليه (عن خطاب لبيسيوس الى البروفيسور امرنبرج Lepsius's Letter to Ehrenberg .

ارتفاع للفيضان عند سمنة خلال السنوات العديدة التي حكنه هذا الملك ، ثم ارتفع النيل في أثيوبيا الى مستوى ٢٧ قدما زيادة على أعلى نقطة وصل اليها في الوقت الحالى . وأنا لا أعرف ماهية العلاقة التي يحملها ارتفاع هذا الفيضان القديم بالنسبة للمستويات المسجلة في سمنة أو بالنسبة لتلك المستويات المسجلة الآن ذاتيا على شواطئ فيلة ، ولكن الانسان يرى في لمحة واحدة بدون الاستعانة بالمقاييس أو علم مسح الأنهار ، أنه لو فاض النهر في موجة عظيمة تصل قممها الى ٢٧ قدما فوق أعلى أرض يخصبها الآن الفيضان السنوى ، فسرعان ما يمتلئ الحوض الصحراوى الطويل ويحول أسوان الى جزيرة .

ولابد أن النيل الذى أغرق الصحارى بفيضانه العسالى في عصر أمنمحات الثالث ، قد جاء عليه يوم في فترة أخرى تلت ذلك العصر فانخفض مستوى الفيضان الى درجة الجفاف . ومن المفروض أن تكون هذه الكارثة قد حدثت في وقت طرد الهكسوس (حوالى سنة ١٧٠٣ ق.م) عندما تحطم الحاجز الصخرى في السلسلة وأغرق منطقة النبوة التي لعبت حتى الآن دور خزان ضخمة ، وشنت الفيضانات الحبيسة فوق سهول مصر الجنوبية . ومن الخطأ استنتاج أن النيل مع هذه الكارثة قد حول مجراه لكي يتدفق في اتجاه الشمال ، ولابد أن ذراعا من النهر قد اتخذ لنفسه المجرى المنخفض والعميق الحالى ، في نفس الوقت الذى جف فيه الذراع الآخر الذى كان منخفضا وذلك مع هبوط الفيضان كل موسم . ولا يوجد أى سجل أثرى لهذا الحدث ، ولكن الحقائق تتحدث عن نفسها . هناك المجرى العظيم ، وهناك طمى النيل القديم ، وقد دفن الجزء الأكبر منه في الرمال ، ولكنه مازال ظاهرا فوق العديد من المدرجات والهضاب الصخرية التي تقع بين أسوان وفيلة . وهناك أماكن نجد فيها أن سطح الكتلة قد انجرف كما لو كان ذلك بفعل الاندفاع الفجائى للمياه . ومنذ ذلك الحين فاضت موجات الحرب والتجارة في مكانها . لقد اتجه كل من الغازيين تحتتمس ورمسيس الى أرض كوش وقادا جيوشهما عبر هذا الطريق . واستطاع شيباكا وهو على رأس القبائل الاثيوبية أن يتخذ هذا الطريق المختصر ليصل به الى عرش الفراعنة . وكذلك فإن الفرنسيين الذين طاردوا المماليك بقيادة ديزيه بعد معركة الأهرام قد اندفعوا خلال هذا الطريق الى فيلة . وفي نفس الوقت فإن كل تجارة السودان قد اتخذت نفس الطريق وإن كانت قد انقطعت أحيانا بسبب المد والجزر الذى تحدثه الحروب . ولم نعبأ أبدا هذه الأميال الخمسة من الصحراء بدون مقابلة قافلة أو قافلتين من الجمال

المحملة سواء بالبضائع الأوربية الى جنوب السودان ، أو الكنوز الشرقية
فى اتجاه الشمال .

ولن أنسى سريعا القافلة الأثيوبية التى قابلناها ذات يوم أثناء
خروجنا من المحطة ، كانت تتكون من سبعين جملا محملة بأنياب الفيل .
وقد حزمت كل ستة من هذه الأنياب التى يبلغ طول الواحد منها أربعة عشر
قدما فى حزمة واحدة ، ووضعت داخل زكائب من جلد الجاموس أغلقت
جيذا بالخيوط المتينة . وكان كل جمل محملا بحملين وضع كل منهما
فوق أحد جانبي السنام . ولابد أن القافلة كلها قد حملت حوالى أربعين
وثمانمائة ناب . وكان يجرى الى جانبى كل جمل نوبى حافى القدمين .
وتلا القافلة فهد صياد محبوس داخل قفص خشبى ومحمول فوق ظهر
جمل ضخم ومعه قطة برية داخل سلة . وفى النهاية سار حبشى أسود
كالقحم يصل طوله الى حوالى سبعة أقدام ، وقد ارتدى شالا فخما وعمامة ،
وكان يلصق الى جانبه سيف أحذب ضخم ، كما وضع فى حزامه زوجا من
مسدسات القرن السابع عشر المطعمة بالصدف ، مثل جراب مسدس
الأمير روبرت . وكان هذا المحارب المزركش هو حارس القافلة . وكان
الفهد الصياد والقطة البرية قادمين لأجسل الأمير حسن الابن الثالث
لولى العهد . أما الحاج فكان مخصصا للتصدير . ولم أجد منظرا يصلح
للتصوير أفضل من منظر هذه القافلة التى تسبقها مسح من التراب
المثار بينما يخرج الأطفال من القرية فى اثرها ، بشكل يصعب ادراكه .
وقد اشتقنا لحضور جيروم لكى يرسمها على الطبيعة .

وتتضمن الصخور على كلا جانبي مجرى النهر القديم نقوشا
هيروغليفية . ويغطى تاريخ هذه النقوش مع غيرها مما وجدناه فى المحاجر
المجاورة ، فترة تتراوح ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف عام ابتداء من العصور
المبكرة للإمبراطورية القديمة ، وتنتهى بعصور البطالمة والقيصرية .
ان بعضها مجرد توقيعات ، ولكن البعض الآخر يصل الى طول معقول .
والكثير منها تعلوه أشكال الآلهة والعابدين . وليست هذه النوعية فى
معظمها الا مجرد نقوش جدارية سيئة الرسم ومحفورة باهمال .
أما السجلات التى تصورها فهى فى الغالب سجلات الذنور . كان المسافرين
العابر يعظم آلهة الشلال ، ويطلب حمايتها ، ويسجل اسمه ، ويذكر
الغرض من رحلته . وكان المسافرون من طبقات وعصور وجنسيات
مختلفة ، ولكن العبارات كانت فى معظم الحالات متشابهة الى حد كبير ،
فهذا مواطن من طيبة يقوم بالحج الى فيلة ، أو قائد على رأس قواته عائد
من غزوة فى اثيوبيا ، أو أمير تابع يقدم خضوعه للملك رمسيس العظيم

وارتباط اقطاعيته بآلهة المكان • وكنا بين حين وآخر نعثر على خرطوش ملكي وقائمة طويلة بالألقاب تبين كيف أن الفرعون هو نفسه الصفر الذهبي ، وابن رع ، والجبار ، والذي لا يقهر ، وشبيه الآلهة وهكذا •

ومما يثير العجب أن نرى كيف أرسيت الملكية من عدة آلاف من السنين أسلوب الألقاب ، كما تفعل في أيامنا هذه ، لقد تسمى تسعة أعشار من المسافرين القنماء الذين تركوا توقيعاتهم على هذه الصخور ، بأسماء رمسيس أو تحوتمس أو أوسرتاسين • وكان البعض منهم طموحين فاتخذوا لأنفسهم أسماء الآلهة • وقد وجد أمير الذي كان مجتهدا في العمل في اكتشاف النقوش سواء هنا أو بين الجزر ، توقيعات عدد لا يحصى من الموتى الذين تسموا بأسماء آمون وحتحور (١) •

وتلا فترة ثلاثة الأيام التي قضيناها محجوزين في الشلال • يوم رابع تميز بالهدوء الشامل حيث لم تكن هناك نسمة هواء تملأ أشراعتنا • ولم يكن هناك مكان يقوم فيه الملاحون بسحب السفينة ، حتى أننا لم نستطع أن نتحرك للأمام الا باستخدام العصي الطويلة التي تنفرز في قاع النهر ، ولذلك مضى نصف النهار قبل أن ترسو الذهبية في ظل الجزيرة المقدسة التي تحمل اسمها •



معبد جزيرة القراطة

(١) للاطلاع على عبارات وترجمات عدد كبير من نقوش أسوان الجدارية انظر كتاب لبسيوس وعنوانه Denkmaler وللإطلاع كذلك على أحدث وأكمل مجموعة من النقوش التي كانت على صخور أسوان والمناطق المجاورة بما فيها النقوش غير المدونة بوادي السبع رجالة ، والفنتين ، والصخور التي في جنوب السلسلة • الخ • الخ • انظر أحدث كتب السير ولیم م • فلندرز وعنوانه : عمل فصل كامل في مصر سنة ١٨٨٧ - صدر سنة ١٨٨٨ عن دار نشر Field and Tuer (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية)

الفصل الثانى عشر

فييلة

تضينا عدة أيام على مقربة من فييلة ، وليس للمقاريء أن يحسب أننا اكتفينا منها بالتطلع الى بواباتها البعيدة بين الحين والآخر ، ولكن على العكس فقد كنا نجد طريقنا الى هناك عند انتهاء جولة كل يوم . لقد اقترينا منها بريا من الصحراء ، وبحريا عن طريق القارب ، ومن المحطة عن طريق الممر الواقع بين الصخور والنهر . وعندما أقول بأننا قد رسونا هنا لمدة ليلة ونهارين تقريبا ونحن فى طريقنا جنوب النهر ، ومرة أخرى لمدة أسبوع عند وصولنا ، فإن ذلك يبين أنه كان لدينا وقت يسمح لنا باستظهار معالم هذه الجزيرة البديعة . وأجمل الطرق المؤدية اليها هو طريق النهر ، فحينما ترى من سطح القارب الجزيرة وعليها أشجار النخيل ، تظهر أساطينها وبواباتها وكأنها هى سراب يرتفع من النهر ، وتحيط بها اكوام الصخور من جميع الجهات ، بينما تسد الأفق الجبال ذات اللون الأرجوانى . وترتفع هذه الصروح المزينة بالنقوش شيئا فشيئا فوق أفق السماء ، بينما ينزلق القارب على صفحة الماء فيدنو منها وهو يشق طريقه بين الصخور المتألقة ، دون أن تظهر عليها أية علامة تدل على الخراب أو تقدم الزمن ، فكل شيء يبدو صلبا ومتناسكا ومتكاملا ، ولبرهة نخال أن كل شيء على حاله لم يتغير ، فلو حملت اليها نسائم الهواء الذى يلفه الصمت نغمات أغنية عابرة ، ولو أننا رأينا موكبا من الكهنة المتسربلين بالبياض يشق طريقه وسط أجام النخيل وأبراج المعبد ، وهم يحملون زورق الاله المحجوب عن الأنظار ، فما كنا سنجد فى ذلك غرابة .

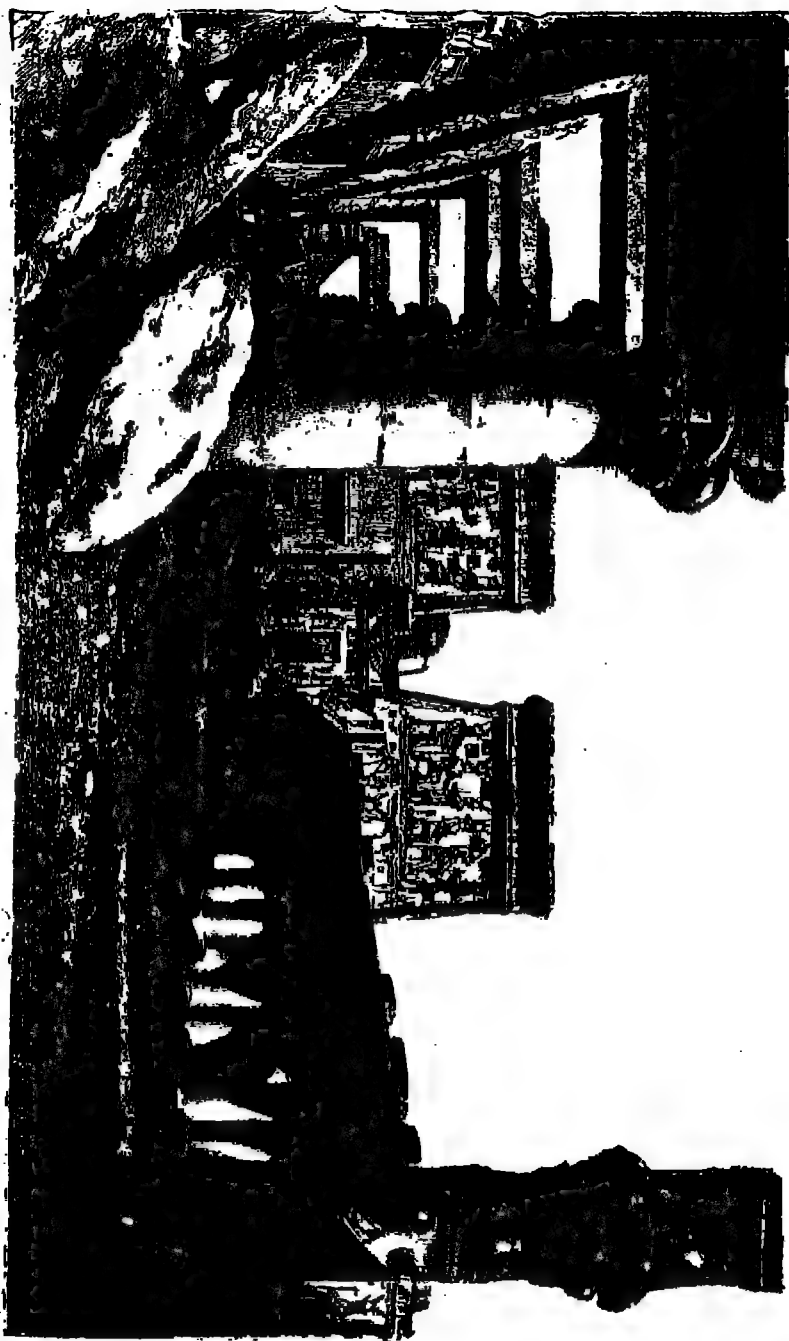
وينزل غالبية السائحين فى طرف الجزيرة بالقرب من الشلال ، وبذلك يصلون الى المعبد الرئيسى من الخلف ويشاهدونه بترتيب عكسى ، ولكننا جعلنا الأعراب يجدفون حول الجزيرة متجهين نحو الطرف الجنوبى حيث كان يوجد مرسى فخم ينحدر بدرجة الى النهر . وسرنا محاذين للضفاف المنحدرة ، ومررنا بالمعبد غير المسقوف المعروف باسم معبد

سرير فرعون ، وهو معبد طالما اجتذب الفنانين لتصويره بالريشة والكاميرا حتى أصبحت صورة كل حجر فيه وكل ركن في المنصة القائم عليها وآجام النخيل التي تطوقه مطبوعة في ذهن منذ الطفولة كصورة أبى الهول أو الأهرام . وقد وجدته أضخم مما كنت أحسب ، لكنه لم يكن أقل جمالا مما توقعت ولو بقدر خردلة . وعلى أية حال فالانسان يشعر بأن معبد سرير فرعون الحقيقي يحل محل الصور المحفوظة في الذاكرة الضيقة التي تشبه عش الحمام والتي اعتاد الانسان حتى هذه اللحظة أن يخترن فيها المناظر الشهيرة علما بأنه حتى الصور قد يطرأ عليها نوع من التغيير .

والآن نجد الركن مستديرا ، والنهر يتسع في اتجاه الجنوب بين الجبال ومزارع النخيل . وتلمس مقدمة السفينة خرائب خليج قديم فاذا بالضفة هنا شديدة الانحدار . ونصعد فينتجح أمام أعيننا منظر عجيب . اننا نقف على الطرف السفلى من فناء يقود الى صروح المعبد العظيم . وهذا الفناء غير منتظم الشكل ، ويطوقه على كلا الجانبين رواق من الأساطين ، وهى أساطين غير متساوية فى الطول ، كما أنها مقامة فى زوايا مختلفة . ونجد ببساطة أن أحد الرواقين عبارة عن مرور مغطى ، بينما ينفجح الآخر على صف من الحجرات الصغيرة مثل رواق دير ينفجح على صف من صوامع الرهبان . أما الأحجار التى أقيمت بها سقف هذين الرواقين فقد أزيحت قليلا ، بينما ضاع أسطون أو تاج أسطون هنا أو هناك . أما الصروح المزدوجة للمدخل التى تقف فى صفوف مستقيمة مقابل السماء وقد غطتها التماثيل المنحوتة فهى كاملة أو شبه كاملة تقريبا مثلما كانت فى أيام البطالة الذين شيدها .

وقد زخرفت المنطقة التى بين الأساطين بقواعد من الطوب اللبن عبارة عن الأثر الباقي من قرية قبطية تنتمى الى العصور الأولى للمسيحية . وقد اتخذنا طريقنا بين هذه القواعد الى مقدمة الصرح الرئيسى التى يبلغ عرضها الكلى ١٢٠ قدما . ويبلغ ارتفاع البوابة ٦٠ قدما من القاعدة حتى الشرفة . وهذه الأبعاد لا تعنى شيئا بالنسبة لمصر ، ولكن الصرح الذى يعتبر صغيرا بالقياس الى صروح الأقصر أو الكرنك لا يبدو هكذا فى فيلة . وليست العظمة هنا هى محور الكلام بل الجمال . والجزيرة صغيرة بمعنى أنها تغطى منطقة تعادل مساحة قمة الاكروبول فى أثينا . أما نطاق المباني فقد حددته حجم الجزيرة ، والأرض هنا كما هى فى أثينا يحلها معبد رئيسى واحد متوسط الحجم ، بالإضافة الى عدد من الهياكل الثانوية . ويحل محل الضخامة هنا الرشاقة الكاملة ، والتناسب الرائع ، والتجهم

البراق المسجون في القلعة



المختلف والمتقلب الأطوار ، وبذلك يضاف الى النماذج المصرية عدم انتظام التنفيذ وهو صفة تميز العمارة القوطية ، واللمعان الذى تتميز به العمارة الاغريقية .

ونشاهد الآن بعض لمحات قاعة داخلية ، ويهوا ثانيا ، يقع خلفه بهو آخر ذو أساطين . وعندما نرفع أنظارنا الى النحت البارز الضخم الذى فوق رؤوسنا ، نرى الأشكال السرية المعتادة للملوك والآلهة ، متوجين ، وجالسين على العروش ، يعبدون أو يتلقون العبادة . وتبرهن هذه النقوش التى تبدو لأول نظرة وهى ليست أقل كمالا عن الصروح على أنها نالت من الجهد مثل ما نالت مثيلتها فى معبد دندرة . وقد نجت من التحطيم هناك التماثيل التى تحمل رأس الصقر حورس ، ورأس البقرة حتحور ، بينما كانت الآلهة ذات الوجوه البشرية وبلا مبالغة « بدون عيون ، وبدون أنوف ، وبدون آذان ، وبدون أى شيء » .

ودخلنا الى القاعة الداخلية وهى على شكل مربع غير منتظم يحده من الشرق رواق مكشوف . ومن الغرب هيكل صغير فى مقدمته أساطين على قمته رأس البقرة حتحور ، بينما يحده من الجانبين الشمالى والجنوبى الرواق الثانى والرواق الأول ، ويخيم الصمت على هذه القاعة المربعة ، بينما تلمع زرقة السماء من أعلى ، وترقد الظلال من أسفل ، ويظهر الضيق رقيقا حول أقدامنا . وترقد الظلمة الأبدية فى داخل الهيكل الصغير الذى بناه بطليموس الثانى (يورجتيس) وينتمى هذا الهيكل الى الطراز الذى أطلق عليه شامبليون اسم ماميزى (بيت الولادة) Mammisi . وهو مكان شديد الغرابة ، مخصص للالهة حتحور تخليدا لذكرى تربية حورس . ومن خلال الضوء الباهت الذى يتصارع على الحاجز والمداخل ، ظهرت على الحوائط السوداء صورة ايزيس زوجة وأخت أوزوريس وهى تلد حورس . أما فى الخارج فقد تتبعنا على عوارض الحاجز قصة طفولته ، وتعليمه ، ونموه . كان يتربى فى حجر أمه الحاضنة حتحور عندما كان طفلا رضيعا . وعندما صار صبيا نراه يقف عند ركبة أمه ، وينصت الى موسيقى عازفة القيثارة (رأينا فى القاهرة فى يوم آخر ، ولدا عارى القدمين يعزف على قيثارة من نفس النوع بها أوتار عديدة) . وعندما صار شابا كان يزرع الحبوب تكريما لاييس ، ويقدم صدريه مرصعة بالأحجار الكريمة الى حتحور . أما ايزيس هذه بأنفها الطويل المعقوف ، وشفتيها الرفيعتين ، وطمعتها الشامخة فانها تشبه احدى الصور الشخصية التكريمية التى نتعرف اليها ضمن نقوش المعابد المصرية . وقد تمثل احدى المصورتين المتين تسجيلان زفاف كليوباترة الى بطليموس فيسكون .

وقد نقش على الحائط الخارجي لهيكل صغير مجاور ، كلبان سلوقيان ، وضع حول عنقيهما طوقان . ويظهر هذان أيضا مثل صورتين شخصيتين ، وربما كانا هما الكلبين المفضلين لأحد كبار كهنة فيلة .

وقد نقشست مقابل الكلبين وعلى نفس الحائط تلك النسخة الشهيرة من النقش المدون على حجر رشيد والذي كان لبسيوس هو أول من لاحظته سنة ١٨٤٣ للميلاد ، وهو نقش غير مرتفع ومكتوب بخط واضح بخلاف ما ذكره أمبير (بكل ما فيه من تعصب بوصفه فرنسيا من رجال شامبليون) ونستطيع القول بأنه كان محفوظا في حالة أكثر من جيدة .

أما عن هذه النسخة من مرسوم رشيد المدونة على حائط فيلة بوصفها صورة طبق الأصل ، فهي نسخة ناقصة ، لأن نص حجر رشيد بعد أن أورد بكل الفخامة الرسمية انتصارات وسخاء الملك بطلميوس الخامس الدائم البقاء والمنتقم لمصر ، ينتهي بالأمر بأن يدون هذا السجل بالكتابات الهيرغليفية والديموطيقية واليونانية ، ويوضع في جميع معابد الدرجات الأولى والثانية والثالثة في كافة أنحاء الامبراطورية . وتتميز النسخة الثمينة التي من البازلت والموجودة في المتحف البريطاني بكافة هذه الاشتراطات ؛ بصرف النظر عما بها من كسور وتحطيمات (١) وعليها النص المكتوب باللغات الثلاث .

(١) يورد ماريت في نهاية كتابه : A percú de l'histoire d'Egypte

- قصة حجر رشيد واكتشاف شامبليون كما يلي :

« Découverte, il y a 65 ans environ, par des soldats français, la pierre saisi un retranchement près d'une redoute située à Rosette, la pierre qui porte ce nom a joué le plus grand rôle dans l'archéologie égyptienne. Sur la face principale sont gravées trois inscriptions. Les deux premières sont en langue égyptienne et écrites dans les deux écritures qui avaient cours à cette époque. L'une est en écriture hiéroglyphique réservée aux prêtres : elle ne compte plus que 14 lignes tronquées par la brisure de la pierre. L'autre est en une écriture cursive appliquée principalement aux usages du peuple et comprise par lui : celle-ci offre 32 lignes de texte. Enfin, la troisième inscription de la stèle est en langue grecque et comprend 54 lignes. C'est dans cette dernière partie que réside l'intérêt du monument trouvé à Rosette. Il résulte, en effet, de l'interprétation du texte grec de la stèle que ce texte n'est qu'une version de l'original transcrit plus haut dans les deux écritures égyptiennes. La Pierre de Rosette nous donne donc, dans une langue parfaitement connue (le grec) la traduction d'un texte conçu dans une autre langue encore ignorée au moment où la stèle a été découverte. Qui ne voit l'utilité de cette mention ? Remonter du connu à l'inconnu n'est pas une opération en dehors des moyens d'une critique prudente, et déjà l'on devine que si la Pierre de Rosette a ...

أما في فيلة ، فانه بالرغم من أن النص الاصلى المكتوب بالهيراغليفية والديموطيقية متطابق حرفيا ، الا أنه ينقصه النص اليونانى الاصلى ، وهو الذى تضمنه حجر رشيد فى المقدمة ، وقد ترك له مكان فارغ فى نهاية لوحة فيلة . ونحن نتخيل أننا استطعنا أن نميز هنا وهناك آثار الحجر

= acquis dans la science la célébrité dont elle jouit aujourd'hui- c'est qu'elle a fourni la vraie clef ne cette mystérieuse écriture dont l'Égypte a si longtemps gardé le secret. Il ne faudrait pas croire cependant que le déchiffrement des hiéroglyphes au moyen de la Pierre de Rosette ait été obtenu du premier coup et sans tâtonnements. Bien au contraire, savants s'y essayèrent sans succès pendant 20 ans. Enfin, Champollion parut. Jusqu'à lui, on avait cru que chacune des lettres qui composent l'écriture hiéroglyphique était un *symbole* : c'est à dire, que dans une seule de ces lettres était exprimée une *idée* complète. Le mérite de Champollion était de prouver qu'au contraire l'écriture égyptienne contient des signes qui expriment véritablement des *sans*. En d'autres termes que'elle est Alphabétique. Il remarqua, par exemple, que partout où dans le texte grec de Rosette se trouve le nom propre *Ptolémée*, on rencontre à l'endroit correspondant du texte égyptien un certain nombre de signes enfermés dans un encadrement elliptique. Il en conclut : 1. que les noms des rois étaient dans le système hiéroglyphique signalés à l'attention par une sorte d'écusson qu'il appela *cartouche* : 2. que les signes contenus dans cet écusson devaient être lettre pour lettre le nom de Ptolémée. D'ici donc en supposant les voyelles, M, S, D'un autre côté, Champollion savait, d'après une seconde inscription grecque gravée sur une obélisque de Philae, que sur cet obélisque un cartouche hiéroglyphique qu'on y voit devait être celui de Cléopâtre. Si sa première lecture était juste, le P, le L, et le T, de Ptolémée devaient se retrouver dans le second nom propre ; mais en même temps ce second nom propre fournissait un K et un R nouveaux. Enfin, appliqué à d'autres cartouches, l'alphabet encore très imparfait révélé à Champollion par les noms de Cléopâtre et de Ptolémée le mit en possession d'à peu près toutes les lettres consonnes. Comme *prononciation* des signes, Champollion n'avait donc pas à hésiter, et dès le jour où cette constatation eut lieu, il put certifier qu'il était en possession de l'alphabet égyptien. Mais restait la langue ; car prononcer des mots n'est rien si l'on ne sait pas ce que ces mots veulent dire. Ici le génie de Champollion se donna libre cours. Il s'aperçut en effet que son alphabet tiré des noms propres et appliqué aux mots de la langue donnait tout simplement du *Copte*. Or, le Copte à son tour est une langue qui, sans être aussi explorée que le grec, n'en était pas moins depuis longtemps accessible. Cette fois le voile était donc complètement levé. La langue égyptienne n'est que du Copte écrit en hiéroglyphes ; ou, pour parler plus exactement, le Copte n'est que la langue des anciens Pharaons, écrite, comme nous l'avons dit plus haut, en lettres grecques. Le reste se devine. D'indices en indices, Champollion procéda véritablement du connu à l'inconnu, et bientôt l'illustre fondateur de l'égyptologie put poser les fondements de cette belle science qui a pour objet l'interprétation des hiéroglyphes. Tel est la Pierre de Rosette. » — *Aperçu de l'histoire d'Égypte* : Mariette Bèy, p. 189 et seq. : 1872.

الاحمر فى الفراغ الذى كان من المفروض أن تكتب فيه السطور اليونانية ولكن لم ينقش حرف واحد منها على سطح الحجر .

واذا نظرنا الى هذا النقش فى حد ذاته فاننا لا نجد غرابة فى هذا الحذف ، ولكننا ننظر اليه مرتبطا بحذف مماثل موجود فى نقش آخر يبعد عنه عدة ياردات ، وبذلك يصبح الأمر أكثر من مصادفة .

وهذا النقش الثانى محفور على صفحة كتلة من صخرة تشكل جزءا من أساس البرج الشرقى من الصرح الثانى، وهو بعد أن ذكر الأراضى التى أوقفها بطليموس السادس والسابع لصالح المعبد ، ينتهى مثل الحجر الاول بالأمر بأن ينقش هذا السجل الخاص بالمنحة الملكية باللغات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية - أى بلغة الكهنة المقدسة التى كانت تستخدم لدى الفراعنة ، ولغة العامة ، ولغة البلاط . وهنا أيضا ترك النحات عمله ناقصا حيث يتوقف النقش عند نهاية النص الديموطيقي تاركا فراغا للنص اليونانى . وهذا الحذف الثانى يعنى اهمالا مقصودا ، وليس من الصعب ادراك الدافع لهذا الحذف وهو أن لغة الجنس الحاكم لم تكن لها شعبية بين العائلات النبيلة العريقة والكهنوتية . وربما كان كهنة فيلة الذين يحتمون بجزيرتهم البعيدة والمنعزلة يغفلون هذه الفقرة دون خوف من القصاص بخلاف اخوتهم فى الدلتا الذين أجبروا على الانصياع .

ولا نفهم من ذلك أن الحكم الاغريقى كان بالتالى غير شعبى فان لدينا من الأسباب ما يدفعنا الى الاعتقاد بعكس ذلك فقد كان قاهر الفنازى

وفضيف الى ما ذكره مارييت أنه قد اكتشف نسخة أخرى مكتوبة باللغات الثلاث عندما كان يقوم بحفريات فى صان (تانيس) سنة ١٨٦٥ ويعود تاريخها الى السنة التاسعة من حكم بطليموس يورجيتيس ويتضمن النص تأليه برنيس ابنة الملك والتى ماتت فيما بعد (سنة ٢٥٤ قبل الميلاد) وهذا الحجر المحفوظ فى متحف بولاق معروف باسم : حجر صان أو مرسوم كانوب . ولو لم يكن قد تم اكتشاف حجر رشيد فاننا كنا سنستنتج أن مرسوم كانوب ربما أصبح أداة شامبليون فيما بعد لاكتشاف مفتاح اللغة الهيروغليفية والا كان هذا الاكتشاف العظيم لم يتم حتى الآن .

ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية : وجدت فى تل نبروه سنة ١٨٨٥ نسخة ثالثة من مرسوم كانوب منقوشة بالهيروغليفية فقط ونقلت الى متحف بولاق . وقد فأت مكتشف هذه اللوحة الاعلان عن هذا الكشف الاعظم وحفظه كما هو بالمتحف حتى أتى مستر م . فلندرز بترى الى هذه البقعة بعد ذلك بشهر أو شهرين ووجد أن مرتفعات تل نبروه تطفى بقايا المدينة الاغريقية نوكراتيس المشهورة والتى ظلت مجهولة لفترة طويلة . انظر : كتاب بترى وعنوانه Naukratis - الجزء الاول - نشرته جمعية اكتشاف مصر . F.E.P. سنة ١٨٨٦ م .

الفارسي في الحقيقة هو مخلص مصر . لقد استعاد الاسكندر الأكبر السلام للقطر المصري ، واهتم البطالمة بشئون الشعب ، وأنشأوا الأسرة التي لم تخفف الأحمال عن الفقراء فقط ، بل واحترمت امتيازات الأغنياء وكرمت رجال الكهنوت ، ووهبت الأوقاف للمعابد ، واستعادت الفاقد من مياه النيل ، ولذلك كان من الصعب على مثل هذه الأسرة أن تفشل في كسب مودة جميع الطبقات ، ولا بد أن كهنة فيلة قد احتقروا لغة هوميروس ولكنهم في نفس الوقت كرموا أحفاد فيليب المقدوني . لقد استطاعوا تمصير الملك ، فأخفوا اسمه بحروف الهجاء الهيروغليفية . وصوروه مرتديا ملابس الفراعنة التقليدية ، كما قدموه متوجا بالتاج المزدوج أثناء تته لآلهة بلده الجديد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمصروا أو يخفوا فقد كانت شيئا دخيلا سواء في نطقها أو كتابتها ، وكان حفرها العالية يمثل شعارا للعبودية . فماذا تستطيع السلطة المحافظة أن تتجاهله كلما كان ذلك في استطاعتها ؟ وهناك نقوش يحجب الانسان أن يلقي عليها نظرة ، وهي للوهلة اق الشرقى التي لا يتشابه منها اثنان ، والنقوش 'فريز الهيكل' . ومن هذه الأساطين نجد الأنساب ، تمثل الصقر المقدس جالسا اثنين من المساعدين . أما المساعدان والآخر أحد أفراس النهر ، 'خراف' .

أنفسنا في مواجهة

ة حتى تخيلنا

الحقيقة .

شعرون

؛

انه اللون الذى تركز فى رقة وبساطة فى رسنوم واتو ولانسزت وجروز وهى نوعية ساحرة . انها النوعية المتدرجة الرقيقة ، وهى صورة طبق الأصل من « مبادئ التلوين » التى لا تنقل الفكرة البعيدة . كانت كل درجة من درجات اللون ناعمة وممتزجة ومتدرجة ، فالألوان الوردية مرجانية ، والخضراء ممتزجة بالزرقة ، ومخضرة كالفيروز ، مثل النصف الغربى من السماء فى أمسية خريفية .

وفىما بعد عندما عدنا الى فيلة من الشلال الثانى ، خصصت الكاتبة الجزء الأكبر من الأيام الثلاثة لعمل دراسة متأنية لأحد أركان رواق الأساطين هذا ، وجمعت فى صبر عجيب هذه الفروق الدقيقة التى فى طبقات اللون ساعية الى السيطرة على سر تركيبها (١) .

ان الرسم الملحق المطبوع من حفر على الخشب يمكن أن يبين ما هو أكثر من مجرد عمل نسخة .

ومن وجهة النظر المعمارية نجد أن هذه القاعة لا تشبه أية قاعة أخرى شاهدناها حتى الآن بوصفها صغيرة جدا ومفتوحة من الوسط نحو السماء مثل الحجرة المركزية المفتوحة فى منزل روماني . وبذلك فإن الضوء المسموح به يدخل رأسيا فى شكل بقعة مربعة على الأرضية التى تحتها ، وينعكس على حنيات السقف المزخرفة بالصنور ، وهناك حاجز أصلى بين الأساطين فى الطرف العلوى . وتبين الجوانب الخشنة للأساطين المكان الذى انشقت فيه الكتل التى تؤصل بينها . وكذلك الأرضية قد خلعت

(١) وليست تيجان الأساطين هذه هى العينات الاولى لمهارة التلوين فى فيلة حيث مازال يوجد بين النقوش البارزة المحطمة التى فى جبه الأساطين الكبير، الواقع فى الطرف الجنوبي للجزيرة . بعض القطع المنعزلة التى لم يصل اليها الاذى ، وهى ملونة بالأوان جميلة . انظر الى الزخرفة بالخزف التى على عرش الاله فوق المنخل الثانى فى الحائط الغربى ، والتصميمات التى على سلسلة من العروش الأخرى التى تبعد قليلا نحو الشمال . لقد رسمت كلها بعناية فى شكل مقصورات ولونت بالألوان الأساسية الثلاثة ، ونفذت فى تدرجات عريضة تدل على الصفاء العجيب والرقعة المتناهية . ومن بين هذه الرسومات التى نستطيع ان نقدمها كنماذج لهذا الاتجاز المتكامل والتصميم الذى جرى تنفيذه بالأوان زاهية ، زهرة اللوتس التى رسمت بين اثنين من البراعم ، وكبش صغير ممتاز على أرضية باللون الأحمر الفاتح ، وسلسلة من الصقور القدسة بلون أبيض على أحمر بالتبادل مع لون أبيض على أزرق وكلها رائعة التكوين .

ولا يوجد على ضفتى النيل بطوله ، عمل أكثر قابلية للدراسة وإثارة للبهجة فى النفوس يفوق رسم هذه القطع الثمينة التى نوصى الطلبة والرسامين بمشاهدتها .

منها أحجار الخزف الملونة التي كانت تغطيها وذلك بمعرفة الباحثين عن الكنوز ، وتبعثرت الكتل المكسورة وقطع الافريز المحطمة على الأرضية .

وهذه هي العلامات الوحيدة الدالة على التخريب . وهي علامات لم تسبب فيها أصابع الزمن ولكن أصابع المخربين . أما الباقي فهو سليم حتى اننا تمنينا أن نخدع أنفسنا لحظة بالاعتقاد في أن ما شأسدناه ليس الا عملا لم يلحق به ضرر ، وأن هذه الأساطين التي يركز عليها لم يتم انشاؤها بعد ، وأن أحجار الخزف التي كانت تغطيها على وشك أن يتم تركيبها . ولن يدعشنا أن نجد هنا في صباح الغد النحاتين أو المصورين ومعهم المطرقة والأزميل ، وهم ينفذون هذه المجموعة من براعم اللوتس والتخيل . ومن الصعب الاعتقاد بأنهم جميعا منهمكون في هذا العمل منذ اثنين وعشرين قرنا مضت .

ويرى المشاهد هنا وهناك حيث جرى الاخلال بالأساسات – أن الأساطين قد أنشئت من كتل منحوتة ، أخذت من معبد أكثر قدما . بينما يرى على ارتفاع حوالى ستة أقدام من الأرض صليبا من الطراز اليوناني ، محفورا في جانب قصبة السهم التي تركز على عمودين علامة على ممارسة العبادة المسيحية ، ذلك أن الأقباط الذين أحاطوا القاعات والأقنية بأكوخهم تسربوا أيضا الى المعابد . وقد هدموا بعضها للحصول على مواد البناء بينما استولوا على البعض الآخر .

ولا نعلم كم عدد المعابد التي خربوها ، ولكننا نرى ديرين كبيرين على الضفة الشرقية في أعلى النهر ، وكنيسة صغيرة من الطراز البازيليكي في الطرف الشمالى من الجزيرة . ويبدو أن هذه المباني قد أقيمت بأحجار رصيف الميناء الجنوبي ، والكتل الحجرية التي أخذت من مبنى كان يحتل الركن الجنوبي الشرقى من البهو الكبير .

أما فيما يتعلق بهذا البهو الملون فقد حولوه الى كنيسة صغيرة ، وأقاموا مقصورة صغيرة في الحائط الشرقى ، وهناك مذبح مقلوب مأخوذ من كتلة منفصلة من الحجر الجيرى تشير الى مكان القسم الشرقى من الكنيسة وهو المخصص للقساوسة والمرتلين . أما العرب الذين اتخذوا من هذا الصرح الأخير شواهد للقبور فقد قلبوه رأسا على عقب ، حسب عادتهم بحثا عن الكنز المدفون مع الأموات . ومرة أخرى يظهر الصليب



الاعمدة الملوثة فى بهو المعبد الكبير بجزيرة فيلة



• مقصورة مسيحية قديمة في جزيرة فيلة •

اليوناني على مقدمة المذبح (١) وفوق المقصورة التي زخرفتها بالنقوش
البيزنطية البدائية يد غير ماهرة ولكنها متدنية •

ان التاريخ الديني لجزيرة فيلة عجيب لدرجة تثير الشفقة نظرا
لعدم قيام أحد من المؤرخين بدراسته • انها تتقاسم مع أيديوس وبعض
الاماكن الأخرى السمعة القائلة بأنها هي المكان الذي دفن فيه أوزوريس •
ولذلك كانت تدعى « الجزيرة المقدسة » ونفس تربتها تربة مقدسة •
وكان لا يسمح لأحد بالهبوط على شواطئها أو حتى الاقتراب منها بدون

(١) أشار كاتب في مجلة ساترداي ريفيو Saturday Review الى أن هذا
المذبح قد أقيم من قطعة حجرية أخذت من خربح كان مدفونا فيه أحد الصقور التي كانت
تعبد تقديسا لاله حورس (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

تصريح . وينطلب الجصول على هذا التصريح والقيام بالحج الى قبر الاله - الذى يمثل بالنسبة للمصرى الصالح ما يمثل الحج الى مكة بالنسبة للمسلم الصالح - الكثير من الجناء . وكان أكبر قسم يقسم به المصرى هو : باسم ذلك الذى يرقد فى فيلة ، .

أما متى وكيف اعتبرت الجزيرة لأول مرة مكان الراحة بالنسبة لأحب الآلهة فهذا أمر لم يكتشف بعد . ولكن يبدو أن تمتع الجزيرة بسمعتها كمكان مقدس يعود الى تاريخ حديث . ولابد أنها نالت أهميتها بعد اضمحلال أبيدوس . وقد قام هيرودوت - الذى يفترض أنه وصل الى الفنتين - بالاستعلام الدقيق حول ما يتعلق بحالة النهر بعد هذه النقطة . وذكر أن الشلال كان تحت احتلال « البدو الاثيوبيين » ولا يذكر شيئا عن فيلة أو معاينها . وهذا الجذب الذى قام به شخص عرف عنه أنه كان يقوم بدراسة مجتمع الكهنة فى كل بلد ذهب اليه - واهتم اهتماما خاصا بالشعائر الدينية المتبعة فى البلد ، مما يبين أن هيرودوت لم يمش الى أبعد من ذلك ، أو أن الجزيرة لم تكن قد أصبحت بعد مزالا لأسرار أوزوريس . وبعد ذلك بأربعمئة عام يصفها ديودور الصقلى بأنها أقدس الأماكن المقدسة ، بينما يذكر استرابون الذى كتب تاريخه أثناء نفس الفترة الزمنية أن أبيدوس قد تضاءلت مكانتها حتى صارت مجرد قرية ، ولذلك فربما يكون كهنة ايزيس قد هاجروا من أبيدوس الى فيلة خلال فترة تالية لعصر هيرودوت وسابقة على عصر تيودور واسترابون . ولا يعنى هذا بأية حال أنه كان انتقالا رسميا ليس فقط لرفات أوزوريس، بل أيضا للقدسية التى كانت مرتبطة بموضع راحتها الأصلية على مدى العصور . ولا نحتاج الى بيان الدافع لهذا الخروج ، فلم تعد بقايا الاله آمنة فى أبيدوس التى تقع فى وسط منطقة ريفية غنية بالقمح على طريق طيبة ، ولم تكن أية مدينة جنوب منف أكثر منها تعرضا لمخاطر الحرب . ولذلك فربما كان هذا الطريق ، ولابد أن غزاة آخرين قد تبعوه ، ولذلك يبدو أن البحث عبر الحدود عن الأمان الذى لم يعد موجودا فى مصر هو السبب الواضح لمسيرة جماعة الكهنة الذين خصصوا أنفسهم لهذه الثقة . وبالطبع فإن هذا مجرد تخمين قد تكون له قيمة . ويتلازم تدهور أبيدوس فى كافة الأحوال مع نمو مكانة فيلة . ولا يستطيع الانسان أن يتفهم كيفية ارتفاع مثل هذه البقعة فجأة الى هذه المكانة الرفيعة دون الاستعانة بمثل هذا الافتراض .

لقد بنى المعبد الأقدم هنا والذى لم يتبق منه الا رواق صغير . بمعرفة آخر الفراعنة الوطنيين (نختنبو الثانى - ٣٦١ ق م) . أما أكثر

أيام فيلة ازدهارا. فهي التي تنتمي الى الحكم اليوناني الروماني . انها أيام البطالمة التي أصبحت هذه الجزيرة المقدسة خلالها مقرا للمدرسة دينية ومعقلا لسلطة الكهنة القوية . وكان الزوار من كافة أرجاء مصر ، والسياح من الأراضى البعيدة ، وموظفو البلاد المحملون بالمنح الملكية ، يأتون سنويا في جموع غفيرة لتقديم نذورهم عند قبر الاله . وقد نقشوا المئات من أسماءهم في كافة أرجاء المعبد الرئيسى كما يفعل السياح اليوم . وقد كتبت بعض هذه الأسماء فوق أسماء زوار آخرين سابقين ، بينما نقشت أسماء غيرهم من الزوار على الأحجار بعد محو الأسماء التي كانت مكتوبة سابقا . وكذلك حفرت أسماء أخرى على سطح المدخل وبوابة الصرح اللذين لم يزخرفا بعد ، لأنها تبدو أقدم من النصوص الهيروغليفية التي حفرت عليه فيما بعد . وتغطي هذه النقوش فترة استغرقت عدة قرون ، وهي الفترة التي توالى فيها ارسال الأوقاف الى الجزيرة بمعرفة ملوك البطالمة والقيصرية المتتابعين . وفي سنة ٣٧٩ للميلاد أصبحت المدرسة الدينية الغنية بثرواتها ومعابدها وأساطيرها المحلية التي فرضتها قوة بما فيه الكفاية لكي تفرض مقاومتها العملية ضد منشور ثيودوسيوس ، ذلك أنه بكلمة واحدة صادرة عن القسطنطينية صارت كل أرض مصر مسيحية ، وامتنع الكهنة - بسبب الخوف من عذاب الموت - عن ممارسة الشعائر الجنائزية المقدسة ، وسلبت المئات من المعابد ، وتم تحطيم أربعين ألفا من تماثيل الآلهة في هجمة واحدة . وفي نفس الوقت حوصر كهنة فيلة خلف الشلال والصحراء للحفاظ على حقارة نظامهم وخرائب عقيدتهم القديمة (*) ولا نعرف بالتأكيد المدة التي استمروا يتمتعون فيها بامتيازاتهم الكهنوتية ، ولكن نقشين من النقوش التي ذكرناها عليه يدلان على أن العائلات الكهنوتية كانت لا تزال تحتل الجزيرة حتى سنة ٤٥٣ للميلاد . وأنها ظلت تحتفل بأسرار أسطورة ايزيس وأوزوريس . ويبدو أن هذا هو السبب في الاعتقاد بأن العبادة القديمة استمرت قائمة حتى نهاية القرن السادس الميلادي ، وهو الوقت الذي تمكن فيه سيلكو « ملك جميع الاثيوبيين » الذي كان مسيحيا ، من غزو جنوب التوبة مرتين حيث أعطاه

(*) لقد مضت تخمينات المؤلفة الى مدى بعيد ولم تستطع بما تخیلته من بدايات انتشار المسيحية في مصر أن تغطي عدم اهتمامها بمعرفة التاريخ الحقيقي لهذه الفترة لأن الاضطهاد الذي تتحدث عنه حدث من جانب الرومان للمصريين الذين كانوا قد دخلوا في المسيحية منذ البدايات وليست المراسيم التي صدرت عن الرومان بالاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية الا أداة لوقف الاضطهاد الذي مارسوه - (المترجم) .

الرب الانتصار ، وأقسم له المنهزمون بأصنامهم على مراعاة شروط السلام .
وذلك بناء على نقش موجود في معبد كلايشة (١) .

وليس في هذا السجل شيء يبين أن الغزاة قد مضوا إلى أبعد من طافا Tafa. التي كانت تشتهر قديما باسم Taphis وهي تقع على بعد ٢٧ ميلا جنوب فيلة . ولكن من المعقول أن نستنتج أنه طالما كانت الآلهة القديمة تحكم في أى جزء من النوبة – فإن الجزيرة المخصصة لعبادة أوزوريس ظلت محتفظة بقديسياتها التقليدية . ولا بد أنه كان هناك يوم مخصص لتتويج قبر الاله بالأزهار وانشاد «مراثى ايزيس» على أعتاب المعبد . ولا بد أنه كان هناك يوم آخر ارتفع فيه الصليب منتصرا فوق هذه الأساطين الملونة ، وأقيم أول قداس مسيحي في الحرم الوثني . ويود الانسان أن يعرف كيف حدثت هذه التغييرات ، وهل اضمحلت العبادة القديمة لانصراف المريدين عنها ؟ أم أنها أزيلت بالقوة ؟! والتاريخ غير واضح في هذه النقطة (٢) ، كما أن نفوش تلك الفترة لم تذكر شيئا . اننا نعرف فقط أن العبادة القديمة قد انتهت ودخلت العبادة الجديدة ، وأنه حيث كان يعبد أوزوريس المقام من الموت حسب أقدس أساطير الطقس المصري القديم ، صارت عبادة المسيح القائم من بين الأموات بعد نشأة الكنيسة القبطية في عصورها الأولى . والآن ، فإن الجزيرة المقدسة التي كان من المعتقد أن الأسماك لا تستطيع أن تسبح

(١) كانت جزيرة فيلة في عصر استرابون كما وصفها البروفيسور ريفو Revillout في كتابه : Seconde Memoire sur les Blemmys ملكية عامة للمصريين والنوبيين أو على الاصح تلك الدولة الغامضة التي أطلق عليها اسم البليمي الذين كانوا يصنعون مع بدو التوباد والمجاير في ذلك الوقت طبقة واحدة من « الاحباش » وكان البليمي (اجداد من يطلق عليهم حاليا اسم البرابرة) جنسا شجاعا وشديد البأس ، وقويا بما فيه الكفاية للتعامل مع الحكام الرومان الذين حكموا مصر . وكانوا عبادا مخلصين للالهة ايزيس . ومن المثير أن نعلم أن ماكسيمين في معاهدته مع هذا الشعب اشترط انه « طبقا للقانون القديم » يسمح لشعب البليمي بأن يأخذوا تمثال ايزيس من معبد فيلة الى بلادهم للزيارة لفترة متفقا عليها . ويذكر نقش فيلة الذي نشره ليترون Letronne ان الكاتب (يقصد استرابون) كان موجودا في فيلة عند اعادة تمثال الالهة من احدى هذه الجولات الدورية ، وأنه شاهد وصول القوارب المقدسة التي حملت مزار التماثيل المقدسة . ويوضح من ذلك أن هناك تماثيل أخرى بخلاف تمثال ايزيس كانت تنقل الى اثيوبيا ربما كانت لأوزوريس وحورس وربما أيضا لحتحور المرزعة المقدسة . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .

(٢) يرجع الفضل الى الامبراطور جستنيان في تشويه نقوش المعبد الكبير ، ولكن لابد وأن هناك ما يدل على أن هذه العبادة القديمة قد توقفت مؤقتا في الفترة التي حكم فيها الامبراطورية .

على شواطئها ، ولا تستطيع الطيور أن تطير في أجوائها ، ولا يستطيع حاج أن يطاء أرضها بقدميه بدون تصرّيح ، أصبحت على الفور ملكية عامة ومشاعا لجميع الناس . وانتشرت المساكن الصغيرة المبنية من الطوب اللبن بين القاعات ، والأروقة ، وحتى الممرات المسقوفة . وبُنيت كنيسة صغيرة من الطراز البازيليكي في الطرف الجنوبي للجزيرة . وتحول بهو المنيد الكبير الى كنيسة صغيرة كرسّت لاسم القديس اسطفانوس . ويقول نقش يوناني حفر هناك بيد راهب عاش في تلك الفترة ان « هذا العمل العظيم قام به رئيس الدير الأسقف ثيودور حبيب الله » . ولا نعرف شيئا عن هذا الأسقف – الذي وصفه نص آخر بأنه القديس العظيم – الا اسمه فقط .

وتمتلئ الحوائط في كل مكان هنا بهذه السجلات العابرة ، فنجد أن أحد الكتاب البديدين كتب قائلا : « لقد انتصر الصليب ، وسينتصر دائما » . بينما ترك كتاب آخرون توقعات بسيطة مثل « أنا يوسف » في مكان ، و « أنا ثيودوسيوس الذي من النوبة » في مكان آخر . ونجد هنا أو هناك بعض الكَلِمَات الإضافية التي تعطي أهمية إنسانية للتوقع . فعلى سبيل المثال نجد في شخبطة مثيرة أحد التوقعات لشخص يقول عن نفسه « العبد يوانس » ويبدو أحيانا أننا نقرأ قصة حياة أحد الأفراد في سطر واحد . وقد أعقب رسم علامة الصليب هذه التوقعات القبطية كلها .

وما زالت أساسات الكنيسة الصغيرة التي من الطراز البازيليكي – والتي تتجه الشرقية (المحراب) فيها نحو الشرق ، بينما يتجه المدخلان نحو الغرب – ظاهرة ويمكن تتبع آثارها . وقد خصصنا اثنين من بحارتنا لمدة يوم كامل لازالة القمامة التي حول الطرف الجنوبي من صحن الكنيسة . وهناك وجدنا العمودية – وهي حوض من الحجر غير المصقول – عند قاعدة أسطوان مكسور .

وليس من الصعب تخمين ما كانت عليه جزيرة فيلة على أيام رئيس الدير الأسقف ثيودور وأتباعه ، ولكننا نعلم أن الكنيسة الصغيرة التي من الطراز البازيليكي كانت لها مجموعة من القباب الطينية فوق السقف ، وأتخيل أن رئيس الدير ورهبانه قد أقاموا في هذا الصنف من الصوامع التي تقع على الجانب الشرقي من البهو الكبير حيث كان يسكن كهنة ايزيس قبلهم . أما عن القرية فلا بد أنها كانت مثل الأقصر – مزدحمة بالحياة الكثيفة ، وملئية بالضوضاء التي يحدثها الأطفال ، وصياح الطيور الداجنة ، ونباح الكلاب ، ويرتفع منها وقت الظهر أعمدة رقيقة من الدخان

الأزرق ، ويتجاوب في أرجائها صدى رنين الجرس الذى يدعو الى الصلاة صباحا ومساء ، وتنام ليلا فى سكون كما لو لم تكن هناك آلهة مشوهة شبيهة بالشياطين ، تطل عليها من خلال ضوء القمر بشكل يثير الأشجان .

والآن انتقلت الآلهة لنفسها ، فالعقيدة التى أنزلتها عن عرشها قد أنزلت هى الأخرى عن عرشها . أما رئيس الدير الأسقف ثيودور وخلفاؤه والديانة التى نشروها ، وبسطاء الناس الذين أنصتوا الى تعليمهم فقد ذهبوا وغابوا فى طى النسيان ، لأن كنيسة المسيح التى ظلت ضعيفة فى مصر ، قد اندثرت فى النوبة . وقد بقيت فترة طويلة – بالرغم من الشك فى أنها كانت تتخذ شكلا متخلفا وبربريا – مثل ذلك الذى تبدو عليه فى أثيوبيا حتى اليوم . ولكن الاسلام امتصها مؤخرا ولم يبق الا دير مخرب جاثما هنا أو هناك فوق بعض المرتفعات المنعزلة ، أو قليل من الصلبان المحفورة بدون عناية على حوائط المعبد البطلمى ، وقد بقيت دليلا على أن المسيحية مرت يوما من هذا الطريق (*) .

أما التاريخ الوسيط لجزيرة فيلة فهو مجهول . ان العرب وقد غزوا مصر جوالى هشتصف القرن السابع الميلادى ، قضوا وقتا طويلا فوق الأرض المصرية قبل أن يبدؤوا فى هضم الآداب ، وأمضوا ما يزيد على ثلاثمائة عام فى صمت ، ولم تظهر أية لمحة عابرة عن فيلة مرة أخرى قبل القرن العاشر الميلادى . لقد انتقلت الحدود الآن الى شمال الشمال . وتوقفت الجزيرة المقدسة عن ممارسة وضعها المسيحى ، وتوقفت أيضا عن ممارسة وضعها النوبى . انها الآن تتضمن مسجدا وقاعدة عسكرية وهى آخر نقطة حدود أمامية للمسلمين . وما زالت تحتجز وستظل تحتجز اسمها المصرى القديم لعدة قرون قادمة ، ونقول ان بيلاك المذكورة فى النقوش الهيروغليفية (بحرف P الذى يصبح B فى اللغة العربية) أصبحت

(*) عجبت لهذه السيدة المسيحية التى كتبت هذا الكلام وغيره منا ورد فى مواضع أخرى من الكتاب ، وهو كلام أقل ما يقال عنه أنه ملء بالحقد المرير على المسيحيين الذين تنتمى اليهم خاصة الاقباط وكنيستهم القبطية المصرية كنيسة الشهداء التى همت المسيحية خلال عصورها الأولى أيام الاضطهادات وما تلاها من الهزات ، وتصدى رجالها لكل عوامل الفناء وتقدموا للاستشهاد وهم يترنمون فرحين . ولكنى لا أستغرب مثل هذا الكلام من سيدة انجليزية احتلت دولتها مصر وطبقت فيها مبدأ (فرق تسد) للوقية بين الاقباط والمسلمين ولم تنجح مما أوغر صدور هؤلاء الانجليز – (المترجم) .

بيلاك فى اللغة العربية (بحرف B) وهى أكثر شيها بالأصيل من فيلة وهو الاسم الذى أطلقه عليها الاغريق (١) .

وفى نفس الوقت فان المواطنين المسيحيين يظهرون وقد ارتدوا الى حالة نصف بربرية . انهم يشنون غارات دائمة على الحدود العربية ، ويقاسبون دائماً مرارة الهزيمة . انهم يخوضون المعارك ويغتصبون الضرائب ، ويعقدون المعاهدات ويخرقون شروطها . وعند نهاية القرن الثالث عشر قتل ملكهم ونهبت كنائسهم ، وفقدوا ربع مساحة أرضهم ، بما فيها ذلك الجزء الذى تدخل أسوان ضمن حدوده . أما هؤلاء الذين طلبوا مسيحيين فقد ألزموا بدفع جزية سنوية ، بالإضافة الى الضرائب العادية المفروضة على البلج ، والعبيد ، والجمال ، ونستنتج من ذلك أنهم قبلوا الاسلام من العرب ، كما قبلوا من قبل عقيدة أوزوريس من قدماء المصريين ، والمسيح من الرومان . ولم نعد نسمع عنهم شيئاً بوصفهم مسيحيين ، لأن المسيحية فى النوبة قد تلاشت من الجذور والفروع ، ويقال انه لا يوجد قبطى الآن فى منطقة الحدود .

وكانت فيلة مأهولة بالناس سنة ١٧٩٩ ميلادية عندما احتلت الجزيرة تجريدة من جيش ديزيه بقيادة الجنرال بليارد ، وتركت نقشا (٢) فوق السقف الداخلى للدخل البهو الكبير احياء لذكرى عبور الشلال ، ويذكر دينون عند وصفه المنظر بخفة روحه المعتادة كيف أن المواطنين قاوموا فى البداية ثم هربوا أمام الفرنسيين، وألقوا بأنفسهم فى النيل ، وأغرقوا أطفالهم الذين لم تسمح أعمارهم بالسباحة ، ثم هربوا فى الصحراء . وظهروا فى هذا الوقت بوصفهم مجرد متوحشين فكانت النساء

(١) توجد هذه الخاصية وغيرها من الخصائص المتعلقة بالمسيحيين النوبيين فى كتاب المقريزى ، وهو مؤرخ عربى من القرن الخامس عشر نقل الكثير عن المؤرخين السابقين . انظر كتاب بورخارت Burckhardt وعنوانه هو : Travels in NUBIA - الجزء الرابع - نشر سنة ١٨١٩ التذييل رقم ٢ . وبالرغم مما ذكره من أن بيلاك جزيرة مجاورة للشلال وتبعد أربعة أميال عن أسوان إلا أنه يصر على أنها تقع ضمن الجزر التى فى جنوب المحطة ، وأن فيلة هى أول مدينة نوبية بعد الحدود . ولم تكن الأبجدية الهيروغليفية . ٦٨ حلت رموزها حينذاك لأنه مات بالقاهرة سنة ١٨١٧ .

(٢) هذا النقش الذى يعتبره مسير أبوت أهم النقوش الموجودة فى فيلة يمسى نصه كما يلى . د فى السنة السادسة للجمهورية وفى ١٥ من شهر ميسيرودور ، نزل جيش فرنسى بقيادة الجنرال بوناپرت فى الاسكندرية . وبعد عشرين يوماً هزم الماليك فى موقعة الأهرام ، وقاد ديزيه الفرقة الأولى وتبع فلول الماليك حتى الشلال التى وضلها فى ١٨ من شهر فينتوس من السنة السابعة .

كثيبات ومتجهات الوجوه ، وكان الرجال عراة ، وخفاف الحركة ، ومشاعيين ، وكانوا مسلحين ليس فقط بالسيوف والرماح ولكن أيضا ببنادق يتم حشوها بالبارود ، وقد استخدموها لاطلاق « نيران سريعة ومركزة » .

وربما عاد رحيلهم عن الجزيرة الى هذا التاريخ ، فعندما ذهب اليها بورخارت سنة ١٨١٣ للميلاد ، وجدها كما تبدو حتى اليوم ، مهجورة وخالية . ولم يكن يسكنها سوى رجل عجوز فقير هذا اذا كان لا يزال حيا ، وأشك في قدرته على عبورها من ييجيه في الموسم السياحي . انه يطلق على نفسه اسم الوصى على الجزيرة . سواء عن طريق السلطة أو بدونها . وينام في كومة من الحرق البالية والقش في ركن محمي خلف المعبد الكبير . وهو مجعد الوجه ومحنى الظهر ومنكفى بحيث لا يظهر منه ما يدل على أنه حى سوى عينيه . وقد أعطيناه خمسين بارة (حوالى جنيهين وستة بنسات بالعملة الانجليزية) عند رحيلنا في طريق العودة الى مصر ، وقد ذهبل لدى اجساسه بهذه الثروة حتى انه أسرع بلعق هذا الكنز وتوسل الينا ألا نخبر أحدا بما أعطيناه . ومع الحصار الفرنسى وهروب السكان الوطنيين ، أغلق الفصل الأخير في تاريخ فيلة المحل . ووقعت الجزيرة المقدسة بعد ذلك فى خضم حرب الصراعات العقائدية أو الملكية . واختفت من صفحة التاريخ ودخلت صفحة العلم . وقد امتازت الجزيرة بمساهماتها فى اكتشاف الأبجدية الهيروغليفية : ولا يكاد يخلو أى رسم لجزيرة فيلة — مهما كان بسيطا — من المسلة التى أمدت شامبليون باسم كليوباترة . وهذه المسلة التى تلى حجر رشيد فى الأهمية اللغوية نقلها مستر و . بانكز Mr W. Bankes مكتشف اللوحة الأولى فى أبيدوس — الى دورستشاير . وتبقى مكانها الخالى ، ورفيقتها المسلة الأخرى مشوهة ومنعزلة دون أن تنقل من مكانها الاصلى فى الطرف الجنوبي البعيد من الجزيرة .

أما الآن وبعد أن مكثنا فى البهو مدة طويلة فقد حان الوقت لامعان النظر فى داخل المعبد ، ولذلك فاننا سندخل من الباب الأوسط الذى تنفتح خلفه تسع أو عشر قاعات وحجرات جانبية تقود الى الهيكل ، كما هى العادة ، وكل شيء هنا مظلم ومترب ومقبض . وقد وجدنا فى الحجرات التى لا يصل اليها أى شعاع قادم من الخارج ، حوائط ذات لون أسود بسبب الدخان ، ومغطاة بالنقوش البارزة ، كما وجدنا ممرات سرية سوداء تشق طريقها فى باطن الحوائط السميكة وتتقابل عن طريق فتحات تشبه الفم وتحتها أقبية . وهناك مذبح ملقى فى الهيكل ، بينما تقع فى الركن

خلفه الجنية التي لابد وان يكون استرابون قد شاهد فيها ذلك الصقر
الاثيوبي المسكين الذي وصفه بأنه « مريض وميت تقريبا » .

ولكن هناك في ذلك المعبد ، المخصص ليس فقط للالهة ايزيس بل
أيضا لذكرى أوزوريس وعبادة حورس ابنيهما ، توجد حجرة لا شك في
أن استرابون لم يشاهدها وكذلك ديودور ، ولا أى غريب ينتمى الى عقيدة
أجنبية مهما كانت سمعته أو مقصده . أنها حجرة أكثر قدسية من بقية
الجدران ، لأنها الغرفة المخصصة لأوزوريس وبالطبع نحن غير مقبدين ،
ولا ممنوعين ، بل أحرار في أن نمضي حيثما نشاء . وتذكر لنا الكتب
التي بين أيدينا أن هذه الحجرة السرية تقع في مكان ما فوقنا ، ولذلك
اندفعنا مرة أخرى الى ضوء النهار ، واعتلينا سلما باليا يقود الى أعلى
السقف .

وهذا السقف مكان معقد جيئة وذهابا ، ومن الصعب العثور على
الحجرة . أنها تقع عند قاع سلم صغير على شكل حجرة صغيرة يبلغ حجمها
حوالي اثني عشر قدما مربعا ولا يضيئها الا المدخل . وكانت حوائطها
مغطاة بنقوش تمثل مقاصير ، وتحنيط ، وبعث أوزوريس (١) وتحتوي

(١) أما قصة أوزيريس ، الاله الكريم ، صديق الانسان ، الذي قتله تيفون ، ومزق
أطرافه ، ثم دفن في عدد من القبور وبحثت عنه ايزيس ، واستعادت أطرافه واحدا
فواحدا ، وأعيدت اليه الحياة ، وانتقل من الأرض ليحكم الأموات في عالم الظلال - هذه
القصة تعتبر أكثر الاساطير المصرية تعقيدا . ويشبه أوزوريس النيل في العديد من
النواحي ، وهو يجسد الخير المطلق . ويطلق عليه اسم : « الكائن الطيب » وهو يظهر في
شكل أسطورة عن السنة الشمسية ، ويحمل شبهة نبيل بالاله بروميثيوس اليوناني
والاله باخوس الهندي :

« Osiris, dit-on, était autrefois descendu sur la terre. Etre bon par
excellence. Il avait adouci les moeurs des hommes par la permission
et la bienfaisance. Mais il avait succombé sous les embûches de Typhon,
son frère, le génie du mal, et pendant que ses deux sœurs, Isis et Ne-
phthye, recueillaient son corps qui avait été jeté dans le fleuve, le
dieu resuscitait d'entre les morts et apparaissait à son fils Horus, qu'il
instituait son vengeur. C'est ce sacrifice qu'il avait autrefois accompli
en faveur des hommes qu'Osiris remouvelle ici en faveur de l'âme
dégagée de ses liens terrestres. Non seulement il devient son guide,
mais il s'identifie à elle ; il l'absorbe en son propre sein. C'est lui
alors qui, devenu le défunt lui même, se soumet à toutes les épreuves
que celui-ci doit subir avant d'être proclamé juste : c'est lui qui à
chaque âme qu'il doit sauver, fléchit les gardiens des demeures inférna-
les et combat les monstres compagnons de la nuit et de la mort ; c'est
lui enfin qui, vainqueur des ténèbres, avec l'assistance d'Horus, s'assied
au tribunal de la suprême justice et ouvre à l'âme éclairée pure les
portes du séjour éternel. L'image de la mort aura été embrumée au
soleil qui disparaît à l'horizon du soir ; le soleil resplendissant du »

= matin sera la symbole de cette seconde naissance à une vie qui, cette fois, ne connaitre par la mort.

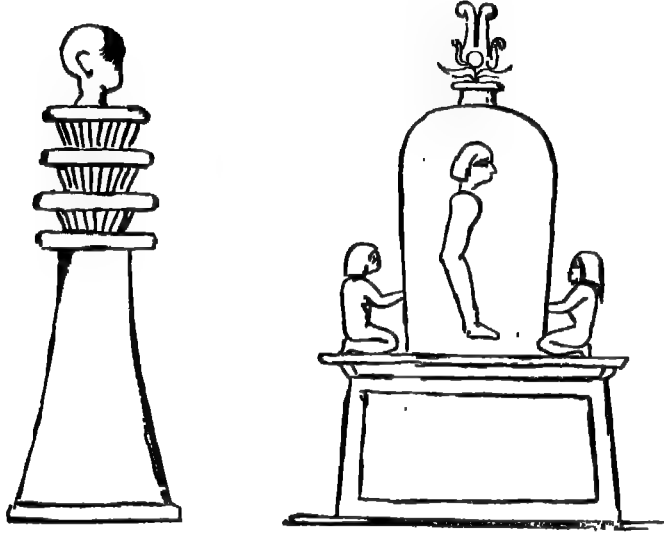
« Osiris est donc le principe du bien. ... chargé de sauver les âmes de la mort définitive, il est l'intermédiaire entre l'homme et Dieu ; il est le typé et le saveur de l'homme. » *Notice des Monuments à Boulaq* — AUG. Mariete Rev. 1872, pp. 105 et seq.

وقد اقر علماء المصريات كقضية مسلم بها ان اوزيريس في الاصل هو الاله المحلي لمدينة ابيدوس وان ابيدوس كانت مهد اسطورة اوزيريس : وقد بين هسيو ماسبيرو في بعض محاضراته الاخيرة في كوليدج دى فرانس ان اسطورة اوزيريس ظهرت في الدلتا ، وان اوزيريس كان يدعى في نقوش قديمة معينة باسم الملك اوزيريس « سيد الاموات » (بوزيريس) وكان اسمه منقوشا داخل خرطوش ملكي . وحتى بداية الحكم اليوناني الروماني كانت المدينتان اللتان حكمهما اوزيريس هما بوزيريس ومنديس فقط .

« Le centre terrestre du culte d'Osiris, était dans les cantons nord-est du Delta, situés entre la branche Sébennitique et la branche Péluasique, comme le centre terrestre du culte de Sit, le frère et le meurtrier d'Osiris : les deux dieux étaient limitrophes l'un de l'autre, et des rivalités de voisinage, expliquent peut-être en partie leurs querelles ... Tous les traits de la tradition Osirienne ne sont pas également anciens : le fond me paraît être d'une antiquité incontestable. Osiris y réunit les caractères des deux divinités qui se partageaient chaque nome : il est le dieu des vivants et le dieu des morts en même temps ; le dieu qui nourrit et le dieu qui détruit. Probablement, les temps où, saisi de pitié pour les mortels, il leur ouvrit l'accès de son royaume, avaient été précédés d'autres temps où il était impitoyable et ne songeait qu'à les anéantir. Je crois trouver un souvenir de ce rôle destructeur d'Osiris dans plusieurs passages des textes des Pyramides, où l'on promet au mort que Harkhourti viendra vers lui, 'déliant ses liens, brisant ses chaînes pour le délivrer de la ruine ; il ne le livrera pas à Osiris, si bien qu'il ne mourra pas, mais il sera glorieux dans l'horizon. Solide comme le Did dans la ville de Didou' L'Osiris farouche et cruel fut absorbé promptement par l'Osiris doux et bienveillant. L'Osiris qui domine toute la religion égyptienne dès le début, c'est l'Osiris Onnopris, l'Osiris Etre bon, que les Grecs ont connu. Comme ses parents, Sibou et Nouit, Osiris Onnopris appartient à la classe des dieux généraux qui ne sont pas confinés en un seul canton, mais qui sont adorés par un pays entier ». See *Les Hypogées Rouges de Thèbes* (Bulletin critique de la religion égyptienne) par Professeur G. Maspero — *Revue de l'histoire des Religions*, 1888. Note to second edition.)

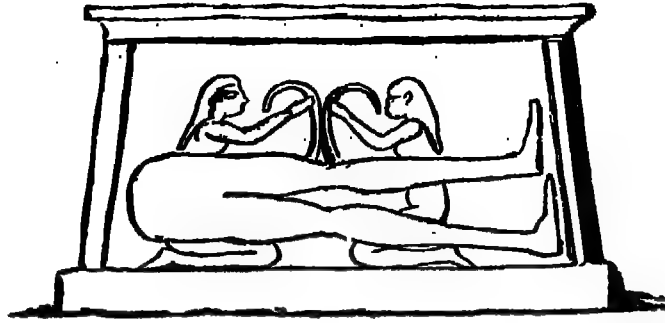
« ان العناصر الفلكية والطبيعية أوضح من ان يتم فهمها بطريقة خاطئة . ان اوزيريس وايزيس هما التيل ونصر . وتمثل اسطورة اوزيريس السنة الشمسية ١٠ اما قوة اوزيريس فهي الشمس في نصف الكرة الجنوبي ، فترة الانقلاب الشتوي . ويمثل خيال حورس الاعتدال الربيعي . وانتصار حورس هو الانقلاب الصيفي وايضا ان الليل . اما تيلون فهو الاعتدال الخريفي » انظر كتاب بنسين وعنوانه *Egypt's place in universal History* المجلد الاول ص ٤٣٧ . ويذكر هيرودوت في كتابه الثاني ان المصريين جميعا لم يشتركوا في عبادة جميع الالهة فيما عدا ايزيس واوزيريس اللذين عبدهما جميع المصريين .

كل من هذه المقاصير ذات الأشكال المختلفة على جزء من جسمه • فرأسه مثلاً يستريح فوق مقياس للنيل ، وذراعه التي تعلو رأسه ، قد نقشت على أسطوان رأسى على شكل يمثل قارورة مرتفعة الكتفين يعلو أحد أغشية الرأس المخصصة للاله ، أما رجلاه وقدماه فانهما يرقدان بكامل طولهما فى ضريح على شكل صرح المعبد •

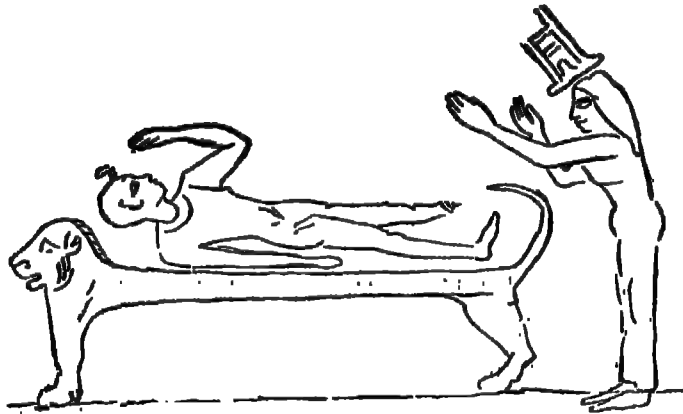


ويقف فى مقصورة أخرى مرتدياً تاجه الذى يشبه تاج الأسقف ، وهو يرتديه بوصفه قاضياً للعالم السفلى ، وتقوم ايزيس ونفتيس بحراسة كل من الضريحين • ونرى فى أغريز سفلى مؤمناً الاله موضوعاً على نعش وقد وضعت تحته الجرار الأربع التى تسمى الأوانى ذات الغطاء الذى يشبه القبة canopic jars (١)

(١) هذه الجرار المصنوعة من المرمر ، والحجر الجبرى ، والبورسلين ، والفخار الأسمن ، والخشب ، كان دورها ينحصر فى احتواء الأجزاء اللينة أو الأحشاء التى كانت تستخرج منفصلة وتخزن فيها • وكان عددها أربعة مصنوعة على شبه جنيات الهاوية الأربع التى تشير إلى الجهات الأصلية الأربع • انظر كتاب بيرش وعنوانه Guide to the first and second Egyptian rooms المنشور سنة ١٨٧٤ ص ٨٩ وانظر كتابه الثانى وعنوانه : History of Ancient Pottery المنشور سنة ١٨٧٢ ، ص ٢٣ وما بعدها •



وعلى بعد قليل يرقد الاله ساكنا ، تحيط به براعم اللوتس فوق
سيقان طويلة تمثل النمو أو عودة الحياة (١) . وأخيرا فانه قد رسم
ممددا على أريكة ، وقد أعيد توصيل أطرافه ورأسه ويده اليسرى وقلمه
اليسرى مرفوعة كما لو كانت تمثل حالة استعادة الوعي، بينما تقوم نيفتيس
في ثياب جنى. مجنح بالتهوية عليه بنفخ نسمة الحياة .



(١). وعلى ذلك فانه يسمى « أوزوريس الذى ينبت البذور » (ملحوظة مضافة الى
الطبعة الثانية) .

وتقف ايزيس بذراعيها المبسوطتين عند قدميه ، ويبدو أنها تدعوه لكي يعود الى أحضانها مرة أخرى ، ويوضح المنظر في حقيقته ، أن هذه هي اللحظة العظيمة التي صبت فيها ايزيس أشواقها ، بينما يعود أوزوريس الى الحياة بفعل أغاني الأخوات المقدسات (١) .

وبصرف النظر عن رداء الطراز والقطع فإن هذه التماثيل تتميز بطبيعة فظة ترفعها فوق مستوى الانجاز التقليدي في الأعمال البطلمية الخاصة بالموتى . ان الحروف تحكي قصتها بوضوح ، حيث يبدو أوزوريس كما لو كان يناضل بالفعل للقيام من رقاده ، كما تعبر حركة ايزيس عن غرض الفنان بوضوح ، وبالرغم من تشويه بعض الرؤوس وانحطاط سطح الحجر فمن المؤكد أن الموضوعات محفوظة لكن في حالة سيئة . ولم يتم عمل شيء في الرسوم التخطيطية لتحسين الشكل الناقص أو اصلاح الخطوط الخارجية للرسومات الأصلية . ففي إحدى الصور نجد أن أوزوريس بدون قدم ، وفي صورة أخرى بدون وجه . أما يدى ايزيس فليستا بالشكل الطبيعي كما لو كانتا يدى دمية مصنوعة من القش . وتغطي سداجة التنفيذ على الموضوع فتجعله يبدو مثل رسوم الكاريكاتير ، ولكن الأهمية التي تحملها هذه الصور تختلف عن طريقة تنفيذها .

والآن ونحن نستنشق بسرور الهواء النقي القادم مع غروب الشمس ، نعود الى السقف ، لكي نرى الجزيرة في شكلها الذى يشبه اندرع المصرى القديم ، وهي ترقد بكل تفاصيلها تحت أقدامنا . ومن هنا ننظر خلفنا الى الطريق الذى جئنا منه ، وننظر أمامنا الى الطريق الذى سنذهب فيه . الشلال يقع فى الاتجاه الشمالى ، مع شبكة من الجزر الصغيرة التى تتخللها ممرات من مياه النهر . أما فى اتجاه الجنوب فإن التيار الواسع يتجمع فى شكل لوح زجاجى ناعم ولا يقطعه أى اندفاع سريع . وكما جلنا بأبصارنا فى شوق نحو هذا الطريق لأن هناك يوجد معبد أبى سنبل وجميع الأراضى المليئة بالأسرار التى خلف الشلال ! ولكننا لم نستطع أن نرى أبعد من ذلك لأن النهر يدخل فى انحناءة كبيرة نحو اليمين ويختفى خلف سلسلة من التلال الجرانيتية . وهناك سلسلة مشابهة تحيط به على الضفة المقابلة . وفى نفس الوقت خرائب ديرين فوق خافتين صخريتين على طرف الشاطئ أعلى من مزارع النخيل ، مثل

(١) انظر الترجمة التى قدمها مسيو ب . ج . دى هوراك فى كتابه The Lamentations of Isis & Nephthys ضمن سجلات الماضى Records of the Past الجزء الثانى من ١١٧ وما بعدها .

قلعتين على نهر الراين . وعلى الضفة الشرقية المقابلة يوجد عدد قليل من البيوت الطينية ومجموعة من أشجار الحروب التى تحدد موقع قرية يختفى الجزء الأكبر منها بين أشجار النخيل . وينفتح خلف هذه القرية وادى رملى متسع مثل ذراع من البحر تراجعت عنها المياه . أما الممخنة الطويلة التى مررنا بها فى اليوم السابق فقد كانت تبدو كالمحراث الذى يقف بعرض الطريق الى فيلة . وأخيرا وجدنا جزيرة بيجة التى تمثل الجانب الغربى من هذا المنظر الرباعى . كان سطحها وعرا وجبليا ، ويفصلها عن جزيرة فيلة قناة ضيقة جدا ، بحيث ان كل صوت ينبعث من القرية الوطنية التى على المنحدر المقابل ، يسمع كما لو كان آتيا من القفاء الذى نقف فيه . لقد بنيت هذه القرية بين خرائب معبد بطلمى صغير لم يبق منه الا حاجز ومدخل من بوابة صغيرة . ونستطيع أن نرى سيدة تطحن البن على عتبة باب أحد الأكواخ ، وبعض الأطفال يتزاحمون حول الصخور وهم يطاردون ديكاً روميا ، وبمجرد أن شاهدونا على سقف المعبد جاءوا وهم يصيحون ويهرولون الى الشاطئ ، وألحوا فى طلب البقشيش . ولو لم يكن المجرى أوسع مما يبدو عليه لكنت قد قذفت قرشا نحو أيديهم الممدودة .

وقد قيل ان مستر هاى اكتشف ممرا سريا من الحجر الصلب ، محفورا تحت أرضية النهر وموصلا بين الجزيرتين . وكان المدخل على هذا الجانب يبدأ من مدخل معبد ايزيس (١) . ولم يذكر لنا مستر هاى المدى الذى استطاع أن يصل اليه فى التغلغل فى اتجاه بيجة ، ولكن من المحتمل أن يقودنا الممر الى المعبد الصغير المقابل .

وربما كانت الجبال هى أكثر ملامح هذا المنظر غرابة . انها من نوعية لم نر لها مثيلا خلال جولاتنا المتباينة . أما الجبال التى نعرفها فهى متجانسة وتشق طريقها من أسفل الى أعلى فى كتل لا يعوقها شيء . أما هذه الجبال فيبدو أنها ترقد فوق سطح بدون أساس ، فى شكل صخور منفصلة احداها فوق الأخرى ، مثل تلال عظيمة أقامت أشباه الآلهة والمردة . وتجد هنا وهناك كتلة ضخمة مستديرة يصل وزنها الى عدة أطنان معلقة على رف أو قمة فى توازن متقلب الأطوار . وقد اقتنعت بأن معظم هذه الكتل قد يتعرض للانحيار اذا وضع تحت الاختبار .

(١) انظر : Operations Carried on at the Pyramids of Ghizeh

تأليف كولونيل هاوارد فايس - لندن سنة ١٨٤٠ ، المجلد الاول ، ص ٦٣ .

ونقدم كنموذج لهذه الصخور ، صخرة ضخمة فى مواجهة حافة الماء بالقرب من أشجار الخروب والمعدية . ونجد أن هذه الصخرة بالرغم من أنها كتلة منفصلة من الجرانيت ذى اللون الأحمر البرتقالى ، إلا أنها تبدو مثل ثلاثة صخور ، وقد رأى الأعراب أنها بتفريعاتها الثلاثية تشبه الكرسي ذا المساند ولذلك أطلقوا عليه اسم : عرش فرعون ، وقد جعلتها الفيضانات المتعاقبة مستديرة ومصقولة . وقد نقشت عليها خراطيش ملكية ذات حجم غير عادى مما جعلها تجذب انتباه الحجاج فى جميع العصور . وقد غطاها الملوك والفاثون والكهنة والسياح بتسجيلات الانتصارات والمناسبات الدينية والصلوات والقرايين والأعمال البطولية ويزيد عمر بعض هذه التسجيلات على عمر المعابد التى على الجزيرة المواجهة لها . عدة ألف عام .



الصخرة الضخمة التى تحمل نقوش التسجيلات فى قبلة

وهذه الوجوه الأربعة التى تحيط بجزيرة فيلة هى الشلال والنهر والصحراء والجبال . وترقد هذه الجزيرة الجميلة والتى لا حياة فيها فى وسط هذه الوجوه الأربعة ، بما تمثله من الماضى البعيد بكل ثروتها من النقوش واللوحات والتاريخ والفخار والتراث . أنها واحدة من أشهر المعالم الأرضية فى العالم ، وهى تستحق ما تتمتع به من شهرة يصفها كل سائح ، إلا أنها مجرد مكان من تلك الأماكن التى تتوازن فيها الملامح الايجابية مع السلبية والتى لا يمكن وصفها بالكلمات أو الألوان . ويضطر الرسام الى أن يترك مرغما ، جو المعاشرة الموحى بالموضوع الصالح للرسم . أما وصف الكتابة فانه فى أحسن حالاته ليس الا قائمة ناطقة .

الفصل الثالث عشر

من فيلة الى كورسكو

أخذ نهر النيل يتسع أمامنا ونحن نبحر جنوبا في رفق ، بينما كانت فيلة تتضاءل في الخلف ، وشعرنا بأننا الآن قد اجتزنا الحدود تماما . وانه اذا كانت مصر غربية وبعيدة عن موطننا فان النوبة ظلت اشد غرابة واكثر بعدا ، وفي هذه المنطقة يزداد النيل اتساعا وعمقا . أما الارتفاعات الصخرية القريبة التي تحيط به من كلا الجانبين فانها ما زالت سوداء من ناحية ، وذهبية من الناحية الأخرى . أما الضفتان فانهما تضيقان أكثر من ذي قبل . وصارت المساحة الخالية أكثر ضيقا بحيث تسمح فقط بسحب المركب ، وصارت مساحة الفراغ في بعض الأجزاء أكثر ضيقا بحيث تسمح فقط بمجرد شريط من أشجار النخيل ، ومنزلق من التربة الطينية تزرع فيه الذرة أو الشعير . وكان الطرف المنحدر تحتنا يصل بلونه الأخضر الى حافة الماء . وكان النهر أثناء انحساره اليومي يترك هامشا من التربة الرطبة كان الفلاح المتابر يسرع اليه لكي يحرق شقا جديدا ويبدل خطأ آخر من البذور؛ لأنه لا يستطيع أن يترك بوصة واحدة من هذه التربة الثمينة دون استغلال .

ومع الاستمرار في الابحار بشراع يمتليء نصف حجمه بالهواء ، لاحظنا كيف أن مساحة الأرض الصالحة للزراعة هي التي تحدد عدد السكان . وكانت تزداد كثافة القرى في المساحة التي تنتشر فيها مياه الفيضان ، ويظهر الكثير من الأشخاص الذين يتحركون هنا وهناك في ظل أشجار النخيل ، ويزداد عدد الأطفال الذين يتسابقون بطول الضفتين وهم يصيحون طالبين البقشيش . وعندما يضيق شريط التربة ويصبح على خلاف ذلك مجرد هامش من الخضرة اللامعة التي تشق الصخرة من ناحية النهر ، يغيب كل شيء يدل على وجود الحياة . وتمضي بك المركب بطول هذا الهامش ميلا بعد ميل دون أن تصادف أية علامة تدل على وجود بشر يسكنون فيه . وعندما يظهر بين حين وآخر مواطن فرد مسلح ببندقية

،او رمح وهو يمشى بخطوات واسعة على حافة الصحراء ، فانه يظهر الامتداد
العريض للعزلة الموحشة •

وفى نفس الوقت فاننا لا نفتقد وجود الرجال والنساء فقط ،
الرجال الذين يعملون على شاطئ النهر ، والنساء اللاتي يحملن أطفالهن
منفرجي السيقان على أكتافهن ، أو جرار الماء المتوازنة على رؤوسهن ،
ولكننا نفتقد أيضا الطيور والوحوش والمراكب وكافة الأشياء التي تعودنا
على رؤيتها بطول النهر • وكانت اناث الجاموس نائمة فى المياه الضحلة
فى وسط النهار ، والجمال تخطو فى ثقة متجهة الى مقاصدها فى صف
واحد عند غروب الشمس • واختفت الطيور المائية التي كانت تتردد
على الضفتين الرمليتين بشكل فجائي • وحتى الحمير أصبحت الآن نادرة •
أما عن الخيول فلا أتذكر أننى شاهدت احداها على مدى الأسابيع السبعة
التي قضيناها فى النوبة • ولم نسمع طوال الليل سوى عواء الذئاب
بدلا من نباح الكلاب الذي تعودناه من قرية الى أخرى • ولم تعجبني ندرة
الحياة الحيوانية فى مثل هذه المنطقة التي تعطي تربتها الضئيلة طعاما
قليلا يكاد يكفي هؤلاء الذين يحرقونها • ولكي نعرف مدى ضآلتها ،
علينا أن نتذكر فقط أن هذه التربة فى أوسع عرض لها لا يزيد عرض
الرواسب السنوية التي تغطيها عن نصف ميل • بينما يصل عرضها
الى مسافة تتراوح ما بين ستة الى ستين ياردة فى غالبية الطريق ما بين
قبلة ووادي حلفا الذي يبلغ طوله ٢١٠ أميال •

وهنا فقط يستطيع الانسان أن يرى كيف أن جميع هذه الأرض
التي ندعوها مصر والنوبة ليست شيئا سوى ضفاف نهر وحيد وسط
عالم من الصحراء • ويتسع الوادي فى مصر لدرجة تنسى الانسان الفراغ
الحجرى الذي يمتد خلف حقول القمح • أما فى النوبة فالصحراء حاضرة
دائما ولن نستطيع أن ننساها حتى لو أردنا ذلك • وتضغط الجبال
القاحلة على طريق سيرنا ، وهي تمطرنا بسيول من الجرانيت على جانب
واحد ، ووابل من الرمل الأصفر على الجانب الآخر • ونرف أن هذه
الحجارة تتساقط بشكل دائم ، وأن هذه الرمال تنحدر دائما لدرجة
تجعل من الصعب على النهر أن يصمد فى مكانه ، وتتسع الصحراء فى
صمت يوما بعد يوم •

وتعتبر هذه المجارى الرملية من أحدث وأجمل المعالم الأرضية •
انها تنحدر من المستوى الأعلى للصحراء الغربية (الليبية) مثلما تنحدر
ثلوج سويسرا من هضبة الألب العليا ، وتجد لنفسها مجرى من خلال

كل وهدة وفجوة • وهى هنا تقطر فى مجار دقيقة ، بينما نفيض هناك فى سيول عريضة تتسع فى اتجاه النهر •

وبعد هدوء استغرق عدة أميال فوق جزيرة فيلة ، وجدنا أنفسنا عند قاعدة أحد هذه المنحدرات الكبيرة ، ودخلنا فى تحد مع ذهبية السيدتين م • وب • اللتين أرادتا تسلق المنحدر ورؤية غروب الشمس فى الصحراء • وكانت الساعة حوالى السادسة والترمومتر متوقف عند درجة ٨٠ فهرنهيت فى أشد أركان الصالون برودة • وغامرنا بالقول بأن القمة تستغرق مسافة طويلة الى أعلى لبلوغها ، ولكن السيدتين م • وب • لم تتراجعا • وعلى ذلك مضينا نلهث ونحن مقطوعو الأنفاس نندب قدرنا الصعب • لقد قامت السيدة ل • والكاتبة فى أيامهما ببعض المسيرات الصعبة على الجليد ، وفى الحجم البركانية الباردة والساخنة ، وفوق المنحدرات المشبعة ببقايا الفحم المحترق وأحواض السيول الجبلية ، ولكن هذه المنحدرات الرملية ذات الشكل البرى برهنت على أن تسلقها أصعب من كافة تلك المسيرات ، ذلك لأن الرمال تتراكم ناعمة وخفيفة بشكل عجيب • وهى فى نفس الوقت ساخنة كما لو كانت خارجة من الفرن • وفى هذه الرمال تنفرز الأقدام ، وتغوص الكواحل ، وتنزلق الى الخلف عند كل خطوة تاركة حفرة كبيرة تنساب إليها الرمال مرة أخرى كالمياه • وإذا نظرت خلفك فانك ترى آثار خطوات قدمك عن طريق سلسلة من الحفر التى على شكل الأنفاق يصل حجم الواحدة منها الى مثل حجم حوض غسيل الأيدي • وبالرغم من أن حذاءك لا يتجاوز حجم حذاء سندريل ، فإن القادم الذى يأتى بعدك لن يستطيع أن يذكر ما اذا كان أثر القدم هذا يخص سيده أم جملا • انها مهمة عسيرة لأن القدم لا تجد راحة ولا مقاومة مع مواصلة الضغط على العضلات •

ولكن جمال الرمال يفوق الجهد المبذول فى تسلقها • انها ناعمة ولامعة وحريرية ودقيقة مثل تراب المساس ، ولينة ومتموجة وبراقة ، وتنبسطن فى أشد المنحنيات روعة ، وتدور فى حلقات مثل أكوام الثلج التى تكدها الرياح وقد تحولت الى اللون الذهبى • ومع هبوب كل نسمة تعيد تشكيل سطحها الدائم التغير فى عرض لا نهاية له من الأنوار والظلال الرقيقة • ولم يوجد بعد النحات الذى يستطيع نحت مثل هذه الانحناءات وأشك فى مقدرة (تندر) ذاته ، فى أرق وأمهر حالاته ، على أن يحسن التحكم فى هذه الألوان الرمادية والعنبرية المركبة •

وبعد أن استرحنا على حافة الصخرة البارزة فى منتصف المسافة الى أعلى ، وصلنا الى قمة المنحدر الأخير ، ووجدنا أنفسنا على سطح

الصحراء ، وهنا كانت أول الأشياء التي التقت بها عيوننا مع المسار الصحيح لجرى النهر ، أعمدة التلغراف والأسلاك وخلفها في الشمال والجنوب مجموعة من القمم القريبة . أما في الجهة الغربية فهناك فضاء دائري يتكون من الروابي والأغوار المتفتحة نحو الشمس ، حيث تمضي كرة قرمزية اللون نصف متخفية تحت أفق العالم .

ولا يستطيع الانسان أن يقاوم الرغبة في المضي قدما لعدة أقدام حتى يلمس أقرب أعمدة التلغراف ، وتشبه هذه الرغبة محاولة أن يمد الانسان يده نحو الوطن .

ورجعنا مع غياب الشمس ، فكان الوادي الأسفل شديد الانحدار أثناء فترة الغسق . وكان النيل يلحم مثل حية ملتفة في الظلال ، وتنعكس عليه سماء الليل في ثلاثة محاور منفصلة . وقد امتدت سلسلة من الجبال في ناحية الصحراء العربية (الشرقية) بلون أرجواني ، وبرزت في مواجهة الأفق الشرقي .

وكان النزول سهلا حيث ضغطنا بكعبينا على الرمال فانزلقنا ، نصب متزحلقيين ، وسرعان ما وصلنا الى القاع ، وهنا التقينا بامرأة نوبية عجوز كانت قد أسرعت بمشيئها البطيئة آتية من أقرب قرية لتسأل بحارتنا عن يوسف ابنها الذي لم تسمع عنه منذ عام مضى . وكانت أرملة عجوزا شديدة الفقر ، أما يوسف هذا فهو ابنها الوحيد، وقد أراد أن يحسن حالته المادية فاتخذ طريقه الى القاهرة منذ ثمانية عشر شهرا في مركب لنقل البضائع . ومنذ رحيله لم يرسل اليها سوى خطابين فقط وبعض النقود . ومنذ ذلك الحين مضى أحد عشر شهرا في صمت ، وتخشى أن يكون قد مات . وفي نفس الوقت فان نخلتها قد أنهكت الى أقصى قدرتها على الانتاج بحيث لم تجن منها هذا العام ما يساوي قرشا واحدا . وقد تقوض كوخها الطيني ويوسف غير موجود لكي يقوم باصلاحه . ولا تستطيع الآن وهي عجوز ومريضة أن تفعل شيئا سوى طلب الاحسان من الناس . أما جيرانها الذين عاشت على احسانهم فقد صاروا أفقر منها .

ولم يعرف رجالنا شيئا عن يوسف الضائع . ووعد الرئيس حسن بأن يسأل عنه البحارة عند عودته الى بولاق ، وأضاف أنه « يوجد في القاهرة عدد كبير من الذين يحنون اسم يوسف ! » .

وقد ذابت قلوبنا ونحن نسمع الصوت المشتاق المتهجج الذى صاغت به العجوز أسئلتها ، والنظرة الملتاعة على وجهها عندما استدارت لتعود أدراجها .

والآن وقد صادفنا الحظ السعيد بهبوب الرياح التى تأتى فى الغالب من اتجاه الشمال ما بين الشروق والغروب ، استطعنا أن نتقدم بحيث قضينا عشرة الأيام التالية على سطح ذهبيتنا فى جو لطيف .

وأخذت المعالم الأساسية لسطح الأرض تكرر نفسها يوما بعد يوم فيما عدا بعض الاختلافات المحدودة ، فالجبال ترتدى زيهما المعتاد من اللونين الأسود والذهبي ، والنهر يتسع ويضيق وهو يجرى بين ضفتين تظللها أزهار العدس والترمس ، بالإضافة الى أغصان أشجار السنط الصفراء وحبات الخروع الزرقاء ، وشجرات البطيخ البري Weird Coloquintida بأوراقها الخشنة وعصيرها اللبني وثمارها المنتفخة مثل الخوخ الأخضر المشرب بالحمرة ، وكنا نجتمع منها باقة لتزيين مائدة العشاء وذلك لعدم وجود أزهار أخرى ، وصعوبة زراعة الأزهار فى هذه التربة التى يعنى كل عود أخضر يزرع فيها قيمة كبيرة بالنسبة للزارع .

والآن صار المناخ أدفاً بشكل محسوس ، واشتدت حرارة الشمس فى وسط النهار حتى مع هبوب رياح الشمال ، وتعذر علينا الجلوس على سطح المركب ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الثالثة . وعند الغروب كانت سرعة الرياح تنخفض ، ويصبح الجو خائفاً ، ولذلك اعتبرنا أن التمشية على الشاطئ واجباً أكثر منها متعة . وعلى كل حال ، فإننا نشكر ذلك الرسام الذى لا يعرف معنى الاستسلام والذى كان على استعداد دائم للقيام بجولة قصيرة بعد الظهر ، ولذلك اعتدنا القيام بالتمشى لمدة ساعة قبل العشاء نمضى فيها الى الصحراء بحثاً عن الأحجار الكريمة بين الحصباء التى تناثرت على سطح الرمال ، ونراقب بدون جدوى ظهور الذئاب والأرانب البرية .

وفى بعض الأحيان كنا نمضى بمحاذاة ضفتي النهر بدلا من الصحراء فنصادف ساقية تديرها جاموسة منقبضة الصدر ، أو نمضى الى قرية وطنية مختفية خلف نخلات قزمية . وهنا نجد أن الكل كوخ فناء أماميا صغيرا ، أقيم فى وسطه فرن من الطين ، وخزانة طينية تستخدمها الأسرة ، ومخروطان قصيران من الصلصال الرمادى مثل أنابيب الفخار

التي فى رأس المداخن ، وقد غطى أحدهما بغطاء من الرصاص ، أما الآخر فقد ركب عليه باب بمزلاج خشبي . وكانت بعض المنازل مزينة على الحوائط بأسلوب متخلف بآثار أيا د قد غمست فى صبغة حمراء أو صفراء ثم لطخت السطح الذى كان مبتلا (*) .

وكانت هناك أعداد لا تحصى من الأسواق التي تنتشر فى كل قرية من هذه القرى . وعند دخولنا كانت الكلاب تعطى انذارا يدل على اقترابنا ، وسرعان ما تحيط بنا جميع النساء والبنات اللاتي بالمكان ، حيث يعرضن علينا شراء الحمام الحى والبيض والكوسة ، والقلائد ، وخزومات الأنف ، والأساور الفضية . أما الأولاد فقد ظلوا يلحون علينا لشراء الزواحف البائسة . أما الرجال فكانوا يقفون بعيدا تاركين المساومات للنساء .

ولم تكن النساء على دراية بالمساومات فقط بل أيضا بتقدير القيمة النسبية لكل قطعة عملة تمر على تيارات النيل ، انهن يعرفن الروبية والروبل والريال والدولار والشلن مثل معرفتهن البارة (المليم) والقرش . ويعرفن كذلك مقدار ثقل الجنيه الذهب الانجليزى ، ومقدار خفة الفرنك الذهب الفرنسى . لقد مضت أيام النوبى الذى ذكره بلزوني بأنه أخذ يحملق فى أول قطعة نقود معدنية يراها فى حياته وهو يقول : « من يقبل أن يعطينى شيئا مقابل هذه القطعة الصغيرة من المعدن ؟ » .

وكانت القلائد تتضمن حبات من العقيق والعظم والفضة والزجاج الملون وبعض الجعارين أو التماثم المصنوعة من الخزف الأزرق القديم . وكان ترتيب الألوان دقيقا جدا . أما الخزومات المصنوعة من الذهب المضغوط ، والأساور الفضية الكبيرة الحجم ذات الزخارف البارزة ، فقد كانت ذات تصميمات مثيرة للانتباه ، وطرازات تقليدية لا تشك فى أقدميتها الزمنية . وقد التقطت السيدتان م . وب . صديرة جميلة التصميم مصنوعة من الفضة والمرجان ، ولا بد أن تكون احدى بنات أخذ الفراعنة قد تزينت بها منذ ثلاثة آلاف عام مضت .

وبدأنا الآن نلقى نظرة حادة من فوق سطح المركب بحثا عن التماسيح . لقد كنا نسمع عنها باستمرار ، ونرى مساراتها فوق ضفاف

(*) تقصد بذلك ما يلجأ اليه القرويون فى الريف عند ذبح اضحية فى مناسبة عزيزة حيث يغمسون أيديهم فى دماؤها ويلطخون بها الجدران للذكرى والتثويه عن قيامهم بهذا الذبح العظيم - (المترجم) .

النهر الرملية • وتفحصنا مع الترقب الشديد كل ذرة سوداء على البعد ،
ولكننا كنا نفشل دائما • وكلما ابتعدنا جنوبا ، عيل صيرنا •
وفي صباح أحد الأيام الهادئة قابلنا السيد (١٠) الذى كانت ذهبته
تنساق ببطء فى طريق العودة ، وأبلغنا أنه شاهد أمس « أحد عشر
تمساحا جميلا » فوق جزيرة رملية ، على بعد حوالى عشرة أميال • أما قارب
مستر س • ب • فقد تكلم بالتماسيح من المقدمة الى المؤخرة ، مما ملأ
نفوسنا بالحسد تجاهه • وكنا على استعداد لدفع أى شئ فى مقابل أن
نشاهد هذه الزواحف وهى تتدلى على جانبي صارية مركبنا الرئيسية أو
رفيقتنا الباجستونز الوفية • أما ألفريد الذى قرر أن يجمع ستة تماسيح
على الأقل فانه لم يقل شيئا ، ولكنه كان يزداد وجوما يوما بعد يوم •
وفي الليل عندما كان يظهر القمر ويلجأ الناس الى أسرتههم وينامون ،
كان ألفريد يتجول فى الصحراء متابعا الذئب وهو عكر المزاج •

وفي نفس الوقت واطبنا على السير ، فتبدأ المركب الإبحار عند
شروق الشمس ، وترسو عند الغروب ، ولا تتوقف ساعة واحدة طوال
النهار ، مندفعة الى الامام فى اتجاه أبى سنبل بأسرع ما يمكن • وعلى
ذلك فقد عبرنا بوابات دابود بما تخفيه وراءها من الصحراء والشمس التى
كنا نراها عند اقتراب المساء عند الغروب • وكانت منطقة طافا الغنية
بالنخيل تلمع بأعمدها البيضاء من خلال أوراق الشجر الخضراء على جانب
المياه ، مع الصخور والجزر ، وجنادل كلابشة والمعبد الضخم الذى يرتفع
فى وسطها مثل القلعة ، ودندور وهو هيكل صغير له بوابة وحيدة ،
وجرف حسين الذى يبدو من هذه المسافة مثل فوهة قبر منحوت فى
صخرة على حافة الهاوية •

وفي منتصف المسافة بين كلابشة ودندور ندخل فى مدار السرطان •
ومن ذلك اليوم وحتى اليوم الذى عبرنا فيه تلك الحدود الوهمية •
وجدنا تغيرا ملحوظا فى الأحوال الجوية التى نعيش فيها • أخذت درجات
الحرارة خلال النهار ترتفع بالتدريج خاصة فى وقت الظهر عندما تكون
الشمس عمودية • وكذلك لم يعد الليل منعشا • وغاضت قشعريرة
الصباح الباكر اللهم الا عند هبوب رياح قوية من الشمال ، حتى اننا
أصبحنا لا ندرى ما نحن فى حاجة اليه ، وهل هو شال نلتف به على
سطح السفينة فى المساء ، أم أغطية اضافية على أسرتنا عند اقتراب
الفجر • اننا ننام ونوافق قمراتنا مفتوحة ونستمتع بلذة الحرارة المعتدلة
منذ غروب الشمس وحتى شروقها • وفى نفس الوقت كان طول النهار
يتساوى مع طول الليل •

والآن ، فان الصليب الجنوبي والمجموعة الثانية من النجوم التي استنتجنا أنها تشكل جزءاً من القنطورس تظهر ما بين الساعة الثانية والساعة الرابعة كل صباح . وكانت تزحف بفعدل نجم كل ليلة خلال الأسبوعين الآخرين، ولكنها مازالت شديدة الانخفاض فوق الأفق الشرقي لدرجة أننا لا نراها الا عندما يحدث انكسار في السلسلة الجبلية فوق هذا الجانب من النهر . وفي نفس الوقت كان أصدقائنا القدامى الذين ينتمون الى نصف الكرة الشمالي ، ويظهرون مشوهين وفي غير مكانهم الصحيح ، يختفون سريعا في الجانب المقابل من السماء . لقد ظهر كوكب أوريون وكأنه يرقد على ظهره ، أما اللب الأكبر فقد ظهر واقفا على ذيله بينما اختفت مجموعة النجم القطبي، وفي نفس الوقت فان سمت الرأس قد ظهر رفيعا جدا ، ولذلك أحسبنا بأننا قد رحلنا بعيدا عن أحد نصفي الكرة الأرضية ولم نصل بعد الى النصف الآخر . أما عن الصليب الجنوبي فإننا سنحتفظ برأينا عنه حتى نبتعد في اتجاه الجنوب ، وقد تكون هناك خيانة عندما نشير الى أننا قد جانبنا التوفيق مع هذه المجموعة من النجوم .

وبعد جرف حسيب يأتي المكان التالي في الأهمية والذي تقودنا خرائطنا للبحث عنه وهو معبد الدكة . وعندما اقتربنا منه متوقعين في كل ساعة أن نرى شيئا من المعبد ، كان النيل يزداد اتساعا وجمالا . وكان صباحا آمنا وصافيا ، وكان الرجال قد عملوا في سحب السفينة منذ الفجر ، وتوقفوا للافطار تحت ضفة رملية تظللها أشجار الطرافء والصمغ . وكانت هناك شبكة متألقة من نسيج العنكبوت تطفو ممتدة من غصن الى غصن . وتلونت السماء فوقنا بلون أزرق لامع لم نر له مثيلا في أوربا . أما الهواء فكان ساكنا بشكل يثير العجب . وكان النهر الذي يتخذ هنا انحناء فجائية نحو الشرق ، يتخذ شكل بحيرة ، بما يوحي بأن الصحراء تعترض مساره . وفي الحال شاهدنا جنازة تمر بطول الضفة المقابلة ، وكبير النائحين يحرك عكازا طويلا مثل عصا قائد الفرقة الموسيقية ، وكانت النساء تدرى ملء أيديهن من التراب ويلقن به فوق رؤوسهن . وظللنا نسمع نواحين لفترة طويلة بعد مرور الموكب .

ومع استمرارنا في المسير استحوذت على اهتمامنا الملامح الجيولوجية الجديدة والمتفرقة للصحراء الليبية . كانت سهلا عريضا مغطي بالجبال المنعزلة ذات المعالم البركانية ، مما جعلها تبدو مثل بعض التحولات الغربية التي تطرأ على سطح الهضبة بكافة مروجها التي تكنسها الرياح فتحولها الى رمال ، وفجواتها ذات الحشائش التي نزعتها الرياح فجعلتها



معبد الدكة بالنوبة

جرداء • وكلما ازداد اتساع هذا السهل أمام أعيننا ، ازداد عدد القمم التي تنتشر على صفحته • وبينما كنا ندور حول الركن ظهر معبد الدكة ، الذي يعتبر نموذجاً مصغراً لمعبد ادفو ، أمام أنظارنا على الضفة الغربية حيث كانت الصحراء التي في هذا الجانب ، تقدم لنا منظر حقل ضخم من القمم البركانية التي لا تخطئها العين • وكانت هذه القمم المخروطية مختلفة الأحجام والارتفاعات مثل تلك الموجودة في أوفرنى Auvergne . كان بعضها منخفضاً ومستديراً مثل الفقاعات التي تم تبريدها دون أن تنفجر ، والبعض الآخر يتراوح ارتفاعه ما بين ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ قدم • وكانت الفوهات البركانية للعديد منها يمكن التعرف عليها بمساعدة نظارة الميدان • وكانت أحداها بالذات تشبه صديقنا القديم سهل باروي Puy de Pariou الذي لا نستطيع حتى مع الاستعانة برسم تخطيطي باللون الأبيض والأسود أن نفرق فيه بين القمة والأخرى •

واندهشنا لأننا لم نجد ذكراً لأي شيء عن جيولوجيا هذه المنطقة في كتاب من الكتب التي بين أيدينا • لقد مر عليها موراي وويلكنسون في صمت • أما كتاب الرحلات فان واحداً أو اثنين منهم فقط هما اللذان استطاعا أن يلحظا الشكل « الهرمي » للتلال ، وقد أحسا بالرضا لذلك الاكتشاف • ولم يبد على أحد منهم أنه لاحظ أصولها البركانية (*) ونشكر النسيم الخفيف الذي هب عند الظهر ، فقد أتاح لنا أن نشر

(*) لم يقل أحد من قبل أو من بعد ان منطقة النوبة بها أية تكوينات بركانية مما يتناقض مع اكتشاف المؤلف - (المترجم) •

صارينا الأكبر مرة أخرى ، وأن نريخ رجالنا من تعب سحب الذهبية . وعلى ذلك فقد جددنا قبالة خرائب المحرقة التي تظهر من النهر مثل بواية اغريقية ترتفع في الفضاء الواسع للصحراء الحارقة . وبعد ذلك جاء وادي السبع وهو معبد نصف مدفون في الرمال ، حيث قابلنا قريبا منه ذهبية صغيرة يبحر بها نوبيان يرفعان علما يحمل نجمة وهلالا . انه مفتش الحكومة المخادع الذي يرتدى ملابس أوروبية وطربوشا ، وقد رقد على حصيرة خارج باب قمرة وهو يدخن ، بينما علق تمساحا ضخما على قائم خشبي من أعلى . كان لون هذا الوحش بنيا يميل الى الاخضرار ، ويبلغ طوله من رأسه حتى ذيله ستة عشر قدما على الأقل ، وكان فكاه منفرجين ، وقد أخذت احدى أرجله السمينة المترهلة ، ومخلبه الثقيل يتأرجحان مع حركة المركب فظهر مثل انسان غريب الشكل .

وقد هيا الرسام عرضا قدمه بنفسه في الموقع وهو ينظر الى المقدمة الأمامية ، ولكن المفتش المخادع لم تحركه اعتبارات الربح ، وفضل تمساحه على الذهب الكافر ، وتنازل بشق الانفس بالرد على الطلب .

وفي نور الغسق المداىي ظهرت الجبال الأرجوانية وهي تنحدر في كتل منفصلة نحو حافة النهر في جانب ، والصحراء بقممها البركانية المرتفعة في الجانب الآخر . وقد حسبنا أن الاقتراب من كورسكو يشكل منظرا رائعا يصلح للتصوير أكثر من كافة المناظر التي شاهدناها جنوب الشلال . ومع تغلغل الغسق ظهر القمر . أما النخلات التي وجدت لنفسها مكانا تنمو فيه بين الجبال والنهر ، فقد تحولت من اللون البرونزي الى الفضي . وفي الوقت الذي خيم فيه بعض الغسق مع بعض ضوء القمر وصلنا الى منقطة المرسى . أما تلخمي الذي كنا أرسلناه في القارب الصغير منذ نصف ساعة لكي يتقدمنا ، فقد قفز الى سطح الذهبية وهو يحمل حزمة من الخطابات ورزمة من الجرائد . وقد اكتشفنا أول مكتب بريد نوبى في هذه المنطقة التي يمضى فيها طريق القوافل الكبيرة عبر الصحراء الى الخرطوم . وكانت قد مضت عشرة أيام فقط منذ أن تسلمنا آخر رسالة وردت اليها في أسوان ولكن هذه الفترة ظهرت لنا مثل عشرة أسابيع .



مجوهرات نوبية

الفصل الرابع عشر

من كوروسكو الى أبى سنبل

وصلنا الى كوروسكو فى وقفة العيد الكبير أى مناسبة الضحية التى قدمها ابراهيم عندما كان ابنه اسماعيل (حسب النص الاسلامى) هو الضحية المقصودة وافتدى بحروف . ولما كان العيد الكبير هو أحد الأعياد الكبرى الاسلامية فهو مناسبة لتقديم الهدايا ورفع الدعوات الطيبة ، فالأغنياء يزورون أصدقاءهم ويوزعون اللحوم على الفقراء ، ويذهب كل مؤمن حقيقى فى الصباح الى الجامع لتلاوة صلواته . ولذلك فانه بدلا من الاستيقاظ عند شروق الشمس كما هى العادة ، قدمنا الى بحارتنا خروفا وانتظرنا الى ما بعد الظهر حيث يقيمون العيد .

وبدءوا يومهم بالذهاب الى جامع القرية وهم يرفلون فى الجلابيب الجديدة والعمامم النظيفة ، والسباشيب الجلدية القرمزية اللون ، فأخذوا يتسكعون حتى وقت الغداء عندما تم طهى الخروف المذكور مع العدس والثوم وانتهى بذلك الاحتفال . لقد كان الخروف حيوانا ضعيفا ولا بد أنهم عاملوه بقسوة ، ولكن الشوق الى الطعام جعلهم يستمتعون مثل الأطفال ، وذلك عندما جلس أصدقاؤنا المخلصون القرفصاء متقاطعي السيقان ، وهم سعداء حول الرجل الذى يتصاعد منه الدخان وهم يثرثرون ويضحكون ويحتفلون بالعيد ويفرزون أصابعهم فى الطعام المشترك الذى يتناولونه من اناء واحد ، ثم يغسلون أيديهم بمدد متصل من ماء النيل وبعد أن انتهوا من ذلك أخذوا يتبادلون تدخين النارجيلة التى كانت تدور من شفتين الى شفتين وفم ممتلئ بالقهوة الكثيفة . وبعد منتصف اليوم بقليل كانوا قد خلعوا ملابسهم الفاخرة ، وربطوا أنفسهم الى الحبلين ، وبدءوا العمل فى سحب المركب خلال القطع الصخرية التى تعبر مسار التبار .

ونبلغ المسافة الحقيقية ما بين كوروسيكو والدر ، حوالى أحد عشر ميلا ونصف ، ولكن مع العوائق التى تنتشر فى مجرى النيل ، ومع الريح التى بدت مواتية ، ومع الدخول فى انحناء كبيرة أخرى ، غيرت مسار النيل الى الشرق ، وجدنا أن هذه الأميال الأحد عشر والنصف قد كلفتنا جهد يومين كاملين من السحب الشاق .

وعندما كانت المركب تلاصق الشاطئ ، وكنا نهبط منها ، وجدنا نظام الزراعة متشابهة فى كل مكان حيث يزرع التمرس والعدي على المنحدر مقابل خط المياه ، بينما تنمو غابة متصلة من أشجار النخيل على حافة الشاطئ . وتنمو حقول القطن والقمح الحديث الانبات فى الفراغ الذى يلى ذلك ، ثم تتسع الصحراء . وكانت التربة القابلة للزراعة قد قسمت كالاعتاد بواسطة مئات من القنوات المائية ، ويبدو أنها أفلحت جيدا ، كما رويت بغزارة بحيث لا يستطيع الانسان رؤية أية أعشاب ضارة ، كما أنه لم تفقد بوصة واحدة من التربة . وكانت القثاء والكوسة تزدهران فى الأركان المنعزلة حيث لا يوجد مكان لزراعة النخيل وسائر المحاصيل . ولا يمكن العثور على أشجار الخروع الضخمة ، أو لوز القطن الكبير أو أشجار النخيل المرتفعة فى أى مكان .

وهنا نشاهد لأول مرة خارج مصر بين الشجيرات القصيرة عددا قليلا من طائر الهدهد وغيره من الطيور الصغيرة ، كما شاهدنا على منحدر رملي بجوار النهر مجموعة من البط البرى . وقد تجولت الكاتبة مع إحدى السيدتين م . و ب . فى ذلك الاتجاه بحثا عن التماسيح . وكانت كلتا الذهبيتين ، كل بطاقم السحب الذى يجرها ، تتقدمان ببطء ضد التيار على بعد حوالى ميل ، كما كانت المنطقة كلها شديدة الحرارة وشديدة الصمت . وقد ابتعدنا فى سيرا ولكننا لم نر أية تماسيح - فما الذى سنفعله لو شاهدنا واحدا منها ؟ لست مستعدة للإجابة ، فربما كنا سنركض مبتعدين . وعلى كل حال فقد كنا على وشك العودة عندما لمحنا طيور البط تجفف نفسها فى الشمس وهى نصف نائمة على حافة بحيرة صغيرة على بعد حوالى مائة وخمسين مترا .

وقد زحفنا بحرص تحت الضفة حتى أصبحنا على بعد ياردات قليلة منها . كان عددها أربعة ، أحدها ذكر واحداها انثى واثنتان صغيرتان . لهما ريش رائع وصغير مثل الزغب . أما الأبوان الكبيران فقد تجاوز طول كل منهما ثمانى بوصات من الرأس حتى الذيل . وكانت لها جميعا

رؤوس بلون ثمار أبى فروة يشقها من المنتصف شريط أصفر مثل فرق الشمر ، وظهور ذات لون قرمزي مائل للسمرة . أما ريش أجنحتها فقد كان بلون قرمزي ورمادي . أما ذيولها فكانت أطرافها صفراء اللون . كانت رائعة الجمال مع اكتمال الصلبة العائلية الصغيرة لدرجة أن المؤلفة لم تستطع أن تخفى سعادتها لوجود ألفريد وبندقيته على ظهر الباجستونز .

وهناك على الضفة المقابلة للصحراء الليبية كان يرتفع معبد عمدا الصغير على حافة منحدره وهو نصف مدفون في الرمال . وعندما كنا نقوم بصيد البط في الصباح رأينا من الجانب العكسي ، فظننت أنه أحد الملاحيين الحجريين التي أقامها محمد على لتربية الماشية التي ترسلها السودان سنويا . وتأكدنا من أنه معبد صغير ولكنه منسق وقد بنى بكتل من الحجر الرملي ، ويعود تاريخه الى أيام أوستيسنز وتحوتمس . وكان يشتمل على بهو وقاعة أمامية مستعرضة وثلاث حجرات صغيرة . أما أعمدة البهو فهي مجرد دعائم مربعة . والحجرات صغيرة ومنخفضة . أما السقف المبنى من كتل مستطيلة فهو مسطح من الجهتين . وإذا نظرنا اليه كأحد المعالم المعمارية فسنجد أنه في الحقيقة ليس الا درجات قليلة نقلت من خرائب قديمة . وبدون هذا المعبد الصغير فإن المنطقة تصبح مثل الحلية التي جردت من الحجر الكريم الذي يتوسطها . ولم نشاهد مثل تلك النقوش الغائرة الجميلة الطراز والعميقة الألوان الا في مقبرة « تي » . وهنا مثل كافة الأماكن الأخرى نجد الحوائط مغطاة بمجموعات من صور الملوك والآلهة والنصوص الهيروغليفية . وتظهر أشكال الأشخاص رشيقة وقد رسمت في أوضاع حركية . كما أن أغشية الرؤوس والمجوهرات والملابس مرسومة وملونة بأحكام بحيث تبدو كل رأس مثل لوحة شخصية ، وكل شكل هيروغليفي مثل منمنمة مرسومة على العاج أو جلد الرق .

وبصرف النظر عن التنفيذ الرائع فإن النحت الموجود على حوائط معبد عمدا لا ينتمي الى الدولة القديمة وانما الى عصر النهضة المصرية . ورغم رداءته من ناحية الوضوح والتعبير عن الطبيعة بالنسبة لأعمال المدرسة القديمة الا أنه يمثل علامة على تلك الفترة التي تطور فيها فن النحت الغائر بحيث صار يتلامس مع المستوى الرفيع الذي لم يدركه من قبل ، لأن هذا المستوى الرفيع يعود الى أيام تحوتمس الثاني وتحوتمس الثالث مثلما تنتمي فترة التكامل في العمارة الى عصر سيتي الأول ورمسيس الثاني . وتعود أهمية معبد عمدا الى هذا السبب . انه يسجل وصول تاريخ الفن الى قمته ، ويقدم أحسن مآثر هذه الفترة عندما بلغت قمة .

نالقها • ويظهر النحت هنا ملتزما بالحدود التي رسمت له ، ولكنه رغم هذه الحدود كان يتمتع بحرية الحركة • وبالرغم من أن الفن الذي يعبر عنه تقليدي الى حد كبير ، الا أنه نمطى غير متكرر • وظلت موهبة الاحساس الغنى تعبر عن نفسها فيه • وباختصار فان معبد عمدا يمتاز بالرقرة واللفظ فيما يتعلق بالنحت الفائر الذي يفوق ذلك النحت القصوى المرسوم على حوائط الكرنك •

أما الحجرات فهي نصف مكتظة بالرمال مما اضطرنا الى الزحف على أيدينا وركبنا فى داخل الهيكل • وهناك نقش طويل فى الطرف العلوى يسجل كيف أن أمنحتب الثانى عند عودته من حملته الأولى ضد أعدائه الآسيويين ، قد ذبح سبعة ملوك بيديه ، شنق ستة منهم على أسوار طيبة بينما أرسلت جثة الملك السابع الى الحبشة عن طريق النيل حيث علقت على الحائط الخارجى لمدينة نباتا (١) « حتى يعلم أهلها بانتصارات الملك فى كل أنحاء العالم » •

وفى أشد أركان الصالة الأمامية ظلما ، شاهدنا لوحة غريبة تمثل الملك وقد احتضنته احدى الالهات ، وكان يمسك بسيف مستقيم قصير فى يده اليمنى ، وعلامة العنخ فى يده اليسرى ، ويضع على رأسه الخوذة الحربية وهى تاج أزرق مرصع بالنجوم الذهبية ومزين بالأفعى الملكية • وتمسك الالهة برقبته فى حب وتقرب بشفتيها من شفثيه • وقد لون الرسام بشرتها باللون الأصفر المخصص للنساء • ولكن فمها الجذاب وأنفها المستقيم ينتميان الى الملامح الأوربية • ولما كانت ترتدى ملابس القرن التاسع عشر (ق٠م) ، فلا بد أنها كانت تمثل الفتاة التى عاشت فى ذلك العصر •

وكان الرمل قد تكوم فى كومة شديدة الارتفاع خلف المعبد بحيث يخطو الانسان فوق السطح كما لو كان يخطو فوق ممر قد ارتفع مستوى سطحه عن مستوى سطح الصحراء ، ولكن سرعان ما يستوى السطح سريعا • واذا لم يتم عمل شئ لانقاذ المبنى خلال جيل أو جيلين قادمين فان الرمال ستبتلعه جميعه ويضيع مكانه •

(١) مدينة اثيوبية كانت تعبد الاله آمون حوالى نهاية الأسرة العشرين • وعن طريق كهنة طيبة الذين استقروا فى نباتا فى تلك الفترة ، جاء النسل الذى غزا مصر على أيام الأسرة الثالثة والعشرين •

واذا نظرنا من فوق السطح خلفنا الى كوروسكو ومباشرة نحو قرية الدر ، فاننا سنرى واحدا من أفخر المناظر في النوبة ، وربما أفخرها كلبية . فالنيل يتحنى انحناء عظيمة خلال الأرض الأمامية ، بينما تبدو أراضي قرية الدر ، خضراء على البعد . وتبدو المنطقة الجبلية التي عبرنا تلالها منذ قليل ، مثل هلال ضخمة ومكون من القمم التي لا تحصى والتي تنتشر حول ثلثي الأفق ، حافة بعد حافة ، وسلسلة بعد سلسلة ، وهي تلمع في الضوء بلونها القرمزي ، وتزداد عمقا في الظل مع كل درجة من درجات اللون البنفسجي والأرجواني ، ثم تتلاشى في الأفق بلونا الأزرق الخفيف . وعند غروب الشمس تبدو لامعة ، ومتوهجة بالضوء ، ومتلامسة مع الذهب ، مثلما كانت كل فوهة بركان في الماضي عينا تنبع من النار .

وفي الصباح التالي بعد أن ناضلنا خلال متاهة الضفاف الرملية الغارقة في النهر ، وصلنا الى قرية الدر بعد الإفطار . وتقع هذه القرية التي تعتبر عاصمة النوبة في موقع منخفض قليلا عن مستوى الضفة ، وبذلك لا يظهر منها سوى القليل من الحوائط الطينية التي تبدو للمناظر من النهر . ولما كنا قد تعلمنا حتى هذا الوقت أن العاصمة ليست الا قرية كبيرة قد تضم مسجدا ومكانا فسيحا لاقامة السوق ، فلم تصبنا خيبة الأمل عند رؤية المعالم المتواضعة لهذه العاصمة النوبية .

وكانت دهشتنا أكبر عندما وجدنا موقع المرسى مهجورا بدلا من الازدحام الصاخب المعتاد ، والذي يتصارع فيه الأفراد وهم يصرخون ، ويزيجون بعضهم بعضا بالمناكب ، ويضايقوننا طالبين البقشيش . وكان هناك قاربان وطنيان أو ثلاثة تقف فارغة تحت الضفة ، ولم نر شخصا واحدا على مدى الرؤية . وكان السيد (ل) والسيدة الصغيرة متشوقين لشراء بعض السلال التي يشتهر بها هذا المكان ولكن بدون جدوى . أما تلحمي الذي كان متشوقا للنوم في مخزن للبيض الطازج والخضروات فقد عاد بخفي حنين .

ورسونا ، ولكننا لم نر أمامنا سوى فراغ يقع في الطرف البعيد منه في مواجهة النهر قصر المدير ، وهو عبارة عن كوخ طيني ضخمة له افرير من الطوب الأحمر حول قمته ، ومدخل حجري مهيب . ويستقبل الرجل العظيم جمهور الزوار في هذا المدخل حسب الاستخدام القديم . ورايناها فاذا هو مجرد شاب ، ينفخ في غليون طويل وسط حشد صغير من كبار السن ذوي اللحى الرمادية الذين نظروا اليها في وقار دون أن يتحركوا

مثل الآلات التي ينبعث منها الدخان • وقد أرت أن ،سألهم اذا ما كانوا قد أصبحوا جميعا تماثيل من الجرانيت ابتداء من وسطهم حتى أقدامهم ، وعما اذا كان سكان قرية الدر قد تحولوا الى حجارة زرقاء ولكننى امتنعت •

ومع الاصرار على شراء السلال ، هذا اذا كانت هناك سلال تصلح للشراء ، كان الاصرار أيضا على اكتشاف مكان معبد منحوت فى الصخر أوصت الكتب التي بين أيدينا بأن نبحث عنه فى ظاهر المدينة ، فانحرفنا جانبا الى شارع غير منتظم الشكل يقود الى الصحراء • وكانت المنازل مبنية بطريقة أفضل من المعتاد • ويبدو أن تسوية سطح الشارع وتزيين الأبواب بقطع من الفخار الملون قد استغرقا الكثير من الجهد • وكان هناك طبق مشروح مصنوع من الخزف المزين بالرسوم ، موضوع مثل طاقة بأعلى أحد البابين ، وطبق آخر أبيض اللون من أطباق الشوربة لا شك أنه جاء من مقصف إحدى الذهبيات الانجليزية – كان موضوعا فوق باب آخر ، وكان الطبقان مصدر فخر لأصحابهما • وقد نظرنا فى هذا الشارع من طرفه الأدنى الى طرفه الأقصى – وكان شارعا طويلا ما بين النيل فى أحد طرفيه ، والصحراء فى الطرف الآخر – الا أننا لم نر علامة أو ظلا لحركة انسان يسير فيه • فيما عدا سيدة شابة سمعت الأصوات الغريبة التى تتحدث بلغة أجنبية فاختلست النظر من باب نصف مفتوح أثناء مرورنا ، وبعد أن رأتنى أنظر الى الطفل الذى بين ذراعيها (كان الطفل قبيح الشكل ملتهب العينين) جذبت حجابها على وجهها ودلفت الى الداخل مرة أخرى ، وقد ظننت أننى طمعت فى كنزها ، وخافت من حسد العين الشريرة •

وسرعان ما سمعنا صوتا مثل صرخة مرتجفة لعدد كبير من اليوم آتية من بعيد • فأمسكنا أنفاسنا ، وأصغنا أسماعنا ، ولم نكن قد سمعنا مثل هذا الصوت المتوحش الناتج من قبل • وفجأة رأينا من فتحة بين المنازل زحاما ضخما على أرض مرتفعة فسيحة على بعد حوالى ربع ميل • وكان الزحام مكونا من الرجال فقط الذين بلغ عددهم حوالى أربعمائة رجل معم واقفين فى سكون وهم ينظرون جميعا فى نفس الاتجاه • وأسرعنا الى الصحراء حتى شاهدنا المنظر الغريب الذى كانوا ينظرون اليه •

كان المنظر يتكون من منحدر رملي قاحل ، يقع بين المدينة والصخور ، وقد انتشرت فيه القبور • وكانت جميع الممثلةات من النساء وقد تزاحمن

تحت حائط طويل على بعد عدة مئات من الياردات • وكانت رؤوسهن مكشوفة ومعرضة لحرارة شمس الصباح ، وكان عددهن يزيد عن عدد الرجال بمقدار الثلث ، البعض منهن جالسات ، والبعض الآخر واقفات ، بينما كن يتحلقن حول سيدة شابة فى الوسط يبدو أنها كانت تقوم بدور القائد • وأخذن يترنحن ويتجمعن فى شكل دائرى ، ويجرجرن خطواتهن فى شكل صف متراص ومترايط من الراقصات • وكانت كل العيون مركزة على هذه السيدة الشابة • كانت نسخة سوداء اللون من كاساندرا (*) وكانت تحرك جسمها من جانب الى جانب ، وقد شبكت يديها فوق رأسها ، وأطلقت أنشودة حماسية أخذت الأخريات فى ترديدها خلفها • ويبدو أن هذه الأنشودة كانت مقسمة الى أبيات ، ولذلك كانت تتوقف عند كل بيت من أبياتها ، وتدق على صدرها ، ثم تنفجر فى هذا النواح المخيف الذى سمعناه من على البعد • ويبدو أن أخاها قد مات الليلة الماضية وها نحن نشاهد جنازته فى تلك اللحظة •

وقد انتهت عملية الدفن عند وصولنا الى المكان ، ولكن ما زال هناك أربعة رجال منشغلين فى تكديس الرمال فوق المقبرة حيث كانوا يلقون ملء جاروف فى كل مرة ثم يكبسونه بأقدامهم الحافية •

ولما كان المتوفى غير متزوج فقد ترأست أخته جوقة الندابات • كانت امرأة شابة طويلة وهزيلة من النوع النبوى البسيط الذى يمتاز ببروز عظام الخدين ، والعينين المنحدرتين من الركن الى أعلى ، والفم الضخم ذى الأسنان اللامعة • وكانت قد وضعت فوق رأسها طرحة بيضاء ملطخة بالتراب • أما رفيقاتها فقد تميزن بشريط أبيض ضيق ملتف فوق الحاجبين وقد ربط من طرفيه خلف الرأس • وقد أخفين قلائدهن وأساورهن وأرتدين أردية تجر على الأرض وغطين رؤوسهن بشيلان • كما ارتدين سراويل من القطن الأسود أو الأزرق •

ووقفنا نشاهد رقصهن الأهوج مدة طويلة دون أن نلاحظنا واحدة منهن • ولكن الرجال أفسحوا لنا الطريق بأدب مشوب بالحزن حتى وصلنا الى المقدمة لكى نشاهد منظر الاحتفال من موقع أفضل •

(*) ابنة الملك بريام التى كانت لديها موهبة التنبؤ. ولكن احدا لم يكن يصدقها -

ووقفت امرأة عجوز من بين أولئك الجالسات وتحركت بخطوات مترنحة غير ثابتة نحو نقطة مرتفعة من الأرض مبتعدة قليلا عن الزحام .
وحدثت حركة تعاطف بين الرجال الذين استدار أحدهم نحو المؤلفة وهمس قائلا : « هذه أمه » .

كانت عجوزا واهنة ترتدى ملابس متواضعة ، وكانت ذراعاها ويديها مثل ذراعي ويدي المومياء ، أما وجهها الأسود الدايل ، فقد ظهر مربعاً خلف قناعها الترابي . وأخذت تدير جسمها للأمام والخلف عدة لحظات وهي تراقب حفاري القبر وهم يهيلون الرمال ، ثم مدت ذراعيها وانخرطت في سيل من النحيب .

كانت لهجة قرية الدر غريبة وبربرية (١) ولكننا شعرنا بأننا نفهم كل كلمة نطق بها ، وسرعان ما بدأت الدموع تنساب على خديها ، واختنق صوتها بالعبرات ، وسقطت على شكل كومة لا حول لها ولا قوة ، ورقدت واضعة وجهها على الأرض مثل كلب كسير القلب . وظلت هكذا .

وفي نفس الوقت ارتفعت الرمال حتى أصبحت كومة كبيرة فتوجه الرجال بأنفسهم الى مكان بعيد عن الصخرة واختاروا حجرا كبيرا من بين الأنقاض ثم وضعوها في موضعين فوق رأس ورجلي الميت وانتهى كل شيء .

وعند إشارة متفق عليها بالرغم من أننا لم نلاحظها ، توقف النواح ، وقامت النساء وانطلقت جميع الألسنة ، وانفرط الزحام الى حشد متحرك متدافع كثير الضوضاء ، وتشقت الجميع في اتجاهات مختلفة ومضينا مع الجميع فأخذت المؤلفة والرسام يتجهان للبحث عن المعبد ، بينما اتجه الثلاثة الآخرون الى البحث عن أماكن بيع السلال والحبلى . وعندما نظرنا الى الخلف ، كان الزحام قد انفض بينما بقيت الأم التعيسة راكدة في التراب بلا حراك .

لقد تصادف أن شاهدنا العديد من الجنائزات في منطقة النوبة . وكانت كثيرة حتى أننا أحسبنا بأن محافظ أسوان لم يكن يبلغ عن الحالة

(١) الرجال هنا يتحدثون جميعا باللغة العربية ، أما نساء النوبة فانهن يعرفن فقط اللهجتين الكينسية والبربرية والاولى منهما يتحدث بها أهل كوروسكو .

الصحية في محافظته ، وكان الاحتفال الجنائزى متشابهاً في جميع الحالات من حيث الرقص والانشاد دائماً بشكل بربرى مع اعلى درجات التصنع . وحدثت أفر في مدى تشييع هذه الاحتفالات بالاصول الاثريية الخالصة ومدى ما دخل عليها من التقاليد المصرية القديمة . من المحتمل أن يعود الرقص الى اصول حبشيه . وقد شاهد ليسيوس أثناء رحلاته في السودان سنة ١٨٨٤ الميلاد شيئاً من هذا النوع في جنازة كانت في واد مدني الذي يقع في منتصف المسافة بين سنار والخرطوم (١) أما شريط الشعر المصنوع من القماش الابيض الذي كانت ترتديه جوقة النائحات فهو مصري ، لأننا رأيناه فيما بعد في النقوش التي تمثل مواكب الجنازات على حوائط العديد من المعابد في طيبة حيث تظهر النساء النائحات وهن يجمعن التراب في أيديهن ثم يذرينه فوق رؤوسهن مثلما يحدث الآن . أما عن النواح فقد بدأ مرتفعاً ثم انخفض في دورات يفصل بينها ثلث نغمة وليس نصف نغمة حتى يصل الى ختام الجواب المكون من ثمانى نغمات موسيقيه متتالية يبلغ ارتفاعها نصف الارتفاع الذي بدأ به النواح - ولا بد أنه يمثل حتى اليوم نفس الحركة والايقاع الذي امتاز به النواح الذي كان يصحب الفراغة الى مثاهم في وادى الملوك .

ولا بد أن هذا النواح كان يسلم من جيل الى جيل على مدى عصور عديدة مثل الزغاريد التي كانت كل أم تعلمها لبناتها الصغيرات والتي لا يمكن اتقانها الا بالتدرب عليها منذ سنوات الطفولة . ولا بد أيضاً أن الأغنية التي يدير الفلاح الشادوف على أنغامها ، والانشاد الرتيب الذي ينشده عامل الساقية تعود جميعها الى اصول بعيدة . ولكن أقدم وأشجى الأصوات الانسانية هو نواح الموت الذي استمعنا اليه في قرية الدر ، ولا شك في أنه أقدم الأصوات وأكثرها اثارة للشجن .

أما هذا المعبد الذي يعود تاريخه الى أيام رمسيس الثانى فهو بسيط التصميم ، متوسط الجودة في التنفيذ . وقد بنى جزء منه وحفر الجزء الآخر ، ويتم الوصول اليه عن طريق فناء أمامى يدعم سقفه ثمانية أعمدة مربعة ، لم يتبق منها سوى قواعدها . وترفع سقف البهو أربعة أعمدة ضخمة كان أمامها في يوم من الأيام أربعة تماثيل كبيرة الحجم ، وتسمح الأعمدة بظهور ثلاثة مداخل تؤدي الى الحجرات المنحوتة في

(١) انظر Lepsius's letters from Egypt, Ethiopia etc. - الخطاب رقم

١٨ صفحة ١٨٤ ، طبعة بون Bonn سنة ١٨٥٣

الصخر خلفها . وهذا البهو الآن بدون سقف ، أما التماثيل فلم يبق منها سوى أقدامها . لقد خرب كل شيء تخريبا ليس فيه شيء من الجمال .

وعندما ننظر الى المكان من الداخل نجده لا يخلو من روعة . وتنقسم القاعة الكبرى الى صحن وجناحين بواسطة صفين من الأعمدة المربعة يوجد منها ثلاثة على كل جانب . وتبلغ مساحة هذه القاعدة أربعين قدما مربعا وقد نحتت الأعمدة في الصخر مثل تلك الأعمدة الموجودة في المقابر القديمة بأسبوط . أما ضوء النهار الذي يحجزه البهو المتهدم فإنه يبدو خافتا ، ويشق طريقه ضعيفا الى قدس الأقداس في الجزء العميق . أما النقوش التي في الداخل فإنها بالرغم من شدة الدمار الذي لحق بها فإنها أقل تشويها من تلك التي في القاعة الخارجية . وقد غطيت الحوائط والأعمدة والمدخل بنقوش بارزة يظهر فيها الملك والاله بتاح ، ثم الملك والاله رع ، وأخيرا الملك والاله آمون ، واقفين وجها لوجه ، ويبدأ في يد على الجوانب الأربعة لكل عمود . وتغطي الحوائط مناظر الحرب ، والذبح ، والمسح بالزيت . أما المساحات الخالية فقد امتلأت كالعادة بالنقوش الهيروغليفية التي اكتشف شامبليون من بينها قائمة غير كاملة بأسماء أولاد وبنات رمسيس الثاني .



معبد الدر بالنوبة

وكانت هناك يوما ما أربعة آلهة تجلس على عروشها في عمق قُدس الأقداس ولكنها لقيت مصير التماثيل الخارجية الأربعة ولم يبق منها الا أقدامها • أما النقوش الحائطية التي تغطي هذه الحجرة الصغيرة المظلمة فهي محفوظة بطريقة أفضل من تلك الموجودة في القاعة ، حيث نرى صورة لم تمس لموكب احتفالي مكون من الكهنة الذين يحملون على أكتافهم القارب المقدس « بارى » ، وبالقرب منها صورة للالهة تتحور بطول الحائط ما زالت تحتفظ بالوانها الزاهية •

أما المنظر الذي يثير الاهتمام أكثر من هذه المناظر كلها والذي تعود أهميته الى ندرته - فهو منظر منحوت لشجرة نخيل يركع الملك أمامها أثناء تقديمه القربان للاله آمون رع • وقد رسم الجذع بصدق واضح ، والأغصان كاملة ومنحوتة برشاقة رغم تنفيذها حسب الشكليات المتعارف عليها • وليست هذه الشجرة الا اضافة ربما أمكن التعرف عليها من خلال موسم جنى البلح الذي يستل ثروة هذه المنطقة ، ولكنها لا تعنى شيئا مقدسا ، وقد رسمت لاضفاء الجو الطبيعي على الرسم • وهذا الجو الطبيعي غير معتاد في الفن الذي ينتمى الى هذه الفترة حيث كانت زهرة البردى التقليدية وزهرة اللوتس التي تجاريها هما الشكليين النباتيين الوحيدين اللذين يظهران على حوائط المعابد • وأتذكر رسما مشابها يتجلى في النحت البارز الذي ينتمى الى عصر الدولة الحديثة ، وأعنى به أعواد نبات البردى المنحنية والمقصوفة والتمائلة في منظر صيد الأسود بمعبد مدينة هابو ، وهو رسم يثير الإعجاب لتحرره من القيود واستعاراته الواضحة من الطبيعة •

وبعد خروجنا نظرنا الى حوائط الفناء باحثين بلا جدوى عن منظر المعركة التي استطاع شامبليون عن طريقها أن يتتبع الأسد المشهور الذي خضع للملك رمسيس الثاني في الأسطورة التي تصفه بأنه « خادم جلالته الذي يمزق أعداءه الى أشلاء متناثرة » • وقد مضى على ذلك خمسة وأربعون عاما • والآن فأننا نكتشف بصعوبة بعض الخطوط الخارجية المبهمة التي تبين عجالات العربدة الحربية والخيول •

وهناك بعض المقابر المحفورة في الصخور القريبة • وقد اكتشفها الرسام بينما كانت مؤلفة هذا الكتاب ترسم بعض الرسومات التخطيطية للمعبد من الداخل • ولكنه قرر انها مجرد مقابر غير ملونة وغير منقوشة • وعندما أدرنا وجوهنا ناحية النهر ، كانت الصخور والرمال والسماء في

أوجها • وبعد أن كان هناك حشد كبير من الناس لا نجد الآن شخصا واحدا • وكانت أشجار النخيل تهز هاماتها ، وطيور الحمام قد غلبها النعاس ، والمدينة الطينية ترقد في الشمس • وحتى أم الفقيد بارحت المكان الذي كانت تنوح فيه وتركت ابنها ليرقد في سكون الصحراء •

ومضينا لكي نشاهد قبره • وكان الرمل الذي أهيل فوقه حديثا ، غامق اللون بالنسبة لبقية الرمال المحيطة ، ولولا آثار الأقدام لما استطعنا أن نميز القبور الحديثة من تلك القديمة فكلها متشابهة • وقد وجدنا بعضها غائرا أكثر من غيره فحددناه بأحجار كبيرة ثم ملأناه بالزلط المتعدد الألوان • وكان منها قبر واحد أو اثنان محددين بحائط من الطين • وعلى رأس القبور جميعها آنية من الطين • وكنا أينما شاهدنا منطقة مدافن في النوبة ، نر هذه الآنية فوق القبور • وقيل لنا إن النائحين كانوا يوحون عندها لمدة أربعين يوما ويحضرون خلال هذه الفترة كل يوم جمعة ، ويملاون هذه الآنية بالماء الذي تشرب منه الطيور • وكانت الآنية النى على القبور الأخرى جافة ومملوءة بالرمل ، ولكن الاناء الجديد كان ممتلئا • وعندما لمسنا الماء الذي كان فيه وجدناه ساخنا •

وجدنا السيد (ل) والزوجين السعديين واقفين عند الخليج وظهورهم مستندة الى شجرة لبخ كبيرة ، محاطين بزحام ضخم وأبعد ما يكونون عن الراحة • ولابد أنهم مروا على « الأسواق » متظاهرين بالاستعداد للشراء ، ولذلك حضر اليهم جميع السكان حاملين كافة الحصر والسلال وخزانات الأنف والخوانم والقلاند والأساور في المكان الذي يقفون فيه • ولما شاهدنا الضيفة التي كانوا فيها أسرعنا الى الذهبية وأرسلنا ثلاثة أو أربعة من البحارة لنجدتهم فأحضروهم منتصرين •

انك لا تستطيع أن تتجول على الشاطئ بدون حراسة حتى في مصر ، فقد تعود الناس على اللاحاح ولكن من الممكن إبعادهم الى مسافة معقولة • أما في النوبة حيث لم تكن حياة السياح آمنة منذ خمسين عاما مضت ، فان الانجليز الذين بدون حماية يتجمع حولهم الغوغاء بشكل غير مقبول • أما المواطنون فما زالوا في حقيقة الامر مجرد متوحشين ، والطباع القديمة مختفية تحت قشرة رقيقة من الاسلام •

وكانت بعض النساء اللاتي تبعن أصدقاءنا الى المركب بالرغم من لون بشرتهن الأسود ، مثل بقية النساء يتميزن بعيون زرقاء صافية ،

وشعر أحمر مما جعل أشكالهن تثير الخوف • ويوجد هنا وفي أبريم الكثير من هذه العائلات ذات البشرة الفاتحة اللون ، ويقال انها تناسلت عن آباء من البوسنة كانوا قد أقاموا في النوبة منذ الهزيمة التي لحقت ببلادهم على أيام السلطان سليم سنة ١٥١٧ ميلادية • وتتفاخر هذه العائلات بدمائها الأجنبية وتظن بناتها أنهن جميلات •

وبعد أن ركبنا جميعا المركب ونحن سالمون ، أبحرنا في الحال تاركين حوالى مائتين من الباعة الساخطين واقفين على الضفة ، وهم يشيروننا بصياحهم الذى يعبر عن الاستياء • لقد ظن الذين باعوا والذين لم يبيعوا أنهم قد تعرضوا جميعا لعدم التوفيق والخراب والخداع • لقد اندفعت احدى النساء تجرى بطول الضفة وهى تصرخ وتضرب صدرها لأنها استطاعت من دون البائعين أن تبيع الدلاية الذهبية التى تتدلى فوق الحاجب بثمن مرتفع ولكنها تشعر الآن بالحزن لفقدائها • وكثيرا ما كان يحدث أن الباعة الذين أبدوا استعدادهم للبيع ، يعودون فيندمون على المساومة ، بالرغم من أن جشعهم يفوق حبهم للمظاهر • وقد تأثرت مرة أو مرتين ببكاء بعض الفتيات السود اللاتى ربحن ربعا معقولا من بيع قلائدهن ، ولما عرضت عليهن انهاء الشراء ، اتضح أنه بالرغم من دموعهن فانهن يفضلن الاحتفاظ بالنقود •

وكانت أشجار النخيل فى قرية الدر والمنطقة الغنية التى وراءها من أفخر الأنواع التى رأيناها خلال الرحلة كلها ، فقد كانت مستقيمة وقوية ووافرة الثمار ، وكان متوسط ارتفاعها يصل الى ما بين سبعين الى ثمانين قدما • وهذه النخلات الفاخرة تمتد مصر كلها بالشتلات ، وتساهم فى زيادة الدخل القومى بسبب ما يفرض عليها من ضرائب ضخمة ، أما البلح الذى يجفف فى الشمس ، وينكمش سطحه الخارجى فيرسل الى الشمال بكميات كبيرة •

ويقوم المواطنون بزراعة أشجار النخيل فى دأب شديد ، ويعود اكمال نجاح عملهم هذا الى الرى الغزير والمناخ المناسب • ويحيط بساق كل نخلة خندق دائرى يمتلىء بالماء الوارد اليه عن طريق قناة صغيرة يبلغ عرضها حوالى ١٤ قدما • وتقف كل مجموعة من النخلات داخل شبكة من هذه المجارى الصناعية • وتمتد الساقية الخزان الذى تخرج منه هذه القنوات بالماء • والساقية آله بدائية وجميلة المنظر ، تتكون من عجلتين احدهما موضبوعه رأسيا على النهر وقد ربطت بها سلسلة دائرية من الجرار ، أما الثانية فهى ترس أففى يديره فى بعض الاحيان جمل ، وفى

أحيان أخرى جاموسة • أما الجرار (التى تهبط فارغة وتغس في الماء ثم ترتفع ممثلة بالماء) فانها تغذى حوضا منحدرًا يمد خزانًا بالماء في بعض الأماكن ، وفي بعضها الآخر يتصل مباشرة بقنوات الري • وتعمل هذه السواقي بشكل مستمر وهي موضوعة في أعلى قرية الدر بكثرة ، حتى ان المؤلفة أحصت خمس عشرة ساقية في خط واحد ، وعلى مدى ميل واحد ولا شك في وجود العديد منها على الضفة الأخرى •

وتصدر السواقي صريرا عاليا يرتفع صوته الى طبقات غير محدودة من النغم • وتبدأ الدوران من الفجر حتى هطول الندى ، ومن هطول الندى الى الفجر وهي تصر وتغوى وتحتك وتثن وتنعق • وبعد حلول الظلام يسمع صوت السواقي وهي تجاوب احداها الأخرى ، ويجعل تردد صوتها الحزين الليل مرعبا بشكل يستحيل معه النوم • ولما كنا قد رسونا مضطرين على بعد أميال قليلة من قرية الدر ، فقد عانينا من السهر مدة تصل الى نصف الليل ، ولذلك عرضنا على عامل الساقية دولارين اذا ترك ساقيته لتستريح حتى الصباح ، ولكن كان الزمن والماء خلال هذا الفصل أغلى من الدولارات ، ولذلك رفض الرجل المبلغ ولم نفعل شيئا سوى الانتقال بالمركب الى منتصف النهر ، والبقاء في نقطة نقع على بعد متوسط من أقرب ساقيتين •

ويحب المواطن هنا نخلته التي تكلفه الكثير من الجهد ، وينظر اليها بوصفها قمة انجازات الخليقة • وتقول أسطورة عربية ان الله عندما خلق الانسان الأول احتفظ بقطعة صغيرة من الطين صنع منها النخلة • وتعتبر هدايا البلج مقدسة بالنسبة للنوبي الفقير ، لأنها تقدم الطعام لأطفاله ، والسقف لكوخه ، وألواح الخشب لساقيته ، والحبال والحصر والأطباق والأوعية وحتى المشروب القوى الذي تحرمه تعاليم الاسلام • والخمر المصنوع من البلج (العرقى) لونه أبيض ضارب الى الصفرة مثل الويسكى ، وهو ليس مثل الويسكى ، ولكنه خلاصة ذات قوام غليظ وطعم ملتهب غير مستساغ •

وهناك أشجار معينة مثل شجرة الصنوبر الصغيرة التي تنمو في غابات المانيا وتلقى الواحدة منها كل عناية ، ولكن لا أحد يهتم بالنخلة • ان النخلة الواحدة أو المجموعة من أشجار النخيل رشيقة ومثيرة دائما وهي كبيرة القيمة بالنسبة للرسم الذي يرسم لوحاته على شاطئ النيل ، لأنها تكسر الخطوط العرضية الطويلة للنهر والصفوتين ، وتتوافق مع الخطوط الحادة للعمارة المصرية بشكل لا توفره أية شجرة أخرى في العالم •



الساقية

لقد قال أحد الفنانين البارزين لمؤلفة هذا الكتاب فى يوم ما :
« الموضوعات حقا • أن ما يقال عن الموضوعات هو كلام فارغ ! أن الفنان
الصادق يستطيع تكوين لوحة من مجرد عمود وحفرة ضحلة تمتلئ بماء
المطر » •

لنعتبر النخلة اذن هى العمود ثم نربط بينها وبين أول ما يخطر على
بالنا ، وليكن جملا أو شادوفا أو امرأة تحمل جرتها على رأسها ، فتصبح
اللوحة كاملة أمامك . •

وفى البداية لم يعجبنى شئ أكثر من النخيل الذى اعتاد رسامو
المناظر الطبيعية الشرقية أن يرسموه بلون أزرق غامق مثل لون ورقة
الصبار Yucca ! أن سعف النخيل رقيق ولامع ، ولونه خليط من

الرمادى والأخضر مثل لون البحر • ومن الصعب محاكاته الا أنه يتوافق مع لون السماء المشرق الرائع ، ولون الصحراء الذهبى •

وقد ظلت مزارع النخيل مصاحبة لنا عدة أميال ، وكانت تحدها من ناحية الصحراء الشرقية سلاسل طويلة من صخور الحجر الرملى التى تتخذ شكل طبقات أفقية مثل تلك الموجودة فى طيبة • والآن أصبحنا لا نرى القرى الا نادرا ، ولكننا كنا نرى فقط النخيل والسواقي والضفاف الرملية على نهر النيل • كانت القرى هناك ، ولكنها غير مرئية لأنها مبنية على حافة الصحراء ، لأن الأرض القابلة للزراعة ذات قيمة كبيرة فى النوبة سواء للمعيشة عليها أو لدفن الموتى فيها •

وشاهدنا فى أبريم لعدة دقائق ، حطام صرح كان قائما على حافة جرف عال ، وذلك عندما ذهبنا لشراء خروف صغير ذى فروة كثيفة أتى به أصحابه الى منطقة المرسى بغرض البيع • ولكننا لاحظنا التسيم الذى أخذ يهب حينذاك فأردنا أن نتسلق الصخرة لمشاهدة المنظر والخرائب التى كان بعضها حديثا ، وبعضها الآخر ذا طابع تركى ، والبعض الأخير رومانيا ، والقليل منها مصرية •

وهناك أيضا بعض الكهوف المنحوتة والملوثة التى تظهر فى الجانب الجنوبي للجبل • وكان ارتقاؤها صعبا بالنسبة للسيدات ، ولكن تم جذب الفريد - الذى ذهب الى الشاطئ بحثا عن طيور السماء - اليها مربوطا بالحبال ، ولكنه وجدها مشوهة الى الدرجة التى تجعلها لا تستحق مشاهدة المشاهدة •

وأصبحنا الآن على بعد ٣٤ ميلا من أبى سنبل ، ولكننا كنا نتقدم ببطء ونحصى كل قدم نقطعها من الطريق • وكانت الحرارة شديدة فى بعض الأحيان مع هبوب نفحات من رياح الخماسين التى كانت تتعاقب ساخنة مما ضايق الرجال الذين كانوا يسحبون المركب • واستمر تقدمنا لمسافة عدة أميال فى كل مرة حتى اختفت الصخور ذات القمم المسطحة تدريجيا ، وتبعتها مرة أخرى القمم البركانية التى ظهرت أعلى من تلك التى حول الدكة أو كوروسكو • ثم أخذت مزارع النخيل فى الزوال ، وضاق حزام الأرض المزروعة حتى أصبح مثل خيط أخضر بين الصخور وحافة الماء • وفى النهاية حل المساء عندما كنا نريد فقط رياحا تكفى لعبور انحناءتين أو ثلاث الانحناءات من النهر •

وسألنا للمرة العشرين قبل أن نهبط لتناول العشاء : « هل سنصل الى أبنى سنبل الليلة ؟ » •

• وكان الرئيس حسن يجيب قائلا : « أيوه » •

• ولكن المرشد كان يضيف قائلا : « بكرة » •

وعندما صعدنا مرة أخرى كان القمر قد لاح ، ولكن الرياح انخفضت سرعتها ، ولكننا ما زلنا نتحرك مسوقين بريح ضعيفة لدرجة أن الانسان لا يشعر بها ، وسرعان ما اختفت هذه الأخرى ، وتم طي الشراع ، وأدار المرشد المركب نحو الشاطئ ، وأعطى القبطان الأمر بالارتفاع عندما أدت هبة ريح مفاجئة قادمة من الشمال الى تغيير طالعنا ، ودفعتنا للخروج مرة أخرى الى وسط النهر بشراع ممتلئ بالهواء •

ولن ينسى أحد منا الاثارة المتواصلة خلال الساعات الثلاث التالية • وعندما أخذ القمر في الارتفاع انتشر نور أكثر غرابة ، ومختلفا عن نور النهار ، على الامتداد المتسع للنهر والصحراء • واستطعنا مشاهدة جبال أبى سنبل وهى ترتفع على مسافة بعيدة عبر مسارنا • لقد رأينا الجبل المنخفض في البداية ، ثم الجبل الأكبر ، ثم سلسلة من المرتفعات المنحدرة الى الخلف • وكانت جميعها متجاورة ولكنها منفصلة •

كان الجبل الأكبر هو جبل المعبد الكبير الذى يقف فى مواجهتنا مثل تعويذة • لقد ظهر لفترة طويلة مجرد جبل مثل بقية الجبال ، ولكننا تخيلنا رويدا رويدا أننا اكتشفنا شيئا — انه ظل — كما لو كان دعامة ضخمة • ثم ظهرت بقعة سوداء لا يزيد حجمها عن حجم نافذة القمرة فى السفينة • واستنتجنا أن هذه البقعة السوداء لابد وأن تكون هى المدخل ، وعرفنا أن التماثيل العظيمة كانت هناك رغم أنها لم تظهر بعد ، ولكن لابد لنا أن نراها •

وفى نفس الوقت شعر بحارتنا ببهجة الوصول قبل الآخرين • وكانت الذهبية باجستونز وثلاث ذهبيات أخرى تتبعنا فى مسار ضوء القمر • وكانت أنوارها الصفراء تلمع مثل المنارات الضوئية فوق سطح الماء • وكانت أقربها الينا على مسافة تبلغ ميلا تقريبا • أما الأخيرة فكانت مثل شرارة على البعد • ولم تكن فى الحالة التى تسمح بالاهتمام بالتسابق فى هذه الليلة ، ولكننا كنا حريصين على وجودنا فى المقدمة ووصولنا أولا الى موقع المرسى •

وكان الصعود على الشاطئ الرملى الغارق فى النهر يشبه فى مثل هذه اللحظة الغرق المفاجئ فى ماء بارد • لقد خفق شراعنا بشكل غريب ،

وأندفع الرجال الى العصى الطويلة التى تنغرز فى قاع النهر لدفع المركب الى الامام ، فقفز أربعة منهم على السطح ودفعوا العصى بكل قوة أكتافهم ، وفى نفس الوقت نزلنا نحن الى القوارب الأخرى التى استطعنا أن نتقدم بها لمسافة نصف ميل ، وبذلنا جهدا كبيرا لمنع هذه القوارب من الضغط على كعوب أقدامنا . وبعد أن درنا حول الركن الأخير ظهر المعبد الكبير مرتفعا فى مواجهتنا . أما الواجهة التى كانت غارقة فى جانب الجبل مثل صورة ضخمة داخل برواز كبير ، فقد صار من السهل رؤيتها الآن . ولم تعد البقعة السوداء فى مثل حجم نافذة القمر بل ظهرت فى حالتها الطبيعية بوصفها بوابة ضخمة .

وأخيرا ظهرت التماثيل الأربعة الضخمة كالأشباح ، باهتة ومكلمة بالظلال فى ضوء القمر الساحر وذلك بالرغم من الليل ، ومن بعدها عنا بمسافة لا تقل عن ميل . وحتى عندما كنا نراها ، كانت تظهر وكأنها تكبر وتتسع وتتحرك نحونا قادمة إلينا على هذا البعد .

وكان الوقت يقترب من نصف الليل عندما وصلت فيلة عند المعبد الكبير . واقتنعنا بما شاهدناه عن طريق النهر فذهبت بقية المجموعة للنوم فيما عدا الرسام والمؤلفة اللذين لم يصبرا حتى الصباح ، ولذلك قفزا الى الشاطئ وأخذوا فى تسلق الضفة قبل أن يتم ربط حبل المرسى جيدا .

وذهبا ووقفا عند أقدام التماثيل الضخمة على عتبة ذلك المدخل الكبير الذى خيم الظلام خلفه . وكانت التماثيل الضخمة ترتفع فوق رأسيهما مثل الأبراج العالية . أما صفحة النهر فكانت تلمع على البعد مثل لوح من الصلب . وكان السكون الشديد يغلف الهواء . ونجم الصليب الجنوبى يرتفع فى اتجاه الشرق أما بالنسبة لهذين الغريبين اللذين وقفا يتحدثان بأنفسهما مقطوعة ، فقد أحسا بأن ظروف الوقت والمكان وحتى صوت حديثهما أبعد كثيرا عن التصديق . وشعرا كما لو كان الواجب يقتضى تلاشى المنظر كله فى ضوء القمر واختفاءه قبل قدوم الصباح .

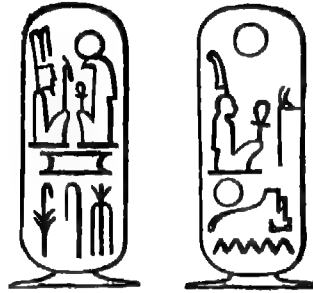
الفصل الخامس عشر

رمسيس الأكبر

كان رمسيس الثاني وسيظل دائما هو العلامة المركزية في التاريخ المصري • وهو ينال هذه المكانة بالشرعية مرة وبالصفة مرة أخرى • ولقد ولد ليكون عظيما فنال العظمة ، واشتهى العظمة فشقت طريقها اليه ، وكان قدره الوحيد ليس فقط أن يغتصب العظمة بعد الوفاة ، بل أيضا أن ينسى اسمه الشخصي ويذكره الناس عن طريق مجموعة من الأسماء المستعارة مثل سيسوسيس ، وأوسيماندياس ، وسيزوستريس • لقد صار مرتبطا على مدار الزمن بكافة أعمال أبطال الدولة الحديثة التي بدأت بتحوتمس الثالث الذي سبقه بثلاثمائة عام وانتهت بشاشانق الذي استولى على القدس والذي عاش بعده عدة قرون • وعلى كل حال فقد قام العلم الحديث باصلاح هذا الظلم عندما كشف عن السلسلة الطويلة من الأسماء المنسية لعظماء الملوك ، مما ساعدنا على أن نرد الى كل منهم الامجاد التي تخصه • ونحن نعرف الآن أن بعض هؤلاء الملوك كانوا غزاة أعظم من رمسيس الثاني ، ولا نشك في أن بعضهم كانوا حكاما أفضل • الا أن البطل الشعبي احتفظ بمكانته • وما فقدته بالتأويل من ناحية ، ناله بالتأويل من الناحية الأخرى • وسيظل رمسيس بطل البردية الثالثة السافرة ، والفرعون الذي يمثل سلسلة من الملوك الذين يغطي تاريخهم فترة زمنية تقدر بخمسين قرنا ، والذين امتدت حدود امبراطوريتهم يوما ما من بين النهرين الى الحدود الجنوبية للسودان •

ويبدأ الاهتمام برمسيس الثاني من منف ، ويمضي في الازدياد على طول الطريق مع نهر النيل • انه اهتمام حمى وشخصي مثلما يحس الانسان في أثينا بعظمة بركليس ، أو في فلورنسا بعظمة لورنزو • أما بقية الفراعنة فلا يثيرون الخيال الا قليلا • ان تحوتمس وأمنحوتب يمثلان ما يمثلها دارا أو أرتاكسيس - ظلالاتى وتذهب على البعد • أما بالنسبة لرمسيس الثاني فاننا نعرفه المعرفة التي تستحق الاحترام • اننا نعرف الرجل

ونحس بوجوده ونسمع اسمه في الأجواء • وملامحه معروفة لدينا مثل
ملامح هنرى الثامن أو لويس الرابع عشر ، ويواجهنا خرطوشان يمثلان
اسمه في كل جولة • وحتى بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعرفون الحروف
الهيروغليفية فإن هذه العلامات المعروفة تنقل اليهم اسم رمسيس محبوب
آمون بقوة خارقة (١) •



خرطوشا رمسيس الأكبر

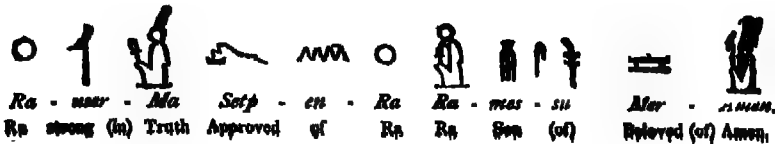
وما دام الأمر كذلك ، فإن السائح السمين الاعداد هو الذى يذهب الى
مصر وليس لديه ما هو أكثر من مجرد المعلومات الواردة في كتب الارشاد
السياحي عن رمسيس الثاني ، لأنه يكون مثل من رضى بقراءة المناقشة
دون أن يقرأ القصيدة ، انه لا يرى في خرائب منف وروعة طيبة المهشمة ،
الا ما يثير الرثاء المعتاد على الخرائب المعتادة • أما فيما يخص (أبو سنبل)

(١) أورد مسيو شاباس هذه الألقاب باللاتينية وهي :

Sol dominus veritatis electus a sole, solgenuit eum, amans Ammonem.

وترجمتها هي : شمس الحقيقة - مختار الشمس - ابن الشمس - محبوب آمون •

واليك النص الهيروغلى :



الذى يمثل أروع سجل تاريخي انتقل من الماضي الى الحاضر ، فانه لا يذكر للسائح الا جزءا من الحقيقة . وعندما يصل الى مجرد الخيط الذى يظهر من الشرح ، فانه يتجول من قاعة الى قاعة مفتقدا بهجة الارتباط بالماضى الذى لا يستطيع أى مؤلف من نوعية موراى أن يشرحه .^١ ويصبح مثل السائح الفرنسى الذى يتجول شريدا خلال قاعات كاتدرائية وستمنستر أبى فى لندن تحت توجيه أحد شمامسة الكاتدرائية ، فلا يحيط الا بمفهوم غير واضح عن المغزى التاريخى للأشياء التى يشاهدها . وما يقال عن هذا السائح الفرنسى يقال كذلك عن هؤلاء الذين يأخذون معلوماتهم عن الرحلة عبر نهر النيل عن طريق كتب الارشاد السياحى . واذا أرادوا أن يفهموا شيئا من وصف أبى سنبل فعليهم أولا أن يعرفوا شيئا عن رمسيس الثانى . دعنا اذن ننتهز فرصة وجود فيلة راسية فى صخرة ابشك (١)، لكى نستعرض باختصار شديد الحقائق الأساسية عن هذه الفترة ذات الأهمية . وسنورد هذه الحقائق كما هى مدونة فى النقوش والبرديات وغير ذلك من الآثار المعاصرة .

كان رمسيس الثانى (٢) هو ابن سيتى الأول ، أحد فراعنة الأسرة التاسعة عشرة من الملكة توى التى تصفها الآثار بأنها « الزوجة الملكية ، والأم الملكية ، ووارثة وشريكة العرش » ومن المقروض أنها تعود الى النسل الملكى من الأسرة السابقة وعلى ذلك ، فمن حقها أن تسبق زوجها فى ارتداء التاج المزدوج . ويبدو أن رمسيس الثانى قد ولد عن طريقها ، مساويا لزوجته فى المكانة ان لم يكن مساويا لها فى قوتها . وتحدثت حقوقه بالاشتراك مع أبيه سيتى الأول الذى منحه السلطات الملكية والصفات انقدسية منذ لحظة ولادته ، أو كما يقول المؤرخون المصريون عندما كان (ما يزال فى البيضة) ويذكر النقش المقدس الموجود فى معبد أوزوريس

(١) ابشك هو الاسم الهيروغليفى لمدينة أبى سنبل .

(٢) من الصعب فى الترتيب الزمنى المصرى حاليا تحديد تاريخ تقريبى للأحداث ابنى حدثت قبل غزو قمبيز ، فليس لدى المصريين فى الحقيقة ترتيب زمنى بالمعنى المعروف للكلمة . ولقد اتخذوا ميلاد السيد المسيح نقطة مرجعية ، وأحصوا أحداث كل فترة من بداية ظهور السلطة التى تنتمى اليها الأحداث . ولم يكن من الممكن تفادى حدوث الخطأ والارتباك مع تطبيق مثل هذا النظام ، فمن الصعب تحديد تاريخ ميلاد ووفاء رمسيس الثانى . كذلك فأننا غير متأكدين من تاريخ القرن المحدد الذى عاش فيه ، ويفرض ماربيت الذى اتخذ من القوائم التاريخية التى أوردها مانيتون قاعدة لحسابه ، أن الأسرة التاسعة عشرة قد حكمت خلال الفترة ما بين عامى ١٤٦٢ ، ١٢٨٨ ق م ، وبناء على هذه الحسابات (التى تطرح ٥٧ سنة هى فترة حكم رمسيس الأول وسيتى الأول) يعود حكم

في أبيدوس (١) كيف وضع أبوه الطفل الملكي بين يديه ، الذي لم يكن الا ولدا صغيرا ، وعرضه على الجماهير بوصفه ملكهم وطلب الى كبار ضباط القصر أن يتوجوه بالتاج المزدوج . ويذكر نفس النقش أنه كان قائدا عسكريا منذ ولادته ، وأنه بالرغم من كونه طفلا ، كان « يقود حراسه الشخصيين وكتيبة فرسان العجلات الحربية » ولكن لابد وأن تكون هذه مجرد ألقاب . وفي الثانية عشرة من عمره جلس على العرش الى جانب أبيه ، مع تحليل سيتي الأول التدريجي من الالتزام بمهام الحكومة . وفي خلال فترة تتراوح ها بين عشر الى خمس عشرة سنة أصبح رمسيس صاحب السلطة الكاملة بلا منازع . ومن المحتمل أنه كان في سن الثلاثين عند وفاة والده . ومن هذا التاريخ يبدأ حساب سنوات حكمه الرسمي ، وبمعنى آخر نقول ان حكم رمسيس الثاني يحسب في الوثائق الرسمية ابتداء من السنة التي انفرد فيها بالسلطة ، وهي أيضا السنة الأولى التي توفي فيها سيتي الأول ، وبذلك فهي تعتبر السنة الأولى من حكم ابنه وخليفته حسب ما ترويه النقوش الأثرية . وخلال السنوات الثانية والرابعة والخامسة لحكمه ، قاد بنفسه الحملات العسكرية الى سوريا . وقد دونت أخبار العديد من انتصاراته على الألواح المنحوتة في الصخر على نهر الكلب بالقرب من بيروت . وانه كان معروفا في ذلك الوقت بوصفه المقاتل الجبار كما هو مدون على لوح دكة الذي يعود تاريخه الى السنة الثالثة ويصفه بأنه رهيب في المعركة « الثور القوى ضد أثيوبيا . أما هؤلاء الذين كانوا يعملون تحت الأرض فقد سيقوا للصقل بدون أن يطلقوا سيقانهم للريح » . أما أحداث حملة السنة الخامسة (قام بها لكي يعيد الى طاعته قبائل سوريا وبين النهرين الثائرة) فهي مذكورة في قصيدة بنتاؤور . وفي هذه الحملة خاض معركته التي استخدم فيها

= رمسيس الثاني الى سنة ١٤٠٥ ق م ويحدد بروجش لفترة حكمه ما بين ١٤٠٧ ، ١٣٤١ ق م كما لبسيوس فإنه يجعل حكمه خلال الستين عاما المحصورة بين عامي ١٣٨٨ ، ١٣٢٢ ق م . وقد أجريت هذه الحسابات جميعها قبل اكتشاف لوحة أبيدوس ، أما بانسين فإنه يجعل بداية حكمه من ١٣٥٢ ق م . وهناك اختلاف قدره ٥٥ عاما بين أكبر وأصغر هذه الحسابات كما يلي :

ولما لحسابات :
بروجش ١٤٠٧ ق م
مارييت ١٤٠٥ ق م
لبسيوس ١٣٨٨ ق م
بانسين ١٣٥٢ ق م

(١) انظر كتاب ج . ماسبيرو في باريس سنة ١٨٦٧ وعنوانه :

Essay sur l'Inscription Dédicatoire du Temple d'Abydos et la Jeunesse de Sesotris.

يديه ضد المهاجمين الذين تدفقوا عليه أمام كلا الجيشين تحت حوايط مدينة قادش . وبعد ذلك بثلاث سنوات حمل النار والسيوف في أرض كنعان . وفي عامه الحادى عشر استولى على قلاع عسقلان وأورشليم ضمن الأماكن الحصينة الأخرى وذلك حسب النقوش التى مازالت باقية فوق خرائب بوابات معبد الرمسيوم فى طيبة .

وينقلنا السجل المهم الثانى الى السنة الحادية والعشرين من حكمه . لقد مضت الآن عشر سنوات منذ سقوط أورشليم ، ومن المحتمل أن تكون قد حدثت خلالها حروب حدودية متقلبة مما أدى الى انهاك الجيشين ، فسعى الأمير خيتا سيرا أمير خيتا الى السلام (١) ، وحينذاك وقعت معاهدة مفصلة ورد فيها أن الأمير المذكور « ورمسيس كبير الحكام الذى يقيم حدوده حيثما شاء » يتعهدان على اقامة حلف هجومى ودفاعى ، وتحقيق النوايا الطيبة ، والتأخى بينهما الى الأبد . وقد قيل لنا ان هذه المعاهدة قد نقشها الأمير الحيتى « على لوح من الفضة مزين بصورة سوتخ حاكم السماء العظيم » أما بالنسبة لرمسيس مر آمون فقد نقشت على حائط ملاصق للقاعة الكبرى فى الكرنك (٢) حيث بقيت الى اليوم .

وحسب آخر فقرة فى السجل الغريب ، يدخل الطرفان المتعهدان أيضا فى اتفاق يقضى بأن يسلم كل منهما للآخر السياسيين الهاربين من كلتا الدولتين . ويعملان فى نفس الوقت على تحقيق سلامة الأشخاص المعارضين . وتقول المعاهدة : « أما الذى يتم تسليمه فلا يتعرض للقتل هو أو زوجته أو أولاده ، وفضلا عن ذلك فانه لا يسمح بارتكاب أية جريمة ضده » (٣) . وتعتبر هذه النصوص أقدم نموذج مدون لمعاهدة تنص

(١) أمير الحيتيين حيث يعرف شعب خيتا الآن باسم : الحيتيين .

(٢) هذا السجل المهم محفور على قطعة بارزة من الحائط خصصت لهذا الغرض ، تقع على زوايا قائمة من الحائط الجنوبي للقاعة الكبرى بالكرنك . ويتجه وجه نص المعاهدة نحو الغرب ، وهى واقعة فى نفس المسافة بين النقش الخائر المشهور المتعلق بالملك شاشانق وأسراء ، ونسخة قصيدة بنتاؤور المحفورة فى الكرنك . وتقع الاولى فى غرب المدخل الجنوبي بينما تقع الاخيرة الى الشرق . وربما كان هذا الحائط الجنوبي ودلحقه اللذان يبلغ طولهما معا حوالى ٢٠٠ قدم يمثلان اثمن قطعة من الأسطح المنقوشة فى العالم .

(٣) انظر كتاب 'Treaty of peace between Ramses II and the Hittites'

ترجم المعاهدة من الهيروغليفية الى الانجليزية س . و . جودين ، ضمن سلسلة Records of the Past - المجلد الرابع ، ص ٢٥ .

على تسليم المجرمين • وهى جديرة بالاهتمام لأنها تصور مدى الاعتدال الذى تميز به القانون الدولى فى تلك الفترة •

وأخيرا فقد وضعت المعاهدة بين الدولتين تحت الحماية المشتركة لآلهة كل من البلدين « سوتخ اله خيتا ، وآمون اله مصر ، وكافة الآلهة التى يصل عددها الى ألف اله ، تمثل الآلهة الذكور والاناث ، وآلهة التلال والأنهار وآلهة البحر الكبير وآلهة الرياح والسحب ، وآلهة أرض خيتا وآلهة أرض مصر » •

يبدو الآن أن السلام المتفق عليه قد بقى سارى المفعول خلال بقية مدة حكم رمسيس الثانى الطويلة المدى ، ولم نسمع فى كافة الأحوال ، عن المزيد من الحروب • ونجد أن الملك قد تزوج أميرة حيثية اتخذت لنفسها اسم : ما - آت - ايرى - نفرو - رع • ومعناه « المتأمله فى محاسن رع » واختلفت بذلك مع آلهة بلدها • وقد وجدنا أيضا على الآثار اسمى اثنتين من الملكات هما نفرتارى واست نفرت •

ومن المحتمل أن تكون هذه الملكات الثلاث هن الزوجات الرئيسيات للملك رمسيس الثانى بالرغم من أنه كان لديه عدد ضخم من الحريم • وعلى كل حال فإن عدد أفراد أسرته كما هو مدون على حوائط معبد وادى السبوع ، بلغ ما لا يقل عن ١٧٠ ولدا منهم ثلاثة أمراء • وربما كانت هذه أسرة صغيرة العدد بالنسبة لملك عظيم حكم منذ ثلاثة آلاف عام • ولا بد أن لبسيوس قد رأى فى يوم آخر العجوز حسن ، كاشف قرية الدر وهو نفس الحاكم الصغير الذى أثار الكثير من المضايقات أمام بلزوني وبورخارت وغيرهما من الرحالة السابقين ، وكان بوصفه كبير العجائز فى أيامه زوجا لعدد من الزوجات بلغ أربعة وستين زوجة وأبا لما يقرب من ٢٠٠ ابن •

وقد عاش رمسيس الأكبر فى سلام مع جيرانه من دافعى الجزية على مدى ستة وأربعين عاما • وكان عصره طويلا وعظيما ، فقد أحب المدن الجديدة وفاخر بانثائها وشيد القصور ، وحفر الترع ، وبنى الحصون ، وضاعف أعداد التماثيل والمسلات والنقوش ، وأقام أكبر وأعلى المعابد التى تعبد فيها الانسان • وأضاف الى الآثار التى أقامها أسلافه اضافات عظيمة فاقت التصميمات التى كان فى نيتهم استكمالها • وحفر الآبار الارتوازية فى قاع الصحراء الحجرية ، واستكمل القناة التى بدأ أبوه فى حفرها ،

وشق طريقا مائيا بين البحرين الأبيض والأحمر (١) ولم يكن ليصعب عليه
أى مشروع ، أو يتجاوز أى تصميم حدود طموحاته . وتقول لوحة الدكة
انه « أشرف أثناء طفولته على الأعمال العامة ووضع أسسها بيديه » .
وفى رجولته صار أعظم البنائين . أما عن مبانيه الضخمة فقد استطاع
القليل منها أن يقام عوادي الأيام ، ولكن هذا القليل يمثل عجائب
الدنيا .

ومن الصعب الآن تقدير تكلفة هذه الأعمال التى أنجزها لأن كل
معبد ، وكل قصر ، يمثل مذبة بشرية ، لأنه أجبر العبيد المستوردين من
أثيوبيا ، وأسرى الحروب ، والمهاجرين السوريين الذين استقروا فى

(١) منذ تأليف هذا الكتاب قادتني الدراسة المستمرة لهذا الموضوع للتخمين بأن سيتى
الاول لم يكن هو المبنى الفعلى للترعة التى أوصلت نهر النيل بالبحر الأحمر ، ولكنها
الملكة حتشبسوت التى تنتمى الى الأسرة الثامنة عشرة ، ذلك لأن النقوش المحفورة على
حوائط معبد الكبر فى الدبر البحرى تذكر بوضوح أن أسطولها أبحر من طيبة الى
بلاد بونت ثم عاد من بونت الى طيبة محملا بمنتجات هذا القطر الفامض الذى استنتج
مارييت وماسبيرو انه كان يقع على شواطئ الصومال بين باب المندب ورأس جاردافوى ،
ولو لم يكن هناك فى ذلك الوقت طريق بحرى ممتد بين النيل والبحر الأحمر فمن المرجح
أن تكون حملة حتشبسوت الاستكشافية قد أبحرت من طيبة فى اتجاه الشمال وهبطت فى
النيل الى أحد مصباته وعبرت البحر الأبيض المتوسط بطوله وخرجت منه عند أعمدة هرقل
وعبرت رأس الرجاء الصالح ووصلت الى ساحل الصومال عن طريق بوزاغ موزمبيق
وسواحل زنجبار . ويعنى آخر ، فإن السذن الشراعية المصرية قامت بدورة كاملة حول
القارة الأفريقية مرتين . ومن الواضح أن هذا الاحتمال لا يقوم عليه دليل . وليس هناك
طريق بديل الا وجود قناة أو سلسلة من القنوات التى تربط النيل بالبحر الأحمر .
أو عن طريق ترعة وادى الطميلات التى ينسب حفرها الى سيتى الاول لأنه لم يكن هناك
سبب آخر يبرر حفر هذه القناة التى تصل من النيل الى البحر والتى وجدت مرسومة
فى نقش غائر على الحائط الشمالى الخارجى من معبد الكرنك العظيم الذى يعود الى
عصره . ولكن مما لا شك فيه أن تكون الملكة العظيمة التى جلست على عرش الفراعنة
هى التى تصورت أولا فكرة المغامرة بأسطولها للمسفر فى بحر غير معروف وهى أيضا
التي أقامت القناة التى أبحرت هذه السفن عن طريقها ، وحسب ما ورد فى الطبعة
الثانية من كتاب سير ج . و . داوسون المسمى : مصر وسوريا *Egypt and Syria*
فإن الدراسات الأخيرة التى قام بها الليفتنانت كولونيل أرداغ *Ardagh* ، والميجور
سبيت *Spaighi* والليفتنانت بورتون وهم جميعا من المهندسين المكين « تؤكد أن هذا
الوادى (تقصد وادى الطميلات) كان يجرى فيه يوما ما فرع من النيل كان يلقى بمياهه
فى البحر الأحمر » وفى هذه الحالة فإنه لو لم يكن هذا الفرع مستخدما فى الملاحة
بالفعل فإن الملكة حتشبسوت تكون قد احتاجت فقط لحفره ومن المحتمل أن تكون فعلت ذلك
بالفعل .

(ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية)

أدلتنا لخدمة الدولة • ونحن نعرف مقدار عناد العبرانيين ومدى وصولهم الى حافة اليأس التي قادتهم اليها الأعمال التي أجبروا على القيام بها • ولكنه حتى العبرانيين قد استخدمت ضدهم قسوة لا تجارى تلك التي استخدمت ضد الذين اختطفوا عبر الحدود من حيث قوتها ، وانتزعوا من بيوتهم بدون أهل في العودة اليها ، ثم سيقوا في أسراب الى المناجم والمحاجر وساحات صنع الطوب الأحمر • لقد عوملت هذه الفرائس المنكودة الطالع بطريقة لم تجعل هناك فرصة للفرار • لقد اقتيد الزنوج من الجنوب الى الشمال حسب نظام موضوع ، كما أن الأسرى الآسيويين قد نقلوا الى أنيوريا • أما هؤلاء الذين كانوا يعملون تحت الأرض فقد سيقوا للعمل بدون راحة أو امهال حتى سقطوا في المناجم وماتوا • أما القول بأن رمسيس هو الفرعون الذي استعبد العبرانيين (١) وأن مرنبتاح ابنه وخليفته كان هو فرعون الخروج (٢) فهو الآن ضمن الافتراضات المسلم بها في علم

(١) انظر كتاب شاباس :

« Les circonstances de l'histoire hébraïque s'appliquent ici d'une manière on ne peut plus satisfaisante. Les Hébreux opprimés batissaient une ville du nom de Ramsès. Ce récit ne peut donc s'appliquer qu'à l'époque où la famille de Ramsès était sur le trône Moïse, contraint de fuir la colère du roi après le meurtre d'un Egyptien, subit un long exil, parce que le roi ne mourut qu'après un temps fort long ; Ramsès II renga en effet plus de 67 ans. Aussitôt après le retour de Moïse commença la lutte qui se termina par le célèbre passage de la Mer Rouge. C'est évidemment eut donc lieu sous le fils de Ramsès II, ou tout au plus pendant l'époque de troubles qui suivit son règne. Ajoutons que la Rapidité des derniers événements ne permet pas de supposer que le roi eût sa résidence à Thèbes dans cet instant. Or, Merenptah a précisément laissé dans la Basse-Egypte, et spécialement à Tanis des preuves importantes de son séjour ». — De Rouge, *Notice des Monuments Egyptiennes du Rez de Chaussée du Musée du Louvre*, Paris, 1857, p. 22.


« Il est impossible d'attribuer ni à Meneptah I, ni à Seti II, ni à Siptah, ni à Amonmesès un règne même de vingt années ; à plus forte raison de cinquante ou soixante. Seul, le règne de Ramsès II remplit les conditions indispensables. Lors même que nous ne saurions pas que ce souverain a occupé les Hébreux à la construction de la ville de Ramsès, nous serions dans l'impossibilité de placer Moïse à une autre époque à moins de faire table rase des renseignements bibliques. » — *Recherches pour servir à l'Histoire de la XIX. Dynastie* : F. Shabas; Paris, 1873 ; p. 148.

(٢) القصة الواردة في الكتاب المقدس والتي جرت مراعاتها ، تذكر الملك بلقبه (فرعون) مما يجعل من الصعب تحديد اسمه • ويورد بروجش اسم الملك عن طريق ذكر القاب :

« Plus généralement », says Brugsch, Writing of the royal titles, « sa personne se cache sous une série d'expression qui toutes ont le =

المصريات . ويتفق الكتاب المقدس مع الآثار حول هذه النقاط ، بينما تؤيدهما مرة أخرى البحوث الجغرافية واللغوية الحديثة ، ان « مدينتي الخزائن بيثوم ورعمسيس » اللتين بناهما الاسرائيليون للفرعون من الطوب الذي صنعوه ، هما المدينتان المذكورتان في النقوش باسم باتوم وبارمسيس . وقد تعرف عليهما حديثا مسيو نافيل خلال حفائره التي قام بها فيما بين عامي ١٨٨٣ ، ١٨٨٦ لحساب صندوق اكتشاف مصر E.E.F.

ان اكتشاف بيثوم « مدينة الخزائن » القديمة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس في الاصحاح الاول من سفر الخروج قد جذب الكثير من الانتباه العام . ونوقش على نطاق واسع بمعرفة العلماء الأوروبيين أكثر من أى حدث أترى آخر منذ اكتشاف مدينة نينوى . كان ذلك في شهر فبراير سنة ١٨٨٣ عندما فتح مسيو نافيل الرابية المعروفة باسم تل المسخوطة على الضفة الجنوبية من التربة الجديدة بوادى الطميلات . وهناك اكتشف الأساسات والبقايا الأخرى لمدينة حصينة من النوع المعروف في التاريخ المصرى باسم بخن Bekhen أو قلعة التخزين . واتضح أن مساحة هذه المدينة التي كانت محاطة بسور سمكه ٣٠ قدما تبلغ حوالى ١٢ فدانا ، وقد وجدت خرائب معبد بناء رمسيس الثانى فى أحد الأركان . أما بقية المساحة فقد شغلتها متاهة مكونة من سراديب مستطيلة تحت الأرض ، أو غرف للتخزين مبنية من الطوب كبير الحجم المجفف فى الشمس . وتقسمها حوائط يتراوح سمكها ها بين ٨ الى ١٠ أقدام . وقد اكتشفت فى خزائن المعبد العديد من التماثيل التي تهشمت بعض أجزائها ومنها تمثال ضخيم لصقر محفور عليه الخراطيش الملكية للملك رمسيس الثانى ، مع أعمال فنية أخرى يعود تاريخها الى أيام أوسركون

= sens de la « grande maison » ou du « grand palais », quelquefois au duel, des « deux grandes maisons », par rapport à la division de l'Egypte en deux parties. C'est du titre très fréquent  Per-aa, « la grande maison, » « la haute porte, » qu'on a heureusement dérivé le nom biblique Pharaon donné aux rois d'Egypte. — *Histoire d'Egypte* BRUGSCH : 2d edition, Part I, p. 35 ; Leipzig, 1875.

ومن المحتمل أن يكون ذلك هو اللقب الوحيد الذى سمح لطبقة العامة باستخدامه فى الحديث أو الكتابة أثناء ذلك العصر . ومن الصعب أن نتجاهل ملحوظة بروجش التي نجدها مترجمة عن سفر التكوين (الاصحاح الخمسين الآية الرابعة) التي تقول : « وبعدما مضت أيام بكائه ، كلم يوسف بيت فرعون قائلا : اذا كنت قد وجدت نعمة لدى عيونكم » الخ . الخ . ولو كان قد سجل ولو مرة واحدة خراطوش اسم أى من الفراعنة الثلاثة الذين عاصروهم لوفر بذلك الكثير من المتاعب التي يعانيها رجال الآثار وانشراح .

الثاني ونختانبو وبطلميوس فيلادلفوس . أما الأساطير الهيروغليفية التي نقشت على التماثيل فانها تحدد القيمة الحقيقية لهذا الكشف بما قدمته من اسم المدينة واسم المقاطعة التي كانت تقع فيها المدينة . وكان اسم المدينة هو باتوم (بيثوم) ومعناه « مسكن توم (أتوم) » واسم المقاطعة هو ثوكوت (سوكوث) وبذلك جرى تعريف باتوم التي في مقاطعة ثوكوت بأنها بيثوم مدينة الخزائن التي بناها العبرانيون عن طريق السخرة ، كما أن سوكوث هي المنطقة التي أقاموا فيها أولا في طريق مجيئهم من أرض العبودية . وحتى قوالب الطوب التي بنى بها الحائط الكبير وحوائط المخازن تحمل شهادة بليغة على تعب البؤساء الذين احتلوها وتثبت بأدق التفاصيل صحة سجل تسخيرهم : كان بعضها معجونا بالقش . وعند عدم ورود القش (التبن) كان البعض الآخر يخلط بأوراق البوص الموجود بكثرة في مستنقعات الدلتا . وعندما كان يندر وجود البوص كان البعض الآخر يصنع بدون التبن فيعجن من الطمي ويجفف في الشمس . وقد أظهرت أبحاث مسيونافيل فيما بعد أن معبد أتوم الذي أنشأه رمسيس الثاني قد أعاد بناءه أوسركون الثاني من الأسرة الثانية والعشرين في نفس الوقت الذي جرى فيه اكتشاف بقايا حصن روماني على مستوى ارضي أعلى من مستوى المعبد . وكانت مدينة بيثوم هذه مازالت ذات أهمية كبيرة في عصر البطالمة دل عليها لوح تاريخي شديد الأهمية وجده مسيونافيل في إحدى غرف التخزين التي كان قد ألقي فيها مع منحوتات أخرى ونوعيات مختلفة من القمامة . ويسجل هذا اللوح أبناء الإصلاحات التي أجريت على القناة ، وبعثة الى اثيوبيا ، وتأسيس مدينة أرسينوى . ولا يقل عن هذا اللوح في الأهمية من وجهة النظر الجغرافية اكتشاف لوحة مسافات رومانية تعلن عن بيثوم بأنها تسمى هيروبوليس ، وهي المدينة التي ذكرت التوراة أن يوسف ذهب اليها لملاقاة أبيه يعقوب . وتبين هذه اللوحة الرومانية أن هناك تسعة أميال رومانية هي المسافة من هيروبوليس الى القلزم . وقد اكتشف سنيور جاموريني Gamurrini مؤخرا في مكتبة اريزو مخطوطا يبين أنه منذ القرن الرابع الميلادي استخدم هذا الفضاء القديم الذي تحده الحوائط معسكرا للجيش في العصر الروماني . لقد كانت مدينة بيثوم الوارد ذكرها في الكتاب المقدس معروفة للحجاج الأتقياء

بأنها « بيثوم » التي بناها بنو إسرائيل « وأن المدينة المجاورة في خارج المعسكر والتي أنشئت حينذاك داخل حدود مدينة بيثوم القديمة كانت تسمى هيروبوليس ، وأن مدينة بارميسيس كانت بعيدة عن بيثوم بحوالى عشرين ميلا رومانيا (١) .

أما فيما يتعلق بمدينة « بارميسيس » مدينة الخزان الأخرى الخاصة بالخروج فقد تعرف إليها مسيونافيل بالحدس وليس بشكل إيجابي ، وهي رابية قرية صفت الحنة في المكان الذي قام فيه بحفائه سنة ١٨٨٦ . أما صفت الحنة وهي « كيس » أو جوشين عاصمة إقليم « أرض جوشين » فقد برهن المكتشف مسيو نافيل على حقيقتها . ومن المحتمل أنها كانت معروفة أيضا في عصر رمسيس الثاني باسم « بارميسيس » (٢) . وتوجد هناك بقايا معبد عيني من البازلت الأسود يشتمل على أعمدة وأجزاء من بعض التماثيل وما شابه ذلك ، وكلها منقوش عليها خراطيش رمسيس الثاني وتبعد عن بيثوم بمسافة ٢٠ ميلا رومانيا .

(١) يعود الفضل في الحصول على هذا المخطوط الى رحلة قامت بها سيدة فرنسية حوالى سنة ١٢٧٠ ميلادية للحج الى مصر وما بين النهرين والاراضى المقدسة . وهذا المخطوط منقول عن أصل أكثر قديما يعود تاريخه الى القرنين العاشر والحادي عشر وقد ضاع منه الكثير ولكن الأجزاء التي تصف عملية الحج من جوشين الى تانيس ثم الى القدس واديسا وجاران ، مازالت سليمة وكاملة . وورد فيه عن بيثوم قوله :

« Pithona etiam civitas quam oedificaverunt filii Israel ostensa est nobis in ipso itinere ; in eo tamen loco ubi jam fines Egypti intravimus, religentes jam terras Saracenorum. Nam et ipsud nunc Pithona Castrum est. Heroun autem civitas quae fuit illo iemperè, id est ubi occurrit Joseph patrisuo venienti, sicut scriptum est in libro Genesis nunc est comes sed grandis quod nos dicimus vicus ... nam ipse vicus nunc appellatur Hero. »

انظر الرسالة عن « Pithom-Heroopolis » التي وصلت الى الاكاديمية من مسيو نافيل في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٤ . وانظر كذلك مذكرة مسيو نافيل وعنوانها « The store city of pithom and the Route of the Exodus » (الطبعة الثالثة

— نشرت بمعرفة جمعية صندوق اكتشاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٨) :

.. (٢) انظر مذكرات مسيو نافيل وعنوانها : Goshen and the shrine of saft :

el-Henneh — نشرت بمعرفة جمعية صندوق اكتشاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٧ .

ومن بأرمسيس هذه انطلق زمسيس بجيشه لمحاربة الأمراء المجتمعين
بأسيا الصغرى حيث وقع في الكمين عند قادش (١) وهناك أحرز انتصاره
العظيم فيما بعد . ويحكي كاتب معاصر اسمه بانبيسا Panbesa في
عبارات واضحة عن جمال وعظمة المدينة الملكية ، وكيف أن الفتيات كن
يقفن على أبواب بيوتهن وهن يرتدين الملابس الخاصة بالمطلات الرسمية ،
وفي أيديهن باقات الأزهار ، وعلى خصلات شعورهن الزيوت العطرية
« في يوم وصول اله الحرب في العالم كله » . وهذه الرسالة محفوظة
بالمتحف البريطاني (٢) .

وقد ورد في خطابات أخرى أثناء فترة حكم رمسيس الثاني ذكر كلمة
الاسرائيليين بطريقة مباشرة ، حيث ذكر الكاتب كا أوسر في رسالته الى
رئيسه (باك - ان - بتاح) أنه « خضع لخدمة تقديم التموين للجنود
والخايرو [العبرانيين ؟] الذين يقتلعون الأحجار لبناء قصر الملك رمسيس
محبوب آمون » . وهناك وثيقة مشابهة كتبها كاتب يسمى قني آمون
Keniamon تحمل في معظمها نفس الكلمات ، تذكر هؤلاء الخايرو في
مناسبة أخرى بأنهم كانوا يقتلعون الأحجار لاقامة مبنى في الجهة
الجنوبية من منف ، ولابد أن محاجر طرة كانت هي المنطقة التي عملوا
فيها .

وهذه الرسائل القيمة التي كتبت على أوراق البردي بالحروف
الهيروغليفية في حالة جيدة . وقد وجدت في خرائب منف وتشكل الآن
جزءاً من كنوز متحف لندن (٣) .

(١) قادش أو كادس. مدينة على نهر الأورنت - انظر بحثا بعنوان « حملة رمسيس
الثاني في عامه الخامس ضد قادش على نهر الأورنت » .

« The campaign of Rameses the second in his 5th year against
« kadesh on the Orontes »

بقلم : ج . هـ . تومكنز في مجلة The preceedings of the society of Biblical
Archaeology عن سنتي ١٨٨١ - ١٨٨٢ . وكذلك محاضرات الجمعية - المجلد
الثامن .

(٢) بردية أنستاس رقم ٣ بالمتحف البريطاني .

(٣) انظر كتاب Melanges Egyptologiques للعالم ف . شاياس - الطبعة الأولى

سنة ١٨٦٢ حيث يذكر انه جرت مناقشات عديدة بين علماء المصريين حول تعريف
شاياس للعبرانيين . وقد استشهد بالاسم الذي أطلق عليهم في البرديات وايضا في نقش
موجود في محاجر الحمامات والاسم هو الخايرو Apir-ii . وهناك بحث علمي
منشور في مجلة Revue Archaeologique (المجلد الخامس - الطبعة الثانية سنة
١٨٦٢) يقول :

وهم يذكروننا بأحداث وشخصيات الكتاب المقدس حيث نرى العمال منهمكين في عملهم ، والملاحظين يبلغونهم بتعليمات مشرفي الأشغال العامة . انهم يستخرجون من المحاجر تلك الكتل الضخمة التي تثير دهشتنا حتى اليوم ، ثم يسحبونها وهي مربوطة الى زحافات بدائية نحو ضفة النهر ، حيث يقومون بتشوينها للنقل الى الضفة الأخرى (١) وكان بعضها شديد الضخامة وثقيل الوزن مما جعل نقلها الى موقع المرسى يستغرق شهرا (٢) . وكان هناك عمال آخرون في مكان آخر يقومون بصنع الطوب اللين ، وحفر القنوات ، والمساعدة في بناء الحائط الكبير الذي كان يصل ما بين مدينتي بيلوزيوم وهليوبوليس ، وتقوية الاستحكامات ليس فقط

«...« La découverte du nom des Hébreux dans les hiéroglyphes serait un fait de la dernière importance ; mais comme aucun autre point historique n'offre peut-être une pareille séduction, il faut aussi se méfier des illusions avec un soin méticuleux. La confusion des sons R, et L, dans la langue égyptienne, et et le voisinage des articulations B et P nuirent un peu, dans le cas particulier, à la rigueur des conclusions qu'on peut tirer de la transcription. Néanmoins, il y a lieu de prendre en considération ce fait que les Hébreux, dans les trois documents qui nous parlent d'eux sont montrés employés à des travaux de même espèce que ceux auxquels, selon l'Écriture, les Hébreux furent assujettis par les Égyptiens. La circonstance que les papyrus mentionnant ce nom ont été trouvés à Memphis, plaide encore en faveur de l'assimilation proposée — découverte importante qu'il est à désirer de voir confirmée par d'autres monuments. »

ويضاف الى ذلك ان كلمة الخابيرو تظهر ايضا في النقش الخاص بالملك تحوتمس الثالث في الكرنك . كما افترض مارييت انهم شعب ايفون Ephon . وجدير بالذكر ان النقوش تذكر قبيلتين من الخابيرو . واحدة كبرى والثانية صغرى . وربما يعود ذلك الى ان بعض المبرانيين استقروا في الدلتا وبعضهم الآخر بجوار منف . ويظهر الخابيرو في نصوص أخرى بأنهم كانوا فرسانا أو مدربين للخيل . ويتعارض هذا مع القول بأن هذه التسمية قصد بها العبرانيون .

(١) انظر النقش الحائطي الموجود على التمثال الضخم المحمول على الزحافة والمرسوم في الصورة التي في مواجهة العنوان الداخلي لكتاب سير ج . ويلكنسون : المصريون القدماء (Ancient Egyptians) المجلد الثاني - طبعة سنة ١٨٧١ .

(٢) وجدنا في خطاب كتبه كاهن كان يعيش في ذلك العصر (عصر رمسيس الثاني) قصة مثيرة عن العيوب والمصاعب التي واجهت انواع الحرف المختلفة والملاحظات التي حالت دون معاونة وتكريم اصحاب المناصب الكهنوتية . ويقول الخطاب عن العمال الذين يشتغلون في حرفة تحت الاحجار ما يلي :

« يصل مدى بؤسهم الى درجة التزام ستة عمال فقط بدفع كتلة من الحجر يبلغ طولها عشر اذرع وعرضها ست اذرع وهي كتلة يستغرق سحبها بين المنازل بالاساليب الخاصة مدة شهر » . (بردية سالبيه رقم ١١ بالمتحف البريطاني) .

فى بيثوم ورعمسيس، بل فى جميع المدن والقلاع التى تقع ما بين البحرين الأحمر والأبيض . وكانت مهمتهم صعبة ولكنها لم تكن أصعب من مهام العمال الآخرين . وكان يقدم لهم غذاء جيد ، ويسمح لهم بالتزاوج والتناسل بحيث تتضاعف أعدادهم ، ولم يكن حينذاك قد حل الفصل الذى يواجهون فيه المعاناة . ولا يمكن انكار حقيقة أنهم كانوا يصنعون الطوب اللبن ، وكان عليهم انجاز كمية محددة وتقديمها كل يوم (١) ولكنهم لما لم يتزودوا بالتبن تزايد حجم العمل واستحال انجازه أيضا . ونحن الآن فى عصر رمسيس الثانى ، ومازال العصر الذى سيحل فيه مرتبات محل بعيدا جدا ، ولم يستطع بنو اسرائيل أن يتنفسوا الصعداء حتى موت الملك « بسبب العبودية » .

ويوجد فى المتحف البريطانى ومتحف اللوفر والمكتبة القومية بباريس ، بعض البرديات الأقدم زمنيا بالنسبة لهاتين البرديتين اللتين تضمهما مجموعة ليدن . يعود بعضها الى أيام يوسف الصديق ولكن ليس

(١) « لا تعودوا تعطون الشعب تبننا لصنع اللبن كأمس وأول من أمس . ليذهبوا هم ويجمعوا تبننا لأنفسهم ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم لا تنقصوا منه (سفر الخروج - الأصحاح الخامس - الآيتان السابعة والثامنة) ويقول مسيو شاباس :

« Ces détails sont complètement conformes aux habitudes Egyptiennes. Le mélange de paille et d'argile dans les briques antiques a été parfaitement reconnu. D'un autre côté, le travail à la tâche est mentionné dans un texte écrit au revers d'un papyrus célébrant la splendeur de la ville de Ramsès, et datant, selon toute vraisemblance, du règne de Menephtah I. En voici la transcription : — « Comptez des maçons, 12 ; en outre des hommes à mouler la brique dans leurs villes, amonés aux travaux de la maison. Eux à faire leur nombre de briques journellement ; non ils sont à se relâcher des travaux dans la maison neuve ; c'est ainsi que j'ai obéi au mandat donné par mon maître. » See *Recherches pour servir à l'Histoire de la XIX Dynastie*, par F. Chabas, Paris ; 1873, p. 149.

وهذا النص القريب الذى ترجمه مسيو شاباس الى الفرنسية والمكتوب على ظهر البردية ، تم نسخة (خطاب من بانبيسا - بردية أنستاسى رقم ٣) وحفظ بالمتحف البريطانى . أما النقش الحائط الموجود على حائط المقبرة التى فى طيبة والتى تعود اثنى عشر الأسرة الثامنة عشرة ، وهو النقش الذى يصور الأسرى الأجانب الذين يخلطون الطين ، ويصبونه فى القوالب ، ويخففونه ثم يصفونه فى صفوف : فهو نقش معروف من الصورة التى أوردها سير ج. ويلكنسون فى كتابه *Ancient Egyptians* طبعة سنة ١٨٧١ - المجلد الثانى - ص ١٩٦ . وكذلك فإن الصندوقين رقمى ٦١ ، ٦٢ من الحجرة المصرية الأولى بالمتحف البريطانى يحتويان على قوالب من الطوب المخلوط باللبن وعليها خاتم الملك رمسيس الثانى .

لها مثل هذه الأهمية ، لأن الكتاتين كا أوسر وقن آمون يظهران كما لو كانا على قيد الحياة ويتحدثان بما ورد في البرديتين ، وليس هناك شيء لم نذكره عن خطابيهما هذين ! لقد عرفا هنف في أيام مجدها ، وتفرسا في وجه رمسيس الأكبر ولا بد أنهما شاهدا موسى في عنفوان شبابه عندما كان يعيش في حماية الأم التي تبنته (ابنة فرعون) أميرا وسط الأمراء .

لقد عاش كا أوسر وقن آمون وماتا وحنط جسدهما خلال فترة تتراوح ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف عام مضت . ولكن هذه القطع الصغيرة من البرديتين قد عبرت حطام العصور ، كما أن الكتابة الطريفة التي غطتهما واضحة لنا كما كانت بالنسبة للموظفين الذين وجهت اليهم . لقد كان المصريون يحبون العمل، وحرصوا على دقة تسجيل أعمال عمالهم وأسرارهم، وبناء على أقدم ما سجلته الآثار ، نجد نظاما بيروقراطيا مسهبا عن العمل في كافة أنحاء القطر . وحتى في أيام بناء الأهرام كان هناك مشرفون على الأعمال العامة ، ومفتشون للتفتيش على الأراضي والبحيرات والمحاجر ، وسكرتاريون ، وكتبة وملاحظون عديدون (١) . ولا بد أن هؤلاء جميعا كانوا في حاجة الى حساب مصروفاتهم ، والى تقارير عن الأعمال التي تم انجازها تحت اشرافهم . ولكن عينات السجلات المصرية التي سجلت فيها هذه الشئون نادرة . ويعتبر متحف اللوفر غنيا في هذه النوعية من المذكرات التي يختص بعضها بتدوين تواريخ تحصيل الضرائب ، بينما يختص بعضها الآخر بنقل القمح ونظام فرض الضرائب الخاصة به . ويخضع البعض الآخر بدفع الأجور ، وكذلك بيع وشراء الأرض لاقامة المدافن ، وما شابه ذلك . وإذا كانت قد وصلتنا من مصادر مصرية أنباء محدودة وواضحة عن العبرانيين ، فمن المؤكد أنها جاءت عن طريق مثل هذه الوثائق .

(١) « Les affaires de la cour et de l'administration du pays sont expédiées par les « chefs » ou les « intendants », par les « secrétaires » et par la nombreuse classe des scribes. ... Le trésor rempli d'or et d'argent, et le divan des dépenses et des recettes avaient leurs intendants à eux. La chambre des comptes ne manquait pas. Les domaines, les propriétés, les palais, et même les lacs du roi sont mis sous la garde d'inspecteurs. Les architectes du pharaon s'occupent de bâlisses d'après l'ordre du pharaon. Les carrières, à partir de celles du Mokattam (le Tooru de nos jours) jusqu'à celles d'Assouan, se trouvent exploitées par des chefs qui surveillent le transport de pierre taillées à la place de leur destination. Finalement la corvée est dirigée par les chefs des travaux publics. » *Histoire d'Egypte*, Brugsch ; 2d édition, 1875 ; chap. v. pp. 34 and 35.

ويبدو أن الستة والأربعين عاما الأخيرة من حكم الملك رمسيس الثاني الطويل على غير العادة ، قد مرت في سلام ورخاء مما أتاح له أن يتمتع بشهوته للحكم بدون انقطاع . ان وضع قائمة مصورة بأعماله الانشائية المعروفة قد تتعادل أهميتها مع كتابة بيان تفصيلي عن مصر واثيوبيا تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة . ويبدو أن تصميماته كانت ضخمة كما أن وسائله غير محدودة . لقد ملأ البلد من الدلتا حتى جبل برقل بالآثار التي خصصها لبيان أوجه عظمته ولعبادة الآلهة . وقد ظهرت معالم عظمته التي لا تبارى على الآثار التي أقامها في طيبة وأبيدوس وتانيس . أما في النوبة في الأماكن المعروفة الآن مثل جرف حسين ووادي السجوع والدر وأبي سنبل فقد أقام المعابد وأنشأ المدن . وقد اختفت هذه المدن التي بفضل وصفها بأنها كانت عواصم كبرى ، ولولا ورود ذكرها في النقوش المختلفة لما عرفنا شيئا عن مجرد وجودها ، مما يجعلنا نتساءل عن كيفية فناء الكثير منها دون أن تترك أثرا أو سجلا . وربما كانت هناك اثنتا عشرة مدينة تخص رمسيس مدفونة تحت بعض هذه الروابي التي لا نعرف أسماءها والتي تلي بعضها البعض في سلسلة ممتدة بطول ضفتي النيل في مصر الوسطى والسفلى (١) . وبالأمن فقط اكتشفت بالصدفة بقايا بناء عظيم مزين بأسلوب فريد تحت رابية تل اليهودية (٢) التي تقع على بعد اثني عشر ميلا شمال شرق القاهرة ، ومن المحتمل وجود حوالي خمسين رابية من هذه الروابي التي لم تفتح بعد في الدلتا وحدها . ولسنا نبالغ اذا تحدثنا عن وجود حوالي مائة رابية أخرى تقع في المسافة ما بين البحر الأبيض المتوسط والشلال الأول .

وقد وجد في أبيدوس خلال السنوات الأخيرة نقش يبين أن رمسيس الثاني قد حكم مملكته العظيمة حوالي سبعة وستين عاما . ويقول رمسيس الرابع مقدما ذاته الى الاله أوزوريس : « أنك أنت الذي ستمنحني مثل هذا الحكم الطويل الذي حكمه رمسيس الثاني الاله العظيم على مدى سبعة

(١) إن قصة مدينة « بارميس » الواردة في الكتاب المقدس تدل على أنها لم تكن المدينة الوحيدة التي تحمل هذا الاسم ، فقد كانت هناك مدينة أخرى باسم بارميس تقع بالقرب من منف ، ومدينة ثالثة عند أبي سنبل وربما آتيت مدن أخرى تحمل نفس الاسم .

(٢) « تكشف البقايا عن قاعة ضخمة مبلطة ببلاطات من المزرع الأبيض . (١٤) الحوائط فقد كانت مغطاة بتشكيلة من القوالب والقيشاني . أما القوالب فقد كان العديد منها رائع الصنعة وقد طعنت فيها الحروف الهيروغليفية المصنوعة من الزجاج أما تيجان الأعمدة فقد طعنت بالموزاييك الملون اللامع ، كما أحاط بالافريز خط من الموزاييك » =

وستين عاما • وأنت الذى ستمنحني المدة التى استغرقها هذا الحكم العظيم • (١) •

وإذا كنا قد عرفنا فى أى سن جلس رمسيس الثانى على العرش ، فإننا نستطيع عن طريق هذا النص أن نعرف أيضا السن التى مات فيها • ولم يصل إلينا سجل عن هذا الموضوع، ولكننا توصلنا الى ذلك عن طريق مقارنة الفترة الطويلة التى استغرقها أحداث هذا العصر ، وقبل كل شيء العمر الذى دلت عليه مومياء هذا الفرعون العظيم التى اكتشفت سنة ١٨٨٦ وهى تبين أنه عاش مائة عام •

وتقول لوحة الدكة : « أنت الذى وضعت التصميمات عندما كنت فى عمر الطفولة • لقد كنت ولدا يرتدى الأزار ، وبدونك لم يقم أى أثر أو يوضع أى نظام • وكنت شابا عمرك عشر سنوات عندما كانت جميع الأعمال فى قبضة يديك وأنت واضح أساساتها » • وليس لدينا ما نضيفه الى هذه السطور التى ترجمناها حرفيا • وهى لا تتضمن شيئا يبين أن هذا الشاب الذى كان عمره عشر سنوات أصبح فى هذه السن ملكا منفردا

= وقد طعنت بعض الأحجار بخرطوش رمسيس الثالث • ، انظر دليل موراي عن مصر - الفصل السابع - Murray's Handbook for Egypt ص ٢١٧ • وتحتوى الخزائن رقم D فى الغرفة المصرية الثانية بالمتحف البريطانى على العديد من بلاطات القيشاني هذه التى رسمت على بعضها أشكال الأسرى الآسيويين والزوج والطيور والثعابين • الخ وتمتاز جميعها بالروعة سواء من ناحية التصميم أو التنفيذ • ولا بد أن موراي قد أخطأ فى نسبة هذا المبنى الى رمسيس الثانى لأن الخراطيش تخص رمسيس الثالث • وقد اكتشف بعض العمال هذه القاعة سنة ١٨٧٠ • ملحوظة مضافة للطبعة الثانية : كشفت عن هذه الرابية الحفائر التى أجراها مسيو نافيل فى العام الماضى (١٨٨٧) ممثلا لجمعية صندوق اكتشاف مصر E.E.F. • انظر الملحق المضاف الى عدد مجلة The Illustrated London News بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٨٨٧ وهو يتضمن القصة الكاملة لحفريات تل اليهودية مع الرسومات •

(١) تمثل هذه اللوحة نذرا أو قربانا ، ويحتوى فى حقيقته على صلاة تعبدية قدمها رمسيس الرابع للإله أوزيريس فى السنة الرابعة من حكمه ، وفيها يعدد الملك فضائله الشخصية وأعماله الصالحة ، ويطلب من الإله أن يمنحه طول العمر • انظر مقالا عنوانه : Sur une stèle inédite d'Abydos بقلم ب. بيير نشر فى مجلة Revue Archéologique المجلد التاسع عشر ، ص ٢٧٢ •

«وحاكما مصر وأنه كان منذ ولادته ملكا شرفيا حسب مفهوم الوراثة (١) أثناء حياة أبيه . وقد صار ذلك مؤكدا الآن ، ورغم كونه ولدا إلا أنه قام بتصميم المباني العامة وأشرف على بنائها . وأن هذا المركز كان لابد من استناده الى ولي العهد الذي كان يحب العمارة واتخذ منها مجالا لدراساته الخاصة . والحقيقة أن هذا المركز كان مركزا نبيلًا لأنه كان يسند منذ أوائل الدولة القديمة الى أمراء تجرى في عروقهم الدماء الملكية (٢) ، ولكنه لا يحمل في حد ذاته دليلا على السلطة . ولذلك فأننا نسلم بأن لوحة الدكة هذه (التي يعود تاريخها الى السنة الثالثة لحكم رمسيس الثاني منفردا على العرش) تشير الى وقت طويل مضى عندما كان الملك ولدا يتقلد هذا المركز تحت رعاية أبيه .

ويشير نفس النقش كما رأينا الى الحملة المظفرة في الجنوب ، ويذكر رمسيس بوصفه « الثور القوى ضد اثيوبيا ، والوحش الغاضب ضد

(١) أوضح مسيو ماريت في كتابه الضخم عن إيبودس أن الملك رمسيس الثاني قد اختص أثناء حياة أبيه بخرطوش يبين أنه فقط (أوسر - ماعت - رع) وأنه لم يتحصل على اللقب الإضافي (ستب - ان - رع) حتى وفاة أبيه الملك سيتي الأول . وعلى كل حال فإن متحف اللوفر يتضمن قطعة من النقش الغائر تبين الولد رمسيس الثاني حاملا للقب الكامل الذي حمله في السنوات الأخيرة . وقد وصف مسيو ب. بيير هذه القطعة قائلا :

« Ramsés II enfant » représenté assis sur le signe des montagnes du : c'est une assimilation au soleil levant lorsqu'il émerge à l'horizon celeste. Il porte la main gauche à sa bouche, en signe d'enfance. La main droite pend sur les genoux. Il est vêtu d'une longue robe. La tresse de l'enfance pend sur son épaule. Un diadème relie ses cheveux, et un uraeus se dresse sur son front. Voici la traduction de la courte légende qui accompagne cette représentation. « Le roi de la Haute et de la Basse Egypte, maître des deux pays, Ra-User-Ma Setj-en-Ra, vivificateur, éternel comme le soleil. » Catalogue de la Salle Historique, P. Pierret. Paris, 1873, p. 8.

ويذكر مسيو ماسبيرو أن هذه اللوحة تكشف عن الحقيقة التي أثير الجدل حولها وهي أن حكمه الفعلي قد بدأ منذ الطفولة وبذلك ينتهي هذا الاشكال - انظر : المقال الرابع الذي نشره ج. ماسبيرو سنة ١٨٦٧ في باريس ضمن سلسلة المقالات التي تحمل العنوان التالي :

l'Inscription dédicatoire du Temple d'Abydos, suivi d'un Essai sur la Jeunesse de sesostris.

(٢) انظر كتاب بروجش :

« Le métier d'architecte se trouvait confié aux plus hauts dignitaires de la cour pharaonique. Les architectes du roi, les Murket, se recrutaient assez souvent parmi le nombre res princes. » Histoire d'Egypte : Brugch. Second edition, 1875, chap. v. p. 34.

الزواج ، • وأن الأحداث التي ألمح إليها لابد وأن تكون قد حدثت خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمه المنفرد وهو ما برهن عليه تاريخ المرح • والحقيقة أن نقش أبيدوس العظيم يبين أن رمسيس الثاني قد قام بحملة في اثيوبيا ، في الوقت الذي وصله فيه خبر وفاة أبيه وأنه عاد في النيل إلى الشمال لكي يتم تتويجه في طيبة (١) •

والآن ، فإن النقوش المشهورة التي كانت مرسومة على الهيكل التذكاري في معبد بيت الوالي تشير إلى أحداث هذه الحملة • وقد نفذت النقوش بهذا الأسلوب الرفيع والرقيق الذي يجسده على وجه الخصوص النقش البارز في القرنة وأبيدوس وكافة هذه المباني التي أنشأها سيتي الأول ، أو بداها سيتي وأكملت خلال السنوات الأولى من حكم رمسيس الثاني • وانبنى أجازف بالقول بأنني اعتبرها معاصرة له ، أو قريبة العهد من عصره • وعلى أية حال ، فإنها مع المناظر التي تسجلها تدفعنا إلى استنتاج أن الفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا يعرفون شيئاً عن الأحداث والأشخاص الذين جرى التعبير عنهم ، وأنهم أبرياء من الاتهام بعدم إبراز الأخطاء •

ويتبدد الشك كله حول ما إذا كانت التواريخ المتعلقة بحكم سيتي ورمسيس أو حكم الأخير المنفرد ، عندما نجد في هذه النقوش (٢) أن الفاتح يصحبه ابنه الأمير آمون حرخبشف الذي كان في السن التي تسمح ليس فقط بالقيام بدوره في الميدان بل تجعله يقيم بعد ذلك احتفالا عظيما بمناسبة خضوع القائد الاثيوبي ودفعه للجزية ، وهذا الدليل الذي تقدمه النقوش البارزة الموجودة في بيت الوالي ، وكذلك فإن هؤلاء الذين لا يستطيعون الدخول إلى بيت الوالي يمكنهم أن يشاهدوا ويحكموا بأنفسهم عن طريق الأضواء العجيبة التي تطرحها هذه اللوحات العظيمة التي تغطي حوائط الغرفة المصرية الثانية بالمتحف البريطاني • ويصعب تفسير ما يتعلق بالأمير آمون حرخبشف ؛ لأننا تعودنا على اكتشاف قدر معين من المبالغة المهدبة من جهة هؤلاء الذين يسجلون بالقلم أو يرسمون في لوحاتهم الأعمال العظيمة للفراعنة • اننا نتوقع أن نرى الملك على الدوام شاباً وجميل المنظر وممتصراً • والشئ الحقيقي والطبيعي أنه يجب ألا يقل طوله عن عشرين قدماً ولا يزيد على ستين • ولكن الذي لا يمكن تصديقه هو أن

(١) انظر مقال ج* ماسبيرو وعنوانه :

L'Inscription dedicatoire du Temple d'Abydos, etc.

(٢) انظر كتاب روسيليني : Monumenti Storici : اللوحة رقم ٧١ •

يحاول أى متملق أن يمضى فى تملقه الى درجة الاقرار بقدرات صبى فى الثلاثين مع ابنه الذى يبلغ نفس عمره تقريبا .

واخيرا فهذا هو الدليل من الكتاب المقدس :

« بعد موت يوسف وبقاء الاسرائيليين فى مصر ، جاء الى العرش فرعون الذى شجر بخطورة زيادة أعداد هذا الشعب الأجنبى وبحث عن طريقة لوقف تزايدهم السريع . ولم يعمل فقط على اذلال هؤلاء الأجانب ، بل أمر أيضا بأن يلقي فى نهر النيل كل مولود جديد يرزقون به » . وهناك اجماع عالمى على الاعتقاد بأن هذا الفرعون هو رمسيس الثانى ، وتأتى بعد ذلك القصة القديمة العظيمة التى أوردها الكتاب المقدس وهى معروفة لنا جميعا . وتبعت ولادة موسى ووضع فى سفط من البردى ووضع بين الحلفاء على حافة النهر ، وأنقذته ابنة فرعون واتخذته ابنا لها . وبالرغم من عدم ذكر أية تواريخ فمن الواضح أن هذا الفرعون الجديد لم يكن قد مضى عليه فى الحكم سنوات طويلة عندما حدثت هذه الأحداث . ومن الواضح كذلك أنه لم يكن مجرد شاب . لقد كان كبيرا لأنه كان يدبر أمور الدولة ، كما كان ابنا لأميرة من الصعب الافتراض أنها كانت هى نفسها طفلة .

وعموما نستطيع استنتاج أن رمسيس الثانى بالرغم من أنه قد ولد ملكا إلا أنه لم يكبد يبلغ مبلغ الرجال حتى تم زفافه ، وأنه بعدما أصبح أبا لأطفال قد تجاوز مرحلة الطفولة . وتم ذلك كله قبل أن ينفرد بالحكم . وعلى كل حال فإن هذه هى وجهة النظر التى أبداه البروفيسور ماسبيرو الذى يقول فى الطبعة الأخيرة من كتابه : التاريخ القديم Histoire Ancienne : « ان رمسيس الثانى عندما وصله خبر وفاة والده كان فى عنفوان حياته محاطا بأسرة كبيرة ووصل بعض أبنائه الى السن التى تسمح له بالقتال تحت قيادة أبيه » (١) .

(١) انظر :

« A la nouvelle de la mort de son père, Ramsès. Il désormais seul roi quitta l'Éthiopie et ceignit la Couronne à Thèbes. Il était alors bre d'enfants, dont quelques-uns étaient assez âgés pour combattre sous ses ordres. » Hist. Ancienne des Peuples de l'Orient, par G. Maspero. Chap. v. p. 220. 4ème édition 1886.

ويجعل بروجش ميلاد موسى فى السنة السادسة لحكم رمسيس الثانى (١) وهو استنتاج صحيح . أما السنوات الثمانون التى انقضت بين ذلك الوقت ووقت الخروج فهى تطابق بالتمام الفترة الزمنية التى أوضحتها الآثار . وعلى ذلك فإن موسى قد شاهد السنوات الباقية من حكم هذا الملك وعددها واحد وستون عاما، وأطلق الاسرائيليين من العبودية فى أواخر حكم مرنبتاح (٢) الذى جلس على عرش آبائه حوالى عشرين عاما . وفى هذه المرة نجد أن تطابق التواريخ لم يترك شيئا للتمنى .

أما سيزوستريس الذى تحدث عنه ديودور الصقلى فقد أصيب بالعمى وقتل نفسه بيده ، وقد أعجب شعبه كثيرا بنهايته هذه التى تتطابق مع عظمة حياته . اننا هنا ندخل فى منطقة الخرافة الخالصة . ان الانتحار معروف لدى المصريين ولكنه فضيلة كلاسيكية . واذا كان الاغريق قد كرهوا الحياة فإن المصريين قد عظموها . ونشك فيما اذا كان الناس الذين يتوقون دائما الى طول الأيام يثير اعجابهم التقصير الارادى لأيام العمر وهى أعظم عطية أعطتها الآلهة للانسان — وباستثناء كليوباترة ، فهناك أيضا

(١) انظر :

« Comme Ramsès II regna 66 ans, le règne de son successeur sous lequel la sortie des Juifs eut lieu, embrassa la durée de 20 ans ; et comme Moïse avait l'âge de 80 ans au temps de la sortie, il en résulte évidemment que les enfants d'Israel quittèrent l'Egypte une res ces dernières six années du règne de Menepthah ; C'est à dire entre 1327 et 1321 avant l'ère chrétienne. So nous admettons que ce pharaon périt dans la mer, selon le rapport biblique, Moïse sera né 80 ans avant 1321, ou 1401 avant J. Chr., la sixième années du règne de Ramsès II. » — Chap. viii. p. 157. *Hist. d'Egypte* : BRUGSCH, First edition, Leipzig, 1859.

(٢) اذا كان الخروج قد حدث خلال السنوات الاولى لحكم مرنبتاح يكون من الضرورى اما ترحيل ميلاد موسى الى تاريخ سابق ، واما قبول التصحيح الذى أورده بانسين الذى يقول : « من الصعب أن نلتزم حرفيا بالنص الخاص بعمر موسى وقت الخروج وهو اثنان وأربعون عاما » . وفترة الأربعين عاما هى الاصطلاح المستخدم للتعبير عن جيل من الاجيال وهو فترة زمنية تتراوح ما بين ثلاثين الى ثلاثة وثلاثين عاما — انظر كتاب بانسين وعنوانه : *Egypt's Place in Universal History* — نشر فى لندن سنة ١٨٥٩ — الجزء الثالث — ص ١٨٤ .

ومنه يتأكد القول بأن مرنبتاح لم يهلك مع جنوده . اما الطفليان الذى بلغ ذروته ضد العبرانيين ومعجزات موسى ، حسب ما ورد فى الكتاب المقدس ، فانها جميعها تعطينا انطباعا بأن كافة هذه الاحداث قد حدثت فى فترة زمنية قصيرة ، ولم تمتد على مدار عشرين عاما . ولم تذكر أن فرعون قد هلك . والحقيقة أن مقبرة مرنبتاح موجودة فى وادى الملوك — (المقبرة رقم ٨) .

موت نيتوكريس الكائن الاغريقى ذى الخدود الوردية (١) المشكوك فى أصله . ولكن لم نسمع أن مصرىا انتحر . وحتى كليوباترة التى كانت اغريقية بال ميلاد ، قد تأثرت فى اقدمها على الانتحار بسوابق اغريقية ورومانية . ولذلك علينا أن نتغاضى عن هذه الأسطورة القائلة بأنه أصيب بالعمى وقتل نفسه . وهكذا يمكن القول بأننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن موت رمسيس الثانى .

وباختصار ، فإن هذه هى الحقائق المتعلقة بتاريخ هذا الفرعون المشهور . وإذا عالجتنا قصته بالتفصيل فإن تدوينها يحتاج الى مجلد كامل . ولو حدث ذلك بالفعل فسيظل الانسان يتساءل ويتساءل عن نوعية هذا الرجل ولكن دون جدوى . وتعتبر كل محاولة لاستنباط طباعه الشخصية بناء على هذه المعلومات المحدودة مجرد خيال (٢) . أما عن شجاعته فيمكن أن نستدل عليها من قصيدة بنتاؤور - مع التحفظ الواجب . أما عن امتياز به بصفة الرحمة فقد ظهرت فى العبارة الخاصة بتسليم المجرمين التى وردت فى معاهدته مع الحيثيين . أما كبرياؤه فليست لها حدود . لقد كان كل مصد أقامه يمثل أثرا يسجل عظمته ، وكان كل تمثال ضخيم يمثل تذكارا . وكان كل نقش يمثل أنشودة تمدح شخصه ، لقد وضع صورته الشخصية فى الهيكل بين صور الآلهة فى أبى سنبل. وفى الدر وفى جرف حسين (٣) وهناك حالات رسم فيها بمظهر السلطة

(١) هيرودوت - الكتاب الثانى .

(٢) يذكر روسيليني صفات التالية فى أعلى درجاتها عندما لا يذكر فقط أن رمسيس الأكبر قد حقق لمصر الرخاء نتيجة لانتصاراته ، وأن هذا الرخاء قد أدى الى نوعمة الحياة اليومية وأمن الدولة ، ولكنه أيضا (مع قبول اللغة التكميلية للوح التذكاري عن الانتصارات كحقيقة مسلم بها) يضيف أن « السلام العالمى حقق له حب المنهزمين » . انظر : Mon-Storiei المجلد الثالث - الجزء الثانى - ص ٢٩٤ . وينفس القدر ينحاز بانسين الى الاتجاه المضاد ، و لا يرى أية سمة من سمات الشهامة أو الكرم فى شخص يجب أن يوصف بأنه « طاغية لا يكبح جماحه ، استغل ميزة بقائه فى الحكم هذه الفترة الطويلة ، وانجازات ابيه واسلافه لكى يعذب رعاياه ، والغرباء المقيمين على أرضه مستخدما أقصى ما يستطيع من قوة ، ويوظفهم لتحقيق شهرته فى الحرب والبناء » . انظر كتاب بانسين : Egypt's Place in Universal History - المجلد الثالث - الكتاب الرابع - الجزء الثانى ، ص ١٨٤ .

(٣)

« Souvent il s'introduit lui-meme dans les triades divines auxquelles il dédie les temples. Le soleil de Ramsès Meiamoun qu'on aperçoit sur leur murailles. n'est autre chose le roi lui-meme déifié de son vivant. » Notice des Monuments Egyptienne au Musée du Louvre. De ROUGE ; Paris, 187٤, p. 20.

الملكية والسيادة الالهية — رمسيس الفرعون يحرق البخور أمام رمسيس
الاله .

أما عن الباقي فمن الأسلم استنتاج أنه لم يكن أفضل ولا أسوأ من
انطباق المبدأ العام المعروف عن الطغاة الشرقيين ألا وهو أنه لا يعرف
الرحمة في الحرب ، مسرفاً في السلم ، متكالباً على الغنيمة ، وسخياً في
ممارسة القوة غير المحدودة، وكان هذا الكبرياء مع هذا الطغيان يتوافقان مع
الأسبقية التي تعود الى الأزمنة القديمة ، وطبيعة العصر الذي عاش فيه .
ولا شك في أن المصريين قد اعتقدوا بأن هلكهم كان على الدوام الها .
فكتبوا عنه الترانيم (١) ورفعوا اليه الصلوات ، واعتبروه الممثل الحي
للألهية . وكان أمراؤه ووزراؤه يخاطبونه عادة بلغة العبادة . وحتى
زوجانه المقروض أنهن يعرفنه جيداً ، تم تصويرهن وهن يقدمن الأعمال
الدالة على التقديس الديني أمامه . اذن ما الذي يثير دهشتنا عندما يعتقد
هذا الرجل أنه إله ؟

(١) انظر : ترنيمة موجهة الى الفرعون (مرتباج) ترجمها س . و . جودوين
C. W. Goodwin في مجلة Records of the past المجلد الثاني ، ص ١٠١ .

الفصل السادس عشر

آيو سنبل

وصلنا الى أبى سنبل فى ليلة الحادى والثلاثين من يناير ، وغادرتها عند غروب شمس اليوم الثامن عشر من فبراير ، وقد قضينا من هذه الأيام الثمانية عشر ، أربعة عشر يوما عند أقدام صخرة المعبد الكبير التى يطلق عليها فى اللغة المصرية القديمة اسم : صخرة ابشك • أما الأيام الأربعة الباقية (التى تقع بعد نهاية الأسبوع الأول وقبل بداية الأسبوع الثانى) فقد قضيناها فى رحلة قصيرة الى وادى حلفا ثم العودة • ويتقسيم المدة هكذا أصبحت اقامتنا الطويلة أقل رتابة نظرا لعدم وجود عمل محدود نقوم به •

وفى نفس الوقت أعجبنا أن نستيقظ كل صباح بجوار الضفة المنحدرة دون أن نرفع رؤوسنا عن المخلدة لكى نرى ذلك النصف من الوجوه المعلقة التى تناطح السماء • وكانت تظهر عالية جدا فى ضوء القمر ، بينما تظهر بنصف هذا الارتفاع فى الفجر • وفى تلك الساعة التى تمثل أنسب ساعات اليوم كانت التماثيل تبدو فى حالة ساكنة ولكنها أكثر روعة • وعند اشتداد حرارة الجو ، كانت هذه النظرة الثاقبة ومضة تتصاعد وتعمق مثل انبعاث ومضة الحياة ، حتى ان هذه الوجوه ظهرت وكأنها تنزهج ، وتبتسم ، وتتجلى • وبعد ذلك ظهرت شرارة مثل شرارة الفكر نفسها • وكانت هى الشرارة الأولى لشروق الشمس وقد استغرقت أقل من ثانية واحدة ، وذهبت قبل أن يقول الانسان انها هناك • وفى اللحظة التى تلت ذلك ظهر الجبل والنهر والسماء من خلال ضوء النهار المنتظم • والآن نرى التماثيل الضخمة جالسة هادئة ومتصلة فى ضوء الشمس الساطع •

وكنت أستيقظ فى هذا الوقت كل صباح لمشاهدة هذه المعجزة اليومية • اننى أشاهد هؤلاء الاخوة المهيئين كل صباح وهم يبعثون من

الموت الى الحياة ، ويتحولون من الحياة الى أحجار منحوتة • وغالبا ما كنت ألزم نفسي بالاعتقاد أخيرا بأنه سرعان ما يأتى يوم سواء أكان عاجلا أم آجلا ، عندما تتنحى البهجة القديمة جانبا ، فيقوم هؤلاء العمالقة ويتحدثون •

وليس هناك ما هو أصعب من رؤية هذه التماثيل الضخمة بوضوح مع هذا المظهر المهيّب • وإذا وقف المشاهد بين الصخرة والنهر فإنه يقترب منها اقترابا شديدا ، أما اذا وقف فوق الجزيرة المقابلة فإنه يبتعد عنها بعدا شديدا ، بينما لا يشاهد وهو فوق المتحدر الرملى الا منظرا جانبيا • ومع الحاجة الى موقع مناسب للمشاهدة كان السياح لا يرون شيئا فيما عدا تشوهات أكمل وجه سلمه لنا الفن المصرى ، مما يجعل بعضهم يتعرف فى هذه التماثيل الى الملامح الزنجية ، بينما يتعرف سائح آخر على الملامح المغولية (١) بينما يتعجب سائح ثالث للاخلاص الذى تدل عليه « الخصائص النبوية » •

والحقيقة أن رأس الملك الشاب ليست موضوعة فى قالب اعلى . لأن هذه التماثيل تمثل صورا شخصية لنفس الرجل مكررة أربع مرات . وهذا الرجل هو رمسيس الثانى •

(١) يعتقد الرحوم الفايكاونت ٠١ روجيه فى خطاب أرسله الى مسير M. Guignaut عند ظهور اكتشافات تانيس أنه لاحظ الملامح السامية فى الصور الشخصية لرمسيس الثانى وسيتى الأول ، ويخمن أن فراغة الأسرة التاسعة عشرة ربما يكونون قد انحدروا من سلالة الهكسوس • واليك ما ذكره فى هذا الصدد :

«L'origine de la famille des Ramsés nous est jusqu'ici complètement inconnue : sa prédilection pour le dieu ou *Sutech*, qui éclaire dès l'abord par le nom de Sétî 1^{er} (*Sethos*), ainsi que d'autres indices, pouvaient déjà engager à la reporter vers la Basse Égypte. Nous savions même que Ramsés II avait épousé une fille du prince de khet quand le traité de l'an 22 eut ramené la paix entre les deux pays. Le profil très-décidément sémitique de Sétî et de Ramsés se distinguait nettement des figures ordinaires de nos Pharaons Thébains». (See *Revue Archéologique*, vol. ix, A.D. 1864).

وفى نفس الخطاب يشير مسير روجيه الى فخامة «عبد الاله سوتخ الذى أعيد تجديده فى تانيس (صان الحجر) بمعرفة رمسيس الثانى ، والى حقيقة أن الاله المرسوم هناك يلبس غطاء الرأس الشاذ الذى يرتديه أمير خيتا فى موضع آخر • ولابد أن نتذكر أن آمون رع هو حامى رمسيس الثانى • أما تكريمه للاله سوتخ (الذى من المحتمل أن يكون ارضاء لزوجته الحيثية) فيبدو أنه يقتصر فقط على مدينة تانيس التى من المفروض أن الاميرة الحيثية («اعت - ايرى - نفرو - رع) تسكن فيها •

والآن ، فان رمسيس الأكبر لو كان يشبه هذا التماثيل الأربعة المتشابهة فلا بد أنه ضمن أكثر الرجال وسامة - ليس فقط في عصره بل على مدى التاريخ . وحيثما تقابلنا معه سواء في التمثال الساقط في منف أو في التمثال المقطوع الأطراف Syento torso بالمتحف البريطاني ، أو بين النقوش البارزة العديدة بمعابد طيبة وأبيدوس والقرنة وبيت الوالى ، فان ملامحه دائما متشابهة (بالرغم من أن بعضها يحمل مظاهر الشباب وبعضها الآخر يحمل ملامح النضج) : الوجه بيضوى ، والعيون مستطيلة وناتئة ، وأجفانها سميكة . أما الأنف فهو معقوف قليلا ومضغوط عند طرفه المدبب . أما فتحتا الأنف فانهما واسعتان وحساستان ، والشفة السفلى بارزة ، بينما الذقن قصيرة ومربعة .



وهنا رسم مأخوذ عن رسم غائر في بيت الوالى . والموضوع مسجل لتخليد ذكرى أولى حملات الملك رمسيس، ويمثل شابا غير ملتح ملطخ الوجه بغبار المعركة ويمسك بأحد الأسرى من شعر رأسه ، ويرفع الصولجان الملكى لكى يقتله به . وفى هذا الوجه الرقيق الذى يعوزه امتلاء وهدوء الصور الشخصية الأخيرة ، نعرف على كافة السمات التى تميز بها رمسيس الأكبر .



وهنا نجد للسرة الثانية رسما من أبيدوس يظهر فيه الملك ماتحبا بلحية الشباب ، وقد تجاوز السن التى يبدو عليها فى الصورة السابقة بثلاث أو أربع سنوات ، وذلك بالرغم من أنه لم يتوقف بعد عن ارتداء الازار الذى يرتديه الشباب .



ومن الضرورى أن نقارن بين هذين الرأسين بالرسم الجانبي لاجد الأعمدة الضخمة التى على شكل امرأة داخل معبد أبى سنبل الكبير . ثم نقارن بين هؤلاء الثلاثة وبين احدى الصور الضخمة التى فى واجهة البناء ، وسنجد أن هذه الأخيرة بصرف النظر عن اعتبارها أعجوبة من حيث الحجم ودقة رسم الأشخاص ، الا أنها تمثل قمة ما وصل اليه فن النحت المصرى . ان ملامحه متطابقة مع الرأس المرسوم فى بيت الوالى . ولكن الخطوط الخارجية مختلفة . وقد زاد عمر الملك بحوالى خمسة عشر أو عشرين عاما . لقد تجاوز عنفوان ذلك الشباب المبكر ولم يعد مندفعاً بل معتدلاً ، وهادئاً فى مثل هدوء الآلهة ، مع رفعة تتجاوز طاقة البشر ، واردة راسخة . وهذه السمات كلها بكاد ينطق بها الحجر المنحوت . لقد نعلم الايمان بأن بطولته لا تقاوم ، وأن ذاته مقدسة ، وأنه اذا رفع ذراعه اليوم للقتل فانها ستكون فى مثل وداعة الملاك المهلك .



منظر جانبي لوجه رمسيس الثاني
(مأخوذ عن التمثال الواقع في أقصى معبد ابي سنبل)

أما الرسم الملحق المحفور على الخشب فإنه يعطي التمثال الذي في أقصى الجنوب - وهو التمثال الوحيد الكامل تقريباً من بين التماثيل الأربعة - الشكل الجانبي للوجه . أما التمثال الأصلي فلا يمكن رؤيته كاملاً من أية نقطة فيما عدا نقطة واحدة ، وهذه النقطة هي التي يتلاقى عندها المنحدر الرملي مع الدعامة الشمالية للواجهة على مستوى متواز

مع ذقون التماثيل . ومن هنا تم رسم الشكل الجانبي الذي قدمناه الآن .
أما المنحدر الرملي فهو شديد الانحدار وغير متماسك وشديد الحرارة .
بالنسبة لأقدام المشاهدين ، ويندر وجود منحدر يصعب تسلكه مثل هذا
المنحدر حتى في بلاد النوبة ، ولكن لا يستطيع أى سائح يرفض القيام
بمواجهة مثل هذه العقبة الصغيرة أن يدعى رؤية وجوه التماثيل .

أما إذا نظرنا من أسفل ، فإن هذه اللوحة الجميلة تقصر أبعادها من
ناحية نسب المنظور ، فتظهر متسعة أكثر من اللازم في المسافة التي تقع
ما بين الأذنين ، بينما تظهر الشفاه والجزء السفلي من الأنف بحجم أكبر
نسبيا من بقية الملامح ، وربما يقال نفس الكلام عن التمثال العظيم بالمتحف
البريطاني فهو محبوبس في نهاية ممر ضيق ومرتفع عن سطح الأرض
بمسافة لا تزيد على خمسة عشر قدما . لقد تم وضعه بعناية حتى يبدو
الوضع خاطئا من جميع الزوايا ، ومعبرا عن سوء عرض التمثال من كافة
الأركان .

لم يواجه الفنانون الذين طوعوا التماثيل الأصلية أية صعوبة من
جهة ضبط الأبعاد ، ولم تهددهم أية صعوبة فيما يتعلق بنسب الرسم .
إن هؤلاء الذين نحتوا هذه التماثيل العملاقة من الصخر الصلب ، ومنحوها
القوة والجمال اللذين يفوقان إدراك البشر ، كانوا هم أنفسهم عمالقة ،
ولم ييئسوا عن كتل الأحجار أو الصخور المأخوذة من المحاجر لإقامة
تماثيلهم ، ولم يقيموا نماذج من الصلصال ، ولكنهم اختاروا جبلا وانكبوا
عليه مثل المردة وأخذوا يثقبونه وينحتونه كما لو كان ثمرة من ثمار
الكريز ، ثم تركوه لكي يقف رجال الأجيال القادمة في بلاهة ، مشدوهين
أمام عظمة هذه المعجزة إلى الأبد ، ثم شقوا في بطنه قاعة ضخمة وخمس
عشرة حجرة فسجية . ثم هذبوا حافة الجرف الذي يتجه نحو النهر ،
وقطعوا أربعة تماثيل ضخمة متجهة بوجوهها نحو مشرق الشمس ، اثنان
منها إلى يمين المدخل ، واثنان إلى يساره لكي يقوموا بالمراقبة إلى نهاية
الزمان .

إن هؤلاء الحراس الذين يجلسون بارتفاع ستة وستين قدما أعلى
المنصة التي تحت أقدامهم ، يبلغ عرض صدر كل منهم ٢٥ قدما ،
٤ بوصات . وتبلغ المسافة من الكتف إلى الكوع ١٥ قدما ، ٦ بوصات ،
ومن الجانب الداخلي لفصل الكوع إلى طرف الاصبع الوسطى ١٥ قدما .
وهكذا يجري حساب القيم النسبية ، حتى أنه لو قدر لهذه التماثيل الوقوف
فإن ارتفاعها سيبلغ ٨٣ قدما من باطن أقدامها إلى قمة تيجانها المزودة
الضخمة .

لا يوجد في تراث النحت المصرى كله شيء تصل روعته الى مثل تلك
 اللوعة التي تعامل بها فنانون أبى سنبل مع الأطنان من المادة الحجرية التي
 أعطوها هذا الشكل الانساني . واستطاعوا كاساتذة أصحاب تأثير أن
 يعرفوا بالتحديد ما يجب أن يفعلوه وما يجب أن يتركوه . لقد كانت هذه
 التماثيل شخصية ، ولذلك فرغوا من نحت رؤوسها الى أعلى نقطة فيها
 وجعلوها متناسبة مع حجم الجسم ، ولكنهم نظروا الى الجدوع والأطراف
 السفلية من وجهة النظر الزخرفية وليس باعتبارها أجزاء من التماثيل .
 أما من وجهة النظر الزخرفية فقد كان من الضروري لهذه الأطراف
 أن توفر للواجهة مظهر الضخامة والهيبة . ونتيجة لذلك أصبح كل شيء
 هنا ثانويا بالنسبة لاضفاء التأثير باتساع وضخامة البناء . ومع هذا الاعتبار
 بلغت التماثيل القمة في التنفيذ . انها تجلس متجاوزة بعضها الى جانب
 البعض الآخر في وضع هادى ومهييب ، وقد تباعدت أقدامها قليلا بينما
 استراحت يدا كل تمثال على ركبتيه . وتظهر السيقان الضخمة فى الوُضع
 الذى هى عليه ، رديئة المحيط بالقياس الى أعمدة الكرنك الضخمة .
 أما وصلة رباط الركبة ، واستدارة سمانة الساق والخطوط الخارجية
 لقصبه الساق الطويلة فانها تبدو طبيعية أكثر منها مكتسبة . أما أطراف
 ومفاصل أصابع القدمين فهى منحوتة بنفس الأسلوب الجرى . وجرى
 تنفيذ أصابع اليدين بشكل عام علما بأنه لا يظهر منها الا أطرافها وذلك
 لأن الناظر إليها يراها من أسفل .

تكشف الوجوه عن نفس ضخامة الشكل ، والذقن الصغير الذى
 يعطى مثل هذه الرقة لجانبى القم ، والعمق السطحي الذى فى شحمة
 الأذن ، كل ذلك يمثل فى حقيقة الأمر تجاوير دائرية فى مثل حجم
 فناجين القهوة . ويمكنك أن تتأمل فى كيفية تناسب هذه المعالجة مع رقة
 وروعة التنفيذ بالنظر الى الرسم التخطيطى ، وستجد أن الأنف المرسوم
 فى الشكل الجانبى للوجه يبلغ طوله ثلاثة أقدام ونصف القدم . كما
 يبلغ عرض القم نفس هذا المقدار . وحتى فتحتا الأنف اللتان يبدو أنهما
 تتمددان مع نسمة الحياة ، يتجاوز طولهما ٨ بوصات . أما الأذن (العالية
 والمنفصلة عن الرأس بدقة) فيبلغ طولها ٣ أقدام ، ٥ بوصات من القمة
 الى الطرف المدبب .

ويرى كاتب حديث الجهد كان قد أثار هذا الموضوع (١) أن النحاتين المصريين لم يحددوا عملهم قبل التنفيذ ، وإذا صدق هذا القول فإن المجزأة هنا تكون أشد روعة . لأن الرجال الذين يعملون في مادة يمثل هذه الصلابة ومثل هذه النعومة لم يستطيعوا فقط اصفاء هذا الجمال والتشبيب الرائع للرؤوس التي تبلغ هذا الحجم ، بل استطاعوا أيضا باستخدام الأدوات البدائية أن ينحتوها من الصخر الطبيعي وهم بذلك وفي الحقيقة مايكل أنجلو عصرهم .

وقد قيل مؤخرا أن تمثال رمسيس الذي في اتجاه الجنوب هو الذي في جالة أفضل . وان كانت ذراعه اليسرى ويده قد تعرضتا للأذى ، كما أن رأس الجية المنحوتة على مقدمة التاج قد ضاعت ، ولكن بالرغم من هذه الاستثناءات فإن التمثال كامل ، وسليم البسطح ، وواضح التفاصيل ، مثلما كان في اليوم الذي استكمل فيه .

أما التمثال التالي له فإن وسطه محطم ورأسه ساقط عند قدميه . ومدفون حتى نصفه في الرمال .

أما التمثال الثالث فهو سليم مثل الأول . أما الرابع فقد فقدته منه اللحية بكاملها والجزء الأكبر من الجية كما أن ذراعيه الاثنتين مكسورتان .

(١) « *L'absence de points fouillés, la simplification voulue,* »

la restriction des détails et des ornements à quelques sillons plus ou moins hardis, l'engorgement de toutes les parties délicates, démontrent que les Egyptiens étaient loin d'avoir des procédés et des facilités inconnus. » — *La Sculpture Egyptienne*, par EMILE SOLDI, p. 48.

« Un fait qui nous paraît avoir du entraver le progrès de la sculpture, c'est l'habitude probable des sculptures ou entrepreneurs égyptiens d'entre prendre le travail à même sur la pierre, sans avoir préalablement cherché le modèle en terre glaise, comme on le fait de nos jours. Une fois le modèle fini, on le moule et on le reproduit mathématiquement définitive. Ce procédé a toujours été employé dans les grandes époques de l'art ; et il ne nous a pas semblé qu'il ait jamais été en usage en Egypte. » — *Ibid.* p. 82.

ويتفق مسيو سولدي أيضا مع الرأي القائل بأن النحاتين المصريين كانوا يجهلون استخدام الكثير من الأدوات المفيدة المعروفة بالنسبة للاغريق والرومان والنحاتين الحديثين مثل فروخ الصنفرة وسن الماس . الخ . الخ .

مع وجود ثقب غائر كبير في مقدمة الجسم • وبخصوص التاج المزدوج على رأس التمثالين الأخيرين فإن الزخرفة العليا مفقودة • وهي تبدو كما لو كانت مجرد مقبض ولكن ارتفاعها يصل الى ثمانية أقدام •

ويتلخص تأثير حجم هذه التماثيل الأربعة على عقل المشاهد في أنه نادرا ما يلاحظ الكسور التي تحملت الثقل ، وأنا لا أتذكر إبنى لاحظت رأس وجسم التمثال المحيط ، بالرغم من أنه لم يبق منها شيء فوق الركبتين ، وتغطي النقوش القديمة هاتين الساقين والقدمين الكبيرتين (١) وبعض هذه النقوش ذات أصل اغريقي ، وبعضها الآخر يعود الى أصل فينيقي ، وهي ترتفع فوق رؤوس الذين ينظرون اليها من أسفل بالرغم من أنهم نادرا ما يفكرون في النظر الى أعلى •

هذه التماثيل عارية حتى الوسط ، ترتدي الازار ذا إثنين المعتاد ، بينما تضع على رؤوسها التاج المزدوج ، وتحلى أعناقها الصدريات الثمينة المرصعة بفصوص الأحجار الكريمة • والأقدام عارية بدون صنادل، والأذرع بدون أساور • ولكن هناك ثقوبا عميقة في الحجر في مقدمة الجسم حيث كان يوضع الجزام المعتاد وشبكة كما لو كانت قد جفرت لوضع مسامير برشام مع افتراض أن الأحزمة كانت مصنوعة من البرونز أو الذهب • أما على الصدر وتحت الصبدرية تماثيا وعليه الجزء العلوي من كل ذراع فبعد نحتت أشكال بيضية عظيمة ، يتراوح طول الواحد منها ما بين أربعة الى خمسة أقدام تمثل الخراطيش العادية للملك • ومن المحتمل أن تكون وشما مرسوما على جسمه •

(١) نقش على الساق اليسرى لهذا التمثال النص الاغريقي المشهور الذي اكتشفت السيدتان بانكس وسانت ، ويعود تاريخه الى عصر بسماتيك الاول ، ويفيد بأنه قطع بواسطة شخص معين يسمى داميرشون وهو أحد الجنود الذين بلغ عددهم ٢٤٠ ألفا الذين ذكر هيرودوت (في الكتاب الثاني الفصلين ٢٩ ، ٣٠) أنهم قد هربوا لأنهم حجزوا في حامية سين لمدة ثلاث سنوات دون تسريح • وقد أورد كتاب رولينسون عن هيرودوت ترجمة النص التي قام بها كولونيل ليك (الجزء الثاني - ص ٢٧) وهي كما يلي :

« بعد أن جاء الملك بسماتيك الى الفنتين فإن هؤلاء الذين جاءوا مع بسماتيك كما كتب ابن ثيوكليريس قد أبحروا وجاءوا الى أعلى كيركس حيث يرتفع مجرى النهر ٠٠٠ أمازيس المصري ٠٠٠ والكاث هو داميرشون بن أموبيكوس وبيليوس (بيليكوس) بن أوداموس » • واسم بسماتيك هنا مميز في النقوش باسم بسماتيك الاول • ولذلك فإن الهروب العسكري الكبير قد حدث في عصره وليس في عصر بسماتيك الثاني كما كان يظن البعض من قبل •

لقد افترض البعض أن هذه التماثيل كانت ملونة في الأصل ، وأن الألوان قد زالت بسبب زحزحة وهبوب الرياح المكتسحة ، ولكن الاكتساح وصل الى ذروته عندما اكتشف بورخارت هذا المكان سنة ١٨١٣ ، ويبدو أنه لم يلاحظ آثارا للألوان على الرأسين اللذين كانا بارزين على السطح . ولم تستطع العين الفاحصة أن تكتشف أى أثر لهذه الطبقة الرقيقة من المونة التي كان يستخدمها المصريون في اعداد السطح للزخرفة . وربما رضى الفنانون باللون الطبيعي للحجر الرملى الذى يظهر هنا عميقا ومتباينا . كما تصادف توافق لون التمثال مع لون الصخرة الفاتح ، ولذلك فهو يجلس مرتاحا مقابل أرضية غامقة اللون . وعند الظهر عندما دخل مستوى الواجهة فى الظل بينما كان ضوء الشمس مازال يضرب فوق التماثيل ، كان تأثير المناظر أخاذا وأصبح فى الامكان رؤيته بكامله من الجزيرة ، شبيها بفص كبير من العقيق المنحوت تحت بارزا .

ويقوم تمثال لاله رع (١) الذى كرس المعبد على اسمه ، على بعد حوالى عشرين قدما داخل فجوة فوق المدخل وقد استند فى كل من جانبيه الى شكل بالنحت البارز للملك فى وضع العبادة . ويأتى بعد ذلك نقش هيروغليفى رائع بعرض الواجهة فوق النقش البارز ، ويتضمن مجموعة من الخراطيش الملكية فوقها افريز مكون من قرود جالسة ، وفوق القروود بعض أجزاء من طنف . ويتجاوز ارتفاع هذه التركيبة كلها مائة قدم . ونستطيع أن نعتبرها نوعا من الزخرفة مع وجود الخراطيش البيضية للملك . وقد لاحظت تحت تلك الزخارف المنحوتة على المنصات وفوق البواب العلامة الهيروغليفية المعروفة بين مجموعة العلامات الدالة على المعادن بأنه يعنى الذهب (نوب Nub) ولكن عندما يتم تصويره مثلما هو ظاهر هنا بدون تحديد فهو يعنى النوبة (أرض الذهب) .

(١) رع هو اله الشمس الرئيسى ويمثله رأس صغير عليه قرص الشمس :

« Ra veut dire faire, disposer ; c'est, en effet le dieu Ra qui a disposé, organisé le monde, dont la matière lui a été donnée par Ptah. » — P. PIERRET : *Dictionnaire d'Archéologie Egyptienne*.

« Ra est une autre des intelligences démiurgiques. Ptah avait créé le soleil ; le soleil ; le Soleil, a son tour est le créateur des êtres, animaux et hommes. Il est à l'hémisphère supérieure qu'Osiris est à l'hémisphère inférieure. Ra s'intarne à Héliopolis ». — A. MARIETTE : *Notice des Monuments à Boulak*, p. 123.

وهذه الاضافة التي لا أعرف أين شاهدها مع ارتباطها بخراطيش رمسيس الثاني (١) قد استخدمت هنا بمفهوم يتعلق بالانساب بمعنى السيادة النوبية .

لقد وصفنا الموقع النسبي للمعبدى أبى سنبل ، وكيف أنهما محفوران فى جبلين متجاورين يفصل بينهما شلال من الرمال ، وتقع مقدمة المعبد الصغير موازية لمسار النيل الذى يتدفق هنا فى الاتجاه الشمالى الشرقى . وقد حفرت واجهة المعبد الكبير فى سفح الجبل فى مواجهة الشرق . وكذلك فان التماثيل الضخمة التى ترتفع فوق مستوى المنحدر الرملى تحتل منظرًا جانبيا من المعبد الصغير وتواجه السفن المذهبة الى شمال النهر . أما عن الجرف الرملى فهو يشبه الأجزاء المتجمدة من نهر الرون ، ويمثلها من حيث الحجم والشكل والموقع ، وكل شيء ماعدا اللون والمادة . وهو محصور بين الصخور فى قمته ، بينما ينفتح كالروحة عند القاع . وهو بهذا المسار الاجبارى ينحدر فى اتجاه الجنوب عبر واجهة المعبد الكبير . ثم يشن الحرب القديمة الخفية هابطا ومكتسحا ومتراكما الى الأبد ، ويعمل فى هدوء وبلا كلل على ملء الحجرات المجوفة ودفن التماثيل العظيمة واحاطة المعبد كله بالرمال حبة وراء حبة ، مثل تابوت ذهبى وبذلك لا يعرف أحد هذا المكان فيما بعد .

وكان قد اقترب من هذه الحالة عند حضور بورخارت (سنة ١٨١٣ للميلاد) وكانت قمة المدخل حينذاك تقع على بعد ٣٠ قدما تحت مستوى السطح . أما اذا كان الرمل سيبلغ هذا الارتفاع مرة أخرى ، فهذا أمر يعتمد على القوة التى ستكافحه . انه يحتاج لازاحته كلما ازداد تراكمه لأنه من المستحيل تفاديه . واذا أعيد الى المناهات غير المحدودة فى الصحراء الغربية فلا يمكن استنفاد المدد الذى يتدفق من أعلى ، وسيظل يتدفق حتى انقضاء الدهر .

وعندما رست فيلة كان الرمل المتراكم قد وصل الى قمة التمثال الذى فى أقصى الشمال ، والى منتصف ساقى التمثال الثانى . أما المدخل فقد

(١) تظهر هذه العلامة فى نقش صغير محفور على صخور جزيرة سهيل فى الشلال الاول ، وهو يسجل الاثر الثانى الذى يمتدح حكم رمسيس الثانى . انظر : Récueil des Monuments للعالم بروجش - المجلد الثانى ، اللوحة رقم ٨٢ ، النقش رقم ٦ .

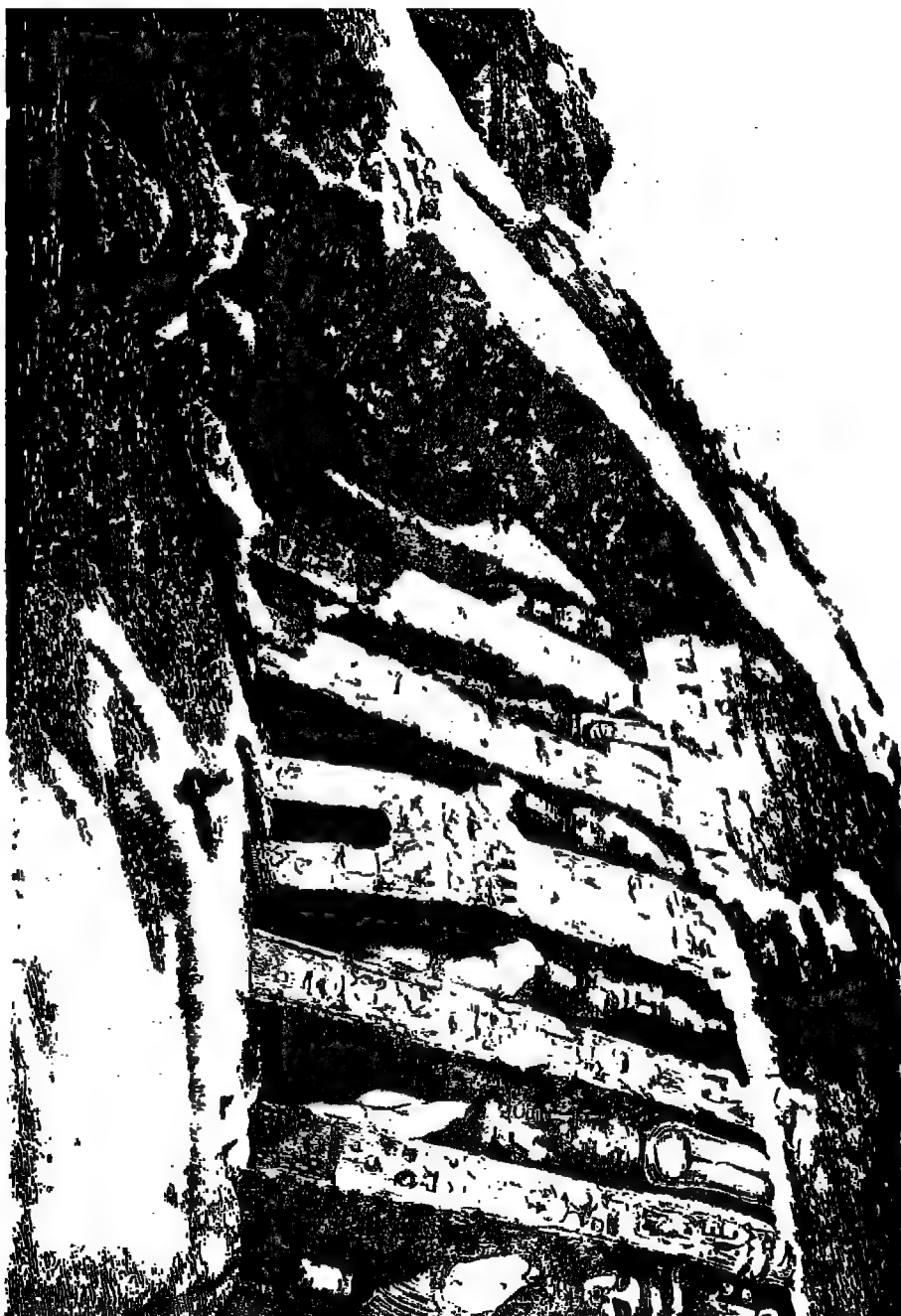
كان خلوا بن الرمال حتى العتبة ، ولم يزد ارتفاع الرمال فى داخل القاعة الأولى عن قدمين • وقد قيل لنا أن الواجهة كلها قد أخلت من الرمال حتى أصبحت عارية تماما ، كما جرى كنس وتنظيف داخل المعبد عندما أبحرت الامبراطورة الفرنسية فى نهر النيل بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ووصلت حتى الشلال الثانى • ومنذ ذلك الوقت تقريبا عادت السجادة الرملية مرة أخرى لكى تفرش كل غرفة بعمق أكبر ، وسرعان ما سدت المدخل مرة أخرى •

كيف أتذكر مدى الاثارة الشديدة التى واجهناها فى يومنا الأول فى أبى سنبل ! عندما كنا نحاول اختيار زوايا مشاهدة المنظر ، ونشرف على نصب الخيام فى الصباح البارد • لقد وضع الرسام خيمته على حافة النهر فى مواجهة التمثال والمدخل الفسيح • أما مؤلفة هذا الكتاب فقد نصبت خيمتها على ارتفاع يقرب من أربعين قدما على حافة المنحدر الرملى • وبذلك تشاهد المنظر الجانبى للواجهة مع اختلاس النظر من مسافة تتيح الرؤية عبر النهر ، علما بأن تثبيت الخيمة فى هذا المكان المرتفع لم يكن بالأمر السهل لأنه تم فقط بغرز عمود الخيمة فى ثقب ملئ بالأحجار حتى يمكن للخيمة أن تثبت فى مواجهة ضغط رياح الشمال التى تهب دائما أثناء هذا الفصل من السنة •

وفى نفس الوقت كان السياح القادمون على سطح الذهبيات الأخرى يسرون مسافة طويلة للأمام والخلف بين المعبدین ، وهم يملأون الجو بضحكاتهم التى تبعث أصدا غريبة فى الجبال المجوفة • ومع مضى النهار عادوا الى مراكزهم التى نشرت أشعتها واحدا وراء الآخر ، واتجهت نحو وادى حلفا • وعندما اختفوا تماما وأصبح المكان ملكا لنا وحدنا ، ذهبتم لمشاهدة المعبدین •

لقد وجدنا أن المعبد الصغير بالرغم من أنه يظهر أولا للقادم من النهر إلا أنه لا يشاهد الا أخيرا ، ولذلك فإن رؤيته لا تعتبر ميزة بالنسبة للعيون القادمة بعد مشاهدة « بيت رع » و « بيت حتحور » حيث يبدو بالنسبة لهما فى حجم أقل من حجمه الطبيعى ، وهى حقيقة ولكنها أقل أهمية بالنسبة للمعبد الموجود فى قرية الدر • أما القاعة الأولى والتى تبلغ أبعادها ٤٠ قدما طولا ، ٢١ قدما عرضا ، فانها تؤدى الى امر مستعرض تطل عليه حجرتان جانبيتان وقدس أقداس تبلغ مساحته سبعة أقدام مربعة حيث توجد فى نهايته البقايا المحطمة لتمثال يحمل رأس البقرة حتحور • وهناك

مذبح ابي سبتل المصطفى بالكويتية



أعمدة مربعة مثل تلك الموجودة في معبد الدر تحمل ما يجوز أن نطلق عليه اسم سقف القاعة ، بالرغم من أن السقف في الحقيقة هو الجبل المحفور حيه المعبد .

وهناك الكثير من البساطة والرشاقة في هذا التنظيم كما هو في الشكل العام للنقوش البارزة التي تغطي الحوائط والأعمدة ولكن ليس فيها شيء جديد . وعلى العكس من ذلك فإن الواجهة ابتكار جرى . والرسم الملحق بهذا الكلام يغنى عن تقديم صفحات كاملة من الوصف بالنسبة لهؤلاء الذين لم يشاهدوا المكان . ومن الصعب كذلك أن نصفه بالكلمات . وهنا نجد أن الواجهة كلها ليست الا اطارا يحيط بست فجوات يبرز من كل منها تمثال ضخم شبيه بالانسان الحي ويبدو كأنه يمشى الى الأمام خارجا من قلب الجبل . وتقف هذه التماثيل بالنسبة للمدخل بمعدل ثلاثة الى اليمين وثلاثة الى اليسار، ويبلغ ارتفاع كل منها ثلاثين قدما . وتمثل رمسيس وزوجته الملكة نفرتارى ، وبالرغم من أنها مشوهة الا أن تماثيل الملك مقعمة بالحياة وتماثيل الملكة مليئة بالرشاقة . وترتدى الملكة على رأسها (قرص الشمس بين قرني البقرة) تاج الالهة حتحور ، أما الملك فهو يرتدى تاج اللباد (التاج الأبيض) مع خوذة غريبة مزينة بالأجنحة والقرون . وهما يصحبان أطفالهما معهما . الملكة معها بناتها ، والملك معه أولاده . ويبلغ ارتفاع الأطفال عشرة أقدام بحيث تصل رؤوسهم الى مستوى ركة الأبوين .

تشكل جدران هذه الفجوات الثلاث وهي تتبع انحدار الجبل ، دعائم ضخمة يظهر تأثيرها العجيب في الضوء وفي الظل . ويعطي المدخل تأثير الشرفة التي شاهدها سواة في مصر أو في النوبة . أما النقوش الهيروغليفية العظيمة التي تغطي وجوه هذه الدعائم ومقدمة هذه الشرفة فهي منحوتة في الصخر بعمق يصل الى نصف قدم ، وكبيرة الحجم لدرجة تسمح بقراءتها من الجزيرة التي في وسط النهر . أما القصة التي تحكيها فهي القصة المكررة في الطرازات المصرية القديمة المختلفة والمدونة على الأطر التي تحيط بالفتحات أو الأبواب ، وهي قصة فريدة ومثيرة .

تقول الأسطورة الخارجية : « أقام هذا المسكن المقدس رمسيس القسوى فى الحقيقة ، محبوب آمون – لزوجته الملكة نفرتارى التى يحبها » (١) .

وبعد أن تعدد الأسطورة ألقاب الملك تذكر أن « زوجته الملكة التى تحبه نفرتارى محبوبة ماعت ، قد بنت لأجله هذا المسكن فى جبال المياه العظيمة » .

ونجد اسمى رمسيس ونفرتارى متلازمين وغير منفصلين على كل عمود ، وفى كل فعل تعبئى منقوش على الحوائط ، وحتى فى قدس الأقداس ، وربما استطاع الإنسان أن يكتشف فى هذه الهبة المتبادلة وفى رقة الطراز غير المألوف ، آثار بعض الأحداث التذكارية التى ضاعت معالمها الى الأبد . ربما كان لقاء ، أو وداعا . وربما كان صلاة استجيبت ، أو نذرا تحقق . وعلى كل حال ، فأننا نرى أن رمسيس ونفرتارى أرادا أن يتركا خلفهما سجلا خالدا عن الحب الذى جمع بينهما على الأرض والذى يأملان أن يجمع بينهما أيضا فى السماء .

ما الذى نريد أن نعرفه أكثر من ذلك ؟ لقد رأينا أن الملكة كانت رقيقة (٢) وأن الملك كان فى قمة عظمته . اننا نقدر الباقى ، وكذلك فإن الشعر المدون فى هذا المكان يخصصنا فى جميع الأحوال . وحتى فى هذه العزلة الموحشة فإنه تهب علينا نسائم من شواطئ الخيال القديم . ونشعر بأن الحب قد مر من هنا يوما ما ، وأن الأرض التى وطأها مازالت أرضا مقدسة .

(١) بالرغم من أن هذا المعبد كان هبة من الملك رمسيس للملكة نفرتارى . ومن الملكة نفرتارى للملك رمسيس ، إلا أنه قد أقيم أصلا تحت حماية حتحور أعظم نموذج للأمومة المقدسة . وتمثلها الملكة نفرتارى التى تظهر فى الواجهة كأم لستة أطفال وتتجمل بصفات الآلهة . ومن وجهة النظر الدينية نجد أن معبد حتحور هو المعبد المطابق لمعبد رع . ويذكر مسيو مارييت فى كتابه : Notice des Monuments à Boulak عن حتحور أن وظائفها موجودة ولكنها غير معروفة لنا تماما وفى ذلك يقول : « Peut-être était-elle à Ra ce que Maut est à Ammon, le recipient où le dieu s'engendre l'ui-même pour l'éternité ».

(٢) لا يستطيع الإنسان أن يتحدث كثيرا عن جمال رأس أنثى فى رسم جدارى مصرى ، ولكن يتضح من هذه الصور التى تمثل الملكة والتى تكررت مرات كثيرة فوق حوائط القاعة الأولى بمعبد حتحور ، أن الملكة لو لم تكن تتمتع بالجمال الإيجابى حسب مفاهيمنا الغربية فأنها تمتعت بالكثير من الحلاوة والكثير من الرقة . واسم نفرتارى =

وهرولنا الى المعبد الكبير دون أن ننتظر لفحص تفاصيل المعبد الصغير . وكان هناك ضوء خافت يخيم على القاعة الأولى والظلام يلف كل شئ خلفه . وقد أقيمت ثمانية تماثيل أربعة الى اليمين وأربعة الى اليسار ، تنبج الى وسط القاعة ، حاملة الجبل فوق رؤوسها ، ويبلغ ارتفاعها خمسة وعشرين قدما . وقد وضعت التماثيل أيديها متقاطعة على صدورهما وهي تمسك بالعصا والصولجان رمز العظمة والسلطان . وهذه الهيئة هي هيئة أوزوريس ، ولكن الوجه هو وجه رمسيس الثاني . وتبدو التماثيل عند رؤيتها من خلال هذا الضوء الخافت الظليل والمحزن والمهييب ، كما لو كانت قد تذكرت الماضي .

وتقع قاعة ثانية خلف القاعة الأولى محمولة على أعمدة مربعة . وتقع خلف هذه الصالة أيضا حجرة أفقية غطيت حوائطها بنقوش بارزة لنعديد من الآلهة . وفي النهاية يأتي قدس الأقداس . وهنا تجلس أربعة تماثيل متجاورة أكبر من الحجم الطبيعي تمثل الآلهة بتاح - آمون رع - رع ، ورمسيس المؤله . وأمامهم مذبح على شكل هرم مبتور الطرف ، منحوت من الصخر الصلد . وما زالت آثار الألوان باقية على ثياب التماثيل وقد ظهرت في الحوائط على كلا الجانبين ثقب وأخاديد ربما حفرت لتثبيت ستارة معدنية .

كان الهواء في الهيكل ثقيلا مع رائحة لاذعة كما لو كان الكهنة قد أحرقوا بعض البخور الغريب ثم ذهبوا لتوهم من المكان . ونحن ندين بهذا الوهم للزوار الذين كانوا قبلنا لأنهم أشعلوا شريطا من الماغنسيوم لإضاءة المكان . وكان دخانه ما زال باقيا في هذه القاعات المخلقة .

= يعنى الرفيعة الكاملة والطيبة والجميلة . والحقيقة هي أن هذا الجمال والطيبة لابد أن يكونا صفتين مترادفتين ، وليس لهما فقط مجرد الاهمية التي تظهر من وجهة النظر الفلسفية الرفيعة . ولكنهما تكشفان عن القوة الكامنة في ذلك المذهب الذى جرى تعليمه فيما بعد في المدارس الاسكندرية وأدى الى مثل هذه النتائج الواضحة ، وعنه يتضح لنا أن كلمتى الحقيقة والعدل مترادفتين وتحملان نفس المعنى .

وهناك معنى طريف عن أسماء الاعلام المصرية التي تذكرنا بالأسماء التي استخدمت في انجلترا تحت مظلة الكومنولث ولتأخذ مثلا الاسم باك - ان - خونسو ، أى (خادم خونسو) ، با - تا - آمون أى (هبة آمون) ، رينتا نفر ، أى (عام سعيد) ، حورس ابن غير شو . وهناك أسماء طويلة ولكنها تبين العلاقة بالآلهة مثل : القطع التي أمام الـ ٠٠ الخ الـ ٠٠ الخ .

ولذلك كان من الصعب أن نستقر هنا وهناك لاجراء تحقيق ثابت حول نقوش الجدران ولم نحاول ذلك ، وأخذنا نتجول من قاعة الى قاعة ومن حجرة الى أخرى ، نتأمل أحيانا الأشعة الباهتة التي تدخل من الخارج ، وأحيانا أخرى نتعثر في ضوء حفنة من الشموع مربوطة الى نهاية عصا ، الا أننا فضلنا أن نعيش هذه الانطباعات الأولى المنبعثة من الاتساع العظيم ، والغموض ، والعظمة الموحشة التي تزداد عمقا مع بعض الابهام والشيوع .

ومرت أمام أبصارنا مناظر الحرب والانتصار والعبادة مثل أحداث عابرة . هنا الملك محمولا في مركبة تجرها خيول سميكة تعدو بأقصى سرعتها وقد زينته بأغطية مزركشة فوق سروجها ، أما هو فيسحب قوسه الجبار ويهاجم قلعة منيعة ، وقد طعن بعض المحاصرين بسهامه العظيمة فأنحوا يطلبون الرحمة . انهم من السوريين ، ويتميز بعضهم بأنهم من الحثيين الشماليين . وكانت بشرتهم صفراء وقد ارتدوا الشعر المستعار الطويل واللحية ، والشرايط التي يربطون بها شعورهم والملابس الثمينة ، والعباءات التي بدون أكمام والأحزمة المطرزة بأشغال الابرة التي تلبس فوق الكتف لحمل السيف والتي اعتدنا رؤيتها في تماثيل نينوى، وهناك رجل يسوق الماشية في واجهة الصورة يبدو كما لو كان قد خرج مباشرة من إحدى لوحات المتحف البريطاني . وفي نفس الوقت يظهر رمسيس فوق الزحام مسرعا ، في هيئته الالهية . أما خيوله فمن سلالة خالدة مثل خيول أخيل . أما أولاده وكل أفراد جيشه وعجلاته الحربية وجواده فانها كلها تتبعه . وتكشف كافة المناظر عن الحركة وروعة المعركة .

وبعد ذلك نرى الملك عائدا في هيئته الرسمية يتبعه أسراه في الحرب وقد ربطوا معا في مجموعات وهم يترنحون أثناء سيرهم وقد أزاجوا رؤوسهم الى الخلف ورفعوا أيديهم الى فوق . ولم يكن هؤلاء الأسرى آسيويين ولكنهم كانوا أحباشا ونوبيين يمثلون نماذج صادقة لجنسهم بالشفاة الغليظة ، والأنوف المفلطحة والشعر الأشعث ، ويثير منظرهم الرثاء بدلا من السخرية .

وبعد ذلك نرى الملك رمسيس يقود مجموعة من هؤلاء الأسرى في حضرة آمون رع وموت وخنسو ، ويظهر آمون رع في شكل غريب غير مألوف بلونه الأزرق وأجنحته الطويلة . أما الالهة موت فكانت ترتدى تاج مصر العليا ، أما خنسو ففي ملامحه لمسة دقيقة من المبالغة التي جعلت ملامحه شبيهة بملامح الملك . ومرة أخرى نجد صور رمسيس على يمين ويسار

المدخل في حجم يضاهى ثلاثة أمثال الحجم الطبيعي وهو يذبح مجموعة من الأسرى من جنسيات مختلفة ، وعلى يساره آمون رع وعن يمينه رع حرماخييس (١) وهو يوافق ويتقبل التضحية . وفي القاعة الثانية نرى كالعادة موكب الآلهة المقدسة بتاج ، وخنوم ، وست في عباءات ملونة تظهر غامقة وهم مثل أشباح في لوحة باهتة من النسيج ، بين حوائط المعبر المستعرض ، أما الشيء العجيب في أبي سنبل فهو الموضوع الضخم برسوم على الجانب الشمالى من الصالة الكبرى . انه يمثل جانبا كبيرا من أرض المعركة يغطى مساحة طولها ٥٧ قدما ، ٧ بوصات ، وارتفاعها ٢٥ قدما ، ٤ بوصات وبداخلها ما يزيد على ١١٠٠ شكل . ونجد أن هذا الجانب قد حذف منه صف الخراطيش المتعلقة بالأنساب والأفاعي الصغيره التي تدور حول بقية السقف . وبذلك فان الحائط يمثل بالصور من القمة الى القاع .

ولا شك في أن الوصف الكامل لهذه اللوحة يستغرق عدة صفحات ، لأنها تمثل معرضا خفيا في حد ذاتها . انها لا تمثل عملا واحدا بل حملة كاملة ، لأنها تكشف أمامنا في بساطة روعة وحالة الحرب ، وأحداث حياة المعسكرات وأحداث ميدان المعركة المفتوح . ونرى مدينة الأعداء بأبراجها المجهزة للقتال ، وثالوث الآلهة موت ، وممسكر الحصار وسرادق الملك ، وسير جنود المشاة وقوات العجلات الحربية ، والتحام الحابل بالنابل يبدأ أثناء المعركة ، وفرار المقهورين ، وانتصار الفرعون ، واحضار الأسرى ، واحصاء عدد الأيدي المقطعة ، ومرور نهر خلال الصورة من طرفها الأدنى الى طرفها الأقصى محيطة بالمدينة المحاصرة ، والملك في عجلته الحربية يتبع جمهرة من الفارين بطول الضفة ، وقد سقط بعضهم تحت عجلات العرب ، بينما سقط البعض الآخر في الماء وغرق فيه ، وخلفهم حائط متحرك من حامل الدروع والرماح يتقدم بخطوة منتظمة في صف متلاصق كتفا الى كتف ، بينما تظهر هناك حيث تحتدم المعركة ، العجلات التي انقلبت ، والرجال الذين ماتوا ، أو يعانون من سكرات الموت ، والخيول التي بدون فرسان وهي تجرى في الميدان ، وفي نفس الوقت يرسل المحاصرون كشافين راكبين ، بينما يسوق الفلاحون ماشيتهم الى التلال .

وهناك صف طويل من العجلات الحربية التي تجرها الجياد بأقصى سرعتها ، يشق الموضوع طوليا ويفصل المعسكر المصرى عن ميدان المعركة .

(١) رع حرماخييس يدعى حر - ام - آخت ، فى اللغة القديمة وهو يمثل الشمس

التي تشرق من الأفق الشرقى .

أما المعسكر فهو مربع الشكل ومحاط بحاجز من الدروع ، وهو يحتل سدس مساحة الصورة ويحتوى على ما يقرب من مائة شكل . وقد استطاع الفنان أن يجمع فى هذا الحيز الضيق مجموعة مثيرة من الأحداث : الخيول واقفة فى صفوف وهى تأكل من مذود عمومى ، أو تنتظر دورها وهى تضرب الأرض بحوافرها نظرا لنفاد صبرها ، وبعضها واقدة على الأرض . وهناك أحد الخيول بدون السرج والبلجام يهرول حول الميدان . وهناك حصان آخر يرفس العجلة الحربية الفارغة باستخدام عقبيه الخلفيين وقد اعترضه سائسان . وهناك عدد آخر من السائسين يحضرون جرادل من الماء تتدلى من نير موضوع على عاتق كل منهم . وهناك أيضا ضابط جريح يجلس منعزلا وقد أراح رأسه على يده ، بينما يحضر اليه الضابط المناوب مسرعا لكي يبلغه أخبار المعركة ، وضابط آخر مصاب بجرح بسيط فى قدمه ويقوم أحد الجراحين بعمل غيار على جرحه ، بينما تسرع قصيلتان من المشاة للقيام بنورهما لمعاونة الجنود المشتركين فى المعركة ، وتتقابلان عند مدخل المعسكر مع العجلة الملكية أثناء عودتها من ميدان القتال . وكان رمسيس يسوق أمامه بعض الهاربين الذين وقعوا وقبض عليهم وأرسلوا الى هذا الموقع . وقد وضعت فى أحد الأركان أشياء يبدو أنها قطع كبيرة من اللحم . وبالقرب منها مذبح صغير ومجمرة من الفحم على حامل ثلاثى . وفى مكان آخر يجلس اثنان من الجنود على أعقابهما وبينهما رجل كبير وهما يمسحان أصابعهما فى محتوياته ، مثلما يفعل كل فلاح حتى اليوم . وفى نفس الوقت يتضح أن النظام كان مرعيا لدى المصريين ، وأن الجندى الذى يتجاوز حدود الالتزام كان يتعرض للعقاب باستخدام العصا مثلما يحدث حاليا مع أحفادهما المعاصرين . ونرى فيما لا يقل عن ثلاثة أماكن هذه العادة التى أضيف عليها الزمن جلالا وهم ينفذونها ، فنشاهد الضابط العظيم وهو يرفع عصاه ، بينما يتقبل الشخص المعاقب عقوبته باشمزاز واضح . ويرقد بجوار رمسيس فى وسط المعسكر أسده المستأنس فى رعاية حارسه ، بينما يقف عند الجناح الملكى جاسوس معاد يشعر بالدهشة بينما يتولى الضابط القائم بالحراسة طعنه . والجناح نفسه غريب جدا لأنه ليس خيمة بل مبنى من المحتمل أنه أقيم ارتجاليا من الطوب اللبن ، وبه أربعة مداخل ذات عقود ، ويتضمن فى أحد أركانه شيئا مثل دولاى يدعمه اثنان من الصقور المقدسة . وهذا الشيء الذى يتطابق مع الشعار الهيروغلىفى المستخدم للتعبير عن التكريم أو الاحتفال يقوم بلا شك كبديل عن هيكل صغير مخصص للملك . وهناك خمسة أشخاص راكعون أمامه لأداء العبادة .

وإذا أردنا أن نعدد أو نصف العناصر المهمة في هذه اللوحة المذهلة فإننا نحتاج إلى مساحة أكبر ، ومن المستحيل حتى مجرد رؤيتها خلال الفترة الزمنية المتاحة لنا مع كل المساعدة التي تقدمها لنا الشموع ومصابيح الماغسيوم ، ونجد أن تضاريس الصورة منخفضة على غير العادة ، والسطح الذي كان مغطى بالحصى ، قد غطته آثار الازميل الدقيقة التي تزاخم التفاصيل بشكل يثير الألم . وليس هذا كل شيء ، بل إن نوعاً من الرواسب الطينية المألحة في هذا الجانب من الصخرة قد محا طبقة الجص وكان سبباً في الإضرار بالسطح الطبيعي الذي يبدو متأكلاً متلماً يتآكل الحديد بفعل الصدأ . وهناك بعض المساحات الصغيرة سليمة في بعض الأماكن ومحفوظة بألوانها الأصلية . أما النهر فمازالت تغطيه الخطوط المتعرجة الزرقاء والبيضاء التي تمثل الماء . وهناك بعض المجموعات المتقاتلة كاملة . وكذلك عجبتان حربيتان ملكيتان أحدهما تعلوها مظلة خفيفة مزخرفة بزخارف جميلة ولامعة كما لو كانت قد رسمت حديثاً .

أما الخيول في كل أرجاء اللوحة فهي ممتازة ، ويعبر صف العجلات الحربية عن الانطباع الذي يخلفه تحريك المجاميع ، وتعتبر الخيول التي في معسكر رمسيس من أحسن إنجازات الفن المصري لما تبدو عليه من أشكال طبيعية داخل مجموعة مختلفة من الأوضاع . ويجدر بنا أن نذكر أن هناك فارساً نادراً الوجود يظهر أربع أو خمس مرات في أجزاء مختلفة من الصورة . إن منظر الحملة قد جرى في سوريا ، وكذلك فإن النهر الذي تدل عليه الخطوط المتعرجة الزرقاء هو نهر العاصي ، والمدينة المحاصرة هي قادش (١) والأعداء هم الحيثيون . والحقيقة أن اللوحة كلها صورة تعبر عن قمة الأحداث التي خلدتها قصيدة بنتاؤور ، وهي القصيدة التي وصفها مسيو روجيه بأنها « نوع من الإلياذة المصرية » ولا بد أن المقارنة هنا تدور حول الصورة أكثر منها حول القصيدة . كان بنتاؤور

(١) تسمى كاتيشو في اللغة المصرية القديمة :

« Aujourd'hui encore il existe une ville de Kades près d'une courbe de l'Oronte dans le voisinage de Homs. » *Leçons de M. de Rougé, Professeur au Collège de France. See Mélanges D'Archeologie, Egypt, and Assyr., vol. II, p. 269.*

وهناك ورقة مهمة أخرى بعنوان : حملة رمسيس الثاني ضد قادش The campaign

of Rameses II against kadesh تأليف : ج . هـ . تومكينز ترجمتها مجلة جمعية

أثار الكتاب المقدس Soc. of Bib. Arch. المجلد الثامن - الجزء الثالث - سنة

١٨٨٢ ومنها نعرف أن انحناءة النهر قد هورت بالنقش البارز .

ينتمى الى رجال البلاط في المحل الأول ، وشاعرا في المحل الثاني .
وقد ضحى بكل شيء لابرار عظمة الشخصية المحورية . لقد قصد تعظيم
الملك . أما قصيدته التي تنطوى كلها على المديح فهي تبدأ وتنتهى بالحديث
عن شجاعة الملك رمسيس محبوب آمون . وعلى ذلك يمكن أن تسبى
اليادة ، فهي ملحمة لم تترك شيئا مما يمكن أن يهم أخيل . أما الصورة
فهي على العكس ، بالرغم من أنها تبين البطل في القتال والنصر ، الا أنها
ذات أبعاد ضخمة ، ولم تترك مساحة لجمهور من الشخصيات الصغرى ،
وتتخذ القصص التي تظهر فيها هذه الشخصيات شكل الملحمة . ان
مفاجأة الجاسوس وقتله تشبه قتل دولون بيد أوليس . أما الرجال فهم
يحتفلون ويقاتلون ويصابون بالجراح مثل أبناء أخيا ذوى الشعور الطويلة ،
بينما تأكل خيولهم الشعير الأبيض والشفوفان وهي طليقة بدون سروج .
« وهم فى مثل صلابة عجالتهم الحربية ، ينتظرون ظهور الفجر » .

وقد اهتم الفنان الذى نفذ القطعة الخاصة بالمعركة مثل هوميروس
ايضا بابرار الصفات المميزة للمقاتلين الكثيرين ، فالحيثيون يركب كل
ثلاثة منهم عجلة حربية ، بينما يركب العجلة الحربية المصرية اثنان فقط .
ويمتاز الحيثيون بالشوارب ويرتدون الخوذات فوق رؤوسهم ، بينما
يتباهى المصريون بوجوههم الحليقة ويفطون رؤوسهم بالشعور المستعارة
الثقيلة . أما جنود سردينيا المرتزقة فانهم يطلقون شعورهم الكثيفة ولحاهم
وشواربهم ، وتظهر ملامحهم الأوربية بوضوح ويرتدون أيضا الخوذة
الغريبة التي تعلوها الكرة وقضبان معدنيان مدببان ، وهي الخوذة التي
يمكن عن طريقها التعرف عليهم فى النقوش . ويظهر هؤلاء البيردينيون
فى الصف السفلى القريب من الأرض . وقد تكومت الرمال عند هذه
النقطة ولم تظهر فوق السطح الا قمة خوذة واحدة ، ولما لم نعرف لمن تنتمى
هذه الخوذة ، جعلنا رجالنا يزيحون الرمال فاذا بهم يكتشفون مصادفة
أكثر المجموعات غرابة وأهمية فى الصورة كلها ، وهم السردينيون
(شاردانا فى اللغة المصرية القديمة) (١) الذين كانوا سجناء مجندين
فى صفوف الجيش المصرى ، وهم أول الأوربيين الذين تظهر أسماؤهم فى
الآثار .

« La légion S'ardana de l'armée de Ramses II provenait d'une (١)
première descende de ces peuples en Egypte. « Les S'ardaina qui étaient
des prisonniers de sa majesté », dit expressément e texte de Karnak,
au commencement du poeme de *Pentaur*. Les archéologues ont remarqué
la richesse de leur costume et de leurs armures. Les principales pièces
de leur vêtements semblent couvertes de broderies. Leur bouchier est =

وهناك ساعة واحدة فقط على مدى الأربع والعشرين ساعة يمكن خلالها تكوين فكرة عن التأثير العام لهذا الموضوع الضخم وهى ساءه شروق الشمس . وبعد ذلك ينقضى اليوم فى المدخل وتخفيف ظلمة الأجنحة الجانبية بالضوء المنعكس من الأرضية التى تضيئها أشعة الشمس . وحينذاك يمكن رؤية الأقسام الواسعة من الصورة وتوزيع المجاميع ولكن بشكل معتم .

أما التفاصيل فهى تحتاج الى ضوء الشموع ، ولا يمكن دراستها الا على مراحل تستغرق المرحلة منها عدة بوصات ، ومع ذلك فمن الصعب الوصول الى المجموعات العلوية بدون استخدام السلم . وصعد سلام على كرسى ممسكا بعصوين طويلتين مربوطتين معا حتى استطاع بصعوبة أن يرفع مشعله الصغير الى الارتفاع الذى يتيح للمؤلفة نسخ النقش المدون على البرج الأوسط فى قلعة قادش .

ومن المدهش أن تشاهد شروق الشمس على واجهة المعبد الكبير . ولكن هناك شيئا أروع يحدث فى قلب الجبال فى صباح أيام معينة من السنة ، عندما تظهر الشمس فوق قمم الجبال الشرقية يدخل شعاع طويل من المدخل ويشق الظلام الداخلى مثل السهم ويتسلسل الى الهيكل ويسقط مثل النار النازلة من السماء على المذبح الذى عند أقدام الآلهة . ولا يشك أحد من الذين شاهدوا نزول هذا الشعاع من ضوء الشمس أنه يعطى تأثيرا محسوبا ، وأن الحفر قد اتجه مباشرة بزوايا خاصة بحيث يسمح بمثل هذا الحدث . وبهذه الطريقة يقال ان رع الذى خصص له هذا المعبد يدخل يوميا ، وأنه يقدم بحضوره دليلا على قبوله تضحيات الذين يعبدهونه .

وأقول اننا لم نشاهد نصف النقوش ، أو حتى نصف الحجرات فى نصف هذا اليوم الأول بمعبد أبى سنبل . وأخذنا نتجول هنا وهناك ونحن مندهشون وقانون بمجرد الدهشة مثل القرويين الذين يتجولون

= une rondache: ils portent une longue et large épée de forme ordinaire, mais on remarque dans leurs mains une épée d'une longueur démesurée. Le casque des S'ardana est très caractéristique: sa forme est arrondie, mais il est surmonté d'une tige qui supporte une boule de métal. Cet ornement est accompagné de deux cornes en forme de croissant. ... Les S'ardana de l'armée Egyptienne ont seulement des favoris et des moustaches très courts. — *Mémoire sur les Attaques Dirigées contre l'Égypte, etc. etc.* E. DE ROUGE. *Revue Archéologique*, vol. xvi. pp. 90, 91.

بأحد المعارض . وكان لدينا متسع من الوقت للحضور مرة ثانية وثالثة حتى نحفظه عن ظهر قلب . وكانت الكتابة تدخل باستمرار وفى أى ساعة من الساعات بعد الانتهاء من الرسومات التخطيطية اليومية، بينما كان الآخرون يتمشون أو يركبون القوارب فى برودة بعد الظهر المتأخرة . انه مكان عجيب بالنسبة لمن يزوره منفردا . انه مكان يتميز بالسلام والسكون القديم الذى يبدو فيه الزمن غارقا فى النوم . والشخص الذى يتجول فيه هنا وهناك بين هذه القاعات المغطاة بالنقوش مثل ظل بين الظلال ، يحس بأنه قد ترك العالم خلفه ، وأنه قد تخلص عن التعاليم المعاصرة لى يرتبط بالماضى . ونفس الآلهة تشيع تأثيرها القديم بين هؤلاء الذين يطلبونه فى وحدتهم ، فيشاهدونه فى حلقة ظلمة المساء حيث يظهرون مندمجين فى حياة ما وراء الطبيعة . وكانت هناك أوقات أحسست فيها بضرورة أن أستمع اليهم وهم يتحدثون ، وأن أشاهدهم وهم ينهضون عن عروشهم المزخرفة ويخرجون من الجدران ، وقد مرت لحظات أحسست فيها اننى أتق بهم .

كان هناك شيء شديد الغرابة والروعة يغلف المكان ، وقد اشتدت هذه الغرابة وتلك الروعة مع المضي قدما فى داخله ، حتى اننى نادرا ما جازفت بتجاوز القاعة الأولى عندما كنت بمفردى . وبعد ظهر أحد الايام عندما كان الوقت مبكرا والضوء أوضح مما هو فى العادة ، ذهبت الى الطرف البعيد وجلست تحت أقدام الآلهة فى قدس الأقداس ، وفجأة (لا أستطيع أن أذكر لماذا لأن أفكاري كانت هائمة بعيدا) خطر فى بالى أن الجبل كله يوشك أن يغطى رأسى مثل مغارة ، وقد غشيتنى رعدة فجائية مثل تلك التى يشعر بها الانسان فى الأحلام ، وحاولت أن أجرى ولكن قدمي تسمرت فى مكانهما ، وظهرت الأرض وكأنها تميد تحتها ، وشعرت بأننى لا أستطيع أن أطلب المساعدة رغم أنها كانت ضرورية لانقاذ حياتى . وليس من الضروري أن أضيف أن الجبل لم يسقط على رأسى وأن خوفى لم يكن له أساس من الصحة ، وربما كانت هذه المشاعر تمثل أسلوبا كبيرا للديوت وأسلوبا كبيرا للدفن ، ولم تكن جميع زياراتى للمعبود بمنزلة هذه الروعة ، ففى بعض المرات صحبت معى سلام الذى كان يدخل السجائر عندما لا يكون فى نوبة عمل ، أو يمسك شمعة عندما كنت أرسم نماذج الافاريز وأغطية رؤوس الملوك والآلهة ، وتصميمات القلائد والأساور ، ورؤوس الأسرى وما شابه ذلك . وقمنا فى بعض الأحيان باستكشاف الحجرات الجانبية حيث توجد ثمانية من هذه الحجرات الشديدة الظلمة والمحفورة بزوايا مختلفة . وقد أحيطت اثنتان أو ثلاثة منها بمقعد حجرية محفورة فى الصخر ، وكانت النقوش الهيروغليفية فوق احدها

محفورة جزئيا ومرسومة باللون الأسود ولكنها متروكة دون استكمال .
وينسب هذا التمثال بكامله الى عمل رمسيس الثاني، ولا يحمل أية علامة
تدل على أن أحدا من خلفائه قد أضاف اليه شيئا ، أما هذه العلامات التي
تبين عدم استكمال النقوش فتدل على أن الملك قد مات قبل انهاء العمل .

وقد أحسست دائما بأنه كانت هناك مواضع سرية في هذه الحجرات
المظلمة لم يستكمل اكتشافها . وقد شاركني سلام في البحث عنها .
وسواء في دندرة أو ادفو أو مدينة هابو أو فيلة (١) وجدت سراديب داخل
جسم الجدار والحنيت تحت الأرضيات لحفظ الكنوز وقت الخطر ، ولا بد
أن المعابد المحفورة في الصخر كان بها أماكن مماثلة لاختفاء الكنوز .
وأن هذه الأماكن قد اتخذت شكل خلايا مخبأة في الجدران أو تحت
الأرضيات داخل الحجرات الجانبية .

أما عن الخروج بمفردك من هذه الجحور السوداء الى ضوء الصالة
الكبرى ورؤية المعالم الأرضية كما هي في داخل اطار المدخل العاجي ، فهو
يساوى وحده الرحلة الى أبي سنبل كلها . وفي أوقات غروب الشمس
يبدو أن النهر والجزيرة الرملية الصفراء وأشجار النخيل والطرفاء
المواجهة لها ، وجبال الصحراء الشرقية ، مثل « كبش الغداء » كانت
كلها غنية بالأزهار والذهب مثل المكان .

ومضت أيامنا في أبي سنبل على هذا المنوال . العمال يعملون ،
والكسالى يتكاسلون ، بينما الغرباء من العالم الخارجي يأتون ويذهبون
بين حين وآخر . وكانت الحرارة على الشاطئ شديدة الوطأة خاصة في
الخيام التي نجلس فيها للرسم . ولكن ريح الشمال كانت تهب بانتظام
كل يوم بعد شروق الشمس بمدة ساعة وحتى قبل غروب الشمس بمدة
ساعة كذلك . أما الجو على سطح الذهبية فكان باردا دائما .

وقد استغل الزوجان السعيدان ميزة الريح الطيبة هذه لممارسة
النجديف في القارب . كما رتبوا جولاتهم بحيث يستغلون فترة انتهاء
هبوب الريح للخروج في جولاتهم على أن تتكفل الأذرع القوية لأربعة من
المجدفين باعادتهم مرة ثانية . واستطاعوا بهذه الطريقة أن يشناهدوا

(١) عشر فرلينى سنة ١٨٣٤ على كنز ثمين من الذهب والفضة كان حبيسا في جدار
أحد أهرام مروي في النوبة العليا .
انظر : Lepsius's letters - ترجمها لـ جـ هورنر - نشرت في يونيو سنة
١٨٥٣ - ص ١٥١ .

معبد فريج الصغير المنحوت في الصخر وهو ما افتسده الباقون لسوء حظهم . وفي فرصة أخرى قاموا بزيارة شيخ معين كان يعيش في قرية تبعد حوالى ميلين جنوب أبى سنبل وكان رجلا عظيما كما يذكر كبار النوبيين ، وكان اسمه حسن بن رشوان الكاشف ، وهو حفيد ذلك الذى كان يسمى حسن الكاشف الكبير نائب حاكم النسوبة فى أيام بورخارت وبلزوني . وقد استقبل الزوجين السعيدين بحفاوة بالغة ، وذبح خروفا تكريما لهما ، وأخذ يسامرهما لأكثر من ثلاث ساعات . وكان الغداء مكونا من سلسلة أطباق لا نهاية لها وكلها تشبه الببيع الذى كنا نخشاه فى طفولتنا . واستمر تكرار نفس الصنف تحت ستار خليط من التوبيعات سواء كان لحميا مشويا أو مسلوقا أو مطبوخا أو مقروما ، وسواء جرى تقديمه على أسياخ ، أو مدفونا فى الأرز ، أو مغموسا فى اللبن الرائب . فان الأطباق كلها كانت من لحم الضأن .

لقد يئسنا الآن من امكانية رؤية التمساح،ولولا أن رجالنا اكتشفوا آثاره على الجزيرة المقابلة لكنا أمسكنا عن الاعتقاد فى وجود تماسيح بمصر . وكانت العلامة حديثة عندما ذهبنا لمشاهدتها . وكان التمساح يستدفئ فى الشمس ويجفف نفسه ، فى نفس النقطة التى عاد منها ثانية إلى النهر . أما الرمل الرطب عند حافة الماء فقد اكتسى بتراب مخالبه السمينة الضخمة ، وكذلك السلسلة المبرعة التى تغطي ذيله بصرف النظر عن أن هذا الانطباع الأخير كان مشوها بسبب اندفاعه النهائى نحو الماء . وأشك فى أن روبنسون كروزو عندما شاهد أثر القدم على الشاطئ كان أكثر دهشة منا نحن ركاب الذهبية فيلة عند رؤية هذا الأثر الأصيل والذى لا يمكن انكاره .

أما عن الرجل الكسول فقد قفز مسرعا الى السلاح واستعد للهجوم . وحفر لنفسه قبرا عميقا على بعد ياردات من المكان ، ثم ذهب وورقده فيه عدة ساعات مستلقيا وصابرا وحذرا ، صباحا بعد صباح تحت وهج الشمس ومعه بندقيته جاهزة للانطلاق ، وغطاء النعش فوق ظهره . وإذا كان قد نجا من ضربة الشمس فان هذه ليست غلظته. وكان جزاؤه من جنس العمل؛ لأن التمساح كان أذكى منه وحرص على ألا يعود مرة أخرى .

وفى نفس الوقت فان بحارتنا بالرغم من سعادتهم بهذه العطلة الطارئة ، فقد بدءوا يواجهون الملل فى أبى سنبل ، وطول فترة بقاء الباجستونز كان طاقتهم البهجة يتجمعان معا كل ليلة للرقص والتدخين وغناء مواويلهم الطريفة . ولكن عندما وصلت الشائعات عن الأشياء

العجيبة التي جرت في هذا الشتاء عند وادي حلفا ، وهي الشائعات التي ذكرت أن الشلال الثاني كان مزدحما بالتماسيح ، فان رفاقنا الأوفياء تسللوا في صباح أحد الأيام قبل شروق الشمس وتركوا الذهبية فيلده بدون رفاق .

وفي هذه الظروف ومع رؤية وقت الرجال وهو معلق بين أيديهم ، خطرت في ذهن الرسام فكرة ارسالهم لتنظيف وجه التمثال الذي في أقصى الشمال والذي كان ملطخا بالمصيص الذي ترك فوقه عندما أزال مستر هاى الطبقة الخارجية منذ أكثر من نصف قرن مضى . وقد نفذت هذه الفكرة السعيدة وسرعان ما تم التوصل الى عمل سقالات من القوائم الخشبية والمجاديف ، وأسرع الرجال يحتشدون فوق الرأس الضخم وهم سعداء مثل الأطفال مثلما كان النحاتون يحتشدون فوقه عندما كان رسميس ملكا (١) .

ويتلخص كل ما كان مطلوباً منهم في إزالة أية كتلة صغيرة ملتصقة بالسطح ثم تلوين البقع البيضاء بالقهوة . وقد فعلوا ذلك مستخدمين قطعاً من الاسفنج مربوطة في نهاية عصي طويلة ، ولكن الرئيس حسن أخذ فرشاة قديمة من الرسام وتفاخر بها . واستغرق استكمال هذا العمل فترات بعد الظهر على مدى ثلاثة أيام ، وشعرنا جميعاً بالأسى عند انتهائه وكان منظر الرئيس حسن وهو يتحسس الأنف الضخم الذي يماثله في

(١) هذه الطبقة الخارجية التي ألت للمتحف البريطاني وضعت فوق باب يقود الى المكتبة في نهاية الردهة الشمالية التي أمام السلم . وعلمت من المرحوم مستر بونومي أن خلطة العجينة صنعها مستر هاى الذى أحضر معه مساعداً إيطالياً التقطه من القاهرة وأحضرا معها عدة براميل من الجص وسلمين واخترعوا وسيلة تماثل تلك القوائم والأعمدة التي أخذناها من الذهبية لوضع سقالات وسائر متشابهك للتمثال المصبوب في الجص . وكان التمثال في ذلك الحين مدفوناً في الرمال حتى نلقه مما جعل عملهم أكثر سهولة . وعندما أحضرت الطبقة الخارجية التي كانت على الرأس الى إنجلترا أرسلت الى ستورديس مستر بونومي مع عينة من الطبقة التي كانت على رأس تمثال حيث رهينة ، وعينة من رأس المسلة الساقطة في الكرك ، وعينات من تراب النقوش الجدارية في بيت اللالى . وأشرف مستر بونومي على عمل العجينة ووضع تلك كله في المتحف بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على صنع العجينة . وقد حدث ذلك عندما كان مستر هاركنز في منصب أمين المتحف . وأنا أورد هذه التفاصيل لأنها تهم كافة الذين يعرفون أبى ستبل ، ولأن قدراً كبيراً من سوء الفهم قد أحاط بالموضوع فقد نسب بعض الأسياح تشويه الرأس الى ليسبيوس ، ونسبه آخرون الى شركة كريستال بالاس ، وهكذا حتى ان المؤلفة نفسها قد انتادت للمرحومة ميس مارتينييه فيما نكرته من نسبه هذا التشويه الى شاه بليون .



تنظيف التمثال

الطون ، ومنظر رزق الله ومساعد الطباخ وهما يترنجان هنا وهناك أثناء تنابؤ حمل القهوة التي أعدت « سميكة القوام وصلبة » لتأدية الغرض ، ومنظر سلام وهو يجثم متقاطع الساقين مثل بعض العفاريات المتكبرة فوق الطرف البارز من النطاء العلوى ، ومنظر بقية البحارة وهم يثرثرون ويتقافزون كالقروء حول السقالة • كل هذه المناظر كانت مثيرة للضحك أكثر من كافة المناظر التي شاهدناها في (أبو سنبل) من قبل أو من بعد •

وكانت شهية رمسيس لشرب القهوة تفوق حد التصور ، حتى اننى لا أعرف عدد الجالونات التي استهلكها فى اليوم الواحد وقد وقف الطباخ مذهولا ازاء هذا الطلب الذى استنفد مخزونه من البن ، ولم يكن قد دعى من قبل لتقديم القهوة لضييف يبلغ عرض فمه ثلاثة أقدام ونصف القدم •

وكانت النتيجة تستحق التكلفة • لقد برهنت القهوة على أنها تضارع الحجر الرملي • وبالرغم من استحالة استعادة تناسق السطح الأصلي فقد نجحنا على الأقل في إخفاء تلك البقع الفظيعة التي شوهت هذا الوجه الجميل فجعلته في مثل قبح المصاب بالجذام لسنوات طويلة •

ومع الانشغال بالتجديف والصيد والرقاد في انتظار التماسيح وتنظيف التمثال وكتابة بطاقات على أوراق الخطابات الرقيقة للأصدقاء في الوطن ، قضينا الأسبوع الأول بسرعة معقولة • وفي نفس الوقت كان الرسام والكاتبة يعملان بجهد كل منهما بطريقته ، الرسام على قماش الرسم أمام المعبد ، والكاتبة تنقل خيمتها الصغيرة وهي تقوم بالكتابة، والآن فانه بالرغم من أن أكثر نواحي الحياة بهجة هو الرسم فانه من المسلم به أن الرسام في أبي سنبل يعمل وسط مصاعب عديدة وعلى رأس هذه المصاعب تأتي صعوبة الموقع ، فالمعبد الأكبر يقع على بعد حوالي خمس وعشرين ياردة من حافة الضفة ، بينما يقع المعبد الصغير على مدى أقدام عديدة بحيث يستحيل الابتعاد عن الموضوع • لقد رسمت الكاتبة المعبد الصغير وهي على سطح الذهبية لعدم وجود نقطة على الشاطئ تنظر منها إليه • ويلى ذلك صعوبة اللون ، فكل شيء أصفر اللون ما عدا السماء والنهر • فكان اللون هو الأصفر بكل درجاته متدرجا في ألوان البرتقال والذرة والمشمش والذهب والجلد المدبوغ ، والجبال من الحجر الرملي ، والمعابد من الحجر الرملي ، والمنحدر الرملي يصب الحجر الرملي من الصحراء ذات الحجر الرملي • وفي هذه جميعها نجد نفس مقياس اللون الأصفر • وحتى الظلال التي تلمع في الضوء المنعكس ، تعيد التكرارات المتدرجة للون السائد • ويلى ذلك أن الذي يبذل جهده رغم تواضعه لاستخلاص حقائق المنظر أمام عينيه ، يضطر لتنفيذ ما يسميه رسامونا في هذه الأيام السيمفونية الصفراء سواء عن طيب خاطر أو عن اضطرار •

وأخيرا ، فهناك المضايقات الصغيرة التي تسببها الشمس والرياح والرياح والذباب ، فالمكان كله يشع بالحرارة ، والنور ، والتوهج من أعلى ومن أسفل مع عدم قدرة الانسان على تحمل وطأة ذلك كله •

واستنشقت الكاتبة التي نصبت خيمتها على المنحدر الرملي رائحة احتراق اللحم البشري ، تحت وطأة هذه الحرارة الشديدة وهي زائغة العينين وعاجزة حتى عن النظر الى موضوعها بدون مساعدة النظارة التي

اصبحت بلون الدخان • وعندما تهب الرياح من الشمال (وهو ما يحدث ،
دائما خلال هذا الفصل من السنة) تقل شدة الحرارة ، ولكن الرمال تثير
الغيط • انها تملأ شعرك وعينيك وزجاجات الماء التي معك • وتلقى بالتراب
على صندوق ألوانك ، وتجفف سماءك وتقلل من بيض اللون الأبيض
فتحيله الى لون السلاطة لاختلاطه بالخصي • أما عن الذباب فان شهيته
مفتوحة للألوان المائية حيث يتبع فرشاةك المبللة على الورق ويترك أرجله
في مسحوق اللون الأصفر وتنغمس بشراهة في اللون الأزرق الجاهز
للاستعمال • وكل شيء حلو الطعم أمامه ولا يحمل أي لون السم اليه •
كان وقتا ممتعا بكل المقاييس بالنسبة للذين عملوا والذين استراحوا •
وكان كل شيء يبعث على السرور • ثم انطلقنا الى وادي حلفا •

الفصل السابع عشر

الشلال الثاني

حملنا بطول الطريق من أبى سنبل الى وادى حلفا نسيم عليل ،
وشراع منبسط فى مهب الريح ، واحساس بروعة الاجازة وسعادة غامرة .
لقد بدأنا الإبحار فى وقت متأخر بعد ظهر اليوم الأول ، واستطعنا أن
نقطع مسافة تبلغ حوالى اثني عشر ميلا قبل أن تهدأ الريح ، واستكملنا
مسافة الثمانية والعشرين ميلا الباقية قبل ظهر اليوم التالى ، وكانت هذه
هى آخر رحلة لنا فى النيل والسفينة منشورة الشراع . ورسد فيلة عند
وادى حلفا لكى يتم تفكيكها ، سينزل الشراع الكبير الذى كان موضح
فخرنا ومبعث سرورنا . وستصبح ذهبيتنا برشاققتها وسرعتها مجرد صندل
مكون من ألواح خشبية منشورة أكثر شبها بقوارب النزهة على نهر التيمز ،
منها بسفينة كيلوباترا التى تعمل بالمجاديف . وبعد أبى سنبل بمسافة
قصيرة اخترقت الضفة الغربية سلسلة من الجبال البركانية تشبه فى
ارتفاعها وحجمها وشكلها صفا من أبراج مارتيللو وقد فصلتها عن بعضها
سلسلة من المنحدرات الرملية المتكاملة الشكل . بينما غطت هاماتها
المستديرة طبقة من أغرب الأحجار السوداء فى العالم ، مثل الزبيب
المنثور على سطح الكعكة التى يعرفها تلاميذ المدارس باسم « القبة
السوداء » . ولما كنت قد ارتقيت أكثر من مرة قمة جبل ابشاك
(وهو أول جبل مرتفع فى هذه السلسلة ، وقد تشعبت قمته بنفس
الأسلوب) فقد تعرفنا الى هذه الأحجار ، وعرفنا ما الذى كانت تتشابه
معه ، فمن حيث اللون كانت سوداء أرجوانية تشوبها مساحات حمراء
هنا وهناك . وعند طرقها تصدر صوتا مثل صوت الصخور التى تطلق
شردا عند حكها ببعضها البعض ، أما شكلها فهو غريب . والتقط السيد
(ل) بعضها الذى يشبه عناقيد العنب ، بينما كان بعضها الآخر مبروما
وملتفا مثل حجم بركان فيزوف عند ثورته سنة ١٨٧١ . وكانت متناثرة
على السطح بأحجام مختلفة ، فكان بعضها صغيرا فى حجم حبات الزبيب ،
والبعض الآخر فى مثل حجم ربيع الرغيف . وأنا أقول كما لو كنت من
المنحصرين أن هذه الأحجار تنتمى الى نوعية نارية كانت فى حالة انصهار
تغلي وتموج ثم اصطدمت بوسط شديد البرودة .

ويتسع عرض المنظر عند نهاية السلسلة على بعد حوالى ثلاثة-
أو أربعة أميال جنوبى أبى سنبل ، وتظهر مجموعة من الجبال الخارجية-
متناثرة فوق سهل واسع يمتد لعدة أميال فى الصحراء الغربية . وعلى
الضفة الشرقية تظهر قلعة عدة (١) وهى قلعة رومانية ضخمة متعددة
الأجنحة متجهة الى خرائب منعزلة فى آخر جرف على حافة الماء الى اليسار-

(١) هى قلعة تشبه قلعة ابريم من حيث الحجم والشكل ، وتحمل اسم قلعة عدة
وقد هجرت منذ سنوات عديدة ، وهى محاطة بصخور قاحلة . ومازال جزء من حائطها
القديم الذى يشبه حائط قلعة ابريم موجودا . وقد بنيت بعض أماكن الإقامة من الحجر-
وبعضها الآخر من الطوب . وترقد على أرض أعلى بقعة فى المدينة الصغيرة ثمانية أو
عشرة أساطين جرانيتية ذات أبعاد صغيرة وبجوارها بعض تيجان الأساطين التى تنتمى
الى العمائر الاغريقية ولكن بشكل ردىء . (انظر كتاب بورخارت : رحلات فى
النوبة *Travels in Nubia* للنشور سنة ١٨١٩ - ص ٢٨) . ونجد فى كتابه
عربى عن تاريخ النوبة - كتبه مؤلف يدعى عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى - مقتطفات
مما تضمنه كتاب المقريزى العظيم اقتبسها بورخارت وكاترمير ، نقتطف منها الفقرة
التالية :

« وتقع فى هذه المقاطعة (النوبة) مدينة بجراش *Bedjrasch* عاصمة فاريش ،
قلعة ابريم ومكان آخر يسمى عدوة لها ميناء ويقال عنها انها مكان ميلاد لقمان الحكيم-
وذى النون وهناك معبد عظيم - انظر :
Mémoire Géographiques sur l'Egypte, etc. E. Quatremere, Paris, 1811
Vol. II, p. 8.

واذا كانت عدوة وعدة اسمين لمسمى واحد ، فمن المرجح ان تكون هذه الفقرة قد حفظت-
النص الوحيد الحديث نسبيا الدال على هذا المعبد العظيم المخوف فى الصخر ، والذى
تغطى الرمال مداخله حاليا . ومن الواضح ان المقصود ليس هو معبد (أبو سنبل)
(الواقع على الضفة المقابلة وشمال عدة بحوالى ثلاثة أو أربعة أميال) ولا هو معبد
فريج (الذى يبعد قليلا وهو أيضا مكان صغير) ، ولكن هناك معبدا آخر يقع فى مكان
ما بين (أبو سنبل) ووادى حلفا ، لم يكتشف بعد ، ولكن وجوده مؤكد حيث يدل
عليه لوح كبير منحوت فى الصخرة التى تبعد خطوات شمال المعبد الصغير فى (أبو
سنبل) . ويكشف هذا اللوح الذى يعتبر أكثر المصادر وضوحا وتفصيلا عن بوابة مصرية
تلوها الشمس المنحثة ، وبين رمسيس الثانى متوجا وهو يتقبل الولاء من أمير قرجم-
روسيلينى اسمه هو (رمسيس - نينسكتى - هاباى) . ويسجل النقش الذى يشغل
ستة عشر أسطونا سليمة تماما - القاب ومداخل الملك ، ويذكر كيف انه « اقام مسكنا اثريا
للالة حورس ابيه ، وسيد هام ، وقد حفر فى باطن صخرة هام لكى يقيم له مسكنا يبقى
لعدة أجيال » ، ولا نعرف شيئا عن الصخرة هام (أطلق عليها روسيلينى اسم : سكيام)
ولكن لا شك فى انها موجودة فى مكان ما يقع بين (أبو سنبل) ووادى حلفا - انظر :
« *Qual sito precisamente dinotisi in questo nome di Sciam, io non
saprei nel presente stato delle cose determinare : credo peraltro secondo
varie luoghi delle iscrizioni che lo ricordano, che fosse situato sul' una
o l'altra sponda del Nilo nel paese compreso tra Wndi-halfa e Ibsam-* »

تصل بالسلسلة المقابلة لها الى نهايتها ، وتجاور سهلا مماثلا تتناثر فوقه
أيضا القمم المنعزلة . والمنظر هنا شديد الروعة . اننا نشاهد جزيرة
كبيرة تغطيها أشجار النخيل وتقسم نهر النيل الى فرعين يبدو كل منهما
في مثل اتساع النهر نفسه . وتنتفح مسافة غير محدودة نحو الأفق
الفضي ، ولا توجد أية خضرة على الضفتين أو أية علامة تدل على نشاط
انسانى ، فلا شئ يعيش هنا ، ولا شئ يتحرك ، فيما عدا الرياح والنهر .

ورغم غرابة القمم التى شاهدناها فان الجبال المحيطة أكثر غرابة .
وسواء أكانت منعزلة أم فى مجموعات فانها تبرز هنا وهناك بين الصحارى
التي على الجانبين مثل قطعة الشطرنج على رقعة اللعب . وهى معظمها
مخروطية الشكل ، ولكنها ليست فوهات براكين خامدة مثل القمم
البركانية المخروطية فى كوروسكو والدكه . ولا لاحظت الكتابة كيف
تبرز جميعها بنفس الارتفاع تقريبا ، وأن قممها كلها مغطاة بهذه الطبقة
من الأحجار السوداء اللامعة ، فانها لم تستطع أن تمنع خيالها من رؤيتها
شبيهة بجبلى روشيه دى كورنى Rocher de Corneille وروشيه دى
سانت ميشيل Roche de St. Michel فى بوى Puy . ولا بد أنها
أجزاء من قشرة صخرية انفصلت وانجرفت بعيدا منذ فترة سحيقة من
التاريخ العالى وربما كان سطح قممها الحالية هو السطح القديم للسهل .

أما عن شكلها فهى موحشة بما فيه الكفاية تطبيقا لأشد الأفكار
الجيولوجية التى تتعلق بالوحشة . وتتناقص جميعها تدريجيا مع الارتفاع
نحو القمة . وقد لاحظنا أن أحدها له أربعة جوانب مثل الهرم . واتخذ

= bul, o poco oltre. E qui dovrebbe trovarsi il nominato speco di Horus,
fino al presente occulto a noi, » — Rosellini, Letterpress to Monumenti
Starici, vol. III, part II, p. 184.

ويظهر من ذلك أن صخرة هام ورد نكرها فى نقوش أخرى .

وتبلغ المسافة بين (أبو سنبل) ووادى حلفا أربعين ميلا فقط والأماكن المشابهة
يطول الضفتين قليلة جدا . وإذا تم الكشف عن هذا المبدئ سيكون مشروعا يطمح السياح
الى تحقيقه ، ويفوق من حيث فائدته ما يترتب عليه من اباداة التماسيح القليلة لعدد الذى
تعيش اسفل الشلال الثانى .

الآخر شكل مخروط مبتور ، وظهر الثالث كما لو كانت تعلوه مثلثة وقبة . وكان الرابع مجوفا على شكل عقود متصلة ببعضها البعض ، والخامس يتوجه تل من الأحجار المكسرة . وهكذا تتوالى تصورات الكاتبة عن النوعيات المختلفة التى لا نهاية لها . وربما استطاع أحد علماء الجيولوجيا أن يحدثنا عن هذه الثروات فيوضح لنا كيف تتابعات النيران والزلازل والفيضانات بعضها وراء بعض ، وكيف أن هذه الجبال التى كانت قبلا مغطاة بالأحجار البركانية ، قد انشطرت الى وهاد مما أدى الى فتح الوديان حتى عبرتها السيول التى اكتسحت الأجزاء الناعمة من الصخرة وتركت الأجزاء الصلبة فى مكانها .

وبعد قلعة عدة واختفاء سلسلة جبال (أبو سنبل) وجزيرة النخيل فى الصحراء ، وبعد أن تركنا خلفنا القمة الوحيدة المنعزلة التى تسمى جبل الشمس ، أتينا الى معجزة جديدة تقع فوق مجموعتين من الروابي المتناثرة تقع احدى المجموعتين على الضفة الشرقية والأخرى على الضفة الغربية . وإذا حاول الانسان أن يجازف بتكوين رأى معين من على هذا البعد فانه لن يجد هذه الجبال ذات تكوينات بركانية ولا حتى تكوينات طارئة . وهى أحجام مختلفة بعضها صغير وبعضها الآخر كبير ، وجميعها مستديرة وناعمة ومغطاة بتراب بركاني ذى لون يختلط ما بين الأخضر والبني . فكيف تكونت فى مكانها هذا ؟ وما سبب تكوينها ؟ وما الذى تحتضنه ؟ وهناك خرائب رومانية بجوارها . لقد مر الجنود الفارون وعددهم ٢٤٠ ألفا من هذا الطريق ، ولا بد أن الجيشين المصرى والأثيوبى اللذين تدفقا بالآلاف بطول نفس هاتين الضفتين قد خاضا معارك عديدة فوق هذا السهل المكشوف . لقد افترضت كافة أنواع الاحتمالات وملأت رأسى بتخيلات عن الجيوش والجواهر والجرار التى تحوى رماذ جثث الأموات ، حتى اننا أوشكنا فى هذه اللحظة أن نفقد نصف عقولنا ، ونوقف المركب ، ونرسو هناك ، ولكننا ارتضينا الأفكار الثانية التى وعدنا أنفسنا فيها بأننا سوف نحفر احدى هذه الروابي عند عودتنا .

والآن صار الهواء منعشا ، وأخذت الذهبية تشق طريقها بجراة ، فتركنا الروابي خلفنا لندخل فى منطقة مهجورة حيث تتراجع الجبال تدريجيا وتعترض الضفاف الرملية الغارقة مجرى النهر .

ووجدنا عند إحدى هذه الضفاف الرملية على بعد بضعة ياردات من حافة الماء ما يشبه جذع شجرة ضخمة ربما كانت نخلة قديمة ساقطة ، وما زالت بعض بقايا السعف المكسور متصلة بها ، ويسمى أصدقائي الأمريكيون مثل هذا الشيء « نتوء أو بروز » . وانحنى الربان على ذراع الدفة الى الأمام ووضع أصبعه على شفثيه وهمس : « تمساح ! » . وسرعان ما صعد الرسام والرجل الكسول والكاتبة جميعا الى سطح السفينة ، ولم يصدقه أحد . لقد شاهدوا لتوهم العديد من هذه النتوءات . ولن يتركوا أنفسهم نهبا للتوتر بلا طائل مرة أخرى .

وأشار المرشد الى القمرة التي كان فيها السيد (ل) والسيدة الصغيرة منمكين في هذه النقيصة الصغرى التي تسمى : تناول سناي بعد الظهر - وهو يقول : « البست ! استدعوا البست ! ها هو التمساح » .

وفحصنا هذا الشيء بمنظارنا وضحكنا على المرشد الى درجة الاستهزاء . لقد كان أسوأ تقليد رأيناه للتمساح . وفجأة رفع جذع النخلة رأسه (أى التمساح) وحرك ذيله وثبت رجله فى الأرض وأخذ يعدو ويتلوى ويتموج فى سرعة شديدة على المنحدر وسرعان ما اختفى فى الماء حتى قبل أن نطلق صيحة تعجب .

وقد مر ثلاثتنا بوقت عصيب عندما حضر الاثنان الآخران وعرفا أننا رأينا أول تمساح دون أن يكونا معنا .

وفى صباح اليوم التالى مررنا بضفة رملية غاصة بالذيول المتحركة وبدت كما لو كانت بقعة ينعقد فيها برلمان التماسيح، فقد كان هناك على الأقل عشرون أو ثلاثون تمساحا حاضرين فى تلك الجلسة ، وبرهنت. العلامات الحديثة على أن الاجتماع قد انقضى لتوه .

وحملتنا رياح شديدة مسافة الثلاثين ميلا الأخيرة من رحلتنا ، وتخيلنا أننا قد وصلنا الى أقصى الجنوب حيث قابلنا أشد الأجزاء حرارة ، ولكننا نخشى أن نقول اننا كنا نرتعش فى داخل معاطف الفرو تحت أجمل سماء فى العالم ، وعند خط عرض يبعد كثيرا الى الجنوب من مكة أو كلكتا . وكان علينا فى مقابل ذلك أن نجري بكا، سرعتنا مقابل أسوأ مناظر النيل حيث كنا لا نرى الا الضفاف الرملية اسي فى مجرى النهر ، بينما تمتد التلال والمستطحات الرملية على كلا الجانبين . وكان هناك شادوف مهجور ، أو هيكل قارب محطم عند حافة الماء ، وأخذت الريح تتلاعب بشجرة الدوم التي تناضل من أجل البقاء على حافة الضفة . .

وعند ركن خطير يبعد حوالى ستة أميال جنوب وادى حلفا ، مررنا
بأسطول صغير من الذهبيات المفككة من بينها القسقاط ، وزنوبيا ،
واليس والمنصورة - وجميعها تحت رحمة الجو ، على عكس اتجاه هبوب
الرياح . وكان على سطح المنصورة قبطانها والسيدة (أ) . لقد قضينا
ثلاثة أيام لم يقطعا خلالها سوى هذه الأميال الستة . وبذلك فانهما بمعدل
السرعة هذا قد يصلان الى القاهرة بعد انقضاء عام وشهر بالتعام .
والكمبال .



وادى حلفا

وعند الانحناء التالية ظهرت أشجار النخيل فى وادى حلفا بلونها
الأزرق على البعد . وعند الظهر رست قبلة مرة أخرى بجوار البناجستونز
عند شاطئ مزدحم بالمراكب ، ومغطى بالبالات وصناديق البضائع، ومثل
شواطئ المحطة وأسوان من حيث الازدحام بالأكواخ المؤقتة ، لأن التجار
الذين يسافرون بالمراكب يحملون بضائعهم أو يفرغونها هنا وهم فى
طريق ذهابهم أو عودتهم بين دنقلة والشلال الأول .

وكانت هناك ثلاثة معابد أو على الأصح ثلاثة مبان مصرية قديمة .
كانت فى زمن ما قائية مقابل وادى حلفا .

والآن ، لا يوجد سوى القليل من الأعمدة المحطمة وجزء منعزل من بوابة مبنية بالطوب وبعض بقايا درجات سلم حجري يتجه الى النهر ، وحائط قريب تنمو عليه ثمار القرع البرية . وتشكل هذه الخرائب مع خان محلى منعقد الحجرات ، وشجرة جميز قديمة ، مجموعة صالحة للتصوير ، خلفها صخور عنبرية اللون تحدد مكان مدينة مفقودة (١) تنتمي الى عصر أوسرتسين الثالث .

ويبدأ الشلال الثانى بعد وادى حلفا بقليل ويمتد عدة أميال ، وهو يتكون مثل الشلال الأول من سلسلة من الصخور والجنادل ، وتحاذيه فى مسافة الأميال الخمسة الأولى حافة صخرية رملية تشكل كما سبق أن قلت خلفية للخرائب التى تواجه وادى حلفا . وتنتهى هذه الحافة بشكل حاد الى الربوة المشهورة التى تسمى صخرة (أبو صير) . ولا يتجاوز هذه النقطة الا السياح المغامرون وهم فى طريقهم الى دنقلة أو الخرطوم ، وفى معظم الأحوال يتخذون الطريق الأقصر من كوروسكو عبر الصحراء . وقام السيد (ل) والكاتب باستئجار بعض الجمال ، وتقدما حتى سمنة التى تستغرق الرحلة من وادى حلفا إليها يومين ، وهى تعتبر من أسهل الرحلات البرية بالنسبة لهؤلاء الذين تزودوا بخيام للرسم .

وقد يذهب الانسان الى صخرة (أبو صير) برا أو بحرا . وقد صاحب الزوجان السعيدان الكاتب مع بحارين وطنيين لهما خبرة فى تفادى عقبات الشلال ، وركب الجميع فى القارب . أما السيد (ل) والرسام فقد فضلا ركوب الحمير ، ومع هبوب ريح طيبة من الجانب الأيمن صعب علينا الاختيار بين الطريقين بصرف النظر عن عنصر الزمن ، ولا يستطيع من وصل الى الصخرة عن طريق الماء وشاهدها وهى ترتفع مثل الكاتدرائية فى وسط تلك المتاهة من الجزر الصخرية التى كان بعضها على شكل عناقيد من الأعمدة البازلتية ، وبعضها الآخر متوج بخرائب متداعية ، وبعضها الآخر مكشوف للرياح ، وبعض آخر أخضر

(١)

« Un Second Temple, plus grande, mais tout aussi détruit que le précédent, existe un peu plus au sud, c'était le grand temple de la ville Egyptienne de Béhéni qui exista sur cet emplacement. et qui d'après l'étendu des débris de poteries répandus sur la plaine aujourd'hui déserte, paraît avoir été assez grande. » — Champollion, *Lettres écrites d'Egypte*, etc., ed. 1868 ; Letter ix.

النون بسبب أشجار الرمان البرية - أن يشك في أنها من أحسن المناظر
صلاحية للرسم .

وبعد أن نزلنا بين أشجار الطرفاء عند قاعدة الصخرة وصلنا الى
أطراف متناثرة من جرف رملي منحدر ومجهد لكل من يحاول أن يتسلقه
بشكل أصعب من الجرف الرملي الذي عند (أبو سنبل) . وقد تسلقناه
بالرغم مما كنا فيه من عبوس ، ولما وجدنا راكبي الحمير جاثمين على القمة ،
أنعشنا أنفسنا بجرجات من الليمونادة المثلبة التي أحضرناها معنا
من وادي حلفا في قلة من الفخار .

أما قمة الصخرة فهي منحدر حاد ومعلق نحو الشرق والجنوب
وقد نقشت عليه توقيعات تذكارية ، والقليل من هذه التوقيعات هو
الذي يثير الاهتمام ، ولكن أغلبها يسجل فقط زيارات أفراد مغبورين .
وقد وجدنا بينها اسم بلزوني ، ولكننا بحثنا دون جدوى عن توقيعات
بوخارت وشامبليون ولبسيوس وأمير .

ونظرا لطبيعة الأرض وصفاء المناخ ظهر لنا المنظر من هذه النقطة
من أعظم المناظر التي شاهدها طوال حياتي ، وهنا نرى صخرة (أبو صير)
وهي ترتفع ارتفاعا غير ملحوظ ، وبذلك تعتبر مجرد تل صغير
بالقياس الى قمم بعض جبال الالب التي أعرفها . وأشك في أن يصل
ارتفاعها الى مثل ارتفاع الهرم . وعلى أية حال فهي مكان يصاب الناظر
منه الى أسفل بالدوار ، كما أنها تبدو أكثر ارتفاعا مما هي عليه .

ومن الصعب علينا ونحن هنا الآن ، معرفة أن هذه نهاية الرحلة .
والشلال خليط ضخيم من الجزر الصغيرة السوداء واللامعة التي يتسع
النهر عندها فيتفرع الى مئات من القنوات المنفصلة ، وينتشر الى مسافة
بعيدة تبلغ أكثر من ستة عشر ميلا ، الا أنه يرغى ويزيد عند أقدامنا
ويتحول الى رغاو وأمواج ، ويندفع هادئا عندما يكون مجراه خالصا
من العوائق ، ويزمجر في وحشية عندما يصطدم ببعض العوائق . وهو
يسرع في حين ، ويبطئ في حين آخر . ويتحول هنا الى دوائر مثل
الزيت ، ويرقد هناك في شكل برك ساكنة لا يقطع سكونها الا خرير
الماء . ويمتلئ النهر في كل مكان بالحياة والأصوات ، وتلمع فوق سطحه
أشعة الشمس .

وفي ناحية الشمال حيث يتلوى في اتجاه (أبو سنبل) نرى في
الأفق كافة الجبال العجيبة التي شاهدها أمس ، أما في الشرق فانه

يرتبط بالجبال التي تنتمى الى نفس السلسلة المنفصلة حيث توجد متاهة من البرية السوداء العاصفة التي تتفرع الى عدد لا حصر له من الوديان التي تتخللها بحور من الرمال . وفى الجانب الغربى يقطع استمرارية المنظر المنحدر الذى ينتهى عند (أبو صير) . وفى الجنوب تصل الصحراء الغربية الى سهل متموج ضخيم لونه أصفر مائل الى السمرة ومجذب ويبعث على الملل ، بينما تلمع الشمس كلها والرمل كلها هنا وهناك بومضات من النيل الذى يمرق كالسهم . وترتفع قممنا جبلين فى الطرف البعيد من العالم ، احدهما طويلة والاخرى تشبه القبة . وقد ذكر النوبيون المرافقون لنا أن هذه هى جبال دقنة . وبمقارنة موقعنا هذا بالشلال الثالث كما يظهر على الخريطة ، نصل الى استنتاج مهم هو أن هذه الأشكال الغامضة هى جبل فوجو (١) وجبل أرامبو ، وهما جبلان متوازيان يقعان فى جانبيين متقابلين على نهر النيل ، على بعد حوالى عشرة أميال جنوب هانيك ، وعلى بعد حوالى ١٤٥ ميلا من البقعة التى نقف عليها .

ولا يوجد شيء حقيقى وجميل فى كل هذه الصورة الغربية ذات الطابع البرى والموحش الا اللون ، ولكنه لون رقيق فلم أر فى مصر شيئا يمثل هذه الرقة والشفافية والتناسق . اننى أغلق عيني ويمر المنظر كله أمامى فأرى اللون العنبرى للرمل والجبال ذات اللون الوردى واللولى ، وصخور الشلال وكلها سوداء وأرجوانية ومصقولة ، والنخلات الرمادية التى تتشابه هنا وهناك فوق الجزر الكبيرة ، وأشجار الطرفاء والمان ذات الخضرة الداكنة ، والنيل بلونه البنى الذى يميل الى الخضرة المشوبة بالرغاوى التى بلون الخمرة . وفوق كل ذلك السماء الزرقاء الحارقة التى يتخللها الضوء وأشعة الشمس المتلألئة .

لم أرسم شيئا فقد شعرت أنه من السخف أن أحاول ذلك . وأشعر الآن بأن أية محاولة لتصوير المنظر بالكلمات هى مجرد جهد متطفل لوصف ما لا يمكن وصفه . ان الكلمات أدوات نافعة ، ولكنها مثل ابرة الحفر على الألواح المعدنية والحامض المستخدم معها من حيث انهما يعجزان عن التشكيل ولا يستطيعان ترجمة الألوان فى هذه اللوحة العجيبة . واذا سألتى سائح وقته مخلود عما اذا كان من الضرورى أن

(١) جبل فوجو كما يظهر على خريطة مصر والنوبة التى رسمها كيث جوستلون هو جبل على برسى الذى ذكره ليمبيوس .

بذهب الى ما بعد الشلال الثاني ، فأننى كنت سأنصح بالعودة من (أبو سنبل) لأن هذا الجزء من الرحلة يستغرق أربعة أيام ، وإذا لم تكن الرياح موافقة بطريقة ما ، فإنه سيستغرق ستة أو سبعة أيام . أما مسافة الأربعين ميلا من النهر التى يجب قطعها مرتين فهى أصعب أيام الرحلة النيلية . والشلال هنا صورة مكبرة من الشلال الذى بين أسوان وفيلة . والمنظر العظيم كما سبق أن قلت ، ليس بهذا النوع من الجمال الذى يجلب السائح العادى .

هناك أهمية تتجاوز مشاهدة الجمال ، فالمنظر يثير الخيال للاحساس بعظمة نهر النيل ، اننا ننظر عبر عالم من الصحراء ونرى النهر قادما من بعيد . لقد وصلنا الى نقطة ينتهى عندها كل ذلك المألوف والمعتاد بشكل حاد . فلا نشاهد قرية أو حقلا للفل أو شادوفا أو ساقية ، فى السهل الممتد . كما أنه لا يوجد أى شراع يعمل فى هذه المياه الخطرة . ولا يوجد مخلوق واحد يتحرك فوق هذه الرمال المهدومة المسالك ، فيما عدا أعمدة التلفراف التى تبسو كالأشباح عبر الصحراء . ويبدو أننا قد وصلنا الى أطراف الحضارة ، وأننا نقف على أعتاب أرض لم تكتشف بعد . وبالرغم من كل ذلك فأننا نحس كما لو كنا عند بداية النهر العظيم . لقد قطعنا ألف ميل ضد التيار ولكن - ماذا عن المسافة التى تفصلنا عن البحيرات العظمى ؟ وكم قبل المسافة التى يجب أن يقطعها الانسان بعد البحيرات العظمى بحثا عن المنبع الذى لم يكتشف بعد ؟

ولم نبق فى وادى حلفا الا ليلة واحدة ، وقمنا برحلة واحدة الى الشلال ، ولم نشاهد التماسيح بالرغم من كثرتها بين هذه الجزر الصغيرة الصخرية . أما م . ب . اللذان قضيا هنا أسبوعا فقد كان لديهما العديد من قصص التماسيح وانجازات الفريد بأسلحته . لقد اقترب من وحش وأطلق النار عليه قبل وصولنا بيومين ولكن الوحش اندفع عائدا الى الماء بعد إصابته وهو يلوح بذيله فوق رأسه غاضبا ، ولم يره أحد بعد ذلك أو يسمع عنه شيئا .

ويبدو أن ذلك التماسيح كان مثل أخيل لا يمكن إصابته الا فى نقطة واحدة . وتقع هذه النقطة غير المدرعة خلف ذراعه الأمامية . وكان من الممكن أن يقتل هناك عددا كبيرا لو كانت الطلقات تتخذ طريقها الى النقطة الحيوية ، أو كانت من النوع الجهنمى الذى « ينفجر فى جسم الفريسة » . وحتى اذا أصاب التماسيح بجرح قاتل فمن النادر أن يكون

قد أضناه في النقطة غير المدرجة ، فيندفع التمساح بكل قوته المختزنة عائدا الى الماء ويموت في القاع . وترتفع الجنة بعد ثلاثة أيام وتطفو على سطح الماء ، وقد بقي أصدقاؤنا حتى الآن لكي يضع الفريد لعبته الضخمة في الحقيبة مع أن الوحش المسكين قد زحف الى حفرة أو اختفى بين الأحراش ولن يظهر مرة أخرى . وفي مقابل كل تمساح هناك دسنة من التماسيح التي تعود الى الماء وبعد أن تعانى الآلام تحت الماء تموت بعيدا عن مدى الرؤية وخارج متناول الصياد .

وعندما كنا نتسلق صخرة (أبو صير) ، كان رجالنا مشغولين في انزال الشراع الكبير وإعداد فيلة للقيام برحلتها الطويلة والمرهقة في الاتجاه المغاير . ولما عدنا وجدنا الصاري الرئيسي موضوعا مثل شجرة تظل على رؤوسنا ، وقد طوى الشراع في شكل كرة ضخمة ووضع على سقف المطبخ . أما الصاري الصغير وشراعه فقد وضعا فوق الصاري الرئيسي . وتم ربط كل ستة مجاديف على جانب من جانبي الذهبية . وتحول السطح السفلي الى مقاعد لجلوس المجدفين : وبهذا التغير تحولت الذهبية الى سفينة مسطحة تسير بالمجاديف . وأصبحت مجاديفها هي قوتها المحركة ، كما أصبح في قدرة طاقمها المكون من المجدفين (الذين كان التيار في صالحهم) أن يقطعوا ثلاثين ميلا كل يوم . وعندما تهب رياح طيبة من الجنوب فإنه يكفي الشراع الصغير والتيار لكي يندفع المركب الى الأمام ، ويدخر الرجال قوتهم للمجديف أثناء الليل عندما يتوقف هبوب الرياح . وأحيانا عندما تصير الرياح هادئة ويحتاج المجدفون الى الراحة فإن الذهبية تنقاد بأجهزتها الخاصة فتطفو مع التيار ، وتتراقص مترنحة في وسط المجرى ، أو تنحرف جانبا مثل حصان مستر وينكل ، فتتجه مرة الى الضفة الشرقية ثم تغير رأيها وتنحرف في المرة الأخرى الى الغرب ، وبذلك تقطع حوالى ميل ونصف أو ميلين في كل ساعة في المتوسط . وهى بذلك تقدم عرضا مسرحيا تصور فيه المعنوية عديمة الجيلة أمام المشاهدين المشفقين . وفي أوقات أخرى عندما تهب الريح القادمة من الأمام بشدة ، لا تنفع المجاديف ولا التيار ، ولا يكون أمامنا من منفذ سوى أن نركن بالذهبية الى جانب الضفة في انتظار أوقات أفضل للإبحار .

وتلك كانت حالتنا المحزنة أثناء عودتنا الى (أبو سنبل) . وبعد أن كافحنا بصعوبة كبيرة خلال الخمسة والعشرين ميلا الأولى وصلنا الى وقفة تبعد حوالى منتصف المسافة بين فراس وجبل الشمس . يحملنا التيار الى الأمام ، وتدفعنا الرياح الى الخلف ، تضربنا الأمواج وتهزنا بهتزازات المركب الى هنا وهناك . وأخيرا دخلت فيلة في ركن هادئ.

بعد تذبذب دام عدة ساعات • وهناك تركت فى سلام حتى يتغير اتجاه الرياح أو تتوقف كلية •

وبعد أن قضينا يوما ونصف اليوم فى هذا السجن ، وجدنا أنفسنا بالصدفة فى متناول الروابى التى فكرنا فى استكشافها • واتجهنا أولا الى تلك الواقعة على الضفة الشرقية ، وقد صاحبنا معنا فى القارب أربعة رجال للتجديف والحفر ، ومجرفة للنار ، وفأسا صغيرة ، وقضيبا حديديا ، وسلّة كبيرة من الخيزران • وهذه هى كل الأدوات التى نمتلكها ، وهى أيضا ما نحتاج اليه حينذاك وفيما بعد • وكذلك الأدوات التى لا بد أن تتزود بها كل ذهبية عند الإبحار وهى جاروفان أو ثلاثة وزوج من المعاول ذات الطرف المذهب وعتلة حديدية •

وبعد أن صعدنا الى قمة أعلى هذه الروابى بدأنا فى عمل مسح للأرض • الصحراء راسخة حتى القاع ، ومسطحة ، ومتينة ، وقد تناثرت فوقها الحصباء الكثيفة • ولم نر الا القليل من الرمال الصفراء الناعمة التى تتميز بها الصحراء الغربية ، وهذا القليل يتركز مثل الثلوج فى آكوام وشقوق وتجاويف كما لو كانت الرياح قد حملته الى هناك • وقد غطيت قسم هذه الروابى بتراب من الطمى الخالص يتميز بالنعومة والصلابة والتماسك • وقد أحصينا من آكوام هذا التراب أربعاً وثلاثين كومة يتراوح ارتفاعها ما بين خمسة الى ثلاثين قدما ، ورأينا الكثير منها على الجانب المقابل من النهر •

وبعد أن وقع اختيارنا على كومة منها يبلغ ارتفاعها خوالى ثمانية أقدام كلفنا البهارة بالعمل • وبالرغم من استحالة شق وسط هذه الكومة بهذا العدد القليل من الرجال وذلك العدد المحدود من الأدوات ، الا أننا نجحنا بوجه عام فى الحفر حتى وصلنا الى طبقة من كتل الصلصال الحام غير المنتظمة الشكل والتى يمكن تشكيلها باليد •

وسواء أكانت هذه الطبقة تشكل أساس الربوة أم تخفى قبورا محفورا تحت مستوى الصحراء ، فلم يتوفر لنا الوقت أو الوسائل للتأكد من ذلك ، ولكننا أقنعنا أنفسنا بأن هذه الروابى اصطناعية (١) •

(١) بالعودة الى كتاب الكولونيل فايس : رحلة فى مصر العليا Voyage info Upper Egypt etc. أرى أنه قد شق إحدى هذه الروابى ولكنه لم يجد دليلا على أية انشاءات « اصطناعية » واستطاع استنتاج أنه لم يعثر على حفرة الى مسافة كافية لأنه من الصعب للفراض أن الروابى أقيمت بدون هدف ، ولا اعتقد أنها تستحق تحقيقا ملهجيا آخر •

وعند ذهابنا قابلنا فلاحا نوبيا يسير متثاقلا في اتجاه الشمال وهو يقود جملا بائسا وقد حمل تحت ذراعه ديكا أبيض اللون ، وتسير خلفه امرأة خائفة سحبت شالها على وجهها وأخفت نفسها خلفه وهي ترتعد لرؤية الانجليز . وسألنا الرجل عن ماهية هذه الروابي ومن الذى أقامها ، ولكنه هز رأسه وقال انها « موجودة فى مكانها منذ زمن بعيد » وسألناه مرة أخرى عن الاسم الذى تعرف به فى هذه الأجزاء التى دفع عندها جملة الى الأمام ، فأجاب مترددا أن لها اسما ولكنه نسيه .

وبعد أن كان قد تقدم قليلا عاد مرة أخرى قائلا انه تذكر الآن كل ما يتعلق بها وأنها كانت تسمى « قرون ياكما » ولم نستطع أن نحصل منه على بيانات أكثر من ذلك ، أما من هو ياكما ، أو كيف أصبحت له قرون ، ولماذا اتخذت قرونها شكل الروابي ؟ فهذه أسئلة أصعب من أن يجيب عنها ، ولا نستطيع نحن أن نخمن أجوبتها .

ومنتحنا بقشيشنا صغيرا مقابل هذه المعلومة السرية ، ومضينا فى طريقنا بأقصى سرعة ممكنة ، وفى نيتنا أن نجذف عبر النهر ونرى الروابي التى على الضفة الأخرى قبل غروب الشمس . ولكننا لم نتحسب لصعوبة شق طريقنا بين سلسلة من الضفاف الرملية أو المضى قدما فى اتجاه الشمال لمسافة ميلين ، وذلك لكى ندور حول القناة الملاحية التى فى الجانب الآخر . وبالطبع فأننا جربنا الطريق الأقصر . وبعد أن جرينا على الأرض ثلاث أو أربع مرات ، صرفنا النظر عن المحاولة ، ورفعنا شراعنا الصغير وانساق القارب عائدا بأسرع ما تستطيع الريح أن تحملنا اليه .

وعلى ذلك فقد كانت عودتنا بعد الرحلة بالقارب من أمتع الأشياء التى نتذكرها عن الليل . لقد غربت الشمس ، واختفى نور الفسق ، وأخذت النجوم فى الظهور . وبعد أن اقتنعنا بأننا رأينا وعملنا شيئا ، أخذنا ننصت الى الأغنية الحاملة القديمة التى يتغنى بها المجدفون ، والى خرير الماء المتفرق تحت هيكل السفينة . وفى نفس الوقت كنا نرى أشجار النخيل وهي ترتفع أمامنا فى لونها البرونزى الى عنان السماء . وسرعان ما أخذ المركب الكبير يلوح وسط الفسق وهو يتألق بالأضواء ، وصوت الغناء يتعالى من مؤخرة المركب . وأخذنا ننزلق تحت الانحناءة . وكانت هناك نصف دسنة من الوجوه السمراء تلقى علينا السلام ، مع الأيدى التى امتدت لتساعدنا على الوصول الى الشاطئ . وقد حمل النسيم رائحة طيبة قادمة من المطبخ ، واستقبلنا منظر صالة الطعام المبهجة وفى

وسطها المائدة المجهزة والمصابيح المشتعلة وهي تلقى علينا بأنوارها من
خلال المدخل المفتوح . لقد عدنا الى مكان اقامتنا مرة أخرى . دعنا الآن
نأكل ونشرب ونستريح ونشعر بالمرح ، لأن غدا سيبدأ العمل الشاق مرة
أخرى لمشاهدة المناظر ورسم الصور التخطيطية .



ضخمة (أبو صير)

الفصل الثامن عشر

الاكتشافات فى (أبو سنبل)

عدنا لكى نجد أسطولا من الذهبيات المصفوفة بطول الشاطئ عند (أبو سنبل) . وقد نصب على الأرض هناك ما لا يقل عن ثلاث خيام للرسم . وتقع احدى هذه الخيام فى البقعة التى أخلاها رسامنا . وقد اختصر حجمها لكى تفسح مكانا للمستأجر الاصلى . وعلى مدى ساعتين تعودنا على الجو العائلى كما لو كنا لم نبرح المكان لمدة نصف يوم .

وفى نفس الوقت وجدنا صديقتنا القديمة الفسطاط وعليها الوجهاء من ركابها . وهناك جنوبيا وكل ركابها من السيدات وهن اليس الصغيرة ، مع سيرج . س . ، ومستر و . على سطحها . والذهبية سيرينا وقد رفعت العلم الأمريكى ، أما الذهبية المتصورة فقد ربطت بشدة الى الذهبية الفيوم . وفى اليوم التالى أضيفت الى هذه الذهبيات ، ذهبيتان تحملان العلماء الألمان ، ثم الباجستونز وقد عادوا بالسلامة من وادى حلفا .

أما عن الوصول والرحيل وتبادل الزيارات وعرض الرسوم ، والترفيه من مختلف الأنواع ، فقد قضينا وقتا سعيدا . وقد أقامت فيلة حفل عشاء وموسيقى تحت أنف التماثيل الضخمة ، وقد اندمجت أطقم الذهبيات جميعا فى الطبل والصياح لطرد أشباح رمسيس وجميع ملكاته . وكان ذلك مبهجا حقا مع استمواره ، ولكن عندما رحل الغرباء واحدا وراء الآخر ، عدنا مرة أخرى للوحدة ، ولم تكن أسفين لأن المكان كان أكثر وقارا بالنسبة « للغناء والضحك واختلاس النظر الى الفتيات ، وما شابه ذلك » .

عندما نقارن سهرنا أثناء الليل بسهر السياح الذين قابلناهم فى (أبو سنبل) نكتشف الآن كيف زاغ منظمو أوقات السهر عندنا

وعندهم • لقد كنا نعدل برامجننا دائما منذ رحيلنا عن القاهرة ولكن الشمس كانت تقسدها دائما ، وبذلك فقدنا التحكم فى الزمن بوجه عام • وكانت أول كلمات نحى بها كل قسام جديد هى : « هل تعرف كم الساعة الآن ؟ » وكان القادم يرد قائلا بأن هذا هو نفس السؤال الذى كان هو نفسه على وشك أن يسألنا اياه • وتضخمت المشكلة أخيرا حتى اكتشفنا أننا كنا نقضى حوالى احدى عشرة ساعة من اليوم الى ثلاث عشرة ساعة باضافة بعض ساعات الليل • فقررنا اصدار مرسوم تقديرى بحيث نقول ان الساعة تبلغ السابعة عند شروق الشمس وتبلغ السادسة عند غروبها • وكان فى ذلك تلبية لكافة الأغراض •

وحسب هذا التوقيت الذى ابتدئناه كان نجم الصليب الجنوبى يظهر كل صباح ، ولا شك فى أن رؤيته من (أبو سنبل) أفضل من أى مكان آخر • والنهر هنا شديد الاتساع ، وحيث ترتفع مجموعة البروج توجد فتحة فى الجبال التى على الضفة الشرقية ، وبذلك فان هذه النجوم الأربعة يمكن رؤيتها من خلال فراغ واسع من الجو بالرغم من أنها كانت لا تزال منخفضة فى السماء ، وبذلك يتولد عنها منظر أعظم مما يتوقعه الانسان ، ربما لأننا كنا نشاهدها من زاوية منخفضة جدا • وإذا قلنا ان مجموعة البروج قصرت أبعادها فى المنظور ، فان صدق ذلك سيكون سخيفا ، ولكن هذه هى الحقيقة التى تتعلق بالصليب الجنوبى عند (أبو سنبل) وإذا نظرنا اليه من زاوية تبلغ حوالى ٣٠ درجة فلا بد وأن يظهر مشوها ومظلما • وإذا نظرنا اليه وهو يحترق فى سمت الرأس فانه سيصل بلا شك الى مستوى شهرته المعروفة • والآن فان ذلك هو اليوم الخامس بعد عودتنا من وادى حلفا عندما حدث حادث آثار حفيظتنا الى أعلى درجة من الاثارة وجعلنا فى قمة التوتر خلال بقية الوقت المتاح لنا •

كان اليوم هو الأحد والتاريخ هو ١٦ فبراير سنة ١٨٧٤ ، أما الوقت حسب ما تدل عليه فيلة فهو حوالى الحادية عشرة صباحا عندما كان الرسام يستمتع بيومه السابع من اجازته بعد عودته وقد خرج يتمشى الهوينى بين الصخور ، وقد حدث أن اتجه بخطواته جنوبا ، وبعد أن عبر مقدمة المعبد الكبير صعد الى قمة ربوة غير محددة الشكل مكونة من صخور ساقطة ورمال ، وحاطت من الطوب مقابل الركن الذى ينحدر فيه الجبل ناحية النهر • ولما نظر من هذا الركن بسرعة نحو الجنوب واقترب حتى مسافة ضيقة من حافة بارزة من الصخر الضيق ، وجد مائدتين للقرابين منحوتتين وملونتين ، يعود تاريخهما الى العام الثامن والثلاثين من حكم رمسيس الثانى • وقد رأيناها من النهر عند عودتنا من وادى حلفا ،

ولحظنا روعة المنظر من هذه النقطة • وبصرف النظر عن حقيقة أنهما
ملونتان وأن اللون كان ما زال يلمع فوقهما ، فإننا لم نلاحظ شيئا يلفت
الانتباه في هذه النقوش لأنه يوجد الكثير من أمثاله في (أبو سنبل) ؛
ولذلك فإن رسامنا لم يحضر لفحص اللوحات فقد كان مندهشا لجمال
المنظر •

وبمجرد أن استدار للعودة أثارت انتباهه بعض النقوش المشوهة
على الصخرة التي تبعد عدة ياردات عن الركيزة الجنوبية للمعبد • لقد
رأى هذه النقوش من قبل • ورأيتها أنا أيضا عندما كنت أتجول في اليوم
الأول بحثا عن وجهة النظر دون أن أهتم بها • كان النقش غائرا ، والتنفيذ
رقيقا ، والسطح مكسورا بحيث لم يبق من النصوص الا خطوط قليلة
تثير الارتباك •

أما الشيء الذي أثار انتباه الرسام الآن فهو شق طويل عمودي على
وجه الصخرة • ويبدو أنه حدث عن عمد ربما بسبب عاصفة شديدة •

فأحني ظهري وأزال الرمال بيدي جانبا ، فلاحظ أن الشق أخذ في
الاتساع ، فدفع فيه طرف عصاه ، ووجد أن عمقه يصل الى قدمين أو ثلاثة
أقدام • وحينذاك خطر له أن يتوقف ليس لأنه اصطدم بعائق ، ولكن لأن
لشق لم يكن متسعا بما يكفي لمرور الطرف السميكة من العصا •

وقد أثار ذلك دهشته لأنه لم تكن هناك أية شائبة في الصخرة
الطبيعية ، وفكر في أن يمضي الى أبعد من ذلك فأزاح بعض الرمال مرة
أخرى ، ومازال الشق يتسع • ودفع بالعصا مرة أخرى • كانت العصا
من جريد النخل مثل العصا المستخدمة في تسلق الجبال ، ويبلغ طولها
نحو خمسة أقدام • وعندما دفعها في الشق للمرة الثانية مضت معه
في حرية حتى الطرف الذي أمسك به في يده • أي الى عمق حوالي
أربعة أقدام

لقد اقتنع الآن بوجود ثغرة مخفية في الصخرة ، فقام بفحص
السطح بعناية ، فظهرت بعض الحروف الهيروغليفية وجزء من خرطوشين
مع بعض الخطوط الخارجية المحطمة لأشكال قديمة • وقد ضاعت رؤوس
هذه الأشكال (في هذه البقعة أزيل وجه الصخرة الذي كانت مرسومة
فوقه بكامله) ، بينما كانت هي مخفية تحت الرمال ابتداء من وسطها
ولم نستطع الكشف الا عن بعض الأيدي والأذرع فقط •

كانت هذه الأيدي والأذرع تخص أربعة من الأشكال • اثنان منهما في وسط التشكيل والاثنتان الآخران في الطرف البعيد • أما الاثنان اللذان في الوسط واللذان كانا يقفان وقد أولى كل منهما ظهره للآخر فهما اثنان من الآلهة بينما كانت الأشكال الأخرى تمثل العابدین •

ولاح في ذهن الرسام أنه قد شاهد هذه المجموعة من قبل خاصة فوق أحد المداخل • وعاد الينا وقد أحس بأنه على وشك تحقيق كشف علمي • وأخذ معه سلام ومحمد علي ، ولم يقل كلمة لای أحد • بدأ العمل مع هذين الاثنين في إزالة الرمال في البقعة التي أخذ الشق يتسح عندهما •

وفي نفس الوقت كان جرس الغداء قد دق ثلاث مرات فاستنتجنا أن الرسام كان يتجول في مكان ما في الصحراء ولذلك جلسنا لتناول الطعام بدونه • وعندما اقتربنا من نهاية الغداء وصلت الينا ملحوظة مكتوبة بالقلم الرصاص مضمونها كما يلي :

« من فضلكم احضروا حالا • لقد وجدت مدخل مقبرة • من فضلكم أرسلوا بعض الساندوتشات - أ • م • س » •

وتبعنا الرسول سريعا الى موقع العمل حيث شاهدنا النزوة العامة • كنا هناك بعد أقل من عشر دقائق ، وأخذنا ونحن مبهورو الأنفاس نسأل أسئلة ، ونختلس النظر الى داخل الثغرة الآخذة في الاتساع ونساعد في إزالة الرمال •

وقضينا بعد ظهر يوم الأحد غير مهتمين بأن نصاب بضربة شمس وغير متنبهين للاجهاد ، وقد ركزنا على أيدينا وركبنا تحت أشعة الشمس الحارقة ، وحضر الينا بقية البحارة وأخذوا يعملون مثل النمرور • لقد ساعد الجميع حتى المترجمان والفتاتان • وعندما كنا نتوقف لالتقاط الأنفاس كنا نخطب بعضنا بعضا قائلين :

« ماذا كان سيقول أصدقائنا في الوطن لو شاهدونا في مثل هذه الحال !؟ » •

وأحسبنا الآن أكثر من أي وقت مضى بالحاجة الى الآلات فلو كان لدينا مجرفة أو اثنتان وعربة يد ذات عجلة واحدة ، لاستطعنا

عمل المعجزات • ولكن لم يتوفر لنا الامجرفة فحم صغيرة ، ومكنسة من الليف ، وسلتان من سلال الفحم النباتي ، وحوالى عشرين زوجا من الأيدي البشرية • لقد كنا فقراء حقا • وقد استطعنا أن ننجز بلاسلوب ما كان يحتاج الى الانجاز بالوسيلة • قام بعضنا بازاحة الرمال ، وقام البعض الآخر بوضعها فى السلتين ، وحمل البعض الآخر الساتين الى طرف الصخرة وأفرغهما فى النهر • أما الرجل الكسول فقد شغل نفسه بحفر قناة الى حيث كان المنحدر شديد الانحدار فسهل العمل ، وحافظ على بقاء القناة خالية ، مما جعل الرمل يندفع منها كما لو كان سيلاً من الماء •

وفى نفس الوقت أخذت الفجوة تتسع سريعا • وبعد مرور ساعة من بدء العمل الذى بدأه الرسام والبحاران وجدنا ثقباً يسمح بمرور يد الانسان • استطعنا عن طريقه أن نلمح الحوائط الملونة خلفه • وعند غروب الشمس كنا قد كشفنا عن قمة المدخل • وعندما انتهى الشق الى كسر مثلث الشكل ، وصلنا الى ثغرة تصل مساحتها الى حوالى قدم ونصف قدم مربع • وكان محمد على هو أول من دخل فيها ، وتبعناه مع شمعة وعلبة ثقاب ، ولكنه خرج مسرعاً قائلاً انها بركة رائعة الجمال ، ودخلها مضى •

ثم دخلت الكاتبة بعده فوجدت نفسها تنظر من قمة منحدر رملى الى غرفة صغيرة مربعة • أما هذا المنحدر الرملى الذى يرتفع هنا الى حوالى قدم ونصف قدم من قمة المدخل ، فقد كان مكوما الى السقف فى الركن الذى خلف الباب ، ثم انحدر بحدّة الى أسفل ، حتى غطى الأرضية تماما • وكان هناك ضوء كاف لرؤية كافة التفاصيل بوضوح ، فهناك الافريز الملون الذى يدور تحت السقف • والنقوش البارزة المرسومة على الحوائط وقد لونت بالوان زاهية ، والرمل الناعم المكوم بالقرب من القمة حيث دخل محمد على • ولما لم يتوزع الى أية ناحية أخرى بفعل انسان ، فان الفتحة الكبيرة فى وسط السقف حيث أقسحت الصخرة الطريق والقطع الساقطة على الأرضية ، كل ذلك دفن معظمه الآن تحت الرمال •

وشعرنا بالرضا لأن المكان لم يمسه أحد • وخرجت الكاتبة زاحفة ، بينما دخل الآخرون زاحقين ، واحداً فواحداً • وبعد أن شاهدها كل منهم بدوره ، تم اغلاق الفتحة فى المساء ، ومنع البحارة من الدخول حتى لا تضار الزخارف •

وفى هذا المساء عقدنا مجلساً استشارياً حيث قررنا أن يذهب تلحمى والرئيس حسن غدا إلى أقرب قرية للحصول على خدمات خمسين من المواطنين الأشداء . وقدردنا أننا نستطيع بمساعدتهم أن نكشف عن المكان فى مدة يومين بسهولة ، وتعشمنا أن نكشف عن المدخل إلى مكان المومياء أسفل المقبرة . أما إذا كانت مجرد هيكل صغير أو غرفة مثل تلك الموجودة فى أبريم فسنشعر بالرضا ؛ لأننا على الأقل قد شاهدنا كل ما تضمنته من رسومات ونقوش .

وقد حدث ذلك بالفعل ولكننا فى صباح اليوم التالى عملنا بجهد حتى منتصف اليوم . ثم اتخذ رفاقنا الوطنيون وعددهم حوالى الأربعين ، طريقهم إلى مركب قديم مخلى كان قاعه ممتلئاً بالماء حتى المنتصف .

لقد طلبنا منهم إحضار أدوات وقد أحضروا بعضها ومنها مجدفان مكسوران لاستخدامهما فى الحفر ، وبعض السلال وعدد من القطع الخشبية التى كانت تربط بين قطعتين من الجبال ، ويتم سحبها بطول السطح ، مثل الطرف المكون من قطع غير متجانسة . وكانت جميعها مفيدة بحالتها الراهنة . وقد استخدمت هذه الألواح فى رحلة مزدوجة من المدخل إلى الحجرة إلى حافة الصخرة مع الغناء البدائى . تم دفع هذه الألواح حتى استطاع الرجال إخلاء ممر إلى المدخل . وكان ذلك سبباً فى قيامهم بعمل إضافى حتى بعد ظهر اليوم . وعند غروب الشمس ، وبعد أن تشبثوا ، كان الممر قد تم تجويفه إلى عمق أربعة أقدام مثل نموذج مصغر لخط سكة حديد يمر بين رصيفين من الرمال .

وفى صباح اليوم التالى حضر الشيخ نفسه ومعه ابنان ، ويتبعهما مائة رجل . وكان هذا العدد أكبر مما أردناه ، فخطرت لنا فكرة ابتزاز الأموال . وقد برهن الشيخ على أنه صورة طبق الأصل من رشوان ابن حسن الكاشف الذى استمتع الزوجان السعيدان من قبل بضيافته الكريمة لمدة أسبوعين ، ولذلك استقبلناه بالترحاب ، ودعوانه لتناول الغداء . ولكى ننهى العمل بسرعة قسمنا الرجال إلى مجموعات تحت إشراف الرئيس حسن ، وكبير البحارة . وعند الظهر أزيلت الرمال عن الباب حتى عتبتة السفلى وظهر الحائطان الجنوبي والغربي بكاملهما . وقد اكتشفنا الآن أن الأطلال التى سدت الحائط الشمالى ووسط الأرضية ليست كما افترضنا من قبل مجرد كومة من الأجزاء الساقطة ، ولكنها صخرة صلبة سقطت بكاملها من أعلى ، وكان من الصعب تحريكها ، فلم تكن لدينا أدوات للقطع أو التكسير ، وكانت أعرض وأعلى من المدخل .

كما أن محاولة إخلاء الرمال التي ترتفع خلفها الى السقف ستستغرق وقتا طويلا وقد تسبب أضرارا حتمية للزخارف التي حولها • وقد بهت لمعان اللون حيث كان الرجال قد أخذوا ظهورهم فصارت الحوائط كلها مبللة بالعرق •



مدخل الهيكل الصغير •

ولما لحظنا أنه لم يتم كشف جوالى ثلاثة أرباع الزخارف ، وأنه لم يكن هناك شيء ذو أهمية خلف الكتلة الساقطة ، قررنا ألا نستمر في العمل أكثر من ذلك •

وفي نفس الوقت قضينا وقتا سعيدا ونحن نلهو مع شيوخنا النوبلي، وهو رجل طويل حسن الملامح يتميز بالكثير من الكبرياء الطبيعية • وكان يرتدى ملابس فاخرة وعمامة بيضاء قد رتبت لفاتها بعناية فائقة ، كما لف حول رقبته شالا أبيض اللون وارتدى رداء طويلا مفتوحا من الصوف الأسود ، وعباءة خارجية من القماش الأسود الفاخر ذات أكمام وقلنسوة •

وقد ارتدى في قدميه جوارب بيضاء وحذاء مغربيا قرمزي اللون . وقد ازداد حرجه عندما واجه السكين والشوكة وظهر أنه كبير السن بحيث لا يستطيع أن يتناول طعامه بنفسه . ولابد من وجود من يطعمه مثلما كان لدى عظماء الرجال في العصور الوسطى ذواقة يقوم بتذوق النبيذ . ولما كان تلحمي مؤهلا لهذا العمل فقد التقط بأصابعه أجزاء من لحم الضأن والدجاج وغمس قطعاً من الخبز في الصلصة ، ووضع كل لقمة في فم ضيفنا العظيم كما لو كان الضيف المذكور طفلاً .

وعند تقديم الحلوى أخذته السيدة الصغيرة والسيدة (ل) والكاتبة من يده ، وأطعمنه بكافة أنواع المربي والفواكه المحفوظة . وقد سعد الرجل المسكين بهذا الاهتمام فأكل كما لم يأكل من قبل ، ووضع يده على المنطقة التي تلي قلبه ، وطلب الرحمة .

وبعد الغداء دخن نارجيلته ، وقلمت القهوة فلم تعجبه قهوتنا فتذوقها وأعاد الفئجان سريعاً ، وهو يقول للنادل بامتعاض إن البن احترق أكثر من اللازم وصارت القهوة ضعيفة . ولما اعتذرنّا عن ذلك تأسف بأسلوب النفاق الشرقي المعروف وقال إنها قهوة جيدة .

وكان من السهل تسليته لأنه كان مهتماً بكل شيء . بنظارة الميدان الخاصة بالسيد (ل) والأكورديون الخاص بالرسام ، والبيانو ، وبريمة فتح الزجاجات . وقد سعد جداً عندما أعطيناه القليل من الكولونيا ، ومررها على لحيته ، وأخذ يشمها وعيناه مغلقتان في حالة من الانتعاش . وكان فتح موضوع للحديث هو الأمر الصعب كالعادة . وعندما ذكر لنا أن ابنه الأكبر هو حاكم الدر ، وأن أصغر أولاده عمره خمس سنوات ، وأن بلح الدر أفضل من بلح وادي حلفا . وأن أهالي النوبة فقراء ، وصل إلى نهاية موضوعاته . وأخيراً طلب اليّا أن ننقل عنه خطاباً إلى لورد دي الذي استضافه على سطح زهبيته في العام الماضي . ولما سألناه عما إذا كان قد أحضر خطاباً معه هز رأسه قائلاً : « سيقوم ترجمانكم بكتابته » .

وسرعان ما تم اجضار الورق وقلم البسط وكتب تلحمي ما أملى عليه كما يلي :

« الرب يحفظك . أتمنى أن تكون في حالة طيبة وإنني آسف لأنه لم يصلني منك أي خطاب منذ كنت هنا - أخوك وصديقك : رشوان ابن حسن الكاشف » . وكان خطاباً موجزاً وفي الغرض .

وعندما وصلنا الى مرحلة الحساب لم يكن شيخنا المعجم الوجيه سعيدا ، فقد أرسلنا أولا في طلب خمسين رجلا ، وكان الثمن المتفق عليه خمسة قروش أى حوالى شلن انجليزى يوميا عن كل رجل . وردا على ذلك وصل الينا أولا أربعون رجلا لمدة نصف يوم ، ثم مائة ليوم كامل . وبذلك يكون المجموع ستة جنيهات لقاء أجور الجميع . ولكن أحقاد الكاشف لا يسمعون عن شيء عادى مثل الوفاء بالعقد الصريح ، فطلب أجر مائة رجل عن يومين كاملين وبندقية لنفسه وبقتيشا خاصا يدفع نقدا . ولما وجد أنه طلب أكثر مما يمكن أن يحصل عليه ، رضى لمسألة الأجور ، ولكنه أصر على طلب حقيبة لجمل الحيوانات التى يتم صيدها ، وطلب زوجا من المسدسات . وأخيرا أجبر على قبول مبلغ ستة الجنيهات أجرا لرجاله ، وأن يأخذ لنفسه برطمانين من الربى وعلبتين من السردين وزجاجة من الكولونيا وعلبة من أقراص الدواء . ونصف جنيه انجليزى من الذهب .

وعند الساعة الرابعة انصرف هو ورجاله . وقضينا اليوم التالى بكامله فى العمل داخل وحول الهيكل . وقامت السيدة (ل) والسيدة الصغيرة بنقل كتبهما وأشغال الابرة الخاصة بهما الى هناك ، وجعلتا منه غرفة استقبال وقامت الكاتبة بنسخ الزخارف والنقوش . أما الرجل الكسول والرسام فقد قاما بقياس ومسح الأرض حول الهيكل مع محاولة عمل رسم لبعض أقسام الحائط والأساس التى لم تنكشف بعد .

وقد استطاعا بفضل الفحص المتأنى لهذه الخرائب ، وإخلاء الرمال هنا وهناك ، أن يصلا الى اكتشافات أخرى ، فوجدا أن الهيكل يتم الدخول اليه عن طريق صالة خارجية كبيرة مبنية بالطوب المجفف فى الشمس ، مع مدخل رئيسى واحد فى مواجهة النيل . ومدخلان جانبيين فى اتجاه الشمال . أما الأرضية فقد دفنت فى الرمال والأنقاض ، ولكن معظم الحوائط بقيت ظاهرة فوق السطح لتبين أن السقف كان مقببا وأن المدخلين كانا على شكل عقدين .

وظهر لنا عند ازالة الرمال أن الحائط الجنوبي لهذه القاعة لا يقل سمكه عن عشرين قدما . ولم يكن ذلك عجيبا فى حد ذاته ، فقد كانت هناك فى المباني المصرية حوائط مبنية من الطوب بلغ سمكها ٨٠ قدما (١)

(١) يبلغ سمك حائط السور فى معبد تانيس الكبير ٨٠ قدما . انظر كتاب : تانيس .

بقلم : و . م . فلندرز بترى الجزء الأول - نشره صندوق استكشاف مصر E.B.F.

سنة ١٨٨٥ . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية)

ولكنه كان مثيرا للعجب لدى مقارنته بالحائطين اللذين فى الشمال الشرقى والغربى ، واللذين بلغ سمكهما ٣ أقدام فقط ، ولما كان من الواضح أنه لا يمكن أن تكون هذه الكتلة صلبة بدأ الرجل الكسول فى العمل مع اثنين من البحارة لفحص الجزء الأوسط منه ، وسرعان ما اتضح وجود فراغ مجوف يبلغ عرضه حوالى ثلاثة أقدام يسير ما بين الشرق والغرب وليس فى وسط البناء بالضبط .

ودفع الرجل الكسول أصابعه مرة واحدة فى جمجمة ! وكان ذلك حادثا مدهشا وغير متوقع ؛ لأنه حتى هذه اللحظة لم يقل شيئا ولكنه استمر فى هتؤء يزيح الرمال ويتحسس طريقه تحت السطح . وفى اللحظة التالية اصطدمت يده بحافة وعاء طينى فسحبه بعناية . كان قطره يبلغ حوالى أربع بوصات ومقبضه متاكل ومملوء بالرمل وأعلن حينئذ عن اكتشافه . وأسرع الجميع نحوه للمساعدة فى العمل ، وسرعان ما انقلبت الجمجمة الصغيرة ، ثم ظهر وعاء آخر ، ثم ظهر تحت مكان الأوعية هيكلان عظيميان مفككان ومتصلبان تماما ولكنهما كاملان . كانت هذه بقايا طفل وشخص بالغ صغير ربما كان امرأة . كانت الأسنان سليمة والعظام رقيقة وهشة . أما عن الجمجمة الصغيرة (التى سقطت عند الرقبة) فقد كانت صافية وهشة وقابلة للكسر من ناحية البنية مثل كوب من ماء الزئبق ، ووضعنا العظام جانبا كما وجدناها ، وأخذنا فى فحص كل حفنة من الرمال على أمل اكتشاف شيء يمكن أن يلقي الضوء على أشخاص المدفونين ، ولكن بلا طائل ، فلم نجد شريطا من القماش أو خرزة أو قطعة عملة أو أى أثر صغير لشيء يساعد للحكم على ما اذا كانت هذه البقايا فى مكانها منذ مائة عام مضيت أو ألف عام .

والآن ، استدعينا جميع البحارة واستمررنا فى التفر الى أسفل داخل ما يبدو أنه عقد ضيق تبلغ مساحته حوالى خمسة عشر قدما طولا وثلاثة أقدام عرضا .

وبعد التأمل اقتنعنا بأننا عثرنا على مقبرة نوبية بالصدفة ، وأن الأوعية (التى أطلقنا عليها أولا اسم قوارير الرماد من باب التكريم) لم تكن الا قوارير الماء المعتادة التى كانت توضع بجوار رأس الميت . ولكننا لم نكن حينئذ فى حالة نفسية تسمح بالتأمل ، وتأكدنا أن هذه المقبرة لم تكن الا غرفة صغيرة لحفظ الجثث ، وأن العقد لم يكن الا حفرة رأسية تقود الى غرفة الدفن ، وأننا سنجد تحتها . من يستطيع أن يذكر ماذا ؟ موميئات . ربما ، ونواويس وتمائيل جنازية ، ومجوهرات ، وأوراق

بردية ، وعجائب لا تنتهى ! جعلت القدماء يضعون هذه العظام فى فوهة مثل هذه الحفرة بلا عناية مما جعلها تبدو غريبة بالنسبة لنا . وماذا بعد أن افترضنا أنها بقايا نوبية ؟ وإذا كانت الجثة النوبية فى الطبقة العليا فلماذا لا تكون هناك جثث لقدماء المصريين فى الطبقة السفلى ؟

ومع استمرار أعمال الحفر ، وجدنا أن العقد يمكن الدخول اليه عن طريق سطح مائل شديد الانحدار ، ثم يتحول السطح المائل ليصير سلما ذا درجات ضحلة بالية . وكان يقود الى مقر مريع صغير على عمق حوالى اثنى عشر قدما تحت مستوى سطح البحر يهبط منه مدخل رئيسى وممر مفتوح على القاعة الأمامية للمقبرة (١) . وقد لقي بحارتنا صعوبة عظيمة فى حفر هذا الجزء بسبب ثقل وزن الرمال المتراكمة والحطام المتدفق من الجانب الآخر للمقبرة . ومع اخلاء الأرضية تمكنوا من كشف الأرض التى كانت مبلطة بأقمار من الفخار مثل قاع مقياس السوائل . وهذه الأقمار التى استخرجنا منها حوالى ثمانية وعشرين أو ثلاثين قمعا لم تكن على الأقل شبيهة بالأقمار الجنازية التى وجدت مهمة فى طيبة لأنها لم تحمل أى ختم . وكان شكلها أقصر وأكثر صلابة . وأخيرا وبعد أن أبعدنا جميع الأقمار وصلنا الى أرضية مضغوطة وصلبة من الصلصال المحروق .

وفى نفس الوقت كان الرسام منشغلا فى العمل أيضا . لقد تتبع الدائرة ورسم خطا تخطيطيا للأرضية ، واستنتج أن كل الكتلة المتصلة بالحائط الجنوبي للمقبرة كانت فى حقيقة الأمر مكونة من خرائب احدى البوابات التى كان سمك حوائطها سبعة أقدام . وقد بنيت فى خطوط منتظمة من الطوب الرملى . وانتهت فى الزوايا بالحجارة الناتئة المعتادة ، أو الأفاريز الدائرية . وقد زال المبنى كله بحجراته وممراته وأفريزه العلوى ، وأن الجزء الذى نهتم به الآن كان مجرد القاعدة وتضمن قاع السلم .

(١) ساد الاعتقاد فترة طويلة بأن المصريين لم يعرفوا فكرة القوس أو العقد فى مبانيهم . ولم تكن تلك هى القضية ، فهناك عقود من الطوب تعود الى أيام رمسيس الثانى خلف الرمسيوم فى طيبة وغيرها من الأماكن . ولكن العقود نادرة فى مصر بوجه عام . وقد قمنا بعمل العقد وتغطيته مرة أخرى ، وكذلك الجزء الأكبر من السلم للمحافظة على الجزء السابق .

وقد قضى الرسم التخطيطي الذى قام به الرسام على كل آمالنا فى خطة واحدة . فلم يعد العقد عقدا ، وكذلك فإن السلم لم يعد يقود الى غرفة الدفن . ولم تعد الأرضية المبنية من الطوب تخفى مدخلا سريا . وتبخرت المومياوات فى الهواء . ولم يعد لدينا سبب يدفعنا الى الاستمرار فى الحفر . وشعرنا بالاحباط الى أبعد الحدود . وقلنا لأنفسنا فى يأس ان اكتشافنا لبوابة ضخمة من الطوب تلك التى لم يتنبه الى وجودها غيرنا من السياح الذين سبقونا ، كان حدثا له أهميته القصوى أكثر من مجرد اكتشاف مقبرة . لقد اعتمدنا على اكتشاف المقبرة وأخشى أن أقول ان اهتمامنا بالبوابة لم يكن بنفس الحماس .

أما وقد تتبعنا مسار الحفائر الى هذا المدى ، والطريقة التى كان كل اكتشاف يقودنا بها الى اكتشاف آخر مترتب عليه خطوة خطوة ، جعلنى أشعر بضرورة أن أعود الآن الى المقبرة وأحاول أن أصفها بقدر الاستطاعة ليس فقط اعتمادا على مذكراتى التى دونتها عن المكان ، ولكن على ضوء تلك الملاحظات التى دونتها فيما بعد عن الانشاءات التى تنتمى الى نفس الطراز والفترة الزمنية . ولابد أن أقدم لحديثى بأننى لم أعد قادرة على الدخول فيها أثناء قيام الحفارين بالعمل . وقد بقى لنا يوم واحد فقط فى (أبو سنبل) بعد انتهاء العمل ، وهكذا لم يعد متاحا لى الكثير من الوقت . لقد أردت أن أعمل صورا ملونة لجميع النقوش الجدارية ولكن ذلك لم يكن فى استطاعتى ، ولذلك اضطررت الى الاكتفاء بنسخ النقوش وعمل صور تخطيطية لقليل من الموضوعات ذات الأهمية القصوى .

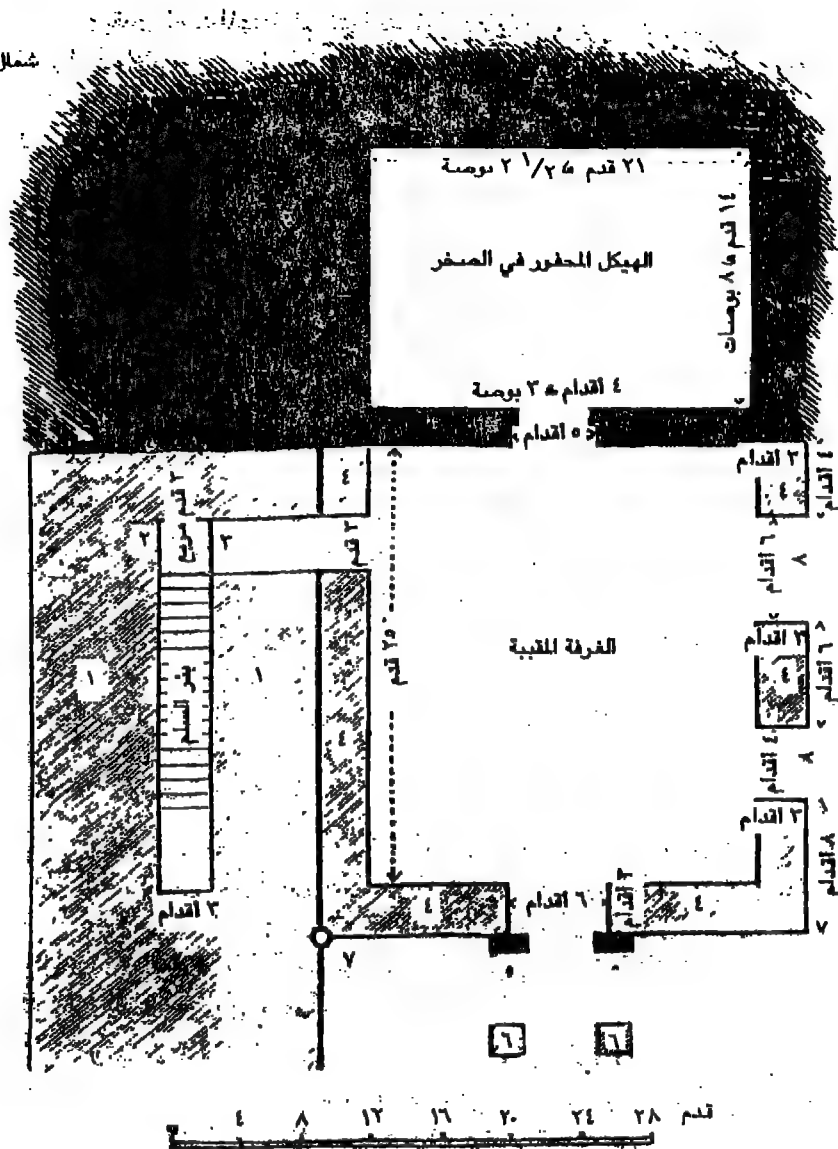
كانت الغرفة المنحوتة فى الصخر التى سبق أن وصفتها بأنها هيكل ، التى اعتقدنا فى البداية أنها مقبرة ، وهى ليست كذلك فى حقيقة الأمر . لقد كانت هيكلأ أثريا نصف مبنى ونصف محفور ، معاصرا زمنيا للمعبد الأكبر . ويتشابه هذا الأثر فى بعض نواحي التصميم مع المعبد المعاصر المقام فى بيت الوالى . ومن الواضح لأول وهلة أن الحوائط الخارجية للآنتين كانت تتخذ فى الأصل شكل العقود ، وأن النقوش المشوهة فوق مدخل الحجرة المحفورة فى (أبو سنبل) تتفق فى موضوعها ومعالجتها مع تلك الموجودة على المدخل مع الأجزاء المحفورة فى بيت الوالى . أما فيما يتعلق بالمفهوم العام فإن أثر (أبو سنبل) يسدج تحت نفس العنوان مع المعابد المعاصرة له فى الدر وجرف حسين ووادى السبع ، من حيث أنه طراز مختلط يربط ما بين الحفر والبناء . ويبدو أن هذا الطراز كان شائعا على أيام رمسيس الثانى .

ويقع هذا المدخل المحفور فى الصخر فى الزاوية الجنوبية الشرقية للصخرة ، بعد واجهة المعبد الكبير بقليل وصالة المدخل التى تمتد من الجنوب الشرقى الى الشرق وتتحكم فى معظم المنظر الذى يرتفع الى مستوى معبد حتحور ، وهذه البوابة المحفورة يصل عرضها الى ٢١ قدما ، و $\frac{2}{3}$ بوصة ، ويبلغ طولها ١٤ قدما ، و ٨ بوصات . أما الارتفاع من الأرضية الى السقف فيبلغ حوالى ١٢ قدما . ويبلغ عرض المدخل ٤ أقدام ، و $\frac{3}{4}$ بوصة ، كما تبلغ الفجوة الخارجية لاطار الباب ٥ أقدام . وهناك ثقيان كبيران مستديران أحدهما فى العتبة والآخر فى العارضة العليا فوق الباب وهما يحددان مكان المحور الذى كان يدور حوله الباب يوما ما .

وليس من السهل قياس الصالة الخارجية فى حالتها الخربة والمزدحمة حاليا ، ولكننا بقدر استطاعتنا نقول ان أبعادها هى كما يلى : ٢٥ قدما للطول ، و $\frac{2}{3}$ قدم للعرض ، ٦ أقدام عرض المدخل الرئيسى المقابل للنيل ، ٤ أقدام ، ٦ أقدام للمدخلين الجانبيين على التوالى . ويبلغ سمك الحوائط المبنية من الطوب ٣ أقدام ، وهناك عارضتان رأسيان للباب على كلا جانبي المدخل الرئيسى لهذه الصالة المبنى من الطوب . وعلى بعد حوالى ستة أو ثمانية أقدام أمامها ينتصب صقران حجريان فوق قاعدتين حجريتين عليهما نقوش هيروغليفية .

وقد وجدنا أحد هذين الصقرين فى مكانه . بينما كان الآخر أبعد قليلا . وقام الرسام الذى لم يتوقع اكتشاف أى من هذه الأشياء بعد المفاجآت باستخدامها كمحور ، ربط إليه أحد المحال الرئيسية لحيمة الرسم الخاصة به ، ووجدت لوحا هيروغليفيا ضخما أظن أنه كان يشكل جزءا من الباب ، واقعا عند جانب البوابة على بعد ياردات قليلة بالقرب من النهر .

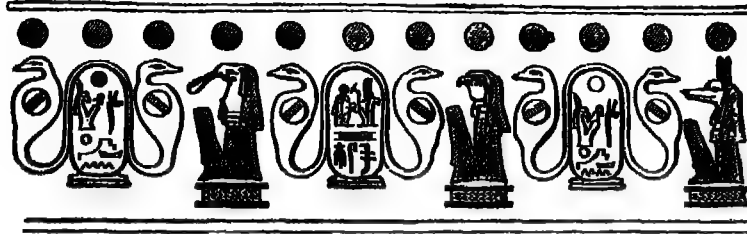
بوما دمنا نتحدث عن المدخل والصالة الخارجية فان الرسم التخطيطى المرفق لأرضية المعبد الذى أنشئ على أساس القياسات التى قمت بها من جهة . وعلى أساس الجزء الذى استعرتة من الرسم التخطيطى الذى قام به الرسام من جهة أخرى ، يمكن قبوله بوصفه رسما صحيحا . أما فيما يتعلق بالبوابة فاستطيع أن أقول بكل ثقة ان السلم الذى يقع فى الوسط يبلغ عرضه ثلاثة أقدام ، وان سمك الحائطين اللذين على جانبيه يبلغ سبعة أقدام بالرغم من صعوبة ذلك لأنه مدفون بين الانقاض والرمال مما يصعب معرفة أين ينتهى البناء وأين تبدأ القمامة فى الطرف الذى يلى نهر النيل . ولذلك تركنا هذا الجزء غير محدد فى الرسم التخطيطى للأرضية .



الرسم التخطيطي للأرضية •

- ١ - الحائط
- ٢ - مهبط مربع
- ٣ - المدخل والممر اللذان يقودان الى الغرفة المنيية
- ٤ - حوائط الغرفة المنيية أي ذات العقد أو القوس العلوى
- ٥ - محاور الباب
- ٦ - الصقور الحجرية على قواعدها
- ٧ - حد الصرح
- ٨ - المداخل المنيية (ذات العقد المنقب) في الحائط الشمالى

وبقدر استطاعتنا لم نشاهد أية دعائم حجرية في الجانب الداخلي للحوائط الأمامية • ولو كان هناك شيء من هذا القبيل فمن الممكن اكتشاف بعض بقاياه مع استمرار إخلاء المنطقة من الرمال • وهو عمل مثير بالنسبة لمن لديه وقت فراغ للقيام به •



طراز من الأفريز •

وسأتحدث الآن عن زخارف المدخل والجانب الداخلي للحوائط التي ترتفع من أسفل السقف إلى حوالي ثلاثة أقدام من الأرضية ، وهي جميعها مقطوعة بنقوش موضوعات دينية محفورة بالحفر البارز ومنقطة ، كما هي العادة ، بطبقة من الجص وملونة بألوان زاهية لا أعرف لها مثيلاً فيما عدا مقبرة سيتي الأول في طيبة (١) وهذه الألوان في المنطقة التي تعلو مستوى الرمال المتراكمة لامعة وجيدة المظهر كما لو كانت قد انتقلت إلى هذه الحوائط من باليتة الرسام • أما كافة النقوش التي تحت هذا المستوى فقد كانت معتمة ومهشمة •

وينحيط بالسقف أفريز من الخراطيش التي تحملها الحيات المقدسة ، وقد انقسم كل خرطوش مع حياته من الخرطوش الذي يليه بواسطة شكل جالس صغير • وتتخذ هذه الأشكال رؤوساً رمزية لآلهة مختلفة مثل رأس البقرة للآلهة حتحور ، ورأس أبي قردان للآلهة تحوت ، ورأس البصقر للآلهة حورس ، ورأس ابن آوى للآلهة أنوبيس • الخ • الخ • وتتضمن الخراطيش الطراز المعتاد ، وألقاب الملك رمسيس الثاني (أوسر - ماعت - رع - سحتب أن - رع - رمسيس مري آمون) وتحيط بها مجموعة من قرص الشمس • وقد وضع تحت كل آله جالس الحرف الهيروغليفي الذي يعنى (مري) أو (محبوب) •

وعن طريق هذه الوسيلة فإن الأفريز كله يدل على مسار أسطورة مرتبطة به ، ويصف الملك ليس فقط بأنه محبوب آمون ، بل أيضاً بأنه رمسيس محبوب حتحور وتحوت وحورس • وباختصار فهو محبوب كل آله ظهر في السلسلة • وهذه الآلهة فيما عدا الأفريز متطابقة في التصميم مع الأفريز الموجود في القاعة الأولى بالمعبد الكبير •

(١) المعروفة باسم بلزوني •

الحائط الغربى (١)

ينقسم الحائط الغربى أو الرئيسى الذى يواجه المدخل الى موضوعين كبيرين يحتوى كل منهما على رقمين كبيرين من المعلومات . ففي القسم الأيمن يقوم الملك رمسيس الثانى بالتعبد للاله رع . أما فى القسم الشرقى فهو يتعبد للاله آمون رع ، وهذا الترتيب يتفق مع ذلك الموجود فى المعبدین الآخرين حيث تحتل الموضوعات التى تخص آمون رع النصف الأيسر ، بينما تحتل الموضوعات التى تخص الاله رع النصف الأيمن فى كل مبنى . ويفصل بين هذين القسمين شعار رأسى يعلوه رأس حورس أرويريس Aroëris أى حورس المتوج ، بروعة كبيرة (٢) ويظهر



حورس المتوج (أرويريس)

(١) أكتب عن هذه الحوائط مشيرة اليها بالفاظ الشمالى والجنوبى والشرقى والغربى كما تعودنا باعتبار أن موقع المبانى مواز للنيل ، أما الأثر الحالى فنظرا لأنه يميل قليلا ناحية الجنوب حول زاوية الصخرة فإنه يقع فى اتجاه جنوب شرق الى الشرق بدلا من الشرق والغرب كالمعبد الكبير .

Horus Arceris. — « Celui-ci qui semble avoir été frère (٢) d'Osiris. Porte une tête d'épervier coiffée du pschent. Il est presque complètement identifié avec le soleil dans la plupart des lieux où il était adoré, et il en est de même très souvent pour Horus, fils d'Isis. » — *Notice Sommaire des Monuments du Louvre*, 1873. De Rougé. In the present instance, this God seems to have been identified with Ra.

الملك رمسيس الثانى فى الموضوع الأيمن وهو يلبس التاجين الأحمر والأبيض ويقدم قربانا مكونا من زهرتين بدون مقابض ، وقد لونت الزهرتان باللون الأزرق ، والمفروض أنهما تحتويان على أحجار كريمة هى أحجار اللازورد التى كان قدماء المصريين يحبونها وكانت معروفة لديهم باسم خسبت . وكذلك كانت صدرية الملك وأكاماه وأساوره جميعها أيضا زرقاء اللون . ويجلس رع متوجا على العرش ممسكا فى إحدى يديه بعلامة العنخ ، أو الصليب ذى المقبض رمز الحياة ، ويمسك فى اليد الأخرى صولجان الآلهة الذى تحليه رأس الكلب السلوقى (١) . ان رأسه رأس الصقر ومتوج بقرص الشمس والأفعى . أما لون بشرته فهو أحمر بندقى لامع . ويرتدى صدرية مزخرفة وصدرية ثمينة مكونة من حبات قمرية وسوداء بالتبادل ، وحزاما ذا لون أصفر ذهبى مرصعا بأحجار حمراء وسوداء . أما العرش الموضوع فوق منصة زرقاء فهو ملون بخطوط مستطيلة حمراء وزرقاء وبضياء . والمنصة مزخرفة بصف من النجوم ذات اللون الذهبى وعلامات الفخ الملونة باللون الأحمر . وعند أقدام هذه المنصة بين الآله والملك يقع مذبح صغير موضوع فوقه أزهار اللوتس الزرقاء بسيقانها الحمراء مع اثناء لسكب السوائل . وإلى يسار شعار حورس يجلس آمون رع أكثر الآلهة المصرية بشاعة ، وظهره إلى ظهر رع على نفس العرش بلون بشرته الأزرق الأسود ، وحزامه المكون من سلسلة ذهبية وغطاء رأسه المكون من ريش الطيور (٢) ، وهنا أتاحت لنا الصورة

(١) « Le sceptre à tête de lévrier, nommé à tort sceptre à tête de cou-coupha, était porté par les dieux. » — *Dic. d'Arch. Egyptienne* : P. Pierret à Paris, 1875.

(٢) آمون ذو البشرة الزرقاء هو أقدم طرازات هذا الآله وهو هنا يمثل الولاء المقدس الذى يحمل عنه لقبه « اله السموات والأرض والمياه والجبال » .
« Dans ce rôle de roi du monde, Amon a les chairs peintes en bleu pour indiquer sa nature céleste ; et lorsqu'il porte le titre de Seigneur des trones, il est représenté assis, la couronne en tête : d'ordinaire il est debout. » — *Etude des Monuments de Karnak*. De Rougé, *Mélanges d'Archeologie*, vol. I, 1875.

وقد عرفت مصر تشكيلات عديدة من صور الآله آمون مثل التشكيلات العديدة من صور العذراء مريم فى إيطاليا أو إسبانيا . فقد كان هناك آمون طيبة ، وآمون الغنثين وآمون قفط وآمون كيمس (بانوبوليس) وآمون البعث وآمون الندى وآمون الشمس (آمون رع) وآمون الكائن بذاته أى الذى خلق نفسه بنفسه . الخ . الخ ولا شك أن الآلهين آمون وكيم هما اله واحد . ومن النحقات المدهشة أن تعود الكلمات الانجليزية المشتقة من كلمة كيمياء العربية فى أصلها إلى الاسم كيم الذى اتخذته أقدم آلهة قدماء المصريين وتعنى اله الذبائح والأعشاب وعناصر الخلق . ولا شك أن المزارع المصرى قد اعتبر جميع هذه الآلهة التى أطلق عليها اسم آمون هى طرازات رمزية من اله واحد .

النسليمية التي تميز بها السطح رؤية أن الفنانين القدماء لم يعتادوا استخدام هذا اللون المختلط ما بين الأزرق والأسود فكان واضحاً أن بشرة الاله قد لونت أولا باللون الأسود القاتم ثم لونت بلون مأخوذ من بودرة الكوبالت الأزرق ، ومع ذلك استمر اللون الأسود ظاهراً ، وهو يحمل فى إحدى يديه علامة العنق ويمسك باليد الأخرى الصولجان الذى تحليه رأس الكلب السلوقي . ويقدم إليه الملك يده اليمنى مرفوعة ، وفى يده اليسرى سلة صغيرة تتضمن قربانا عبارة عن تمثال صغير للالهة ماعت الهة الحقيقة والعدالة . وعلى كل حال فإن ماعت مجردة من ريشها المميز وتمسك بالعصا التي تحمل رأس ابن آوى بدلا من علامة العنق .

أما عن دلالة هذه الصورة الشخصية فإنها لا تمثل أيا من رؤوس رمسيس الثانى ولكن الملامح تحمل شيئا معينا للرسم الجانبي المعروف لوجه الملك . أما تنفيذ الشكل فهو رشيق ومليء بالحركة ، ويمثل الشكل بكل نقائه الخط الواضح والانسياىى لفن رسم التصميمات الهندسية المصرى .

ويتميز لباس الملك بلونه الغامق ، فالخوذة التي تشبه تاج الأسقف ملونة بلون الكوبالت الأزرق (١) المزخرف باللون الذهبى . أما الحزام

(١) أن المادة المصنوع منها هذه الخوذة الزرقاء والتي ورد رسمها كثيرا على الآثار ، قد تكون هى مادة Homeric Kuanos التي تجمع عنها الكثير من الشكوك والتخمينات ، والتي يفترض مستر جلاستون أنها كانت معدنا من المعادن أنظر : Juventus Mundi, Chap XV, p. 532.

وتقدم لنا فقرة منشورة فى مجلة The Academy (٨ يونيو سنة ١٨٧٦) الخصائص التالية عن مصابيح ملتهبة معينة مصنوعة من « مادة معدنية زرقاء » اكتشف فى هيسارليك على يد الدكتور شليمان ووجدت مركزة تحت الدروع النحاسية التي ربما كانت عالقة بها . وقد أجرى عليها فحص بمعرفة العالم لاندر - أنظر : (Berg. Hüttenm-Zeitung, XXXIV, 430) أظهرت أنها سلفات النحاس . وقد كان فن تلوين المعادن معروفا للنحاسين فى كورنثوس فكانوا يغمسون النحاس الساخن فى نافورة بيرين ، ويبدو أنه من المستحيل أن تكون هذه عينا فوسفورية ، وأن اللون الأزرق قد انتقل الى المعدن عن طريق غمسه وهو فى درجة الاحمرار فى الماء وتحويل السطح الى سلفات النحاس .

ويلاحظ أن الدعاية يظهرون وهم يرتدون هذه الخوذة الزرقاء فى مناظر المعارك وأنها كانت فى معظم الاحوال مرصعة بحلقات من الذهب . ولذلك فلا بد أن تكون من المعدن . فإذا لم تكن من سلفات النحاس فلا بد أنها كانت تصنع من الصلب الذى يعرف فى أفضل حالاته ممثلا فى مسن الجزار وغير ذلك من الأسلحة التي ترسم على الآثار باللون الأزرق .



رمسيس الثاني المرسوم في الهيكل

والصدرية والأكمام والأساور ، فكلها من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة . أما الأرضية فهي خضراء وذهبية . ويحوم فوق رأس الملك النسر المقدس وشعار الالهة موت وهي تمسك بمخالبها نوعا من اللوحات المعدنية قد رسمت عليها علامة العنخ .

الحائط الجنوبي

الموضوعات المرسومة على هذا الحائط هي كما يلي :

- ١ - رمسيس بالحجم الطبيعي ينصدر مائدة القرايين . ويرتدي الملك غطاء الرأس القماش « النمس » بخطوط ذهبية وبيضاء ومزخرف بالآففى . وقد تكسست المائدة كما هي العادة باللحوم والطيور والأزهار .

والسطح هنا سليم وتفاصيل هذه الأشكال قد نفذت بدقة مدهشة ، حتى أطراف الريش السوداء الدقيقة للأوزات التي نتف ريشها قد رسمت بنفس اخلاص الفن الصيني ، بينما ظهر جرح أحمر فى صدر كل أوزة يوضح كيف تم ذبحها للتضحية • أما الأرغفة فقد كانت مكونة من قرصين، الصغير فوق الكبير وهو ما يطلق عليه علميا اليوم اسم *Cottage loaf* وبها نفس الهبوط العلوى النانج عن ضغط اصبع الخباز ، وتتوج المجموعة أزهار اللوتس والبردى فى شكل باقات •

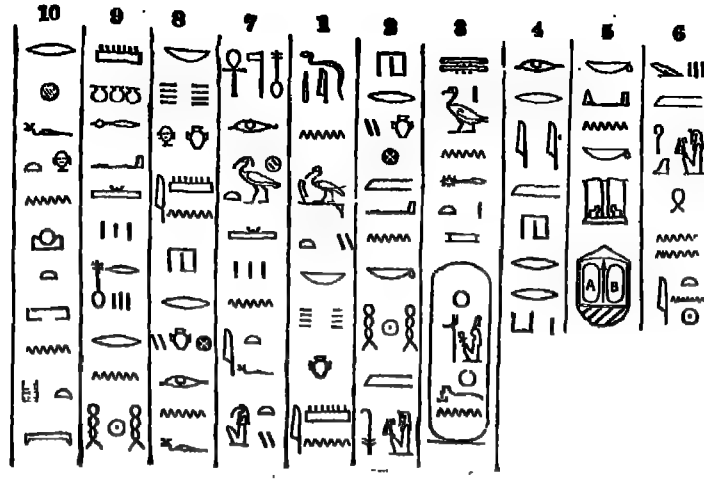
٢ - حاملان ثلاثيان من طراز خفيف ورشيق يحملان الأزهار •

٣ - البارى *Bari* أو القارب المقدس ملون باللون الذهبى وبه الحجاب المعتاد نصف المرخى عبر الناوس أو المقصورة ، وقد انحنت مقدمة القارب بطريقة رائعة ، وزينت بالعين الرمزية *Uta* (١) تسبقها مروحة ضخمة من ريش النعام • وقد ظهر ركاب القارب فى شكل نقاط سوداء صغيرة يركع أحدها أمام مؤخرة القارب بينما يجثم أحد تماثيل (أبو الهول) بجسم أسد ورأس بشرى ويراقب مقدمة الملك وهذا التمثال يمثل الملك (٢) •

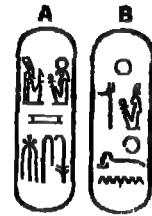
وعلى هذا الحائط ، وفى الفراغ الموجود بين القارب المقدس وشكل الملك رمسيس ، يجرى النقش التالى المنحوت نحوا بارزا والملون باللون زاهية :

(١) هذه العين التى تسمى أوجات ، استخدمها المصريون بكثافة للزينة والتعاويد أثناء حياتهم ، وكتعويذة مع الميت وجدت فى شكل عيون يعنى وعيون يسرى • وتمثل عين حورس وهو ينظر الى الأفق الشمالى والأفق الجنوبى فى رحلته من الشرق الى الغرب من الشروق الى الغروب • وقد ذكر مسيو جريبو فى ترجمته لمقال : أنشودة لامون رع - ما يلى : « الشمس التى تسير من الشرق الى الغرب تكشف بعينيك منطقة الشمال ومنطقة الجنوب » • انظر : *Revue Arch. vol. xxv. 1873, p. 387* .

(٢) انظر صورة طبق الأصل لهذا القارب مطبوعة على الحجر فى كتاب مستر فيليبرز ستيوارت • اشراقات نيلية :
Villiers Stuart's « Nile Gleanings » Murray, 1879.



ملحوظة : - يقرأ هذا النقش حسب أرقام الأعمدة
 فيبدأ القارئ برقم ١ ويتجه الى اليمين ثم يعود مرة
 أخرى الى العمود رقم ٧ ويقرأ بقية النص في اتجاه
 اليسار ، أما الفراغان المميزان بالحرفين A, B في الجزء
 السفلي من العمود رقم ٥ فيملؤهما خرطوشا الملك
 رمسيس الثاني .



الترجمة (١)

قال تحوت سيد سيسنو (٢) الساكن في آمون هري (٣) أقدم
 لسيادتك الأبوية على القطرين يا ابن جسمي المحبوب ، رع - أوسر -

(١) تمت ترجمة هذا النقش للطبعة الاولى من الكتاب بمعرفة المرحوم دكتور بيرش .
 أما بالنسبة للطبعة الحالية فاننى مدينة لتفضل المحترم السيد ١٠١ ، وليس برج بهذه
 الترجمة .

(٢) سيسنو هي أشمون أو هرموبوليس .

(٣) جبل عدة .

ماعت ، ستب - ان - رع ، مالك الكا . أقدم لك الأعياد التي لا تحصى
لرمسيس محبوب آمون ، رع - أوسر - ماعت ، ستب - ان - رع ،
أمير كل شيء يدور فوقه قرص الشمس ، الاله الحي الوسيم صانع الأشياء
الجميلة لأبيه تحوت سيد سيسنو الساكن في آمون هري . الذي صنع
آثارا قوية وجميلة تواجه الأفق الشرقي للسماء الى الأبد ، .

ومعنى هذا أن تحوت يوجه حديثه الى رمسيس الثاني ثم يعيش
ويحكم . ويعدده بعمر طويل وأعياد يوبيل (١) عديدة في مقابل الأعمال
التي أقيمت لتشريف تحوت في (أبو سنبل) وغيرها من الأماكن .

الحائط الشمالي :

لقد رسمت في الطرف العلوي من هذا الحائط سيدة بالحجم
الطبيعي ترتدى غطاء رأس أزرق دقيق الصنع يعلوه قرص الشمس واثنتان
من ريش النعام . وتمسك العنخ بيدها اليمنى ، بينما تمسك بيدها
اليسرى الصولجان الذي تعلوه رأس ابن آوى . وهذا الصولجان مما يخص
الالهات ، وأن غطاء الرأس هذا يخص الملكة كما هو مبين على واجهة معبد
حتحور . وقد استنتجت أننا هنا أمام صورة نصفية للملكة نفرتاري في
مواجهة الصورة النصفية لرمسيس الثاني على الحائط المقابل . وتوجد
بالقرب منها مائدة قرابين ، وضعت عليها ضمن أشياء أخرى - أربع
زهريات ذات لون أزرق غامق مرسوم عليها شرائط أفقية باللون الأصفر
ربما كانت تمثل نوعية الزجاج الملون الذي يطلق عليه اسم
False Murrhine (٢) ، وتحتوي كل من هذه الزهریات على شيء مثل

-
- (١) أعياد اليوبيل هذه التي يحتفل بها كل ثلاثين عاما ، كانت أعيادا دينية تقام
بعد مرور كل فترة ثلاثين عاما من ارتقاء الفرعون الحاكم للعرش .
(٢) يوجد بالمتحف البريطاني عدد من القوارير والفازات التي ينطبق عليها هذا
الوصف يعود تاريخها الى أيام الأسرة الثامنة والعشرين ، انظر الصندوق رقم E بالفرقة
المصرية الثانية بالمتحف البريطاني ، وهي مصنوعة من الزجاج الأزرق نصف الشفاف ،
ومجزة بخطوط متموجة من اللونين الأبيض والأصفر المعتين .

الصنوبر . أما لون الأرضية فهو أصفر غامق محاط بتقسيمات فرعية قرمزية اللون ، وقد اعتبرناها نماذج لحبوب الذرة المكدسة على شكل الهرم .

وأخيرا ، فانه يوجد على الحائط المقابل القارب المقدس، وهو مرسوم بطريقة عكسية حيث تتجه مقدمته الى الشرق ، بينما تستقر بقيته على مذبح رسم فى منتصفه خرطوشا رمسيس الثانى ، ونقش هيروغليفي صغير يعنى : « محبوب آمون رع ، ملك الآلهة ، الساكن فى أرض كينوس (النوبة) » .

وبعد هذه النقطة وفى الطرف القريب من الركن الشمالى الشرقى للغرفة ، نجد أن الرمل المكس يخفى غير ذلك مما يمكن أن تحتويه الفرفة على سبيل الزخرفة .

الحائط الشرقى

إذا كان الحائط الشرقى مزخرفا مثل الحوائط الأخرى (كقضية مسلم بها) فان لوحاته ونقوشه تختفى خلف الرمال التى يصل ارتفاعها هنا الى السقف ، علما بأن المدخل الموجود فى هذا الحائط يحتل مساحة يبلغ عرضها ٤ أقدام ، ٣ ١/٢ بوصة فى الجانب الداخلى .

وبقى جزء لا بد من ذكره عن أهم الأحداث التى تتعلق بحفر هذا الهيكل الصغير . لقد وصفت صورة السيدة التى فى الطرف العلوى للحائط الشمالى ، وكيف أنها تمسك العنخ فى يدها اليمنى ، والصولجان الذى يحمل رأس ابن آوى بيدها اليسرى . واليد التى تمسك العنخ تمتد الى جانبها ، أما اليد التى تمسك بالصولجان فهى نصف مرفوعة . ويشاهد تحت هذه اليد المرفوعة مباشرة ، وعلى ارتفاع ما بين ثلاثة الى أربعة أقدام من المستوى الطبيعى للأرضية ، وعلى السطح غير الملون للجبص الأصيل ، عدة صفوف من الكتابة بخط اليد . وقد رسمت هذه الكتابة بالفرشاة والحبر ، هذا اذا كان لونها أسود فعلا لأنه أصبح الآن بيا . ووجدت منها خمسة صفوف طويلة ، وثلاثة صفوف قصيرة لم تمس ، وتحتها آثار بعض خطوط أخرى قد طمسها الرمل .

وسرعان ما عرفنا أن هذه الكتابة الجذابة الباهتة قد كتبت اما بالخط الهيراطيقى أو الديموطيقى . واستطعنا أن نميز فى خطوطها بين الأشكال التى اعتدناها فى الكتابة الهيروغليفية ، لأنها تتكون من طيور وأفاع

وقوارب، ولا شك في أنه كان شيئا غريبا وقلبناه في عقولنا بوصفه الكتابة التي كتبها البناء أو المزخرف الذي زخرف البناء . ولما كانت الكتابة متشوقة لعمل صورة طبق الأصل من النقش فقد نقلته ثلاث مرات . وكانت أفضلها آخرها ، وهي التي نشرناها هنا مع ترجمة بقلم المرحوم الدكتور بيرش . ونعلم جميعا مدى صعوبة النقل الدقيق عن لغة يجعلها الإنسان ، وأن حذف أية انحناءة أو نقطة صغيرة يعتبر ضربة قاضية بالنسبة لمعنى هذه الحروف القديمة ، وفي الظرف الحالي فانه مهما كانت العناية التي نل بها النص فلا بد من وجود أخطاء ماثلة لأنه كان غير مفهوم في بعض الأماكن التي حدثت بها ثغرات حتمية ، ولكن بقي ما يكفي لبيان أن الخطوط لم تكتب بيد الفنان كما افترضنا ، ولكن بيد زائر دارس لم نستطع لسوء الحظ أن نتبين اسمه . وكان هذا الزائر هو ابن أمير كوش ، أو كما هو مكتوب حرفيا الابن الملكي لكوش وهو اللقب الرسمي لحاكم اثيوبيا (١) ؛ لأنه كان هناك ثمانية حكام لاثيوبيا على أيام رمسيس الثاني . (وربما أكثر ولكن لم تصل إلينا بقية أسمائهم) ومن المحال أيضا أن نجعل من تخمين أصل زائرنا عقبة . وعلى أية حال فقد عرفنا أنه أرسل إلى هناك للإشراف على إنشاء شارع ، وأنه بنى قوارب لنقل البضائع ، وأنه مارس وظائف . وبعد أن أخذنا في اعتبارنا الأرض والنقوش والزخارف تبقى لنا الإجابة على هذا السؤال :

ما هي طبيعة وخاصة الأثر الذي وصفناه الآن ؟

انه متاخم لبوابة ، وكما رأينا ، كان مكونا من غرفة مقبية مبنية بالطوب ، وهيكل محفور في الصخر . وقد رسمت على حوائط هذا الهيكل آلهة مختلفة مع صفاتها ومع القرايين والصور النصفية للملك وهو يقدم فروض العبادة . أما القارب بارى فقد ظهر مرسوما على الحائطين الشمالي والجنوبي للمدخل . وهذه هي المعالم الأساسية لمعبد أو هيكل . ومن جهة أخرى لابد من تسجيل اعتراضات معينة على

(١) حمل حاكم اثيوبيا هذا اللقب حتى عندما لم يكن من أبناء الأسرة الفرعونية الحاكمة .

وهناك حقيقة غريبة تتلخص في أن حاكما لاثيوبيا على أيام رمسيس الثاني كان يدعى **Mes** أو **Messou** وتعني (ابن) أو (طفل) . وهو نفس الاسم : موسى . والآن نرى أن النبي موسى كما ورد في الكتاب المقدس كانت قد تبنته ابنة فرعون « صار مثل ابن لها » وقد تهذب بكل حكمة المصريين ، وتزوج لمرأة كوشية سوداء ولكنها مليحة الوجه . وربما كان من المبالغة أن نتأمل في إمكانية وصوله إلى منصب حاكم اثيوبيا أو الابن الملكي لكوش .

هذه المقدمات المنطقية • لقد تهيأ لنا أن البوابة قد بنيت أولا وأن الحائط الجنوبي الذى بنى فى مرحلة تالية قد أقيم فى مقابل منحدر البوابة حيث يبدأ ظهور العقد • وإلى جانب ذلك فقد كانت البوابة ملحقا ضخما غير متناسب الأبعاد بالنسبة لأثر صغير بلغ طوله الكلى من المدخل الى الحائط الغربى للهيكل أقل من ٤٧ قدما • ولذلك استنتجنا أن البوابة تنتمى الى المعبد الأكبر ، وقد أقيمت فى الجانب بدلا من اقامتها أمام الواجهة • بسبب ضيق الفراغ الذى يفصل الجبل عن النهر (١)

ولنفس هذا السبب نجد أن البوابة التى فى كوم أمبو قد أقيمت بجانب المعبد وعلى مستوى أكثر انخفاضا • أما بالنسبة لهؤلاء الذين قد يعترضون قائلين ان البوابات المقامة من الطوب اللبن من الصعب احاطها بمعبد من معابد الدرجة الأولى ، أقول ان بقايا البوابات المشابهة ما زالت موجودة على قمة ما كان يعرف يوما بأنه المرسى الذى يقود الى المعبد الأكبر فى وادى حلفا • ويمكن افتراض أن هذا الأثر الصغير رغم ارتباطه بالبوابة عن طريق مدخل وسلم الا أنه أضيف فى تاريخ لاحق •

وما دام هو مجرد إضافة بصرف النظر عما تعنيه هذه الكلمة فإن المبني لابد أن يكون معبدا •

وحتى مع ما يحقق بذلك الاستنتاج من شك ، فإن الهيكل لا يوجد به أثر للمذبح أو قطعة من منبر حجرى أو صورة منحوتة أو عرش من الجرانيت ، كما هو الحال فى فيلة ، ولا حنية مقدسة كما هو الحال فى دندرة • أما راية حورس أرويريس (المتوج) التى سبق أن شرحناها فهى تحتل وسط الحائط فى مواجهة المدخل ليس كاله حارس ، ولكن كوسيلة للزخرفة للفصل بين الموضوعين الكبيرين اللذين شرحناهما •

ومرة أخرى نجد أن الآلهة المرسومة فى هذه الموضوعات هى الاله رع وآمون رع والآلهة الحارسة للمعبد الأكبر ، ولكننا اذا عدنا الى النقش الذى شرحناه من قبل نجد أن تحوت الذى لم تظهر صورته على الجوانب مطلقة (٢) (الا بوصفه واحدا من الآلهة الصغيرة فى الافريز) ، هو فى

(١) توجد على بعد متساوٍ من شمال المعبد الأكبر ، وحافة مجرى النيل ، كتلة غير منتظمة الشكل من الاطلال التى كانت مقامة بالطوب اللبن - ومن الممكن لو أعيد تركيبها أن تتحول الى بقايا بوابة ثانية مكملة لتلك التى كشفنا عنها جزئيا فى الجنوب •

(٢) ربما كان مرسوما على الحائط الشمالى المغطى بكومة الرمال •

الحقيقة الإله المتصدر للمكان . وهو الذى يستقبل رمسيس وقرابينه .
والذى يتقبل التعظيم المقدم له بمعرفة ابنه المحبوب ، والذى فى مقابل
الآثار العظيمة التى شيدت لتكريمه ، يعد الملك بأنه سينال « سيادة أبدية
على القطرين » .

والآن نجد أن تحوت هو إله الخطابات المعظم . ويعرف بأنه إله
الكلمات المقدسة وإله الكتابات المقدسة ، وقرين الحقيقة ، وهو يجسد
الذكاء الإلهي . انه حامى الفن والعلم ، وصاحب الفضل فى اختراع
الحروف الأبجدية ، وكما ورد فى واحد من أهم خطابات شامليون من
طيبة (١). فانه يتحدث عن الخرائب التى فى الطرف الغربى للرمسيوم
وكيف أنه وجد فيها مدخلا مزخرفا بأشكال تحوت وسافيك (٢) . تحوت
بوصفه رب القلم ، وسافيك التى جرى وصفها بلقب سيده قاعة الكتب .
وتوجد فى دندرة غرفة مخصصة للكتابات المقدسة وقد نقش حوائطها
كلها بقائمة لكنوز المعبد من المخطوطات . وفى ادفو بنيت خزانة بين
أسطونين فى صالة الاجتماع وخصصت لنفس هذا الغرض . وباختصار
فان كل معبد له مكتبته الخاصة . ولما كانت الكتب المصرية تنسخ على
البردى أو الرق ثم تلف فى أشكال أسطوانية ، وتخزن فى صناديق ،
فلذلك لم تكن تحتل الا مكانا ضيقا فكانت الحجرات المخصصة لهذا الغرض
صغيرة الحجم .

وكان من رأى الدكتور بيرش أن هذا الأثر الصغير ربما كان مكتبة
معبد أبى سنبل الكبير . أما الحال كذلك فائنا نكون قد تحدثنا عن
عدم وجود المذبح وتصوير رع وآمون رع فى اللوحتين الرئيسيتين ، بما فيه
الكفاية . أما الإله الذى يحرس المعبد العظيم وحامى رمسيس الثانى فمن
الطبيعى أن يحتل فى هذا المبنى الثانوى نفس المواضع التى يحتلها فى
المبنى الرئيسى . بينما ظلت المكتبة بوصفها من ممتلكات تحوت ، تحت
حماية آلهة المعبد الذى خصصت له .

ولا اعتقد أننا سألنا أنفسنا يوما كيفبقى هذا المكان مخفيا طوال
هذه العصور ، بينما تدل جدته على مدى الفترة الزمنية التى ترك فيها
مهجورا . ولو كان مفتوحا على أيام خلفاء رمسيس الثانى ، فلا بد أنهم
كانوا قد تدخلوا فى النقوش والخرائطش كما هو الحال فى أماكن أخرى .

(١) الخطاب رقم ١٤ ص ٢٣٥ من الطبعة الجديدة . باريس ، ١٨٦٨ .

(٢) نقصد هنا الآلهة سشات إله الكتابة - (المراجع) .

أو استبدلوا خراطيشهم بخراطيش المنشيء . ولو كان مفتوحا على أيام
البطلمة والقيصرية لكان السياح الاغريق والدارسون الرومان والغرباء
القادمون من بيزنطة ومدن آسيا الصغرى قد حفروا أسماءهم على العارضتين
الرأسيتين للباب ، وشوهوا نذورهم على الحوائط . ولو كان مفتوحا فى
أيام المسيحية النوبية لكانت النقوش قد غطيت بالطين ودهنت بالجير
ورسمت فوقها الصور المقدسة للقديس مار جرجس والعائلة المقدسة ،
ولكننا وجدناه سليما مثل قبر كان مخفيا تحت القاع الصخرى فى
الصحراء . ولهذه الأسباب أظن أنه لم يستعمل بعد استكماله مباشرة .
وهناك بعض الشك فى حدوث موجة من موجات الزلازل خلال عصر
رمسيس الثانى بطول الضفة الشرقية للنيل مبتدئة من بعد وادى حلغا
وممتدة شمالا حتى جرف حسين . وأن مثل هذه الهزة قد دمرت المعبد
فى وادى حلغا ، وخلعت البوابة فى وادى السبع ، وهزت الأجنحة المبنية
للخارج فى الدرع وجرف حسين والتي حسبما اعتقد قد حملت المعابد
الأربعة الأخيرة علامات تبين أنها أضيفت بمعرفة الفراعنة اللاحقين، مما يفيد
بأنه قد هجر نتيجة الخراب الذى ألم به . أما هنا فقد هزت الزلازل
جبل المعبد الكبير ، وشرخت أحد أعمدة أوزوريس بالقاعة الأولى (١) .
وحطمت أحد التماثيل الأربعة الكبيرة، مع أحداث إصابات صغيرة أو كبيرة
بالتماثيل الثلاثة الأخرى ، وطرحت البوابة الضخمة المبنية من الطوب اللبن،
وحولت جناح المكتبة Pronaos الى كومة من الخراب . ولم تدمر فقط
جزءا من الهيكل المحفور ، بل شقت أيضا صدعا رأسيا فى الصخرة
يبلغ طوله حوالى ٢٠ أو ٢٥ قدما .

(١) تدل على وقوع هذه الهزة أو الزلازل أثناء حياة الملك رمسيس الثانى ، حقيقة
أن العمود الأوزيريسى متصدع ، وأن هناك حائطا مبنيا لتدعيم العمودين الأخيرين الى اليسار
عند الطرف العلوى للقاعة الكبرى . وتوجد على هذا الحائط لوحة ضخمة يغطيها نقش
هيروغليفى مفصل يعود تاريخه الى السنة الخامسة والثلاثين من حكم رمسيس الثانى
فى اليوم الثالث عشر من شهر طوبة . أما الذراع اليمنى للتمثال الخارجى الواقع الى
اليمين من المدخل الكبير فقد دعم بإقامة ذراع مسندة للعرش بنيت من الطوب المربع الشكل .
وهذه هى الذراع الوحيدة التى لم يوجد مثلها فى أى من العروش الأربعة . وقد
اكتشفت ميس مارتينيو إعادة جزء من الملك السبلى للتمثال الذى فى أقصى اليمين ،
وأيضا جزءا من الرداء الذى يرتديه أحد تماثيل أوزوريس فى الصالة الكبرى . ولدى
صورة فوتوغرافية التقطت عندما كان مستوى الرمال أكثر انخفاضا من مستواها الحالى
بعدة أقدام ، وهى أن الساق اليمنى للتمثال الشمالى ليست هى الأخرى الا نتيجة اصلاح
واسع النطاق . وقد بنيت فى شكل كتلة ضخمة مثل ذراع مسند العرش ولابد أن تشطيبها
قد جرى فيما بعد .

ومع مثل هذا الدمار الشديد الذى يصعب اصلاحه والذى حدث للمعبد الكبير ، ومع ذلك الجزء الكبير الذى تم اصلاحه فان الأمر يستعري الانتباه . ولا عجب أن هذه المباني المقامة من الطوب اللبن قد تركت لمواجهة مصيرها (*) وربما استطاع الكهنة انقاذ الكتب المقدسة من بين الانقاض ثم هجروا المكان .

ولا شك فى أن الكثير مما ذكرناه هنا قد أوردناه عن طريق التخمين . ولكننا نفترض أنه سبب كاف لتفسير الحالة الجيدة التى وجدت عليها الحجرة الصغيرة عندما وصلت الينا فى عصرنا الحالى . وهناك تفسير منطقي آخر لغياب الخرطوشين الأخيرين وتسجيلات التدور الاغريقية واللاتينية ، والرموز المسيحية ، وما تلا ذلك من تشويهاة مختلفة الأنواع ، فيما عدا ما يتعلق بزائر معاصر واحد هو ابن حاكم كوش ، فاننا عندما فتحنا المكان وجدناه لا يحتوى على أية تسجيلات تتحدث عن زوار عابرين ، أو توقيع مشوه لأحد السياح أو علماء الآثار أو العلماء المستكشفين . وكذلك لم يكتشف ذلك بلزوني أو شامبليون ، وحتى لبيسيوس مر عليها مرور الكرام .

وقد يحدث أحيانا أن الأشياء المخفية التى يسهل اكتشافها فى حد ذاتها تفلت من الفحص لأن أحدا لا يفكر فى البحث عنها . ولكن لم تكن هذه هى الحال فى الموقف الحالى ، فقد جرى البحث هنا عدة مرات حتى اليوم .

(*) أثناء ترجمتى لهذه الفصول المتعلقة بآثار النوبة التى كانت موجودة منذ ١٢٠ عاما ، تذكرت اننى كنت أعمل ضابط مراقبة جوية بمطار أسوان عام ١٩٦٥/٦٤ وحضرت الاحتفال بتحويل مجرى النيل الذى أقيم فى عصر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، وفتج عن ذلك التحويل تمهيدا لبناء السد العالى ، اغراق معظم أراضي النوبة واثارها تحت مياه بحيرة ناصر ، فيما عدا ما تم انقاذه بالحملة التى دعت اليها اليونسكو حيث كان قد تم نقل معبد كلابشة ومعبدى (ابو سنبل) الى أماكن جديدة . وقد زرتها جميعا فى مواقعها الجديدة حينذاك بعيدا عن البحيرة . أما بقية الآثار التى ليست لها أهمية قصوى فقد قامت هيئة اليونسكو ومعها فى ذلك سلطات هيئة الآثار حينذاك بتصويرها وتسجيلها وعمل كتيبات عنها وهى محفوظة بمركز تسجيل الآثار بالزمالك وفى جميع الأحوال يصبح ما أوردته مؤلفة هذا الكتاب ، تسجيلا له أهميته القصوى ومصدرا عظيما لتاريخ وجغرافية اراضى النوبة التى أغرقتها البحيرة ، ولم يعد لها وجود - (المترجم) .

ويبدو أن الخديو عندما كان يريد تسليية الضيوف المشهورين الذين كان يرسلهم في ذهنيات فغمة للرحلة عبر نهر النيل (٦) ، كان يمنحهم روبة عزاء ، أو عدة أقلام مربعة من مقبرة شهيرة ويسمح لهم بالحفر الى العمق الذي يرغبونه ، ويسمح لهم بالاحتفاظ بما يعثرون عليه من آثار . وكان في بعض الأحيان يرسل فتيان الكشافة لحفر الأرض لاكتشاف مقبرة ثم يتركونها دون أن يفتحوها ، ثم يسمح للزائر الجليل القدر باكتشافها . وعندما كان فتيان الكشافة لا يوفقون كما كان يحدث أحيانا ، فانهم كانوا يعيدون إغلاق مقبرة قديمة بعناية ثم يعاد فتحها مرة أخرى بعد يوم أو اثنين بين مظاهر الفرح .

وقد ذكر لنا الشيخ رشوان بن حسن الكاشف أن ذلك حدث في سنة ١٨٦٩ عندما وصلت امبراطورة فرنسا الى (أبو سنبل) ، كما حدث مرة أخرى سنة ١٨٧٢ عندما جاء أمير وأميرة ويلز ، وكيف أنه تسلم أوامر مشبدة بالبحث عن مقبرة لم تكتشف بعد (٧) لكي يحس الضيوف بالارتياح لافتتاحها . وأضاف أنه لم يعد هناك مكان بين الصخور والوديان على جانبي النهر لم يفحصه دون أن يجد شيئا . ولكن وجود مثل هذه البرية (المبد) كان سيخدم موقفه أمام الحكومة ، وسيتيح له الحصول على بقشيش كبير من ولي عهد الامبراطورية في الوقت الذي كان فيه قد نال التوبيخ لافتقاره الى الاجتهاد ، واعتقد أنه صار منبوذا من ذلك الحين .

ولكي أنهى هذا الموضوع يجب أن أذكر هنا أن المبنى بالرغم من أنه مدفون في الخارج الى عمق حوالي ثمانية أقدام ، فإن الهيكل قد امتلأ من الداخل برشح تدريجي متساقط من أعلى . ولابد أن ذلك قد حدث عندما كان المنحدر الرمي القديم في أوج ارتفاعه . ولابد أن هذا المنحدر الذي انسال في خط متصل عبر واجهة المعبد الكبير ، كان مرتفعا هنا في يوم ما الى ٢٠ قدما فوق المستوى الحالي . ومنذئذ اتخذ الرمل طريقه الى أسفل الصدع الغمودي الذي ذكرناه من قبل . وقد ارتفعت كومة الرمال في الركن الذي خلف الباب حتى السقف ، في شكل يشبه الزمل المتراكم عند قاعدة الساعة الرملية . وقد أبلغني الرسام أنه عند اكتشاف قمة المدخل مع إحدى الفتحات لأول مرة ، انهالت الرمال من الداخل مثل الماء الذي يندفع من عين مفتوحة .

(٦) ينطبق هذا القول على الخديو السابق اسماعيل ، باشا الذي كان يحكم مصر عند تأليف هذا الكتاب وطبعه في طبعته الأولى - (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .
(٧) توجد مقابر عديدة في الوهاد التي خلف المعابد . ولم نهتم نحن بمشاهدتها .

وهنا نجد دليلا ايجابيا (هذا اذا احتاج الأمر الى دليل) على أننا
أول من دخل الى المكان ، منذ ارتفاع المنحدر الرملي حتى وصوله الى
مستوى قمة الصدع .

وكتب الرسام اسمه وأسماءنا مع التاريخ (١٦ فبراير ١٨٧٤)
في مساحة خالية من حائط خال من النقوش فوق الجانب الداخلى من
المدخل . وهذه هي المناسبة الوحيدة التي ترك فيها أى فرد منا اسمه
على أثر مصرى . وعند وصولنا الى كوروسكو حيث يوجد مكتب للبريد ،
أرسل الرسام خطابا الى جريدة التايمز يحوى باختصار الحقائق المتعلقة
بهذا المكان . وقد نشرنا هذا الخطاب الذى نشرته الجريدة فى ١٨ مارس
التالى فى التذييل الذى فى آخر هذا الكتاب .

وقد علمت فيما بعد أن أسماءنا التي سجلناها قد شوهت جزئيا ،
وأن الرسوم الجدارية التي أحسننا بالسعادة ونحن نعجب بجمالها
وجودتها قد جرحت . وهذا هو قدر كل أثر مصرى سواء كان كبيرا أم
صغيرا . فالسائح يشغل الآثار كلها بالأسماء والتواريخ وأحيانا بالرسوم
الهزلية ، وكذلك فإن دارس علم المصريين يبلل ورقة يشف بها كل أثر
باق من اللون الأصلي . أما جامع المتحف فإنه يشتري وينقل كل شيء له
قيمة يستطيع أن يتوصل اليه ، ويقوم الأعرابي بسرقة الآثار لحسابه .
وفى نفس الوقت تستمر أعمال التخريب على قدم وساق ، ولا يعمل أحد
على وقف هذا النزيف أو عدم التشجيع على المضي فيه . واستمر عمل
التشويه للمزيد من الزخارف والتماثيل . ويحتوى متحف اللوفر على
شكل بالحجم الطبيعي للإلهك سيشي الأول ، قد نزع بكامله من مقبرته
بوادى مقابر الملوك . وكذلك فإن متاحف برلين وتورين وفلورنسا غنية
بالخرائب التي تحكى قصتها الذاتية التي يرمى لها . اليس من الغريب
أنه فى نفس الوقت الذى يدخل فيه العلم الى مكان ، يدخل خلفه الجهل
أيضا الى نفس المكان ؟!

الفصل التاسع عشر

العودة من خلال أراضى النوبة

يوجد أربعة عشر معبدا ما بين أبى سنبل وجزيرة فيلة ، بخلاف المقابر والمقابر والحرائب الأخرى . وكقاعدة عامة فإن الناس يبدأون فى الاحساس بالتعب من جهة المعابد فى مثل هذا الوقت ، ويعطون أصواتهم فى غير صالحها بقدر كبير ، ويجوس السياح المتواضعون خلالها كنوع من أداء الواجب . ولكن العدد الأكبر منهم يتمرد . ويؤسفنى القول بأن الزوجين السعيدين اتخذوا مسار الغالبية ، ولم يخجلا من اعلان ذلك . لقد أعلننا صراحة أنهما يشعران بالملل ، لدرجة أنهما تجاهلا معابد عديدة .

أما عن نفسى ، فأننى لم أشعر بالملل من المعابد أبدا ، وبالرغم من كثرة عددها الا أننى أود دائما أن يكون عددها أقل ، وتوضح لنا ميس مارتينييه كيف أنها وهى فى هذا الجزء من النهر ، نادرا ما كانت تقبل بالجلوس الى الافطار قبل أن تكون قد اكتشفت معبدا . ولكننى كنت أستطيع أن أتناول الافطار وأتغذى وأتغذى على المعابد . لقد كانت شهيتى للمعابد لا تتردى . وكانت تنفتح مع ما تتغذى عليه . لقد مروت بها جميعها ، ودونت مذكرات عنها كلها ، وفحصتها كلها .

وأقول اننى سوف أنشر سريعا العدد القليل من هذه المذكرات ، والقليل من هذه الرسومات التخطيطية ، ضمن هذا الكتاب . وسوف تفشل الحرائب - اذا ما أحاط بها خلطاؤها المحليون - فى أن تثير اهتمام هؤلاء الذين يسافرون بعيدا لى يشاهدوها . وليس من المفروض أن تثير القراء فى الوطن . وربما ظهر شخص هنا أو هناك يهتم بأن ينكب معى على كل تبثال ، وأن يقرأ معى كل خرطوش قليل الوضوح ، وأن يتقصى التأثيرات الاغريقية والرومانية (التى لا تتضح فى أى مكان آخر بخلاف هذه المباني النوبية) والتدهور البطيء للطراز المصرى . ولكن العالم يحتفظ لنفسه بالجزء الأكبر منها خاصة ما يتعلق بالحقب الزمنية

العظيمة والاسماء الكبيرة التي ترددت في الماضي ، ونظرا لأنه لم يتعرف جيدا الى أسماء الكرنك ، وأبي سنبل ، والأهرام ، فانه يحتزن فدرا ضئيلا من هذه الآثار الأصغر والتي تؤرخ لفترات الحكم الاجنبي واضمحلال الفن الوطني . ولهذه الأسباب ، أقترح أن نتجاهل وباختصار شديد العديد من الأماكن التي منحتها ساعات طويلة من العمل المثير للبهجة .

وغادرا معبد أبي سنبل عند شروق القمر في مساء يوم ١٨ فبراير، وألقينا بأنفسنا مع التيسار لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال قبل أن نرسو لقضاء الليل . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي بدأنا في التجديف . وفي حوالي الساعة الثامنة والنصف كانت رؤوس التماثيل الأربعة الضخمة لا تزال ظاهرة بعد أن عبرنا سلسلة من التلال المتوسطة ، ثم أصبحت كلها على بعد يجاوز خمسة أميال على خط مباشر . ولكن كافة المعالم كانت واضحة في ضوء النهار المبكر . وكنت أرتفع ثانية وثالثة مع استمرار بقائها على مدى النظر ، وأخيرا لوح لها بتحية الوداع ، بنفس الدفء القلبي الذي يصحب المناظر الجميلة في جبال الألب .

وعندما أقول اننا قضينا سبعة عشر يوما للخروج من (أبو سنبل) الى جزيرة فيلة ، وان الريح كانت كل يوم ضدنا من شروق الشمس حتى غروبها ، فان ذلك يبين كيف كان تقدمنا بطيئا جدا ، خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين تعبوا من مشاهدة المعابد ، والبحارة الذين عانوا من القصور في مخزون الحطب ، فقد كانت هذه الأيام الطويلة – التي قضيناها راسين تحت الضفة ، أو متأرجحين يمينا ويسارا وسط النهر – مقبضة بما فيه الكفاية .

وكانت الأميال تمضي ببطء شديد ، فكانت الصحراء العارية تحيط بنا يمينا ويسارا دون وجود أي شريط أخضر بين الصخر والنهر . وفي بعض الأحيان كما حدث في توشكي (١) (*) كنا نأتي الى منطقة واسعة مفتوحة تنمو بها أشجار النخيل ، وزراعات الخروع ، وحقول القمح التي يتجمع فيها السمان . وقد نزل الرجل الكسول الى الشاطئ في توشكي

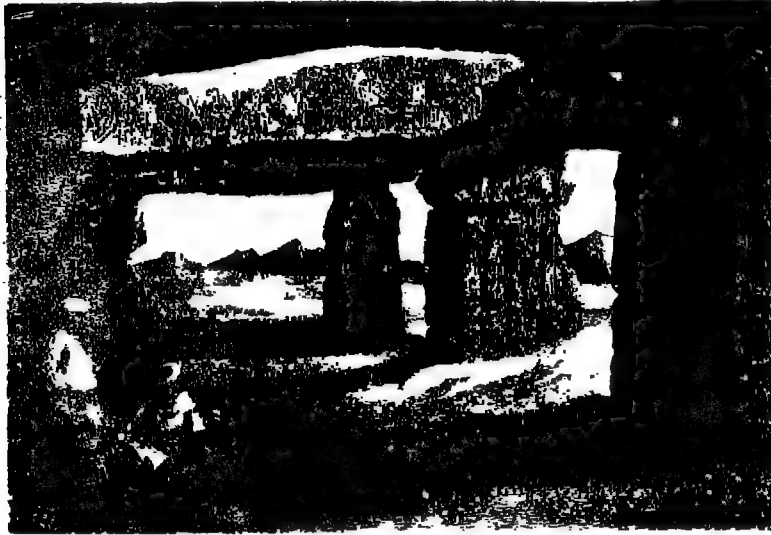
(١) تقع توشكي على الضفة الشرقية وليست الغربية كما اوردها كيث جونستون في خريطته .

(*) هي توشكي في الجهة الغربية من النيل وليست الشرقية كما تقول المؤلفة ومنها تبدأ قناة توشكي لمشروع تنمية جنوب الوادي – (المراجع) .

ومعه بندقيته • بينما تسلقت السيدة الصغيرة والكاتبة صخرة منعزلة على ارتفاع حوالى ٢٠٠٠ قدم من سطح النهر • وفى كل موسم تغطي أطراف الضفة موجة من الفيضان على شكل الهلال يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال • ويستطيع الانسان من هذا الارتفاع أن يشاهد مدى اتساع الموجة ، وكيف تنشئ خليجا صغيرا عندما تتكون هناك • والخليج الآن مزروع بالشعير الذى يملأ السنابل وتعمل الرياح على انضاجه • وبعد الخضرة تاتى الصحراء ، كلتاها خلف الأخرى فى حدة تشبه مواجهة الأرض مع النهر • ويظهر جمال عراقه الصحراء بجانب القمح الأخضر • ويتسع انتشار فيضان النيل بين الضفاف الرملية مثل نهر من المد والجذر بالقرب من البحر • أما القرية المربعة التى على شكل متوازى الأضلاع مثل سوق الماشية فهى تقع أسفل النهر • وتظهر نظارة الميدان أن المنازل مسورة فى بساطة بأحواش مسقوفة بسعف النخيل ، أما منزل الشيخ فقد كان أكبر حجما من المنازل الأخرى ويمتد أمامه الفضاء المعتاد ، كما تنتشر أمامه أشجار الجميز • وتحرك النساء هنا وهناك فى داخل الأحواش ، والأزواج فى حقول الخروج • وتظهر الآن جنازة يمشى خلفها طابور من الندابات فى اتجاه المدافن على حافة الصحراء • وكان الرجل الكسول الرفيع الجسم الذى لف حول قبعته شريطا ، وأخذ يخوض الماء وهو نصف مختف بين أعواد الشعير ، يعلن بين الفينة والفينة عن نفسه ، عن طريق نفثة من الدخان الأبيض • وتظهر مركب للبضائع عائمة فوق صفحة النهر دون أى تقدم يذكر • وهناك فلوكة وطنية ترفع شعارا مهلهلا بنى اللون تمضى سريعا مع الريح فى اتجاه الجنوب بسرعة تجعلها تصل الى أبى سنبل قبل هبوط الليل • وقد تجاوزت القرية الآن • وكانت تلك البقع السوداء التى لم نحلم بها هناك ، هى التماسيح التى ألفت بنفسها الى الماء عند اقترابنا ، وهى الآن بعيدة على هذه المسافة غير المحدودة ، والتى تشبه أذرع فضية من النهر ، وتنتهى باتساع ضخمة ، أزرق ومترامى الأطراف لدرجة أن الانسان لا يستطيع أن يميز النقطة التى تختلط فيها الأرض بالسماء اللهم الا فى وجود ثلاث أو أربع بقع من القمم الأرجوانية التى تبدو فى الأفق •

وبعد ذلك تاتى أبريم ثم الدر ثم وادى السبوع • وتوجد فى أبريم كما فى الدر عائلات جميلة الشكل تعود شعور رؤوسها الخفيفة وعيونها الزرقاء (المطعمة على جلد أسود بنى) الى أجدادها البوسنيين الذين أحضروا الى هنا منذ ٣٦٠ عاما مضت • وهؤلاء يقبلون أنفسهم على الآخرين ويمثلون وجهاء المنطقة ، ورجالهم كسالى ويميلون الى الشجار •

أما النساء فيرتدين ثيابا طويلة مع العديد من الخرز والحلقات وهن أقل جاذبية ، ويدهن ذواتهن بزيت الخروج أكثر من سائر النسوة اللاتي شاهدناهن في أماكن أخرى . وهم يحتفظون أيضا بالعبيد ، وقد رأينا هؤلاء العبيد المنحوسين وهم يسرون مثل الكلاب خلف ساداتهم من السيدات . ولما كانت السيدتان م ، ب تعرفان أن الرق محظور رسميا في أملاك الحديو فقد دخلتا في مساومة مع أحد السماسرة الذي عرض عليهما فتاة حبشية مقابل عشرة جنيهات . ودارت المساومة حول فائدة هذه الصفقة لأن الفتاة كانت تستطيع أن تكس ، وتفسل ، وتحلب اللبن ، وتخضه ، ولكنها لا تعرف الطبخ . ولما كانت السيدتان م ، ب ليستا في حاجة إلى المزيد من الأنفس فقد تراجعتا عن إتمام الصفقة .



• معبد عمدا

وفي الدرقنا بزيارة توديع للمعبد . ووصلنا عند عمدا قرب نهاية اليوم ، فقررنا أن نشاهد جمال المنظر للمرة الأخيرة ممزجا بجمال الشمس عند الغروب .

والآن فانه بالرغم من هبوب ريح الشمال باستمرار إلا أن الحرارة تزداد كل يوم . والتماسيح تحب ذلك وتظهر لكي تستدفئ في حرارة الشمس . وفي صباح أحد الأيام نودى علينا في أثناء الإفطار فشاهدنا تمساحين ، أحدهما صغير والآخر كبير ، وكانا راكدين على ضفة رملية

قرية • وكان الرجال يستريحون على مجاديفهم بينما تمضي المركب مع المجري • لا أحد يتكلم ، ولا أحد يتحرك ، ومضيئنا في صمت حتى أصبحنا بالقرب منهما • كان التمساح الكبير ضخما وأسود اللون مثل ساق شجرة الدردار المزروعة في لندن ، ويصل طوله الى ثمانية عشر قدما • أما التمساح الصغير فقد كان شاحبا بلون أخضر ويلمع مثل الزجاج • وفجأة تحرك التمساح الكبير وقوس جسمه ثم قفز واختفى في طرشة عظيمة ، ولكن كان واضحا أن التمساح الصغير غير مميز للخطر فرفع درقته مثل الرأس ، وأخذ يرمقنا بعينيه من جميع الجهات • وهنا همس أحدها ، وإذا بهذه الهمسة تكسر جدار الصمت لأن تمساحنا الصغير رفع ذيله وغطس تحت الضفة واختفى في لحظة •

ولم يفهم البحارة كيف أن الرجل الكسول الذي كان يرقد في (أبو سنبل) منتظرا ظهور التماسيح قد جعل هذه الفرصة تمر دون أن يطلق رصاصة واحدة • ولكننا منذ ذلك الحين تذكرنا المذبحة العشوائية التي جرت عند الشلال الثاني وأنه لم يساهم بأي دور في إبادة هذه الزواحف التاريخية القديمة • وليس من المعقول أن يرغب الرجل الرياضي في الحصول على جائزة واحدة ، ولكن هذا الاطلاق الكثير للطلقات العشوائية والذي يدور كل شتاء قتلا وجرحا لهذه الوحوش البائسة بمتوسط يتراوح ما بين اثنتي عشرة الى ثمان عشرة طلقة لكل بندقية ليس الا مذبحة فعلية ، ولا بد من استنكاره بشدة • وأخذت هذه المخلوقات تختفي وتتناقص أعدادها عاما بعد عام ، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يصبح فيه التمساح نادر الظهور بعد قرية سمينة ، مثلما هو اليوم نادر الظهور بعد أسوان •

وكان الترمومتر متوقفا عند درجة ٨٥ فهرنهايت في غرفة الصالون بالذهبية فيلة ، وذلك عندما وصلنا الى وادي السبوع حيث يوجد معبد وحيد غارق في الرمال • وكان يتم الوصول اليه يوما ما في طريق للكباش والتماثيل الواقعة قد تحطم الآن ودفن في الرمال • أما سقف المعبد - لو كان هناك سقف - فقد زال • وجميع القاعات الداخلية المحفورة في الصخر ومعها قدس الأقداس ، غاصة بالرمال ومن الصعب عبورها • والبوابات فقط هي التي تقف خالية من الرمال ، وتبدو رغم ضخامتها هشة بحيث تتقوض تحت صلابة واحدة من الآلة العربية التي كانت تستخدم قديما لتقويض الحصون ، لأن كل حجر ضخيم من أحجارها مفكك ، كما أن كل كتلة في الافريز تبدو متهاوية في مكانها • وتدل هذه

العلامات كلها على حدوث زلزال (أبو سنبل) الذى تخيلنا حدوثه من قبل (١) .

وعند وادى السبوع نشاهد مواطنا سمينا . ولابد من تسجيل هذه الحقيقة لأنها غير عادية . انه رجل شديد البأس متوسط العمر ، يلبس ثوبا قصيرا مهلهلا ، ويحمل فى يده نبوتا من جريد النخيل ، ويقف أماما وتبعه زوجته وثلاثة أو أربعة من الأبناء وهم جميعا يمارسون التجارة . كنسخة طبق الأصل من التمثال الخشبي الموجود أمام متحف بولاق ، وكانت المراتان تعرضان للبيع بعض الحلى الرخيصة ، بينما يعرض الأولاد حربة حية وتمساحا صغيرا .

وبينما كان الرسام يساوم على شراء التمساح والسيدة (ل) تشتري خزامة للأنف ، كانت الكاتبة تتعرف الى اثنين من طائر الهدد ، يعيشان فى البوابة الضخمة للمعبد ويعتبرانها عشا ضخما قاما ببنايه . وهما يجثمان يراقباننى باستغراب وأنا أرسم لوحاتى ، مثل اثنين من النقاد . ويظهر طائر أسود صغير أبيض الصدر يغنى لحنا شجيا ، وهو لا يشبه أى طائر آخر صغير رأيته من قبل ، ولكن اللحن الذى يشدو به من حنجرتة الصغيرة يماثل فى عذوبته ورقته شدو عصافير الكناريا .

وكانت الذهبية تقف مستسلمة عكس اتجاه الرياح يوما بعد يوم فى الشمس . وأحيانا عندما كان يتصادف وجودنا بالقرب من إحدى القرى كان المواطنون يجلسون القرقصاء على الضفة ، ويحملون فينا أو يثرثرون معا . وفى اللحظة التى يظهر فيها أى شخص على سطح المركب كانوا يندفعون فى صوت واحد طالبين « البقشيش ! » ولم أجد سوى وسيلة واحدة للتخلص منهم وهى أن أقوم برسومهم . وكانت

(١) هو أحد المعابد التى أنشأها رمسيس الأكبر ، واعتقد أنه لم يكن إضافة إضافها أحد خلفائه ، وقد أقيمت طبقا لصورته الشخصية التماثيل الضخمة والأعمدة التى على شكل أوزيريس وتماثيل الكباش (التى تحطمت الآن فترجت من كافة الملامح الانسانية الخارجية) وكذلك فإن جميع الخراطيش تخصه . كما أن هناك قائمة بأسماء أفراد عائلته الصغيرة فى إحدى الحجرات الداخلية . وكان من السهل الوصول الى جميع هذه الحجرات منذ ثلاث أو أربع سنوات مضت ، عندما نزعمت مجموعة من السياح الألمان بعض اللوحات المنحوتة ذات الأهمية الأثرية العظيمة . وبعد عملية الذهب هذه أغلق المدخل بالرمال .تقليدا لأوامر مريت بك ، مع الأخذ فى الاعتبار الزلزال الذى ربما يكون قد حدث فى هذا المكان - انظر الفصل السابق من هذا الجزء من الكتاب .



معبد وادى السبوع

الاستجابة سريعة فقد أحضرت فرخا من الورق وقلما من الرصاص ،
وسرعان ما أسرع أهل القرية جميعا بالهروب لدى اكتشافهم لهذه النية .
ولو كنت أريد موديلا لواجهت صعوبة كبيرة فقد استحضرت الرسام بعض
النساء والفتيات (الكثيرات منهن مليحات الشكل) لكي يجلسن حتى
يرسمن . وأتذكر أن واحدة منهن كانت صارخة الجمال وتشبه الالهة
جونو زوجة جوبيتر كبير الآلهة الاغريقية ، وقد وقفت على الضفة فى
صباح أحد الأيام وهى تسخر من كل ما يجرى على ظهر السفينة . وكانت
تحمل سلة عريضة ذات مقبض خلفى ، وقد غطيت ذراعها بالأساور
وأصابعها بالخواتم ، وتعلقت طفلتها الصغيرة بطرف ثوبها وهى نصف
متمجبة ونصف خائفة . وقد أرسل اليها الرسام مندوبا مفوضا يعرض
عليها أى مبلغ ابتداء من ستة بنسات حتى نصف جنيهه الإنجليزي من
الذهب ، اذا استمرت فى وقفها هذه لمدة نصف ساعة ، وكانت طريقة
رفضها عظيمة فقد سحب شالها فوق وجهها وأمسكت بيد طفلتها ومضت
مثل الهة تعرضت للاساءة . وكانت الكاتبة قد رسمت لها خلسة صورة
صغيرة من نافذة القمرة وهى مخفية خلف ستارة .

وفى الضفة الغربية فى بقعة خالية من الخضرة ، تقع ما بين وادى السبوع والمحرقه ، قامت خرائب مدينة حصينة لم يذكرها موراي أو يوقعها على خرائطه . كانت مرتفعة ومبنية على قاعدة من الصخر ، وتتحكم فى النهر والصحراء ، وقد اكتشفها الرسام والكاتبه بعد ظهر أحد الأيام خلال جولة بدون قصد ، حيث ارتقيا فى البداية منحدرًا حادًا تناثرت فوقه الأحجار ، ثم وصلنا الى بقايا بوابة حجرية . ولما لاحظنا صعوبة عبورها ، اتخذنا طريقنا من خلال ثغرة فى الجائط ، ثم صعدنا طريقًا ضيقًا اندفعنا منه الى شلال من الأنقاض . ولما وصلنا الى موقع خرب فى قمة هذا الطريق ، وجدنا أنفسنا فى متاهة من الممرات التى تعلوها البواكى المبنية من الطوب اللبن ، ومضاهة على مسافات قصيرة عن طريق فتحات من السقف . وقد شغلت هذه الممرات الغربية على الجانبين ، مبان صغيرة من الطوب اللبن على قواعد حجرية . ودخلنا الى بعض المنازل فوجدناها مجرد صالات خربة وحجرات بدون سقف ، وليست بها أية علامات على وجود مكان للمدفأة أو بئر للسلم . وقد سطحت فى أحد هذه المنازل قطعة من عمود حجرى يبلغ قطرها حوالى ١٤ بوصة . وكان الهواء فى هذه الشوارع القديمة متعفنًا وراكداً . وقد تكدست الأرضية فى كل مكان بأكوام من الشقافة الفخارية المكسورة بألوانها السوداء والحمراء والصفراء مثل شقافة الفنتين وقيلة . ولم أر ما يتفوق على هذا المكان من حيث الوحشة والخراب . وكان يبدو كما لو كان محاصرا ومنهوبا ومهجورا منذ ألف عام مضت ، كما تدل على ذلك نوعية الفخار الذى ينتمى الى فترة الاحتلال الرومانى . وبالإشارة الى كيفية بناء الطبقات العليا بالطوب اللبن فوق أحجار أكثر قدما ، استنتجنا أن بدايات هذا المكان هى بدايات مصرية ، والأبنية التالية رومانية . أما الرخام فيبين أن هذه المدينة مثلها مثل أية مدينة بنيت فى بقعة منعزلة ولم يكن هناك فراغ كبير تشغله حقول العدس لأن المسافة الواقعة بين النهر والصحراء لا تزيد عن ميل أو أكثر .

وبعد أن عبرنا المكان من بدايته الى نهايته ، خرجنا من فتحة أخرى فى الجانب الغربى . وقد فكرنا فى البحث عن موقع يصلح للرسم فى داخل هذه الأرض ويتجه نحو السهل . وللوصول الى ذلك يتحتم على الانسان أن يعبر واديا عميقا يفضل صخرة القلعة عن الصحراء . وبعد أن تبعتنا حافة هذا الوادى الى النقطة التى يصل فيها الى مستوى الارتفاع ، وجدنا مع بالغ الدهشة أننا كنا نطأ ضفتى نهر مندثر !

والنهر ممتلىء بالرمال الآن ولكنه كان ممتلئا بالماء يوما ما . وقد اتضح لنا كل ذلك من الجبال التي تتجه نحو الغرب ، فقد استطعنا أن نتتبع انحناءاته لمسافة طويلة عبر السهل ثم خلال الوادى وجنوبا فى خط متواز مع نهر النيل ، وهنا تحت أقدامنا ، كانت تقع الصخرة التي كان يتخذ طريقه من خلالها . وهناك الصخور التي شكلها عندما اعترضت مساره ، وهى الآن نصف مدفونة فى الرمال . وأشك فى أن المجرى وهو ممتلىء بالماء ، كان فى نصف الجمال الذى هو عليه الآن وهو نهر من الرمال .

ولا شك فى أنه كان حينذاك عكرا ومحملا بالرواسب ، أما الآن فإن لونه ذهبى أكثر من لون نهر باكتولاس (*) وقد غطته موجات متحركة متفرقة أكثر عددا مما كانت ترسمه فرشاة كاناليتى .

وإذا افترضنا أنه كانت توجد هنا مدينة عندما كان هذا النهر يمتلىء بالماء ، وكان السهل خصبا ومرويا بالماء ريا جييدا ، فإن ذلك كان سيوضح سر موقع هذه المدينة التي كانت محمية من الأمام بنهر النيل ، ومن الخلف بالوادى والنهر القديم . ولكن متى كان ذلك ؟ من الواضح أنه كان يجرى هنا نهر مستقل ينبع ماؤه من بين الجبال الليبية ، وبذلك فإن تاريخه يعود الى الزمن الذى كانت فيه هذه التلال القاحلة تتجمع وتوزع الماء . ولنقل ان فى ذلك الزمن كانت الأمطار تسقط على أراضي النوبة ، كما أن ذلك الزمن كان سابقا لظهور الحاجز الصخرى فى منطقة السلسلة ، فى الأيام الخوالى عندما كانت أرض كوش تفيض باللبن والعسل (١) .

وكان فى الامكان أن تسقط الأمطار على أراضي النوبة فى هذه الأيام التي نعيشها لدرجة أنه فى نفس ذلك المساء الذى بقينا فيه حتى وقت المغرب ، قد شاهدنا سحابة على شكل مروحة متقطعة وهى تنساق فوق رؤوسنا على ارتفاع شاهق ، وكانت تتفكك على شكل أطراف من

(*) نهر كان يجرى فى مملكة ليبيا بآسيا الصغرى واشتهر بالذهب الذى اعطاه.
لونا ذهبيا - (المترجم) .

(١) لقد وجدنا هذه التربة الطينية القديمة ليس فقط بالقرب من هذه المدينة غير المعروفة بل فى أماكن كثيرة أخرى تقع بين (أبو سنبل) وبجيلة ويتراوح ارتفاعها ما بين ٢٠ الى ٢٠ قدما فوق مستوى طبقات الفيضان الحالية .

البخار الذى يتخذ ألوان قوس قزح • وكنا نستطيع أن نرى هذه الأطراف بوضوح وهى تتكون وتموج وتتبخر ولكنها لا تستطيع أن تتساقط فى شكل أمطار لأنها كانت تتبدد على ارتفاع شاهق بسبب الحرارة المنبعثة من الصحراء ، وهذا هو الاستثناء الوحيد الذى رأينا فيه سحابة فوق أراضى النوبة (*) •

وعند عودتنا التقينا بمواطن نوبى يحمل فى يده عقدا من الخرز وسكيننا على كم نوبة ، وقد تبعنا لمسافة طويلة وهو يحكى قصة غير واضحة عن بركة (معبد) غير معروفة فى الصحراء (١) • وسألناه عن مكانها فأشار الى أعلى النهر غير المعروف الذى تحدثنا عنه • فسأله الرسام : « هل رأيته ؟ » فقال : « مرات كثيرة » • وسأله مرة أخرى : « كم تبعد عن هنا ؟ » فأجاب : « مسيرة يوم واحد فى الصحراء » • فسأله : « ألم يرها أحد من الانجليز من قبل ؟ » فهز رأسه أولا لأنه لم يفهم السؤال ، ثم ظهر عليه الحزن ورفع احدى أصابعه •

كان رصيدنا من اللغة العربية قليلا ، بينما كانت لغته العربية مختلطة باللهجة الكنسية Kensee حتى اننا وجدنا صعوبة شديدة فى فهم ما ذكره بعد ذلك • واستطعنا أن نستنتج أن أحد الخواجات كان يسافر على الأقدام وحده بحثا عن هذه البركة ولم يعد ، فهل تاه فى الصحراء ؟ أم قتل ؟ لا أحد يعرف •

ورد الرجل حامل الخرز قائلا : « كان ذلك منذ وقت طويل مضى ولم يأخذ معه مرشدا » •

وكنا مستعدين لدفع الكثير من المال للوصول الى منبع هذا النهر ، والبحث فى الصحراء عن هذا المعبد غير المعروف ، ولكن سوء حظ مثل هذه النوعية من السفر ، يجعل المسافرين يلتزمون بعدم الخروج عن المسار المطروق • وكان فصل الصيف قادما ، والماء منخفض فى النهر ، والتكلفة اليومية للذهبية فادحة ، وفى النوبة يصعب شراء أية مواد غذائية ولذلك فإن المسافرين المتباطىء يغامر بالموت جوعا • وعلى المرء أن

(*) أرى أن الخيال قد شطح بالكاتبة هنا أكثر من اللازم حتى انها نسيت أبسط الحقائق العلمية عن سقوط الأمطار - (المترجم) •
(١) كلمة بركة العربية تعنى معبدا - (المترجم) •

يلاحظ أن نهر النيل بدلا من أن يفيض لمسافة ١٢٠٠ ميل دون أن تصله امدادات من أى رافد آخر ، فانه هنا يتلقى مياه رافد كبير (١) .

وتتوالى المعابد فى تتابع سريع بالنسبة لهؤلاء الذين تهب ريح الجنوب خلفهم . وقد استطعنا تحقيق ذلك بدرجات ، وسعدنا عندما رست ذهبيتنا العاجزة عن التجديف نحو أى شىء يستحق المشاهدة . وعلى ذلك فقد انطلقنا فى يوم من الأيام الى المحرقة ، وهى ليست فى حد ذاتها الا خرابة كثيبة ولكنها موحشة كمنظر صالِح للرسم ، وهى تظهر للقادم من الضفة بعد النزول من المركب على شكل صفين متوازيين من الأعمدة ، يقفان فى جِراءِ مقابل السماء ، ويستندان بناية مسقوفة خربة . وفى المقدمة يقف القليل من نخيل الدوم المتخلف النمو وهو على وشك الجفاف والموت لعدم وفرة الغذاء فى تربة قاحلة ، بينما تقترب الصحراء من على البعد .

ونحن محاصرون هنا بحشد صفيق من الرجال والأولاد ذوى البسحنات المتوحشة ، والفتيات الوقحات ذوات الشعر المجعد والأهداب النثوية اللائى أخذن يزعيننا بالخرز والحصباء ، وهن يرقصن ويصرخن ويضربن أرجلهن ويصفقن بأيديهن فى وجوهنا ، ثم يلقين علينا الزلط عندما نسير . وأخذ أحد المحاربين المهتاجين يلوح ببندقية قديمة يبلغ طول ماسورتها ستة أقدام كاملة ، بينما حمل بعض المحاربين الآخرين رمحا رفيعة .

ويبدو أن المعبد وهو مبنى روماني قديم قد تعرض للدمار نتيجة زلزال حدث قبل اتمام بنائه ، فقد كانت جميع الأعمال الحجرية غير مصقولة ، وظهرت الأعمدة كما لو كانت قادمة لتوها من الحجر . كذلك كانت تيجان الأعمدة على شكل كتل تنتظر النحات . وهذه الخرائب غير المستكملة الصنع ، والتي كان يبدو كل حجر منها جديدا كما لو كان الصل

(١) « يتلقى النيل مياه آخر روافده وهو نهر عطبرة عند خط عرض ١٧°٤٢ شمالا عند طرف المنطقة التى تتخذ شكل شبه الجزيرة والتى تسمى جزيرة مروى . ومن هناك يتجه شمالا (فى شكل مجرى منفرد بدون أى روافد أخرى) خلال ١٢ درجة من خطوط العرض ، أو يتبع مجراه المتعرج لمسافة لا تقل عن ١٢٠٠ ميل الى البحر » . انظر كتاب بلاكي : Blackie, Imperial Gazetteer المطبوع سنة ١٨٦١ . وهو مسح دقيق للمنطقة ، من المحتمل أن يلقى الضوء على المنابع الجافة للكثير من هذه الروافد من شمال الرافد الذى تحدثنا عنه الآن .

فى تشطبيه يجرى على قدم رساى ، نؤز فى خيال المشاهد الى حد بعيد .
وعند حائط متداع فى جنوب البهو ، أخذ الرجل الكسول يمحس بعض
بقايا نقش اغريعى (١) وبحثنا عن حروف هيروغليفية أو حراطيشى نهتلى
بها الى تاريخ البناء دون جدوى (٢) .

ونأتى بعد ذلك الدكة فى الترتيب ثم جسر فى حنين ثم دندرة
وكلايشة . وقد وصلنا الى الدكة بعد شروق الشمس مباشرة فوجدنا
جميع السكان يصرخون ويتدافعون ويثرترون وهم يحملون البيض ،
والحمام ، واليقطين (القرع العسلى) للبيع ، وقد تدفقوا لاستقبالنا .
وتوجد فى الطريق هنا جزيرة رملية كبيرة ، ولذلك فقد رسونا على بعد
حوالى ميل شمال المعبد . فى البداية ، رأينا صرح معبد الدكة منذ عدة أسابيع
مضت ، وكنا حينئذ فوق سطح فيلة ، وقد شبهناه بالصرح ذى البرجين
لمعبد ادفو . أما ونحن نقرب من هذا الصرح عن طريق الأرض فقد تعجبنا ؛
لأننا وجدنا البرجين صغيرين جدا . وكان صباحا مشرقا شديد الحرارة ،
وكان طريقنا يسر بجوار النهر بين منحدرات العدى ومزارع الخروع .
وكانت هناك أسراب من الحمام تطير منخفضة فوق رؤوسنا ، وقد اقتربت

(١) يقول بورخارت عن هذا الحائط : « من الواضح أنه قد سقط بسبب ارتجاج لجائى
وعنيف ، لأن الأحجار قد سقطت على الأرض وهى مرتبة فى طبقات فوق بعضها ، مثلما
كانت موضوعة فى الحائط بما يبرهن على أنها قد سقطت كلها فى وقت واحد » .
انظر كتابه Travels in Nubia, ed. 1819, p. 100. ، ولكنه لم يلاحظ النقش المدون
بحروف كبيرة على ثلاثة سطور فوق ثلاث طبقات منفصلة من الحجر . وقد نسخ الرجل
الكسول الأصل وهو فى الموقع حيث صارت هذه النسخة منذ ذلك الوقت معروفة بأنها نذر
سابق لأحد الجنود الرومان مشهور ضمن مجموعة النصوص اليونانية التى جمعها بوخ
فى كتابه Boeckh's Corpus Inscr. Graec. واليك ترجمتها : « هذا هو النذر
المقدم من الجندى فيريكونديوس والديه الصالحين ، وجايوس أخيه الأصغر وبقيّة
أخوته » .

(٢) هناك مفتاح للتاريخ من المحتمل العثور عليه وهو لوح مقوش نقشاً سالجا وهو
النقش الوحيد الموجود فى هذا المكان على حائط منعزل بالقرب من الأعمدة القائمة .
وهو يمثل إيزيس تتقبل العبادة من شاب يرتدى النقبة الرومانية القصيرة Toga
وكلا الشكلين ثقيل الظل وسيمى الطراز ، وقد جلست إيزيس تحت شجرة الجميز التقليدية
وهى ترتدى شعرا مستعارا ينتشر على شكل أسطوانات جامدة فوق الجبهة على
شكل اكليل . أنه الوجه والشعر المتصلب الذى تشتهر به ماركيانا أخت الإمبراطور
تراجان كما هو واضح على قطعة العمل المشهورة المحفورة صورتها فى قاموس :
Smith's Dic. of Greek and Roman Biography. Vol. II, p. 939. والمحرق فى
مكان شجرة الجميز المقدسة Hieria Sycaminos حيث ينتهى خط سير
رحلة انطونيوس .

منا الكلاب التى تنبح ، والديوك التى تصيح فى القرية • ومئات من
الخنافس بطول المسار ، والجعلان الحقيقية الحية بلونها الأسود مثل الفحم
وهى مشغولة مثل النمل حيث تقوم بدرجة بالات الطين من عند حافة
الماء الى الصحراء • ولو قمنا بفحص عدد من هذه البالات فقد نجد هنا
أو هناك بالة لا تحتوى على البيض لأن هناك حقيقة غريبة مفادها أن الجمل
يصنع بالاته ويدرجها ، سواء أكان بها بيض يريد حفظه أم لا • أما أنثى
الخنفساء فبالرغم من المساعدة التى تلقاها من الذكر فانها تقوم بالجزء
الصعب المتعلق بدرجة الباله ، واذا حل المساء قبل اخفاء بالتها فانها
تنام طوال الليل وهى ممسكة بها بين أقدامها ، ثم تواصل عملها
فى الصباح (١) •



وقد بدأ انشاء المعبد هنا على يد ملك اثيوبى يدعى أركامان (ارجام)
كتب عنه ديودور الصقل قصة طويلة ثم استمر العمل فى استكمال
بمعرفة البطالمة والقيصرية • ويقع المعبد فى فضاء واسع منعزل فى شمال
القرية ، ويتم الوصول اليه عن طريق شارع أقيمت حوائطه بكتل منقولة
من مبان أخرى أكثر قدما • أما حجارة الشارع وكل الأرض الفضاء التى
تحيط بالمعبد الى مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة فهى ليست مبعثرة
ولكنها عبارة عن أكوام من قطع الشقافة والزلط وأحجار كبيرة ناعمة من

(١) انظر كتاب المؤلف وديروف C. Woodroffe وعنوانه : The Scarabaeus Sacer
وهو عبارة عن ورقة تستند الى المذكرات التى كتبها (س • جونز) القيت امام
جمعية ونشستر أنه هامبشاير العلمية والأدبية فى ٨ نوفمبر ١٨٧٥ وقد طبعت على ثلاثة
المؤلف

أحجار الفرفير (نوع من الصخور النارية يمتاز باللون الأحمر القاتم) ومن المرمر ، والبازلت ، ونوع من الرخام الأخضر . وهى جميعها أحجار محيرة لأنها تبدو كما لو كانت قطعاً من تماثيل قد شكلتها العصور المتتالية من الاحتكاك فى حوض سيل جارف . ونجد بين القطع الموجودة بعض الشقوق مثل تلك التى كانت فى الفنتين (١) . أما عبد المعبد فساقول أنه جيد البناء بالنسبة لأى عمل آخر من أعمال الأسرة الثامنة عشرة أو الأسرة التاسعة عشرة التى أعرفها . والنحت شنيع جداً ، ولم نر حتى اليوم مثل تلك الحروف الهيروغليفية رديئة الشكل ، وتلك الالهات القصيرات المتسمات ، وهؤلاء الملوك الهزليين بأغطية رؤوسهم الرديئة . وباختصار ، فإن المبنى كله طراز من الأبنية البطلمية الخارجة عن الانتماء البطلمى .

وسرعان ما جددنا متجهين الى كويان . والنهر هنا واسع وسريع الجريان . وبعد أن تجاوزنا الجزيرة الرملية نزلنا تحت حوايط بناء ضخمة من الطوب اللبن جعلته العصور المتوالية أسود اللون . وكان يبدو للوهلة الأولى بدون شكل محدد ولكنه يدل على أنه قلعة مصرية قديمة ذات ركائز وارتفاعات ومنافذ . وقد شطبت عند الزوايا بقوود مصبوبة على شكل قوالب ويحيط بها خندق جاف عميق ، لا بد وأنه كان يمثل ماء الفيضان فى كل صيف .

وقد وجدنا ضمن الأشياء النادرة فى وادى النيل خرائب مبنى غير دينى ، وهو بخلاف أساساته المبانى السكنية المتناثرة هنا وهناك ، يعتبر أول مبنى من نوعه . ولا بد أنه قديم جداً ربما يعود الى أيام تحوتمس الثالث الذى وجدنا اسمه منقوشاً على بعض الكتل المتناثرة على بعد حوالى ربع ميل ، وهو الذى أقام قلعتين مماثلتين لهذه القلعة فى سمرة التى تقع على بعد

(١) كانت دكة (التى أطلق عليها الاغريق والرومان اسم Pselics بينما أطلق عليها المصريون اسم Pselk) ، تقتصر يوماً ما على مصر واثيوبيا ويبدو أنها كانت محطة عسكرية ضخمة . أما الشقوق المتقوسة هنا فهى ايضاً وحسابات رواتب الجنود . وقد زينت الحوايط الخارجية للمعبد والحجرات من الداخل بنقوش يدوية كتب معظمها بالحبر الأحمر . لاحظنا أن بعضها كان ثلاثى اللغة . وقامت الكتابة بنسخ النقشيين التاليين من فوق أحد المداخل وقال الدكتور بيرش ان اولهما مكتوب بالديموطيقية الاثيوبية وهو مجرد اسم . اما الثانى فغير معروف .

النقش الأول
النقش الثانى

خمسة وثلاثين ميلا شمال وادى حلفا . وربما كانت تعود الى فترة سابقة عليه بمدة ألف عام على أيام أمنمحات الثالث الذى يوجد اسمه أيضا منقوشا على لوح بالقرب من كوبان (١) ؛ لأنه كانت توجد هنا فى يوم ما مدينة قديمة فى دكة الحالية وهى ليست الا ضاحية جديدة واقعة على الضفة المقابلة . وقد ضاع اسم هذه المدينة القديمة ولكن يفترض البعض أنها تتفق مع مدينة بطليموس *Metacompo of Ptolemy* (٢) ومع نمو هذه الضاحية كانت المدينة الأم تضمحل ، ومع الزمن صارت الضاحية هى المدينة وتحولت المدينة الى ضاحية . وما زالت الكتل المتناثرة التى تحدثنا عنها مع بقايا معبد صغير ، تحدد مكان المدينة الأكبر .

ومن المحتمل أن تكون حوائط هذه القلعة الغربية والمثيرة قد فقدت الكثير من ارتفاعها الأصلي . ويبلغ سمكها فى بعض المواضع ٣٠ قدما ، ولا تقل عن ٢٠ قدما فى المواضع الأخرى . وقد بنيت رأسية بالنسبة للداخل ، مع انحدار الركيزة فى الخارج ، مع إقامة ركائز اضافية ضحلة على مسافات منتظمة . وهذه الأخيرة لا تضيف شيئا الى قوة الحائط الأصلي ، ولا بد أنها صممت لزيادة الفاعلية . وهناك مدخلان الى القلعة أحدهما فى وسط الحائط الشمالى والآخر فى الجنوب . وقد دخلنا اليها

(١) توجد على بعد أقل من ربع ميل ، خرائب معبد صغير من الحجر الرملى ذى أعمدة عنقودية . وبالنسبة ناك ستمر بالقرب من القرية على لوح حجرى من عصر أمنمحات الثالث يذكر السنة الثالثة عشرة من حكمه - انظر : *Murray's Handbook of Egypt* ص ٤٨١ . ويكتب م. ماسبيرو عن تروتمس الثالث قائلا : « اقام ابنه وخليفته آمحتوب قلعة عظيمة فى الواجهة » . *Histoire Ancienne des peuples de l'Orient* - الفصل الثالث ، ص ١١٢ .

وعند كوبان وجد أيضا لوح رمسيس الثانى المشهور والمعروف باسم : لوح الدكة . وفى هذا النقش الموجود منه نسخة بمتحف اللوفر ، ورد أن رمسيس الثانى أمر بحفر بئر ارتوازية فى الصحراء ما بين هذا المكان وجبل العلاقى لتسهيل تشييل مناجم الذهب فى هذه المنطقة .

(٢) « بالنسبة لمدينة بطليموس فان ميتاكومسبو لابد أن تكون فى مواجهة سلكيس حيث توجد خرائب ضخمة من الطوب اللبن . ولو صح هذا الامر يكون ميتاكومسبو وسلكيس اسمين لمدينة واحدة » . انظر كتاب ويلكنسون وعنوانه : *Topography of Thebes etc.* طبعة سنة ١٨٢٥ ، ص ٤٤٨ . أما مدام ليفيان دى سانت مارتن فتقرى أن جزيرة ليرار القريبة من المحرقة هى مدينة ميتاكوميسو الحقيقية . انظر كتابها *Le Nord de l'Afrique* القسم السادس ، ص ١٦١ . وهما كان الامر فأننا فى جميع الاحوال نتعرف الى الحصار العظيم الذى تحملته هذه القلعة والى معركة عظيمة جرت تحت جدرانها . يقول استرابون أن « الاثيوبيين اختهزوا فرصة انسحاب جزء من القوات الرومانية ، فقاموا بهجوم مفاجئ على سبين والفتتين وفيلة ، واستولوا =

عن طريق المدخل الثانى ووجدنا أنفسنا فى وسط متوازى أضلاع ضخمة .
بلغ طوله من الشرق الى الغرب ٤٥٠ قدما . وربما بلغ ضلعه الآخر
٣٠٠ قدم من الشمال الى الجنوب .

وتحيط هذه المنطقة كلها بمتاهة من الخرائب . ويبدو هذا القضاء
كبيرا بما فيه الكفاية لإنشاء مدينة ضخمة تحتوى على أنقاض اثنتى عشرة
مدينة . وأخذنا نتسلق تلالا ضخمة من المخلفات ، ونتسلق حواف
شلالات من الشقافة ، ونقف على حواف مناجم محفورة ومثقبة مثل قرص
العسل على عمق أربعين قدما ، وقد أقيمت أساسيات من الطوب اللبن
وقد احتشد فوق هذه التلال وعند فوهات هذه المناجم ، رجال ونساء
وأطفال يملأون سلالا من الأنقاض ، ويذهبون بها بعيدا . وكان التراب
ينصاعد مثل السحاب . ويصعب علينا وصف ما كان يحدث من الضجيج ،
والحرارة ، والارتباك ، ويتوقف المشاهد ويرتكب محاولا أن يكشف فى
هذه المتاهة الضخمة عن دليل يكشف عن خطة محددة دون جدوى .
واستطعت بجهد كبير أن أعرف تدريجيا أن المكان ليس الا محارة ضخمة ،
وأن جميع هذه التلال والمناجم تحدد موقع ما كان فى يوم ما صرحا ضخما
مرتفعا الى موقع مركزى كالبرج مثل ذلك الذى نراه فى موضوعات المعارك
فى (أبو سنبل) وطيبة . وأصبح هذا الصرح المرتفع والموقع المركزى
كالقرينة حيث ينقل على شكل قطع صغيرة بعيدا ويتحول الى بودرة وينثر
على صفحة الأرض كسماد . وقد استنزف بالفعل حتى أساسياته ،

= عليها وساقوا سكانها عبيدا ، وألقوا بتمائيل قيصر على الأرض . ولكن بطرونيوس
استطاع بقوة يقل عددها عن عشرة آلاف جندي من المشاة و ٨٠٠ حصان أن يهزم جيشا مكونا
من ثلاثين ألف رجل ، وأجبرهم على التقهقر الى سلكيس . ثم أرسل وكلاء للمطالبة
باستعادة ما سلبوه ، وشرح الأسباب التى أغرتهم بأن يبدؤوا الحرب . وقد رد بطرونيوس
على حجتهم بأنهم نالوا معاملة سيئة من الحكام الرومان قائلا ان هؤلاء ليسوا هم أصحاب
السلطة بل قيصر . وعندما طلبوا مهلة ثلاثة أيام للتفكير ولم يفعلوا شيئا مما تعهدوا
به . هاجمهم بطرونيوس وأجبرهم على القتال ، فهربوا سريعا بسبب سوء قيادتهم وسوء
تسلحهم لأنهم كانوا يحملون تروسا ضخمة مصنوعة من الجلد الخام وفؤوسا كأسلحة
هجومية . وقد سبق جزء من القوات المتمردة الى داخل المدينة ، بينما هرب البعض
الآخر الى المناطق غير المأهولة . أما الذين غامروا بعبور النهر فقد هربوا الى جزيرة
مجاورة حيث لا يوجد عدد كبير من التماسيح بسبب التيار . ثم قام بطرونيوس
بمهاجمة سلكيس واستولى عليها . انظر : جغرافية استرابون Strabo's Geography
مترجم فى يون سنة ١٨٥٧ - الجزء الثالث ، ص ٧ - ٢٦٨ . وربما كانت هذه
الجزيرة التى هرب اليها المتمردون هى الجزيرة الضخمة التى مازالت فى وسط النهر
وتمنع الاقتراب من دكة . أو أنهم هربوا الى جزيرة ليرار التى تبعد بمسافة سبعة
أميال لأن استرابون لم يذكر اسم الجزيرة .

ولم يتبق الا البئر التى فى الوسط ، وحائط الدائرة الضخم . وهذا الحائط يمضى الآن الى حتفه ، وسيلاقى تدريجيا نفس مصير بقية الصرح .
اما البئر التى كانت عميقة جدا ، فقد غصت بالمخلفات حتى الحافة . وفى نفس الوقت فان الانسان لكى يعرف ما يمثله هذا المكان حاليا لا يمكنه الا أن يتخيل ما يبدو عليه برج لندن اذا تحولت المباني الداخلية كلها ، والبرج الأبيض ، والكنيسة ، ومستودع الأسلحة ، ومقر المحافظ ، وكل شيء ، الى خرائب غير محددة الشكل ولم يترك منها الا الحوائط الخارجية والخندق .

وقد احتشدت مقابل الجانب الداخلى لحائط الدائرة بقايا سلسلة من الأبراج الضخمة تبدو قممها قصيرة بالنسبة للبناء الخارجى ، ولا يمكن أن نتصل بالأسوار الا باستخدام السلالم . ويواجه أفضل هذه الأبراج مع جزء ضخم من الحائط الصحراء الشرقية .

وخرجنا عن طريق المدخل الشمالى ، لنجد أن جوانب البوابة ، وحى درجات السلم التى تقود الى الخندق سليمة وقد بقيت عند قاعدة الحائط الضخم على الجانب الخارجى فى مواجهة النهر قناة تبلغ مساحتها حوالى قدمين مربعين وهى مبنية ومسقوفة بالأحجار . ويصفها موراى فى كتابه بأنها بوابة مائية .

وعندما تحولنا للذهاب كانت الشمس قد ارتفعت ، والحرارة انتشرت ، والقارب فى انتظارنا . فمضينا رغما عنا ونحن نعرف أنه ابتداء من هنا وحتى القاهرة ، لن نشاهد آثارا أخرى من الماضى السحيق فيما عدا هذا الحصن المفكك . انه مجرد جبل من الطوب اللبن ، وبالرغم من عدم تناسق شكله الا أنه يثير الإعجاب بسبب قوة تناسب أجزائه الضخمة ، والاثارة التى تنطلق من تواضع أطلاله . ولكنه يعيد العصور الضائعة الى خيال الانسان بطريقة لا يقدر عليها أى معبد آخر . انه يبدو لامعا فى لحظة الاشرار الأثرى للنقوش ، ويجبرنا على أن نتذكر هذه الملايين المنسوبة من البشر والتى لم تذكر أسماؤها ، هؤلاء الذين شكل منهم الحكام جنودهم فى وقت الحرب ، واتخذوا منهم بنائين فى وقت السلم .

وأصبحت مغامراتنا فى الطريق قليلة ومتباعدة ، ومن النادر الآن أن نقابل ذهبية . وصار عدد الطيور كبيرا عما كان عليه فى هذا الجزء من النهر منذ أسابيع قليلة مضت . ورأينا أسرابا ضخمة من طائر الكركى الأسود والأبيض وهى تحتشد على الضفاف الرملية ليلا ، وأصبحت أعداد السمك فى متناول الصياد ، وابتهجنا لدى رؤيتنا للرجل الكسول وهو يخرج بندقيته ويعود بملء حقيبة من السمك ، ذلك لأن آخر خروف كان

لدينا قد ذبحناه قبل توجهنا الى وادي حلفا ، كما أن آخر دجاجاتنا توقفت عن الوقوة عند (أبو سنبل) .

وفى صباح أحد الايام شاهدنا عروسا يعبرون بها النهر فى مركب كبيرة مزدحمة بالنساء والبنات اللاتي يصفقن بأيديهن ، ويطلقن الزغاريد المدوية . وكانت العروس ذات جمال بلون الشيكولاتة ، وعينين رائعتين . وتزين بقلادة تتدلى فوق حاجبيها ، وخزامة فى أنفها ، وقد جدل شعرها فى مئات من الجداول الرفيعة التى تنتهى فى نهايتها بحبات من الصلصال مطلية بلون أصفر . وكانت تقف محاطة بصديقاتها ، فخورا بثيابها ، وسعيدة وهى ترى الانجليز يرمقونها بعيونهم .

وفى ذلك الوقت أيضا ، رأينا فى احدى الليالى نوعا من الاحتفالات البدائية يجرى على بعد عدة أميال من جانبى النهر ، ورأينا النيران تشتعل قرب الغسق أولا على هذه الضفة ثم على الضفة الأخرى ، وازداد لمعانها واتساع رقعتها مع هبوط الظلام . وعند ذهابنا للنوم كنا نسمع أصوات الطبول وهى تقترب شيئا فشيئا على الضفة الشرقية ونرى على البعد مركب مشاعل ورقص . وكان تأثير هذه المشاعل - لأن المشاعل فقط هى التى كانت ظاهرة - شديدا جدا . وكانت الأضواء تهفف وتتقاذف كما لو كانت كائنات حية ، وتدور وتلتف وتبتد وتعالى وتطارد بعضها الآخر فى سرعة . وتدور فى الهواء بين حين وآخر مثل الصواريخ . وبالرغم من أن الوقت كان متأخرا الا أننا رغبنا فى الهبوط الى الشاطئ ومشاهدة هذا الاحتفال عن قرب ، الا أن الرئيس حسن هز رأسه رافضا ، فالمعروف أن المواطنين فى هذه المنطقة يميلون الى الشجار ، وإذا كانوا يحتفلون بمولد بعض المشايخ المحليين وهو أمر وارد ، فاننا سنعامل كبدلاء متطفلين .

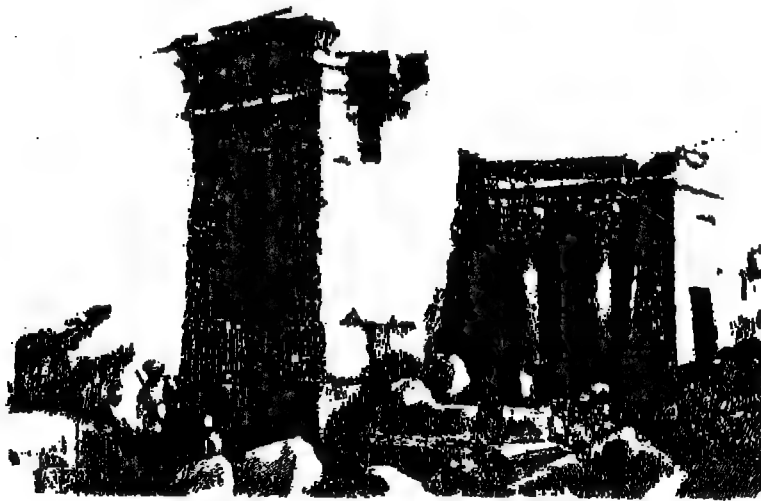
وعندما وصلنا مبكرين فى صباح أحد الأيام الى جرف حسين ، اتخذنا طريقنا الى المعبد الذى كان محفورا فى واجهة صخرة من الحجر الجيرى على ارتفاع حوالى ٢٠٠ قدم من سطح النهر . وهناك ممر منحدر شديد الحرارة تحت أشعة الشمس ، يقود الى شرفة واسعة فى الصخرة . ويتم الوصول الى المعبد من خلال رواق خرب ذى أعمدة وطريق للتماثيل الضخمة المحطمة . وداخل المكان شديد الانقباض ، أما خارجه فهو صورة من المعبد الكبير فى (أبو سنبل) ، كما أنه يعود الى نفس التاريخ الزمنى . وهو مكون من قاعة أولى تحملها أعمدة على شكل أوزوريس ثم قاعة ثانية أصغر حجما ذات أعمدة مربعة . وقد غشى اللسان الهيكل بلون أسود ، بالإضافة الى حجرتين جانبيتين . أما أعمدة أوزوريس الضخمة التى ترتفع الى

مكتبة جامعة القاهرة



مسافة ٢٠ قدما دون اضافة الأجزاء التي تفصل نهايات الأعمدة عن السقف وبدون قواعد تحت أقدامها ، وبذلك فانها تبدو قصيرة ممتلئة ومقوسة السيقان وردينة الشكل . وتبدو وجوها كما لو كانت قد طليت أصلا باللون الأسود ، بينما تبدو التماثيل التي في الطريق الخارجى ذات ملامح اثيوبية واضحة . وكان علينا أن نبحث هنا عن أسلوب الفنانين الذين أقاموا الرمسيوم في طيبة مثلما فعلنا في (أبو سنبل) . أما الحجرتان الجانبيتان في جرف حسين فهما تفصان بالحفافيش .

وتمثل هذه الحفافيش أعظم مناظر المكان ، ولها منظم ينظم حفلاتها. الاستعراضية ، وقد وجدناه في انتظارنا ومعه حبل غمست نهايته في القطران يقوم بقذفه فيلمع في المدخل الشديد الظلام . وفي لحظة واحدة رأينا السقف كله وقد تعلقت به زوائد بيضاء مثل ستارة شفافة . وكان ذلك لمجرد لحظة واحدة ، وفي اللحظة التالية تحركت جميع الحفافيش واندفعت بجنوف في وجوهنا مثل حبات الثلج المتساقطة ، وفيما بعد وعند انتهاء الاندفاع التقطنا خفاشا ميتا ، وفحصناه في الخارج في ضوء النهار . كان مخلوقا صغيرا بديعا أبيض اللون ومغطى بشعر ناعم ، وله جناحان شفافان ، وقدمان صغيرتان ورديتان ، وفم رقيق مثل فم الفار .



معبد دندور .

أما الصخور الواقعة بين جرف حسين ودندور فهي محاطة بأشجار النخيل القصيرة ، وأشجار السنط ، وشجيرات الحناء ، فانها تتجمع في شكل كتل منعزلة تشبه الأطلال ، حتى اننا لا نكاد نصدق أنها صخور

وعند غروب الشمس في دندور وهبوط ظلام خفيف على الوادى ، قمنا بزيارة معبد صغير يقع على الضفة الغربية وهو يقع أعلى من النهر ، محاطا بحائط من الأراضي العامة ، وهو يتكون من بوابة منعزلة وبهو للأعمدة وحجرتين صغيرتين وقدس أقدس . ويشبه المكان كله لعبة رائعة منطاة بأعمال النحت الناعمة الملمس وذات الشكل الجديد والبناء المثير للعجاب . وعندما كنا نراه فيما بين الغروب وحلول الغسق ، يبدو لنا أن هذه النقوش البارزة تنتسب إلى المدرسة المتخلفة (١) . ويغطي اللون الوردى الخفيف الذي يلمع في نور الغسق ، كثرة من الأخطاء التي لاتعد ولا تحصى ، ويدخل بالجميع في جو من الشاعرية .

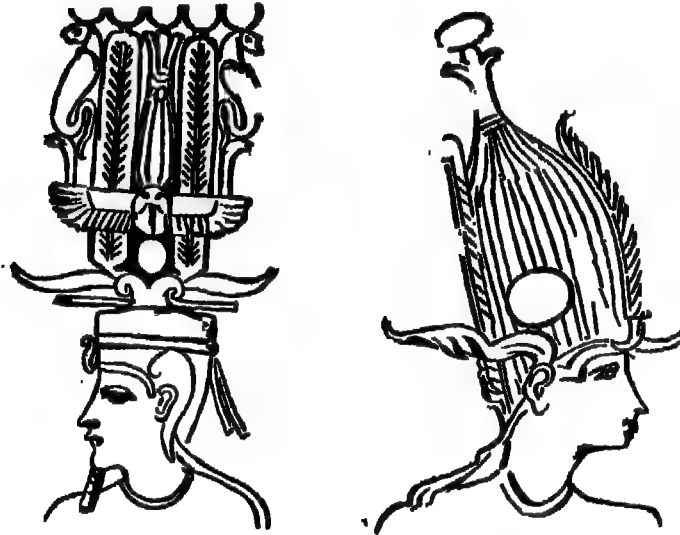
وأخذنا نعجب لما صار إليه الجو ، فقد استيقظنا في صباح اليوم التالى ونحن نرتعد حتى قرب نهاية اليوم بساعة ، كما أننا تذوقنا لأول مرة منذ أسابيع عديدة القشعريرة المبكرة القديمة في الهواء . وعند الظهر وجدنا أنفسنا في كلابشة وقد مررنا بحدود المنطقة المدارية أثناء الليل . ومن ذلك الوقت صار النهار شديد الحرارة بينما كانت هذه القشعريرة تأتي مع أشد ساعات الليل ظلاما قبل بزوغ الفجر .

وشاهدنا زحام الصباح المعتاد من بائعي الخرز والسلال والبيض والحمام وهم يحيوننا من على الشاطئ في كلابشة ، وقد حمل أحد الرجال سيفاً قويا ذا مقبضين في جراب من القטיפنة الزرقاء ، وكان يطلب خمسة جنيهات ذهبية فرنسية ، ويبدو هذا السيف كما لو كان يخص أحد النصليبيين . وقد أحضرت بعض السيدات (قشدة جاموسى) في قرية سوداء قدرة المظهر مربوطة إلى وسطهن مثل النطاق . وكانت القشدة جيدة ولكن القرب الجلدية تمنع النفس من اشتها الماكولات غير العادية .

ويوجد بالقرب من هنا معبد عظيم محفور في الصخر ، ويطلق عليه اسم محلى هو : بيت الوالى . وقد حظيت نقوش هذا المعبد المشهور بالوصف والتصوير أكثر مما حظيت به أية نقوش أخرى في مصر . ذلك لأن مشاهد موكب حاملى الجزية من الأثيوبيين ، وحملة مدينة عمورية ، وانتصارات رمسيس مصروفة جدا ليس فقط لدى كل من قرأ كتاب ويلكنسون ، بل بالنسبة لكل زائر يمر على الحجرتين المصريتين بالمتحف البريطانى . وهى مازالت جميلة بالرغم من الأجزاء التى نزعمت منها

(١) « C'est un ouvrage non achevé du temps de l'empereur Auguste. Quelque peu important par son étendu ce monument m'a beaucoup intéressé, puisqu'il est entièrement relatif à l'incarnation d'Osiris sous forme humaine, sur la terre. » — Lettres écrites d'Egypte, etc. : Champollion. Paris, 1868, p. 126.

والمعاملة السيئة التي عاملها بها المواطنون والزوار . وبالرغم من أن لون هذه النقوش التي في الفناء غير المسقوف كانت كاملة عندما نزلت بونومي لوحاته المثيرة للعجب ، إلا أنها الآن قد زالت عنها قشرتها الخارجية . ولكنها مازالت تلمع في البهو والحجرات الداخلية . وكذلك فإن ألوان تمثال أوزوريس الخضراء مثل الزمرد وألوان أنوبيس القرمزية وألوان إيزيس الصفراء مثل معدن الكروم ، ما زالت جميعها مذهلة بصفتها ونقاء خاصيتها ، أما عن لون جسم أنوبيس فأعتقد أنها كانت المرة الأولى التي أصادف فيها لونا قرمزيا حقيقيا في كافة الصبغات المصرية ، ويقع بين معبد بيت القاضي ومعبد كلابشة المجاور له على مسافة تبلغ حوالى نصف ميل من ممر جبلى ، وخليج يبلغ طوله حوالى ١٤٠٠ ياردة . ويقودنا رمسيس الى حضرة أغسطس ، ثم نجتاز الخطبة التي استمعنا اليها في بيت الفرعون العظيم الى الغرفة التي يشغلها القياصرة .



ولو كانت الزخارف التي في غرفة القياصرة تشبه الزخارف التي في معبد كلابشة لكان ذوقها من أقبح الأذواق ؛ لأننا لم نشاهد أبدا مثل هذه الآلهة التنكرية ، وتلك الحبال المخططة والمنقطة والمتقاطعة ، وتلك الأغنية الساذجة التي فوق الرؤوس ، وتلك الألوان البدائية العنيفة (١) .

(١) لاحظت هنا اللون البنفسجى للمرة الأولى والوحيدة ، واللون الأزرق اللازوردى .
اللامع ، كما توجد آثار الطلاء باللون الذهبى فوق الكثير من الأشكال .

2. 50. 17.



. أما عن الالهات فانهن مبهرجات أكثر من البنات الراقصات فى الأقصر ، بينما يضع الملوك على رؤوسهم أكاليل مكونة من قرون وأقمار وطيسور وكرات وجعارين وأزهار اللوتس والأفاعى الصغيرة والزهرات والريش .

وجرى تنفيذ هذا المعبد على نطاق واسع فهو كرنك النوبة (*) . ولكنه كرنك تعرض لهزة زلزال أعنف من تلك الهزة التى زعزعت الأعمدة الضخمة للصالة الأولى ، وأسقطت مسلة هاتاسو . وهو يبدو من النهر مثل قلعة ضخمة ، ولكنك اذا نظرت اليه من عتبة البوابة الرئيسيه للصرح فستجده مجرد متاهة خربة ، فالكتل والأعمدة وتيجان الأعمدة والطبقات العازلة بينها وبين السقف ، جميعها ساقطة ومكسرة بشكى عجيب بحيث لا توجد بقعة واحدة فى جميع هذه القاعات والأفنية يستطيع الانسان أن يطأها بقدمه على سطح البلاط الأصيل . وللمرة الثانية يبدو أن الزلزال قد حدث قبل اتمام العمل ، فهناك أشكال محددة على الحوائط ولكنها لم تنحت ، وأشكال أخرى بدأ العمل فيها ولكنها لم تنته . وتستطيع أن تتبين المواضع التى توقف عندها الازميل ، بل انك تستطيع أيضا أن تكتشف آخر علامة نحتت على السطح . ويستطيع الانسان هنا أن يتتبع العمليات الأربع التى تتم بها زخرفة الحوائط ، فتجد فى بعض الأماكن أن المساحات قد عزلت داخل مربعات ووضعت تحت سيطرة العامل الميكانيكى . وفى أماكن أخرى تجد أن الموضوع قد رسم بالفعل داخل هذه المربعات بمعرفة الفنان ، وهنا مضى بها النحات الى مرحلة أخرى ، وهناك بدأ النقاش فى تلوينها .

ومن أهم النقوش الأخرى التى تتجاوز أهميتها أى شىء آخر فى كلاشنة ، النقش اليونانى عن سيلكو ملك أثيوبيا . وقد اكتسب هذا

(*) كان هذا المعبد يبعد عن سد أسوان بحوالى ٥٧ كيلو مترا ، ولكنه أعيد تشييده جنوب أسوان اثناء حملة انقاذ اثار النوبة عام ١٩٦٠ بمساعدة الالمان - (المراجع) .

النقش شهرة عظيمة بسبب تعليقات نيبور ولترون التي اكتشفت سنة ١٨١٨ للميلاد بمعرفة مسيو جاو M. Gau ، وهو يتضمن ٢١ سطرا كتبت بالحبر الأحمر بخط جميل ، ويعود تاريخه الى القرن السادس بعد الميلاد ، ويبدأ هكذا :

• لقد وصلت مرتين الى تلميس (١) وتافيس (٢) •

• لقد حاربت ضد البليمي (٣) ووهبني الرب الانتصار •

• لقد قهرتهم مرة ثانية • وفي المرة الاولى •

• اقامت نفسي تماما مع جيوشي •

• لقد قهرتهم وتضرعوا الى •

• لقد اقامت سلاما معهم واقسموا لي باصنامهم •

• لقد وثقت بهم لأنهم أناس ذوو عقيدة طيبة •

ثم عدت الى ممتلكاتي في القطر العلوى

لأننى ملك

ولست ملكا داخلا في ترتيب الملوك الآخرين •

ولكننى أتقدمهم

(١) كلايشة •

(٢) طافة •

(٣) البليمي جنس بدوى من البربر ، والمفروض انه ينتمى اصلا الى قبيلة بيلماس التى من التيبو الى الصحراء الوسطى وقد استقر مبكرا في هذا الجزء من وادى النيل الذى يقع بين الشلال الاول والشلال الثانى منذ ايام اراتوسينس •

انظر :

Le Nord re l'Afrique by : M. V. Desl. Martin, Paris, 1863, section III.
p. 73.

أما هؤلاء الذين يبحثون عن الشقاق ضدى •
فاننى لا أمنحهم سلاما فى مساكنهم حتى يتوسلوا الى طالبين العفو منى
اننى أسد فى السهول وعنزة فوق الجبال •
الخ • الخ • الخ •

هذا النقش له أهمية تاريخية عظيمة لأنه يبين أنه فى خلال القرن
السادس الميلادى بينما كان السكان الوطنيون فى هذا الجزء من
وادى النيل يلتزمون بالعقيدة المصرية القديمة كان الأحباش فى الجنوب
يدعون أنهم مسيحيون (*) •

وكانت سلالة الجنس البليمى تمثل جنسا خالصا يمتاز أفرادها
بالطول والقوة ، وكانوا ذوى لون بنى غامق • وعندما كنا نتمشى خلال
القرية عند الغروب شاهدنا جميع السكان ، فكان الكهول من الرجال
يجلسون أمام أبواب منازلهم • والشبان يتسكعون ويدخنون ، والأطفال
يلعبون • أما النساء اللاتى كن يتمتعن بأسنان بيضاء لامعة وعيون صافية ،
ويتحلىن بالحلى الذهبية والفضية على أعناقهن وحواجيهن بشكل مفرط ،
فقد كن يخرجن مع أطفالهن الصغار ذوى اللون البنى ، منفرجى السيقان
على وسطهن أو كتفهن لكى يستطعن الحملقة فينا أثناء مرورنا •

وكانت هناك سيدة عجوز مريضة ترقد خارج كوخها على دكة
مصنوعة من جريد النخيل ، وقد رفعت نفسها مرتكزة على كوعها لحظة
قصيرة ثم انهارت مرة أخرى وهى تتأوه فى ضعف ، وأدارت وجهها نحو

(*) هذا الاستنتاج مخالف للواقع فقد دخلت المسيحية الفعلية الى اثيوبيا أيام
البابا القبطى المصرى القديس اثناسيوس الرسولى الذى اختير للبطريركية سنة ٢٢٦
للميلاد • وجاء اليه فرومنتىوس Frumentius لتقديم تقرير عن الاحوال فى اثيوبيا
فرسمه أسقفا وأرسله اليها سنة ٣٣٠ ميلادية وصار يعرف باسم أبى سلامة أى (أبو السلام)
وهو لقب مطران الحبشة الذى كان يرسم ويرسل من مصر • وبذلك فان معرفة اثيوبيا
للمسيحية وبخول الأحباش فى هذه الديانة قد حدث خلال القرن الرابع الميلادى على
يد الاقباط المصريين ، وهذا يخالف ما ذكرته المؤلفة من أن المصريين فى القرن السادس
كانوا يلتزمون بالعقيدة المصرية القديمة • انظر لى ذلك : ١ - تاريخ الكنيسة القبطية -
منى يوحنا - صص ٢٠٤ - ٢٠٦ • ٢ - قصة الكنيسة القبطية - ابريس حبيب
المصرى - الجزء الاول ، صص ٢١٤ - ٢١٥ • ٣ - تاريخ اثيوبيا - دكتور زاهر
رياض ب صص ٤٠ - ٤١ ، وغيرها - (المترجم) •

الحائط • أما المساكن المبنية من الطوب اللبن هنا فقد أقيمت داخل وخارج متاهة من الأساسات الحجرية الهائلة وهي بقايا مبان كانت عظيمة في يوم من الأيام ، وقد بنيت بعض هذه الحوائط في أشكال منحنية بينما بنيت أطرافها من الأحجار بمعنى أنها مضغوطة من الوسط ومرفعة عند الأركان ، وهو طراز من البناء تم تعديله ؛ لكي يعطي مقاومة أقل عندما يتعرض لهزات الزلزال (١) •

وقد شاهدنا أساسات أخرى مقامة بنفس الأسلوب في طافا حيث وصلنا في صباح اليوم التالي • ولما كانت الأعمال الحجرية في طافا تعود الى التاريخ الروماني المتأخر ، بالإضافة الى كثرة الزلازل في النوبة خلال الفترة الطويلة التي تلت الهزة الضخمة التي حدثت سنة ٢٧ للميلاد ، والتي ذكرها المؤرخ يوسابيوس فقد كان السياح مستعدين لنسبة كافة الأطلال الى عصر قمبيز والثورة الإصلاحية التي قام بها المسيحيون الأوائل • وليس هناك شيء أسهل من التمييز بين تخريب الآثار الذي أحدثته يد الانسان والتخريب الذي أحدثته ثورة شاملة • فالتشويه يسود في الأولى بينما يسود الاستبدال في الثانية • وفي دندرة على سبيل المثال نجد أن الضرر الذي حدث كان متعمدا ، بينما هو في (أبو سنبل) عرضي ، أما في الكرنك فقد كان يجمع بين التعمد والصدفة • أما في كلابشة فمن الواضح أن مثل هذا الدمار الضخم لا يمكن أن يحدث بوسيلة انسانية دون مساعدة المعدات الآلية ، مع النيران أو البارود لأن هذه الوسائل قد تركت آثارا واضحة •

ويوجد في طافا معبدان صغيران أحدهما محطم بشكل يصلح للرسم • أما الآخر فهو سليم تماما ويستخدم الآن كاسطبل للخيل • وهناك أيضا عدد من الأساسات الحجرية منعزلة ومربعة الشكل ومقسمة الى حجرات صغيرة عديدة ، ومحاطة بحوائط بعضها مبنى في المسارات المنحنية التي

(١) انظر • The Habitations of man in all ages, V. Le Duc, Chap. IX, p. 93



بقايا معبد طافا بالنوبة •

سبق أن ذكرناها • وقد ظلت هذه الأساسات الفرعية التي أحصى منها
الرسام ثمانية عشر أساسا ، تثير حيرة السائح (١) •

وتقع طافا في موقع ساحر ، ولا شك في أن الأميال السبعة التي كانت
تفصلها عن كلابشة ، مع منظر الشلال ، تمثل أفضل المناظر صلاحية

(١) لابد أن هذه الأساسات تحدد موقع دير قبلى ورد وصفه في مخطوط عربي تحدث
عنه • كاترمير حيث يقول انه « في مدينة طافا يوجد دير بديع يسمى دير أنسون
Ansoun • وهو دير قديم جدا ولكنه صلب البناء للدرجة انه بعد عدد كبير من
السنين مازال سليما بدون أضرار • وتقع بالقرب من هذا النير وفي مواجهة الجبل خمس
عشرة قرية •

انظر • *Mémoires Hist, et Géographique sur l'Egypte et le Nubie*

بقلم E. Quatremere - نشر في باريس سنة ١٨١١ - المجلد الثاني ، ص ٥٥ •

ولا شك أن الدير والقرى أيضا قد شيدت حسب الطراز الروماني المصري كما يبدو
لأول وهلة ، وربما كانت في الأصل تشكل كلية لاهوتية مثل الكلية اللاهوتية التي
في فيلة •

لرسم على هذا الجانب من وادى حلفا • أما الجزر الصخرية الصغيرة التى فى النهر ، ومزارع النخيل ، وأشجار السنط والخروب والحناء والخروع وكافة نوعيات الأشجار المزهرة على حواف الضفاف والجوانب المتصدعة والقمم المخروطية للجبال التى ترتفع هنا بحدة على حافة الماء ، فانه تشكل مع السهل الرملى مناظر جميلة حيثما ذهب الانسان • ويقال انه توجد هناك غزلان فى الوديان التى خلف طافا • ويشرح أحد المواطنين وهو شخص مشاكس يرتدى قميصا ممزقا وعمامة بيضاء قدرة • كيف أنه يوجد على مسافة ثلاث ساعات ، واد ضيق طويل به برية أخرى أكبر من هذين المعبدتين اللذين فى السهل ، وتمثال ضخيم يتجاوز طوله ثلاثة أضعاف طول الرجل العادى • اذن فلو صحت القصة فانه يوجد كشف جاهز لمن يود القيام به • وباع نفس هذا المواطن عقدا للرجل الكسول • وبعد أن مضى راضيا بالثمن الذى حصل عليه ، عاد اليها عدة مرات وخلفه نصف أهالى القرية وهو يطلب ضعف الثمن • ولما رفضنا هذا الطلب المتواضع هاج كالمجنسون ومزق عمامته ، وأخذ يؤدى بعض الحركات الوحشية بالرمح الذى كان يحمله ، ثم جلس فى هدوء وجلس حوله أصدقاؤه وجيرانه خلفه فى شكل نصف دائرة •

ويبدو أن هذا هو الاجراء الذى يتخذه النوبيون للتحدى ، فقد ألقى بقفازه طالبا النزال • وفى نفس الوقت أخذ الجمع الصاخب يتزايد فى كل لحظة • وظهر الرئيس حسن حزينا ، وخشى حدوث معركة محتملة ، بينما كان الرجل الكسول يقرأ صلاة باكر فى أسفل المركب (لأن ذلك الصباح كان صباح الأحد) ولم يسمع شيئا من الضجيج الدائر فى الخارج • ومع حالة الطوارئ هذه خطر فى بال الكاتبة أن ترسل الى الشاطيء رسالة تبلغ هؤلاء السادة بأن الخواجات يؤدرون صلاتهم الآن فى الذهبية ويطلبون اليهم أن يهدءوا حتى ينتهى وقت الصلاة • وكان تأثير الرسالة عاجلا فقد صمتت الأصوات الغاضبة ووضع المتحدى عمامته على رأسه ، وجلس النظارة القرفصاء على الشاطيء فى هدوء • وبعد أن مرت على ذلك الوضع ساعة كاملة ، أخذت العاصفة فى الانقشاع ، وعندما ظهر الرجل الكسول على سطح المركب ، تقدم متحديه الى الامام سعيدا بأن يينا المساومة من جديد •

ولا تهما لنا الصورة التي انتهت بها هذه المشكلة ، ولكنني أعتقد أنه عرض عليه أن يسترد عقده في مقابل رد النقود التي أخذها ، وقد فضل أن يلتزم بالمساومة التي اتفق عليها . والواضح أن ذلك كان نتيجة الاخلاص الديني الذي يخيم على عقول هؤلاء الناس نصف المعوحشين (١) لدرجة أنهم وجلت أن الواقعة لا تستحق الذكر .

ونحن الآن على بعد أقل من أربعين ميلا من فيلة ولكن الريح القادمة من الأمام كانت ضدنا على طول الخط ، وقد نفذ مخزون الرجال من الخبز ، ولا يوجد دقيق في هذه القرى النوبية . وقد كنس الرجال المساكين آخر الفتات الذي كان موجودا في قاع صحارة الخبز منذ ثلاثة أو أربعة أيام مضت ، وهم يعيشون الآن على ثلاثة أرباع الجراية المفروضة لكن واحد منهم ، من شربة العدس والقليل من التمر الذي اشتروه من وادي حلفا . وقد جثموا بجوار مجاديفهم صامتين ، أو حاولوا أن ينسوا جوعهم بالالتجاء الى النوم . وبالنسبة لنا كانت رؤية حاجتهم الى الخبز تثير آلامنا ، وقد تضاعفت هذه الآلام لعجزنا عن مساعدتهم . وأقسم تلحمي الذي وصل مخزونه الى أقل مستوى بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . أما علب اللحم المحفوظ الموجودة لديه فلن تكفي لغذاء خمسة عشر رجلا لا لمدة يومين فقط . أما عن الدقيق فليس لديه الا كمية من الشعير تكفي الحواجات ، ولا شك في أنهم جائعون ، ولكن ماذا في ذلك ؟ انهم أعراب ، والأعراب يتحملون الجوع مثلما تتحمل الجمال العطش فهذا ليس بجديد بالنسبة لهم ، وقد عانوا من الجوع من قبل ، وسيعانون منه فيما بعد . يكفي هذا ، فليس على النساء الاهتمام بمثل هؤلاء الناس ؟

وكانت نصيحة جيدة بلا شك ولكن من الصعب الاصغاء اليها . ان عدم اهتمامنا وعدم قدرتنا على عمل شيء لهؤلاء الفتيان المساكين شيء

(١) « ان فلاحى طافا يذكرون أنهم أحفاد السكان المسيحيين القلائل من أهل المدينة الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية عند خضوع البلد للإسلام . وقد لجأ الجزء الأكبر من اخوانهم الى الفرار ، أو أنهم قتلوا أثناء تلك المعركة . وما زال يطلق عليهم اسم : اولاد النصرى - أى ذرية المسيحيين » .

انظر كتاب : Travels in Nubia, Burckhart, London, 1819, p. 121.

لا يمكن احتمالاه • وعندئذ يعني هذا أن نضع أيدينا على مخزون تلحمي القليل من البيض والبسكويت وأن نقيم مسابقات اليانصيب ونخصص لها جوائز من الشيكولاتة والتبغ فان ذلك يعني أننا قد تصرفنا بالقليل من الحكمة • وقضينا ساعة أو ساعتين تحت حشر الشمس في قرطاس ثم توجهنا الى دابود • ان محاجر الحجر الجيري في قرطاس مليئة بالمناظر والنقوش الخاصة بالندور • وليست أطلال المبنى الصغير الا مجرد مجموعة من الأعمدة التي تسند قطعة من الافريز الذي يقف فوق حافة صخرة تطل على النهر • عليك أن تنظر اليها كما تريد سواء من أعلى أو من أسفل • وأنظر شمالا أو جنوبا فهي من جميع النواحي تمثل منظرا صالحا للرسم •



معبد دابود

واذا انتقلنا الى دابود على ذلك البساط السحري المذكور في قصص الجنيات ، فان الانسان سينظر اليها بوصفها خرائب في « منطقة ساحلية » لاحدى البحيرات الهادئة فى وادى الأحلام • انها تقع بين اثنتين من انحناءات النهر الذى يتسع فى هذه المنطقة دون أن تظهر له منافذ للتصريف ، وقد أحاطت به الجبال ومزارع النخيل • أما المعبد نفسه فهو صغير وغير ذى أهمية • ويبدأ انشاؤه مثل معبد الدكة بمعرفة أحد الملوك الأنوبيين وينتهى بمعرفة البطالمة والقيصرة • أما الشيء الغريب فيه فهو عبارة عن صومعة سرية ، وتوجد بجوار الهيكل غرفة جانبية مظلمة ، وهناك حفرة فى أرضية الغرفة الجانبية التى كانت مغطاة بالبلاط

فى يوم ما • وفى أحد أركان الحفرة كانت توجد فتحة تسمح بمرور جسم رجل من خلال ممر ضيق • وهناك فى الممر الضيق درجات سلم تقود الى غرفة سرية مبنية فى جسم الحائط • وقد شاهدنا غرfa سرية أخرى فى المعابد الأخرى (١) ولم تكن بينها غرفة واحدة سليمة بما فيها من الأساليب القديمة •

ولا تتجاوز المسافة من دابود الى فيلة عشرة أميال ، ولما كنا نقصد توريجور الأقرب إلينا بمسافة ميلين وهى نفس القرية التى عند سفح المنحدر الرملى الجميل الذى رسونا بالقرب منه فى طريقنا الى جنوب النهر ، فقد كان علينا أن نبقى هنا لمدة يومين يليهما أسبوع على الأقل فى فيلة • ولذلك فانه بمجرد وصولنا الى توريجور أسرع الرئيس حسن وثلاثة من البحارة الى أسوان لشراء الدقيق ، وطلب الكهل على ورزق الله ، وموسى الذين تقع منازلهم فى القرى المحيطة بالمكان السماح بالغياب لمدة أسبوع ، وسرعان ما تقلص عدد البحارة الى خمسة تحت رئاسة خليفة • وعلى كل حال فقد كان هؤلاء الخمسة بمثابة خمسين •

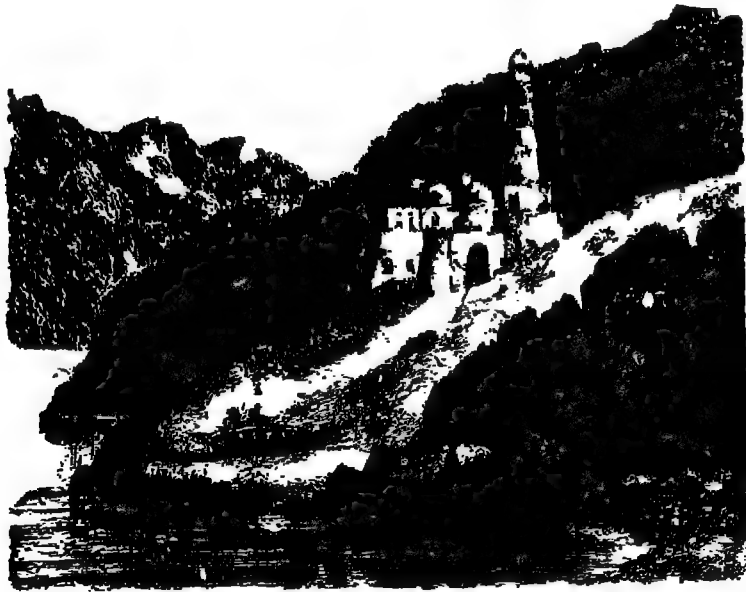
وعندما رست الذهبية ولم يكن هناك شئ نعمله ، وقد أصبح بحارتنا الخمسة سعداء الآن بعد أن استطاعوا شراء بعض الفطائر النوية الناعمة والعدس الأخضر ، فقد أقام الرسام خيمته على قمة المنحدر الرملى ، وأخذت الكاتبة ترسم خرائط الدير المقابل ، وأخذت السيدة (ل) والسيدة الصغيرة تكتبن خطابات لاتنتهى • وقام الرجل الكسول يتبعه محمد على بصيد السمآن • وشعر الجميع بالرضا •

وكان الرجل الكسول منحوسا ، ولكنه لم يكن مصابا بجنون القتل لأنه اكتفى بقتل السمآن ولم يحاول قتل الأطفال ! فما الذى دفعه الى

(١) كانت تحفظ فى هذه الغرف السرية (التى كانت بداخلها مغلقة بكتل حجرية مثبتة بحيث لا يمكن الكشف عنها) التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة واللازورد ، والزهرجات الثمينة ، والصلوج ، والفلائد المطعمة بالجواهر ، وجميع الكنوز المنقولة التى فى المعابد • وقد رأينا ثغرة مشابهة وغرفة صغيرة فى ركن معبد الدكة ، وبعض السرايب الخريبة وأماكن الاخفاء تحت أرضية الغرفة المظلمة التى فى شرق الهيكل بمعبد فيلة ، وجميعها قد كسرت وسلبت • ولكن لدينا سببا قويا للاعتقاد بأن الرسام قد اكتشف مكان غرفة سرية أو ممر الى غرب الهيكل مازال مغلقا ، ومن المحتمل أن تكون جميع كنوزه سليمة • ولم تكن لدينا على أية حال ، وسائل فتح الحائط اللبنى من الحجر الصلب •

ذلك ؟ دعنا لا نأمل أن تكون قد أصابته أطماع اهتمام خاطيء ، بسبب التماسيح ! فقد ظهر هادئا ومبتسما وقد وضع بندقيته تحت إبطه ، ومحمد على يسير بجانبه ، ولم يكن هناك من يشبه الرجل الكسول في خفة قلبه ؟ ومن كان يضاهي محمد على المعمم ، في خفة سيره ؟ وقد سمعنا رجلنا الرياضي وهو يدخل في حقل الشعير • وقد سعدنا بهذا الصوت لأننا عرفنا أن هدفه حقيقى • وقلنا فى أنفسنا ان كل طلقة نسمعها تعنى صيد أحد طيور السمان • وتهايا لنا أن احدى هذه الطلقات قد أصابت طفلا •

وسرعان ما سمعنا صرخة احدى السيدات • كانت صرخة حادة وفجائية على اثر طلقة رصاص • كما كانت مشوبة بالفزع ، وترددت من ركن الى آخر مع زيادة الحدة ورجع الصدى من كل اتجاه • وفى نفس اللحظة حفلت الضفة بالكائنات البشرية • وظهر الناس كما لو كانوا قد خرجوا من باطن الأرض • وكانت النساء يصرخن ويلوحن بأذرعهن ، وأخذ الرجال يجرّون ، والجميع يتجهون الى نفس الهدف • وسمعت الكاتبة



دير قبطى للراهبات بالقرب من فيلة

صوت الصرخة ، وشاهدت الانفجاعة ، واستنتجت حالا وقوع حادث
ناجم عن اطلاق النار .

وتلت ذلك لحظات من التوقع المؤلم ، ثم ظهر محمد على وهو يعدو
باقصى سرعته . وبعد ذلك بحوالى خمس دقائق بدت كما لو كانت
عشرين دقيقة ، جاء الرجل الكسول وهو يسير ببطء وتحد مرفوع الرأس
وذراعه مبسوطتان ، وقد اختفت بندقيته ، وخلفه حشد ضخم
من الغوغاء .

وهب بحارتنا القليلون المسلحون بالصي للنجدة ، وأحضره سالما ،
وبعد ذلك عرفنا ماذا حدث . لقد طار سرب من السمان عاليا ، وعندما
عاد الى ارتفاع منخفض ومس سطح الزراعات ، وغاص مرة أخرى في دورة
سريعة ، أصبح في متناول بندقية الرجل الكسول . وفي اللحظة التي
أطلق فيها الرصاصة وفي نفس مسار السمان قفزت سييدة وطفل كانا
يجلسان القرفصاء في داخل حقل الشعير وأخذا يصرخان . وسرعان
ما لاحظ الخطر القادم ، واستطاع بحضور ذهنه المثير للاعجاب أن يفرغ
شحنة الطلقة التالية ، ثم أخفى صندوق ذخيرته واحتضن بندقيته متعمدا
أن يتمسك بها أطول فترة ممكنة . وفي اللحظة التالية أحاط به الناس
وشلوا مقاومته وسحبوا بندقيته من قبضته ، ثم تلقى ضربة حجر في
ظهره . وبعد أن أخذوا بندقيته تركه واحد أو اثنان من الرجال لكي
يمضى في طريقه . وبعد ذلك تخلص من الباقيين وعاد الى المركب . وفي
نفس الوقت أسرع محمد على في طلب النجدة . وكان هو الآخر قد نال
بعض الضربات القاسية بالاضافة الى تمزيق ثوبه وخلع عمامته
عن رأسه .

وفي نفس الوقت لم يكن معنا الا ما يقل عن نصف عدد رجالنا ،
وقد دخلنا في معركة خاصة بدون قائد ، بينما استولى العدو على إحدى
بنادقنا الثلاث ، فبالله من منظمين مخيف ! لقد اندفع أهالى القرية كلها
وهي قرية كبيرة ، وأخذوا يتزاحمون على الضفة وهم يجرون هنا وهناك ،
وجميعهم يهذون بالكلام ويصيخون مستخدمين الحركات والاشارات

للتعبير عن سخطهم • لقد كنا على وشك العراك في طافا ، ولكننا ههه
مهددون بالحصار • وبعد أن سحبنا اللوح الخشبي الذي يصل ما بين
المركب والشاطئ، عقدنا مجلسا سريعا للحرب •

وكانت المرأة سليمة ، واذا كان الطفل قد أصيب فهي اصابة
طفيفة ، وأحسبنا بالاعتدال في الحديث بنخمة الاصابة ودعونا أهالي
القرية الى تقديم بيان بحالة العدوان الجبان ، وطالبناهم بإعادة البندقية
حالا ، وعلى ذلك ارسلنا تلحى للتفاوض مع زعيم القرية واحضار
البندقية سريعا ، وفوضناه بأن يقول لهم - كنوع من الدهاء السياسى -
انه لو كان قد حدث مكروه فانه يوجد طبيب ضمن الحواجات ، وعلى والد
الطفل أن يأتى بطفله المصاب لمعالجة اصاباته •

وكانت الأحوال متوترة في الخارج مثلها في الداخل ، فانظرنا
لما ستسفر عنه الأحداث • ولما كان ظهر تلحى في مواجهة النهر فقد
شاهدنا كل نصف الدائرة التي تتكون منها الوجوه السمراء كاملا بما فيه
الحواجب المقوسة ، والعيون التي تطلق الشرر ، والأسنان اللامعة •
وفجأة تغير تعبير الوجوه • لقد بدأ التغير أولا بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا
أقرب الى المتحدث ، وانتشر بالتدريج الى الخارج • وظهر كما لو أن موجة
قد عبرت فوقهم ، وعرفنا حينذاك أن ضربتنا قد نجحت • وعاد تلحى •
وتجمع القرويون حول زعمائهم وهم يتفاوضون • وأخذت أعداد منهم في
الجلوس ، وعندما يجلس النوبى تتأكد أنت من أنه لم يعد يشكل خطرا •

وبعد حوالى ربع الساعة أعيدت البندقية دون أن تمس • وظهر
رجل كهل على الضفة وهو يحمل صرة زرقاء • والآن أعيد لوح الخشب
الموصل بين المركب والضفة ، وابتعد الزخام ، وسمح بمرور الرجل الذي
يحمل الصرة ومعه ثلاثة أو أربعة آخرون •

وبعد فك الصرة ظهر جنى صغير بنى اللون يبلغ من العمر حوالى
أربع سنوات ، ورأسه أشعث حليق الشعر • ويكى في البداية وهو
يشاهد الوجوه الغريبة البيضاء اللون ، ولكن عندما قدمت له إحدى
تمار التين ، نسي كافة مخاوفه وجلس يعضها مثل القرد • أما بالنسبة
لجروحه فقد كانت سطحية ؛ لأن الطلقة قد لامست كتفه في أربعة أو خمسة
مواضع • وقام الرجل الكسول بغسل الخدوش بقطعة اسفنج مبللة بالماء

الدافىء وقام السيد (ل) بتغطيتها يقطع من البلاستر اللاصق . واخيرا
أهدينا الى أبيه جنيها ذهبيا فرنسيا ، كما تم لف المصاب فى أحد قمصان
الرجل الكسول ، وانتهى الفصل الأول من المسرحية . وكان علينا انتظار
الفصلين الثانى والثالث . عندهما وجد الرسام والرجل الكسول أن العمل
قد انتهت ، اتفقا على أنه من المناسب تقديم شكوى ضد القرية ، حماية
للسياح القادمين فيما بعد . وكان ذلك بسبب الضربة الغادرة التى وجهت
من الخلف فى وقت كان فيه الرجل الكسول (الذى لم يحاول من قبل
أن يحمى نفسه) ضعيفا بين أيدي الغوغاء . ولذلك ذهبنا فى اليوم التالى
الى أسوان ، ووعده الحاكم وهو مبتهج كعادته دائما بأن نأخذ الصداقة
مجرأها . وفى نفس الوقت تحركنا بالذهبية الى فيلة وبقينا هناك لمدة
أسبوع مشغولين بالرسم .

وفى المساء التالى حضر وفد من تورييجور يطلب الصفيح يعلن ان
خمسة عشر قرويا قد اقتيدوا الى السجن

وذکر الرجل الكسول أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا بالنسبة لهم ،
وأن الموضوع باختصار أصبح فى يد العدالة ، وسيتم التعامل معه طبقا
للقانون . وهنا جمع المتحدث حفنة من التراب وهدد بأن ينثرها فوق
رأسه . وقال : « أيها الترجمان ، أبلغ الخوافة أنه لا يوجد قانون
الا ما يرتضيه الحاكم وأنه لا توجد عدالة الا رغبة الحاكم ! » .

وفى صباح اليوم التالى ذهب الرجل الكسول الى اسوان مبكرا
ليدلى بشهادته فاستقبله الحاكم والمدير بمفرده ، وتم تقسيم القليون
والقهوة وتبادل الرسميات المعتادة ، ثم أبلغ الحاكم ضيفه أنه تم القبض
على خمسة عشر رجلا من أهالى تورييجور واعترف أربعة عشر منهم بأنه
الخامس عشر هو الذى وجه الضربة من الخلف .

ثم قال الحاكم : « والآن قبل أن نرسل فى طلب المحتجزين ،
فمن الأفضل الاتفاق على القرار . ما الذى يرغب سعادته فى عمله
بالنسبة لهم ؟ » .

وارتبك الرجل الكسول فكيف يقدم اقتراحا بالمطوب وهو يجهر
القانون المدنى المصرى ؟ وكيف يتم الاتفاق على منطق انحكم قبل
المحاكمة ؟

وابتسم الحاكم يهدوء ، وقال : « ولكن هذه هي المحاكمة » .

ولما كان الرجل الكسول انجليزيا فقد بذل جهدا لمعرفة مدى فاعلية هذا التوضيح . انه توضيح لخص ببساطته الرفيعة النظام الكامل للادارة القضائية في القانون المصري . وتردد في بياض أنه لا يضمم أدنى استياء ضد المذنب أو القرويين ، وأن كل ما رغب فيه هو تخويفهم لكي يحترموا السباح بوجه عام .

وهنا دعا الحاكم المدير لاقتراح صيغة الحكم ، وقال المدير انه وهو يأخذ في اعتباره قرارات سعادته المتسامحة يقترح مجازاة الأربعة عشر رجلا الأبرياء بشهر سجن لكل منهم ، أما الجاني الحقيقي فيسجن لمدة شهرين مع جلده مائة وخمسين جلدة في الفلقة .

وقد اقشعر بدن الرجل الكسول لدى سماعه هذا الاقتراح وأعلن ضرورة اطلاق سراح الأبرياء ؛ ولكنه وافق على أن يجلد الجاني مائة وخمسين جلدة لكي يكون مثالا لغيره ، ثم تخفف الجلادات بعد أداء الجلديات الأولى ، وأعطيت الأوامر بادخال المذنبين .

وتقدم السجناء أولا وتبعه شرطيان ، ثم أدخل الخمسة عشر رجلا المحتجزون . وكم أحس بالخجل وأنا أكتب أن أعناقهم قد ربطت بالسلاسل على طاوور واحد . ويستطيع القارئ أن يتخيل شعور الرجل الكسول في هذه اللحظة .

وتم النطق بالحكم، ونظر الأربعة عشر رجلا في ذهول وهم لا يصدقون آذانهم ، بينما كان المسجون الخامس عشر المعاقب بمائة وخمسين جلدة (« خمسة وسبعين جلدة على كل من قدميه » كما قال الحاكم) أكثرهم سعادة لاطلاق سراحه بمثل هذه السهولة .

وألقى به على ظهره ، ثم ربطت قدماه وباطنهما الى أعلى ، وبدأ الشرطيان في تنفيذ الحكم . وكان يصرخ عند كل جلدة قائلا : « يحيا الحاكم ! يحيا المدير ! يحيا الخواجة ! » .

وبعد أداء الجلدة السادسة اتجه الرجل الكسول نحو الحاكم وطلب رسميا التفاوض عن تنفيذ بقية الحكم . واستجاب الحاكم للطلب وأطلق سراح المحتجزين وهم يبكون من فرط سعادتهم

ثم تبادل الحاكم والمدير والرجل الكسول التمنيات الحارة ، وذكر الحاكم أن رغبته الوحيدة أن يكون مقبولا عند الانجليز ، وأنه كان سيقوم بجند القرية كلها لو رغب سعادته في ذلك .

وقضينا في قبيلة ثمانية أيام سعيدة ، وبعد حلول ظهر اليوم الثامن كانت الكاتبة وحدها على الجزيرة خلال الساعات الأخيرة . كانت بمفردها بمعنى أنه كان يرفقها أحد البحارة ، وهذا يعنى أنها كانت وحيدة . وكانت قبيلة أيضا وحيدة بما يضيف لمسة اضافية من الملل والاحساس بالغربة .



منظر قبيلة من الجنوب .

وكان الجو في ذلك اليوم حارا ، والنسيم هادئا على صفحة النهر ، وقد انتهيت من رسم آخر لوحاتي ، واخذت أتجول ببطء من بقعة الى أخرى وأنا أودع مسكن الفراشة ، والأعمدة الملونة ، وكل ممر ، ونخلة ، ومقصورة ، ووجهة نظر معتادة . واختلست النظر مرة أخرى الى حجرة أوزوريس السرية . ورأيت الشمس وهي تشرق للمرة الأخيرة من سقف معبد ايزيس ، ثم عندما خبت ومضات كل تلك العجائب بألوانها الوردية والذهبية ، ظهر الغسق الدافئ ، ولا تستطيع أية كلمات أن تصور الجمال الحزين الذي تميزت به قبيلة في هذه الساعة . كانت الجبال المحيطة تقف شامخة مسننة وذات لون أرجواني ، في مواجهة سماء عنبرية شاحبة . وكان سطح النيل مضقولا . ولم يكن هناك نفس أو فقاعة تثير المنظر الطبيعي الهادئ . وكانت كل نخلة ثنائية ، وكل حجر مزدوجا . وانعكست الصخور الضخمة التي في وسط المجرى تماما بحيث أصبح من المستحيل اكتشاف أين تنتهي الصخرة بحيث تبدأ المياه . وفي نفس الوقت كانت مباني المعبد قد تحولت الى اللون البرونزي الذهبي الباهت .

وقد غصت البوابات بأشكال تلمع بالحياة الفنية ، وبدأت مستعدة للخروج من أماكنها .

وكانت الوحدة شاملة مع وجود هدوء ساحر في الهواء . وكنت أسمع إحدى الأمهات تغنى لطفلها بصوت خفيض فوق سطح الجزيرة المجاورة ، وعصفورا دوريا يغرد في عشه الصغير في قمة عمود تحت قدمي ، ونسرا يصرخ بصوت نائح بين الصخور على مسافة بعيدة .

كنت أنظر ، وأسمع ، وأعد نفسي بأنني سأتذكر كل ذلك خلال السنوات القادمة . كل التلال الهادئة ، وهذه الصفوف من الأعمدة الصامتة ، وهذه المساحات العميقة الساكنة من الظلال ، وهذه النجلات الناعسة . وكنت أتلكأ حتى يحوطها كلها الظلام . وأخيرا ودعتها جميعها خوفا من ألا أراها مرة ثانية .



الفصل العشرون

السلسلة وادقو

أثناء ذهابنا استغرق فضالنا في السفر من أسوان الى المحطة مدة أربعة أيام ، ولكننا في العودة انزلقنا بسرعة . وشكرا لصديقنا القديم شيخ الشلال ، فقد وصل في فترة قصيرة لاتتجاوز نصف الساعة - بوجهه العريض ، وعينيه اللتين تشبهان عيني السمكة ، ويدائنه المهودة ، وقد ربط رأسه بنفس المنديل الأصفر القديم ، ونفس النارجيلة في فمه . وقد أحضر معه جماعة مكونة من خمسين صنديدا من رجال الشلال وحمل تحت ذراعه علما رثا أحمر اللون . ورفع هذا العلم الذي طرز عليه هلال ونجمة بوقار فوق مقدمة السفينة .

وبعد أن أودع الشيخ الذهبية في رعاية النبي ، أغلقت النوافذ والطبوشي (الصالون الذي تضيئه كوة بالسقف) ، وأقفلت الأبواب ، وأزيحت الأشياء القابلة للكسر الى مكان آمن . وأصبح كل شيء محكما ، كما لو كنا نستعد لاستقبال عاصفة بحرية . وأقلعنا من المحطة في الساعة السابعة من صباح يوم جميل في منتصف شهر مارس ، وسارت فيلة على الجانب اليبسى بدلا من العودة من خلال القنوات القديمة ، متجهة مباشرة نحو الباب الكبير وهو الجندل الهائل الذي لم نره من قبل . وقد قضينا الليلة الماضية كلها ونحن نستمع الى صوته من على البعد ، أما الآن فان ذلك الصوت الهادر يقترب مع كل ضربة مجداف .

واليوم أصبح شيخ الشلال هو ريان الذهبية ، ورجاله هم بحارتنا . واقتصر واجب الرئيس حسن ورجاله على الجلوس والتطلع في سكون . وفي نفس الوقت أخذ رجال الشلال يجدفون بسرعة وانتظام . وهكذا ظهر لنا النهر وهو يجري أسرع من المعتاد ، وسرعان ما أحسسنا بقوة اندفاع التيار تحت هيكل الذهبية . وفجأة شاهدنا شرارة ورغوة فوق السطح هناك . لقد كانت الصخور أمامنا على اليمين واليسار ، بينما

ظهرت الدوامات فى كل مكان • وأمال الشيخ غليونيه ، وخلع حذاءه ،
وذهب بنفسه الى مقدمة السفينة • وكان نائبه متمركزا فى قمة السلم
الذى يتجه الى السطح العلوى • وتكفل ستة رجال بذراع الدفة ، وتمت
تقوية القائمين بالتجديف فجلس اثنان الى كل مجداف •

وفى وسط هذه الاستعدادات ، وبينما ظهرت الجديفة على وجوه
الجميع ، حتى ان الأعراب التزموا أيضا بالهدوء ، وجدنا أنفسنا حالا فى
مدخل مضيق طويل وضيق ، وهو نوع من الوهاد العميقة التى تقع بين
حائطين من الصخور ، وتندفع من خلاله كتلة من المياه المزججة فى انحناءة
حادة • وقد ظهر لنا كما لو كان النيل كله يندفع فى موجات وحشية
أسفل هذا الممر المربع •

ويبدو للوهلة الأولى أنه من المستحيل للذهبية أن تخاطر بعبور هذا
الطريق دون أن تتحول الى أشلاء متناثرة ، ولم نشاهد مساحة كافية
لمرور المركب والمجاديف • وعلى كل حال فقد أعطى الشيخ كلمته ، ورددها
نائبه ، فاطاعها الرجال الذين عند الدفة ، فوضعوا الذهبية فى وضع
مستقيم عند ذلك التيار المائى المتوحش • وتهيأ لنا ونحن مقطوعو الأنفاس
لمدة ثانية واحدة ، أننا نرتعش على حافة السقوط • ثم اندفعت فيلة
الى الأمام !

ورأينا الذهبية تنزلق بكاملها تحت أقدامنا ، وكنا نحس بالارتفاع
والإنخفاض والاندفاع المترنج الى الأمام ، وسرعان ما أخذت الأمواج تزبد
وتغلى مرتفعة من كافة الجوانب ، ثم تفيض على السطح السفلى وتغطي
السطح العلوى بالزئاذ ، ورفع المجذفون مجاديفهم تاركين كل شئ للدفة
والتيار • وبالرغم من الضوضاء الصاخبة كنا نسمع بوضوح هذه
المجاديف وهى تحتك بالصخور على كلا الجانبين •

والآن ، فان الشيخ الذى يبدو ملك الموقف فى هذه اللحظات ،
يقف بدون حراك راقعا ذراعه لأنه توجد عند نهاية الممر انحناءة
حادة الى اليمين • تشبه فى حداثها ركن شارع فى أحد شوارع لندن
العمومية الضيقة • فهل تستطيع فيلة التى يبلغ طولها ١٠٠ قدم من
مقدمتها الى مؤخرتها أن تدور مع هذه الزاوية فى سلام ؟ وفجأة لوح
الذراع المرفوع وصاح الشيخ « دفة ا » ، وأسرع الرجال بتوجيه الدفة ،
واستجابت المركب لكلمة الأمر التى صدرت ، وبدأت الدوران قبل أن

نتجاوز الصخور ، ثم اندفعت حول الركن فى اللحظة المناسبة تسامعا ،
وخرجت سالمة فيما عدا كسر مجداف واحد !

وكانت الفرحة عظيمة • وأسرع الرئيس حسن لمصافحة الجميع وقد غمرت السعادة قلبه ، وانفجر الأعصاب فى ترداد كلمتى « طيبون » ، و « حمدا لله على السلامة » • وابتسم تلحمى وقد أحاط به نصف دسته من رجال الشلال وهم يمازحونه ، وينزعون كوفيته عن رأسه ويأخذونها كجائزة • أما الرجل الوحيد الذى لم يتحرك فهو شيخ الشلال ، فقد زالت ومضة القوة اللحظية التى أضاعت وجهه ، وعادت اليه الملامح المتبلدة فى تناقل ، وارتدى حذاءه ، ومدد رجله ، وأشعل غليونه ، وصار مثل البومة كعادته الدائمة • وقد تخيلنا حتى هذه اللحظة أن أعراب الشلال كانوا يضحون مخاطر عبور الباب الكبير لزيادة أجرهم ، وكذلك كان السياح يضحونها أيضا للتفاخر بأنهم اجتازوها • ولكن هذه ليست هى القضية ، لأن عبور الباب الكبير يمثل فى حقيقته مهمة صعبة لدرجة أننى أشك فى ان يقبل أى ربان انجليزى المخاطرة بقيادة مثل هذه المركب خلال هذا الممر السريع الجريان ووسط مثل هذه الصخور مثلما فعل أعراب الشلال فى ذلك اليوم •

وليست جميع الذهبيات سعيدة الطالع، ذلك أنه من بين أربع وثلاثين ذهبية عبرت الشلال فى هذا الموسم أصيب عدد قليل بأضرار طفيفة • بينما تعطلت ذهبية واحدة ، مما اضطرها للبقاء فى أسوان لمدة أسبوعين حتى يتم اصلاحها ، ولكننى لم أسمع عن حدوث خطر حقيقى يؤدى الى غرق حقيقى للسفن ، أو حدوث أضرار للأفراد أو اصنابات لبعض الأطراف • ان رجال الشلال يتميزون بهدوء الأعصاب والمهارة ، ويتمتعون بخبرة واسعة • وقد فضل رسامنا أن يجمع لوحاته ويحملها مطوية الى أرض جافة على طريق الصحراء ، ولكن ذلك كان احتياطا لم يحلم أى منا باتخاذها فيما يتعلق بسلامتنا الشخصية • ولم يكن هناك ما نخشاه لأن السائح الذى يعبر الشلال فى طريق العودة يستمتع بمنظر عجيب ومغامرة شديدة الاثارة •

وعند أسوان ودعنا النوبة والأثيوبين الطيبين ، ووجدنا أنفسنا نعبّر نيل مصر مرة أخرى • ولو لم نعبّر هذه الأميال الخمسة من الشلال وعبرنا بدلا منها خمسمائة ميل من البحر أو الصحراء ، فانا لم نكن نلاحظ تغييرا كاملا • لقد تركنا خلفنا نهرا حالمًا ، وشاطئًا هادئا ، وصحراء

دائمة . وعند عودتنا دخلنا حالا في وسط منطقة خصبة ومكتظة بالسكان .
والآن فاننا نرى القوارب على صفحة النهر طوال اليوم ، والقري على
الضفتين ، والطيور وهي تطير ، والفلاحين يعملون في الأرض ، بينما يعبر
الرجال والنساء والخيول والجمال والحمير طوال الوقت ، مسار سحب
المركب ، جيئة وذهابا دون توقف . وهناك دائما شيء يتحرك ، أو شيء
يدور العمل فيه . ويجري النيل منخفضا ، وترتفع أواني الشادوف
ذى الأعماق الثلاثة متأرجحة من الصباح الى المساء . ومرة ثانية يرتفع
الدخان من تجمعات الأكواخ غير الظاهرة عند نهاية اليوم . ومرة أخرى
نسمع الكلاب وهي تنبح من كفر الى كفر خلال ساعات الليل الساكنة .
ومرة أخرى قرب غروب الشمس نرى صفوفًا من البنات القادمات الى ضفة
النهر وعلى رؤوسهن الجرار لكي يملأنها بالماء . وتلك البنات الأعرايبات
عندما يقفن وهن يرتدين ثيابهن التي تتدلى أطرافها الى الأرض ، بينما
يضعن أقدامهن في الماء ويغمسن فوهات القلل بطول أذرعهن في التيار
المتدفق ، مما يفرى الانسان بأن يستخدم قلمه الرصاص لرسمهن في
صور تخطيطية .

ويوجد في كوم أمبو معبد عظيم كان يوما ما يماثل معبد دندرة في
ضخامته وربما كان أكبر منه . ونظرا لأنه مبني على نفس المساحة الكبيرة
فقد كان معبدا مزدوجا مخصصا لائنين من الآلهة هما الاله حورس
والاله سوبك (١) أى الصقر والتمساح . ولم يتبق منه الآن سوى أعمدة
ضخمة مدفونة الى مسافة ثمانية أو عشرة أقدام من ارتفاعها الضخم ،
وقطعة ممتازة من الاطار الذى يحيط بالأبواب ، وقطعة مكسورة من افريز
منحوت ، وبعض الكتل الساقطة المحفور عليها أسماء ملوك وملكات
البطالة .

وقد قيل انه كان يوجد هنا مدخل مزدوج ضخم ، وبهو للأعمدة ،
وهيكل مزدوج . وكانت كلها كاملة ولكن لم يعد الوصول اليها سهلا .
وما زالت الكتل التي تغطي سقف القاعات الثلاث التي تقع الواحدة منها
خلف الأخرى ، والقليل من الأساطين ، ظاهرة خلف البهو ذى الأساطين .
ولكن أحدا لا يعرف ماذا يمكن أن يكون مدفونا تحت السطح ، لأننا نعرف
فقط أنه كانت توجد هنا مدينة قديمة وكفر وسيط ، قد ابتلعتهما الرمال
ببطء ، وأن معبدا قديما كان معاصرا لمعبد عمدا وقائما داخل السياج .

(١) « سوبك اله شمسي ، يسمى في بردية بولاق ابن ايزيس ، وهو الذى حارب
اعداء اوزيريس » وهذا تطابق تام مع حورس ، وبهذه الصفة عبد في أمبوس »
Dic. Arch. P. PIERRET, Paris, 1875.

وكانت الرمال هنا مكومة على مدى ٢٠٠٠ سنة ، ويبلغ عمقها أربعين قدما ، ولم يجر حفرها مطلقا . ولن يتم حفرها الآن ، لأن نهر النيل يزحف على الضفة تدريجيا ويحمل معه على دفعات كل ما كان مدفونا تحت رمال الصحراء . وقد تتأثر نصف البوابة العظيمة ، وشلال من الكتل المنعوتة فوق المنحدر الشديد الميل من القمة حتى القاع . أما النصف الآخر فهو معلق على حافة الجرف ، ولن يظل معلقا لمدة طويلة فسرعان ما يأتي اليوم الذى سيتقوض فيه ويتحول الى أنقاض مثل النصف الآخر .

وقد فقدنا الرسام ما بين كوم أمبو والسلسلة ليس لأنه ضل أو سرق ، ولكن لأنه حقق الهدف الرئيسى من رحلته فكان سعيدا لاقتناص أول فرصة للعودة السريعة الى القاهرة . وقد جاءت هذه الفرصة عن طريق دوق نبيل كان يقضى شهر العسل على ظهر سفينة بخارية فى منتصف المسافة ما بين كوم أمبو والسلسلة ، لقد كان الرسام والدوق قد تعارفا أحدهما الى الآخر منذ وقت طويل ، وسرعان ما تم ترتيب الأمر ، ففي أقل من ربع الساعة تم نقل الصورة الكبيرة وكل أمتعة الاستوديو من القمرة التى فى مؤخرة الذهبية فيلة الى القمرة التى فى مؤخرة السفينة البخارية . وسرعان ما اختفى رسامنا الذى وقع على مطعم دون سابق اعتداد ، وطباخ ، ونادل ، ونصيب عادل من ضروريات الحياة ، والسعادة ترفرف عليه وذلك بعد هذه المسافة بمعدل ٢٠ ميلا فى الساعة . وإذا كان الزوجان السعيدان اللذان تعبنا من الرياح التى تهب من الأمام ، قد رضتيا بمشاهدة المعابد ، الا أنهما تابعا تلك السفينة البخارية بعيون يملؤها الشوق الحزين ، فان الكاتبة لم تطلب شيئا أفضل من الاستمرار مع الذهبية فيلة .

وواصلنا طريقنا مع النيل الطويل ، والحياة القصيرة ، بينما كان من المؤكد أن القصة التى أوردتها كتاب الدليل الذى معنا غير مشجعة . وعندما وصلنا الى السلسلة صباح يوم ١٧ مارس ، كانت الرياح الشمالية تهب ولم تنقطع منذ أول فبراير سوى يوم واحد .

وعند السلسلة أخذنا نبحت دون جدوى عن آثار ذلك الحاجز العظيم الذى كان يسد مجرى النيل فى هذه المنطقة يوما ما ، والمجرى هنا ضيق ، وتقرب الصخور الحجر الرمل على كلا الجانبين من حافة الماء . وكان هناك فى بعض الأماكن فراغ للسير ، بينما لم يوجد ذلك الفراغ فى أماكن أخرى . وكانت هناك بعض الصخور الغارقة فى مجرى النهر . وقد لاحظنا فوق صخرة منها عن طريق الصدفة ، سفينة بخارية تابعة لشركة كوك وكانت قد توقفت عندها منذ يومين . ولكن اذا كانت مثل هذه

مبنى كورنيلوس في القدس



الكتلة قد سدت مجرى النهر وتسببت فى هجر النهر لمجرأه عند فيلة فإنها تكون أيضا قد غيرت كافة الأحوال الطبيعية والمناخية فى النوبة السفلى . وعلى كل حال فانه لا توجد أية علامات تدل على ذلك .

ويرشدك الأعراب هنا الى صخرة تتخذ شكل شمسية ضخمة يقولون ان بعض الملوك ربط فيها سلسلة لكى يحجز نهر النيل ، ويبدو أن هذه الأسطورة المشكوك فى صحتها هى التى تبعث فى الذاكرة فكرة الحاجز القديم

وقد اكتشفنا أن صخور الضفة الغربية غنية بالحنياث التذكارية . والمزارات التى أقيمت كمنذور ، والجبانات ، واللوحات التاريخية ، والنقوش . وهذه الأخيرة يتراوح تاريخها ما بين الأسرة السادسة والأسرة الثانية عشرة . وبعض الجبانات والفجوات التى فى جدران التجرات شديدة الغرابة ، فهى مصفوفة الى جانب بعضها البعض فى صف طويل قريب من أعلى النهر ، وتكشف عن لمحات خاطفة لبعض الأشكال الجليلة ، والزخرفة الصارخة بحيث تبدو كما لو كانت صناديق خاصة مع شياغلها . وقد وجدنا فى معظمها مجموعات مشوهة من الآلهة (١) المنحوتة والملونة ، وقد وجدنا فى مزار أكبر من المزارات الأخرى ثلاث فجوات ، تحتوى كل منها على ثلاثة آلهة .

والى الشمال على البعد ، تقع المقبرة العظيمة للملك حور محب آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة . والمقاصير التذكارية لأسرة الرعامسة فى الناحية الجنوبية البعيدة من هذه السلسلة . والمقصورة الأولى عبارة عن قاعة مستطيلة على شكل بهو مسقوف محمول على أربعة أساطين ومجفوف فى خط مواز للنهر . أما الحوائط فى الداخل والخارج فهى مغطاة بنقوش جميلة التنفيذ محفورة بطريقة غائرة . ومازال بعضها محتفظا بآثار الألوان . أما موكب نصر حور محب وهو عائد بعد الانتصار فى أرض كوش ، والموضوع المشهور الذى على الحائط الجنوبي الذى وصفه

« Le point de départ de la mythologie égyptienne est une triade » CHAMPOLLION, *Lettres d'Égypte*, etc. XI Lettre. Paris, 1868.

وهذه الثلاثيات واضحة أكثر فى معبدى جرف حسين وكلايشة .

مارييت (١) بأنه واحد من الأشياء الجميلة في الفن المصري ، فهما محفوظان بطريقة تجل عن الوصف ، أما مزارات أسرة الرعامسة المقامة كنذور فهي مجمعة مع بعضها في ركن صالح للرسم ، ذي لون أخضر بسبب الشجيرات التي على حافة الماء . وهناك ثلاث فجوات جدارية مرتفعة تخص سبتي الأول ورسيس الثاني ومرنبتاح ، كل منها على شكل الجزء الأمامي من خشبة المسرح مع أفاريز ملونة ، وأعمدة جانبية ، ومجموعات من الملوك والآلهة مازالت ألوانها لامعة . وفي غالبية النحت الموجود في السلسلة ترى شكلين لالهين ينسدر رؤيتهما في أي مكان آخر وهما سوبك الإله التمساح وحاي - مو اله النيل المتوج بزهرة اللوتس . وكان هذا الإله الأخير هو الإله الحارس للمنطقة . وكانت تجرى عبادته في السلسلة حسب طقوس خاصة . وقد وجدت أناشيده تمتدحه محفورة هنا وهناك على الصخور (٢) وأكثر الجميع غرابة الهة تسمى تا - أور - تي (*) (٣) وهي المرسومة ضمن أحد الموضوعات الجانبية في مقصورة رسميس الثاني . وهذه الشخصية الغريبة لها جسم فرس النهر ، ووجه سيدة ترتدي باروكة مربوطة ، وثوبا رسميا له خمس شملات ، ويشبه الساتر الذي يفصل بين رئيس مجلس اللوردات وسائق المركبة .

(١) « L'un (paroi du sud) représente une déesse nourrissant de son lait divin le roi Horus, encore enfant. L'Egypte n'a jamais, comme la Grèce, atteint l'idéal du beau ... mais en tant qu'art Egyptien, le bas-relief du Spéos de Gebel-Silsileh est une des plus belles oeuvres que l'on puisse voir. Nulle part, en effet, la ligne n'est plus pure, et il règne dans ce tableau une certaine douceur tranquille qui charme et étonne à la fois. » — *Itinéraire de la Haute Egypte*. A. Mariette : 1872, p. 246.

(٢) انظر بردية سالييه رقم ٢ وعنوانها : ترنيمة للنيل
ترجمها ماسبيرو - باريس ، ١٨٦٨ .

(٣) « Cette Déesse à corps d'hippopotame debut et à mamelles pendantes, paraît être une sorte de déesse nourrice. Elle semble, dans le bas temps je ne dirai pas se substituer à Maut, mais compléter le rôle de cette déesse. Elle est nommée la grande nourrice et presidait aux chambres où étaient représentées les naissances des jeunes divinités. » — *Dict. Arch.* P. PIERRET, Paris 1875.

تمثل هذه الآلهة في السماء مجموعة نجوم الدب الأكبر - انظر كتاب :
Guide to the first and second Egyptian rooms - S. Birch, London.
1874.

(*) الآلهة « تاورت » هي التي ترعى الحوامل وتشرف على عملية الولادة وتعتنى بالطفولة - (المراجع) .



• ناتورت (السلسلة) •



• ناتورت (فيلة) •

ويقف خلفها الاله تحوت والالهة نوت • ويتسلمون هم الثلاثة البيعة من الملكة نفرتارى التى تتقدم نحوهم ومعها مقدمة مكونة من اثنين من الصلاصل • وهى بوصفها فرس النهر ، متوجة بقرص الشمس وریش الطيور • وقد تقابلنا مع هذه الالهة من قبل • وهى ليست غريبة بوصفها بعيونة أو حجابا • وقد قامت الكاتبة برسمها فى جزيرة فيلة ، حيث تحنل مكانا بارزا فى واجهة المعبد ، ولكننى أظن أن رشاقة ردائها الشاذ الشكل فى السلسلة ، تثير الاحساس بالفراية •

ونتركز أهمية الضفة الغربية فى منحوتاتها ونقوشها • أما أهمية الضفة الشرقية فتتركز فى محاجرها • وقد جددنا حتى نقطة تقابل تقريبا مقاصير أسرة رمسيس ، وتسلقنا منحدرًا حادًا من الأطلال عند قوفا شق ضيق بين حوائط من الصخر الصلب ، يتراوح ارتفاعها ما بين أربعين الى خمسين قدما • وهذه الحوائط ناعمة ومصقولة ومتعامدة بدون انحراف ، ولون الحجر الرملى عنبرى غامق • ويبلغ عرض المر عشرة أقدام وربما بلغ طوله أربعمائة قدم ، ويظهر بعد منتصف النهار من جانبيين ، أحدهما فى الظل والآخر فى ضوء الشمس مع شريط ضيق من السماء الزرقاء يلمع من أعلى ، وليس له شبيه فى العالم فيما عدا المدخل الى بترا •

وبعد أن تبعنا هذا المدخل ، وصلنا حالا الى منطقة فسيحة يصل اتساعها الى مثل اتساع ميدان بلجريف ، تنفتح خلفه منطقة أخرى أصغر منه ومنفصلة عنه بحاجز زقيق من الصخر . وعلى حوايط هذه المدرجات الضخمة كانت علامات الازميل وثقوب الأوتاد سليمة كما لو كانت آخر الكتل قد نزلت أمس فقط ، مع أنه قد مضى ما يقرب من ألفى عام منذ تعرض المكان لآخر ضربات المطرقة ، وتردد صدى آخر أصوات العمال . ولم تصمت هذه الأصدا منذ أيام فراعنة طيبة حتى أيام البطالة والقيصرة . لقد أخذت من هنا ومن المحاجر التي على الجانب المقابل من النهر جميع أحجار معابد الكرنك والأقصر والقرنة ومدينة هابو واسنا وادفو وأرمنت .

وعند عودتنا تسلقنا تلالا طويلة من الشظايا التي تطل على وديان من الاطلال ، ووصلنا أخيرا الى جانب النهر عن طريق سهل قديم مائل السطح ، كانت الكتل تنزلق بطوله الى أسفل نحو مكان تحميل القوارب . ولكن أغرب الأشياء بالنسبة للسلسلة هو الأسلوب الذي حفرت به المحاجر . لقد تم تقطيع الحجر الجيرى فى جميع هذه الثقوب والممرات والمدرجات الى قطع ناعمة ومستقيمة مثل التبن المكوم فى الكومة ، فتجد فى كل مكان أن الكتل مربعة الشكل ، وأن أفضل الأحجار قد نقل بينما ترك الأسوأ . وحيثما كانت الأحجار دقيقة المكونات واللون ، فقد قطعت بأفضل الوسائل الاقتصادية . وقد تركت قائمة فى المكان الذى لونت فيه باللون الأبيض أو البنى ، وخططت أفقيا بالعروق البنفسجية . ورأينا هنا وهناك الأماكن التى نقلت منها الأجزاء السفلية ، وتركنا فيها الأجزاء العلوية بارزة مثل الأدوار المعلقة من منازلنا المقامة من الألواح الخشبية والتى تعود الى العصور الوسطى . وإذا قورنت المباني المرتجلة التى نقيمها بهذه المحاجر القوية الكاملة ، فإنها ستظهر مثل المباني البدائية .

وبعد أن صارعنا الرياح بشدة ، تركنا السلسلة بعد ظهر نفس اليوم . وقد أصبح أكثر من نصف حطام السفينة البخارية تحت الماء . لقد انكسر ظهرها وأخذت فى الغوص بسرعة ، وغادرها جميع أتباع كوك الذين استطاعوا التحديف الى الشاطئ ومعهم كل ما استطاعوا أن يجمعوه من الضروريات . لقد أجبر هؤلاء المتكودون على الإقامة فى خيام أعارها لهم مدين المنطقة . وللحسن حظهم وصلت فى صباح اليوم التالى ذهبيتان فى طريق عودتهما ، وحملتا الكثيرين منهم حسب قدرتهما على المساعدة فى الاعاشة . وتكفلت مركب الدوق البخارى باستقبال الباقين .

وكانت الخيام قائمة هناك ، كما انشغلت جماعة من الوطنيين تحت اشراف
المدين بنقل كل ما يمكن انقاذه من الحطام .

ومع اقتراب الليل تحولت الرياح القادمة من أمامنا الى اعصار ،
واستمر هذا الاعصار لمدة يوم وليلة أى ست وثلاثين ساعة (*) ، وكان
النيل خلال هذه الفترة كلها يسوق التيار مثل الموجات العاتية التى تندفع
الى ساحل الكورنيش عندما يهب المد والرياح من الغرب فى وقت واحد ،
وكنا نسمع صخبها فى ظلام الليل فنشعر بأن فيلة تهتز ، وترتفع ،
وتتوتر الجبال التى تربطها ، وترطم بالضفة باستمرار فى شكل أبعد
ما يكون عن البهجة . أما أثناء النهار فقد كان المنظر غير عادى ، فلم تكن
هناك سحب ولكن الجو ملبد بالرمال التى كانت أضواء الشمس الخافتة
تلمع من خلالها . وأخذت بعض أشجار النخيل ذات اللون الرمادى والتى
تشبه الأشباح بأعلى الضفة تتمايل كما لو كانت على وشك أن تنكسر
قبل انفجار العاصفة . وكان النيل مثل العجين المختمر ، مشبعاً بالرغوى
انبنية اللون التى تخبط نوافذ قمرتنا بين الحين والآخر . ولم نكن نرى
الضفة الأخرى من أى مكان . ولم نستطع أن نرى شيئاً من على سطح
السفينة . وأستطيع أن أقسم بأن الذهبية قد رست على ساحل مهجور .

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى توقفت الرياح ،
وأسرع الرجال الى مجاديفهم ، ووصلوا بنا الى ادفو عند وقت تناول
الافطار . وأصبح الجو الآن مشرقاً ، فكان صباحاً بارداً وفضياً ومشبعاً
بالضباب وهو صباح لم نصادف مثله فى بلاد النوبة ، حيث أسرع
الشمس باطلاق حرارتها ، ليقع الانسان تحت وطأتها سريعاً . وكانت
الحمير هناك على الضفة فى انتظارنا . وبلغ طول الطريق حوالى ميل
خلال حقول الشعير ومزارع القطن . وظهر لنا البلد غنياً ، والناس
يبتسمون . والتقينا بمجموعة منهم حضروا الى الذهبية ومعهم الخراف
والحمائم والدجاج وعجل صغير للبيع . وبعد أن عبرنا المياه التى خلفنا
على قنطرة مقامة من جذوع النخيل ، وصلنا الآن الى القرية الجاثمة فوق
تلال المدينة القديمة . وفى نفس الوقت أخذت صروح المعبد تزداد ضخامة
فى كل لحظة ، وترتفع فى الضوء خلال السماء الزرقاء الناعمة .

(*) كان المفروض ان تسمى الاشياء بأسمائها فهذا الذى تحدثت عنه الكاتبة
عاصفة رملية وليس اعصاراً ، فمصر ليست من البلاد التى تتعرض للاعاصير المدمرة التى
تحتاج كثيراً من البلدان فى أوروبا والأمريكيتين وتدمير كل شيء فى طريقها - (المترجم) .

وبعد أن مضينا خلال الحواري التي تنتشر على جانبيها الأكواخ ،
وصلنا الى فضاء واسع ومجموعة من درجات السلم غير المصقولة
التي تقع أمام المعبد . وفي نهاية هذه الدرجات أصبحنا نقف على مستوى
أرض القرية الحديثة . وعند قاعها شاهدنا الأرضية المبلطة التي تكشف
عن مستوى سطح المدينة القديمة ، وفوق هذا المستوى تبرز البوابة التي
ظهر جزء منها ضخما من على البعد . لقد وجدنا الآن أن هذه الأبراج
الهائلة لا ترتفع الى حوالى ٧٥ قدما فقط ، ولكنها تغوص أيضا لمسافة
لا تقل عن ٤٠ قدما تحت أقدامنا .

ومنذ عشر سنوات مضت لم يكن هناك شيء ظاهر من المعبد العظيم
سوى قمم هذه الأبراج . وكان البناء بعيدا عن الرؤية كما لو كانت الأرض
قد انشقت وابتلعت ، وقد غصت أفنيته بأطلال كريمة ، وامتلات
الحجرات بالمنحوتات المدفونة تحت أربعين قدما من الطين . أما السقف
فقد كان متاهة من الأكواخ المتلاصقة المكسدة بالكائنات البشرية .
والدجاج والكلاب والأبقار والحمير والهوام الطفيلية . وبناء على الجهود
التي لا تكل والتي قام بها مارييت ، تم تنظيف هذه الاسطبلات التي
تشبه اسطبلات أوجياس (*) منذ حوالى ثلاثين عاما مضت ، وقد كتب هو
نفسه عن هذه المهمة قائلا : « لقد هدمت المنازل الأربعة والستين التي
زحمت السقف ، وكذلك ثمانية وعشرين منزلا آخر كانت قريبة من
الحائط الخارجى للمعبد . وعندما يتم اقامة حائط لعزل المعبد كله عن
العشوائيات الحالية التي تحيط به ، سيبدأ العمل فى إعادة معبد ادفو
الى حالته الأولى » (١) .

ولم يتم بعد بناء هذا الحائط ، ولكن تمت ازالة وتنظيف تل
العشوائيات الذى كان يحيط بالمبنى الذى يقف الآن حرا فى وسط فناء
عميق مفتوح ، وبعض جوانبه متعامدة فى بعض الأماكن مثل صخور
محاجر السلسلة . وفى وسط هذه الحفرة يقف المبنى الضخم أمامنا
فى ضوء الشمس عموديا وكاملا مثل اله خارج من المقبرة ، وتأثيره شديد
عند النظر اليه لأول مرة .

(*) أوجياس Augeas هو ملك ليس فى الأساطير اليونانية ، وقد قام هرقل
بتنظيف اسطبلاته القدرة - (المترجم) .

(١) خطاب مسيو مارييت الى الفايكونت روجيه عن مجلة E. De Rougé
Révue Archéologique المجلد الثانى ، ص ٣٣ سنة ١٨٦٠ .

ونرى من خلال المدخل الضخم الذى يصل ارتفاعه الى خمسين قدما . ومضات فناء ضخم ومشهد مكون من مداخل أحدها خلف الآخر . وعندما مضينا الى أسفل رأينا فى كل خطوة مساحات أكبر من هذه القاعات المظلمة والبعيدة ، وفى نفس الوقت كانت البوابات المغطاة بالنقوش الضخمة ترتفع أكثر فأكثر ، وتبدو وكأنها تراحم السماء . وينظر الحارس الذى يبلغ طوله ستة أقدام وبوصتين ، نحونا مكشرا عن أسنانه ، منتظرا البقشيش . وبالطبع كان لابد من وجود حارس هنا ، كما تؤدى نفس الغرض أيضا بوابة قوية لا يستطيع أن يمر منها الزوار أو الأعراب . المتطفلون دون أن يراهم أحد .

ومن يدخل هذه البوابة يعبر عتبة الماضى ، ويترك ألفى عام خلفه . ولكن لم يتغير شيء فى هذه القاعات الضخمة ، فكل أرضية مبلطة ، وكل أسطون ، وكل مدرج سلالم ، مازال كما هو فى مكانه . أما السقف الذى لم يفقد منه الا القليل من الأحجار التى فوق الهيكل فليس سليما فقط ، بل أيضا تم اصلاحه بشكل جيد . وما زالت النقوش الهيروغليفية بنفس الوضوح وفى الوضع الذى كانت عليه يوم حفرها . وإذا كان قد أضر أسطون أو وجه اله برأس بشرى هنا أو هناك ، فليست هذه الا عيوب نادرا ما يلحظها الانسان ، ولا تفسد التأثير العظيم للمبنى بوجه عام . وقد عبرنا هذا الفناء العظيم فى ضوء الصباح الكامل . ويوجد فى صفوف الأساطين التى على الجانبين ظل ، ولكن بهو الأساطين الذى خلفه ، مظلم كما لو كان فى الليل ، بصرف النظر عن بقعة من الشمس ذات اللون الأزرق الغامق تخترق فتحة مربعة فى السقف . وتمائلها بقعة مساوية لها من الضوء الساقط على الأرضية السفلية . ونمر بعد ذلك عبر قاعة من الأساطين وممرين مستعرضين ، وهيكل جانبى ، وسلسلة من الحجرات الجانبية المظلمة وهيكل كبير .

وهناك خارج هذه المباني كلها ويحيط بالمعبد من ثلاث جهات ، ممر خارجى مفتوح نحو السماء ، ويحمله حائط عظيم يبلغ ارتفاعه أربعين قدما كاملة . وإذا قلت ان المدخل الأمامى مع البرجين والمدخل المتوسط يبلغ عرضها معا ٢٥٠ قدما وارتفاعها ١٢٥ قدما ، فان الفناء الأول يزيد طوله عن ١٦٠ قدما ويبلغ عرضه ١٤٠ قدما ، وأن المبنى بكامله يبلغ طوله ٤٥٠ قدما ، وهو يغطى منطقة تبلغ مساحتها ٨٠.٠٠٠ قدم مربع .

لقد ذكرت الحقائق التى لا تتجاوز تقديم فكرة عن ضخامة المبنى . للقارىء العادى . أما تناسق النسب ، والحجم المذهل وقوة الأجزاء ،

وكمال التنفيذ ، ونقاء المادة التي أخذت منها الأحجار ، ولونها العنبري ،
فأنتى أعجز عن وصفها .

ويمكن أن نسمى معبدى ادفو وندرة بأنهما توعمان ؛ لأنهما ينتميان
إلى نفس الفترة الزمنية . لقد تم بناؤهما تقريبا حسب نفس التخطيط (١)
وهما أيضا متعلقان بإحساس دينى واحد ، لأن أسطورتى حورس (٢)
وحتحور (٣) متداخلتان ، والواحدة منهما تكمل الأخرى ، ولذلك فإننا
نجد فى نقوش معبد ادفو تنويها مستمرا عن تراث دندرة والعكس
صحيح . وكلا معبدى ادفو وندرة غنى بالنقوش ، ولكن المساحة الحائطية
المخصصة لها فى معبد ادفو أكبر حجما ، وكذلك الثروة الأدبية لهذا
المعبد أعظم من تلك التى فى معبد دندرة . وقد ظهر لى أيضا أن المساحات
الجدارية بمعبد ادفو أكثر ازدهاما بالنقوش عن مثيلتها بمعبد دندرة ذلك
أن كل حائط ، وكل سقف ، وكل أسطون ، وكل إطار يحيط بالأبواب ،
وكل ممر وحجرة جانبية مهما كانت مظلمة ، وكل مدرج سلالم ، وكل
مدخل ، والحائط الخارجى للمعبد ، والجانب الداخلى لحائط الدائرة
الضخم ، والبوابات الضخمة من قمتها حتى قاعدتها ، هذه جميعها ليست
فقط مغطاة بالنقوش والكتابات الهيروغليفية ، بل أيضا مزدحمة بها .
ولا نجد من بينها أية موضوعات ضخمة عن المعارك ، كما هو الحال فى
(أبو سنبل) ، ولا سردا للأحداث البطولية مثل قصيدة بنتاؤور . لقد
استبعدت هذه النوعية من النقوش مع الملوك الفرعانية ، وحلت محلها
لوحات الطقوس الدينية وحوارات الآلهة والملوك . وهذه هى الموضوعات
المحفوظة على العماير البطلمية ، وهى متصلة ببعضها فى دندرة واسنا
وكذلك فى ادفو . ولكن يوجد فى ادفو نقوش تدور حول سمات مختلفة
أكثر من أى معبد آخر فى مصر . وهذه المعلومات الدنيوية ليست ذات

(١) معبد ادفو هو الأصل ، ومعبد دندرة نسخة منه . ولا حاد معبد دندرة عن
النموذج الأصلى أصبح التنفيذ رديئا .

Horus : — « Dieu adoré dans plusieurs nomes de la basse (٢)
Egypte. Le personnage d'Horus se rattache sous des noms différents,
à deux générations divines. Sous le nom de Haroeris il est né de Seb-
et Nout, et par conséquent Frère d'Osiris, dont il est le fils sous un
autre nom, Horus, armé d'un dard avec lequel il transperce les en-
nemis d'Osiris, est appelé Horus le Justicier. » — *Dict. Arch. P. Pierret.*
article « Horus. »

Hathor : « Elle est connue Neith, Maut, et Nout, la (٢)
personnification de l'espace dans lequel se meut le soleil, dont Horus
symbolise le lever : aussi son nom, Hat-hor, signifie-t-il littéralement,
l'habitation d'Horus. » — *Ibid.* article « Hathor ».

قيمة • وتوجد هنا قوائم جغرافية للأقاليم النوبية والمصرية بمدنها الرئيسية ، ومنتجاتها ، وآلهتها الحارسة ، وقوائم بالأقاليم والأمراء الذين يدفعون الجزية ، وقوائم بالمعابد والأراضي الموقوفة عليها ، وقوائم بالزرع ، والموانئ ، والبحيرات ، وتقويم تبين الأعياد وأوقات الصوم ، وقوائم فلكية ، وأنساب وأخبار الآلهة ، وقوائم عن كهنة وكاهنات كل من معبدى ادفو وندرة بأسمائهم ، وقوائم أخرى تتعلق بالمنشدين والموظفين المساعدين ، وقوائم بالتبرعات ، والأناشيد ، والأدعية ، ومثل هذه التفاصيل المتعلقة بالأساطير الدينية بحيث يمكن تكوين كتاب عن الأساطير المصرية من النقوش الموجودة في معبد ادفو وحده (١) • وقد نشر منها الكثير ، ولكن يظهر بين الحين والآخر عالم مصريات مغامر مثل مسيو نافيل أو مسيو دى روجيه فيقدم لنا دراسة متعمقة عن ادفو ، والناجم • ويعود إلينا ومعه مثل هذه الصخور الثمينة بالكمية التي يستطيع أن يحملها • وهكذا ألقيت الضوء على بعض التفاصيل البارزة ذات الأهمية • وهناك على سبيل المثال نقش يسجل بالضبط في أى شهر وفى أى يوم وفى أية ساعة ولدت ايزيس ابنها حورس ، ونقش آخر يذكر كل ما يتعلق بالقوارب المقدسة • ونحن نعرف الآن أن ادفو بها اثنان من القوارب أحدهما يسمى حور - حات أو حورس الأول والآخر عا - مافيك أو الفيروزي العظيم • ويبدو أن هذين القاربين لم يكونا مخصصين فقط للحمل في المراكب ولكن أيضا للاستخدام الطبيعي فوق الماء • وهناك نص آخر من أكثر النصوص غرابة يخطرنا بأن حتحور دندرة تقوم بزيارة سنوية الى حورس أو (حور - حات) الموجود في ادفو ، وتقضى معه بضعة أيام في معبده ، وقد نقشت مراسم هذه الرحلة بالتفصيل • لقد سافرت الآلهة في مركبها التي تسمى نيب - مير - تي ، أى سيدة البحيرة • وخرج حورس كمضيف مهذب للقائها في قاربه حور - حات • ثم شكل الآلهان مع أتباعهما مركبا واحدة • وهكذا وصلا الى ادفو حيث استمتعت الآلهة بالاحتفالات المتعاقبة (٢) •

(١) انظر مقالا بعنوان Rapport sur une mission en Egypte كتبه الفيلسوف دى روجيه De Rougé نشر بمجلة Revue Arch Nouvelle série - المجلد العاشر ، ص ٦٣ •

(٢) انظر مقالا كتبه دى روجيه وعنوانه Textes Geographique du Temple d'Edfou نشر بمجلة Revue Arch ، المجلد الثاني عشر - ص ٢٠٩ •

وأود ان أعرف ما اذا كان حورس قد عاد فى جميع هذه الزيارات ،
وما اذا كانت الآلهة مثل الأباطرة المحدثين يقضون أوقاتا مريحة فيما
بينهم ؟

وهناك أسئلة أخرى تطرح نفسها ، تثير الالم أحيانا ، وتثير
السخرية أحيانا أخرى ، وذلك عندما يتنقل الانسان من غرفة الى غرفة
ومن قاعة الى قاعة ، وكلها مغطاة بالنقوش المنحوتة التى تمثل اشكالاً غريبة
واساطير أشد غرابة . ماذا عن هذه الآلهة ذات الأنساب المتداخلة ،
والعلاقات المتبادلة المعقدة ، التى تتزوج وتصير أباء وأمهات ، وتتبادل
الزيارات ، وتسافر أحيانا الى أقطار بعيدة (١) ؟ وماذا عن هؤلاء الذين
خدموا هذه الآلهة فى المعابد ، والذين ألبسوها الأثواب وخلعوها عنها ،
والذين أقاموا الاحتفالات بأعياد ميلادها ، وجمعوها فى مواكب مهيبه ،
واستنزفوا حياة ملايين الناس فى إقامة هذه الصروح والمنحوتات من
الحجارة تشريفا لها ؟ اننا نعرف الآن الطقوس التفصيلية التى كانت
تعبد بها هذه الآلهة ، والجواهر التى كانت تتزين بها ، والتراتيل التى
كانت ترتل فى مديحتها . ونعرف الجوهر التعبيرى والفلسفى للخرافات
الشمسية التى وضع نظرياتها أشخاص مغامرون محاطون بالغموض .
ونحن متأكدون تماما أن المعنى الخفى لهذه الأساطير قد ضاع فى الأيام
الآخيرة لهذه الديانة (٢) ، وأن الآلهة كانت مقبولة لذاتها وليس لما كانت
ترمز اليه ، وماذا اذن عن عابديها ؟ هل كانوا يؤمنون حقاً بكل هذه
الأشياء ، أو أن بعضاً منهم كان يتعذب بالشك فى هذه الآلهة ؟ وهل
كانت شكوكهم فى تلك الأيام تتعجب كيف يستطيع اثنان من عابدى
التماثيل الفرعونية Hierogrammetes أن ينظر كل منهما فى وجه
الآخر ، دون أن ينفجر فى الضحك ؟

وقد ذكر لنا الحارس أنه كانت توجد ٢٤٢ درجة تقود الى قمة كل
من برجى البوابة . وقد أحصينا ٢٢٤ منها وتغاضينا عن الدرجات
الباقية . كان المسار الصاعد طويلا ، ولكن بالرغم من كثرة عدد الدرجات
إلا أن المنظر من القمة كان يستحق مشقة الصعود . كانت الحجرات التى

(١) انظر كتاب البروفيسور ريفوت وعنوانه : Seconde Memoire sur les
Blennyes المنشور سنة ١٨٨٨ ، وذلك لمعرفة كيف أن تماثيل ايزيس وغيرها من الآلهة
كانت تنتقل مرة كل عام من معبد فيلة للقيام برحلة الى اثيوبيا .

(٢) انظر الملحق الثالث لهذا الكتاب وعنوانه : العقيدة الدينية عند قدماء المصريين
Religious Belief of the Ancient Egyptians.

فى البرجين واسعة ولها نوافذ مائلة مثل فوهات صناديق البريد الضخمة الموضوعة على مسافات متساوية بطول المسار . وكانت تظهر من هذه النوافذ صواري الأعلام والبيارق . وكان البرجان متصلين عن طريق شرفة واسعة ، وتمتلىء الحواجز العليا للبرجين بتوقيعات الأسماء المكتوبة حديثا والتي دونها الجنود الفرنسيون سنة ١٧٩٩ كتذكارات ، ولسوء الحظ فان أفاريز هذين البرجين العظيمين غير موجودة ، ولكن الارتفاع الكلى يبلغ ١٢٥ قدما بدونها . وعندما ينظر الانسان من أعلاها الى قلب المدينة - مثلما ينظر من منارة الجامع الكبير فى دمشق - فانه سيشاهد مئات من الأكواخ المبنية من الطين والمسقوفة بسعف النخيل ، ومئات من الأفنية الصغيرة تقع متزاحمة تحت الأقدام . وقد كان الفلاح يعيش فى فئاته نهارا ، الا أنه يستخدم كوخه للنوم ليلا . وكنا ننظر الى أسفل كالشيطان الأخرج فنشاهد الأنشطة المعتادة لعالم خال من السقوف ، فنرى الناس يتحركون جيئة وزهايا غير شاعرين بالعيون الغريبة التى تراقبهم من أعلى . كان الرجال يتسكعون ، ويدخنون ، ويرقدون فى الأركان الظليلة ، والأطفال يلعبون ، والأحداث يزحفون على أربع ، والنساء يطبخن فى أفران من الطين فى الهواء الطلق ، والأبقار والأغنام تتغذى ، والدواجن تنبش الأرض وتلتقط الحبوب ، والكلاب تستدفئ فى الشمس . وكانت الأكواخ بدائية ولا تصلح لسكن الانسان . وظهر الجامع الصغير مع قبة الوحيدة ومئذنته القصيرة صغيرا وبعيدا مثل دمية مصنوعة من الصلصال . وتقع حقول الشعير وزراعات القطن وصفوف النخيل التى تنحصر فى جانب واحد من النهر ، خلف القرية الواسعة . أما فى الجانب الآخر فتحدها الصحراء ، ويشق طريق عريض تسير فيه الناس والماشية ، مساره مستقيما خلال الأرض المزروعة وعبر السهل الرملى الذى يقع خلفها . ونستطيع أن نتابع مساره لعدة أميال حيث يظهر مثل خط مرسوم بآثار الأقدام فى الصحراء . وقد ذكرنا لنا أنه يتجه الى القاهرة مباشرة . أما على الضفة المقابلة فتلمع أضواء مصنع أبيض للسكر ، وتقع قبالا ريفية تخص الخديو فى مكان تظلل الأشجار الخضراء . ويمضى مجرى النيل بينهما ، وتلمع تلال طيبة من خلال ضباب أبيض مثل اللؤلؤ يلمع فى الأفق .

وفجأة يهب نسيم متقطع فى شكل نفحات مثيرا للأتربة فى دوائر حول أقدامنا . وفى نفس اللحظة تهب من الصحراء القرية ريح متموجة ونصف شفافة من الرمل الأصفر ، ويزداد ارتفاعها فى كل لحظة ، وتبدأ فى التحرك عبر السهل فى اتجاه الشمال . وفى نفس اللحظة تقريبا

تظهر ريح أخرى على مسافة بعيدة في اتجاه الجنوب ، بينما تأتي ريح
ثالثة متسللة في خفية بطول الضفة الأخرى . وبينما كنا نراقب الثالثة
بدأت الأولى في قذف نوع عجيب من ريش الطيور كان يتبعها وهو يتطاير
ثم يضيع في الهواء . والآن ، فان الريح الغربية القادمة من الجنوب تتقدم
في سرعة ناعمة وهائلة مرتفعة لمسافة ٥٠٠ قدم فوق صفحة الصحراء .
حتى اذا التقت بتيار معاكس ، انكسرت فجأة الى نصفين ، وأخذ النصف
السفلى في الاضمحلال ، بينما تعلق النصف العلوى في الهواء لحظة ، ثم
انتشر وطفا ببطء مثل سحابة . وفي نفس الوقت تشكلت هنا وهناك
أساطين أخرى أصغر حجما ، وأخذت تقترب قليلا ، وتمايل ، وتتفرق ،
ثم نتجمع مرة أخرى ، ثم تضمحل ثانية وتستحيل الى تراب . ثم يضعف
النسيم ويضع نهاية فاصلة لهذا المنظر الغريب . وفي أقل من دقيقتين
تبدد عمود الرمال وانقشع فجأة بنفس الطريقة التي أتى بها .

وهذا هو المنظر الطبيعي الذي يحيط بالمعبد . وبعد كل شيء فان
المعبد يمثل المنظر الذي يصعد الانسان الى هنا لكي يشاهده . انه يرقد
بعيدا تحت أقدامنا ، الفناء بأرضيته المبلطة ، والسقف المنبسط ، والمركب
من أحجار ضخمة ، والحائط الدائري بنقوشه الشاملة ، والبهو بستارته
وأساطينه وقد ظهر في الضوء الساطع مقابل الأعياق الداخلية المظلمة ،
ويمثل كل أسطون شعاعا من العاج ، كما يمثل كل مربع داخل الظلام
كتلة من الأبنوس ، والبناء كله كامل وصلب وفخم ، مع أنه بسيط من
حيث وحدة التصميم ، ومعقد من ناحية الزخرفة ، وعظيم من حيث الكمال
مما يشعر الانسان بأنه قد حل مشكلة العمارة الدينية كلها .

ولنأخذ كما هو كبناء بطلمي سليم بكل كمال قوته وتشطبيه .
ولا شك في أنه أعظم معبد موجود في مصر . انه يعرض أمامنا - بصورة
أكمل من معبد دندرة - الغرض من انشاء أجزائه المختلفة ونوعية المراسم
التي صمم من أجلها . ان كل ممر، وكل حجرة تحكي قصتها بنفسها ، وحتى
أسماء الحجرات المختلفة قد نقشت فوقها بطريقة حكيمة بحيث يسهل
استعادة بناء التصميم الأصلي للبناء كله بالمصطلحات الهرغوليفية (١) . ولا بد
من التسليم بأن المباني والأساطير البطلمية لا يمكن قبولها كنماذج للفن
المصري الخالص أو الفكر المصري الخالص ، فالاثان قد اختلطا بالمؤثرات

(١) لم تدون أسماء الحجرات فقط بل أيضا أبعادها بالذراع وأجزاء الذراع -

انظر .

Intintraire de la Haute Egypte, A. MARIETTE BEY, 1872, p. 241.

الاغريقية ، وابتعدا كثيرا عن النموذج الفرعوني ، ولكن لا توجد لدينا عينة كاملة من الطراز الفرعوني . ان الرمسيوم ليس الا قطعة كبيرة . اما الكرنك ومدينة هابو فهما تشكيلة من عدة معابد وعدة طرازات . اما معبد إيبسوس فمازال نصف مدفون . ونجد بينها الكثير غير الكامل ، والكثير المحطم ، بينما نجد أن الوحيد الذي يمثل بناء كاملا هو الطراز البطلمي بالرغم من أنه عديم الأهمية وأيضا عديم القيمة .

وبينما كنا نحلم بهذه الأشياء ونحاول أن نتخيل مظهرها ، جاء الأسطول المقدس الصغير وهو يكنس النهر هناك . وتقدم موكب حور - حات لاستقبال الآلهة القادمة كضيف . وكنا نتوقع رؤية كل الحشد اللامع وهو ينصب خارجا : الكهنة في ثيابهم المصنوعة من جلد الفهد الأسود ، والكاهنات يحملن الصلاصل الرنانة ، والمغنون ، وعازفو القيثارة ، وحاملو التقدّمات والشعارات ، وكبار الموظفين خلف قارب الإله المقدس . وفي هذه اللحظة يظهر مؤذن معنم فوق الشرفة الخشبية العليا المخلعة من المثانة الصغيرة ويؤذن لصلاة الظهر . وقد انتهت هذه الصبيحة المشوبة بالأتين قبل أن نشاهد الرجال هنا وهناك وهم يدورون بين الأكواخ ويتخذون اتجاه الشرق ويصطفون في وضع الصلاة . واستمرت النساء في طبخ الطعام ، وارضاع أطفالهن . وقد شاهدت السيدات المسلمات أثناء الصلاة في مساجد اسطنبول ، ولكنني لم أشاهدن في مصر .

وفي نفس الوقت شاهدنا بعض الأطفال الذين لم يعرفوا أننا نرتفع عنهم بمسافة تصل الى خمسة وعشرين ومائة قدم فانفجروا في صوت مرتفع طالبين « البقشيش ! » .

والآن نهبط بعد أن ألقينا نظرة أخيرة طويلة على المعبد والمنظر الذي وراءه وذهبنا لمشاهدة معبد صغير قبيل دفنت ثلاثة أرباعه في صحراء مجدبة بين التلال القريبة . وهذه التلال التي تتكون كلها في الغالب من أنقاض الطوب اللبن ، مع قطع راسخة من الحجر والفخار ، قد بنيت مثل الشعب المرجانية ، وتمثل مكان إقامة حوالى ستة أجيال ، وعندما قطعت مستقيمة كما هو الحال هنا حول المعبد الكبير كانت مادتها تشبه فطيرة انبرقوق الدسمة .



الفصل الحادى والعشرون

طبيعة

لقد صارعنا القدر فترة طويلة حتى صعبت علينا الاسنفادة بحظنا
 التسعيد عندما حملتنا ريح الجنوب من ادفو الى الأقصر فى مدة يومين
 فقط . لقد عدنا لنجد أن موضع الرسوة القديم غاص بالذهبيات ،
 ومزخرف بالأعلام الانجليزية والأمريكية الملونة وتكاد أعلام هاتين
 الجنسيتين أن تققسما النهر فيما بينهما ، وقد أحصينا من بين كل خمسة
 وعشرين قاربا ، اثنى عشر قاربا انجليزيا ، وتسعة قوارب أمريكية ،
 وقاربين ألمانيين وقاربا بلجيكييا ، وقاربا فرنسيا . ومن بين هذه القوارب
 جميعها كان أولاد عمومنا الأمريكيون متعاونين ومسرعين الى المساعدة ،
 وفعمين بالود مما جعلنا نسعد بلقائهم . وكان علمهم بالنسبة لى دليلا
 على وجود حشد كبير من الرفاق الشجعان والكرماء واللطفاء . وقد أعادت
 لى صحبتهم ذكريات أراض ووجوه عديدة ، واستدعت أيضا أصداء
 أصوات حميمة بعضها بعيد جدا ، وبعضها واحسرتها صامتة ! . وسواء
 أكانت هذه الأصوات على ضفاف النيل ، أم على ضفاف التيمز ، أم على
 البحار ، أم بين أراضى المعسكرات السورية ، أو مدلاة فى فتور من شرفات
 المباني الدبلوماسية المظلمة فى المدن القارية - فان قلبى لدى رؤيتهم كان
 يشعر بدفء العلم الأمريكى . . .

وعند وصولنا صعد جميع تجار الأقصر الى السطح . لقد تربصوا
 بنا وتبعونا حيثما ذهبنا ، بينما جلس عدد من أفضل نوعياتهم وهم رجال
 جادون يرتدون ثيابا سوداء طويلة وعمائم ضخمة ، فوق السطح السفلى
 لذهبيتنا ، وقضوا فى مكانهم هذا أسبوعين ، واذا أراد الانسان الصعود
 الى السطح العلوى سواء قبل الافطار فى الصباح ، أو بعد العشاء فى
 المساء ، فقد كنا نجدهم هناك صبورين ، وثابتى الجنان ، وعلى استعداد
 للقيام وأداء التحية ، وبعد ذلك يخرجون من بعض الجيوب الخفية ، حفنة
 من الجعارين ، أو حزمة من التماثيل الجنازية ، وكان بعض هؤلاء

السادة أعرابا ، وبعضهم الآخر أقباطا ، ولكنهم جميعا كانوا مهذبين
وحججهم مقنعة ، ولكنهم كذابون .

وعندما يمارس الأقباط والأعراب نفس التجارة المشكوك فيها ،
فليس من السهل أن تحدد ظلال الاختلاف في معاملاتهم . ويتميز الأقباط
بالدقة كعمال ، ولكن الأعراب أقل اخلاصا كبائعين . والاثنان كلاهما
يبيعان آثارا مزيفة أكثر من الآثار الأصلية . ومهما كان الطلب فانهم على
استعداد للاستجابة . وبالنسبة لهم فان تمثال تحوتمس ليس ثقيلا ،
وتمثال كليوباترة ليس خفيفا . وقد نفلت أعمالهم المنحوتة من خشب
الجميز ، وتمائيلهم الخزفية الصغيرة ، ولوحاتهم الهيروغليفية المصنوعة
من الحجر الجيري ، بمهارة يصعب كشفها . أما عن الجعارين الأصلية
التي من العصور القديمة فانها تباع بالدسته في كل موسم . ويتم نحتها
وتلميعها وتثبيتها على أجسام الديوك الرومية في شكل تعاويذ تجلب
الحظ ، ويكتسبون عن طريق هذه العملية درجة كبيرة من الاحترام تثير
المرح .

والى جانب عملية الانتاج تدور عملية التنقيب ، فالحفاريون
المتخصصون يحتلون البر الغربي . انهم يعيشون بين الجبانات
ويسوقون الحمير أو يشغلون الشواذيف نهارا ثم يقضون لياليهم يبحثون
عن الكنوز . وتعيش بضع مئات من العائلات بهذه الطريقة الصارمة ،
يسلبون جثث الموتى المصريين جريا وراء الربح القبيح .

وفي نفس الوقت يتضامن المزيقون والحفاريون والبائعون بالتحالف
مع بعضهم البعض لادارة تجارة صاخبة ، انهم يحاصرون الذهبية كما
شرحت منذ لحظة رسوها حتى اللحظة التي تدفع فيها بعيدا عن
الشاطئ . ان الولد الذي يسوق حمارك ، والمرشد الذي يقودك بين
المقابر ، والفلاح نصف العاري الذي يخفض فأسه عند مرورك ويجري
بجوارك لمسافة ميل عبر السهل ، لديهم جميعا « أنثيكة » يبيعونها لك .
أما الموظف المعمم الذي يحضر وفي صحبته سكرتيه وحامل غليونه ،
لزيارتك بهدف التعارف ، فانه يحذرك من الخداع ، ثم يلمح الى الكنوز
الأصلية التي لا يملك مفتاحها أحد غيره . والمواطن الوجيه الذي يجلس
معي عند الغداء ، يحمل في جيبه جعرانا عجيبي . وباختصار ، فان كل
رجل ، وامرأة ، وطفل يعيش في المنطقة ، يرغب في مساومتك على شراء
شيء ، والمساومة في تسعة وتسعين في المائة من الحالات عظيمة لدرجة أنها

تعرض صناعة الأقصر ، وليس غير ذلك ، وبالطبع فانه من المفضل أن تنزل بين الحين والآخر ، ولكن الأفضل هو ألا تخرج الى السطح لأنك ستجد السوق عندك في أسوأ الأحوال . ولا يظهر التاجر أفضل ما عنده الا عندما يجد أنه يتعامل مع مشتر مدرب .

وتزدهر تجارة مصنوعات الأقصر كما هي ، مع بعض القيود غير المريحة . والتنقيب الخاص محظور ، ويعيش الحفار خائفا من أن يكتشفه الحاكم . أما المزور الذي ليس عنده ما يجعله يخشى الحاكم فهو يعيش خائفا من أن يكشفه السائح . أما عن البائع سواء أكان يبيع أثرا حقيقيا أم مقلدا فهو أيضا عرضة للعقاب ؛ لأنه يرتكب مخالفة ضد السلطة من جهة ، ومن ناحية أخرى يتكسب نقودا باستخدام الادعاءات الكاذبة . وفي نفس الوقت فإن الحاكم يعالج مثل هذه النوعية من القضايا بقدر استطاعته ، ويبدل ما في وسعه لتطبيق القانون على كلا جانبي النهر .

وقد دخلت السيدة (ل) والكاتبة في احدى المرات ورشة أحد المزورين . ولما كنا لا نعرف أنها قد أغلقت فقد ذهبنا الى منزل معين كانت تشغله احدى القنصليات في وقت من الأوقات . وطلبنا السماح بالدخول ، وفتحت الباب فلاحه عجوز صماء . وبعد القليل من التردد أدخلتنا الى حجرة ضخمة خالية من الأثاث وبها ثلاث نوافذ . وقد وضعت أمام كل نافذة دكة مستطيلة تناثرت فوقها الجعارين والتعاويد والتماثيل الجنازية وهي تمر بكافة مراحل تصنيعها . وقد فحصنا هذه العينات بكثير من الفضول . كان بعضها من الخشب ، وبعضها من الحجر الجيري ، وبعضها ملون جزئيا . وكانت الألوان والفرشاة موضوعة هناك ومعها اسبارد ، والمثاقب ، وأدوات أخرى صغيرة مديبة مثل المخارز . وكان هناك نوع فاخر من الزجاج الذي يستخدمه النحاتون موضوعا في حنية احدى النوافذ . وقد شاهدنا أيضا حجر مسين صغيرا مركبا على احدى الذكك ، وهو يعمل عن طريق دواسة ، بينما كانت هناك في أحد الأركان قطعة ضخمة من صندوق احدى المومياءات خلف الباب عرفنا منه المصدر الذي يحصلون منه على أخشاب الجميز القديمة لعمل العينات الخشبية . وكان العمال الثلاثة المهرة المزودون بالأدوات الأوربية، منهمكين في عملهم بهذه الحجرة قبل دخولنا إليها حيث تم إخلاؤها تماما . واستنتجنا أنهم ذهبوا لتناول الافطار .

وفي نفس الوقت انتظرنا متوقعين أن يقتادونا للدخول الى القنصل . وفي حوالي عشر دقائق وصل أعرابي يرتدى ثيابا فاخرة وهو

مقطوع الأنفاس بسبب قدومه مسرعا ، ولم تكن قد رأيناه من قبل . وكان حائرا ما بين أدبه الشرقي ، وبين رغبته في التخلص منا ، فأخرجنا بسرعة موضعا أن أصحاب المنزل قد تبدلوا وأن الجاحنا في السؤال قد حال دون وصولنا الى الأقصر . وسمعناه يوبخ المرأة العجوز بشدة بمجرد أن تم إغلاق الباب خلفنا . وقد قابلت هذا الأعراي الذي يلبس الثياب الفاخرة بالقرب من منزل الحاكم بعد ذلك بيوم أو يومين ، وفي الحال اختفى في أقرب ركن اليه .

وتحتفظ سلطات متحف يولاق بجماعة صغيرة من الحفارين المدربين الذين يعملون بصفة مستمرة في جبانة طيبة ، ويشرف الحاكم على هؤلاء الحفارين ، وترسل كل مومياء يعثر عليها مغلقة الى متحف يولاق . ونشكر أريحية الحاكم الذي سمح لنا في صباح أحد الأيام بحضور افتتاح إحدى الجبانات ، وقد طلب حضورنا عندما كنا على وشك تناول الافطار ، فركبنا القارب بنشاط . ويمكن أن تتخيل بسهولة كيف أننا تناولنا نصف إفطارنا في القارب والنصف الآخر ونحن على ظهور الحمير . واتذكر جيدا ركوبنا مبكرين في صباح هذا اليوم ، عبر سهل طيبة الغربية . وكان الشعير حديث الانبات يلعب لعدة أميال تحت أشعة الشمس ، وقناة المياه الصغيرة تجرى بجوار الدرب ، بينما تحوم الفراشات البيضاء في ثنائيات جميلة . وهناك المقبرة التي على جانب الطريق وقبتها الصغيرة ، وحصير الصلاة المفروشة على أرضها ، وبثراها وقلتها المكسورة ، هذه كلها كانت تغري المار بأن يدخل لشرب الماء وأداء الصلاة . وهناك أيضا الكرمة البرية التي كانت تمتد بطول الحائط ، وأزهار البنفسج الالامعة التي ظهرت بدون دعوة وسط الشعير . وكانت تلال وبوابات مدينة هابو على يسارنا ، بينما كانت خرائب الرمسيوم على اليمين . وكانت فسحة السهل والجبال الغربية الوردية اللون أمامنا طوال الطريق ، وكانت التماثيل الضخمة متوهجة في ضوء النهار ، وهي ترتفع مقابل السماء الزرقاء الناعمة ، وقد اتخذت وضع الجلوس القديم وهي محطمة وبلا ملامح ، كما لو كانت حزينة على الربيع الذي تلاشى .

وقد وجدنا المقبرة الجديدة على بعد عدة مئات من الياردات خلف الرمسيوم . وكان الحفارون في داخل الحفرة ، بينما وقف الحاكم وعدد قليل من الأعراب وهم يتطلعون . وكان القبو مسقوفا بالطوب اللبن ، ومحفورا بشكل مربع في الصخرة السفلية . وقد وصلنا في الميعاد لأنه سرعان ما ظهرت حواف شيء مدفون من خلال الرمال والأنقاض التي كانت

الطير يحط عن الوميدوات



تملاً المقبرة • وبعد أن ألقى الرجال بالمجاريف والمعاول جانباً بدءوا في رفع التراب بأيديهم ، وخرج تابوت المومياء مرسوماً فوق غطاءه جسد مسجى بطوله واليدان متقاطعتان على الصدر • وقد حفرت كلتا اليدين والوجه حفراً بارزاً • وكان التابوت أبيض اللون من الداخل (١) وقد غطى سطحه بأساطير هيروغليفية وأشكال ملونة خشنة تمثل الآلهة الأربعة التي تقوم برعاية الموتى • أما الوجه فكان مثل اليدين ، ملوناً باللون الأصفر الغامق ، ولامعاً بشكل رفيع • ولكن الألوان كانت غامقة وصارخة وغطت السطح قشرة رقيقة هنا وهناك • وكان التابوت كاملاً بنفس الحالة التي كان عليها عندما وضع في المقبرة • وقد وضع صندوق خشبي عند أقدام المومياء • وتم استخراج هذا الصندوق أولاً وتسلمه الحاكم الذي وضعه جانباً دون أن يفتحه ، ثم رفع تابوت المومياء ونصبه على حافة الحفرة ثم وضعه على الأرض •

وقد أصبت برعدة عندما شاهدته كما كان موضوعاً عندما تركه النائحون ، ثم سحب بالأيدي لكي يتم فحصه وفك لفائفه ، وربما كسره لأنه لا يستحق أن يحتل ركناً ضمن مجموعة متحف بولاق ، لأنه بعد الانتهاء من تسجيله وتبويبه في المتحف يأتى الناس لمشاهدة هذه الأشياء بوصفها نماذج أو عينات ، ناسين أنها كانت في يوم ما كائنات حية مثلنا • ولكن هذه المومياء الفقيرة كانت تبدو في صورة إنسانية مفزعة ، وقد رقدت في قاع مقبرتها في ضوء النهار مثيرة للشفقة •

وبعد رفع التابوت الى خارج المقبرة ، وجدت بين الانقاض كوب صغيرة من الحزف الأزرق وكرة من نفس المادة وشيء آخر صغير على شكل ثمرة الكريز • وكانت هذه الأخيرة مجوفة ، وتحتوى على مادة كانت تصدر صوتاً عند تحريكها • ثم نقلت المومياء والتابوت الخشبي وهاتان اللعبتان الحزفيتان الى اسطبل قريب • وبعد أن كشف الحفاريون عن شيء يشبه فوهة نفق من الطوب في جانب المقبرة ، بدءوا في العمل مرة أخرى

(١) لا شك في أن هذا التابوت قد دُفن خلال عصر الأسرة الثالثة والعشرين أو الرابعة

والعشرين وقد وصف مارييت طرازه كما يلي :

« Succèdent les caisses à fond blanc, autour de celles-ci court une légende en hiéroglyphes de toutes couleurs. Le devant du couvercle est divisé horizontalement en tableau où alternent les représentations et les textes tracés en hiéroglyphes verdâtres. La momie elle-même est hermétiquement enfermée dans un cartonnage cousu par derrière et peint de couleurs tranchantes. » — *Notice des Monuments à Boulak*, p. 46, Paris, 1872.

بسرعة • وأظن أنه كان يجري الآن اكتشاف عقد آخر أو سلسلة من العقود المحفورة في الأرض •

وفي نفس الوقت ذهبنا بعيدا لعدة ساعات ، وشاهدنا بعض المقابر الملونة المشهورة في هذا الجزء من جانب الجبل المرتفع المعروف باسم الشيخ عبد القرنة • وكان الجو حارا ، والشمس تلمع فوق رؤوسنا ، والصخور تعكس الضوء والحرارة ، بينما كانت الأنقاض البيضاء اللون تلمع تحت أقدامنا • وكانت بعض القبور العالية هنا محفورة على شكل ممرات ، وتظهر على البعد مثل صفوف من الفتحات التي يعيش فيها الحمام • بينما يتغلغل بعضها الآخر في حواف الصخور المنعزلة • والبعض منها يصعب الوصول إليه ، ولكنها ساخنة وخائفة بشكل لا يحتمل • وقد قام بترميمها سير جاردنر ويلكنسون منذ نصف قرن ، وما زالت الأرقام موجودة فوقها • وقد ذهبنا في هذا الصباح الى ارقام

١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ •

وعندما كنت طفلة تأثرت بكتاب : The manners and Customs of the Ancient Egyptians وعنوانه: أساليب وعادات المصريين القدماء ، وكذلك كتاب ألف ليلة وليلة The Arabian Nights ، حيث قرأت كل سطر من الطبعة القديمة ذات الأجزاء الستة عدة مرات • وكنت أحفظ كل صورة من الصور التي يبلغ عددها سنمائة صورة عن ظهر قلب • والآن وجدت نفسي في وسط أصدقاء قدامى نصف منسميين • لقد كان كل موضوع من موضوعات هذه الحوائط العجيبة معروفا لي • ولم يكن هناك جديد أو غريب سوى الاطار الخارجى والألوان والرمال التي تحت الأقدام وانحدار الجبل في الخارج • وتنهيا لي أننى قابلت جميع هؤلاء الناس اللطفاء ذوى البشرة البنية اللون منذ سنوات عديدة مضت ، ربما في مرحلة سابقة من الوجود ، وأننى قد تمشيت معهم في حدائقهم ، واستمعت الى موسيقى صلاصلاهم ودفوفهم ، وشاركتهم فى ولائهم • هنا الموكب الجنائزى الذى أعرفه جيدا ، ومنظر المحاكمة بعد الموت حيث تقف المومياء فى حضرة أوزوريس ، وأرى قلب الموميساء وهو يوزن فى انيزان • وهنا صائت الطيور القديم الذى لا أنساه وهو يجثم بين سيقان حشائش السمار ومعه سلته المليئة بالشراك الحداكية ، وقد رفع يده الذابلة الى قمه ، بينما يتطاير شعره الخفيف مع النسيم • وأراه الآن وقد وضع نفسه فى جانب الفريسة ، ولكن هذا الفارق تاه عنه ، خلال قراءتى فى مرحلة الشباب • وهناك أعرف ستوديو النحات الذى كنت

أخنفس النظر اليه في ذلك الوقت . وأرى رجاله يعملون بنشاطهم المعهود ، ولكنني عجبت لانهم لم ينتهوا بعد من تلميع سطح هذا التمثال المصنوع من الجرانيت الأحمر ، وصياد السمك الصبور الذي مازال ينتظر أن تتناول السمكة الطعم هو أيضا صديق قديم . وهناك أرى تلك الحفلة المسائية التي كنت دائما ضيفتها الخيالية . ألم تنته الحفلة بعد ؟ وهل هذا القادم المتخلف عن الحضور قد وصل الآن الى بحر مجاور ام أنه لم يصل بعد ؟ وهل سيستمر الموسيقيون في العزف حتى انتهاء المقطوعة ؟ وهل مازالت تلك السيدات مشغولات بالنظر في طرازات الحلقات التي تضعها كل منهن في أذنيها ؟ يبدو لي أن العالم قد توقف عن الحركة هنا خلال السنوات الخمس والثلاثين التي مضت . هل قلت خمس وثلاثين ؟ أظن أننا لابد أن نضرب هذا الرقم في عشرة مرة ثم مرة أخرى ، وهنا نصل تماما الى الرقم الصحيح . لقد عاش هؤلاء الناس في عصر تحوتمس وأمنحوتب . وهي فترة نظر اليها رمسيس الثاني مثلما ننظر نحن الى أيام أسرة تيودور وأسرة ستيوارت .

وبعد مشاهدة هذه المقابر المرتفعة عدنا الى الحفائر السفلية . لقد قادت الفتحة التي وجدها الحفاريون وكما توقعوا ، الى قبو ثان به تابوت مومياء أخرى قد غطتها الانقراض التي أزيلت منذ قليل . ووجدت مومياء ثالثة بعد ظهر ذلك اليوم . ومما يثير العجب أن المومياءات الثلاث كانت تخص ثلاث سيدات .

كان الحاكم يتناول غداءه ومعه المومياء الأولى في حنايا الاسطبل التي كانت في يوم ما مقبرة فخمة ولكن تنبعث منها الآن رائحة السماد العضوى . وكان يجلس متقاطع الساقين على سجادة صغيرة ، وأمامه سلطانية من اللبن الرائب وصينية من الفطائر غير الجذابة . ودعاني للجلوس على سجادته ، وأعطاني ملعقته ، وقام بواجبات الضيافة في الاسطبل بسرور كما لو كان في قصر .

وقد سألته لماذا لا يتغاضى الحفاريون عن العمل في هذه المقابر ذات الأهمية الثانوية ويبحثون عن مقابر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، التي من المفروض أنها في انتظار من يكشف عنها في واد معين يسمى وادي الغرب . فهز رأسه وقال ان الطريق الى وادي الغرب طويل ووعر . ولا بد للرجال الذين يعماون هناك أن يعسكروا في الموقع . ولن يكون تزويدهم بالطعام أمرا سهلا لأنه لم يسمح له في الحقيقة الا بمبلغ يكفي أجور

خمسین حفارا فقط ، ولن يكون من المفيد محاولة العمل فى الوادى الغربى بما لا يقل عن مائتى حفار . وأتذكر اننا تناولنا الغداء فى هذا الصباح مع (ل) ، (ب) فى القاعة الثانية بالرمسيوم ، وهى انقاعة التى كانت على هذا الجانب من النهر وكنا نتناول الافطار كل يوم فى احدى المعابر التى فى البر الغربى . ولكن هذا اللقاء ظل محفورا فى ذاكرتى دون غيره . اننى أرى الجماعة السعيدة متجمعة فى ظل الأعمدة الضخمة ، وقد انتشرت السجاجيد الفارسية على الارض غير المهدة ، وكن الترجمان يتمشى جيئة وذهابا بملابسه التى تغرى بالتصوير ، بينما كان الاعراب ذوو البشرة البنية بملابسهم الرثة يجلسون القرفصاء على مسافة قريبة ، صامتين ، وعيونهم جائعة وقد أمسك كل منهم بخيط يضم جوارينه المزيفة ، وآلهته المقلدة ، أو قطع من توابيت المومياءات وعلب الكرتون الملونة للبيع . وكانت الملامح اللامعة لسطح الارض تظهر هنا وهناك من خلال الأعمدة وقد امتدت الاطر الخشبية ذات الشعارات التى تحيط بالأبواب ، من عمود الى آخر فوق رؤوسنا ، وقد نحتت فوق كل كتلة راطيش ضخمة ما زالت نلمع بألوانها الحمراء القرمزية والزرقاء اللازوردية . وقد تجمعت الحمير الصابرة فى أحد الأركان حول كومة صغيرة من الحشائش ، وامتدت فوقنا السماء الزرقاء بأعماقها الكثيفة . ويعتبر الرمسيوم أكثر الآثار الطيبية جمالا وقد غمرته أشعة الشمس فظهر الحجر الجيرى الدافئ الذى بنى به وقد تحول بمرور الزمن الى اللون الذهبى ، ولم يكن محدودا بالحوائط ، ولم تظله الصروح المرتفعة ، ولكنه يرتفع شامخا . ويمر الهواء دائريا حول هذه الأعمدة البسيطة الجميلة . ولا توجد الكثير من الآثار المصرية التى يستطيع الانسان أن يتحدث ويسعد بينها ؛ ولكنه يستطيع أن يسعد بالساعة التى يقضيها فى داخل الرمسيوم .

وسواء كان رمسيس الأكبر قد دفن فى هذا المكان أم لا ، فإن هذه مشكلة قد تحلها الاكتشافات المستقبلية ، ولكن الرمسيوم ومقبرة رمسيس هما شئ واحد ، والمبنى نفسه عبارة عن بقعة لم أشك فى جاذبيتها . ومع قضاء يوم بعد يوم بين هذه الآثار ، ما بين الرسم هنا وهناك ، والسير على الأرض خطوة خطوة وفحص كافة التفاصيل ، شعرت أخيرا بالغرابة لما يثور من الشك حول مثل هذه الشخصية الواضحة . ولا شك فى أن ديودور الصقلي كان مخطئا ، لقد كنا نبحث عن الدقة فيما ذكره ديودور كما هو الحال بالنسبة لما ذكره هوميروس . ولكننا عندما فحصنا بعض الأوصاف الطبوغرافية التى ذكرها عن الرمسيوم وجدناها بالدقة .

انه يصف مبنى (١) يصل اليه الانسان عن طريق فناءين واسعين ،
والى بهو الاساطين عن طريق ثلاثة مداخل فى الفناء الثانى ، وسلسلة
من الحجرات تتضمن مكتبة مقدسة ، وسقوف ذات لون لازوردى
« مرصعة بالنجوم » وحوائط مغطاة بالنقوش التى تبين أعمال وانتصارات
الملك الذى أطلق عليه اسم أوسيماندياس (٢) ، والتى نلاحظ من بينها
على وجه الخصوص مهاجمة قلعة « على مشارف نهر » ، وموكب من الأسرى
المقطوعى الأيدي ، وسلسلة تضم جميع آلهة مصر الذين كان الملك يقدم
الذبح القربان ، وأخيرا فانه توجد مقابل مدخل الفناء الثانى تماثيل
لنملك ، أحدها مصنوع من الجرانيت ، وقد صنع فى وضع الجلوس .
وهو ليس أعظم التماثيل المصرية ولكنه يحوز الإعجاب أكثر من الجميع
« بسبب جمال صناعته ، وفخامة الحجر الذى صنع من مادته » .

وإذا وضعنا فى فكرنا أن ما بقى من الرمسيوم هو السلسلة
الظهيرية للبناء كله ، فاننا نستطيع أن نتمشى من بداية البناء الى نهايته ،
ونظلم نعرف كافة ملامحه . وسندير ظهورنا الى الأبراج المحطمة للصرح
الأمامى ، ونعبر ما كان يعتبر فناء فى يوم من الأيام ، ونترك التمثال
الضخم الساقط الى يسارنا ، وندخل الى الفناء الثانى ، ونرى أمامنا
المدخل الثلاثة الى بهو الأساطين ، وبقياً تماثيل آخرين ، ونسير فى
الممر الرئيسى بالقاعة الكبرى ونرى فوق رؤوسنا الأطر الخشبية المحيطة
بالأبواب والمطعمة بنجوم صفراء فوق أرضية ملونة باللون الأزرق البراق
الذى يضاهى لون السماء ، ثم نعبّر من خلال حجرة بها صفوف من
النقوش ، ونصل الى المكتبة التى وجد شامبليون على عارضة بابها الرأسية
صورتى تحوت وساف أى سيد الخطابات ، وسيدة الكتب المقدسة (٣)
وأخيرا وجدنا بين شطأى الزخارف المنحوتة الباقية صورة الملك وهو يقدم
التقدمات الى قائمة مكتوبة بالهروغليفية تشمل الآلهة وأجداده السالفين .

(١) انظر : Diodorus, Biblioth. Hist. الكتاب الاول - الفصل الرابع . ويجب أن
ينسب خطأ عدم الدقة الى هيكاتيوس وهو الذى يمثل السلطة التى سار خلفها
ديودور .

(٢) من المحتمل أن يكون سميندس Smendes الذى ذكره مانيثون أو با - ان -
ديد ، الذى وجد بروجش خرطوشه فوق ناروس محفوظ بمتحف فيينا . انظر : Hist.
d'Egypte - الفصل العاشر - ص ٢١٢ ، طبعة ١٨٥٩ وهناك مدع آخر لهذا التعريف
وهو ملك يسمى سى - منتر ، وجد مارييت خراطيشه فوق بعض اللوحات الذهبية فى
تانيس .

(٣) الخطاب رقم ١٦ ، ص ٢٢٥ من مجموعة : Lettres d'Egypte التى نشرت
فى باريس سنة ١٨٦٨ .

فناء النماثيل الأورنيّة والتقطال الملهى فى معبد اليرسودم فى طيبة .



ونرى طابور الأسرى وكومة الأيدي المقطوعة (١) ونكتشف تسجيلاً لمعركة هو في حقيقته صورة طبق الأصل من تسجيل المعركة الموجود في أبي سنبل . وهذا الموضوع يشبه اللوحة الأصلية النوبية ، ولكنه مازال محتفظاً ببعض الألوان . ويظهر الأعداء بجلودهم البيضاء وشعورهم الخفيفة ، وقد ارتدوا نفس الثياب السورية ، ويظهر النهر هنا بلون أكثر خضرة من مثيله المرسوم في أبي سنبل ، كما أنه مرسوم بنفس الطريقة في شكل خط متعرج (زجراج) . ويظهر الملك بمفرده في عجلته الحربية . وهو يطلق السهام المتتالية ضد العدو الهارب . ونرى الأعداء يقفزون في النهر ويسبحون لانقاذ حياتهم . لقد غرق بعضهم بينما عبر البعض الآخر النهر سالمين ، حيث نالوا مساعدة رفقاءهم الواقفين على الضفة الأخرى . وقد تم الانقاذ رئيس ذى شعر أحمر وقد نكس جنوده رأسه الى أسفل لكي يفرغوا من فمه الماء الذي ابتلعه . والنهر هو نهر العاصي والمدينة هي أيضاً مدينة قادش وكذلك فإن الملك هو رمسيس الثاني والأحداث هي نفس أحداث قصيدة بنتاؤور .

والنقطة التي لا يمكن اغفالها في هذه القصة هي تمثال سينيت الضخم « أضخم التماثيل المصرية » (٢) أما الحصار والنهر وطواير الأسرى فإنها موجودة في مكان آخر . ولكن لا يوجد تمثال بهذه الصفات في أى مكان آخر . وهذا التمثال أضخم من التماثيل الموجودين في السهل . ويبلغ عرضهما عند الكتفين ١٨ قدماً ، و٣ بوصات . أما هذا التمثال فإن عرضه عند الكتفين يبلغ ٢٢ قدماً ، و٤ بوصات . والتمثالان

(١) انظر خطاب شميليون رقم ١٤ .

(٢) كان تمثال الرمسوم الجالس هو بلا شك أضخم تمثال كامل في مصر عندما زار تيودور الصقلي وادى النيل ذلك لأن تمثاله تانيس الضخم الواقف كان قد تحطم بمعرفه شاشانق الثالث لأغراض تتعلق بالمباني وذلك قبل زيارة تيودور بزمن طويل . أما تفرق تمثال تانيس على تمثال الرمسوم مع حيث الارتفاع والصفامة فهو يرتكز بلا شك على حجم الأجزاء التي اكتشفها مستر بترى أثناء حفائره سنة ١٨٨٤ . وكان تمثال تانيس طبقاً لحساباته الحرة يبلغ ارتفاعه ٩٠٠ بوصة أى ٧٠ قدماً أو ما يتراوح بين ٧٥ ، ٨٠ قدماً . وعلى ذلك ، يقول مستر بترى : « يجب أن نخفف ارتفاع التاج الذى يبلغ تقريباً ١٤٦ قدماً . ويجب أيضاً أن نخفف الى ذلك قاعدة التمثال التي كانت أقل سمكاً حيث بلغ سمكها ٣٧ بوصة فقط ، وعلى ذلك فإن الكتلة كلها كان ارتفاعها يبلغ حوالى ١١٠٠ بوصة أى حوالى ٩٢ قدماً . وعلى ذلك وكما هو معروف فإن هذا التمثال هو أكبر تمثال لمرعونى ، وقد حسب مستر بترى وزن التمثال فوجده حوالى ٩٠٠ طن أى بزيادة ١٠٠ طن عن وزن تمثال الرمسوم . ولا شك في أنه كان يقف على قاعدة مناسبة ، وبذلك فإن ارتفاعه مع القاعدة التي لا يقل ارتفاعها عن ١٨ أو ٢٠ قدماً يبلغ حوالى ١٢٠ قدماً فوق مستوى سطح الميهل . انظر كتاب : تانيس - الجزء الأول - الفصل الثاني ، ص ٢٢ - ٢٣ (ملحوظة : منسقة الى الطبعة الثانية) .

يجلسان بارتفاع يبلغ حوالى خمسين قدما بدون القاعدتين * ومازال ارتفاع رأس هذا التمثال يزيد عنهما بعشرة أقدام * ويقول تيودور ان « طول قدمه يزيد على سبعة أذرع » علما بأن الذراع الاغريقي يزيد طوله قليلا عن ١٨ بوصة * ويبلغ طول قدم تمثال رمسيس السابق حوالى ١١ قدما وعرضه أربعة أقدام ، وعشر بوصات * وهذا هو أيضا التمثال الطيبى الوحيد المنحوت من حجر أسوان السينى (الجرانيتى) الأحمر (١) *

ولا يشك أحد فى أن هذا التمثال كان قبل تخريبه واحدا من عجائب الانجازات المصرية * ولا بد أنه كان فى كافة تفاصيله تكرارا لسماثيل أبى سنبل ؛ ولكنه تفوق عليها من حيث تشطيب النحت وكمال الانجاز *

وكذلك فإن لون الحجر نفسه أكثر جمالا بالمقارنة مع مسلات الكرنك الشهيرة ، وهو أقرب ومادته أصلب لدرجة أن صانعى الجعارين فى الأقصر يستخدمون شظاياها كما يستخدم نحاتونا الماس لسن أدواتهم التى يستخدمونها فى التقطيع * ويبلغ الوزن الكلى للمشتلات الصلبة حوالى ٨٨٧ طنا * فكيف نقلت هذه الكتلة المذهلة من أسوان ؟ وكيف رفعت ؟ وكيف أسقطت ؟ هذه كلها مشكلات ضاع حولها قدر كبير من التخمين الواسع المدى * ويؤكد السياح أن علامات الأوتاد التى استخدمها محطمو التمثال ظاهرة بوضوح * وقام آخرون بفحص الأطراف المكسورة وأعلنوا أن العين الثاقبة لا تستطيع أن تكتشف علامات الأوتاد أو أية علامات أخرى تدل على استخدام العنف * ولم نجد أيأ من هذه العلامات أو الرموز * ولم نسأل أنفسنا أبدا ، كيف أو متى حدث التخریب الذى كان كافيا لاسقاط التمثال الضخم *

وحيث ان الانسان لا يستطيع أن يصعد ويقس هذه الأجزاء الهائلة فإن التمثال الساقط بوضفه خطاما أكثر إثارة للعجب مما لو كان سليما * وهنا درنا حول وسط التمثال ، وعدنا مرة أخرى خلف الرأس الضخم والكتفين لكى نتسلقها مثل تسلق الصخرة * وهناك بين أكوام الأنقاض التى يصعب ادراكها نرى قدما ضخمة ، ونرى بالقرب من الرأس جزءا من الجذع الضخم مع النصفين العلويين من الفخذين الكبيرين تغطيهما النقبة القصيرة ذات الثنيات * وكذلك فإن غطاء الرأس مخطط أيضا * وتتميز هذه الخطوط فى كليهما باللون الأصفر الرقيق الذى

(١) يمتلك المتحف البريطانى أيضا ياس تمثال جرانيتى وهو المعروف على المستوى الشعبى باسم معنون الصغير ، ويبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما قبل أن يكسره الفرنسيون *

كان يغطيها في الاصل • ولكي نحكم على الطريقة التي تم بها هذا التلوين نقول ان التمثال قد غطي باللوان خفيفة وليست ثقيلة • ونجد أن هذه التغطية بالنظر الى الأماكن التي بقيت فوقها ، ناعمة وجيدة التشطيب مثل تقطيع الجواهر الثمينة • وحتى أرضية الخرطوش الرائع على النصف العلوي من الذراع قد جرى تلميعها بشكل محكم • وأخيرا فان القاعدة الضخمة ترقد في الحفرة التي حفرتها أثناء سقوطها وقد نقشت عليها الألقاب الرفانة للملك رمسيس محبوب آمون : ونظرا لأن ديودور لم يعرف شيئا عن رمسيس أو أسلوبه فانه يفسر النقش حسب أسلوبه الخيالي :

« أنا أوسبماندبس ملك الملوك • اذا أراد أحد أن يعرف مقدار عظمتي ، واين أقيم فعليه أن يبحث عني في أعمالى » •

وتواجه قطع الحائط والبوابة العظيمة المحطمة التي ما زالت قائمة في الرمسيوم ، الشمال الغربى والجنوبى الغربى ، ويلى ذلك أن معظم نفوش السطح ذات الأهمية (المحفورة حفرا غائرا جدا) قد نقشت مع مراعاة الضوء بحيث لا تظهر بعد منتصف النهار • ولم أنجح في تمييز شكل واحد من أشكال هذه اللوحة الاحتفالية التي على الحائط الجنوبى للصالة الكبرى ، ويظهر فيها المصريون وهم يستخدمون غطاء من الدروع، وسلما متدرج المراحل للمهاجمة قلعة سورية ، الا خلال زيارتى الأخيرة عندما حضرت مبكرة فى الصباح لعمل رسم تخطيطى معين فى ضوء معين (١) • أما النقوش الجدارية التي فى القاعة الثانية فهى مرسومة حسب مقياس أكبر وأكثر سمكا ويمكن مشاهدتها فى أية ساعة من ساعات النهار • ونرى الاله تحوت هنا وهو يكتب اسم رمسيس على ثمرة شجرة اللبخ التي تشبه البيضة ، ومراكب كهنة حليقى الرؤوس يحملون على أكتافهم القوارب المقدسة للآلهة المختلفة ، وقد وضع فى وسط كل قارب عرش تحمله جنيات مجنحة تشبه ملائكة الشاروبيم • وقد ظهرت بوضوح الستائر التي فوق هذه العروش ، والحلقات التي تمر منها القضبان الحاملة للقوارب وكافة أثاثات وزخارف القسارب • وأحسست هنا بأننى قد حظيت فى لمحة خاطفة بمشاهدة تلك العروش

(١) انظر الرسم المطبوع من حفر على الخشب فى كتاب سير ج • وليكنسون وعنوانه :

أساليب وعادات المصريين القدماء Manners and Customs of the Ancient

Egyptians - المجلد الأول - طبعة سنة ١٨٧١ •

الأصلية التي جلس عليها موسى لكي يدرس التراث الدينى المصرى القديم ،
وفيما بعد صنع تابوت العهد على مثالها مع تغيير طفيف (*) .

وتلى الكرنك فى الأهمية المجموعة الضخمة من المباني المعروفة
بالاسم الشامل : مدينة هابو . وإذا حاولنا وصف هذه المباني فأننا
سنقوم بعمل ميثوس منه تماما مثل وصف الكرنك . ومثل هذه المحاولة
تخرج فى جميع الأحوال عن حدود هذه الصفحات التى خصصنا العديد
منها لموضوعات أخرى مشابهة . لأن المعابد مثل الجبال لا يوجد منها اثنان
مشابهان ولكنها جميعها تبدو متشابهة عند وصفها لأنه من الصعب
الكتابة عنها دون الاحساس بالملل ، ولذلك فأننى سأكتفى بتدوين بعض
النقاط المهمة . وأحيل هؤلاء الذين يريدون تفاصيل أشمل الى حكاية مدينة
هابو المستفيضة كما أوردها موراى فى كتابه *Hand Book of Egypt*
وبالنسبة لاسم مدينة هابو ، فان الجزء الأول منه هو الاسم العربى الذى
يطلق على بلدة كبيرة (مدينة) أما الجزء الثانى (هابو) أو حابو أو تابو
الذى ينطق بطرق مختلفة فهو يعنى بدون شك الاسم القديم لتلك المدينة
المشهورة التى أسماها الاغريق : طيبة . وهو اسم له اشتقاقات
كثيرة (١) ولكن الدارسين لم يقتنعوا بها (*) .

وتتكون أطلال مدينة هابو من معبد صغير أنشأته الملكة هاتوهيسو
Hatohepsu (**) من الأسرة الثامنة عشرة ومعبد آخر ضخم بناء

(*) جنح الخيال كثيرا بمؤلفة هذا الكتاب فى مواضع كثيرة منه مما دفعها الى
العديد من الاستنتاجات والتشبيهات غير الدقيقة ومنها هذا الادعاء الذى تدعيه على البير
موسى ، ذلك لأن تابوت العهد قد صنع ليس حسب نموذج فرعونى ، ولكن تنفيذا لأمر الهى
أمرى عليه بالوحى كافة التفاصيل . انظر فى ذلك الاصحاح الخامس والعشرين من سفر
الخروج الذى أمر الله فيه موسى بصنع التابوت حسب الاوصاف التى وردت فى هذا
الاصحاح الذى يبدأ بالآية الأولى القائلة : « وكلم الله موسى قائلا » - (المترجم) .

(١) من بين هذه الاشتقاقات الاسم أبوت بمعنى مسكن أو مأوى أمين والاسم تا - يو -
ابر ، ومعناه تل ، والاسم تا - أبى ومعناه الراس أو العاصمة . الخ ، انظر كتاب
Recherches sur le nom Egyptien de Thebes للعالم شاباس نشر سنة ١٦٨٢
وكذلك مقالا عنوانه *Textes Géographiques d'Edfu* للعالم ج . دى روجيه نشر فى
سلسلة :

Revue Arch. Nouvelle Série - المجلد الثانى عشر - السنة ١٨٦٥ ٠٠٠ الخ .

(*) هابو لثيوف لاسم حابو نسبة للمهندس الشهير أمنتحتب بن حابو الذى عاش
فى أيام الملك أمنتحتب الثالث وقام ببناء معبده الجنازى الذى يتقدمه تماثلا مضمون -
(المراجع) -

(***) المقصود بها الملكة حتشيسوت - (المراجع) .

كله الملك رمسيس الثالث من الاسرة العشرين ، ومبنى غريب ومثير
استخدم جزء منه كقصر وجزء آخر كقلعة وهو مشهور باسم الجناح .

ويتوج حوائط هذا الجناح وحوائط القاعة الأمامية التى تقود الى
المعبد الصغير وركن من الحائط الاصلى للدائرة ، حسب النموذج المصرى -
شرفات فى السور على شكل دروع للدفاع تماما مثل شرفات القلاع
الحثية والامورية التى تظهر فى اللوحة المحفورة فى أبى سنبل وغيره من
الاماكن . وعندما تقترب الى مدينة هابو من أى اتجاه ، فان هذه الدروع
الحجرية تصدم العين بوصفها من الملامح الجديدة والمثيرة . وعلاوة على
ذلك فانها على قدر علمى ، هى العينة الوحيدة للشرفات الدفاعية المصرية
التي نجت من التخریب . وقد بنيت تلك الشرفات التى على حائط الدائرة
على أيام رمسيس الخامس ، أما تلك التى على حائط الجناح فقد بنيت
على أيام رمسيس الثالث . أما الأخيرة التى على حائط القاعة الأمامية
فهى تعود الى أيام الاحتلال الرومانى .

واذا نظرنا الى الجانب التاريخى فان المعبد والجناح اللذين بمدينة
هابو وبردية هاريس العظيمة (١) تنتسب كلها الى عصر رمسيس الثالث

(١) وصف الدكتور بيرش بردية هاريس العظيمة بأنها « واحدة من أفخم وأفضل
ما اكتشف فى مصر من الكتابات التى حفظت من الضياع ، ويصل طولها الى ١٢٢ قدما ،
وعرضها ١٦١ بوصة » وقد وجدت ضمن برديات أخرى فى مقبرة خلف مدينة هابو ، وقد
اشتراها الراحل أ . س . هاريس بالاسكندرية وتم فضاها وتقسّمها فيما بعد الى تسع
وسبعين ورقة ، وحفظت فى صندوق من الكرتون ، وفيما عدا بعض الأجزاء الصغيرة
الناقصه فى الورقة الاولى فان النص كامل تماما . « وتتضمن البردية خطابا للملك رمسيس
الثالث يعدد فيه الفوائد التى استفادتها مصر من ادارته لها وتخليصه اياها من السيطرة
الأجنبية . وتسجل ايضا العطايا الضخمة التى وهبها للمعابد المصرية مثل معبد آمون فى
طيبة ومعبد أتوم فى هليوبوليس ومعبد بتاح فى منف ٠٠ الخ » « والجزء الأخير موجه
الى ضباط الجيش الذى يتكون بعضه من مرتزقة قادمين من سردينيا وليبيا ، والى شعب
مصر فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه ، وهو نوع من أحاديث المديح أو الوصايا
السياسية مثل ذلك الحديث الخاص بالامبراطور أغسطس الذى اكتشف فى انكيرا Ancyra
أما البردية نفسها فانها تتكون من الاقسام التالية التى سبق ثلاثة منها الزخارف الملونة
التي تملأ صفحات كبيرة : - مقدمة - العطايا المقدمة الى الهة طيبة - العطايا المقدمة الى
الهة هليوبوليس - العطايا المقدمة الى الهة منف - العطايا المقدمة الى آلهة الشمال
والجنوب - ملخص للعطايا - الحديث التاريخى والخاتمة . وقد تحدث الملك بنفسه ،
عن القائبة دون استثناء . انظر Introduction to Annals of Ramses III
لشرها بيرش فى مجلة : Records of the Past - المجلد السادس - هى ٢١ ، سنة
١٨٧٦ »

مثلا ينتسب أبو سنبل والرمسيوم وقصيدة بنتاؤور الى أيام رمسيس الثاني ، فالحروب العظيمة والانتصارات العظيمة والمدائح العظيمة التي نظمت في بطولة الملك والقوائم الضخمة التي تشتمل على الأهداء الذين ذبحوا وأسروا ، وقوائم جرد محتويات العطايا المسلوبة والثمينة التي قدمها الملك المنتصر الى الآلهة المصرية ، تغطي الحوائط المنقوشة وتملأ الصفحات المكتوبة في كلتا الحالتين . واذا قارنا بين مجموعتي البراهين فسنجد أن كلا الأسلوبين قد أظهر بلاغة أسلوب الكتابة الشرقي الذي يجعلنا بالنسبة للملك رمسيس الثالث ، نتعامل مع ملك لامع جرى وناجح مثل رمسيس الثاني (١) .

وربما استخدمت قبل عصر هذا الفرعون معابد معينة لاقامة الملك . ومن المحتمل تصديق ذلك بالنسبة لمعابد معينة مثل القرنة وأبيدوس ، حيث يتضمن تخطيط كل منهما الى جانب القاعات المعتادة ، حجرات جانبية وهيكلًا وعددا من الحجرات التي لا نعرف مجالات استخدامها . ومن المحتمل أيضا أن يكون الملوك السابقون قد سكنوا في مساكن مبنية من

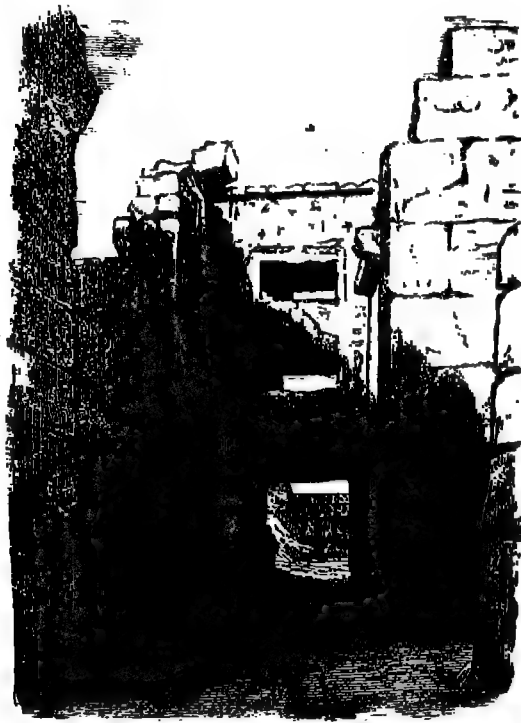
(١) كان رمسيس الثالث أحد الملوك المشهورين في تاريخ مصر ، وقد سبقت جلوسه على العرش فترة من الاضطرابات السياسية وسيطرة الأجانب على مصر وكان والد ست نخت قد نجح حقا في طرد الغزاة الأجانب واعادة أسرة ملوك طيبة الوطنية وهي الأسرة الثانية والعشرون حسب ترتيب مانيتون ، ولكن رمسيس كانت أمامه مهمة صعبة خاصة وأنه استدعى للجلوس على العرش في سن مبكرة . . . وكانت المهمة الاولى امام رمسيس في استعادة الحكومة المدنية وتنظيم الجيش . وفي العام الخامس من حكمه هزم الماكسيين Maxyes والليبيين في موقعة عظيمة عندما قاموا بغزو مصر تحت قيادة خمسة من الرؤساء . وفي نفس السنة كان عليه أيضا أن يرث الساتر Satu أو الأجانب الذين هاجموا مصر من الشرق . ويبدو أن شعوب الغرب البحرية قد غزت فلسطين والساحل السوري في العام الثامن من حكمه . وبعد الاستيلاء على قرقيش تقدم لغزو مصر تحالف مكون من البولوسانا Pulusata والتيكارو Tekkaru والصقالبة Sakalusu

والدانيين Tana أو Dana والأوسكيين Asi . ومن المحتمل أن يكونوا قد وصلوا الى بوابة الفرع الشرقي من النيل . ولكن رمسيس جمع جيشا في طها Taha شمال فلسطين وعاد للدفاع عن النيل . وقد أوقع هزيمة شنعاء بالحلفاء الغربيين بمعاونة قواته المرتزقة ، ثم عاد بالأسرى الى طيبة . وفي السنة الحادية عشرة من حكمه قام الماكسيون والليبيون بغزو مصر مرة ثانية لكي ينالوا هزيمة ثانية . ومنذ تلك الفترة عاشت البلاد في حالة من الهدوء . . . ومازال المعبد الضخم في مدينة هابو وقصوره وخزائنه باقية شاهدة على عظمته . واذا كانت حياته العادية هي حياة أي ملك مصري عادي فقد كان يعيش كما هو معروف في ميدان القتال مثلما يعيش في القصر . ولا شك في أن الحياة العظيمة قد انقلبت في أيامه الأخيرة ولا نعرف الكيفية التي مات بها ، لكنه تنمى بعد حكم دام واحدا وثلاثين عاما وعدة شهور ، وترك العرش لابنه حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. انظر Remarks upon the cover of the Granite Sarcophagus

of Ramses III . بقلم س. بيرش - نشر في كامبردج سنة ١٨٧٦ .

الطوب اللبن وأشغال الخشب المحفور مثلما نرى في النقوش الجدارية في
العديد من المقابر •

والحقيقة أن المبنى الوحيد الذي نستطيع القول بأنه كان قصرا ملكيا
والذي ظلت بعض آثاره باقية حتى يومنا الحاضر ، هو الذى أقامه رمسيس
الثالث ، أى هذا الجناح الصغير في مدينة هابو •



مدخل القصر في مدينة هابو •

وربما لم يكن هذا المبنى قصرا ، وربما كان مجرد بوابة حصينة •
ولكن بالرغم من ضآلة حجم الحجرات ، إلا أنها مضاءة ، كما أن الرسم
التخطيطي للجناح كله من الطراز المعتاد • وهو يتكون كما نراه الآن من
مبنيين متصلين عن طريق أجنحة متعرجة مع برج مركزي • ويقف المنيان
والبرج في مواجهة بعضهما البعض على شكل الأطراف الثلاثة للزاوية
الحادة • وتضم هذه المعالم فناء على شكل مستطيل يقود إلى الفناء المقدس
عن طريق ممر تحت البرج المركزي، وهو حسب وضعه الحالي يتضمن ثباني

حجرات فقط وبالذات ثلاث حجرات فى كل مبنى ، كل منها فوق الأخرى وحجرتان فوق البوابة (١) .

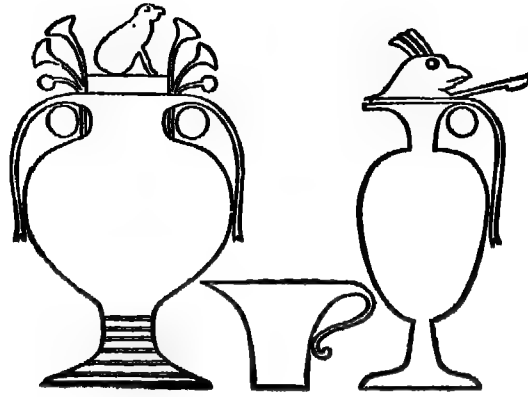
وهذه الابراج الثلاثة متصلة عن طريق ممرات ملتوية فى الأجنحة المتصلة بينها . ونجد أن نافذتين من النوافذ التى فى الجناحين تزينهما شرفات محمولة على ركائز ، تمثل كل ركيزة منها رأس وكتفى أسير جاثم على قدميه فى وضع مزارب منحوت على شكل آدمى . وهذه الرؤوس والملابس التى لهؤلاء الأسرى تبدو كما هى فى حالة من البربرية ولكنها ذات لون لامع .

أما البرج المركزى فهو كامل . وقد صعدت الكاتبة الى الحجرة الأولى التى كان سقفها ملونا بطريقة ممتازة وصعبة تماثل تقليد الموزاييك . والحجرة العليا يصعب الوصول إليها ، الا اذا توفر متسلق جيد . وقد وجد صديقنا ف. و. س. الذى شق طريقه إليها منذ عام أو عامين بعض النقوش المثيرة التى على الجدران وهى تمثل كؤوسا وزهريات يبدو أنها جزء من قائمة محتويات مصورة تختص بالأواني المنزلية . ويوجد هنا ثلاثة منها (لا تشبه أية آنية مرسومة فى مؤلفات ويلكنسون أو روسيلليني) أخذناها عن الرسم التخطيطى الذى رسمه فى الموقع . ونلاحظ أن غطاء الزهرية الصغيرة ينفتح بواسطة ذراع بارز مثل ملعقة، يضغط عليها الانسان بالاصبع الابهام مثل غطاء كوب البيرة الالماني الذى يستخدم فى الوقت الحالى .

أما الزخارف الخارجية للمبنيين فانها ذات أهمية خاصة ، ذلك لأن الموضوعات السفلية تاريخية . أما تلك التى فى الطوابق العليا فانها من الحياة اليومية أو رمزية ، وتصنف ضمن أعظم النقوش المصرية البارزة المشهورة . وقد ظل العلماء يظنون أنها تمثل رمسيس الثالث بين زوجاته، سعيدا وسط الاماء اللائى كن فى انتظاره . ونرى الملك فى احدى المجموعات

(١) هناك سبب للاعتقاد بأن هذا الجناح ليس الا جزءا من المبنى وتمتد الاساسات التى تجعل من المحتمل أن المبنى كله كان مربعا بعرض الواجهة . وكانت به حجرات أخرى ربما كانت مبنية من الخشب أو الطين بالإضافة الى تلك التى وجدناها الآن . وقد يقلل ذلك من معيزات التصميم . ولابد أنه كان مزخرفا فى الأصل ، ويشكل مع كمال شرفاته وزخرفته مجموعة تثير البهجة ، على خلاف مفاهيمنا عن الفن المصرى - انظر : *History of Architecture* تأليف J. Fergusson - الكتاب الاول - الفصل الرابع

ص ١١٨ - لندن سنة ١٨٦٥ .



مميزا دائما بالخراطيش الخاصة به وهو يجلس مستريحا في نوع من الكراسى التى يمكن طيها ، وقد وضع خوذته على رأسه ووضع القدمين وهما داخل صندله على موطئ للقدمين ، مثلما يعود المقاتل من المعركة ويستريح من عناء القتال . وكان يمسك فى يده اليسرى شيئا مستديرا يشبه الفاكهة ، بينما يربت يده اليمنى على ذقن فتاة ترتدى حلقا فى أذنيها ، وقلادة فى عنقها وترفع احدى أزهار اللوتس نحو أنفه . وفى موضوع آخر أشد تشويها نراهما يلعبان لعبة الضامة وهذا الموضوع الشهير الذى لا يمكن رؤيته الا عندما يدخل الضوء من الجانب ، نادرا ما يكون واضحا ، ناهيك عن المساعدة التى توفرها القطع التى أوردتها ويلكنسون واللوحات التى أوردتها روسيليني . وليس ذلك لأن النقوش قد طمست ولكن لأن الكتل الضخمة التى تحملها قد رقت من مكانها ، ومن المحتمل أنها ألقيت بشدة فوق رؤوس الأعداء خلال احدى مرات الحصار التى تحمل الأطلال آثارها الواضحة (١) . أما عن صورة السيدة

(١) ظلت مدينة هابو موجودة حتى الفتح العربى . وكان يسكنها الأقباط من أحفاد البنائين الذين أنشأوها . ولابد أنهم هربوا أمام عمرو بن العاص وجيشه . وهجروا المكان . ولا نعرف ما اذا كان الحصار قد حدث وقت الفتح العربى أو أثناء حملة قمعين ولكن بصرف النظر عن زعم حدوثه فالواضح أنها سقطت أثناء الحصار . وموجه مؤلف كتاب : دليل موراى - الانتباه الى حقيقة أن العوارض الرأسية للمدخل الذى يقود الى المعبد الأصغر والمصنوعة من الجرانيت ، قد كسرت بالضبط عند المكان الذى كان يوضع فيه القضيبي عبر الباب .

تعليق للمراجع : لم يحارب عمرو بن العاص وجيشه أقباط مصر ، وإنما حارب الرومان ولم يصل عمرو بن العاص الى الأقصر عند فتح مصر .

فقد بقي منها جزء صغير بجوار الذراع واليد التي تمسك النرد . وقد اختفت المنضدة ، وظهرت صورة الملك بدون ساقين ، وكذلك فانه بالرغم من ضياع المنضدة ، الا أن الكتلة التي فوقها مباشرة تتضمن القطع المستخدمة في اللعب تلك التي مازالت ظاهرة من أسفل اذا استخدم الناظر اليها نظارة . ويورد روسيليني ثلاثة أو أربعة موضوعات أخرى من نفس النوعية تتضمن مجموعة ثانية من لاعبي الضامة كانوا جميعا ظاهرين ، في الوقت الذي قام فيه بالزيارة وقد بحثت الكاتبة عنهم بدون طائل .

والمفروض أن هذه اللوحات تمثل الحياة العائلية للملك رمسيس الثالث وتؤكد الطابع المنزلي للجناح . ويطلق عليها الأعراب الذين يبيعون النجارين ويسكنون الأطلال ، وأيضا الأولاد الذين يسوقون الحمير في الأقصر اسم : حريم السلطان . ويحذر العلم الحديث من إزالة أية صورة من هذه الصور لأنها تطلق الفنان للخيال الذي يبعث البهجة والسرور .

ويبدو أن الملك وهو يحمل اسم رامسينيتوس Rhampsinitus وهو بطل كل أسطورة قديمة أوردها هيرودوت ، حيث ذكر أن الملك أثناء حياته نزل إلى الهاوية وهناك لعب الضامة مع الالهة ديميتير Demeter التي كسب منها فوطة ذهبية . ويقول هيرودوت ان المصريين أقاموا عيداً تذكاريًا لهذه المغامرة وعودته إلى الأرض ، وكانوا يحتفلون به على أيام هيرودوت (١) . وكما ذكر بلوتارخ نجد أن ايزيس قد حلت محل ديميتير . وإذا استعرضنا هاتين الروايتين في ضوء قطعة معينة من التراث الذي يتحدث عما ينعم به الميت السعيد من وعود « القدرة على تحويل نفسه بإرادته لممارسة لعبة الضامة والاسترخاء في جناح » . فأننا نجد أن الدكتور برش ذكر أن هذا المنظر كله قد يكون ذا طابع تذكاري ، ويمثل أحد المواقف التي تحدث في أرض ظلال الموت (٢) .

(١) هيرودوت - الكتاب الثاني ، الفصل ١٢٢ .

(٢) « A Medinet Habou, dans son palais, il s'est fait représenter jouant aux dames avec des femmes qui d'après certaines copies semblent porter sur la tête les fleurs symboliques de l'Égypte supérieure et inférieure comme les déesses du monde supérieur et inférieur, ou du ciel et de la terre. Cette dualité des déesses, qui est indiquée dans les scènes religieuses et les textes sacrés par la réunion de Satis et Anoucis, Pasht et Bast, Isis et Nephthys, etc., me fait penser que les tableaux de Medinet Habou peuvent avoir été considérés dans les légendes populaires »

وتأتى بعد هذه المجموعات من الحريم نقوش بارزة ضخمة ذات طابع دينى وعسكرى . فالملك كالعادة يضرب أسراه فى حضرة الآلهة . ويظهر شخص رفيع كالشبح فى وضع الاعداد للذبح ، بينما يمتشى البطل الغاضب عبر الحائط « مثل بعل » (١) وهو يهبط من أعالي السموات ، وأطرافه تمنح القوة الضرورية للانتصار وهو يمسك الجمهور الغفير بيده اليمنى ، بينما تطول يده اليسرى كالسهم هؤلاء الذين يقرون أمامه . وسيفه حاد مثل سيف أبيه مننو (٢) .

وتحت هذه المجموعات العظيمة تجرى أفاريز منقوشة بأشكال أشخاص راكعين يمتاون الرؤساء المهزومين الذين نرى بينهم قادة لبيين وصقليين وسردنيين وأتروسكيين . وجميع الرؤوس التى فى هذه الأفاريز تمثل صوراً نصفية نتعرف منها الى القائد اللبى وهو بدون لحية وشفتاه رقيقتان وأنفه معقوف وجبهته مسحوبة للخلف ويرتدى غطاء رأس محكم له دلالة تدل على الأذن . أما ملامح القائد السرديني (٣) فهى لا تقل عن الآسيوى ، وكان يرتدى الخوذة السردينية المعروفة التى تعلوها الكرة والقضبان المعدنيان . أما الشكل الجانبى لوجه القائد الصقلي فهو يماثل السرديني ، وهو يرتدى غطاء للرأس يشبه الطاقية الفارسية الحديثة .

= res comme offrant aux yeux l'allégorie de la scène du jeu de dames entre le roi et la désesse Isis, dont Hérodote a fait la Déméter égyptienne, comme il a fait d'Osiris le Dionysus du même peuple », — *Le Roi Rhampsinite et le jeu des Dames*, par S. BIRCH, *Revue Archéologique*, vol. xii., n. 58. Paris : 1865.

(١) بعل مثل سوتخ اله تمت استعارته من الأساطير الفينيقية . ويبدو أن عبادة بعل قد عرفت فى مصر خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة . أما الآلهة الآخر الذى ورد ذكره هنا وهو مننو أو مونت فهو من الآلهة التى ترمز للشمس والتى كانت تعبد فى طيبة . وكان يعبد أيضاً فى هيرمونثيس أى أرميت الحالية ، وهى مدينة حديثة لها بعض الأهمية ، ومازال اسمها مطابقاً مع اسم برمننو المستخدم فى العصور القديمة . وكان مننو هو اله الحرب عند المصريين مثلاً كان بعل هو اله الحرب عند الفينيقيين .

(٢) عن أحد نقوش مدينة هابو التى نقلها شاباس . انظر كتاب : *Antiquité Historique* الفصل الرابع ، ص ٢٢٨ طبعة ١٨٧٣ .

(٣) هناك حقيقة جديرة بالتسجيل (وهى حقيقة أظن أن أحداً لم يلحظها من قبل) وهى أنه عندما كان القادة الآسيويون والأفريقيون يظهرون بين صور هذه الأفاريز فإنهم يوصفون فى النقوش الهيروغليفية المصاحبة لهم بأنهم « اللبى الخسئ » أو « الكوشى الخسئ » أو « الماشواش الخسئ » وهكذا . أما القادة الأوربيون فإنهم بالرغم من رسم صورهم بنفس الأسلوب إلا أن القائد منهم كان يوصف بأنه « عظيم سردينيا » أو « عظيم صقلية » أو « عظيم أثرويا » . الخ . فهل يدل ذلك على أن قوتهم العسكرية كانت أشد من قوة المصريين أقرب جيرانهم ؟

أما عن النوعيات الانسية (الجنسية) فن هذه الرؤوس ذات قيمة كبيرة ، فلم يعمه استوطنون الاجانب يظهر من رجيلهم من الشواطىء الغربيه لآسيا الصغرى ، ويظهر هؤلاء الاوربيون بطابع الملامح الآسيوية ، هذا الطابع الذى احتفى الآن نلنيه .

وهناك شعوب اوربيه أخرى موجودة فى أماكن أخرى فى مدينه هابو هذه . فهناك البلاسيون من الجزر اليونانية ، والأوسكانز من مدينه بومبي والداونيون من المقاطعات التى بين تارنتوم وبيرونديوم وكل فى ملبسه الوطنية . ومن هؤلاء جميعا ينفرد البلاسيون بالشبه مع الشكل الأوربى الحديث . وتوجد على الحائط الشرقى من بوابة الجناح فى اتجاه المعبد ، صورة بارزة ضخمة للملك رمسيس الثالث وهو يقود طابورا مقيدا من الأسرى فى حضرة آمون رع . ومن بين النقوش التى فى حالة جيدة يوجد عدد من أشكال البلاسين الذين يظهر بعضهم بملامح الاغريق الكلاسيكية وهم ذوو أشكال وسبمة ، ويشبه غطاء رؤوسهم قبة شاكو Shako القدية التى كان يرتديها جنود المشاة . ويرتدى بعض الرجال تمائم على شكل أقراص فى وسطها نقب تخرج منه الذقن التى تجعلها معلقة حول العنق .

واذا اتجهنا نحو اليسار فسنجد تمثالا جالسا رائعا للاله خونسو من البازلت الأخضر . والى اليمين رقيقه التمثال الساقط . ونمر أسفل البوابة ، ونعبر فراغا من تلال الطوب المهجورة ونرى أمامنا خرائب البرج الأول لمعبد خيم العظيم . وبمجرد أن نعبر عتبة هذا البرج ندخل فى سلسلة من الأفنية العظيمة . والنقوش الهيروغليفية هنا ضخمة وأعمق من أى نقش آخر موجود فى مصر كلها . وقد لونت بعين خبيرة قوية التأثير . وقد ذهلبنا لروعة الألوان الزرقاء غير العادية ، واللمعان الغريب الذى تشعه. أضواء معينة . لقد فحصتها على وجه الخصوص ووجدت أن تأثيرها ناتج عن ظلال دقيقة نظرا لتدرج الألوان التى تظهر بها لأول وهلة ، حيث اكتشفنا أنها درجات لونية مسطحة بسيطة . وعلى سبيل المثال ففي بعض سيقان النباتات نجد أن الألوان الأساسية تبدأ عند قمة الورقة بالأزرق الخالص وتندرج حتى تصل الى درجة من الأخضر الزمردى عند القاع (١) .

(١) ان زرقه سقف صف الأعمدة العظيمة فى القاعة الكبرى Hypaethral واضحة جدا بسبب لمعان ونقاء درجة اللون ، بينما تظهر هذه الزخارف المثيرة التى على العمود والطبقة الحجرية التى فوقه ، جليلة على العمود الثانى الذى على يمين الداخل الى هذا البهو ، مثل عينة مثيرة للزخرفة باللون الأصفر على أرضية ذهبية اللون .

أما الجوانب الداخلية لهذا الفناء الضخم والوجه الخارجى للحائط الذى فى الشمال الشرقى فهى مغطاة بالنقوش المحددة بمعنى أنها محفوظه فى حلية غائرة النقش ، ولذلك فان الاشكال بالرغم من أنها دائرية الا أنها ظلت على نفس مستوى السطح العام . وفى هذه اللوحات يحيا العالم القديم مرة أخرى فنرى رمسيس الثالث وأولاده ونبلاءه وجيوشه وأعداءه وهم يلعبون مرة أخرى أدوارهم فى مسرحية الحياة والموت القصيرة . وهنا نشاهد المعارك الكبرى أثناء خوضها ، والانتصارات العظمى أثناء تحقيقها ، وعمليات الذبح أثناء احصائها ، والأسرى وهم يجرجرون سلاسلهم خلف العجلة الحربية للملك المنتصر ، وانتصارات الملك وذباطه التى يقدمها للآلهة . ونرى حروبا أكثر وذبائح أكثر فى أماكن أخرى . وهناك نورة فى ليبيا ، وغارات على الحدود الآسيوية ، وغزاة قادمون فى سفنهم من جزر البحر الكبير . وقد رفع التسعار الملكى وتجمعت الجيوش ووزعت الأسلحة . ومرة أخرى يذهب الملك تتبعه زهرة الفرسان المصريين . ان فرسانه أبطال . أما مشاته فهم مثل الأسود التى تزار فى الجبال . أما الملك نفسه فانه يبعث بالشرر مثل « الاله منتو فى أوج غضبه » . ويقع على العدو بمثل سرعة الشهاب ، وهنا نجد الأعداء المزدحمين فى الشاحنات التى تجرها الثيران وهم يطلبون الأمان فى الهرب . وهناك نجد سفنهم غارقة وجنودهم مذبحين أو غرقى أو مأسورين ، أو سلطت عليهم الثيران حتى « لا يعودوا مرة أخرى لبذر البذور أو حصاد المحصول على وجه الأرض » .

يقول الفرعون : « انظر لقد استوليت على حدودهم وجعلتها حدودا لى ! لقد دمرت مدنهم ، وأحرقت محاصيلهم ودهست رجالهم تحت قدمى . افرحى يا مصر ! ارفعى صوتك الى السماء ! انظرى ! اننى أحكم جميع أراضى البرابرة ، أنا رمسيس الثالث . ملك مصر العليا والسفلى » (١) .

وقد ربطت الصور بعضها الى بعض بواسطة نص يتضمن التعليقات . أما القصة فقد كتبت فى مكان آخر . ويبلغ ارتفاع النقش الهيروغليفى ارتفاع الواجهة الشرقية للحائط الشمسمى الضخم للبوابة الثانية وهو الحائط الذى ينطيه النقش . وهذه البوابة تقسم القاعة التى تحتلها تماثيل

(١) عن نقوش مدينة هابر ، انظر : Antiquité Historique ، الفصل الخامس ، باريس سنة ١٨٧٦ .

أوزوريس والقاعة الكبرى الثانية ، لكي يواجه النقش الداخلين الى المعبد ، ويسبق اللوحات • وأظن أنه حتى قصيدة بنتاؤور لا تصل الى قدرته على التأثير ، وكذلك فان مزامير داود أيضا ليست أكثر منه حماسة (١) •

وقد نصبت الكاتبة خيمتها في مدخل البوابة الاولى ، واستطاعت بذلك أن ترسم الركن الشمالى الغربى من الفناء بما فيه البرج بالنقوش والتماثيل الضخمة التى تمثل الاله أوزوريس • وتمثل الصورة المرفقة الرسم الذى رسمته الكاتبة •

لقد شوهدت سقف صف الأعمدة الذى الى اليمين ، خرائب الطوب اللبن التى تعود الى العصور الوسطى • وما زالت النقوش الهيروغليقية المحفورة بطول الأطر التى تحيط بالأبواب ، وبطول جوانب الأعمدة حتى أسفلها ، لامعة اللون • وقد وصلت التماثيل الضخمة الى حالة سيئة نظرا لمرور ثلاثة آلاف عام حافلة بسوء الاستخدام • وينظر الانسان من خلال المدخل المنقوش المقابل ، عبر القاعة الكبرى ، ويشاهد لمحة من قاعة الأعمدة المحطمة خلفها •

وعندما كانت الكاتبة تعمل فى ظل البوابة الاولى ، جلس راوية من الأعراب عند هذا المدخل المقابل وأخذ يسلى الأولاد الذين يسوقون الحمير والبحارة • وبعد أن دفعوا له قليلا من التبغ وعدة قروش من العملة النحاسية ، استمر فى رواياته عدة ساعات • وارتفع صوت غنائه حيناً بعد حين حتى أصبح صراخا متهدجا • وكان رجلا عجوزا كثير الشكوى متغضن الوجه وشديد الفقر والبؤس • ولكنه كان يحفظ عن ظهر قلب قصص ألف ليلة وليلة ومئات من القصص الأخرى •

وكان من رأى مارييت أن معبد مدينة هابو الذى أقيم على جانب مقابر طيبة العظيمة يشبه الرمسيوم، من حيث انه أثر جنازى أقامه رمسيس الثالث فى حياته تخليداً لذكره • أما هذه التماثيل الضخمة المحطمة فانها تمثل الملك فى شكل أوزوريس وهى ضحكة فى الحقيقة مع أن التماثيل

(١) قام مسيو شاباس فى كتابه L'Antiquité Historique بترجمة هذا التسجيل الكامل ، فى الفصل الخامس ، ص ٢٤٦ وما بعدها • وكذلك تمت ترجمته فى كتاب روسيليني Monumenti Storici • وقد قام بتصويره كل من مسيو هامو شميدت وستيور بيتا بطريقة تثير الإعجاب •

قاعة التماثيل اوزوريس - مدينة هليو



الجنائزية ذات حجم صغير في العادة • وهي ليست الا صرحا تذكاريًا ،
وتكفي وحدها لبيان سمة البناء •

ولا شك في أن تلك السمة هي نفسها سمة معبد أمنحتب (*) الصغير المعروف باسم : دير المدينة ، ومعبد حنشبسوت المعروف باسم الدير البحري ومعبد القرنة وتقريبا كل المعالم المهمة التي أقيمت على جانب النهر • وقد تبقى من معبد أمنحتب الصغير بعض الكتل المنقوشة والأساسات المحطمة وآخر التماثيل ذات الأحجام المختلفة التي بقيت من الشارع وكذلك التمثالان المشهوران في السهل (١) أما معبد الدير البحري الذي بنى في شرفات على جانب الجبل وكان يتم الوصول اليه يوما ما باستخدام طريق عظيم للكبش فما زال أثره ظاهرا حتى اليوم • وكان من الممكن لو لم يتعرض للتخريب أن يصبح أهم معبد في الجانب الغربي للنهر • وقد ظهر الغرض من إقامة هذا البناء وهو تخصيصه للالهة حتحور مع حقيقة أن ريند قد قام بالتعرف على قبر الملكة حتشبسوت منذ خمسة

(*) يقصد الملك أمنحتب الثالث - (المراجع) •

(١) ان الحديث عن وصف هذين التمثالين اللذين يعتبران من الفضل الآثار المصرية . وتلويهنما ونقشهما وتصويرهما ، يحتاج الى أكثر من مرجع • أما وجهاهما اللذان بلا ملامح ووصفهما وما يحيط بهما ، فهذه الأمور كلها معروفة مثل الأهرام حتى بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعرفون شيئا عن مصر • ونحن نعرف أنهما يمثلان أمنحتب الثالث ، وأن التمثال الموجود في الطرف الشمالي قد انتشر الى نصفين عند الوسط اثناء زلزال سنة ٢٧ ق م وقد قيل انهما يصدران صوتا في الساعة الأولى من النهار مما جعل الأقدمين يظنون أن التمثالين يصدران الصوت عن طريق حدوث معجزة • وكان الاغريق يعتقدون أنهما يمثلان ابن تيتونوس وأودرا المشهور في الأساطير والذي أطلق عليه اسم ممنون • وعلى الرغم من هذا فإن المصريين أنفسهم يقولون ان التمثالين يمثلان أمنحتب الثالث • وقد جاء الولاة والقناصل والاباطرة والأميرات للاستماع الى صوت ممنون • ومن بين الزوار المشهورين الذين سافروا لهذا الغرض استرابون وجرمانيكوس وهادريان والإمبراطورة سابينا • وقد انقسمت الآراء حول سبب هذا الصوت • ولا شك أنه يوجد فراغ مجوف داخل عرش هذا التمثال كما هو واضح بالنسبة لكل من فحصه من الخلف • وقد فحصه سيرج • ويلكنسون وعبر عن اعتقاده بأن الصوت الموسيقى كان قطعة من شعوذة الكهنة ، وهو رأى يأخذ به أغلبية المؤرخين • ويتفق كاتب مقال نشر بمجلة Quarterly Review ، العدد رقم ٢٧٦ ، أبريل ١٨٧٥ مع سيرج • بروستر في نسبة الصوت الى خلخلة الهواء من خلال شقوق الحجر الناتجة عن تغير الحرارة فجائى بسبب شروق الشمس • والتمثال الذى يشبه زميله التمثال الآخر كان كتلة واحدة أصلية ضخمة من الصخر الرملى • وقد جرى اصلاحه بالحجر الرملى خلال حكم الإمبراطور الرومانى سبتيموس سيفيروس •

وعشرين عاما مضت بوصفه أحد المقابر المحفورة في جانب الصخرة بالقرب من المكان الذي ينتهي اليه المعبد بالوصول مقابل الصخرة .

أما عن معبد القرنة فهو على الأقل صرح تذكاري مثل كاتدرائية ميدتشى في فلورنسا أو سوبرجا في تورينو ، وقد بدأ بناءه الملك سيتى الأول تذكارا لأبيه رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة . وعلى كل حال فقد مات سيتى قبل استكمال العمل . وهنا أكمل ابنه وخليفته رمسيس الثانى التخطيط العام ، وأكمل الجزء المخصص لجده ، وأضاف النقوش المحفورة اليه احياء لذكرى سيتى الأول . وفيما بعد ترك مرتباج ابن رمسيس الثانى وخليفته خرطوشيه على أحد المداخل . وباختصار فإن المبنى كله يعتبر أثرا عائليا ويتضمن معرضا لصور الأسرة النصفية . ونجد هنا أن جميع الأشخاص الذين تظهر أسماؤهم على أعمدة مقاصير عائلة رمسيس فى السلسلة قد رسمت أشخاصهم فى شكلها الصحيح . حيث نرى الملك رمسيس الأول فى إحدى اللوحات ميتا ومؤلها (١) ومربوطا وموضوعا فى الضريح ومتوجا مثل أوزوريس ، حيث يقدم له سيتى الأول فروض العبادة . ويقف خلف سيتى ملكته تويا Tuya (توى) أم رمسيس الثانى .

وفى مواضع أخرى نرى سيتى الأول الذى مات حينذاك يصير الها ويثلقى العبادة من رمسيس الثانى الذى يسكب النبيذ على تمثال أبيه . وهناك شبه رباط عائلى يربط بين جميع هذه الرؤوس الوسيمة . وهم جميعا يشتركون فى هذا الطراز الدانتى Dantesque type الذى يميز انصوير النصفية لرمسيس الثانى فى شبابه . ونجد أن ملامح رمسيس الثانى وسيتى الأول مضغوطة وصارمة إلى حد ما مثل صور الأيام القديسة .

(١) كان تأليه الموتى لا يجرى حسب المفهوم الرومانى أو حسب ما يجرى فى العصر الحديث من اعلان قداسة أحد القديسين ، لأن المصريين اعتقدوا بأن الميت الصالح تنضم أو تتحد روحه بالاله أوزوريس القاضى الكريم والى العالم السفلى . وعلى ذلك فإنهم من خلال عبادتهم للأسلاف لا يعظمون الموتى الخالدين فقط ولكنهم يعظمون الميت فى شخص أوزوريس . ويعظمون أوزوريس فى شخص الميت .

ومما هو جدير بالذكر أنه بالرغم من هذا فإن التأليه للتتابع لأشخاص الملك سيتى الأول والملك رمسيس الأول قد حدث باعتبار كل منهما مثل القديس الشفيح أو كما يستنيه المصريون القدماء (الاله الحارس للمعبد) .

ويرسم وحده باللمحة الأدبية والمقلوبة الغريبة الشكل مثل قرن الوعل الجبلى المعكوس . وفى السمة الغريبة للالهية .

أما المتظر الجانبى لوجه الملكة تويا (توى) الذى يشبه كثيرا بعض الصور النصفية للملكة اليزابيث (*) فهو حاد الزوايا ولذلك فانه لا يثير الاعجاب . ولكن هذه التفاصيل الغليظة بالنسبة لوجه ومسيس الثانى المعروف تختفى ، ويبلغ جمال الجنس ذروته . ولا نجد مميزات فنانى النهضة المصرية يمثل هذه العظمة فى رسم الاشكال الجانبية للوجوه أكثر مما يبدو فى هذه السلسلة المثيرة للاهتمام .

وعندما وصلنا الى ما يمكن تسميته بالجزء الأثرى من البناء ، وجدنا نددا من القاعات والحجرات التى لا نعرف شيئا عن استخداماتها . ويقول معظم الكتاب انها كانت تمثل المسكن الخاص بالملك . ويذهب البعض الى أبعد من ذلك فيعطى اسم المعبد لكافة هذه المعالم الجنازية . ومن المحتمل أن تكون هذه المعابد الغربية قد أقيمت مترابطة بالرغم من أنها ليست متصلة اتصالا مباشرا مع المقابر الملكية فى وادى باب الملوك المجاور .

والآن، فإن كل مقبرة مصرية ذات أهمية تتميز بغرفة خارجية أو هيكل للنذور ، وقد غطيت جدرانها بالزخارف التى تفوق الوصف . وأحيانا تغطيها مناظر الموتى على الأرض ، وفى مواضع أخرى مغامرات روح الميت بعد الموت . وهنا وفى مواسم معينة يتم التعويض عن الأحياء بتقديم القرابين . ويبدو أنه لم يكن هناك كاهن مخصص للقيام بهذه الخدمات الصغيرة . وقد تحضر العائلة بكاملها لتقديم بواكير حديقتهما ، وأفضل دواجنها ، والفطائر المصنوعة فى المنزل ، والخبز وباقات أزهار اللوتس . ويقومون بتكويما على المذبح بأيديهم ، ثم يقوم الابن الأكبر نائباً عن الآخرين بحرق البخور ، وسكب النبيذ . ويظهر هذا المنظر دائما على الآثار فى كل فترة زمنية (١) وهذه الهياكل الخاصة بالنذور غير موجودة

(*) تقصد الكاتبة الملكة اليزابيث الأولى وليست الملكة الحالية اليزابيث الثانية -

(المترجم)

(١) يوجد بين اللوحات الجنازية بمتحف بولاق مجموعة من النقوش البارزة تمثل وصول عائلة من الناضحين عند قبر سلفهم المتوفى . ويجلس تمثال الميت عند الطرف العلوى . وقد حمل الناضحون التقديمات ، فهذا طفل صغير يحمل حملا ، بينما يحمل طفل آخر أوزة ، ويقف أحد الكتبة فى انتظار تسجيل الهدايا . وتخلد اللوحة الجنازية اسم شخص يدعى بصماتيك - نفر - سام ، الذى يظهر من النص الهيروغليفى أنه أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين . أما الرشاقة الطبيعية وخاصة الحنان الدافئ للذنان عولج بهما هذا الافريز الصغير ، فقد جعلاه أعلى من مستوى الفن المصرى العادى . ويمكن مقارنته بالآثار التى اكتشفت مؤخرا فى الطريق الاليوزى فى اثينا .

جلمرة فى وادى باب الملوك . ان المقابر الملكية تتكون فقط من ممرات
أسطوانية وعقود مقبنة لدفن الموتى، وقد سدت مداخلاها الى الأبد بمجرد
وضع النواويس . ومن هنا يمكن استنتاج أن كل معبد تذكارى قد لعب
بالنسبة لمقبرة الاله الحارس ، ذلك الدور الذى يلعبه الهيكل الخارجى
الملحق بمقبرة الميت . ولا ننسى أنه كان هناك منذ وقت مبكر يعود الى أيام
ملوك الأهرام هيكل للندور ملحق بكل هرم يمكن ملاحظة آثاره على
الجانب الشرقى فى أى وقت ، كما كان هناك أيضا كهنة الأهرام كما نعرف
من النقوش الجنائزية التى لا تحصى .

وقد يتطلب مثل هذا الهيكل الضخم احتفالا رسميا كبيرا . ولا شك
فى أن كل ملك ميت ومؤله كان يتبعه طابور من الكهنة ، وصلواته اليومية ،
ومواكبه الاحتفالية ، والأضحية التى يجرى تقديمها . وكل ذلك يتطلب
مرة أخرى اعاشة وحسابات إضافية ، أظن أنها كانت تشغل أى عدد من
القاعات والحجرات الإضافية . وما زالت هذه النقوش باقية على حوائط
هذه الحجرات الخربة . . . وهى كلها فى الحقيقة ذات طابع جنازى ومرتبطة
بتقديم الأضاحى . ويجب أن نتذكر أن لدينا هنا معبدا مخصصا للمكين ،
ويخدمه كهنة ينتمون الى مدرستين مزدوجتين (١) والنقوش الجدارية بمعبد
القرنة رائعة الجمال خاصة تلك التى أنجزت على أيام سبتى الأول .
وحيث أنها حفظت سليمة بالصدفة ، فإن السطح أملس ، والتنفيذ لامع
مثل نقوش العاج الفاخرة التى تنتمى الى العصور الوسطى ، وعلى سبيل
المثال فأننا نرى خلف عمود مكسور قد انحنى أمام الحائط الجنوبي الغربى
للهيكل (٢) مقدمة قارب مقدس على شكل رأس كبش ، وهو سليم وفائق
الترقة ، وقد جرى تشكيل رأس الكبش ببساطة وبدون ملحوظات ويندر
القول بأنه قد اندثرت كل النقوش الموجودة ، لأن هذه القطعة ستكون
وحدها كافية لكى تضع فن النحت الزخرفى لمصر القديمة فى مكانة لا يتفوق
عليه فيها الا النحت الاغريقى .

ويقع معبد القرنة فى الطرف الشمالى البعيد من مجموعة طيبة عند
مدخل ذلك الوادى المشهور الذى يسميه الأعراب باب الملوك ، بينما

(١) « Une dignité tout à fait particulier est celle que les
inscriptions hiéroglyphiques désignent par le titre « prophète du la
pyramide de tel pharaon. » Il paraît qu'après sa mort chaque roi était
vénéré par un culte special. » Histoire d'Egypte : Brugsch, 2nd ed.
chap. V, p. 35. Leipzig. 1875.

(٢) يوجد شبك غريب فى طرف هذا الهيكل ، به اخدودان يثبت فيهما
المصرعان ، وثقبان ينزلق فيهما القضيب الذى يخلق الثاقذة .

يسميه السياح وادى مقابر الملوك . ويمكن وصف هذا الوادى بأنه وهدة منفرة الى فرعين ينتهيان الى ما يشبه الزقاق . وتنتهى أطرافها فى جميع الجوانب بحواف من الحجر الجيرى . وهى تدور خلف الصخور التى تواجه الأقصر والكرنك وتتخذ مسارا موازيا لنهر النيل . وتنتشر المقابر فى هذه السلسلة من الصخور على شكل تقوب على كلا الجانبين . وقد دفن الكهنة والنبلاء الذين ينتمون الى العديد من الأسرات صفا فوق صف على الجانب الذى يلي النهر ، ورقد خلف مقابرهم فى الوادى الصامت المغمم بالأسرار الملوك فى أضرحتهم الأبدية .

ويرسو معظم السياح عند الكرنك لمدة يوم أو يومين ومن هناك يبدون جولتهم الى باب الملوك ، ويخسرون بذلك واحدة من أجمل الجولات فى ضواحي طيبة . لقد بدأت السيدة (ل) والكاتبة جولتهما من الأقصر فى صباح أحد الأيام بعد شروق الشمس بحوالى ساعة ، وعبرت النهر عند النقطة المعتادة ، ثم ركبتا حمارين بطول الضفة فى اتجاه الشمال . وقد صار النيل فى جانب وحقول القمح فى الجانب الآخر . وفى مسار مثل هذه المسيرة الراكبة يكتشف الانسان أكثر بقاع طيبة خصوبة . لقد تحولت كل بوصة من الأرض الصالحة للزراعة الى حكاية . وقد أخذت المحاصيل تنمو فى قوة ، وأخذت أعواد الشعير تتماوج فى موجة كاسحة من مدينة هابو الى نقطة تقع فى منتصف المسافة بين معبدى الرمسيوم والقرنة . وتأتى بعد ذلك زراعات التبغ والقطن والقنب وبذر الكتان والذرة والعدس ، فى حقول متجاورة غنية بالمحاصيل ، بحيث يظهر القطر كما لو كان كله أرضا مقسمة الى حصص زراعية تمتد الى أميال عديدة . وفى المناطق التى جمع فيها محصول الأرض ظهرت مجموعات من الأكواخ المؤقتة فى الأراضي الفضاء التى بين الحقول لأن الفلاحين اعتادوا الخروج من قراهم المزدحمة فى « الطف فصول السنة » لكي يعيشوا وسط المحاصيل التى يقومون الآن بحراستها والتى سرعان ما يحصدهونها . أما حوائط هذه الأكواخ فانها مجرد أسوار من قش القمح الهندى مع حزم من نفس القش موضوعة عبر القمة لعمل السقف . وتنتشر هذه الأكواخ الريفية فى كل مكان . ونرى هنا بعض الرجال يقومون بتشغيل الشادوف على ضفة النهر ، والنساء يغزلن فى الشمس ، والأطفال يلعبون ، والكلاب تنبح ، وطيور القنبر تحلق فى الجو وتغنى فوق رؤوسنا ، وهناك فى مواجهة قواعد الصخور حيث تنتهى الأرض المزروعة وتبدأ المقابر ، يفيض نهر هادى تنمو على حافته أشجار النخيل . ومنذ شهور قليلة مضت كان من المحتمل أن نخدعنا هذه المياه الخرافية ولكننا نعرف الآن أن هذا هو الشراب .

ومع الاتجاه نحو اليسار ، قصدنا بقعة تنحسر عندها الجبال وتنخفض ، ويمتد فوق السهل اسفين مثل أخدود من الصحراء الرملية ، وعلى حافة هذا الأخدود توجد مجموعة من أشجار الجميز والنخيل . ويلمح خلال الأغصان صف من الأعمدة الصفراء القديمة التي تحمل اطارا خشبيا منقوشا . وتستكين قرية صغيرة قريبة ، ونرى فوق المنحدر الصحراوي البعيد ، الذى فى وسط المدافن العربية المهجورة ، مسجدا صغيرا ذا قبة وحيدة صغيرة تلمع بلونها الأبيض فى ضوء الشمس ، هذه هى القرنة . وتوجد هنا عين ماء ، وتقوم بعض الفتيات بسحب الماء من البئر القريبة من المعبد . وتقوم الحير التى نركبها بارواء عطشها من الحوض المخصص لسقى الماشية ، وهو عبارة عن تابوت مكسور كان يحمل فى يوم من الأيام مومياة أحد الملوك . وهناك ساقية تديرها بقرتان لونهما أحمر ولهما وجهان مثل ونجه الالهة حتحور . أما الرجل الكهل الذى يسوقها فانه يجلس وسط العجلة ذات التروس ويدور معها ببطء كما لو كان يجرى تحميصه . والآن نترك خلفنا البئر والأشجار والمعبد ذا الملامح الاغريقية ، وندير وجوهنا فى اتجاه الغرب ، متجهين نحو فتحة هناك وسط الصخور مرصعة بفوهات المقابر الخالية . ومن السهل رؤية أننا ندخل الآن فوق ما كان حوضا للسيول فى يوم من الأيام ، وكانت المياه المندفعة من التلال تنتشر هنا على هيئة مروحة فوق منحدر الصحراء ، وتغطى الأرض بالصخور المتدحرجة ، وتحولها الى مئات من القنوات المتعرجة ، ويقع طريقنا اليوم فوق حوض السيول المذكور .

وتقف الصخور الموحشة مثل جنود الحراسة على الجانبين الأيمن والأيسر للوادي ، بينما يدخل الانسان من مدخل الوادى ، وتتخذ أشكالا غريبة مثل المسلات والكباش . بعضها متاكل عند القاعدة ، وترتفع الى أعلى مثل الأهرام المهجورة ، وتذكرنا بالمقابر التى فى طريق أبيان ، وكلما ضاق الوادى ، ازداد ارتفاع حوائط الحجر الجيرى ، وسطح المسار المكون من الطباشير تحت أقدامنا ، ولعلت آكوام من الشظايا المرتعشة ، وتلألأت عند قواعد الصخور . أما الصخور فكانت تشع حرارتها البيضاء اللون . وأخذ الجو يخفق مثل البخار الغازى ، بينما الشمس فوق رؤوسنا . ولم يكن هناك نفس يتردد ، ولم يكن هناك أيضا ظل يعرض اصنع واحد على كلا الجانبين ، وكنا نشبه الذين يركبون فى قوفاة قرن. مشتعل . وفى نفس الوقت أخذنا نبحث بلا جدوى عن أية علامة تدل على وجود حياة . ولا تنمو هنا أية ورقة من أوراق النبات منذ بداية الخليفة . ولا يسكن هذه الصخور أى مخلوق تتردد أنفاسه . كل المنطقة موحشة ،

ويبدو هذا الخراب كما لو كان الانسان يحلم بأنه في عالم محاط بالنيران المتساقطة من السماء . وعندما مضينا لمسافة أطول ونحن نتبع مسار حوض السيول ، وصلنا الى مكان انحرفت فيه الحير عن المسار الرئيسي واتخذت مسارا اجباريا يشق سورا من الحجر الجيرى الصلب . وكان هذا المكان في يوم ما مجرد تجويف فى الصخور ولكنه محجوب من الجانب الآخر بحاجز طبيعى من الصخور . وهنا يرقد واد آخر يقود الى مدرج منعزل بين الجبال . ولابد أن أول فرعون اختار موضع دفنه بين هذه الطرق المخفية هو الذى شق المسار ومهد الطريق الذى نسير فيه الآن . وهذا المسار هو باب الملوك ، وهو اسم المكان ولا شك فى أنه كان معروفا به عند قدماء المصريين . ويظهر من خلال البوابة جبل ضخم .

ان مصر هى بلد الجبال الغريبة الشكل ، وهنا نرى جيلا يمثل على نطاق واسع كل ملامح هرم زوسر فى سقارة ، فهو مربع الشكل ، ويرتفع طبقة فوق طبقة فى تدرجات من الصخور الأسطوانية التى تفصلها عن بعضها منحدرات من الانخفاض ، وينتهى الى قمة خشنة مربعة الجوانب ترتفع حوالى ١٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح السهل .

والآن وبعد أن جعلنا هذا الجبل أمامنا دائما ، فقد اتبعنا تعرجات الوادى الثانى وهو أكثر ضيقا وجفافا وبروزا من الوادى الأول . وربما كانت الحرارة هى التى جعلتنا نظن أن الطريق أطول من طوله الحقيقى بينما هو لا يتجاوز عدة أميال . ولكن هذا الطول كسر رتابة الطريق . ويتفرع منه واديان عميقان صغيران ، أحدهما الى اليمين والآخر الى اليسار ، وتوجد فى كل منهما عند قاعدة الصخور فتحات مربعة تنتشر هنا وهناك مثل مداخل السرايب ، حيث تجد نصفها غائصة تحت السطح ، بما يوحى بأنه يضرب فى جوف الأرض ، وفى اللحظة التالية وجدنا أن طريقنا ينتهى فجأة فى متاهة متداعية موحشة مثل محجر متهالك ، وقد أوصدته من جميع الجهات حواف معلقة تظهر عند قواعد مداخل غائرة فى الصخر فى نقاط مختلفة .

ومنذ اللحظة الأولى التى ظهرت فيها تأكدت أننا سنجد مقابر الملوك فى هذا الجبل الهرمى الشكل ، لدرجة أننى وجدت صعوبة فى تصديق المرشد وهو يؤكد لنا أن هذه السرايب هى الأماكن التى جئنا لمشاهدتها . وأن الجبل لا يحتوى على أية مقابر ، فتسلقنا منحدرنا حادا ووجدنا أنفسنا على عتبة المقبرة رقم ١٧ . وقال المرشد : « هذه هى مقبرة بلزونى » . وكما نعلم فإن مقبرة بلزونى هى مقبرة سيتى الأول .

كم أشعر بالحجل وأنا أقول أننا تناولنا غداءنا في ظل هذا المدخل اللوكون ، واسترحنا واحسسنا بالانسراح قبل ان نهبط الى المقبرة المقبضة التي غاصت درجات سلالمها وممراتها في الظلام السفلي كما لو كانت تقود الى ارض آمون مباشرة .

والمقابر التي في باب الملوك لا تشبه المقابر التي في الصخور المواجهة للمدينة الاقصر كما لو كان ملوك طيبة ينتمون الى جنس ومذهب يختلفان عن جنس ومذهب النبلاء . كان هؤلاء الكتبة والوجهاء الميجلون يصورون مع زوجاتهم وعائلاتهم ، وأصدقاؤهم وأتباعهم العديدين في أوضاع بهيجة . انهم يعيشون مسرات هذه الحياة ، ولا بد أنهم حملوا معهم متعلقاتهم والمعدات التي تسعدهم الى الأرض التي وراء القبر ، ولذلك قاموا بزخرفة حوائط مقابرهم بصور تمثل الطريقة التي عاشوا بها حياتهم ، وتوقعوا أن المومياء وهي تقضى فترة الانتظار الطويل وحيدة ، لا بد وأن تجد الراحة في هذه المواضع الظليلة التي تفيض بالذكريات . أما الملوك فانهم على النقيض من ذلك فقد غطوا كل قدم من قصور اقامتهم بمناظر من الحياة الآتية . فهناك جولات الروح بعد انفصالها عن الجسد ، والأهوال والمخاطر التي تحاصرها في رحلتها عبر هاديس ، والشياطين التي تصارعها ، والاثامات التي ترد عليها ، والتحويلات التي تطرأ عليها . وهذه كلها تمثل موضوعات لمناظر عديدة لا تحصى . ولم نجد مناظر صيد السمك والطيور والولائم وحفلات التسلية التي رأيناها في اليوم السابق في هذه الممرات التي وراء الرسميوم ، أثرا في مقابر باب الملوك . لقد وجدنا هنا بدلا من الغناء وغزف الصلاصلا صلوات وابتهالات ، وبدلا من القوارب النيلية التي تثير البهجة ، وحفلات تناول الشراب ، ومطاردة الغزلان والوعول ، نجد الآن صياح البجاد الذي ينقل في قاربه الأرواح عبر النهر الموصل الى مقر الموتى ، وحوض النار التطهيرية ، والنزاع مع آلهة الجحيم . وهكذا نرى أن التناقض بين الاثنين حاد وغريب ، كما لو أن الأرستقراطية المنغمسة في الملذات الحسية كانت تحت حكم ملوك شديدي التمسك بالدين . والمقابر التي تحتوى على هذه الموضوعات ذات طابع دنيوى ، بينما مقابر ملوكهم عبارة عن مزامير وثنية .

وعندما نهبط الى احدى هذه المقابر العظيمة فانك تدل بنفسك الى العالم السفلى ، وتسير في ممر الظلال . وبعد أن عبرنا العتبة ، نظرنا إلى أعلى متوقعين أن نقرأ هذه الكلمات الرهيبة التي تحذر جميع الداخلين

من أن يتركوا الآمال خلفهم • لقد وجدنا المر ينحدر أمام أقدامنا ، وضوء النهار يتلاشى خلفنا • وفي نهاية المر يظهر سلم من الدرجات نرى عند قاعدته ممرا آخر ينحدر الى أعماق الظلام الشامل • وقد غطيت الحوائط التي على الجانبين بأعمدة من النصوص الهيروغليفية التي تتخللها أشكال تنذر بالشر نصفها الهى ونصفها الآخر شيطاني • لقد كانت الحيات الضخمة تتلوى بجانبنا بطول الجدران ، بينما تتقدم الأرواح الحارسة ذات الطلبة المتوعدة وهي تلوح بسيوف من الذهب • وتنتفح فوق رؤوسنا سماء غريبة • سماء تسافر فيها النجوم فوق قوارب عبر بحار الفضاء • وتشرق الشمس من اتجاه الشرق تحت حراسة الساعات والشهور وعلامات دائرة البروج ، وتقرب في اتجاه الغرب • ونعبر نصف الكرة الذي يحتوى على الليل الدائم • ونستمر في جولتنا بينما يضمحل آخر وميض لضوء النهار على البعد • ونجد مجموعة أخرى من السلالم تقود الى مجموعة متناوبة من الممرات والقاعات بعضها صغير والبعض الآخر كبير ، وبعضها مقبب والبعض الآخر محمول على أعمدة • وهنا تنفتح حفرة عميقة نصف ممتلئة بالأنقاض • بينما تنفتح هناك مجموعة من حجرات ناقصة التشطيب تركها العمال • وكلما تقدمنا أكثر ، صارت الأرض المحيطة بنا أكثر وحشية • وكانت الحوائط تعج بأشياء قبيحة وشريرة منها الثعابين والحفايش ، والتماثيل ، بعضها له رؤوس وأرجل بشرية ، وبعضها ينفث النار ، وبعضها مسلح بالرمح والسهم ، وكلها تتبع الأشرار وتعذبهم • وهؤلاء الأشرار ذوو الحظ السيئ الذين مزقت صدورهم وأخرجت منها قلوبهم ، وضعوا في أرجل تغلى وقد علقوا منكس رؤوس وتحتهم بحار من الذهب ، كما نشبت الرماح في أجسامهم ، وضربت أعناقهم ، ودفعوا في مجموعات بدون رؤوس الى مناطق يلقون فيها عذابا أشد وطأة • وقد رأينا في الضوء الخافت والمتقلب لبعض الشموع هذه الأحوال المرسومة وهي تكشف عن بعض ملامح الحقيقة الفظيعة وهي تبدأ عند مرورنا في النور ، ثم تفرق خلفنا في الظلام • وهذا الظلام وحده مثير للخوف ، والجو كله خائف ، والمكان مرعب ومسكون بالكوابيس •

وفي موضع آخر نأتى الى مناظر أقل رعبا ، فنرى الشمس تنبثق من نصف الكرة السفلى ، والموتى الصالحين يزرعون ويحصدون في الحقول السماوية ، ويجمعون ثمارا علوية ويستحمون في مياه الحقيقة ، وتستريح المومياة الملكية في مقبرتها ، بينما تتلقى التماثيل الجنائزية

للملك التعظيم والتكريم بما يقدم إليها من تقدمات من البخور واللحوم
وسكائب النبيذ (١) . وفى النهار يصل الملك وقد أصبح نقيًا ومبررًا إلى
آخر مرحلة فى رحلته الروحية . وترحب به الآلهة فى حضرة أوزوريس
وتستقبله فى المقر المقدس (٢) . وبعد أن خرجنا لحظة فى الضوء المبهج
أخذنا نفسًا طويلاً من الهواء النقي عبر ياردات قليلة من الأرض غير الممهدة،
ووصلنا إلى مدخل حفرة أخرى . ودخلنا مرة أخرى فى ظلام تحت
الأرض . وأخذنا نكرر هذه التجربة الغريبة للمرتين الثالثة والرابعة .
إنها تشبه رقاد الحمى الذى تقلقه الأحلام المخيفة وتقطعه نوبات الاستيقاظ
المؤقتة .

إن المقابر متشابهة بشكل عام ، ولكن بعضها أطول من البعض
الآخر (٣) وبعضها أعلى من البعض الآخر . ونجد فى بعضها أن الهبوط

(١) يقف كل تمثال من هذه التماثيل الجنائزية فوق قاعدة أو منصة قائما ، واحدى
قدميه متقدمة للأمام كما لو كان سائرا ، بينما تمسك اليد اليمنى بعلامة العنق
رمز الحياة ، وتمسك اليد اليسرى بعكاز . والموقف هنا يشبه موقف التمثال الخشبي الذى
فى متحف بولاق . ومن المناظر التى تستحق المشاهدة أن التماثيل تقف منعزلة وليس
لها مساند خلفية على عكس حالة تلك التماثيل الأخرى المنحوتة فى الحجر أو الجرانيت .
ولا شك فى أن هذه السلسلة الغريبة من التماثيل الجنائزية تمثل هؤلاء الذين كانوا فى
الحقيقة موضوعين فى القبر ، وأن الطقوس الممثلة هنا كانت فى الحقيقة تجرى أمامهم
قبل إغلاق باب المقبرة . وقد أحضر بلزوني أحد هذه التماثيل الخشبية من نفس هذه
المقبرة إلى إنجلترا وهو موجود الآن بالمتحف البريطانى (رقم ٨٥٤ - الصالون الأوسط)
والخشب مصنوع منه هذا التمثال تالف ولذلك فهو موضوع داخل صندوق من الزجاج .
أما اللوحات التى تمثل الطقوس المذكورة عاليه فقد نشرت نسخة منها فى كتاب
روسيليني Mon. del Culto وهى اللوحات من رقم ٦٠ إلى رقم ٦٣ .

(٢) يوجد فى هذه المقبرة نقش مثير للانتباه يمثل غضب رع ونمار الجنس البشرى .
وقد ترجمه مسيو نافيلى فى الجزء الأول من المجلد الرابع من كتابه الذى نشر فى سلسلة
Translations of the Biblical Arch. Society وهذه هى الأسطورة الوحيدة
التي تحمل تشابها عائليا مع سجل فيضان تشالديا (مدينة سوميية فيما بين النهرين)
والفيضان هنا فيضان من الدم البشرى . ويغطي النقش حوايط حجرة صغيرة معروفة
باسم حجرة المقبرة .

(٣) أطول مقبرة فى الوادى هى مقبرة سبتي الأول ويبلغ طولها حتى النقطة التى
تتخلقها عندها الصخور الساقطة ٤٧٠ قدما ، بينما يبلغ عمق انحدارها حوالى ١٨٠ قدما .
ويبلغ طول مقبرة رمسيس الثالث (رقم ١١) ٤٠ قدما ، بينما يبلغ انحدارها ٣١ قدما
فقط . أما بقية المقابر فيتراوح طولها ما بين ٣٥٠ إلى ١٥٠ قدما ، وأقصىها محفورة
إلى مسافة ٦٥ قدما فقط .

متدرج ، بينما هو فى البعض الآخر حاد ومفاجيء • وهناك بعض المعالم المشتركة بينها جميعا مثل الحية الضخمة (١) والجعل (٢) والخفاش (٣) والتمساح (٤) وهذه المعالم واضحة على الجدران بصفة دائمة • وكذلك نرى باستمرار منظر المحاكمة والصورة المعروفة للأجناس البشرية الأربعة • وبعض المقابر تختلف من حيث الرسم التخطيطى والزخرفة (٥) • وأكثرها غرابة مقبرة رمسيس الثالث بالرغم من أنها لا تضارع مقبرة سيتي الأول فى الجمال •

وهنا صممت الزخارف فى معظمها على سطح غير منحوت مغطى بالجص الأبيض • والرسومات فى الغالب غير مختلفة ، أما الألوان فهى متكاملة من حيث الخشونة والبهرجة • فاللون الأصفر متوفر ، واللون الأحمر والأزرق يذكراننا بالكتب المصورة والملونة التى عرفناها فى طفولتنا • ومن الصعب حقا أن نفهم كيف كان منشىء مدينة هابو الذى توفر له أحسن فن مصرى فى حينه ، راضيا بمثل هذه الزخارف الجدارية •

ومازال رمسيس الثالث هو الذى يتمتع بفكرة عظيمة عن دخوله العالم الآخر بهذه الفخامة وحوله خدامه • ونرى فى سلسلة من الحجرات الصغيرة المؤدية الى حجرات كبيرة والتى تفتح على الممر الأول ، رسومات كافة الأثاث المنزلى ، وكافة الألواح والأسلحة وثروة الملك وخزائنه • ونرى فوق حوائط إحدى هذه الحجرات الطباخين والحبازين وهم يجهزون

= وقد زينا مقبرة فى الأساسيات تتجاوز أبعادها أبعاد أية مقبرة أخرى من مقابر الملوك • وهذه المقبرة المذهلة التى تتكون من متاهة ضخمة من القاعات والممرات والسلالم والحفر والحجرات تبلغ مساحتها ٢٢٨٠٩ قدما مربعا • وهى تخص بيت آمون وهو كاهن لا نعرف العصر الذى عاش فيه •

(١) هى الحية أبو ليس وفى لغة قدماء المصريين أباب أى حية الظلام الضخمة التى لا بد وأن ينتصر عليها الإله رع بعد أن يغرب فى الغرب ، وقبل أن يشرق مرة أخرى فى الشرق •

(٢) خيبر الإله الجعران •

(٣) رمز الظلام •

(٤) التمساح يمثل الإله سوبك وهذا الإله يطلق عليه فى إحدى البرديات الموجودة فى متحف بولاق اسم : ابن إيزيس ويصارع أعداء أوزيريس • وهو هنا يصارع الحية لصالح الإله رع •

(٥) ان المقبرة رقم (٣) فى أول وهده صغيرة الى يسارك وأنت تصعد الوادى ، تحمل خراطيش رمسيس الثانى وقد زحفت الكاتبة بقدر ما سمحت حالة المقبرة ، ولكن الممر كان لا يسمح بالرور بعد الثلاثين أو الأربعين ياردة الأولى •

الغداء الملكي . وقد ظهرت فى حجرات أخرى عروش فخمة وسفن مذهبة ذات أشعة ملونة بلونين ، وزهرات ذهبية وفضية ، ومخزون ضخمة من الأسلحة والدروع ، وأكوام من الأخشاب الثمينة وجلود الفهد الأسود ، والفواكه ، والطيور ، والسلال الغريبة ، وكافة هذه الأدوات التى تمثل الترف الشخصى مثلما كان الفرعون يستمتع بها فى قصره . ونرى هنا أيضا القيثارتين الشهيرتين وهما مشوهتان؛ ولكنهما مازالتا تكتسحان الأوتار باللمسة القديمة القوية التى خفقت دائما من ثقل ساعات الحزن التى كان يعيشها الملك . وهاتان الصورتان الحماسيتان اللتان لا شك فى أنهما من الصور النصفية (١) تعوضان فقر بقية الصور .

وما زالت التوابيت الفارغة تحتل أماكنها القديمة (٢) فقد رأينا واحدا منها فى الغرفة رقم (٢) (الخاصة بالملك رمسيس الرابع) وناووسا آخر فى رقم (٩) (رمسيس السادس) . والأول منهما عبارة عن كتلة ضخمة من الجرانيت الأسود ، وهو مقلوب ولكنه سليم تقريبا . أما الثانى فقد هشمه الباحثون عن الكنوز .

كانت معظم مقابر باب الملوك مفتوحة فى أيام البطالمة ، وعلى ذلك فقد كانت جموع الزوار القدامى الذين تركوا كالعادة رسومهم التافه على الجدران ، يزورونها مع غيرها من مناظر وعجائب طيبة مثلما يحدث

(١) كانت هاتان القيثارتان عندما شاهدهما سير ج . ويلكنسون لأول مرة فى حالة جيدة لدرجة أنه ذكر أن أحدهما على الأقل ، ان لم تكن كليهما ، ظاهرة . والقيثارتان عظيما ومطليتان ومزخرفتان بتمائيل نصفية للملك . وأحدى هاتين القيثارتين بها أحد عشر وثرا وفى الأخرى أربعة عشر وثرا .

(٢) تابوت سيسى الأول الذى أحضره بلزوى الى إنجلترا موجود فى متحف سير ج . سون Sir J. Soane وهو منحوت من كتلة واحدة من المرمر الفاخر ومغطى بنقوش هيرغليفية غائرة ، وعدة مئات من الأشكال والأوصاف الكثيرة لمسار الشمس خلال ساعات الليل . انظر مقالا بعنوان : Le sarcophage de Seti 1 بقلم P. Pierre بمجلة Revue Arch. المجلد الحادى والعشرين ، ص ٢٨٥ ، سنة ١٨٧٥ .

أما تابوت رمسيس الثالث فهو موجود بمتحف فيتز ويليام Fitz-William فى كامبردج . أما خطأه فهو موجود ضمن المجموعة المصرية بمتحف اللوفر . انظر : Remarks on the Sarcophagus of Rameses III. بقلم S. Birch الناشر جامعة كامبردج سنة ١٨٧٦ ، وانظر أيضا : Notice Sommaire de Monuments Egyptiens du Louvre. بقلم E. De Rougé ، ص ٥١ ، باريس ، سنة ١٨٧٣ .

الآن ، ولا نعرف بالضبط متى وبفعل من انتهكت حرمة هذه المقابر ؟! ولا نشك في أن الفرس قد سلبوا بعضها ، كما أن المصريين أنفسهم قد سلبوا بعضها الآخر قبل قمييز بوقت طويل . ولم يكن الملوك سالمين في مقابرهم حتى في أيام الرعامسة بالرغم من ترتيب حراسة خاصة تقوم بدوريات دائمة في « الوادى العظيم » . وفي عصر رمسيس التاسع الذى توجد مقبرته هنا تحت رقم (٦) ، يبدو أنه كانت ثمة عصابة منظمة ليس فقط من اللصوص ولكن أيضا من هؤلاء الذين كانوا يتسلمون البضائع المسروقة ويعيشون على الأسلاب التى من هذا النوع . وتبين بردية معاصرة (١) كيف كانت المومياوات الملكية توجد ملقاة فى السرايب وقد سرقت جميع مجوهراتها الذهبية والفضية مع الكنوز التى كانت مصاحبة لها فى مقابرها . وفى موضع آخر نرى ملكا وزوجته الملكة وقد نقلت موميا كل منهما ؛ لكى تحل أربطتها ويجرى العبث بمحتوياتها فى وقت الفراغ . وقد سجلت هذه المعلومات الغربية فى شكل تقرير دونه حاكم طيبة الغربية الذى قام ومعه ضباط وقضاة آخرون بالتفتيش على مقابر « الملوك السابقين » خلال حكم رمسيس الرابع .

ولم تكتشف أية مقبرة سليمة فى وادى باب الملوك . حتى مقبرة سيتى الأول دخلها اللصوص خلسة قبل أن يكتشفها بلزوني بعصور طويلة ، وقد وجد فى داخلها تماثيل من الخشب والصينى وموميا ثور ، ولكنه لم يجد شيئا قيما فيما عدا التابوت الذى كان فارغا ولا شك فى أن

(١) هذه البردية موجودة بالمتحف البريطانى وتسمى بردية أبوت . وقد ترجمها مسيو شاباس ضمن سلسلة *Mélanges Egyptologiques* - الكتاب الثالث ، باريس وشالون سنة ١٨٧٠ - وهى تسجل قائمة بالمقابر الملكية التى قامت بالتفتيش عليها لجنة مصرية فى شهر أثير (فى سنة غير معروفة) خلال حكم رمسيس الرابع وتذكر ضمن المقابر التى زارتها اللجنة « التمثال الجنائزى للملك أن - عا ، الواقع فى شمال معبد أمنحتب الذى فى الشرفة » وقد كسر ظهر التمثال فى المكان الذى كانت اللوحة موضوعة فيه أمام الأثر بحيث كان تمثال الملك يقف فوق اللوحة بينما يقف كلبه الذى يسمى بأحوكا بين ساقيه ، تم فحصه فى هذا اليوم ووجد « سليما » . وكان هذا هو تقرير كاتب هذه البردية منذ ٣٠٠٠ سنة مضت . ويعد ذلك يأتى دور إحدى عجائب الاكتشاف الحديثة . كان مسيو مارييت منذ عدة سنوات يقوم بالحفر فى هذا الجزء من المقبرة التى تسمى الأساسيف التى تقع فى شمال خرائب معبد أمنحتب فاكشف بقايا مقبرة هذا الملك واللوحة المكسورة التى تحمل على صفحاتها وبكامل طولها حفرا بارزا للملك أن - عا ، أو (أنتف - عا) وأمامه ثلاثة كلاب والكلب الرابع بين ساقيه . وكان اسم الكلب بأحوكا محفورا فوق ظهره باللغة الهيروغليفية ، انظر *Tablet of Antefia II* تأليف S. Birch الجزء الأول من المجلد الرابع ، ص ١٧٢ .

الكنهة كانوا متورطين في تدنيس هذه المقدسات التي كانت معاصرة لهم .
لقد كانت هناك أسماء سبعة من الكهنة وثمانية من كتبة الشئون الدينية
ضمن أسماء المتهمين التي أوردتها البردية المشار إليها آنفا وعددهم تسعة
وثلاثون متهما .

وكانت تجارة متعلقات الموتى المسروقة من الأشغال التي تدر إيرادا
وفيرا في طيبة . وقد تأكدنا أن الفراعنة العظام الذين دفنوا في وادي
مقابر الملوك (١) قد ذهبوا الى قصورهم المظلمة المجهزة للحياة الأخرى (٢)

(١) تبين المجوهرات الجميلة التي وجدت على مومياء الملكة عا - حتب ، كيف كان
يجري تزيين جثث الموتى من الأسرة المالكة وكما كانت تدر سرقة مقابرهم من إيرادات .
وقد صورت هذه المجوهرات وطبعت صورها بعد توصيفها حتى صارت معروفة لهؤلاء
الذين لم يشاهدوها في متحف بولاق ، وقد حدث هذا الاكتشاف في ظروف مثيرة للشك
للمومياء (كانت في داخل التابوت الداخلى فقط) قد وجدنا حقاو مارييت في الرمال
على بعد عدة أقدام تحت السطح بالقرب من سفح التل المصروف باسم (خراج أبو النجا) .
ما بين القرنين وسمخل وادى الملوك ، وعندما نتذكر أن التابوت الخارجى لمومياء هذه
الملكة قد وجد سنة ١٨٨١ فى المقبرة المشهورة بالدير البحرى حيث اكتشف العديد من
الملوك والرفات « فى خربة واحدة » وعندما يضاف الى ذلك حقيقة أن القاسم الرسمية
للأمير كامس ومجموعة من الصديقات الجميلة وغيرها من الأشياء ذات القيمة قد وجدت
فى طيات اللقائى الخارجية لهذه الملكة فإنه يبدو لى أن سر دفنها بدون مقبرة يحتاج الى
تفسير بسيط . وأنا مقتنعة بأن مومياء الملكة عا - حوتب ، قد نقلها الى هناك من أعماق
القبر المذكور الأعراب الذين كانوا يعرفون لسنوات طويلة سر هذا المكان المستخدم
لأخذاء الكنوز ، وأنها قد دفنت فى الرمال بشكل مؤقت حتى تحين فرصة مناسبة لنقلها
الى الأقصر . وعلاوة على ذلك فإنه لم توجد أية مجوهرات فوق المومياءات الملكية فى
مقبرة الدير البحرى ، لأنها قد أخذت منذ زمن طويل وبيعت ، ولذلك فإن للمجوهرات التي
وجدت مع مومياء عا - حتب تمثل التصفية الأخيرة وقد جمعت من مجموعة
من توابيت المومياءات الملكية الأخرى . وأظن أن وجود القاسم الرسمية للأمير كامس بينها
لا يدل على أن الأمير كامس كان زوجا للملكة عا - حتب ولكنه كان ضمن الذين نقلت
مومياءاتهم الى هذه المقبرة التاريخية . والدليل العملى على أنه كان زوجها يتمثل فى
حقيقة أن الأساور التي حول راسها ، والتاج الذى فوق رأسها والحلى التي فوق صدرها
كانت منقوشة أو مطعمة بخراطيش هذا الأمير . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .

(٢) هناك رسم غريب موجود فى إحدى البرديات بمتحف اللوفر يمثل أولا الموكب
الجنائزى للمدعو نيب - سبت المتوفى وثانيا داخل التابوت بما فيه المومياء والتقدمات
. وثالثا المقبرة ، جميعها مرسومة وملونة بأسهاب شديد . وفى ضمن الأشياء المرسومة
هنا مشعين وثلاث زهريات وصندوق و امرأة وزجاجة للكل وصندلا وعصا وعلبة مرمم
. وزجاجة عطر وجرة للاغتسال . هذه الأشياء الخاصة بالتجميل (لأنه ربما كان الصندوق
يحتوى على ملابس) قد وضعت فى المقبرة لليوم الذى تستيقظ فيه الجثة حسب المعتقد =

وعندما يفكر الانسان فى المجوهرات والاثاث والزهريات والمراهم والملابس والأسلحة والوثائق الثمينة التى كانت مدفونة فى هذه المقابر مع المومياوات الملكية التى كشفت عنها الحفائر ، نجد أنه من الأمور المثيرة أن تفلت مومياة ملكة واحدة بينما تقع جميع المومياوات الملكية الأخرى فى أيدي اللصوص .

ومن بين جميع المقابر التى فى وادى الملوك اكتشفت مقبرة واحدة تخص الملك رمسيس الثالث وقد كان من أغنى الفرانعة (١) وكان متذوقا ممتازا للفنون لا يشك أحد فى أصالة ذوقه . ولذلك فاننا ربما نتأكد من أن مقبرته كانت مؤثثة بكافة أنواع الأشياء الجميلة والثرينة .

ما الذى ندفعه الآن فى مقابل أن نجد بعض هذه الزهريات الذهبية والفضية المزخرفة ؟ وهذه العروش والأرائك المنجدة مثل الوسائد ، وهذه الأقواس وجعبة السهام ، والقمصان الرجالي المرسومة بعناية فوق جدران الحجرات الجانبية التى فى القاعة الأولى ! وأنا لا أشك فى أن عينات جميع هذه الأشياء كانت مدفونة مع الملك وتركت مجهزة لاستخدامه الشخصى . لقد مات وهو يعتقد أن روحه (الكا) ستستمتع وتستخدم هذه الكنوز ، وأنها ستعود بعد دورات طويلة من الاختبار . وتسكن مرة أخرى فى جسدها المومياة . كان يؤمن بأنه سيقوم مثل القيام من النوم ويحل أربطته ويأكل وينتفش ، ويرتدى صندله وملابسه المعطرة ويمسك عصاه بيده ويمضى فى نور النهار الأبدى ، أيها الروح المسكين الذى يتجول فى الفضاء بدون جسد ! أين هى الآن لحومك المطبوخة ، وملابسك التى تتغير باستمرار ، وعطورك ودهاناتك الثمينة ؟

= الشائع ، ولذلك كان القبر مجهزا مثل مساكن الأحياء . هذه الفقرة مترجمة من كتاب : Catalogue des Manuscrits Egyptiens des Louvre المنشور فى باريس سنة ١٨٧٥ - ص ٨٠ ، وقد ظهر تخطيط مقبرة نيب - سيت أيضا فى هذه البردية كما ظهرت روح المتوفى كطائر له رأس انسان وهو يحوم فوق المومياة . وهناك نصوص فاحش بمتحف بولاق (رقم ٨٤) مزخرف بطريقة مشابهة حيث يبين المومياة فى التابوت وقد زارتها أو اتصلت بها الروح . وعندى فى المجموعة التى امتلكها بردية جنائزية بها رسم زخرفى على وجه واحد يتعرض لنفس الموضوع ، بينما تحمل على الوجه الآخر رسما هندسيا للأثر الذى على مقبرة المتوفى .

(١) كان الملك رمسيسيتوس (رمسيس الثالث) يملك ، كما يقال ، ثروة طائلة من الفضة لدرجة أن أحدا من الأمراء أو الملوك الذين خلقوه ، لم يتفوق عليه أو حتى يتساوى معه فى امتلاك مثل هذه الثروة . انظر : هيردوت - الكتاب الثانى - الفصل ١٢٦ .

أين هو ذلك الجسد الذي كنت تحرص عليه يوما ما • من المستحيل العودة اليه بدون البعث (١) • ان الانسان يتخيل تنهداتك الضعيفة خلال هذه القاعات المهجورة عندما يخلد كل شيء الى السكون وينتشر ضوء القمر في أرجاء الوادي •

كانت حياتنا في طيبة مكونة من التناقضات • كان بزوغ الصباح بين المعابد ، يليه الظهر الذي ينقضي في اقتناص الآثار ، وقضاء النهار في التأمل بين المقابر ثم ينتهي بحفل عشاء على سطح ذهبية بعض الأصدقاء ، أو الاستماع الى الموسيقى في القنصلية البريطانية • وقد نالت السيدة (ل) والكاتبة نصيبهما من اقتناص الآثار ، سواء في الأقصر أو غيرها ، ولكن في الأقصر بشكل أساسي • واستطيع القول بأن حياتنا هنا كانت ملاحقة طويلة لسرّات الصيد • والحقيقة أن اللعبة كانت ممنوعة ولكننا مع ذلك استمتعنا بها لأنها كانت غير قانونية • وربما استمتعنا بها أكثر •

وكانت هناك همسات تدور في ذلك الوقت حول مقبرة كانت قد اكتشفت في الجانب الغربي ، وهي مقبرة بديعة غنية بكافة أنواع الكنوز • وبالطبع فإن أحدا لم يشاهد هذه الكنوز ، ولا أحد يعرف من الذي وجدها ، وكذلك لا يعرف أحد المكان الذي أخفيت فيه • ولكن كان هناك ظل من شك يدور حول بعض الأعراب ، ونظرة ذات معنى نحو بعض الزوار ، ورائحة انتباه يقط نحو موظفي الحكومة الذين تأمروا في هذا الموضوع • وقد أدت هذه الاشاعات شيئا فشيئا الى مقارنات محددة • وقد أقيمت التلميحيات على بردية معينة • لقد أبلغت م • ب • التي تثرثر حول المومياوات أن هناك مومياء فوق سطح ذهبية أمريكية ترسو بشكل برى بالقرب من الكرنك • والآن فإن السيدة (ل) والكاتبة لم ترغب

(١) انه مستحيل من وجهة النظر المصرية « أن لا يضيع الجسم أو يفسد » ، هذا الموضوع محل عناية شديدة ولهذا الغرض كانت العديد من الاحجية والتعاويذ تجهز مع ترقيبات سحرية معينة ، وتقاس بصلوات معينة ، أو حتى تقدمات وأضاحى صغيرة توزع على أجزاء مختلفة من المومياء • لقد كان خلود الجسم من خلال بعض الأساليب السرية ، ضروريا كمسار للروح • وفي فترة تالية أصبح النمو أو التعويض الطبيعي للجسد مطلوبا بنفس قوة التمسك بالحياة أو مسار الروح الى المناطق العليا • انظر : Introduction to the Funeral Ritual to S. Birch : في الجزء الخامس من Bunsen's Egypt - لندن - سنة ١٨٦٧ •

أى منهما فى أن تمتلك شيئا مصرية قديما . أما البردية فإنها تبث الرغبة فى امتلاكها . وفى لحظة معينة أبدينا الرغبة فى مشاهدتها . ومن تلك اللحظة فإن كل واحد من خاظمى المومياوات اعتبرنا فريسته المشروعة . ومع تسللنا من وكر الى آخر شاهدنا جميع البضائع المسروقة فى طيبة . وكان بعض هذه الأشياء غريبا ومثيرا للاهتمام . لقد عرضت علينا فى أحد المنازل زهريتان من البرونز أحيطت كل منهما بمجموعة من النقوش الهيروغليفية المحفورة بشكل رقيق والتي تدور حول الحافة . وكذلك حامل مصنوع من القش الذى تصنع منه السلال وملون بلونين ، ويشبه تماما ذلك الحامل المصور فى الجزء الأول من كتاب سيرج . ويلكنسون (١) عن الأصل الموجود بمتحف برلين . ورأينا الكثير من قطع توابيت المومياوات واللحمت الجدارى والموائد التى كانت فى المقابر . وفى إحدى المرات وجدنا أنفسنا فى حضرة إحدى المومياوات !

لقد كانت جميع هذه المنازل مقابر ، وفى هذا المنزل وضعت المومياة فى فجوة فى نهاية ممر طويل محفور فى الصخر وربما كان هو نفس المكان الذى احتله فى يوم من الأيام المستأجر الأصل . والمومياة تنتمى الى نفس الفترة التى تنتمى اليها تلك التى رأيناها مدفونة تحت اشراف الحاكم . وكانت محاطة بنفس نوعية التغليف الملون بعدة ألوان على أرضية بيضاء . ولن أنسى هذا المنظر الغريب : القبو المظلم والمترب والأعراب بشعا لهم ، والمومياة بلقائفها الصارخة الألوان ترقد على سجادة قديمة تحت أقدامنا .

وفى نفس الوقت حاولنا بدون جدوى أن نرى البردية التى نشأتق اليها . وبعد هبوط الليل طرق أعرابى من لصوص المقابر طريقة أو طرقتين ، وتحدث حديثا غامضا مع الترجمان ، ولكنه لم يصل الى الهدف . لقد عرضها فى البداية مع مومياة لقاء مبلغ ١٠٠ جنيه استرلينى . ولما وجد أننا لن نشترى برديته التى لم نرها ، ولا مومياة مقابل أى ثمن ألح فى المساومة وتردد لمدة يوم أو اثنين محاولا أن يلعب معنا ضد منافس أو منافسين غير معروفين واختفى فى النهاية . ووجدنا أن هؤلاء المنافسين هما م . ب . لقد اشتريا المومياة والبردية معا بمبلغ ضخم ولكنهما لم يستطيعا احتمال رائحة العطر المنبعث من المومياة المصرية القديمة فأغرقا الراحل العزيز عند نهاية الأسبوع ١١٩ . وهناك مباحثون

(١) عنوان الكتاب : The Ancient Egyptians . الجزء الأول . الفصل الثانى ، الصورة رقم ٩٢ ، لندن ، سنة ١٨٧١ .

آخرون أقل حساسية . وعلى كل حال فقد سمعنا عن خمس عشرة مومياء هربت خفية خلال هذا الشتاء من جمارك الاسكندرية بمعرفة وكيل واحد . والحقيقة أن السياح الذين يستخدمون نهر النيل لديهم رغبة متزايدة في حيازة المومياوات . ولسوء الحظ فإن السعر يرتفع مع زيادة الطلب . وبالرغم من أن المنجم لم يستنزف الا أن حيازة مومياء في هذه الأيام ليست فقط ممنوعة ولكنها أيضا رفاهية مكلفة .

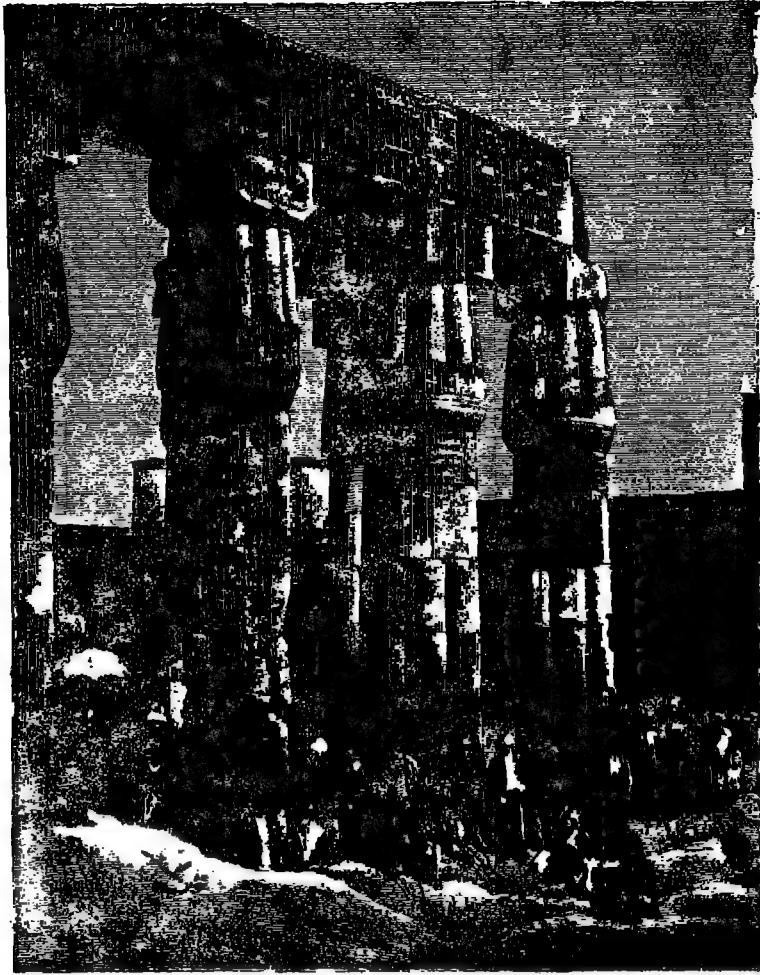
ان قناصل انجلترا وأمريكا وفرنسا بالأقصر من العرب . أما قنصل روسيا فهو قبطي . أما قنصل النمسا فهو أمريكي أو كان أمريكيا . وقد أرانا القنصل الفرنسي المبنى القديم المتداعي الذي يسمى « المنزل الفرنسي » (١) وهو بناء بدائي من سعف النخيل والطوب المجفف في الشمس . وقد أقيم جزء منه مقابل معبد الأقصر والجزء الآخر فوق معبد الأقصر ، الا أنه له مكانته في التاريخ لأنه في سنة ١٨٢٩ أقام به شامبليون وروسيليني معا للقيام بعملهما خلال جزء من فترة إقامتهما الطويلة في طيبة .

ويحكى روسيليني كيف أنهما اعتادا الجلوس أثناء الليل لكي يقتنسا ثمار عمل اليوم . فكان شامبليون ينسخ ما يمكن أن يكون مفيدا لقواعد اللغة المصرية القديمة ، بينما ينسخ روسيليني الكلمات الجديدة . التي تشكل أساس القاموس الذي كان يقوم بتأليفه . وأقام هناك أيضا ضباط البحرية الذين أرسلتهم فرنسا سنة ١٨٣١ لنقل المسلة القائسة الآن في ميدان الكونكور . وهناك أيضا أقامت الليدي داف جوردون خلال مواسم الشتاء الأخيرة من حياتها تكتب هذه الحروف البهيجة التي أسعدت العالم . ولم يكن من السهل الوصول الى الحجرات التي عاشت فيها أولا ،

(١) اكتشفت هذا المنزل الفرنسي الآن ، المنازل العربية الحديثة التي زحمت أطلال معبد الأقصر . وقد رسمت صورة له من نفس البقعة التي يقع فيها ، واحتل هذا الرسم صفحة كاملة في الطبعة الأولى من هذا الكتاب . وبالرغم من أن المنظر قد تغير الآن كلية فإن هذه الصورة قد أعيد طبعها في الطبعة الثانية الحالية بوصفها تذكيرا للماضي وقطعة من التاريخ القريب * وقد استطعت عن طريقها وبأسلوب المقارنة أن أحظى بعطف صاحب جريدة Illustrated London News فقدمت له صورة محفورة لقسم من صف الأعمدة الذي يحيط بالهيكل الذي بنى فوقه المنزل الفرنسي القديم . وإذا لم أكن مخطئة فإن هذه الأعمدة الخاصة تربط الجانب الغربي للقناة الذي يعبره الإنسان الى درجات السلم الذي يؤدي الى حجرات الليدي داف جوردون . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .



المزبل القريسي في الاقص



بهو اساطين المملوك الثالث بالقصر

والشرفة التي نالت فيها هذه المتعة ، وذلك بسبب الحالة السيئة التي وصلت اليها درجات السلالم . ولكننا رأينا الحجرات التي عاشت فيها مؤخرا . وما زالت أريكتها وسجادتها وكرسیها الذي يمكن طيه ، كلها موجودة هناك . وكانت الجدران مزينة ببعض الصور القليلة الرخيصة ، وزوج من الشمعدانات المصنوعة من القصدير ، والحجرات كلها عارية وغير مريحة .

وسألنا عما اذا كانت هذه حالتها عندما كانت السيدة تعيش فيها ، فأجاب القنصل العربي بأنها كان لديها « منضدة وبعض الكتب » ويسدو

أنه هو نفسه كان يعاني من آخر مراحل مرض السل الرئوى فهو يتحدث ويتحرك مثل شخص فى نهاية حياته . لقد صدمنا بوحشة المكان حتى ذهبنا الى الشباك الذى يطل على نهر النيل والسهل الغربى من طيبة فوجدنا أنه يعوض فرش الغرفة ويبدل فقرها الى فخامة .

وكانت الشمس على وشك الغروب ، واستطعنا أن نميز تلال وبوابات مدينة هابو وموقع الرمسيوم . وكانت الصخور الكبيرة التى يعلوها جبل باب الملوك الهرمى الشكل ، تبدو ذات لون قرمزى فى مواجهة السماء ذات اللون الأزرق الذى لاتشوبه شائبة . أما الممر الذى يقود الى وادى مقابر الملوك فقد ظهر مثل ندبة بيضاء ساخنة تدور بطول وجه الصخور . أما النهر فكان يعكس درجات لون السماء اللازوردية . وظننت أننى أستطيع أن أرضى بقضاء العديد من فصول الشتاء فى مثل هذا المسكن غير المريح مادمت سأشاهد دائما هذا المنظر العجيب بجمال نوره ولونه وفضائه وتاريخه وسحره الذى ليست له حدود ، أمام نوافذى (١) . وهناك منزل تاريخى آخر هو ذلك الذى بناه سيرج . ويلكنسون بين مقابر الشيخ عبد القرنه . وقد عاش هنا عندما كان يجمع مادة كتابه *Manners and Customs of the Ancient Egyptians*.

وهنا أيضا أقام ليسيوس ورفاقه الفنانون عندما كانوا يعملون فى البر الغربى . ولم يكن للعلم الا القليل من التأثير على العقول المحلية ، فلا أحد يتذكر الآن شامبليون أو روسيليني أو السيرج . ويلكنسون ، ولكن كل عربى فى الأقصر يحتفظ بذكرى الليدى داف جوردون فى أعماق قلبه ، ويتحدث عنها بالخير .

وكان المنزل الفرنسى قد بنى فوق سطح الهيكل الذى فى الطرف الجنوبي من المعبد . أما فى الطرف الشمالى فقد بنى منزل مصطفى أغا أكرم وأرق القناصل الانجليز ، بين صف الأساطين الضخمة المنحوتة من الحجر الرملى . وكان مصطفى أغا قد سافر الى أوروبا وهو يتكلم اللغات الايطالية والانجليزية والفرنسية بطلاقة . وكان ابنه الأكبر حاكما للأقصر ، أما الأصغر « أحمد الصغير » الذى سعدت الليدى جوردون بتعليمه ، فقد قضى عامين فى انجلترا ضيفا على لورد دى Lord D . وأصبح وجيها انجليزيا مثقفا .

كانت القنصلية الانجليزية تلعب الدور القيادى فى جولة الترفيه التى تدور حول الأقصر . وكان مصطفى أغا يقوم بالترفيه عن جميع الذهبيات الانجليزية التى كانت تسعده . وقد دعينا الى العديد من

(١) منح محمد على هذا المنزل للفرنسيين وظل ملكا لهم حتى هدمه مسيو مارييت منذ ثلاث سنوات (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .

الحفلات فى القنصلية وتمشيينا مع مصطفى أغا فى منزله الذى فى الضاحية فى المساء السابق على يوم رحيلنا من الأقصر .

وكانت الساعة المحددة هى الثامنة والنصف . فوصلنا وسط نباح الكلاب الكثير ، واستقبلنا مضيفنا فى صالة ضخمة واسعة محاطة بديوان من الأرائك . وانتظرنا هنا حتى الاعلان عن العشاء ، وحينئذ اقتادونا الى غرفة مؤدية الى غرفة أخرى أكبر منها حيث وجدنا فى انتظارنا اثنين من الخدم المعممين الحفاة كان أحدهما يحمل حوضا وبريقا من النحاس بينما حمل الآخر ملء ذراعه من المناشف التركية .

وعندئذ تقدم كل منا بدوره ورفع يديه فوق الحوض لكى يصب عليهما الماء وتسلم منشفة خاصة به حيث طلب الى كل منا أن يحتفظ بمنشفته لكى يستخدمها على المائدة . وكانت الغرفة تفتح على حجرة طعام رائعة الاضاءة ذات حجم متوسط ، فى وسطها منضدة نحاسية مستديرة ذات حافة عمودية محفورة مثل صينية ضخمة . وقد وضع لكل فرد كرسى وكنتلة ضخمة من الخبز وملعقة خشبية وقدرحان وباقى من الأزهار . ولم توضع أطباق أو سكاكين أو شوك .

وكانت الحفلة مكونة من الزوجين السعيدين ومدير مكتب تلفراف الأقصر والسيدة (ل) والكاتبة وأحمد ومضيفنا . وقال مصطفى أغا وهو يرشدنا الى أماكن جلوسنا : « كلنا عرب فى هذه الليلة لأننا سنشرب ماء النيل ونأكل بأصابعنا » .

وشربنا ماء النيل ، وآكلنا بأصابعنا للمرة الأولى فى حياتنا . والحقيقة أننا اكتشفنا فائدة هذه الأصابع . وكان الغذاء فاخرا ، وأقول - مع احترامى لرئيس طهاتنا وكافة رؤساء طهاة أصدقائنا العديدين على نهر النيل - أن ذلك العشاء كان أحسن عشاء تناولته خارج أوروبا . كانت جميع الأصناف ساخنة وأخذ السفرجية يقدمونها بسرعة وهم يرتدون ملابس نثر. الاعجاب . كما كانت نوعية الأصناف من أفضل النوعيات . والبك قائمة بالأصناف التى قدمت لنا بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٧٤ :

شوربة تركية بيضاء - سمك مقلى - وكانت الأطباق الرئيسية هى : حمام مسلوق - سبانخ وأرز - والمشويات : ضلعة مشوية - ثم طبق رئيسى مكون من كباب من لحم الضأن - وكبة من كلالى الضأن - وأرز بالطماطم - وكفتة . ثم أدخلت مشويات جديدة عبارة عن ديك رومى بصلصة خيار . ثم قدم طبق رئيسى عبارة عن أرز مفلفل بالزبدة والملح والقلفل . وقدمت الحلوى فكانت مكونة من مشمش محفوظ ، وكنافة ، وأرز باللبن ، وجيلي باللون الممشى .

وقد وضعت هذه الأطباق في وسط المائدة واحدا بعد الآخر • وكان يتم تغييرها بسرعة • وقد غمس كل منا ملعته في الشوربة ثم جذب قطع السمك أو لحم الضأن بأصابعه • ولما لم تكن هناك أطباق فقد استخدمنا أرغفة الخبز كأطباق • وأخذ مصطفى كمضيف يقط الخبز بين الحين والآخر ثم يعطيه للضيوف فردا فردا • ان تناول الطعام بالأصابع في مأدبة فخمة ، والانحناء مع هذه الأصابع بمهارة ، علم له أصول • ولكنني لا أظن أن ذلك سينسني الطريقة العجيبة التي هجم بها مضيفنا على الديك الرومي وظفر به • وكان الديك عبارة عن كتلة صلبة تزن حوالي عشرين رطلا ومحمرا تحميرا كاملا • لقد قام مضيفنا نصف قيام وشمر أسورة القميص ووازن معصمه ثم دفع أصبعيه السبابة والإبهام في عمق صدر الديك واستخرج شريحة طويلة صلبة الألياف ينبعث منها الدخان ثم أودعها في طبق الكاتبة ، ثم أدار الديك حول المائدة ووسط ضحكات الحاضرين • وقام كل منهم بمعاقبته كل في دوره • أما طبق الأرز المتبل الذي قدم بعد ذلك فهو دائما الطبق الأخير الذي يقدم في العشاء المصري أو التركي • وبعد ذلك تم تغيير ملاءتنا ، ووضعت الحلوى فوق المائدة • وكانت المشروبات خلال كل ذلك لا تتعدى الماء القراح وشوربة الأرز والليمونادة • وأخذ بعض الموسيقيين الوطنيين يعزفون في غرفة الاسنراحة أثناء تناول الطعام • وعندما نهضنا عن المائدة غسلنا أيدينا بنفس الطريقة السابقة •

وعندنا الآن الى القاعة الكبرى • ولما كنا غير مدربين على فن وأسرار جلسة القرفصاء فقد تكورنا بقدر مانستطيع فوق الأرائك • وقد أرشد مصطفى أغا الكاتبة الى المقعد الذي في الركن عند الطرف العلوى للحجرة حيث قال ان أميرة ويلز قد جلست فيه عندما تناولت سموها العشاء مع سمو أمير ويلز عنده في العام الماضي • وبعد ذلك قدمت لنا الغلايين والقهوة • أخذ الرجال يدخنون الجوزة والسجائر ، بينما قدمت لنا شيشة ضخمة بأنابيب طويلة ليئة ، ومباسم عنبرية اللون • وتناولت السيدة (ل) غليون الأميرة وأخذت تدخن التبغ بمهارة طوال المساء ، ورويدا رويدا وصل المحافظ ثم قاضي الأقصر ثم القنصل البروسي وابنه ثم ثلاثة أو أربعة من التجار الذين يرتدون الثياب الحريرية والعمامة الكبيرة • وفي نفس الوقت أخلت الفرقة الموسيقية المكونة من عازفين للكمان وعازف للرق وطبلة ، تعزف على فترات متقطعة عند الطرف البعيد من القاعة :

وأخذت الغلايين والقهوة والليمونادة تمر بصفة مستمرة • واستمرت
التسلية بالطريقة التي تجرى بها حسب عادة مواطنى الأقصر ، مع
استعراضات الراقصات •

لقد شاهدنا تلك الراقصات فى حفلين موسيقيين سابقين وأعجبنا بهن
فى المرة الثالثة كما فى الأولى • كن يرتدين سراويل تركية فضفاضة ،
وعباءات مفتوحة من الطراز المبهرج ، وكمية كبيرة من المجوهرات • وكانت
الراقصة الأولى امرأة لطيفة وجميلة الى حد ما • ولكن كانت ضمن الفرقة
راقصة نوبية سميقة الشفتين بحيث لا نكتشف فيها أية جاذبية • ان
استعراضات الراقصات غير رشيقة وكلها احياءات • وتحتاج منا الى اعادة
وصفها هنا • لقد رأيناهن مرة واحدة وهن يرقصن رقصا طبيعيا ،
ثم أخذن يتمايلن قليلا الى الشمال والى اليمين وهن يطرقن الصاجات
ويدرن ثم يدرن ويبالغن فى الانحناء بطول الغرفة بين حين وآخر • وقد
قيل لنا ان هذا الرقص غير معروف الأصل • وكن يغنين بين آونة وأخرى •
ولكن أصواتهن كانت غليظة واللحن نشاز •

وكان ضمن الفرقة دائما عازف من المواطنين سمعنا عنه عدة مرات
ولم نكل من الاستمتاع بمهارته • وكان هو قائد هذه الفرقة الصغيرة وعو
رجل عجوز يعزف على الربابة • ولا نستطيع اخفاء أنه لا توجد آلة أخرى
ليس لها دور فى المستقبل أكثر من الربابة • الا أن المواطن الكهل جعلها
تصدر موسيقى رائعة الجمال • كانت نغماته الصولو تتكون من أصوات
ناحية وتغييرات مرتجلة مطرزة بجمل موسيقية صعبة ، وأحيانا متكررة
أكثر من اللازم • وكان يبدأ دائما برزاة ثم يسخن تدريجيا حتى يبدو
فى النهاية وقد نسي كل شيء فيما عدا سعادته بما يقدمه من العزف •
ويستطيع الانسان فى تلك اللحظات أن يرى أنه كان ينسج بعض
الرومانسية فى أفكاره ثم يترجمها الى أصوات • وبينما كانت الأوتار تنبض
تحت أصابعه ، كان يغمره الحماس • وفى أكثر من مرة وهو يمطرنا
بنغماته الحادة كان يصف لوحة العاطفة المتأججة ، وكنت حينذاك أرى
وجهه يتغير ويده ترتعش •

وبالرغم من أننا سمعناه مرات كثيرة ، ودعواناه أكثر من مرة ضمن
أصدقائنا المدعوين للغداء الا أننا آسف لأننى أنسى اسم هذا الفنان العظيم
الصديق • وعموما ، فانه يلقي الترحيب فى طيبة ويستدعى كثيرا الى
أرغنت واسنا وقنسا وجرجا وغيرها من المدن الكبيرة لكى يعزف فى
الحفلات الخاصة •

وعندما كنا فى الأقصر ذهبنا فى صباح أحد أيام الأحد الى الكنيسة القبطية وهى مبنى كبير فى الطرف الشمالى من القرية ، وهنا تجد أن الكنيسة والمدارس ومقر الأسقف مجتمعة تحت سقف واحد ، ومحاطة بفناء ، ذلك لأن الأقصر بها أحد الكراسى الأسقفية الاثنى عشر التى تنقسم اليها كنيسة مصر القبطية .

أما الكنيسة التى أعيد بناؤها فى السنوات الأخيرة فهى مبنية من الطوب الأحمر ، وبها محراب صغير (شرقية) جهة الشرق . وفى الطرف الغربى ردهة للسيدات منفصلة خلف ستار . أما الجناح الأوسط فربما بلغ عرضه ثلاثين قدما . أما الأجنحة الجانبية اذا صح إطلاق هذه التسمية عليها فهى مزدحمة بأعمدة حجرية كثيرة تسند عقودا دائرية . وقد أخذت هذه الأعمدة من الكرنك وقدمها الحديد هدية للكنيسة . وهذه الأساطين ذات تيجان تمثل براعم اللوتس ، ويبلغ ارتفاعها حوالى خمسة عشر قدما . ويوجد فى الطرف العلوى من الصحن أمام المحراب بحوالى ثمانية عشر أو عشرين قدما ، حجاب رائع الجمال مرصع بأخشاب الأرز والأبنوس وأخشاب الأثاث والعاج وعرق اللؤلؤ ، ويعتبر هذا الحجاب مفخرة للكنيسة . ومن خلال الفتحة التى فى الوسط ينظر الانسان مباشرة الى المحراب الصغير (الهيكل) ذى السقف الذى يشبه عربة البضاعة والذى يحتوى على مائدة صغيرة وقنديل معلق ، وهو مظلم مثل هيكل أحد المعابد المصرية القديمة . أما الحامل الذى يوضع فوقه الكتب التى تقرأ فى الكنيسة (المنجلىة) فهو يشبه كرسي مكتب بلا مساند ويواجه جمهور المصلين . أما خلف الحجاب فيوجد كرسي الأسقف وقد بنيت معظم الكنائس القبطية حسب هذا التصميم الذى يماثل تقريبا تخطيط الكاتدرائية الأولى للقديس بطرس فى روما ، ولكنها تختلف جذريا فى عدد المحاريب حيث يصل عددها الى خمسة محاريب فى بعض الكنائس . أما الردهة فتحتوى على حوض يسمى حوض الفطاس حيث يغطس الرجال أثناء الاحتفال بعيد الفطاس تذكارا لعماد السيد المسيح . وقد اقتادنا تادرس الصغير ابن القنصل البروسى الى الكنيسة فدخلناها فى حوالى الساعة الحادية عشرة وشاهدنا نهاية القداس الذى كان يدور حينذاك منذ بداية النهار . وكانت الردهة مزدحمة بالنساء والأطفال بينما ازدحمت الأجنحة الجانبية بالرجال من النوعية الفقيرة . وقد تجمع عدد قليل من الأقباط الذين ارتدوا الملابس الفاخرة بالقرب من الحجاب وأخذوا يستمعون الى شماس يلبس رداء أسود كان يقف على المنجلىة ويديه اليسرى شعبة مضادة . وكان الكاهن الذى يلبس الملابس البيضاء المطرزة بصليب

مالطى أحمر على الصدر والظهر يجثو على عقبيه عند مدخل الصحن .
أما الأسقف وكان يرتدى ملابس سوداء بما فيها العمامة فقد كان يجلس متجها بظهره جهة الجمهور .

وعندما دخلنا اتجهت إلينا جميع الأنظار ، وتوقف القارىء وانتصب الكاهن وحتى الأسقف نظر حوله . وفى الحال حضر اثنان من الشماسية خدام الهيكل وقد حمل كل منهما كرسيين من الخيزران ، وأبعدا جميع الذين كانوا يقفون بالقرب منا ، ثم أجلسانا فى صف عبر وسط الكنيسة . وبعد انتهاء هذه المقاطعة استؤنفت القراءة .

وقد لاحظنا الآن أن كل كلمة تقرا بالقبطية كانت تترجم شفها إلى العربية بمعرفة شاب يرتدى رداء كهنوتيا يقف أمام الحجاب فى مواجهة الجمهور . ولم يكن فى يده كتاب ولكنه استمر فى الترجمة بطلاقة متتبعا صوت القارىء ، وقد قيل لنا أن ذلك لا يحدث الا عند قراءة الانجيل والصلاة الربانية . أما باقى القداس فانه يستمر بدون ترجمة ، وإن اللغة القبطية بوصفها لغة غير مستعملة فى الحياة اليومية ، غير مفهومة لدى جماهير الناس .

وبعد انتهاء قراءة الانجيل تقهر الشماس ثم تقسم الكاهن وأعطى إشارة لتلاميذ المدرسة الذين حضروا جريا من كافة أنحاء الكنيسة وانضموا إلى المرتلين فى موقع الانشاد بصوت مرتفع . وقد تهيأ لنا أن هذه الترتيمة هى خاتمة الجزء الأول من القداس .

وكان الجزء الثانى هو خاتمة صلاة القداس . وتقسم الكاهن إلى باب الهيكل ونظر نحو الجمهور ، وبسط يديه ثم اعتلى عتبة المجراب وبدأ فى ترديد ما يبدو أنه ابتهالات ثم كشف عن القرايين المقدسة التى كانت حتى الآن مغطاة بمنديلين زرقاوين من القطن ، واستدار وهز المنديلين أمام الجمهور ، ثم قدس الخبز والخمر ورفع قربانة الحمل أمام الجمهور ، وبدأ بمناولته نفسه أولا من الخبز والخمر . . . وكان هناك جرس صغير يلقى أثناء التكريس ثم مرة أخرى أثناء توزيع القربان . وفى نفس الوقت وقف الناس فى وقار وقد أحلوا رؤوسهم ، ولكن أحدا لم يركع أثناء الخدمة . وبعد ذلك غسل الكاهن القائم بالخدمة يديه فى حوض نحاسى . وجاء الشماس الذى هو نفسه ناظر المدرسة ودار جول الكنيسة حاملا طبقا به قطع صغيرة من القربان ثم وزعها على جميع الحاضرين ، وتبعه أحد شماسية الخدمة فى الهيكل معه طبق جمع فيه العطاء من الحاضرين .

وحسبنا الآن أن الخدمة قد انتهت ولكن بقي أربعة أطفال صغار ذوى لون بنى معمدين وفى انتظار البركة الحتمية ، وكان هؤلاء الأقباط الأربعة الصغار قد حملوا الى الكنيسة بمعرفة أربعة من شمامسة الهيكل وتبعهم أربعة آباء قلقين . وغمغم الكاهن بصلاة قصيرة للبركة ورسم الأطفال بالصليب الذى غمسه فى ماء الحوض الذى غسل فيه يديه من قبل ثم شرب الماء ومسح الحوض بقطعة من القسربان ، وأكل القربان ، وصرف الأربعة المعمدين الصغار بعد أن باركهم فى سرعة (*) .

وأخيرا ، فان الأسقف الذى لم يشترك فى خدمة القداس ولا فى التناول ، نزل عن كرسية ووقف أمام المذبح لكى يبارك الجمهور . وهنا اصطف جميع الرجال والأطفال فى صف واحد بين الحجاب والمحراب فى جانب واحد ، ثم انصرفوا من الجانب الآخر بعد أن وضع الأسقف يده على رأس كل واحد منهم أثناء مروره . وعندما كانوا يتكاثرون كان الأسقف يصفق بيديه متعجلا ويقوم ناظر المدرسة بالإشارة اليهم طالبا سرعة المرور . وبعد انتهاء مرور الجميع (تلاحظ أن النساء والبنات قد مررن ولم ينلن نصيبا من هذه البركة) خلع الكاهن ملابس الخدمة البيضاء ووضعا فى كومة فوق المذبح . وقام الشماس بتوزيع سلة من القربان على الفقراء ، وسار الأسقف نحو آخر الصحن ، وكان أثناء سيره يأكل قربانة ويوزع قطعا منها هنا وهناك على الأقباط الذين كانوا يرتدون ملابس فاخرة . وهكذا انتهت هذه الخدمة المثيرة والغريبة التى وصفتها منذ قليل للسبب الذى تمثله ربما مع بعض التغيير ، وهو أنها أقدم عبادة مسيحية تجرى ممارستها فى مصر منذ فجر التاريخ (١) .

(*) قيمت الكاتبة هنا لمحات غير دقيقة وأوصافا للكنيسة وصلوات القداس بها بعض التجاوزات ويبدو أن أحدا لم يشرح لها - (المتوجم) .

(١) الأقباط هم المسيحيون من مذهب اليعاقبة الذى ينادى بالطبيعة الواحدة للمسيح . وقد رفض الغربيون مذهبهم هذا وأدانوه فى مجمع خلقدونية الذى انعقد فى عصر الإمبراطور قسطنطين . وقد أطلقت عليهم تسمية يعاقبة التى يشتهرون بها نسبة الى يعقوب الأندلسى وهو سوري كان يعتبر المبشر الرئيسى بمفاهيم الطبيعة الواحدة أما نظام الكهنوت فى الكنيسة القبطية فيتكون من البابا ، ثم رئيس أساقفة اثيوبيا والاساقفة والقمامسة والقسوس والشمامسة والرهبان . ومازال مذهب اليعاقبة هو العقيدة التى يتبعها الاثيوبيون ، انظر كتاب E. W. Lane وعنوانه : The Modern Egyptians - الملحق رقم ١ ص ٥٢١ ، لندن ، سنة ١٨٦٠ .

تجلىق للمترجم : تشير الكاتبة الى الأقباط فى هذه الحاشية بل وفى جميع المواضع التى تخصهم فى هذا الكتاب ، باعتبارهم خارجين على الدين وهو مذهب الطبيعيتين الذى

وقبل ذهابنا طلبنا الاذن بالنظر فى الكتب التى كانت تقرأ أثناء الخدمة ، وكانت كلها قديمة ومستهلكة وكان أفضلها حالا هو الكتاب الذى يجمع أسفار العهد الجديد ، وكان مكتوبا على الرق بالحبر الأحمر والأسود ، ولاشك أن القبطى مثل اليونانى محافظ ولا يقبل الابتكار . ولفتت انتباهنا بعض الحروف القبطية لأنها تشبه الحروف الهيروغليفية المعروفة (*) .

وعندما كنا نفحص الكتب أرسل الأسقف خادمه يدعونا لزيارته . وتبعنا الرجل فصعدنا معه درجات سلم خشبى خارجى يقع فى أحد أركان الفناء . وأدخلنا الى حجرة كبيرة يقع جزء منها فوق سطح الكنيسة . وهنا وجدنا الأسقف . كان وسيما وممتلئ الجسم قليلا ووقورا وله عينان ناعمتان بلون بنى ، ولحية ذات لون رمادى تقريبا . وقد جلس متربعاً على أريكة وهو يدخن نارجيلته . وقد وضعت قارورتان أو ثلاثة من الصينى الشرقى باللونين الأزرق والأبيض فوق منضدة فى وسط الحجرة . وكانت النوافذ الكبيرة التى بدون ستائر تطل على الكرنك . وأخذت المصافير الدورية تدخل وتخرج منها مع هبوب الرياح .

وقد استقبلنا الأسقف بحفاوة ، وبدأ اللقاء كالعادة بتقديم التبغ والقهوة . وقد تضمنت المحادثة التى تلت ذلك الأسئلة التى كنا نقوم بتوجيهها والاجابات التى كان يقدمها من جانبه . لقد سألنا عن حدود ايبارشيتته وعرفنا أنها تمتد من أسوان فى الجنوب حتى قنا فى الشمال . وقال ان ايرادها يحصل بكامله من أوقاف الأراضى الزراعية ، وقدر عدد

= نادى به الغربيون فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥٠ م . ونوضح هنا أن الطبيعتين هما الالهية (اللاهوت) . والانسانية (الناسوت) منفصلتين فى شخص المسيح الواحد بينما الطبيعتان متحدتان فى طبيعة واحدة فى شخص المسيح الواحد لدى اليعاقبة ، لأنه لا انقسام فى المسيح الاله المتانس . وقد ترتب على النزاع الذى جرى فى مجمع خلقيدونية انفصال الغربيين عن الكنيسة الواحدة وظهور مذهب الكاثوليك الذى خرج منه فى بداية العصور الحديثة كافة المذاهب البروتستانتية ، بينما ظلت الكنائس الشرقية على الايمان الخاص بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو الايمان الاورثوذكسى وظلت مصر ممثلة فى كنيسة الاسكندرية القبطية الارثوذكسية تقود العالم المسيحى حسب الفكر المسلم من رسل المسيح وتبعتها فى ذلك بقية الكنائس الارثوذكسية فى الشرق ومن بقى عليه فى الغرب - (المترجم) .

(*) الحروف القبطية ما هى الا حروف يونانية مضاف اليها ثمانية حروف ديموطيقية ... (المراجع) .

الانقباط في الأقصر بألفي قبلي وهي نسبة تبلغ ثلث عدد السكان . وقد بنيت الكنيسة وتمت زخرفتها في عهد سلفه ، أما هو فقد جلس على كرسى الأسقفية منذ فترة لا تتجاوز أربع سنوات ثم تحدثنا عن الخدمة التي شأهدناها منذ لحظة وعن الكتب التي أطلعنا عليها . وأطلعته على كتاب النصول الخاص بي ففحصه باستغراب شديد . فشرحت له الاختلافات المدونة في المخطوطات المكتوبة بالحبر الأسود والعناوين المكتوبة بالحبر الأحمر ، كما أشرت إلى الأجزاء التي تؤدي في شكل ترانيم ، ولكنه كان أكثر اهتماما بالغلاف الخارجي عنه بمضمون الكتاب ، ونقر عليه مرة أو مرتين لكي يصرف ما إذا كان مصنوعا من الجلد أو الخشب أما عن الأركان المطلية بماء الذهب والابزيم فلم يشك في أنها جميعها مصنوعة من الذهب .

ثم تحول الموضوع للحديث عن اللغة القبطية فسأله الرجل الكسول عما إذا كان يعتقد أن هذه اللغة هي نفسها لغة المصريين القدماء . فأجاب عن ذلك قائلا :

« لا شك في ذلك . وماذا يمكن أن تكون غير ذلك ؟ » .

وهنا ذكر الرجل الكسول أنه بعد أن أطلع على بعض كتب الكنيسة فإن اللغة القبطية تبدو له بوصفها شكلا محرفا من أشكال اللغة اليونانية البيزنطية . فهز الأسقف رأسه وقال :

« ان اللغة القبطية لغة منفصلة مستقلة . وقد أضيفت إلى الأبجدية القبطية من اليونانية ثمانية حروف عند دخول المسيحية إلى مصر . ومنذئذ دخلت العديد من الكلمات اليونانية إلى مفردات اللغة القبطية ، ولكن ظلت اللغة القبطية كما هي ، نقية وخالصة وليس بينها وبين اللغة اليونانية أية صلة جذرية » (١) .

(١) كان الأسقف محقا في معظم حديثه فاللغة القبطية هي اللغة المصرية القديمة (بمعنى أنها اللغة المصرية المتأخرة والمحرفة) وهي مكتوبة بالحروف اليونانية بدلا من الهيروغليفية وذلك لأن التحرر من الكتابة المصرية القديمة كان ضمن أولويات أغراض الكنيسة المصرية المبكرة في مصر بعد التحرر من صوم وتماميل الآلهة القديمة . ولما كان من الصعب اقتلاع جذور وإبادة لغة أمة عظيمة فقد اهتم الآباء المسيحيون بأن يلبسوها ثوبا جديدا بحيث تختلئ منها كافة الرموز القديمة ويتم نسيانها . وفي عصر القديس كليمنت الاسكندري (٢١١ ميلادية) بطل استخدام أسلوب الكتابة الهيروغليفية ولم =

وكان هذا أطول حديث استمعنا اليه . وقد أدل به اليأس مع بعض التأكيد .

ثم سأله عما اذا كانت اللغة القبطية لغة ميتة (اى غير مستخدمة فى شئون الحياة اليومية) فأجاب بأن العديد من الكلمات القبطية متسـ أسماء الشهور وبعض الاعياد . ما زالت مستخدمة حتى اليوم . ولم يكن ذلك هو ما أقصده بالضبط ولذلك أعدت صياغة السؤال وسأته عما اذا كانت هناك بعض عبارات من القبطية مازالت موصودة بين الفلاحين فتوقف برهة قبل أن يجيب قائلا : « هذا سؤال يصعب الرد عليه بشكل دقيق ولكننى أظن أنك قد تجددين فى بعض القرى البعيدة رجلا عجوزا يعيش هنا أو هناك يستطيع أن يفهم اللغة القبطية الى حد ما » .

= يضع سر قراءة الهيروغليفية حتى زمن ستوط الامبراطورية الرومانية الشرقية وقد تحدثنا فى احدى حواشى هذا الكتاب من قبل عن الكيفية التى اكتشف بها شامبلين مفتاح اللغة الهيروغليفية . ويقول شامبلين عن العلاقة بين اللغة القبطية واللغة المصرية القديمة :

« La langue égyptienne antique ne différait en rien de la langue appelée vulgairement copte ou Copte ... Les mots égyptien écrits en caractères hieroglyphiques sur les monuments les plus anciens de Thèbes, et en caractères Grecs dans les livres coptes, ne diffèrent en general que par l'absence de certaines voyelles médiales omises, selon la méthode orientale, dans l'orthographe primitive. » Grammaire Egyptienne, p. 18.

وبالرغم من أن الأسقف كان مصيبا تماما فى قوله بأن اللغة القبطية، واللغة المصرية القديمة هما لغة واحدة ، وأن القبطية كانت لغة مستقلة ، وليس لها علاقة باللغة اليونانية إلا أنه مخطئ تماما فى هذا الجزء الثانى من التوضيح وهو المتعلق بالحروف الأبجدية فقد ذكر أن هناك ثمانية حروف من الأبجدية اليونانية أضيفت الى الأبجدية القبطية عند دخول المسيحية الى مصر فلم تكن هناك لغة قبطية سابقة على هذا التاريخ فالأبجدية القبطية هى الأبجدية اليونانية كما فرضها على مصر أباء الكنيسة اليونانية المبكرة ، وأن هذه الأبجدية كانت غير كافية لنقل جميع أصوات اللسان المصرى لذلك تمت استعارة ثمانية حروف من اللغة الديموطيقية لاستكمال النقص .

تعليق من المترجم : كانت اللغة اليونانية هى لغة الأدب والعلوم وظلت محتفظة بمكانتها هذه حتى فى العصر الرومانى ، وقد كتب أباء الكنيسة القبطية الأوائل أمثال القديسين كليمنت وأوريجانوس وإثناسيوس الرسولى مؤلفاتهم باليونانية التى كانت مستخدمة الى جانب اللغة القبطية التى استعار الأقباط لكتابتها الأبجدية اليونانية التى كانت معروفة ومستخدمة فى مصر منذ فتح الاسكندر الأكبر وقيام أسرة البطالة الذين يعودون الى أصل يونانى مع إضافة الحروف الثمانية من الديموطيقية ، وهى حقيقة لا يمكن أن يخطئ فيها الأسقف . ولا شك أن الأقباط فعلوا ذلك بحض ارادتهم ولم يفرضها عليهم احد لأنهم كانوا على دراية باليونانية الى جانب لغتهم المصرية - (المترجم) .

وأظن أن هذه اجابة مهمة على سؤال مهم .

وبعد ان جلسنا حوالى نصف الساعة ، وقفنا للرحيل ، فشد الاسقف على ايدينا فردا فردا ، وقد صحننا الى قمة السلم وهو امر كنا نحاول منعه .

وكانت هذه مقابلة سارة ، فقد قيل لنا ان الاقباط يتصرفون بخشونة وانهم شديديو التعصب ، لدرجة أنهم لا يكرهون الشخص المسلم بقدر كراهيتهم لاتباع الطوائف المسيحية .

وبالرغم مما نعرفه عن ذلك الا أننا لم نر شيئاً منه ، بل على العكس وجدنا سلوكيات عديدة تنم عن الأدب من الاقباط الذين حضرنا معهم خدمة القداس . وأظن أن أى سائح يأتى الى مصر لا يمكن أن يتجاهل حضور القداس فى احدى الكنائس القبطية ، لان الكنيسة القبطية الآن هى المكان الوحيد الذى يستطيع الانسان أن يستمتع فيه الى آخر تعبيرات ذلك الجنس البعيد الذى جعلنا نخاف مقابره على معرفة تامة به .

اننا نعرف أنه قد دخلت تغييرات كثيرة على هذه اللغة منذ كانت هى اللغة التى تحدث بها رمسيس الأكبر وكتب بها بنتاؤور . ونصرف أن أقباط اليوم يشبهون المصريين الذين عاشوا فى عصور الفراعنة الى حد ما ، ربما بمثل التشابه الموجود بين الانجليز الذين عاشوا عصر ماركولى وهؤلاء الذين عاشوا عصر تشوسر . ولكن اللسان المصرى القديم غير مستخدم حالياً ، ولذلك كنا مشتاقين لسماع تلك الأصداء الأخيرة لهذه اللغة القديمة عندما كان يتلوها أحفاد هؤلاء المصريين الذين لا يشك أحد فى انتسابهم اليهم . وأتوقع فى خلال الخمسين عاما القادمة أو نحو ذلك أن تحل اللغة العربية محل القبطية فى تلاوة قداسات هذه الكنيسة . وحينذاك سيضيع تقليد النطق بها . وقد قيل ان الاقباط أنفسهم أخذوا يفحصون العقيدة السائدة . وربما يحدث فى الوقت الذى يقوم فيه أحفادنا بالاحتفال بمرور ألفى عام على ظهور المسيحية أن يكون الاقباط واللغة القبطية قد اندثرا معا من مصر (*) .

(*) لو كان العمر قد امتد بالكتابة الى اليوم لشاهدت الامتداد الحالى للاقباط وكنيستهم الارثوذكسية ولغتهم القبطية الى بلاد اسيا وأفريقيا وبلاد المهجر فى الأمريكتين وأستراليا وأوروبا . ولابد أن الاقباط فى انجلترا كانوا سيوجهون لها الدعوة لحضور مناسبة الاحتفال بمرور ألفى عام على ظهور المسيحية بالكنيسة القبطية الموجودة حالياً فى لندن - (المترجم) .

وبعد ذلك بيوم أو يومين انحدرتنا الى الكرنك ، وبقينا هناك حتى.
نهاية الأسبوع • وفى الأحد التالى استأنفنا رحلتنا الى الشمال •

واذا لم يكن عالم الأدب مشروطا وأن الكتاب الحالى غير محدود.
بعنصرى الزمن والمساحة ، فقد كنت أرحب بإضافة فصل آخر هنا عن.
الكرنك • ولكن الكتابة عن الكرنك بانصاف ، ستحتاج ليس فقط الى
فصل بل الى مجلد • ولذلك فما دمنا قد ذكرنا شيئا عن أول انطباع تركه
فيما هذا التيه من العجائب فاننى لن أضيف شيئا آخر •

الفصل الثاني والعشرون

أبيدوس والقاهرة

ومرت الأسابيع الأخيرة من رحلتنا النيلية مثل يوم صيف طويل يقود الى الكسل ، فقد أصبحت الأحداث قليلة ، وقد تفوقنا على زملائنا السائحين من حيث طول الفترة التي قضيناها . وحتى ركاب الذهبية باجستونز الأوفياء مضى على رحيلهم الى الشمال فترة طويلة ، وكانت فيلة هي آخر ذهبية لهذا العام . ولم يتبق أمامنا من مناظر النيل العظيمة الا مشاهدة أبيدوس وبني حسن . ولم يعد لدينا الكثير من القوة للقيام بالرحلات الصغيرة والنزعات اليومية واستطلاعات الطريق ، ذلك لأن درجات الحرارة كانت ترتفع كل يوم ، كما أخذ مستوى نهر النيل ينخفض تدريجيا . وكنا على وشك الموت لو لم نشعر بتأثيرات ربيع مصر التي تتمخض عن اشاعة روح الكسل .

ان المواطنين يدعونه الربيع ، أما بالنسبة لخيالنا نحن الذين نعيش في الشمال فهو عبارة عن فصول الربيع والصيف والحريف مجتمعة معا في فصل واحد . ولن يستطيع تكوين مفهوم عن عظمة الأجواء والغنى الغزير للترربة في هذا الفصل ، الا هؤلاء الذين تباطأوا في الرحيل بالنسبة للآخرين . وتجد الآن هدوءا شاملا لم تشهده صفحة الأرض من قبل . وبدأت خضرة أشجار النخيل التي كانت يانعة في الشتاء ، تتلاشى بسرعة . وأخذت المحاصيل في النضج ، وبدأ الحمام يتزاوج ، وقد جاء وقت غناء الطيور ، وأصبحت الرياح التي تهب كل يوم كافية لأن تجعل الذهبية تسير في طريقها بشكل مستقيم ، وتحول دون خفقان الشراع . لقد ارتفعت درجة الحرارة ولكنها ظلت عند المستوى الذي يستطيع الانسان أن يستمتع به . وكان الرجال يجدفون ليلا ، وينامون نهارا تحت الأرائك المستطيلة ، أو يغنون الأغاني القديمة ، أو يقصون الحكايات قيما بينهم بصوت خفيض ، أما بخصوص الغطاء الرقيق من الدخان الذي ينبعاق فوق القبر، فإنه يوحى للانسان بأن تلك المجموعات من الأكواخ

الطينية قد هجرها سكانها • لأننا لم نعد نشاهد كأننا بشريا يتجول على الضفتين بعد سطوع الشمس • وكانت كل جاموسة تقف فى المياه الضحلة التى تصل الى عنقها ، بينما كانت الحمير تتزاحم معا حيثما وجدت الظل • وقد تخلت الكلاب عن النباح ورقدت نائمة تحت ظل الجدران •

لقد تغير وجه البلد وكذلك النيل ، عن المرة الأولى التى عبرنا فيها من قبل ، ذلك لأن الأرض التى كانت قد تحولت الى ساحة مربعة مثل رقعة الشطرنج الضخمة وتخللتها آلاف القنوات الصغيرة ، قد أصبحت الآن بحرا واحدا يموج بسنايل القمح الصفراء • أما النهر فقد تحول الى متاهة من الضفاف الرملية التى كان بعضها صغيرا والبعض الآخر كبيرا ، والبعض الآخر على وشك أن يطل برأسه فوق سطح الماء • وكان بعضها بالغ الطول بحيث يشق النهر على امتداد ميل أو أكثر • لقد قضى الرئيس حسن نصف حياته على مقدمة السفينة باحثا عن الأماكن الضحلة من النهر لكي يستخلم فى عبورها . العصى الطويلة التى تدفع الى قاع النهر • وعندما كنا نعبث هذه المنبجحات الرملية المستقيمة كنا نراها كما لو كانت جزءا من قناة السويس • وكذلك كان انحدار الضفتين يماثل ضعف انحدارهما عندما أخذنا طريقنا فى اتجاه الجنوب • أما حقول العدس التى كانت قد ازدهرت على المنحدر الذى يلي حافة الماء فقد تباعدت الآن الى قمة الحافة الجبلية الشديدة الانحدار ذات اللون البنى التى يمتد عند قاعدتها مسطح رطب مزروع بالبطنخ ، وقد امتد فوق سقف صغير من سعف النخيل لحمايتها من الشمس •

وفى نفس الوقت الذى أصبح فيه مستوى النهر منخفضا مع ارتفاع الضفتين ، لم نستطع لسوء الحظ أن نستمتع بهبات النسيم الخفيفة التى أخذت تحرك أعواد الشعير بين حين وآخر • وأخذ الترمومتر (المعلق فى أشد أركان الصالون برودة) يزحف الى أعلى متجاوزا درجة ٩٩ فهرنهايت ، ولكنه لم ينجح فى الوصول الى درجة ١٠٠ ، وعلى كل حال فقد كنا ونحن نعيش فى جو نصف مظلم ونوافذ مغلقة مع أشعة مبللة ، قمنا بنشرها على جوانب الذهبية ، ومناشف مبللة معلقة داخل قمراتنا ، نجد أن درجة ٩٩ دافئة بما يكفى للاحساس بالسعادة • وكنا نتمر السطح العلوى بالمياه عدة مرات يوميا ، ومع ذلك كان من الصعب منع الواح الخشب من البروز • وفى نفس الوقت كرست السيدة (ل) والرجل الكسول أوقات فراغهما للقضاء على الذباب باستخدام مناشف

مبللة ورش الأرضيات • وفي خلال هذه الفترة كلها كنا نتقدم ببطء لان الرجال لا يستطيعون التجديف نهارا • وبينما كانت الشواطئ الرملية الغارقة تهددنا بأخطارها أثناء الليل فلم يعد في وسعنا الا التقدم لعدة أميال خلال الفترة ما بين غروب الشمس وشروقها باستخدام العصي الطويلة التي تدفع الى قاع النهر • وكنا بين الحين والآخر نأتى الى مساحة خالية من العوائق ، كما أننا كنا فى بعض الأحيان نتقابل مع النسيم الجنوبي الرقيق لمدة ساعة أو ساعتين ولكن هذه اللحظات من الحظ السعيد كانت قليلة ومتباعدة •

وفى مثل هذه الظروف والأجواء ، وجدنا أنفسنا على بعد ستة أميال من دندرة ولكن حتى السيدة (ل) لم تقع تحت اغراء ركوب الحمير لقطع هذه الأميال الستة تحت حرارة شمس ذلك اليوم • أما الكاتبة فأمرت بنصب خيمة الرسم وقامت بزيارة أخيرة للمعبد الذى كان يظهر كثيبا وضخما ووحيدا على بعد أميال وسط حقول الشعير الناضجة •

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة أصبحنا فى دائرة معبد أبيدوس • وكان علينا أن نتخذ طريقنا الى البلينا وهى إحدى النقاط المعروفة التى تبين حدود أبيدوس • ولكن لسوء حظنا وجدنا شاطئا رمليا غارقا يسد الطريق ، ولذلك رسونا عند السمطة وهى قرية تقع جنوب أبيدوس بحوالى ميلين • وهنا طلب الترجمان من الإلهالى أن يحضروا لنا الحمير • وكان موسم الحصاد قد بدأ فى المنطقة المجاورة وانشغلت جميع ذواب الحمل بالعمل ولذلك لم ننجح الا عند منتصف النهار فى الحصول على ثلاثة أو أربعة حمير بائسة بدأنا بها رحلتنا • واتضح لنا أن هذه الحمير لم يركبها أحد من قبل ، ولذلك قضينا معها فترة مفعمة بالخوف • وكان الحمار الذى أركبه يجمع مرة كل خمس دقائق • أما حمار السيدة (ل) فقد كان يزمجر كالجمل ويكشر عن أنيابه كالكلب • أما حمار الرجل الكسول فقد كان يلق الأرض براكبه ويرقد ويتدحرج على فترات قصيرة • وبهذه الطريقة المثيرة قطعنا الأميال السبعة التى تفصل السمطة عن أبيدوس • وبعد أن سرنا بمحاذاة مزارع النخيل ، وعبرنا المجرى الجاف لحدى الترع، خرجنا الى سهل واسع ذى سطح شبيه بسطح البحيرة ، وقد تناثرت على صفحته القرى هنا وهناك ، وغطت سطحه سنابل القمح المتموجة • هذا هو سهل ثنى القديم الذى يجرى موازيا لمجرى النيل مثل سهل طيبة ، وتحده من الجهة الغربية سلسلة من الجبال ذات القمم المسطحة • والمسافة بين النهر والجبال هنا أكبر منها فى طيبة حيث تبلغ ستة أميال كاملة بينما يتلامس المنظر مع الأفق فى الشمال والجنوب •

وكان طريقنا يقع في البداية في مسار مخصص لعبور الخيول عبر حقول الشعير الكثيفة ثم يهبط الى طريق البلينا وهو طريق يرتفع عبر السهل بحوالى عشرين قدما . وأخذ الفلاحون يسرون ذهابا وإيابا بطول هذا الطريق . وقد أقيمت بعض مجموعات الأكواخ المبنية من القش في المساحات القضاء التي اجتثت منها أعواد الذرة . وهناك على البعد من هذا الطريق وعلى ممرات غير ظاهرة ، كانت تسير بعض قوافل الجمال التي تتماوج أعناقها ثقيلة الحركة ، وظهورها المحدبة فوق مستوى سطح القمح ، مثل السفن التي تسير بالمجاديف وتتماوج مقدماتها الضخمة فوق بحر مترقق الأمواج ذى لون أخضر . وكان الحمام يطير من قرية الى أخرى مثل السحب العريضة . وكانت القنابر تغنى وتحوم في نطاق ضيق يشكل الخطوة الأولى فوق السهل الطينى . وبعد ذلك تأتي المصبطة الصناعية التي يصل عمقها الى حوالى ربع ميل حيث تقوم القرية الحديثة . ومرة أخرى يرتفع حائط الحجر الجيرى الذى يحد الجرف العظيم . والقرية واسعة النطاق ، والمنازل مبنية بزخارف الأرابيسك الطبيعى تحكى عن ثراء السكان . وهى مزودة ببوابات ذات عقود مزخرفة بقوالب الطوب السوداء والبيضاء والحمراء ، والشبابيك ذات المشربيات ، وأبراج الحمام المبنية على شكل صفوف ، وقوالب الطوب ، مما يعطى للمكان روعة تجعله صالحا للرسم ، بينما تغطي المنحدر المتجه نحو الصحراء الشجيرات القصيرة وأشجار النخيل . ويجرى تجميع القمح الذى حصده الفلاحون على شكل حزم ، تحت هذه الحداثق المطلقة وعلى حافة الصحراء . وهنا ترقد الجمال لانزال أحمالها ، وهناك تدوس الثيران الجبوب بحوافرها ، أو تهرس أعواد القمح بواسطة آلة مثل الزحافة بها صفوف من السكاكين الدائرية (النورج) . وفى نفس الوقت كانت هناك آلاف بل عشرات الآلاف من طائر الحمام (١) تطير من كومة الى كومة وتستقر فوق الحزم ، وتلتقط القمح فى وسط الأراضى المحاطة بالحزم دون أن يزعجها أحد ، وهى تختال فى مشيتها بطول حافة الصحراء فتجر جناحيها ، وتبسط

(١) يحتفظ الفلاحون المصريون بأعداد هائلة من الحمام . وفى هذا الصدد يقول مستر زنك ان عدد الحمام المنزلى يبلغ عدة أضعاف عدد السكان . ويقترح أن يقوم السكان بتربية الخنازير للاقلال من عدد الحمام وأن كانت لا تؤكل على نطاق واسع مثل الحمام ، لأن الخنازير تربي وتترك فى الخرائب بأعداد كبيرة لانتاج السماد العضوى لتسميد الأرض . وقد صحح مستر أبوت خطأ هذا الحساب حيث أوضح أن الحمام يكلف ثلاثين مليون فرنك وهى قيمة الخسائر التى يسببها للمحصول بما يتجاوز الفائدة الناتجة عن استخدام زبله لتسميد التربة .

ريشها ، وتهدل ، وتنحنى ، وتقبل بعضها مسرعة فى أعماق الفضاء العالية • وكانت آكلات النحل تلمع مثل الزمرد عبر مسارنا ، بينما أخذت طيور الهدهد تتبختر على جانب الطريق • وبعد أن وصلنا الى منتصف المسافة عبر السهل ، أصبحنا فى وسط الحصاد • وهنا شاهدنا الحصادين ذوي اللون البنى حفاة وعراة حتى الوسط وهم يعملون بمناجلهم تماما مثل المناظر التى يظهرون فيها داخل مقبرة تى • وكانت النساء والأطفال خلفهم ، يلتقطون فى أعقاب هؤلاء الذين يربطون الحزم ، وكان الشيخ بعباته السوداء وشبشبه الأحمر يركب حماره ذهابا ورجعة مثل بوعز(*) بين حصاده • وبعد ربط الحزم كانت الجمال تحملها فى اتجاه المساكن • ويحمل الجمل أربع عشرة حزمة بمعدل سبع حزم فى كل من جانبي السنام • وعلى بعد قليل كانت الثيران التى وضع النير فوق كل اثنين منها ، تحرث الأرض ، وعلى مدى يوم أو اثنين ستكون الأرض قد بذرت فيها بذور الذرة العويجة أو صبغة النيلة أو القطن وسيجرى جمعها قبل وصول الفيضان •

وفى نفس الوقت وبينما كان السهل يمتد خلفنا وتضيق المسافة بيننا وبين الجبال ، رأينا خطا من الروابي العالية غير المنتظمة الشكل وقد غطت مسافة ميلين أو أكثر بطول قواعد الصخور • وكانت الروابي تظهر على البعد كما لو كانت قد تكلفت بخرائب مهيبه ، ولكن مع اقترابنا كشفت هذه الروابي عن نفسها فى هيئة قزية هى قرية العرابه المدفونة التى تقع على جزء من تلال أبيدوس • ووصلنا الآن الى نهاية السهل المزروع ، الى ذلك الخط الغريب الفاصل حيث يتوقف الفيضان وتبدأ الصحراء • أما عن الصحراء الحقيقية فلا يوجد منها هنا الا شريط ضيق •

والآن يتجه مسارنا جنوبا ، ونشق طريقنا بين المنازل حيث نلاحظ هنا كتلة محفورة ، مبنية فى حائط من الطين ، ونشاهد هناك تابوتا مكسورا من المرمر يحوار بثر جافة • والى أبعد من ذلك قليلا نجد أسطونا

(*) بوعز هو أحد وجهاء اليهود فى عصر القضاة ، وقد ورد وصف له وهو يجول بين حصاده حقله فى سفر راعوث من أسفار الكتاب المقدس • انظر : راعوث ، الاصحاح الثانى - (المترجم) •

من الجرانيت مازال قائما وسط حديقة من أشجار النخيل . والآن وقد تركنا القرية خلفنا ، نجد أنفسنا عند قاعدة جبل ضخم من النفايات التي حفرت حديثا ، فنلقى من فوق قمته نظرة على ما يشبه فوهة بركان ، ونرى معبد أبيدوس العظيم تحت أقدامنا .

وكانت الساعة الآن حوالى الثالثة ، ولذلك فاننا وقد شاهدنا ما يمكن مشاهدته حسب ظروف الزمان - ومع ما كنا ننتظره من رحلة طويلة للعودة على ظهور الحمير خلال بلد غريب ، فقد رحلنا مرة أخرى فى حوالى الساعة السادسة . ولن أفترض أنني سأصف معبدى أبيدوس مرة أخرى ، حيث ان أحدهما شديد الدمار لدرجة تجعل من الصعب الحديث عنه . أما الآخر فهو مصمم بشكل غريب ومضمونه العام شديد الغموض حتى انه يعتبر معضلة كبرى أمام علماء الآثار . وبعد زيارة صغيرة استمرت لمدة ثلاث ساعات ، اكتفيت برسم ما رأيته بإيجاز ولكن فى إعجاب . ويعتبر موقع أبيدوس بالرغم من أنه مدفون تحت التلال المحيطة به ، مكانا له أهمية تاريخية كبيرة . وكان فى وقت من الأوقات قد تخلف عن القيام بدوره فى تسجيل قصة الحضارة المصرية . وتوجد شمال هذا الموقع بقليل مدينة تسمى ثنى (١) ولا نعرف العصر الذى تنتمى إليه هذه المدينة التى تعود الى ما قبل التاريخ المصرى ، ولكننا نفرض أن سكان كيم (٢) قد أقاموا هنا أول معابدهم ، واستنبطوا أول مفاهيمهم عن الفن واهتموا الى الحروف الأبجدية التى يجتملى أنها كانت فى البداية مجرد

(١) ان ثانىس التى كان يطلق عليها الإغريق اسم تينى . Tini كانت عاصمة

المقاطعة الثامنة .

خطاب الجيوفيسور ج . ماسبيرو الى المؤلفة ، أبريل سنة ١٩٧٨ .

de la ville de Teni qui à la basse époque sous la domination romaine, n'était connue que par ses teinturiers en pourpre, elle doit avoir jouti d'une très grande renommée chez les anciens Egyptiens. Encore au temps du XIXème dynastie les plus hauts fonctionnaires de sang royal étaient distingués par le titre de 'Princes de Teni.' — *Hist. d'Egypte, Brugsch*, vol. i, chap. v. p. 29 ; Leipzig, 1874.

NOTE TO SECOND EDITION. — « Des monuments trouvés il y a deux ans, me portent à croire que Thini était située assez loin à l'Est au village actuel de Aoulad-Yahia. »

(٢) كان الاسم القديم لمصر هو kem-khem-kam ويعنى السوداء أو الأرض

السوداء نسبة الى لون التربة .

سورة مثل الأبجدية المكسيكية . ومن هنا أيضا جاء رجل يسمى مينا (١) وهو الذي ارتفع خرطوشه منذ زمن سحيق ، على رأس القائمة الطويلة التي تتضمن أسماء الفراعنة المصريين ، ولا نعرف عن مينا الذي يرف شبحه على حافة التاريخ والتقاليد الا أنه كان أول زعيم أطلق عليه لقب ملك الوجهين أى مصر العليا والسفلى ، وقد اتجه شمالا وأسس مدينة منف ، ولم ينتقل مقر الحكومة الى العاصمة الجديدة قبل مرور عدة غرون ، أما مدينة ثنى التي يفترض أنها المكان الذي دفن فيه أوزوريس فسرعان ما فقدت أهميتها السياسية ، ولكنها استمرت لفترة طويلة بمثابة المدينة المقدسة لمصر .

وفي نفس الوقت أقيمت مدينة أبيدوس بجوار ننى ، وبالرغم من أن أبيدوس كانت مدينة لها أهميتها الا أنها لم تكن عاصمة لمصر . وقد تنقل مركز القوة من أسرة الى أخرى فاستقر حيناً فى الدلتا ، وحيناً آخر فى طيبة ، وحيناً ثالثاً فى الفنتين ، ولكنه كان موجوداً يوماً ما فى البقعة التي كانت بسبب موقعها المتوسط والخصوبة غير المحدودة للأرض المحيطة بها ، أنسب المواقع لتمثيل هذا الدور فى تاريخ مصر . ولم تعد العاصمة بعد ذلك الى البقعة التي بدأت منها . وقد كانت هذه البقعة هى المركز الذى انطلق منه المصريون العظماء للوصول الى مكانتهم العجيبة . هنا كان موطن قوتهم . ومن ذلك الحين استحققت عنوانها الذى تفخر به كموطن خالص ، فليس هناك دليل أعظم من ذلك يدل على أصل الفراعنة المصرى الأصيل أكثر من الموقع الذى احتلته عاصمتهم الأولى على خريطة مصر ، ذلك لأن أصول أية قبيلة مستعمرة جاءت الى أى بلد وغرست نفسها فى وسط السكان الأصليين ليست محل تساؤل . ومن جهة أخرى يتضح أنه لو كانت مصر قد استعمرت على يد قوة آسيوية أو اثيوبية، فإن الغرباء كان عليهم أن يؤسسوا مقرهم الاصلى بجوار البرزخ . أو من جهة

« Mena, tel que nous le presente la tradition, est le type (١)

le plus complet du monarque égyptien. Il est à la fois constructeur et législateur : il fonde le grand temple de Phtah à Memphis et règle le culte des dieux. Il est guerrier, et conduit les expéditions hors de ses frontières. » — *Hist. Ancienne des peuples de l'Orient*, G. Maspero. Chap. II, p. 55 : Paris, 1876.

« N'oublions pas qu'avant Ménès l'Égypte était divisée en petits royaumes indépendants que Ménès réunit les premiers sous un sceptre unique. Il n'est pas impossible que des monuments de cette antique période de l'histoire égyptienne subsistent encore. » — *Itinéraire de la Haute Égypte*. A. Mariette Bey. Avant Propos, p. 40. Alexandrie, 1872.

ثالثة يكونون قد توقفوا أولا بين سهول النوبة التى تنال ربا كافيا (١) ولكن المصريين بدعوا من القلب الخصب لبلادهم ذاتها ، وبذلك بدءوا مشوار العظمة من داخل حدودهم .

وقد قامت كل من أييدوس وثنى على نفس البقعة الصحراوية ، ولابد أنهما كانتا متصلتين فى وقت من الأوقات بواسطة ضاحية متخلقة كان يسكنها العاملون بالتحنيط والتجار الآخرون الذين يدخل فى اختصاصهم أشغال الموت والدفن . ونجد سلسلة من الروابي المحفورة حيث كانت المعابد قائمة . وهى تقف أمامنا الآن بوصفها مدينة أييدوس المشهورة . ويقودنا الى موقع المدينة سور قديم من الطوب اللبن ، وربوة صناعية صغيرة فوق مقبرة قديمة تشطرها المقبرة الكبيرة الآن الى قسمين يبعد كل منهما عن الآخر مثلما تبعد مدينة هابو عن الرمسيوم .

ولابد أنه كانت توجد فى أييدوس معابد أقدم من هذين اللذين رأيناها الآن ، وقد بنى أحدهما الملك سبتى الأول بينما بنى الآخر الملك رمسيس الثانى . أو أنه من المحتمل كما فى حالات كثيرة أن تكون المباني الأقدم قد أزيلت وأعيد بناؤها . وسواء أكان هذا أم ذاك فإن معبد سبتى الأول من ناحية زخارفه يعتبر واحدا من أجمل الآثار المصرية . بينما يعتبر من ناحية تخطيطه واحدا من أعظم المعابد تقردا . ولم يتبق من الواجهة الآن الا صف من أعمدة الحجر الجيرى المربعة التى لابد وأنها كانت فى يوم ما تحمل اطارا يحيط بالأبواب ، ويأتى خلفها مباشرة بهو للأساطين مكون من أربعة وعشرين أسطونا تقود الى بهو آخر . مكون من ستة وثلاثين أسطونا عن طريق سبعة مداخل . ومرة أخرى يفتح هذا البهو على سبعة هياكل متوازية يقع خلفها بهو آخر للأساطين ، وعدد من الحجرات الصغيرة . ولذلك فإن معظم المبنى يبدو متجانسا . ويتصل بهذه الكتلة وينطلق منها عن طريق عدة أبواب فى الطرف الجنوبى من البهو الكبير مزيد من القاعات والحجرات التى ترتبط ببعضها عن طريق ممرات تقود الى حجرات أكثر ، ولكنها لم ترفع عنها الرمال بعد . وقد

(١) انظر الخطاب الافتتاحى الذى القاه البروفيسور R. Owen مضمنا تقرير إجراءات العمل للمؤتمر الدولى الثانى للمستشرقين (قسم الاجناس) الذى عقد فى لندن سنة ١٨٧٤ . وكذلك الورقة التى عنوانها : الأصول الجنسية لمصر The Ethnology of Egypt فى نفس المؤتمر - وقد نشرت فى مجلة The Journal of the Institute Anthropological ، المجلد الرابع ، رقم ١ ، ص ٢٤٦ ، لندن ، ١٨٧٤ .

نقشت جميع هذه الدعائم والأساطين والقاعات والممرات والمقاصير (١) السبع ولوتت بالوان بديعة .

وهناك تشابه عائل بين المعابد التى تنتمى الى نفس الطراز والفترة الزمنية ، حتى ان الانسان يستطيع بعد تجربة بسيطة أن يخمن قبل أن يعبر عتبة المبنى ، كل ما يستطيع أن يشاهد من النقوش التى بالداخل . ولكن غالبا ما نجد أن كل موضوع فى معبد سبى فى أبيدوس جديد وغريب . وتبدو جميع الآلهة فى الهيكل الذى يجمعها كلها فى صورة تدل

(١) أورد مسيو مارييت فى كتابه الكبير عن حفائر أبيدوس أن هذه المقاصير السبع المقيمة تماثل هياكل من الشكل المعتاد استخدامه ، وعلى وجه الخصوص التوابيت المستطيلة ذات الاغنية المقوسة . وقد ظهرت صورة اثنين من هذه الهياكل فى اللوحة رقم ٤٩٦ فى الجزء الثانى من كتاب سير ج . ويلكنسون (الشكلان رقم ١ ، ٦) و اسم الكتاب A popular account of the Ancient Egyptians - الجزء الثانى - الفصل العاشر - لندن سنة ١٨٧١ . ويقول ايضا عن استخدامات المعبد ومضمونه ما يلى : « وماذا تعرف من الفكرة الأساسية التى تصدر بناءه ؟ واما الذى جرى لها ؟ وهل كانت مقصورة على اله واحد ؟ وهل هو أوزيريس أم سبعة آلهة ؟ ومن هم هؤلاء السبعة الذين خصصت لهم الهياكل السبعة المقوسة ؟ أم أنها كانت مخصصة للآلهة التسعة الذين ورد ذكرهم فى قوائم الآلهة المتفرقة فى مختلف أجزاء المعبد ؟ ... ان الانسان يترك المعبد يائسا ليس لجدى قبره على كشف سره مستعينا بفحص النقوش ولكن لاكتشاف أن سره قد حفظ بداخله ولم يودعه بانيه فى النقوش » . أنظر كتاب : Description des Fouilles d'Abydos - تأليف مارييت بك - باريس سنة ١٨٦٩ حيث يقول :

« Les sept chambres Voûtées du grand temple d'Abydos sont, relatives aux cérémonies que le roi devait y célébrer succéssivement. Le roi se présentait au côté droit de la porte, parcourait la salle dans tout son pourtour et sortait par le côté gauche. Des statues étaient disposées dans la chambre. Le roi ouvrait la porte ou naos où elles étaient en fermées.

Des que la statue apparaissait à ses yeux il lui offrait l'encense, il enveloppait le vêtement qui la couvrait il lui imposait les mains; il la parfumait, il la recouvrait de son vêtement, » etc. — Mariette Bey: — Intéraire de la Haute Egypte : Avant propos y, 62, Alex. 1872.

نشر بالاسكندرية سنة ١٨٧٢ ، ص ٦٢ .

ويوجد فى الطرف العلوى لكل من هذه الهياكل السبعة نوع وحيد من الابواب او الفجوات مخبا داخل نوع من الزخرفة له سمات هندية أكثر منها مصرية . والنقق مربع وعميق وضخم بشكل غريب والسطح منبسط ، والمقصود منها جميعها أن تعطى الانطباع المطلوب عن طريق الظلال العميقة فى الاجزاء المحفورة افضل من الحفر البارز ، وهذه الفجوات والابواب للقلدة قد صنعت لتقوم بدور الخلفيات بالنسبة للتماثيل ولكنها ليست بالعمق الكافى لكى تعتبر محاريب . وهناك فجوة مشابهة محفورة فى أحد جدران الغرفة التى فى الطرف الغربى بمعبد القرنة .

على أنها كانت تعبد معا ، كما كان لكل منها عرشه الخاص به . وتجد أن
الخواط مغطاة برسوم تبين هذه العروش ومن يجلسون عليها ، بينما يقدم
الملك أمام كل عرش منها بعض مظاهر العبادة . وقد رسمت ضفدعة
زرقاء ضخمة ، وقلب سلوقي ، وأوزة ذات رأسين ، ومخلوق بشري رأسه
على شكل مقياس النيل (١) وأشياء أخرى كثيرة لا أتذكرها .

ورغم أن التقدمات الملكية كانت عبارة عن البخور والعقود
والصدريات ، إلا أنها في معظمها من نوعيات فريدة لم نر لها مثيلا من
قبل . ونرى الملك في أحدها وهو يهدي إلى إيزيس عمودا له أربعة
تيجان ، وقد وضعت فوق التاج العلوى كرة أرضية واثنان من الأفاعي
الصغيرة تحيط بهما اثنتان من ريش النعام

ويبدو الهيكل الأوسط من السبعة وقد خصص للاله خيم الذى
يبدو هنا بوصفه الاله الرئيسى كما هو فى المعبد الكبير بالكرتك . وفى
هذا الهيكل الرئيسى المتألق بالألوان ، والسليم من أى تخريب ، نرى
صورة نصفية للملك رمسيس الثانى (٢) وهو يفتح باب إحدى المقاصير
بمفتاح ذهبى على شكل يد وذراع بشريتين . ويظهر كالون الباب مكونا من
عدد من المزاليج المختلفة الأطوال التى يدفع كل منها بواسطة الأصبع
السبابة لليد الصغيرة . وبلا شك ، فإن هذا يعطى بيانا سائما عن نوعية
المزاليج المستخدمة فى ذلك الوقت .

ومن فتحة ممن فى البهو الكبير بهذا المعبد اكتشف ماربيت هذا
النحت الثمين المعروف باسم : لوحة أبيدوس الجديدة ، ونرى فى هذه

(١) توجد جميع أشكال الآلهة الصغرى التى نرى صورها فى البرديات الجنائزية
ولكن يندر رؤيتها فى نقوش المعابد ، ومنها على سبيل المثال الآلهة الضفدعية (بحكا
التي ترمز إلى الخلود . وهى إلهة قديمة جدا ، وجدت صور لها فى آثار الأسرة الخامسة
أما الاله الذى له رأس الأوزة فهو الاله سب (جب) . وهو أيضا إله قديم جدا
أما مقياس النيل فهو شعار دينى يعنى الاستقرار وربما وجد فى هذه الحالة كرمز مؤله
فقط .

(٢) نرى رمسيس الثانى هنا مع المزالج الجانبى . وقد انشأ سبتي الأول هذا المعبد .
واستمر العمل فيه عندما كان رمسيس الأمير يشارك أباه الجلوس على العرش ، واستكمل
على أيام رمسيس الملك بعد وفاة سبتي الأول . والمبنى معاصر فى التاريخ ومشابه
فى الطراز لمعبد القرنة وهيكل بيت الوالى .

اللوحة الملكية سيئتي الأول ورمسيس الثانى أحدهما يقدم البخور بينما يردد الآخر أنشودة مديح لأسماء الفراعنة الستة والسبعين ابتداء من ميناء وانتهاء بسيئتي نفسه (١) .

ولسوء حظنا - بالرغم من أننا لا نستطيع إلا أن نذعن لضرورة الاحتياط - وجدنا مدخل هذا الممر مقفلا ومسدودا على شكل تل . وقد ذكر لنا أعرابى عجوز يسكن فى المعبد كحارس ، أن اللوحة لا يمكن رؤيتها الآن إلا بعد الحصول على تصريح خاص .

ويبدو أننا قضينا هنا حوالى نصف الساعة ، عندما جاء المرشد ليحذرننا من اقتراب المساء . وكان علينا أن نرى الموقع والربوة الكبيرة لمدينة ثنى . وكانت الربوة تقع على بعد عشرين دقيقة بسرعة الحمير التى نركبها ، فهز المرشد رأسه ولكننا صمينا على الذهاب . واقترب الظلام ، وللمرة الأولى منذ عدة شهور حالت مظلة متجمعة من السحاب دون مشاهدة روعة الغروب . وعلى كل حال فأننا امتطينا حميرنا واتجهنا نحو الشمال ، ولو ركبنا دواب أفضل من هذه الحمير كنا قد حققنا هدفنا لأننا رأينا أن الظلام تشتد كثافته فى كل لحظة ، مما دفعنا الى التخلي عن الهدف ، وبدلا من محاولة الاستمرار فى السير الى الأمام رضىنا أن نتسلق تلة مرتفعا كان يشرف على المنظر الذى فى ناحية ثنى .

وفى ذلك الوقت أخذت السحب تتقارب فى سرعة ، وزحفت أمواج الظلال على السهل . وقد ارتفعت عن يسارنا الحدود الجبلية والغسق والمنخفضات ، بينما امتدت على اليمين ، مسطحات القمح المغلفة بالضباب،

(١) ربما كان هؤلاء الفراعنة الستة والسبعون (المثلون بخراطيشهم) أمراء ولدوا لعائلات يعود أصلها الى أبيدوس ، أو حكاما حصلوا على لقب خاص بالتعظيم فى هذه المكان مقابل الآثار أو الانشاءات الدينية التى أهدوها للمدينة المقدسة . وهناك لوحة مشابهة أقيمت لنفس الأسباب وإن كانت ملوك آخرين ، وهى تلك التى أقامها تحوتمس الثالث فى غرلة جالبية فى المعبد بالكرك وهو موجودة الآن بمتحف اللوفر . وتتركز القيمة العظيمة للآثار الحالية فى ترتيبه الزمنى ، علاوة على أنه منفذ بأسلوب رشيقي وسليم تماما .
« Comme perfection de granire, comme conservation, comme étendue, je est peu de monuments qui la deparsent. »

انظر مقال : La Nouvelle Table d'Abydos بقلم A. Malette Bey
بمجلة Revue Arch. المجلد السابع - سلسلة Nouvelle série - من ٩٨ . ويتضمن هذا المجلد من المجلة أيضا صورة اللوحة .

أما عند أقدامنا فكانت هناك كل الروابي والمقابر المفتوحة والمقبرة الكبيرة المهجورة . وقد ارتفع خلف النخلات التي خارج حدود حافة الصحراء . وخلف شريط مظلم يحدد مكان ثني ، تل منحدر ومنعزل يموج باللون الأرجواني الذي تتميز به الظلال التي تنتشر عند الغسق . وكان هذا التل الذي يطلق عليه المواطنون اسم : كوم السلطان - هو الربوة التي أردنا مشاهدتها . وقد ظهر لنا ونحن نرقبه من على البعد ، ومن خلال ضوء ضعيف ، تماما مثل مخروط بركاني يبلغ ارتفاعه حوالي مائتي قدم . وهو يتكون من مجموعة من المقابر التي تتكدس احداها فوق الأخرى في طبقات تاريخية . وكانت كل طبقة منها تمثل سجلا لحقبة تاريخية ، بينما تمثل كلها مجتمعة ، نوعا من الشعاب المرجانية الصخرية الانسانية التي بنيت ببقايا الأجيال من عصر الى عصر .

ومنذ عدة سنوات مضت ، كانت الحكومة المصرية تحفر هذا التل العجيب . وكلما تعمقت الحفائر ، ظهرت محتوياته الأقدم زمنيا . وكلما كانت المخلفات ثابتة ، كانت المحتويات ثابتة لدرجة تجعل المشاهد يظن أن مجرفة الحفار كانت تصطدم بمقابر تعود الى الأسرة الأولى ، وبذلك تخرج الى الضوء رفات الرجال الذين عاشوا في عصر مينا . وقد كتب مارييت (١) يقول انه « حسب ما أورده بلوتارخ فان أثرياء المصريين جاءوا من جميع أنحاء مصر لكي يدفنوا في أبيدوس حتى ترتاح عظامهم بجوار أوزيريس . ومن المحتمل أن تكون مقابر كوم السلطان مخصصة لهؤلاء الوجهاء الذين ذكرهم بلوتارخ . وليس هذا هو الاهتمام الوحيد المرتبط بكوم السلطان ، لأن قبر أوزيريس المشهور لا يبعد كثيرا عن هذه البقعة . وهناك من الدلائل ما يدفعنا للاعتقاد بأنه محفور في قاعدة الصخرة التي هي بمثابة النواة لهذا التل . وعلى ذلك فان الأشخاص الذين دفنوا في كوم السلطان يرقدون وهم أقرب ما يكونون الى القبر المقدس . والأعمال التي تجرى الآن في هذه المنطقة لها أهمية مزدوجة أولا لأنها ربما تقود الى مقابر أكثر قدما قد تعود الى الأسرة الأولى . وثانياً أنه ربما أمكن اكتشاف المدخل غير المعروف والمخفي لمقبرة الاله ، (٢) .

(١) انظر . Intinéraire de la Haute Egypte . تأليف مارييت بك .

ص ١٤٧ ، الاسكندرية ، سنة ١٨٧٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٨ ، لم يتحقق الامل الذي جرى التعبير عنه هنا لأنني

أظن ان مقابر الأسرة الرابعة او الخامسة قد اكتشفت منذ وقت مبكر .

وأسفت فى ذلك الحين لأننى لم أستطع أن أركب الحمار ولو حتى الى قاعدة كوم السلطان ، وأظن الآن أننى أفضل أن أتذكره ، كما شاهدته على البعد محوطاً بالأسرار فى ظلمة ذلك المساء الغريب .

وكان هناك صمت ثقيل يلوح فى الجو ، ولمحة حزن تعبر عن نقل حمل العصور ، وبدت الروابي المتداعية مثل بحر مخيف ، وأخذ الليل يرخي سدوله خلف حافة الصحراء . وسرعان ما زحفت نحونا من بين المقابر البعيدة ، سحابة متحركة فى بطء . ومع اقترابها فى حالتها الناعمة والشفافة والمتقلبة والوهمية ، اتضح أنها ليست سوى الغبار الذى أثاره قطع كبير من الضبان . وكان راعى القطيع يظهر خلال فتحات السحابة بين حين وآخر . ثم نزلنا وانطلقنا فى الطريق الواقع بين التلال والوادي . وبدت أشجار النخيل والمنازل غير واضحة فى ظلمة الغسق وبرزت قافلة من الجمال وهى تتقدم بخطوات سريعة وهادئة مثل الأشباح أمام خلفية من الضباب . ومع تقدم الليل أصبح الهواء خانقا . ولم تكن هناك نجوم فلم نستطع الرؤية على مدى ياردة واحدة أمامنا . وزحفنا ببطء بطول الطريق المنحدر ، وشعرنا بأننا لم نستطع أن نميز شيئاً من السهل الممتد على كلا الجانبين . وفى نفس الوقت كانت الضفادع تنق غاضبة ، بينما أخذت حميرنا تتعثر فى كل خطوة . وعندما اقتربنا من السمطة كانت الساعة تقرب من العاشرة . وكان الرئيس حسن قد شرح فى ملاقاتنا معه الحال والمشاعل .

وفى صباح اليوم التالى مررنا للمرة الثانية بمدينة جرجا ومسجدا المهدم وعمودها الذى يوشك على الانهيار ، وعند الظهيرة رسونا فى مكان يدعى العسيرات حيث قمنا بزيارة أحد الوجهاء الذى يدعى أحمد أبو رطب، أغا الذى كنا نحمل اليه خطابات توصية . وكان رطب أغا يمتلك أبعاداً واسعة فى هذه المقاطعة المشهورة بلحوم الخيل . وهو يعيش بأسلوب القبيلة محاطاً بعشيرة كبيرة العدد من الأقارب والأتباع . ويتكون محل إقامته فى العسيرات من ثلاثة أو أربعة منازل كبيرة ، وما يقرب من عشرين برجاً للحمام وحديقة واسعة واسطبل وأرض للتدريب وفناء ضخم ، وقد أحيطت جميعها بحائط دائرى . ودخلنا من بوابة تزيناها أشغال الأرابيسك . واستقبلنا فى رواق مسقوف بأشغال المشربية ويطل على الفناء . وأخيراً لنا ثلاثة من أفخر خيوله بألوانها الرمادية والكميت (*) والكستنائى ، لكى نستمتع بمشاهدتها . وكانت شبيهة بتلك الخمول

(*) الكبيت من النبل ما كان لونه بين الأحمر - (المترجم) .

التي أحب فالسكيز Valsquez أن يرسمها ، غليظة العنق ، وصغيرة الرأس ، وصلبة البدن ، وذات عروق متموجة ، وذيل حريرية طويلة . وقد وقفت شامخة ومشدودة دلالة على انتمائها العربى الأصيل . ولم يثر الشك فى نفوسنا حول نقاوة دمائها . وقد ظهرت لنا صلاحيتها للرسم بأغطية سروجها المطرزة بخيوط الذهب وسروجها العالية المغطاة بالقطيفة القرمزية والخضراء والزرقاء ، وركاباتها الطويلة ، وأغطية رؤوسها ذات الشراريب . وقام شقيق الأغا وأولاد أخيه بقيادتها لعرض خطواتها ، ثم جعلوها تركع للركوب فكانت تخضع لكلمة الأمر ، ثم تندفع من وضع الثبات لكى تعدو فى سرعة . وعندما وصلت الى أقصى سرعتها توقفت قليلا وطرحت نفسها للارتكاز على مؤخرتها وتجمدت حركتها فصارت مثل خيول حجرية . وقيل لنا ان مضيفنا لديه فى اسطبلاته مائة حصان . ودارت الغلايين والقهوة وسلسلة غير نهائية من مختلف أنواع الشرابات طول الوقت الذى استغرقته الزيارة . وأثناء الحديث علمنا أنه ليست فقط أجور العمال الزراعيين هى التى تدفع فى شكل كميات من القمح . بل أيضا جزء من الضرائب التى تدفع للخديو .

وقبل رحيلنا ذهبت السيدة (ل) والسيدة الصغيرة والكاتبة لزيارة الحريم وتعرفن الى سيدات الضيعة ، لقد وجدناهن يقمن فى مبنى منفصل له فناء مستقل ، ويعشن حسب الأسلوب الممل الذى اعتادته سيدات الشرق . دون أى نوع من العمل ، كما أنه لا توجد حتى مجرد حديقة يتمشبن فيها . وكانت زوجة الأغا الأساسية (أظن أنه كان يقترن بزوجتين) امرأة جميلة ذات شعر كستنائى وعينين عسليتين ناعستين ، وبشرة فاتنة . وقد استقبلتنا على العتبة ، وقادتنا الى صالون محاط بالأرائك ، وعرفتنا بأبنائها الخمسة فى فخر . كانت الكبرى فتاة جميلة فى الثالثة عشرة من عمرها ، وكان الأصغر فتى فى الرابعة ، وقد ارتدت الأم والابنة ثيابا سوداء متشابهة مطرزة بخيوط من الفضة ، وشبشبين من القطيفة الوردية اللون فى أقدامهما ، مع الأساور والخلخال الفضية ، والسراويل التركىبة الطويلة ذات اللون الوردى ، وقد صففتا شعرهما مفروقا من المنتصف ، وقد ضفر فى شكل ضفائر طويلة تتدلى على الظهر مع قطع من العملة والدلايات . بينما علق فى مؤخرة الرأس حجاب من الشاش الأسود الشفاف مطرز أيضا بخيوط من الفضة . وجاءت سيدة أخرى عرفنا أنها الزوجة الثانية . وكانت شديدة البسامة وترتدى زينات أكبر ويظهر أنها تحتل مكانة ثانوية فى زمرة الحريم . وربما كان هناك حوالى دسنة من السيدات البنات بينهن اثنتان لونهما أسود .

وكان أحد الأطفال مريضا طوال حياته القصيرة ، فظهر لنا وكأنه لن يعيش أكثر من ستة شهور . وقد طلبت إلينا أمه المسكينة أن نصف له علاجا ولكن من الصعب أن نقنعها بأننا لا نعرف شيئا عن طبيعة مرضه ، ولسنا بالمهارة التي تسمح لنا بعلاجه . وظلت تتوسل إلينا ولم تقبل الرفض ، ولذلك أشفقنا عليها وأرسلنا إليها بعض الأدوية غير الضارة .

وكانت فرصتنا لملاحظة الحياة المنزلية في مصر ضئيلة . لقد قامت السيدة (ل) بزيارة حريم نائب الخديو في القاهرة ولكنها عادت في كل مرة بنفس الانطباع الكئيب . وكانت معظم السيدات المصريات يشغلن أيامهن التي تضي بأشغال التطريز وبعض لعب الأطفال الموسيقية المصنوعة في جنيف ، والقيام بنزهة يومية في شارع شبرا ، وتدخين الغلايين والسجائر ، وتناول الحلوى ، والتحلل بالمجوهرات ، والنميمة . وكانت بعضهن ذوات اهتمام نشيط بالسياسة . وكانت مقصورات الأوبرا الخاصة بالخديو وكبار الباشوات في القاهرة والاسكندرية تحتلها السيدات في كل ليلة . ولكن الحكم على نظام الحياة المنزلية لا يسرى على سيدات الأمراء والنبل ، وكان المفروض أن نطلع على حياة سيدات طبقة الملاك ووجهاء الطبقة الوسطى . ولم يكن لدى سيدات العسريات هؤلاء ، مركبات مصنوعة في لندن يجرها حصان واحد ، وليس لديهن شوارع شبرا أو دار للأوبرا فلم تكن لديهن وسائل للتسلية ولا حتى وسائل للتمشية أو التريض . وكان الوقت يمضي ثقيلًا على نفوسهن ، ولم يكلفن أنفسهن الاهتمام بالأشياء التي تحيط بهن . وكانت سلالم الحريم قدرة وحجراتهن غير مرتبة ، والمظهر العام للمكان قذر وهمل . أما عن النزليات فانه بالرغم من طبيعتهن الطيبة وورقتهن ، إلا أن وجوههن كانت تحمل الملامح التعبيرية لمن اعتدن المعاناة من الملل . وفي الأقصر قامت السيدة (ل) والكاتبة بزيارة زوجة وجيه عربي وهو ابن المحافظ السابق للمكان ، وهي سيدة من الطبقة الوسطى . وكان الزوجان شابين ومن غير الأغنياء ، ويعيشان في منزل صغير لا يطل على أية مناظر وبدون حديقة . وقد احتلت الطيور الداجنة فناء المنزل . أما الشرفة العليا الصغيرة فقد كانت مساحتها تقل عن اثني عشر قدما مربعا . وقد أحاطت بمنزلهما من جميع الجهات منازل أخرى ، ولكن الزوجة الشابة كانت تعيش راضية في هذا السجن الخائف من سنة إلى أخرى ، ولم تكن تخرج منه مطلقا . ولا بد أنها كانت تستمتع في طفولتها ببعض الحرية ولكنها كفتاة متزوجة وعروس كانت سجينه مثل الطائر في قفسه . وبالرغم من أنها ولدت في الأقصر إلا أنها لم تشاهد الكرنك مع أنه يقع

على بعد ميلين . وسألناها عما اذا كانت تود أن تزوره بصحبتنا فضحكت
وهزت رأسها . لقد كانت غير قادرة حتى على الفضول .

وظهر لنا أن زوجات الفلاحين كن أسعد الزوجات في مصر لأنهن
يعملن باجتهاد ، وبالرغم من معاناتهن الفقر إلا أن لديهن حرية استخدام
أطرافهن (الحركة) ، ولديهن خبرة باستنشاق الهواء المنعش ، وضوء
الشمس ، والحقول الواسعة ، وعندما تركنا العسيرات كانت هناك مسافة
٣٣٥ ميلا تفصل بيننا وبين القاهرة . ومنذئذ صارت الملاحة في النيل
أكثر صعوبة ، وأخذت حرارة الذهبية ترتفع لدرجة أنه حتى رش المياه
ومسح الأرضية لم ينجح في خفض درجة الحرارة . وعندما كنا نذهب
في المساء الى قمراتنا للنوم كانت ألواح الخشب التي بطول السرير
ساخنة عند لمسها باليد كما لو كانت في مواجهة لهيب نار . وبالرغم من
أن بحارتنا قد ولدوا في هذه الأجواء إلا أنهم عانوا أكثر منا . وعانت
السيدة (ل) في ذلك الوقت من ضربة شمس أصابت يديها . ورويدا
رويدا تجاوزنا الأماكن التي شاهدناها عند إبحارنا جنوبا وهي أسيوط
ومنفلوط وجبل (أبو فايدة) والروضة والمنيا .



• ساقية عند أسيوط •

وبعد كل ذلك لم نشاهد مقابر بنى حسن لأنه في اليوم الذي وصلنا
فيه الى هذا الجزء من النهر كانت هناك عاصفة رملية شديدة ، وهي
عاصفة أصابت الكتابة نفسها بالرعب . وبعد ذلك بثلاثة أيام ركبنا

«القطار الى ببا واتجهنا الى القاهرة تاركين الذهبية فيلة لكي تتبعنا حسب ما تسمح به امكانات الرياح والطقس .

وكنا قد شغفنا بحياة الذهبية حتى ذلك الوقت لدرجة أننا أحسسنا في البداية بالضيق في حجرات فندق شبرد الواسعة ، كما أحسسنا بالارتباك في الشوارع المزدحمة ، الا أننا أصبحنا في القاهرة التي وجدناها أشد روعة وأكثر جمالا من أى وقت مضى . وهنا شاهدنا نفس النجار في سوق تونس وقد جلسوا القرفصاء على نفس السجاجيد وهم يستخون نفس الغلايين . ووجدنا أيضا نفس بائع الفطائر وهو مازال متربعا على كرسيه في نفس المدخل في الموسكى . وكذلك وجدنا نفس تجار المجوهرات وهم يبيعون الأساور في خان الخليلى ، ونفس الصيارفة وهم يجلسون خلف مواضعهم الصغيرة في أركان الشوارع ، ونفس النساء المحجبات وهن يركبن الحميز أو المركبات التي تجرها الخيول ، ونفس الجنائز المتعجلة ، والأفراح الصاخبة ، ونفس الصرخات الغريبة والعادات المتنوعة ، ونوعيات التجارة غير المعتادة . لم يتغير شيء . وسرعان ما عدنا الى حياة الفرجة على معالم المدينة ، والشراء من الأسواق ، فاشترينا البطاطن والحرائر والحلى الفضية وأشغال الابرة القديمة والشباشب التركية ، وكافة أنواع الانتيكات والأشياء الجميلة ، وأخذنا ننتقل من المساجد الاسلامية الى الكنائس القبطية القديمة النادرة ، كما كنا نكرس ساعة أو ساعتين خلال معظم فترات بعد الظهر للتجول في متحف بولاق . وكنا نهي عمل كل يوم بالركوب في شارع شبرا أو القيام بجولة حول حدائق الأزبكية .

وفي تلك الفترة كان يجرى الاحتفال بمولد النبى في أرض فضاء واسعة على الطريق الى مصر القديمة . وهنا وفي دائرة تحوطها حوالى عشرون أو ثلاثون خيمة مفتوحة كانت تجرى قراءة القرآن الكريم ، وحلقات الدراويش طوال الليل والنهار بدون توقف وعلى مدى أسبوعين تقريبا . وبعد حلول الظلام عندما تتوهج الخيام كلها بالثريات المضيئة ، يبدأ الدراويش يصيحون ويقفزون ، وتشعل الألعاب النارية من منصة مضيئة في وسط المنطقة . وكان المنظر غريبا لأن القاهرة كلها اعتادت أن تذهب الى هناك على الأقدام أو فوق المركبات وذلك خلال الفترة ما بين الثامنة ومنتصف الليل من كل مساء . وكانت نساء الخديو المحجبات يحضرن في مركباتهن الصغيرة التي يجرها حصان واحد ليتصدرن المشاهدين .



الفتائر التي تصنع باسم النبي

وينتهي مولد النبي باحتفال استعراض الدوسة ؛ حيث يركب شيخ الطريقة السعدية حصانه في طريق مفروش بالمردين المنبطحين على الأرض . وقد شهدت السيدة (ل) والكاتبة هذا المنظر من الخيمة التي أقامها محافظ القاهرة ، حيث كانت هناك عدة مئات من البؤساء الذين رقدوا في الطريق متلاصقين مثل بلاطات الرصيف وأخذوا يدرون رؤوسهم وهم تحت تأثير الأفيون ، والصوم ، والصلاة ، بينما كان أفراد الموكب يسرون فوقهم راجلين أو راكبين . وبدأ الموكب وفي مقدمته حاملو البيارق ثم أخذ المشايخ الذي كان يقرأ القرآن بصوت مرتفع ثم الشيخ راكبا حصانه العربي الأبيض وقد أحاط به على الجانبين عدد من الشيوخ الذين يسرون حفاة . وكان الحصان جميل المنظر وقد أخذ يخطو بصعوبة واضحة ، خطوات خفيفة وسريعة بقدر ما يستطيع فوق الطريق البشري الذي تحت حوافره ، ويؤكد المسلمون أن أحدا لم يصب بجرح أو حتى

كلمة (١) خلال هذه المناسبة المقدسة ، ولكنني رأيت بعض الرجال
محمولين في حالة من التشنج وظهروا كما لو كانوا في حالة لن تسمح
لهم بالسير مرة أخرى (٢) .

ومن الصعوبة ألا نقول إلا كلمات قليلة لا تكفي لوصف مكان يحتاج
إلى مجلد شامل ، وكذلك فمن غير المستطاع أن نتجاهل متحف بولاق .
والحقيقة أن جميع هذه المجموعة من الآثار يعود في المحل الأول إلى
سخاء الخديو السابق وجهود مارييت . وفيما عدا محمد علي الذي
اكتشف في عهده معبد دندرة ، فإن أحدا من الولاة السابقين لم يشغل
نفسه بالاهتمام بآثار البلد . أما هؤلاء الذين اهتموا بهذه النفايات التي
أثقلت كاهل التربة أو رقدت مستخفية تحت رمال الصحراء ، فقد كانت
لهم حرية الاستيلاء عليها ، ولم يطلب منهم أحد القيام بهذا العمل
أو يمنحهم شيئا إلا التصريح بالحفر « بحثا عن الانتيكات » التي تمثل
ثروة متاحفنا من الآثار المصرية والمجموعات العديدة التي يمتلكها الأفراد
والتي تنتشر في كافة أنحاء أوروبا .

وقد أنهى اسماعيل باشا هذا السلب الذي كان يجري على نطاق
واسع حيث كانت المومياوات تباع لأجل المراهم أو في مقابل الخردة ،
ولكن للمرة الأولى أصبح تصدير المومياوات خروجاً على القانون ، وللمرة
الأولى أيضاً أصبحت لمصر مجموعتها الوطنية المملوكة لها .

وبالرغم من أن متحف بولاق هو أصغر المتاحف العظيمة إلا أن
مجموعته الأثرية أغنى المجموعات في العالم من حيث التماثيل النصفية
للأفراد ، واللوحات الجنائزية ، والتعاويذ والمومياوات التي تمثل سكان
وادي النيل القدماء ، أنه بالطبع أقل غنى في التماثيل الضخمة التي تملأ

(١) « قيل أن هؤلاء الأشخاص والشيخ أيضا يستخدمون كلمات معينة (أي يريدون
صلوات وأدعية) في اليوم الذي يسبق هذا الاستعراض حتى يستطيعوا احتمال وطأة
حوافر الحصان دون أن يصابوا بالآذى وأن بعض الذين لم يستعدوا ثم جازفوا بالقاء
أنفسهم تحت حوافر الحصان قد حدث في أكثر من مرة أنهم قتلوا أو أصيبوا بجروح
شديدة . وكان الناس يعتبرون هذا الاستعراض معجزة تتم بواسطة قوة خارقة
 للطبيعة وهبها الله لكل خليفة من مشايخ الطريقة السعدية » . انظر كتاب إدوارد لين :
Modern Egyptians الفصل الرابع والعشرين ، ص ٤٥٣ ، لندن سنة ١٨٦٠ .

(٢) صدر أمر الخديو الحالي (توفيق) بمنع هذا الطقس البربري . (ملحوظة
مضافة إلى الطبعة الثانية) .

قاعات العرض الكبيرة بالمتحف البريطاني ومتحف تورين ومتحف اللوفر . وقد كانت هذه التماثيل فوق الأرض وعددها قليل نسبيا الا أنها كانت تسلب منذ فترة طويلة وتصدر الى أوربا . أما تماثيل متحف بولاق فهي مستخرجة من المقابر . ان تماثيل شيخ البلد المشهور والمصنوع من الخشب قد كتب عنه الكثير (١) والتمثال العظيم المصنوع من حجر الديوريت للملك خفرع باني الهرم الثاني ، والتمثال العظيم الجالس للأمير رع - حوتب والأميرة نفرت - هذه التماثيل جميعها نصفية . وهي مثل المقابر التي وجدت فيها قد تم تنفيذها في حياة الأشخاص الذين تمثلهم . وبعد أن عبرنا عتبة البهو الكبير (٢) وجدنا أنفسنا محاطين بحشد من هذه التماثيل غير العادية التي كانت واقفة وملونة ومرتدية ملابسها وجميعها في حالة حركة ، مثل الدخول الى غرفة مزدحمة بأحد القصور الملكية في عصر الدولة القديمة .

والعدد الأكبر من تماثيل متحف بولاق النصفية منحوت في الوضع الذي يعرف بالوضع الهيراطيقي ، الذي يتمثل في خفض الذراع اليسرى وضغطها ملاصقة للجسم ، بينما تمسك اليد اليسرى بلقافة من ورق البردي . أما الساق اليمنى فهي متقدمة للأمام ، واليد اليمنى مرفوعة وهي تمسك بالعكاز . وكان ذلك يعني بالنسبة لي معنى أعمق مما يظهر لأول نظرة بالنسبة لهذا الوضع التقليدي . وربما كان يوحي بلحظة البعث ، عندما يسير الميت للأمام وهو يمسك بنسخة كتاب الموتى الخاصة به خارجا من قبره الى نور الحياة الأبدية .

ومن أشهر التماثيل المصرية تمثالا الأمير رع - حوتب ، والأميرة نفرت ولا بد أنهما أقدم التماثيل النصفية في العالم (٣) وقد استخرجا

(١) انظر Egypt of the Pharaoh's and the Khedive تأليف زلك B. Zinke. الفصل التاسع ، ص ٧٢ ، لندن سنة ١٨٧٢ . وكذلك La sculpture Egyptienne تأليف سولدي E. Soli ، ص ٥٧ ، باريس ١٨٦٧ ، وأيضا The Ethnology of Egypt وهو مقال بقلم البروفيسور أوين نشر بمجلة Journal of Anthropological Institute المجلد الرابع ، سنة ١٨٧٤ ، ص ٢٢٧ ، وكان اسم هذا الشخص هو رع - ام - كا .

(٢) لقد وجدنا تمثال الملكة تي في هذا البهو الكبير .
(٣) لا يوجد دليل يبين أن تماثلي سيبا ونيسا اللذين بمتحف اللوفر يعودان الى عصر سابق على الأسرة الرابعة .



الامير رع حوتب والاميرة نفرت .

من قبر يعود الى عصر الأسرة الثالثة ، وكانا معاصرين للملك سنفرو ، وهو ملك حكم مصر قبل عصر الملكين خوفو وخفرع ، بمعنى أن هذين الزوجين اللذين يجلسان أمامنا جنباً الى جنب ، وشيقتان وبراقان مثلما كانا عندما انتهيا من آخر جلسة لهما أمام الفنان . وقد عاشا في عصر لم يكن قد تم فيه بناء أهرام الجيزة ، وفي تاريخ يعود الى ما بين ٦٣٠٠ الى ٤٠٠٠ عام مضت . وتضع الأميرة شعرها بنفس الطريقة التي يستخدمها أهل النوبة ، وينتمي عقدها المكون من حبات من الحجر الكريم Cabochon الى طراز تحبه الراقصات اللاتي يعشن في أيامنا هذه ، وعينا كل من التمثالين مفتوحتان . وقد صنعت مقلة العين الموضوعية داخل جفون برونزية ، من الكوارتز الأبيض المعتم مع قزحية من البلور الصخري تطوق انسان العين المصنوع من نوع من المعدن البراق . وهذه الصفة التي لا يوجد مثيل لها سوى في مخطوط أو اثنين ، تعطى للعين نظرة تنم عن الذكاء الشديد . وهناك لمحة من الضوء في مقلة العين ، ورطوبة فوق السطح لم يصل اليها فن صناعة العيون الزجاجية في عصرنا الحالي (١) .

(١) « Enfin nous signalerons l'importance des statues de Meydoun au point de vue ethnographique. Si la race Egyptienne était à cette époque celle dont les deux statues nous offrent le type, il faut convenir qu'elle ne ressemblait en rien à la race qui habitait le nord de l'Egypte quelques années seulement après Snefrou. » — Cat. du Musée de Boulaq, A Mariette Bey. p. 277 ; Paris, 1872. =

أما عن مجوهرات الملوك عا - حوتب فهي مكونة من الجوارين المنقورة والخوانم ، والتماثيل ، وأدوات الزينة ، أما عن الزهريات فهي مصنوعة من البرونز والفضة والمرمر والصيني . أما عن الموائد التي تسكب عليها تقدمات النبيذ ، والأقمشة المنسوجة ، والفخار الأسمر الضارب الى الحمرة ، وموديلات الفنانين ، والمصايبج والقوارب الفضية والأسلحة وأوراق انبردى ، والآثار والأدوات المعدة للاستخدام الشخصى التي يبلغ عددها واحدا بعد الألف والتي وضعت فى هذه المساحة ، فلن تتسع هذه الصفحات لذكرها . لا يوجد شيء فى مكان آخر يمكن مقارنته بمجموعة آثار متحف بولاق فيما عدا مجموعة بومبى التي فى نابولى ، ولكن لم تكتشف فى فيلات بومبى مثل تلك الحلوى التي اكتشفت فى مقابر المصريين القدماء . ولن نبالغ فى القول ، اذا ذكرنا أنه لو عاد هؤلاء الموتى والمحنطون الى الأرض فان الكاهن سيجد جميع آلهة هيكله ، والملك وصولجانه ، والملكة وجواهر تاجها ، والكاتب ولوحته ، والجندي وأسلحته ، والعامل وأدواته ، والحلاق وأمواسه ، والفلاح وفأسه ، وربة المنزل ومكنستها ، والطفل والى التي يلعب بها ، والأمشاط وزجاجات الكحل والمرايا التي تستخدم فى التجميل ، ان كل أثاث المنزل موجود هنا وكذلك أثاث المقبرة . ونجد هنا أيضا أن الصنوج المكسورة قد دفنت مع الموتى تذكرارا لأحزان الأحياء .

ويمثل المبنى الحالى مأوى لهذه المجموعة فى انتظار بناء صرح أكثر صلاحية . وفى نفس الوقت فانه لو لم يكن هناك شيء يغرى السائح بزيارة

= ويذكر البروفيسور أوين عن رأس هذين التمثالين أن « جمجمة الرجل بيضية الشكل ، وقد ظهرت فيها نتوءات العظميتين الجداريتين بصعوبة ، بينما ارتفعت النتوءات التي على الجبهة فى خطوط رأسية متساوية وهى عرضة الى حد ما ، وليست محدبة . وقد ظهرت الجيوب الامامية القريبة من الأنف . أما الجبهة فهى واسعة ولكن غير بارزة . والشفتان أكثر امتلاء مما هو معروف لدى غالبية الأوربيين ولكن الفم غير ناتئ . أما ملامح السيدة فهى من طراز يتفق مع ملامح الزوج ولكنها تدل على جمال وتشطيب أكثر وضوحا وملون بدرجة أخف من لون تمثال الرجل ، ويكتشف عن آثار ملابس الفضل وأقل تعرضا للشمس . أما نوعية البشرة فهى واضحة فى مثل تلك الأدلة التي تكشف عنها درجة التدرج اللونى بسبب التعرض للعوامل الجوية . ان اللون الاضلى للوجوه المصرية يظهر فى حالته الحقيقية فى تمثال الأميرة النصفى أكثر منه فى تمثال زوجها أو رفيقها ، انظر : The Enthology of Egypt تأليف : سير اوين R. Owen نشر فى مجلة Journal of Anthropological Institute - المجلد الرابع - لندن سنة ١٨٧٤ ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

القاهرة فيكفى متحف بولاق وحده كمكان يستحق القيام بالرحلة من أوروبا . وأول جولة يتحتم على الإنسان أن يقوم بها عندما يعود الى القاهرة ، وآخر جولة قبل أن يرحل عنها ، هي زيارة الجيزة . ولا يمكن أن تشعر بالتعب من زيارة الأهرام . وقد قضت السيدة (ل) والكاتبة هنا يومهما الأخير في القاهرة ومعهما الزوجان السعيدان .

وتركنا القاهرة مبكرين لمقابلة أهل الريف أثناء قدومهم فوق ظهور الحجير ، وعربات الكارو المحملة بالخضروات ، والنساء المحجبات اللاتي يحملن السلال فوق رؤوسهن . وكان قصر الحديو الجديد مزدحما بعمال البناء . وكانت قوافل الجمال تحمل كتل الأحجار الجيرية للبنائين . وبعد ذلك يأتى السهل الواسع المزروع بالقمح سواء ما كان منه أصفر اللون أو أخضر اللون . والشارع الطويل المستقيم الذى تقوم على جانبيه أشجار السنط ، وخلف ذلك كله الهضبة الصحراوية والأهرام . نصفها فى الضوء ، والنصف الآخر فى الظل ذى اللون الذى يتراوح ما بين الرمادى والأخضر فى مواجهة الأفق . ولم أستطع أن أفهم لماذا كان الهرم الثانى بالرغم من صغر حجمه وبعده ، يبدو من هذه النقطة أكبر من الهرم الأول (*) . وبعد ذلك شاهدنا الفلاحين وقد غاصوا حتى الركبة وسط الأزهار الأرجوانية المتفتحة وهم يقطعون البرسيم ثم تحمله الجمال وتمضى به بعيدا . وكانت الماعز والجافوس ترعى فى الأراضى الواسعة التى قطعت أشجارها ، ثم تأتى المقبرة التى فى منتصف المسافة وقد استكانت بين أوراق الشجر الخضراء حيث كان الرجال والخيول يشربون الماء . وسرعان ما سرنا بمحاذاة بركة محاذية للنهر ، كانت تعكس الأهرام على صفحاتها مثل المرأة . وكانت القرى والشواذيف والقطعان ومزارع النخيل الواسعة ، وحقول القمح ، ومساحات الأراضى المحروثة والمتروكة بدون زراعة للراحة ، تتوالى واحدة بعد الأخرى . ثم يظهر المنحدر الرملى مرة أخرى والحافة المنخفضة للصخرة الصفراء القديمة ، والهرم الأكبر الذى كان يشرف علينا من ناحية جانبه الظليل ويحجب عنا ضوء النهار .

ولم تدخل السيدة (ل) أو الكاتبة الى داخل الهرم الأكبر ، ولكن الرجل الكسول دخله فى هذا اليوم ، كما دخلته وصيفة السيدة (ل) فى مناسبة أخرى . وأبلغنا كلاهما أن المكان خائف من الداخل ، وردى جدا

(*) لأنه مشيد على ريوثة عالية - (ل المراجع) .

تمتحت القدمين ، ويسبب الاجهاد الى درجة أننا كنا فى كل مرة نتجاهل الدخول ، وأنهيينا الزيارة دون أن ندخله . أما الصعود فهو أكثر سهولة لأنه بالرغم من ضخامة الكتل الصخرية الا أنه لا توجد واحدة منها يصعب أن تجد فيها مكانا تضع فوقه قدميك لكى تقسم المسافة . ولولا مساعدة ثلاثة رجال من الأعراب لكان الصعود أكثر اجهدا . أما عن هؤلاء الرجال فانهم مهذبون ويقدمون العون عند الحاجة ، وهم أذكيا ويستخدمون استخدام أساليب التملق أثناء قيادتهم لك من كتلة الى أخرى مستخدمين فى ذلك كافة اللغات الأوربية .

وكنا نرد عليهم باستخدام بقية العبارة التى ذكرنا نصفها الأول فكانوا يرددونها مرة أو مرتين ويحفظونها وهم فى غاية الرضا . وقد سألتهم لماذا لم ينحتوا درجات فى هذه الكتل الصخرية لاستخدامها مثل السلالم حتى تسهل تسلق الهرم . وكان الجواب جاهزا ومختصا :

« لا يا سيدتى . انه من الغباء أن يفعل الأعراب ذلك لأنه لو حفرنا هذه الدرجات فان الخواجة سيصعد بمفرده ، ولن يحتاج الى الأعراب لمساعدته ، وبالتالي لن يكسب الأعرابى المزيد من الدولارات ! » .

وعند وصولنا الى القمة عرضوا علينا أن يغنوا النشيد الأمريكى « Yankee Doodle » ولما عرفوا أننا انجليز صاحوا قائلين : « ليحفظ الله الملكة » ، وذكرنا لنا أن أمير ويلز أعطى ٤٠ جنيها استرلينيا لأعراب الأهرام عندما جاء هنا مع الأميرة منذ عامين ، وقد شككنا فى ذلك . وقد قيل ان مساحة قمة الهرم الأكبر تبلغ ٣٠ قدما مربعا ، وهى ليست مسطحة كما كنت أتوقع . لقد بقيت بعض الكتل من المدماك الثانى والثنتان أو ثلاثة من التى فوقه ، وبذلك وجدنا مقاعد مريحة ، وأركاننا ظليلة . وكان أكثر المناظر التى شاهدناها من القمة اثاره هو القرب المذهل من كافة مظاهر الهرم الثانى . لقد كان يرتفع بجانبنا مثل الجبل ، ولكنه قريب لدرجة أننى تهيأ لى أننى يمكن أن ألمسه اذا بسطت يدى نحوه . وقد ظهرت بوضوح تام كافة تفاصيل السطح وكل شق وبقعة ملونة بلونين فى الجص اللامع المتصق بالقمة .

والمنظر من هذا المكان شديد الروعة ، فالأرض الزراعية منبسطة ، والجو شديد الصفاء ، والنقطة التى تقف فوقها منعزلة لدرجة أن الانسان يرى أكثر وأبعد مما يراه من فوق قمة جبل ارتفاعه عشرة أو اثنا عشر ألف قدم .



ابو الهول والاهرام

وتظهر الأرض كما لو كانت تحت أقدامنا مباشرة ، وتبدو المقابر العظيمة كما لو كانت مرسومة على خريطة تخطيطية • أما التأثير فهو كما أظن مثل تأثير سطح الأرض عندما ننظر إليها من داخل بالون ، ولا يمكن تكوين فكرة عامة وإضحة عن الطريقة التي تم بها تجهيز هذه الجبانة للدفن بدون الصعود الى قمة الهرم • ونرى من هذه البقعة كيف أن كل هرم ملكي محاط بفناء مربع من المقابر الأقل حجما ، بعضها على شكل أهزام صغيرة ، والبعض الآخر محفور في الصخر ، أو مبني فوق مصاطب ضخمة مثل الأحجار التي في سقوف المعابد •

إننا نرى كيف رقد كل من خوفو وخفرع تحت جبل الأحجار الخاص به وحوله أفراد أسرته ونبلاؤه ، كما نرى الطرق المرتفعة العظيمة التي جذبت هيرودوت نحو هذه المعجزة ، والتي استخدمت لاحضار الأحجار الضخمة • وعرفنا بوضوح كيف أن المكان عبارة عن مقبرة عظيمة مما جعلنا نغيب للأفكار التي يمكن أن تحول الأهرام الى مراصد فلكية ونماذج معقدة لقياس الأجسام ، إنها أضخم المقابر في تاريخ العالم كله (١) •

(١) أن الكلمة الانجليزية التي تطلق على الهرم (Pyramid) بيراميد والتي تكررت عنها الكثير من الاجتهادات اللغوية موضحة في بردية المتحف البريطاني الهندسية بأنها مصرية خالصة وتكتب : بير - ام - امن •

وتظهر رأس (أبو الهول) وسط منخفض رملي على مسافة قليلة نحو الجنوب . ويجثم هذا المارد الخرافي الذي يبدو أنه أقدم من الأهرام مرفوع الرأس مثل كلب الحراسة الذي يتجه بأنظاره نحو الشرق الى الأبد كما لو كان ينتظر فجرا لم يبرز نوره بعد (١) .

وهناك منخفض في الرمال القريبة يبين هذا الأثر الغريب الذي يطلق عليه خطأ اسم معبد (أبو الهول) (٢) .

(١) « On sait par une stèle du musée de Boulaq que le grand Sphinx est antérieur au Roi Chéops de la 4e Dynastie. » Dic. d'Arch. Egyptienne : Article 'Sphinx', P. Pierre, Paris, 1875.

[وكان من رأى حاريت وهو أيضا رأى البروفيسور ماسبيرو أن تمثال أبى الهول يعود تاريخه الى عصر « أتياح حورس » أى عصور ما قبل التاريخ عندما كان يحكم مصر عند من الزعماء الصغار ، قبل أن يوحد مينا الأقاليم القديمة فى مملكة واحدة . وأصبحت هذه الأقاليم نوماذى مقاطعات تعود الى بداية التاريخ المدون ، كما صار الزعماء القدامى اقطاءعيين نصف مستقلين ، كما هو واضح فى سلطاتهم الكبيرة وأهميتهم الواسعة على أيام الأسرة الثانية عشرة . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية)]

وقد حلت مشكلة معنى اسم (أبو الهول) التى طال النزاع حولها ، عندما بين مسيو روجيه حسب نقش وجده فى اندو ، أن (أبو الهول) يمثل تجسد حورس الذى اتخذ شكل أسد براس انسان لكى يخلب ست (تيفون) وكان حورس يعبد بهذا الشكل فى مقاطعة لينتوبوليس . وقد ورد فى لوحة متحف بولاق التى سبق ذكرها والمعروفة باسم : حجر خوفو ، أن (أبو الهول) العظيم قد عرف باسم هرم حور - أم - خو ، أو حورس الذى فى الألق . وتعود هذه التسمية الى الاتجاه الذى يتخذه التمثال . وقد جرت تساؤلات عن السبب الذى جعل التمثال يتجه الى الشرق . وأظن أن الإجابة ستكون : لأن حورس الذى ينتم لأبيه أوزوريس ينظر الى الشرق منتظرا عودة أبيه من العالم السفلى ، لأن حورس هو الذى يحكم مصر ولذلك فقد اتخذ كل فرعون لقب حورس الحى ، الصقر الذهبى .. الخ .. الخ ولذلك كانت ملامح الملك الحاكم تتخذ دائما شكل (أبو الهول) عند التعبير عنها فى الأعمال المعمارية كما هو واضح فى معابد الكرنك ، ووادى السبع ، وتانيس .. الخ .. الخ .

(٢) من المؤكد أنه ليس معبدا ، وربما كان مصطبة أو هيكل لتقديم القرابين ، انه شديد الشبه بالمقابر وقد بنى كله بأحجار شديدة اللمعان من المرمر والجرانيت الأحمر ، نحتت فى أشكال مربعة ، ووضعت ببساطة مثل رجمة الأحجار التى فى السهل شمال سالزبورى بإنجلترا ، والتى تعود الى عصور ما قبل التاريخ . وهو يتكون من قاعة امامية ، وبهو للأعمدة وثلاث حجرات رئيسية وبعض الحجرات الأصغر حجما ، وتجوف سرى وحائط . وتحترق الحجرات على فجوات افقية من الصعب افتراض أنها كانت مخصصة لشيء إلا استقبال المومياوات ، وقد وجدت فى قاع البئر ثلاثة تماثيل للملك خفرع أحدها هو التمثال النصفى المشهور المصنوع من حجر الديوريت والموجود حاليا بمتحف بولاق . وقد ذكر مسيو دى بارى مرقال فى مقال منشور بمجلة Revue Arch. =

وفوق أعلى منحدر فى هذه الهضبة الصحراوية ، بعيدا الى الغرب ،
يقع هرم منقرع الذى لم يفقد من ارتفاعه الا خمسة أقدام ، ولكنه
يبعد من هذه المسافة كاملا تماما .

وهذه الأشياء الباقية على الدوام فى متاهة الصحراء ، هى
أول ما وقعت عليه أعيننا . والمنظر بوجه عام يزيد فى الطول عن
العرض ، وتحده الصحراء الليبية من الجانب الغربى ، وتلال المقطم من
الجانب الشرقى . وعند سفح هذه التلال الصفراء التى يفصلها عنا سهل
المزروع الذى عبرناه عند حضورنا ، تقع القاهرة بقبابها اللامعة التى نرى
نصفها من خلال الضباب الذى يديره ضوء الشمس . ويطل على هذه المدينة
العظيمة مسجد القلعة بمآذنه التى تشبه أشعة السفن وهى تشق عنان
السما الصافية . وعلى البعد فى اتجاه الشمال تقع مزارع النخيل الظليلة
التي تمر عليها العين واحدة بعد الأخرى حيث تفقد اتجاهها فى مناطق
الدلتا السوداء الخصيبة . أما فى الغرب والجنوب فلا توجد الا الصحراء
الممتدة . وتبدأ عند موطئ أقدامنا هنا متاهة واسعة من الوديان
والمحدرات ، مع أنهار وبحار من الرمال تقطعها هنا وهناك حواف حادة
من الصخور ، وتلال من أحجار الأطلال ، والمقابر المفتوحة . وهناك خط
فضى يشق حافة هذا العالم الساكن ويضمحل فى اتجاه الجنوب فى
الضباب المختلط بضوء الشمس الذى يلعب فى الأفق البعيد .

ونرى على شمال هذا الخط الفضى محاجر طرة الصخرية ، ونخيل
منف الذى يشبه ريش الطيور . كما تقع أهرام (أبو صير) وسقارة
ودهشور أعلى الهضبة الصحراوية . وقد ظهرت كل مصطبة من مصاطب
هرم ونيفيس (زوسر) من خلال الضوء والظل فى بساطة متناهية .
وكذلك قمة هرم دهشور العظيم التى تشبه القبة . وحتى الخرابة التى
بجانبه المكومة فيها قوالب الطوب والتى حسبناها صخرة سوداء مازالت
موجودة وواضحة تماما . ويقف بعيدا عن هذه المعالم كلها مثل برج بابل
الذى لم يكتمل بناؤه ، هرم ميدوم ، شاجبا وسط أضواء الظهيرة المرتجفة .
وكانت عيوننا تتجه الى هذه الناحية فى اتجاه الصحراء المترامية الأطراف

= (المجلد السادس والعشرين ، باريس، سنة ١٨٧٢) يوضح أن معبد (أبو الهول)
ليس فى حقيقته إلا تابعا من توابع الهرم الثانى . ومن الممكن أن تكون الفجوات
قد صممت لإستخدام الملكة واسرة الملك خفرع الذى من المفروض أن تكون موميأوه قد
دفنت فى الهرم الخاص به .

والتي تتخفى خلف أسرارها التي ترسل الضوء والهدوء ، الى نهر النيل.
عندما تسطع مرة ثانية ، ومرة ثالثة ، حتى تنصهر أخيرا عند تلك المسافة
البعيدة الباهتة التي تقع بعدها طيبة وقبله ، أو سنبل .



الملاحق

الملحق الأول

خطاب المحترم ماك كالوم الى محرر جريدة التايمز

سيدي :

قد يهم قراءك أن يعلموا أنني وجدت في الجانب الجنوبي من المعبد الكبير في أبي سنبل المدخل الى حجرة ملونة منحوتة في الصخر أبعادها ٢١ قدما ، ٢ ١/٢ بوصة في ١٤ قدما ، ٨ بوصات ، وارتفاعها ١٢ قدما حتى قمة العقد . وهي منحوتة وملونة حسب أحسن طرازات الفن المصري في أزهى عصوره . وتحمل الصورة النصفية للملك رمسيس الأكبر وخرائشه وهي سليمة تماما . وتلي هذه الحجرة خرائب غرفة رئيسية ذات سقف مقبب مصنوعة من الطوب المجفف في الشمس ومتصلة ببقايا ما يبدو أنه حائط ضخيم أو بوابة يتضمن مدرج سلالم ينتهي الى مدخل مقبب يقود الى الحجرة الرئيسية التي سبق ذكرها من قبل .

وكان مدخل الغرفة المنقوشة ومدرج السلالم والعقد المقبب، جميعها مدفونة في الرمال والانقاض . ويبدو أن الغرفة كانت مغطاة ومتروكة منذ زمن بعيد حيث كانت كلها لا تشوبها مخربشات السياح القداماء والمحدثين . ولم يكن مدرج السلالم قد فتح حتى يوم ١٨ عندما اكتشف واحد من وجهاء مجموعتنا عظام امرأة وطفل ومعهما جرتان لحفظ الأحشاء وجميعها مدفونة في الرمال . ولا شك في أن هذه كانت مدفونا تابعا . سواء أكانت هذه الغرفة المنقوشة هي الهيكل الداخلي لمعبد صغير أم جزءا من مقبرة أم مجرد مغارة صغيرة مثل المغارات المشهورة في ابريم ، فإنها ستكون محل حفائر مستقبلية لتقرير ماهيتها . ويسعدني يا سيدي أن أكون ٠٠٠٠ الخ .

أندرو ماك كالوم

كوروسكو - النوبة - ١٦ فبراير سنة ١٨٧٤

الملحق الثاني

مجمع آلهة قدماء المصريين

تتكون آلهة قدماء المصريين من آلهة سماوية ، وأرضية وجهنمية مع العديد من الشخصيات السفلية سواء منها ما يمثل الآلهة العظمى أو الآلهة الأخرى التابعة لها . وكانت معظم الآلهة مرتبطة بالشمس وتمثل ذلك الجرم السماوي في مساره من خلال نصف الكرة الأرضية العلوى أو السماء ونصفها السفلى أى الجحيم (هاديس) وينتمى إلى آلهة الدائرة العظيمة التي كانت تعبد في طيبة وهليوبوليس ، وقد رتبت الآلهة حسب عبادتها المحلية في مصر إلى ثلاثيات محلية مثل ثالوث منف المتمثل في الإله بتاح وزوجته مرينبتاح وابنه نفر آتوم ، كما أنها كانت تمثل ثالوثا يضاف إليه أحيانا الآلهة بسست أو يوباستيس . وفى أبيدوس كان الثالوث المحلي مكونا من أوزيريس وإيزيس وحورس ومعهم تفتيس . وفى طيبة كان يوجد آمون رع أو آمون وموت وخونسو ومعهم نيس . وفى الفتنة كانت توجد الآلهة نيف ، وأنوكا ، وسيتى ، وهاك ، ونجد أن أسماء الآلهة كانت في معظمها مصرية المعنى فمثلا بتاح يعنى : الفتح ، وآمون يعنى : الحفى ، ورع يعنى الشمس أو اليوم ، وحتحور يعنى منزل حورس . ولكن القليل منها خاصة فى العصور المتأخرة كان مرتبطا بأصول سامية مثل بعل وعشتاروت أو عشتار وخين أو كيون ، ورسبو أو رسيب . وإلى جانب الآلهة الرئيسية دخل إلى التنظيم الدينى العديد من الآلهة السفلية أو الغريبة Parhedral كان بعضها يجسد أحيانا القدرات ، أو الحواس ، أو غيرها من الأشياء ، وكذلك المردة أو الأرواح أو يجسد أرواح الآلهة . فى فترة تالية انقسمت الآلهة إلى ثلاث رتب . الرتبة الأولى أو العليا تكونت من ثمانية آلهة كانت مختلفة ما بين الطرازين المنفى والطيبى . كان المفروض أنها تحكم مصر قبل عصر الفناء . وكانت آلهة الطراز الأول فى منف هى : ١ - بتاح ، ٢ - شو ، ٣ - تفتوت ، ٤ - جب ، ٥ - نوت ، ٦ - أوزيريس ، ٧ - إيزيس وحورس ، ٨ - حتحور . أما آلهة طيبة فكانت : ١ - آمون رع ، ٢ - منتو ،

٣ - آتوم ، ٤ - شو وتفنوت ، ٥ - جب ، ٦ - أوزيريس ، ٧ - سنن
ونفتيس ، ٨ - حورس وحتحور . لقد كانت آلهة الطراز الثاني يبلغ
عددها اثني عشر الها ولكن لم يكن من بينها أسماء مصرية سوى اسم
واحد فقط هو اسم هركيوليس (هرقل) وقد ورد أن الطراز الثالث
كان مكونا من أوزيريس الذي يظهر منضمًا الى الطراز الأول . انظر
كتاب . Guide to the first and second Egyptian Rooms ، دليل
الغرفتين المصريتين الأولى والثانية بالمتحف البريطاني تأليف : س . بيرش -
سنة ١٨٧٤ .

وأشهر الآلهة التي ظهرت على الآثار هي بتاح وخنوم ورع وآمون
رع ومين وأوزيريس ونفر آتوم أو آتوم وحتوت وجب وست وخونسو
وحورس وموت ونيت وإيزيس ونوت وحتحور وباست . ويمكن التعرف
عليهم بالصفات الآتية :

بتاح : في شكل مومياء ممسكة بالشعار الذي يطلق عليه
البعض اسم مقياس النيل بينها يطلق عليه آخرون اسم رمز الاستقرار .
وهو يسمى « أبو كل البدايات وخالق بيضة الشمس والقمر » . وهو
الاله الرئيسي في منف .

خنوم : له رأس كبش ويدعى صانع الآلهة والبشر وروح الآلهة .
وهو الاله الرئيسي في الغنتين والشلال .

رع : له رأس صقر ومتوج بقرص الشمس وتخطيط الحية بالقرص ،
وهو موزع ومنظم العالم ، وكان يعبد في مصر كلها .

آمون رع : على شكل انسان وهو متوج بغطاء للرأس ذي قمة
مسطحة . واثنين من ريش الطيور في وضع مستقيم . ويلبس نقبة قصيرة .
وكانت بشرته تلون أحيانا باللون الأزرق . وتوجد أشكال كثيرة من هذا
الاله ولكنه يوصف بأنه ملك الآلهة . وهو الاله الرئيسي في طيبة .

مين : له شكل مومياء انسان ويلبس رداء الرأس الذي يلبسه آمون
رع ويده اليمنى مرفوعة وهي تمسك بمضرب درس الجبوب . وهو اله
الانتاج والتوالد وهو الاله الرئيسي لمدينة أخميم . وقد توحد في الاله
آمون في العصور المتأخرة وأطلق عليه اسم : آمون خيم .

أوزيريس : له شكل إنسان ، فى وضع المومياء ومتوج بتاج مخروطى الشكل ، ويمسك فى يده مضرب درس الحبوب والعصا التى يستخدمها الرعاة ويسمى الكائن الطيب ، والسيد الذى يعلو فوق الجميع ، والسيد الأوحى ، وهو إله العالم السفلى وقاضى محكمة الموتى وممثل الشمس تحت الأفق ، ويعبد به جميع المصريين القدماء ، وهو الإله المحلى فى أبيدوس .

نفر آتوم : له رأس إنسان ومتوج بغطاء الرأس المعروف لدى قدماء المصريين « بسشنت » . وهذا الإله يمثل الشمس الغاربة أو الشمس التى تهبط لتنير العالم السفلى . وهو الإله المحلى فى هليوبوليس .

تحتوت : فى شكل رجل وله رأس أبيس ويرسم فى العادة ممسكا بقلم ولوح الكتابة اللذين يستخدمهما الكاتب ، وكان هو إله القمر وإله حروف الكتابة وهو الإله المحلى فى سيسون أو هرموبوليس .

سب (جب) : أبو الآلهة وإله النباتات الأرضية . فى شكل رجل على رأسه اوزة .

ست : يرمز له بحيوان رمزى له كمامة وأذنان مثل ابن آوى ، وله جسم حمار ، وذيل منتصب مثل ذيل الأسد . وكان فى الأصل يشبه إله الحرب ولكنه فى العصور الأخيرة صار رمزا للشر وعدوا لأوزيريس .

خونس (خونسى) : له رأس صقر ومتوج بقرص الشمس والقرنين. ويصور أحيانا على شكل شاب معه كالون واقفا فوق تمساح .

حورس : يظهر على شكل حورس أوزيرس أى المتوج أو حورس - حربوقراط (Harpocrates) أو حورس الطفل . وهو يصور فى الشكلين الأولين على هيئة رجل له رأس الصقر ويرتدى تاج الوجهين. المزدوج . أما فى الشكل الأخير فيظهر كطفل معه الكالون . وهو الإله المحلى فى ادفو وهى (أبولينيوبوليس ماجنا) .

موت : امرأة ترتدى رداء فضفاضاً وتلبس غطاء الرأس الفرعونى المعتاد تحت تاج على شكل نسر . وكانت تعبد فى طيبة .

نيت : امرأة ترتدى رداء فضفاضاً وتمسك أحيانا بالقوس والسهم وهى متوجة بتاج مصر السفلى وهى تترأس على الحرب والأنوال المستخدمة فى النسيج وكانت تعبد فى طيبة .

ايزيس : امرأة متوجة بقرص الشمس وتجلس على عرش وأحياناً تحيط بها القرون وكانت تعبد في أبيدوس وفيلة وقد سكنت روحها سوئيس أى نجم الكلب .

نوت : امرأة منحنية بحيث تلمس الأرض بأصابع يديها ، وهى تمثل قبة السماء وهى أم الآلهة .

حتحور : لها رأس بقره ومتوجة بقرص الشمس وريش الطيور ، وهى الهة أمنتى أو العالم الآخر لدى قدماء المصريين وكانت تعبد فى دندرة .

باستت وسخمت : يبدو أن باستت وسخمت شكلان لالهة واحدة لأن سخمت تصور فى شكل امرأة لها رأس أسد وعلى رأسها قرص الشمس والحية ، بينما باستت لها رأس قطة وتمسك بالصلصل وهى تعبد فى يوباستس (تل بسطة) .

الملحق الثالث

العقيدة الدينية لدى قدماء المصريين

هل كان قدماء المصريين يؤمنون بآله واحد ، كانت صفاته ممثلة في آلهتهم المتعددة ؟ أم أن البناء الكلي لعقيدتهم كان معقودا على أسطورة شمسية بكافة تشعباتها المختلفة والمحتومة ؟ وهذه هي مشكلة علم المصريات الحويصة وهي مشكلة لم تحل بعد ، ويختلف علماء المصريات بشدة حول هذا الموضوع بحيث أصبح من المحال التوفيق بين آرائهم ، لدرجة أن وصف أى معبد يستكمل بدون العودة الى هذه المسألة المهمة . ولما كان السؤال نفسه يتصدر كل رأى يتكون عن مصر القديمة والمصريين القدماء فقد فكرت في أن أجمع هنا بعض المقتطفات المعبرة من كتابات واحد أو اثنين من كبار المؤلفين الذين تعرضوا للموضوع .

● تتكون ديانة المصريين القدماء من الايمان بآله متعددة ممثلة في سلسلة من المجموعات المحلية . وكانت فكرة عبادة اله واحد قائم بذاته موجودة في معظم مفاهيم الآلهة الرئيسية الذين قيل عنهم أنهم أنجبوا آلهة أخرى ورجالا وكافة الكائنات والأشياء . وكانت الشمس هي أكبر الأشياء التي عبدوها في أشكالها المختلفة مثل الشروق ، ووسط النهار ، والغروب تحت أسماء مختلفة وكانت موحدة خاصة في طبيعة مع أشكال الآلهة الأخرى مثل آمون ومنتو . أما أقدم الآلهة وهو الإله بتاح الذي كان يعبد في منف ، فقد كان هو خالق السماء والأرض والآلهة والبشر ، ولم يكن موحدا مع الشمس . وبجانب عبادة الآلهة السماوية انتشرت عبادة أوزيريس وإلى جانبها عبادة خصمه ست ، الشيطان المصري ، قرين الروح ، وقاضى المستقبل ، والجحيم (هاديس) والعالو Aahlu أى الفردوس ، والاتحاد الأخير للروح مع الجسد بعد غياب قزون عديدة . وإلى جانب آلهة السماء ، والنور ، والعالم السفلي ، كانت هناك آلهة أخرى تجسد عناصر أو عمليات الطبيعة ، والفصول ، والأحداث . عن كتاب : Guide to the First and Second Egyptian Rooms المتحف البريطاني - تأليف سن . بيرش ، سنة ١٨٧٤ .

● « كانت هذه الديانة المختلطة بالعديد من الأساطير المعقدة قد اندمجت مع تفسيرات طبيعية متناقضة لم يتم تطبيق أى منها بشكل اجماعى . أما الذى لا نشك فيه وهو ما يظهر لنا كذلك من النصوص ويلقى قبول العالم كله ، فهو الاعتقاد فى إله واحد . أما تعدد الآلهة فهو مجرد مظهر خارجى . ان الآلهة المتعددة ليست الا توضيحا للكائن الواحد فى قدراته المختلفة . وهذا الاتجاه نحو الرمز للمعاني العظيمة برموز محسوسة ، وهو الذى انتقلت عنه اللغة الهيروغليفية ، قد أوجد تشابها فى التعبير عن الفكرة الدينية ، وهذه الفكرة قد اختفت فى العصور الأخيرة وراء رمزيات متعددة » .

عن كتاب العالم ب . بيير . Dictionnaire d'Arch. Egyptienne . المنشور سنة ١٨٧٥ وقد ترجمت عن المادة التى تحت عنوان: Réligion .

● « كان إله قدماء المصريين واحدا ، وكاملا ، ومانحا للمعرفة والذكاء وأبعد ما يكون عن الغموض بحيث لا يستطيع أحد الحديث عن الغموض . انه الواحد الذى يوجد بالضرورة ، والروح الواحد الذى يعيش فى جميع الماديات ، والمولود الوحيد فى السماء والأرض الذى لم يلد أحد ، وهو أبو الآباء وأم الأمهات ، وهو دائم الوجود والكمال الذى لا يتغير . وهو الموجود فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو يملأ الكون بحيث لا تستطيع أية صورة أرضية أن تعبر عن حجمة الكبير ، وهو موجود بحيث تشعر بوجوده فى كل مكان ولكنه غير محسوس فى أى مكان » .

عن كتاب العالم ج . ماسبيرو Histoire Ancienne des peuples de l'Orient . نشر فى باريس سنة ١٨٧٦ ، الفصل الأول - ص ٢٦ .

● « من سوء الحظ أننا كلما تعمقنا فى دراسة ديانة قدماء المصريين ؛ ازدادت شكوكنا حول الموقف الذى يجب أن نتخذه حيالها . لقد استمرت الحفائر منذ زمن طويل فى دندرة وادفو وكشفت لنا مصدرا خصباً للمادة العلمية » .

ان هذين المعبدين تغطيهما النصوص مثل كتابين دارت مادتهما حول الآلهة التى خصص لها المعبدان ويتحدثان أيضا عن العقيدة فى تفاصيلها العامة . ولكن لا يظهر من خلال هذين المعبدين ولا المعابد الأخرى التى عرفناها منذ فترة طويلة ، إله الواحد . واذا كان آمون « بداية البديات »

فى طيبة ، واذا كان بتاخ فى منف هو « أبو جميع الكائنات ، الذى ليس له بداية ولا نهاية » فان كل اله مصرى آخر كانت تنسب له هذه الصفات الوجدانية . وبمعنى آخر فبأننا نجد فى كل مكان آلهة لم يخلقها أحد وهى حية لا تموت ، ولا نجد فى أى مكان هذا الاله الواحد غير المرئى الذى ليس له اسم أو شكل والمفروض أنه يحوم فوق القمة العليا لمجمع الآلهة المصرية . وقد تم الكشف حاليا عن معبد ذندرة وتم الوصول الى نهاية نقوشه المخفية ولكنها لا تتضمن أثرا لهذا الاله . والنتيجة الوحيدة التى يمكن أن نتوصل اليها هى أن العالم (من وجهة نظر قدماء المصريين) كان هو نفسه الاله وأن هذا التعدد يمثل أساس ديانتهم .

عن كتاب العالم ١. ماريت بك Itinéraire de la Haute Egypte

– نشر فى الاسكندرية سنة ١٨٧٢ – ص ٥٤ .

● « ان الشمس هى أقدم الأشياء التى عبدها المصريون القدماء كما وجدت على الآثار . كانت هى الاله الذى يولد كل يوم عندما يبرغ من حزن السماء ليلا ، وكانت ولادته هى الرمز الطبيعى للوجود الأبدى للالهية ، ولذلك أصبحت السماء هى الأم المقدسة . لقد كانت على وجه الخصوص هى السماء الليلية التى تتجسد فى هذه الشخصية . وكانت أشعة الشمس وهى توقظ كافة مظاهر الطبيعة تعطى الحياة للكائنات الحية . ومع أن ذلك كان فى الأصل مجرد رمز ، الا أنه كان هو أساس العقيدة الدينية . ان اله الشمس نفسه هو الذى نجده مثلا فى شكل الكائن الأعظم . أما بقية اسمه المصرى رع فقد كان يضاف الى أسماء آلهة محلية معينة، مما يكشف لنا أن اسمه المعروف يمثل حقبة ثانية فى تاريخ ديانات وادى النيل » .

عن كتاب الفاىكونت ١. دى روجيه Notice sommaire des monuments

Egyptiens d’Louvre – نشر فى باريس سنة ١٨٧٣ – ص ١٢٠ .

وعلى ذلك فان هذه الديانة سواء أكانت تركز على خرافة شمسية أم على عقيدة أصيلة فى الايمان باله روحى، قد أصبحت مادة ضخمة فى تطوراتها الأخيرة وهو ما يتضح بجلاء لكل دارس للآثار . وقد أورد مسيو ماسبيرو التعليقات التالية فيما يختص بتدهور وانحطاط العقيدة القديمة :

« وعلى مدار العصور ، أصبحت مفاهيم العقيدة غامضة ، بينما ظل مفهوم الألوهية الذى رعاه قدماء المفكرين العقائدين فى مصر القديمة

واضح هنا وهناك في النصوص التي يعود تاريخها الى العصر اليوناني الروماني . وتبرهن العبارات والصفات غير الكاملة على أن المبادئ الأساسية للديانة المصرية ظلت موجودة . وبالنظر الى الكثير من هذه العبارات لم يعد لدينا ما نفعله ازاء الاله القديم غير المحدود والذي لاتدركه الحواس ، ولكننا نجد أنفسنا أمام اله من لحم ودم يعيش على الأرض واكتفى بأن يجعل نفسه مجرد ملك من البشر . ولم يعد هو الاله الذي لا يعرف أحد شكله أو مادته : انه الاله خنوم في اسنا ، والاله حتحور في دندرة ، وحورس ملك الأسرة الالهية في ادفو . وهذا الملك لديه بلاط ووزراء وجيش وأسطول . أما ابنه الأكبر حور حات أمير كوش ووريث العرش فانه يقود الجيوش . ووزيره الأول تحوت مخترع حروف الكتابة فانه يملك في أطراف أصابعه الجغرافيا وفن الخطابة . وهو المؤرخ الملكي والمؤمن على واجب تسجيل انتصارات الملك والاحتفال بها بصوت مرتفع ، وعندما يشن هذا الملك حربا على جاره تيفون لا يستخدم الأسلحة الالهية اننى يجب أن نعتبرها مواهب يمكن أن يوزعها حسب ارادته ، وانما يستدعى رماة السهام والعجلات الحربية ويهبط النيل في سفينته اشراعية بصفته آخر فرعون جديد ، ويوجه المشاة ومرافقي المشاة ويحارب في معارك ذات خطط موضوعة ، ويحمل المدن بواسطة العاصفة ويخضع مصر كلها تحت قهقهيه . ونرى هنا أن المصريين في العصر البطلمي قد أضافوا إلى اله أجدادهم الواحد سلسلة من الملوك والآلهة ، وأحاطوا هذه الأساطير الحديثة بحشد من التفاصيل الخيالية .

عن كتاب : ج . ماسبيرو Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient - نشر في باريس سنة ١٨٧٦ - الفصل الأول ص ٥٠ - ٥١ .

الملحق الرابع

تدوين التاريخ الزمني لدى المصريين القدماء

« لقد ظل تدوين تاريخ الأحداث في مصر القديمة محل نزاع لعدة قرون . فلم تكن لدى المصريين سنة دائرية ؛ ولكنهم أرخوا بسنوات حكم ملوكهم . أما المصادر الأسامية الاغريقية فكانت هي سجلات بطلميوس التي دونت في القرن الثاني بعد الميلاد وقوائم الأسرات التي أخذت عن كتاب تاريخ مانيشون وهو كاهن مصرى عاش في عصر بطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٧ ق م) . وقد أثارت التناقضات الموجودة بين هذه القوائم والآثار ، العديد من الأفكار والأخطاء التاريخية . أما النقاط التي تحدد الأسلوب الرئيسى لمعرفة التاريخ عن طريق الآثار ، فهي غزو قمبيز لمصر سنة ٥٢٧ ق م ، وبداية حكم بسماتيك الأول سنة ٦٦٥ ق م ، وحكم طهرقا حوالى سنة ٦٩٣ ق م ، وحكم بوخوريس حوالى سنة ٧٢٠ ق م ، وتزامن حكم شاشانق الأول مع الاستيلاء على أورشليم حوالى سنة ٩٧٠ ق م . أما المصادر الأساسية الأخرى التي تلقى الضوء على الأجزاء الأخرى من التاريخ فهي اللفائف المدونة عن ثورة سوئيس أو نجم الكلب في أيام تحوتمس الثالث ورمسيس الثانى والثالث والسادس والتاسع . والفترة التي تقدر بأربعمائة عام من عصر رمسيس الثانى الى عصر ملوك الرعاة ، والألواح الجنائزية للعجل أبيس فى معبد السرابيوم ، وقوائم الملوك فى سقارة وطيبة وأبيدوس ، والمرسوم التاريخى المدون فى بردية تورين وغير ذلك من الملحوظات المتعلقة بالأحداث . ولكن لا توجد تواريخ محددة للأسرات انسابقة التي يمكن الاهتداء اليها عن طريق الآثار . أما تلك التي وردت

حتى ذلك الحين فالمفروض أنها لا تمنع فحص مدى صحة الانتقادات التاريخية أو اللغوية ، •

عن كتاب : العالم بيرش : Guide to the First and Second Egyptian Rooms - المتحف البريطاني نشر سنة ١٨٧٤ - ص ١٠ •

ويكفي للدلالة على الاختلاف الواسع في الآراء التي تدور حول هذا الموضوع ، أن نجد علماء المصريات الألمان وحدهم يختلفون فيما بينهم حول تاريخ الملك مينا (أول ملك أصيل في الامبراطورية القديمة) الى المدى التالي :

بوخ	يضع مينا في سنة ٥٧٠٢	ق.م. •
أنجر	يضع مينا في سنة ٥٦١٣	ق.م. •
بروجش	يضع مينا في سنة ٤٤٥٥	ق.م. •
لاوت	يضع مينا في سنة ٤١٥٧	ق.م. •
فيسوس	يضع مينا في سنة ٣٨٩٢	ق.م. •
بنسين	يضع مينا في سنة ٣٦٢٣	ق.م. •

وبالرغم من أن مارييت كان يعرف الحاجة للانتباه الشديد عند قبول أو رفض أى من هذه الحسابات إلا أنه يميل الى الإبقاء على قوائم مانيثون التي تبين تواريخ الأسرات الأربع والثلاثين المدونة - كما يلي :

الدولة الحديثة			الدولة القديمة		
الأسرة	العاصمة	التاريخ (ق.م.)	الأسرة	العاصمة	التاريخ (ق.م.)
١٨	طيبة	١٧٠٣	١	ثيس	٥٠٠٤
١٩		١٤٦٢	٢		٤٧٥١
٢٠		١٢٨٨	٣		٤٤٤٩
٢١	ثانيس	١١١٠	٤	منف	٤٢٣٥
٢٢	بوياسيس	٩٨٠	٥		٣٩٥١
٢٣	نانيس	٨١٠	٦	الفلتين	٣٧٠٣
٢٤	سايس	٧٢١	٧	منف	٣٥٠٠
٢٥	أسرة الفيوية	٧١٥	٨		٣٣٥٨
٢٦	سايس	٦٦٥	٩	هيراكلوبوليس	٣٢٤٠
٢٧	أسرة من الفرس	٥٢٧	١٠		
٢٨	سايس	٤٠٥			
٢٩	منديلين	٣٩٩	الدولة الوسطى		
٣٠	من سابين	٣٧٨			
٣١	أسرة من الفرس	٣٤٠	١١		٣٠٦٤
الدول التللية			١٢	طيبة	"
			١٣		٢٨٥١
			١٤		اكسويس
٣٢	من المقدونيين	٣٣٢	١٥	ملوك الرعاة	٢٢١٤
٣٣	من الاغريق	٣٠٥	١٦		
٣٤	من الرومان	٢٠	١٧		

وتتعارض مع هذه التواريخ ، القائمة الموجزة التي جمعها مسيو شاباس وهي تبين فلسفة ما يمكن أن نطلق عليه اسم قائمة المدرسة الوسيطة لعلم المصريات . وقدمها مسيو م . شاباس « ليس كمحاولة للتأريخ للأنظمة ، ولكن للمعاونة في تبويب الفترات التي من الضروري تحديدها بالتقريب :

٤٠٠٠ ق م	مينا واقامة الدولة القديمة
» ٣٢٠٠	بناء الاهرام الضخمة
» ٢٨٠٠	الاسرة السادسة
» ٢٤٠٠	الاسرة الثامنة عشرة
» ٢٠٠٠	
» ٩	
» ١٨٠٠	غزوة الزعارة
» ١٧٠٠	طرد الرعاة وبداية الدولة الحديثة
» ١٥٠٠	تحوتمس الثالث
» ١٤٠٠	سيتي الاول ورمسيس الثاني
» ١٠٠٠	
» ٧٠٠	شاشاق هازي اورشليم
» ٦٠٠	اسرات سايس
» ٥٠٠	قمبيز والفرس
» ٤٠٠	
» ٣٠٠	الغزو الفارسي الثاني
» ٢٠٠	
» ١٠٠	البطالمة

الملحق الخامس

التاريخ المعاصر لمصر وما بين النهرين وبابل

لقد ظهرت الى النور اضافة شديدة الأهمية الى معلوماتنا عن التاريخ لتاريخ مصر المتزامن مع تاريخ فلسطين وسوريا وما بين النهرين وبابل خلال هذا العام (١٨٨٨) بالاكتشاف العظيم للألواح المسماة التي وجدت في تل العمارنة بمصر . وتتكون هذه الألواح في معظمها من خطابات ورسائل أرسلت الى أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (خو - ان - آتون) (أى أخناتون) من ملوك بابل وأمراء وحكام فلسطين وسوريا وما بين النهرين ، وقد كان بعضها معنونا الى أمنحوتب الرابع (خون - ان آتون) من بورنسا - بورياس ملك بابل الذى عاش حوالى سنة ١٤٣٠ ق.م . وهذه تعطينا تاريخ حياة أمنحوتب الرابع (أخناتون) وحكمه ، وما يترتب على ذلك من التوصل الى التاريخ التقريبي لانشاء المدينة التى نعرفها باسم تل العمارنة وتأسيس عبادة قرص الشمس الجديدة وهى أقدم مقارنة زمنية بين تاريخ مصر القديمة وبعض الدول المعاصرة لها .

ومن هذه الألواح نعرف أيضا أن زوجة أمنحوتب الرابع كانت أميرة سورية وهى ابنة دوشراتا ملك قهارينا (سميت فى الألواح باسم « أرض ميتانى ») فى أعالي الفرات . وللحصول على وصف كامل وعلمى لبعض هذه الوثائق المكتشفة حديثا انظر ورقة الدكتور ارمان التى عنوانها : Der Thantafelfund von Tell Amarna التى قرئت أمام أكاديمية برلين فى الثالث من شهر مايو سنة ١٨٨٨ .

اقرأ في هذه السلسلة

جورج داهموس
بيع معارك فاصلة في العصور
الوسطى

• لينواير تشامبرز
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية إزاء مصر

• جون شندلر
كيف تميش ٣٦٥ يومًا في
السيرة

بيير البير
الصناعة

• خريمال ودية
الكونمينيا الوطنية اهلتي
في الفن التكنيكلي

رسميس عوش
الطب الروس قبل الثورة
الاشيكية ويحيا

• محمد نعمان جلال
يك عدم التحيز في عالم
مفتير

مرانكي ل. باومر
الفكر الأوربي الحديث ٤

تصويكت الأريسي
الفن التكنيكلي المعاصر في
الوطن العربي

• محي الدين احمد حنجر
التيقظة الاسرية والوقاية للصغار

• بلنلى النور
تقنيات التعليم للتكوير

جوزيف كوكرا
مفكرات من الكتب القصص

• جومان ميرختر
سيرة في تكوين كيف تشكلت
واين توجد

• مائة من العلماء الأمريكيين
بمسيرة الدفاع الاستراتيجي
حرب الفضاء

• السيد خليفة
ايرة الصراعات الدولية

• مصطفى عيسى
الميكروكمبيوتر

• مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والصينيين

• مقتنيات من الكتب الياباني
القصر - النوايا - الحكاية -
القصة القصيرة •

بيل شول واينيت
القوة النفسية للأمرام

صفاء خلوص
فن الترجمة

والف في ماطر
تواستوى

فكيتر برومير
ستندل

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من الخفى

فيرنر ميرنبورج
لجزء والك « محاورات في مضمير
للفيزياء الذرية »

سندى هوك
التراث الفاضل • ماركس
والماكسيون

• ع. امينكوف
فن الكتب الروائي عند تواستوى

مادى نعمان الهيلى
كتب الاطفال « فلسفته • ثقوته
وسياطه »

• نعمة ربح العزوى
احمد حسن الزيات كتابا وثقافة

• لندل احمد الطاش
احكام العرب في الكيمياء

جلال العشري
فكرة المسرح

مدرى باروس
القصم

• السيد طيرة
صلى القرار السياسي في
مكتبات الإدارة العامة

• جاكوب برونوسكى
لتطور للصغارى للتعليم

• روجر ستروجران
• ان استطاع تعليم الاحلاق
للأطفال ؟

• كاتى ثير
تربية الدواجن

• ١٠ سنينس
• موتى وعالمهم في مصر
للتيمة

• ناهوم بيترويتس
العمل والطب

برتراند رسل
احلام الامام وقصص اخرى
• راسو نكايارم جابوتسكى
الالكترونيات والحياة المعقدة

• ليس مكسلى
نقطة مقابل نقطة

• ر. فريمان
للجغرافيا في مائة عام

وليمراند وايمان
اللقطة والمجمع

• ج. فوديس و • ج. فيكستر هود
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ •

ليستردير روى
الارض الفاضلة

والتر آلن
لرواية الإنجليزية

لويس مارچاس
لرشد لى فى المسرح

فرانسوا توماس
آله مصر

• • قدرى حلى وكشرون
الانسان المصري على الفاضلة

• راج فرلوك
للمرة مائة الف ليلة وليلة

• مذهب للنحاس
الهوية القومية في ليبيا

• نهيد وايم مكنول
مجموعات القود • ميانتها
كستيفها - عرشها

• عزيز الشوان
داوسيقى كعير نفسى ومطق

• • محسن جاسم للبرسى
مصر للرواية

• ميلان ترماس
مجموعة مقالات نقدية

• جون لويوس
الانسان ذلك للكان الفرد

• جول ريس
لرواية الحديثة • الإنجليزية
والفرنسية

• ميد المعلى شعراوى
المسرح المعاصر
اصله ويديله

• اتور للمدولى
على محمود على الفاضل والاضل

ب. كومان السلطان الإغريقية والرومانية	روي روبرتسون الهيروغليفية والترجمة في المجمع	جابريل بايز التاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة
د. توماس ١٠ هاريس التوافق النصي - تحليل المعاملات الإنسانية لجنة الترجمة الجلس الأعلى للثقافة الدليل للبيولوجيا في روائع الأدب العالية ج ١	دور كامس ماكليوتوك مصور أفريقية ١٠ نظرة على حيوانات أفريقيا	انطوني دى كرسنيس وكينيث مينوج أعلام الفلسفة السياسية الحديثة
روي آرمز لغة الصورة في السينما المعاصرة	هاشم النحاس نجيب محفوظ على الشاشة د. محمود سري طه	نوايت شوين كتابة السيناريو السينمائي
نجاحي متشيو الثورة الاجتماعية في اليابان	بيتر لوري المخدرات حقل نقضية	زافيلسكي ك. س الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)
بول هاريسون العالم الثالث غدا	موريس فيدوروفيتش سبرجيب وإتلاف الأعضاء في ألف اليساء	مهندس إيرامير الأرشاوي أجهزة تنقية الهواء
ميكايل المي وجيمس لفلوك الإقراض الكبير	ويليام بينز الهندسة الوراثية للمجمع	بيتر رداي الخدمة الاجتماعية والأنشطة الاجتماعية
آدامز فيليب دليل التتبع المتكافئ	فيليد البرتون قريبة أسماك الزينة	جوزيف هلمبروس سيرة مؤرخ في العصور الوسطى
فيكتور جورج تاريخ القلوب	أحمد محمد الشولوكي كتب غيرت الفكر الإنساني	س. م. يورا التجوية البيئية
محمد كمال اسماعيل التحليل والتاريخ الأوروكستري	جون د. بورر وميلتون جولدينجر الفلسفة والفن في العصر ٢ ج	د. غانم محمد زرقا مراكز الإعلام في مصر الإعلامية
أبي القاسم الغروي أشاهاتمة ج ٧	أرنولد توينز الفكر التاريخي عهد الإغريق	رونالد د. شيميسون ونورمان د اندرسون التعلم والتفكير والتفكير
بيرتون بورت الحياة الكبيرة ج ٧	د. صالح دغبا ماتج وإشياء في الفن للتفكير المعاصر	د. أنور عبد الله التاريخ المعاصر والفكر
جاك كريس جويبر كتابة التاريخ في عصر التكن للتوسع مشر	م. ه. كنج وآخرون للتفكير في البلدان النامية	وكت وليمان رومست حوار حول التنمية الاقتصادية
محمد فؤاد كوبراس قيام الدولة العثمانية قوى بار	جورج جاموف بداية بلا نهاية	فردي - من هيس توسيط للتصميم
التمثيل السياسي والتاريخيون تاجور، شين بن بلج وآخرون مقالات من الأساليب الأسبوعية	د. السيد طه السيد أبو سنيرة المرافق والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي	جون لويس بوركهارت الغابات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي
ناصر خسرو علوي سفرنامه	ساليو، جاليو حوار حول التلاميذ للرئيسين المكون ٣ ج	ألان كامبيان التفكير السياسي
نادين جويديم فريس أوجوت وآخرون سقوط المطر والصناعات أخرى	أريك موريس وآلان مو الزهاب	سامي عبد المطلب للتخطيط السياسي في مصر بين النظرية والتطبيق
أحمد محمد الشولوكي كتب غيرت الفكر الإنساني ج ٧	سبيل الدريد أشفاقون	فريد موبل وشاندرا ويكراما سينج البلور الكهفية
جان لويس بوري وآخرون في اللغة الميثاقية للفكر	أرثر كيستر للقبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم	حسين حلمي للمهندس براما للشاشة (بين النظرية والتطبيق) السيلماو التليفزيون ج ٢

<p>كريستيان ساليه السيناتورون تي السيميا الفرنسية</p> <p>بول وارن خفيا نظام اللجم الأمريكي</p> <p>جورج مستاير بين تومستوي وبوستوفسكي ٢ ج</p> <p>يانكر لادون الرومانيكية والوالسية</p> <p>محمود سامي حلا اة التليم السيجيلي</p> <p>جوزيف يتس وحلة جوزيف يتس</p> <p>ستاتس جيه سوليمون اتواع القيلم الميريكي</p> <p>ماري ب. ناش السم واليتي والسود</p> <p>جوزيف م. يوجن فن القرعة على الاقلام</p> <p>كريستيان بيروش تويك لجوة الفرعوية</p> <p>جوزيف يتسام موجز تاريخ العلم والمطارد في الصين</p> <p>ايونارد دالني قترية التصوير</p> <p>ت. ج. ه. جيمز كقوز القراة</p> <p>روبولف فون هاييمبرج وحلة الامير ومواف الى الشرق ٢ ج</p> <p>ملكوم براندري لرواية اليوم</p> <p>وايم مارسن وحلة ماركي يواو ٢ ج</p> <p>هنري بيرين تاريخ اوريا في العصور الوعطر</p> <p>بيليد شينير قترية الانب المعاصر وقراءة الشعر</p> <p>اسحق عظيموف العلم والفاق المستقبل</p> <p>رونالد داليد لانج الحكمة والجنون والحماقة</p> <p>كارل بوبر بحثا عن عالم الفضل</p> <p>فورمان كلارك الاقتصاد السياسي للعلم والاكتولوجيا</p>	<p>د. بيارا جوج الانهم في الف عام</p> <p>ستيفن والسيمان الحملات للصليبية</p> <p>ج. واز مصلح تاريخ الاصلية ٤ ج</p> <p>جورستاف جرونيانوم حضور الاسلام</p> <p>د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ وحلة بيراتين لتي مصر والحجاز ٣ ج</p> <p>جلال عبد الفتاح التون ذلك المجهول</p> <p>ارنولد. جنل واسترن الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ ج</p> <p>بادن اوليمود اشرافيا - للطريق الاخر</p> <p>د. محمد زينم فن اللججاج</p> <p>برنسلاف ماليتوفسكي السمر والعلم والفين</p> <p>ادم حقز للمشورة الاسلامية</p> <p>فانس يكارو الهم يصنعون اليشر</p> <p>عبد الرحمن عبد الله الشيخ يوميات وحلة فاسكو دالجا</p> <p>ليانري شاتريمان كواشا الاقصد</p> <p>سوندري للفسفة للجهرية</p> <p>مارتن فان كريفلد حرب المستحيل</p> <p>فرانسيس ج. برجين الاعلام القنديقي</p> <p>عبد مياشر البحرية المصرية من محمد علي للساسات</p> <p>ج. كارفيل فسيط المقاميم للهنسية</p> <p>توماس ليههارت فن اللايم واللباتريم</p> <p>لنوارد مريويو للتكير المتجدد</p> <p>ويليام د. ماثيز ما هي الجيولوجيا</p>	<p>موريس بير يراير صناع الخلود</p> <p>زيجمونت هين جماليات فن الاخراج</p> <p>جوناثان ريلي سميت الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية</p> <p>الفريد ج. بتر للكنايس القبطية القديمة في مصر ٢ ج</p> <p>ريتشارد شاخت رواد الفلسفة الحديثة</p> <p>ترليم زراشدت من كتابه الاصل المفسر</p> <p>الحاج يونس المصري وحلات قرايما</p> <p>مريث ثير الاتصال والهيمنة الثقافية</p> <p>برتراند راسل السلطة والفره</p> <p>بيتر نيكولز للمسيلم الخالية</p> <p>لنوارد ميرى عن الفقد المسيحي الأمريكي</p> <p>نفتالي لويس مصر الرومانية</p> <p>ستيفن اوزمنت للتاريخ من قتي جوليه ٣ ج</p> <p>موني ابراح واخرون للمسيلم العربية من الخليج الى البحر</p> <p>فانس يكارو الهم يصنعون اليشر ٢ ج</p> <p>جابر محمد الجزار مستريخت</p> <p>د. ابرار كريم الله من هم القنا</p> <p>ج. س. فريزد الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج</p> <p>سوريل عبد الملك حنيت للنه</p> <p>من ورائع الاداب الهندية</p> <p>لوريكي تود مدخل الى علم اللغة</p> <p>اسحق عظيموف للشموس القفيرة</p> <p>اسرار السوير توفد</p> <p>مارجريت روز ما بعد الحداثة</p>
---	---	--

روبرت سكرانز وآخرون	ونفره هولر	المسيد نصر الدين المسيد
انفاق ادب الخيال للعظمى	كالت ملكة على مصر	اطلالات على الزمن الاتي
ب. س. ديليز	جيمس هنرى بوسند	منسوح عطه
المفهوم الحديث للمكان والزمن	تاريخ مصر	البرنامج القوي الاسرائيلي
س. هاراد	بول داليز	والامن القومي العربي
شهر الرحلات الى غرب افريقيا	الملائكة الثلاث الاخيرة	ليوبوسكالما
و. بارتولد	جوزيف وهاري فيلمان	الحب
تاريخ التوك في اسيا الوسطى	بيثامية الفيلم	ايور افانس
فلاديمير تيمانين	ج. كونتنو	مجل تاريخ الادب الانجليزي
تاريخ اوربا الشرقية	"حضارة الفايقة"	هيروث ريد
جابريل جاجارسيا ماركس	رست كاسيرو	التربية عن طريق الفن
الجنرال في المساهمة	في المعرفة التاريخية	وليام بينر
هنري برجسون	كنت ا. كلس	معجم التكنولوجيا الحيوية
الفسحة	رسمين الثاني	الفين توفار
مصطفى محمود سليمان	جان بول سارتر وآخرون	تحويل السلطة ٢ ج.
الزلال	م. تارات من المسرح العالم	يوسف شراوة
م. و. ثرنج	روزالند وجاك يانسن	سجلات القرن الحادي والعشرين
شمير المهندس	الظل المصري القديم	والعلاقات الدولية
ر. جزي	نيكولاس ماير	رولاند جاكسون
الحديثون	شراوة هولز	الكيمياء في خدمة الانسان
ستينو موسكاتي	ميجيل دي ليس	ت. ج. جيمر
الحضارات السامية	الفران	احياء ايام الفراقة ١
د. ايرت حوراني	جوسيبى دي لونا	جرج كاشمان
تاريخ الشعوب العربية	موسولينى	لماذا تفسد الحروب ٢ ج.
محمود قاسم	الريز جرايتز	حسام الدين زكريا
الكتاب العربي المكتوب بالترسيه	موتسارت	الطون بروكتر
	على عبد الرؤوف الهمي	ازراف فوج
	مكتبات من الشعر الاسيلى	المعجزة اليابانية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٨١٩/١٩٩٧

ISBN — 977 — 01 — 9895 — 1

صاحبة هذا الكتاب عاشقة لمصر ...

قبل أكثر من مائة عام قدمت إميلي إدواردز إلح مصر مفعمة
بشوق متدفق لرؤية آثار حضارة الفراعنة التي كانت أسرارها قد
بدأت تنكشف رويداً رويداً آنذاك بعد أن توصل العلماء إلح حل
شفرتها. وقد تحلت هذه السيدة بروح جسورة جذابة جعلتها لا تأبه
بتقاليد العصر الفيكتوري المتزمت فلم تتردد في أن تخوض تلك
الرحلة الطويلة عبر صحيف مصر وحتى أعماق النوبة في مركبة نيلية،
وقد احتارت اسم الألف ميل عنوان لرحلتها حتى تشك بطولها.

وبقلمها الرشيق حفظت لنا صورة للحياة في صحيف مصر في
أواخر القرن الماضي وصورت لنا آثارها العاجية.

وقد كانت هذه السيدة من مؤسس «صندوق اكتشاف مصر»
وهي جمعية علمية أثرية اهتمت بتشجيع عمليات التنقيب الأثرية
القائمة على أسس علمية وبدأ ساعدت على أن تهيئ اللنام عن الكثير
من الصفحات المجهولة من تاريخ مصر وحفظ العديد من آثارها كما
إنها ساعدت على إخراج المغامرين من ميدان التنقيب عن الكنوز
المصرية.

وبعد فهذا الكتاب سياحة ممتعة في الماضي البعيد والقريب
وسيرة صاحبه جديرة بأن تكون مصدر إلهام لنا للاهتمام بتاريخنا
وآثارنا.